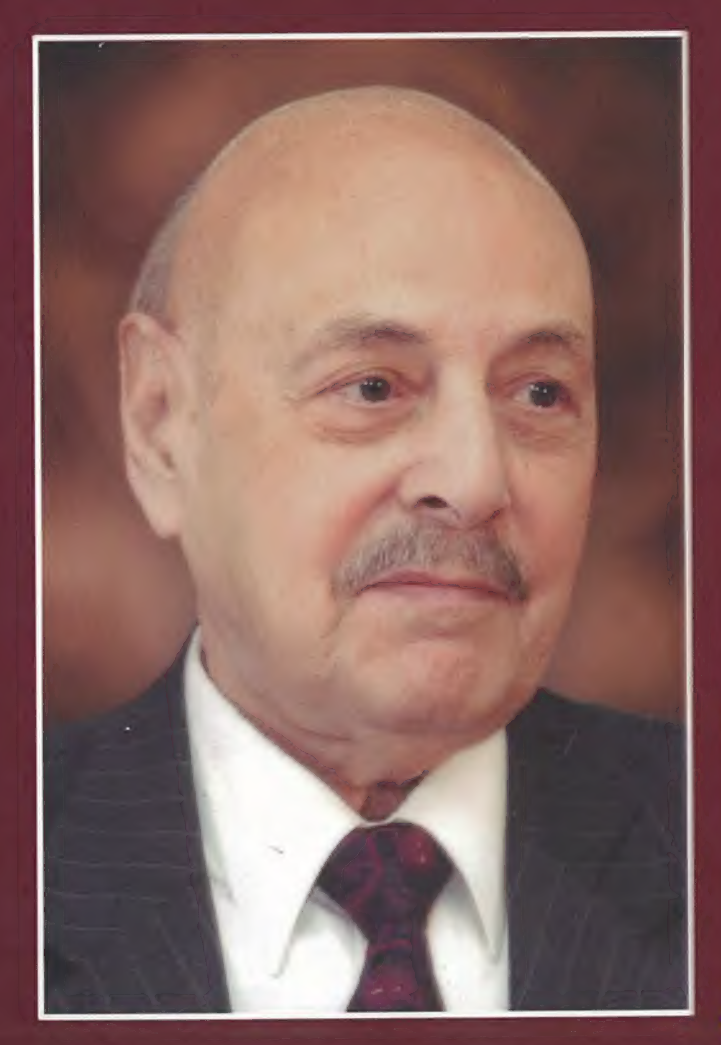
يوسف الفيصل

ذكريات و مواقف





يوسف الفيصل

ذكريات و مواقف

مقدمة الكتاب

بقلم: الدكتور رفعت السعيد
رئيس حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي
في جمهورية مصر العربية

والأمر صعب.. صعب جداً لكنه ليس مستحيلاً

شاخَ الزمانُ، وحلمي جامحٌ أبداً   وكلّما امتدَّ عمري زادَ عصيانا

والآن أجري وراءَ العمرِ منتظراً   ما لا يجيء كأن العمر ما كانا

نعم.. الأمر صعب جداً.

فها أنت ذا يا صديق ويا رفيق الزمان القديم والجديد تقتحم الغابة. الغابة بكل ما فيها من بهاء وخمائل وعصافير جميلة. و..وحوش.

المنتظرون كثيرون، والمتربصون أكثر.

و..

لا يعرفُ الشوقَ إلا مَنْ يكابدُهُ   ولا الصبابة إلا من يُعانيها

ففي زمن أكثر يسراً، وأقل تعقيداً، ومناخ أكثر استقراراً عانيت أنا كتابة مماثلة، وأثار دهشتي أن الآخرين تقبلوها فرحين باحثين عن موضوع جديد اشتاقوا إلى التعرف عليه، وكذلك بعض الأقربين من رفاق الزمن الخالي من تعقيدات الحاضر، أو الأقربين المحدثين الذين يفتحون عيونهم على اتساعها كي يلتهموا تاريخاً ذهبياً، يستحمون عبر بريقه الأخاذ، وينعمون بعطر قد لا أشمه أنا ولا أنت من فرط اعتيادنا.. أما الأقربون المخضرمون أو المختلفون فقد أتوا إلى ساحة القراءة حاملين فؤوساً وسيوفاً.

البعض يُعمل فأسه بقسوة بالغة في صفحات الكتاب وأسطره متعجلاً وبلا تأنٍ، فهو وحده يبحث عن شيء واحد هو اسمه.. ذاته، نصيبه من تلك الصفحات التي يتصورها كعكة يتعين توزيعها ليكون نصيبه هو الأكبر. أليس هو الفارس الأول.. وربما الأوحد؟. أما أصحاب السيوف فقد أقبلوا بعد أن توضؤوا بنيران الاختلاف.

كالنارِ تأكلُ بعضَها   أن لم تجدْ ما تأكلَهْ

يفتشون عن الخطأ قبل الصواب، بل وقد - أقول قد- يصطنعون الخطأ اصطناعاً.

ويتوه القارئ القادم في براءة الجديد غير الملوث بتطاحن الماضي، وندوب الذات المتضخمة بين أقاويل وأقاويل مضادة، ورؤية وأخرى مضادة، وينتهزها الغرباء والخصوم الأصليون فرصة لطحن الجميع، مستخدمين ذات الفؤوس التي قد تكون حسنة النية، والسيوف التي هي دوماً سيئة النية، للتشويش على ما كان، كل ما كان.

لكنني ووفق تجربتي الشخصية أعتقد أن الكتابة الموضوعية فائزة حتماً، وستبقى هذه الكتابة التي تمنحها أنت لنا بسخاء ضمن الكنوز التي يتوارثها ثوار آتون حتماً، يحلمون بغد أجمل، ويؤملون في صناعته.



لكن أمر الكتابة ومدى موضوعيتها مسألة بالغة التعقيد، وربما تزيد تعقيداتها لتقترب من الاستحالة.

فما هو موضوعي تماماً بالنسبة لك يا أبا خلدون، سيجده فرسان كل حدث وكل حديث - أو هكذا يظنون أنفسهم- غير موضوعي، فكل قول يتضاءل أمام ما قالوا، أو حتى ما يدعون أنهم قالوه، وكل فعل كذلك.

و ...

إن نصفَ الناسِ أعداءٌ لمن　　　　وُلّي الأحكامَ، هذا إن تدل

وما هو موضوعي بالنسبة لرؤيتك يجب أن يتوازن أو حتى يتعادل مع قيمة الحدث أو قيمة الحديث عنه، فلقد أرى أنا أو ترى أنت أن حدثاً ما جدير بأن نفرد له كتابة مطولة ومفصلة، بينما يراه مؤرخون كبار، أو كتاب ومثقفون، أو سياسيون متألقون.. غير ذلك.

فعلم التاريخ منذ كان.. كان ولم يزل علماً معقداً، ويحتمل النظر والنظر المضاد، رغم أنه من المفترض أن يكون علم البحث عن الحقيقة القديمة. ولكن أية حقيقة؟ هذه هي المشكلة الأكثر صعوبة.

فمنذ التعريف الصارم والمحير والشديد القسوة الذي وضعه الفلاسفة الإغريق لكلمة «إستوريا» أي «التاريخ» نبت الشقاء في فناء كل كتابة تاريخية .. والتعريف يقول: «إستوريا (التاريخ) هو علم البحث عن الوقائع الجديرة بالمعرفة التي وقعت في الماضي».

وتكمن الصعوبة في كلمتي «الجديرة بالمعرفة»، فما هو جدير بالمعرفة بالنسبة لك ولي ولأمثالنا قد لا يبدو كذلك بالنسبة للآخرين الذين يسابقون الأسطر والصفحات، وربما الفصول، يقلبونها في ملل وتململ باعتبارها تفاصيل مملة وغير ذات قيمة تاريخية، أو أنها مجرد اصطناع مبالغ فيه لبطولات هي ليست كذلك. ناسين أو متناسين أن هذه الواقعة التفصيلية قد تعمدت بدمٍ وعرقٍ وجهدٍ وسجنٍ وتعذيبٍ وشقاء، وتضحية بالهناء الأسري والعمل والمستقبل وربما بالحياة ذاتها.

إنهما عقليتان.. وموقفان، وانحيازان يتناقضان أبداً. ويستعصي على أحدهما فهم الآخر.

وهكذا فإننا نكرس موضوعيتنا نحن، وهي نقيض لموضوعيتهم. دون أن يعني ذلك انقساماً إلى معسكرين متباعدين، فكم من قارئ متمعن وموضوعي تأمل الوقائع بإمعان وارتفعت إلى عقله أسئلة وإجابات عن هؤلاء الذين وهبوا حياتهم من أجل شعب أحبوه، وفكر اعتنقوه. وكم من فتى أو فتاة أغرقوا أنفسهم في بحور الكتابة وأغمضوا عيونهم على خيالات تجسد ما كان مما تقوله الأحرف، وأتوا بعيون تمتلئ دموعاً وعقول تمتلئ شوقاً متسائلين: كيف احتملتم؟ ولماذا احتملتم كل هذا الذي لا يحتمل؟ وكيف يمكننا أن نكون مثلما كنتم؟ لكن ذلك الذي لا يرى في مرآه الصفحات إلا نفسه فإنه قد ينظر إلى أغلى التضحيات على أنها مجرد حماقة لا تستحق أن تذكر، أو أنها محاولة من جانبنا لأن نشوي أصابعنا بالنيران كي نلتقط الكستناء للآخرين.. ناسين أن هؤلاء الآخرين هم شعب ووطن نحبهما، ونعيش ونموت من أجلهما.. أما هو فيعيش من أجل نفسه وحده.



ولأنك اخترت أن تمزج بين تاريخ حياتك وتاريخ حزبك وتاريخ وطنك، فإن الأمر قد احتاج منك جهداً كبيراً، وربما تأنياً ومحاذرة، فها أنت ذا تكتب عن الآخر. ذلك الذي قد يمتدحك ويكيل لك الثناء ويشيد بموضوعيتك إذا تحدثت عن حزبك منتقداً، وحبذا لو تحدثت بقسوة شديدة، لكنه يفقد صبره ويفتقد أية ذرة من الموضوعية إذا ما تلامست معه بأي قدر ولو مخفف إلى حد اللاموضوعية من نقد أو حتى عتاب. فالنقد والأخطاء والخطايا مقرر سلفاً أن تنسب إليك وإلى حزبك، أما أي نقد للآخر فلا محل له، وليس عليك إلا أن تحتمل.. بل وأن تحتقر مثل هذا النوع من اللاموضوعية.

أسرفتُ في الحبِّ، في الأحلامِ، في غضبي	كم عشتُ أسأل نفسي أيْنا هانا
هل هانَ حلمـيَ، أم هانَتْ عزائمُنا	أم أنه القهرُ، كمْ بالعجزِ أشقانا

.. لكننا مكتوب علينا أن نمضي في طريقنا، نشقى بحبنا للفكرة وللشعب وللفقراء، وندفع ثمن ذلك حتى عندما نكتب عن أنفسنا أو عن حزبنا أو عن تاريخنا.

وبرغم أنني لا أزعم القدرة على تفهم - غير سطحي - للواقع السوري عبر الفترة التي تتناولها هذه المذكرات أو بالدقة الذكريات - وهناك فارق بين الكلمتين - إلا أنني إذ مضيت أستمتع بكتابة رصينة ومدققة ومحاذرة مضت أمامي كقطع من نسيج متصل جيد الصنع، جميل النسج، فقد خفق قلبي كطفل شقي وهو يتابع خيطاً ذهبياً يمتزج مع ألوان الطيف المنسوجة معا، ويتألق متمازيا بنضال وتضحيات وأناقة لم تجعل منه نشازا أو منفصلا عن مجمل النسيج، إنه الخيط الذهبي الذي يندمج في النسيج متمايزاً أو حتى متناقضاً لكنه يعطي النسيج بهاء ونقاء، ويمنحه نوعاً من هذا الجمال الأبدي التكوين والإبداع، ولقد يتبدى أنه خيط.. مجرد خيط من خيوط أخرى عديدة بغير حصر، لكنه يتألق وكأن النسيج لا يكتمل بهاءؤه إلا به، أو حتى لا يكون بدونه، وهكذا امتلكت يا أبا خلدون صنعة النسج الذكي والمكتوب، وهي صنعة لا يمتلكها إلا القليلون.



ولكن..

هل تأذن لي بأن أحذّرك، وربما أنذر، بأن الكتابة سوف تستدرجك رغماً عنك.. فإن أحداً لن يقبل منك أن تتوقف عند العام ١٩٦٩، فالمعجبون المبهورون بالكاتب والكتابة والمكتوب، والمتطلعون للتعرف على المزيد والممتد من تاريخ حزبك ووطنك سوف يلحون مطالبين بالاستكمال.. سوف يطاردونك وسوف تطاردك رغبتك أنت الكامنة في ذاتك والتي تتجاهلها وربما تقهرها، في أن تكمل ما بدأت وفاء لحزبك ووطنك، فالمحب الذي يحب حباً حقيقياً مثل حبك لحزبك لا يحتمل أن يكتفي، بل ولا يُقبل منه أن يمنح المحبوب نصف قلبه ولا نصف حبه.

أما أصحاب الفؤوس والسيوف فسوف يتغامزون ويتساءلون في سذاجة ماكرة: لماذا لا يكمل؟ وسوف يصطنعون أوهاماً وتعليلات ستدفعك.. صدقني ستدفعك حتماً - لأنني أعرفك جيداً - إلى أن تواصل الكتابة.

أما أنا فكم أتمنى أن أستمتع بالمزيد.. وأن أتعرف على المزيد كي يتضاعف تقديري ومحبتي لك ولحزبك.

وبعد..

ها أنت ذا قد أوفيت بما تمنيتُ أنا أن أفعل إذ أكتب هذه المقدمة..

قصة هذا الكتاب

بعد وفاة الرفيق موريس صليبي، نشأ لدي شعور بأن الزمن يسبقنا، وأنه لابد من كتابة مذكرات تسلط الأضواء على تاريخ الحزب، ونشأ بعض العزاء لدي عندما سمعت بأن الرفيق ظهير عبد الصمد، يهتم بهذا الأمر ويكتب نوعاً من المذكرات. وأدخل ذلك شيئاً من الراحة إلى نفسي، وبعد وفاة الرفيق ظهير عبد الصمد، حاولت أن أحصل على ما كتبه، وطلبت من أولاد شقيقته الذين يحيطون به، إعطائي هذه المذكرات ومع الأسف لم أحصل على شيء. وحز ذلك في نفسي كثيراً، وشعرت بأن المهمة أصبحت على عاتقي وعاتق الرفيق دانيال نعمة.

وذات يوم قبل أربع سنوات، تحدثت إلي الرفيقة نوال اليازجي، وأبلغتني بأنها تريد كتابة سيرة حياتي وطلبت اللقاء لتبادل الرأي حول هذا الموضوع فوافقت. وكان هذا الطلب حافزاً أولياً، لوضع هذا الكتاب، وبعد بضعة أشهر من ذلك، أتى إلي الرفيق الدكتور أحمد سمير التقي وأبدى نفس الرغبة فأخبرته بنيّة الرفيقة نوال ويبدو أنهما اتفقا على إصدار الكتاب المذكور بشكل مشترك وأخبراني بذلك. الأمر الذي عزز إقدامي على هذا المشوار الطويل الذي سرنا به.

كانت رغبتهما بأن يتم وضع مشروع الكتاب على شكل أسئلة وأجوبة، وأبديت رغبة أخرى، هي أن أكتب المواضيع المختلفة التي أرى ضرورة عرضها، وتتم مناقشة ما أكتبه معهما. واتفقنا أخيراً بأن نلتقي ونتفق على عنوان هذا الفصل أو ذاك، وأتحدث وأعرض ما لدي من وقائع ويتم تسجيله، وبعدها يطرحان علي أسئلة في إطار الموضوع المقترح، وتسجيل الأسئلة والأجوبة. والاتفاق على أن تتم مراجعة الفصول بعد تسجيلها ويتفق على الصياغة النهائية.

عملنا ما يقارب السنة، وعندما انتقلنا إلى مرحلة تفريغ التسجيلات وطبعها، فوجئنا بأن جزءاً كبيراً من جهدنا ذهب أدراج الرياح، فبعض التسجيلات كانت غير واضحة، وبعضها متقطع، وأصبنا بخيبة أمل، ولكننا لم نتوقف، وقررنا البدء من جديد، وبطريقة أخرى، قوامها، أن أكتب الفصل بكامله، على أن أرسل لكل منهما نسخة قبل وقت ثم نلتقي ونناقش، ونطرح الأسئلة بشكل ملموس من ضمن النص المكتوب وأقدم الأجوبة، ونتناقش حتى نصل إلى توافق.

سرنا في هذه العملية شوطاً مهماً. وكنا نحن الثلاثة نلتقي أسبوعياً وندرس النص المقترح، ونناقشه ونضع الملاحظات وندخلها، وكان الرفيق يعقوب كرو مشاركاً في هذه الجلسات في أغلب الأحيان، وساهم في إبداء الرأي بهذه الواقعة أو تلك، وبهذه الصياغة أو تلك.

بعد ما يقارب سنة ونصف بهذا الجهد المثابر، بدأ حضور الرفيق أحمد سمير التقي، يصبح متقطعاً بسبب انشغالاته الكثيرة التي كانت تفرض سفره وغيابه عن البلد، ثم تلاشى هذا الحضور تدريجياً إلى أن توقف بشكل كامل، وتابعت المشوار مع الرفيقة نوال يازجي إلى النهاية.

وهذا الكتاب الذي بين أيدي القراء، تمت كتابة فصوله جميعاً من قبلي وشارك الرفيقان نوال وسمير بتدقيق أفكاره وصيغه، فهو يضم عملياً مذكرات عن حياتي وعملي في الحزب خلال فترة زمنية تبدأ بدخولي الجامعة السورية عام ١٩٤٦ وانتهاء بعقد المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي السوري عام ١٩٦٩، أي قرابة ربع قرن . وهو ليس مذكرات شخصية ولا تسجيل للوقائع التاريخية، بل هو مزيج بين الاثنين.

حاولت في هذا الكتاب عرض تفاصيل عن هذه المرحلة من حياة الحزب الشيوعي السوري، وهي إحدى المراحل الهامة في تاريخه، فهي المرحلة التي نما فيها الحزب وأصبح قوة جماهيرية جدية في سورية، واتسع تأثيره في تطور الأحداث وأخذ يظهر بوضوح كامل.

لقد تخطيت المرحلة الأولى من تأسيس الحزب وظهوره. فهذه المرحلة لم أشارك بها، وكتب عنها كثيرون «جذور السنديانة الحمراء» لمحمد دكروب، مذكرات أرتين مادويان، مذكرات نقولا شاوي. وهكذا يعتبر هذا الكتاب مكملاً لتلك الأبحاث.

طبيعي أنني لم أستطع أن ألم بكل تفاصيل هذه المرحلة وقد اعتمدت في الكتابة على ذاكرتي وما توفرّ لي من وثائق، فالذاكرة مهما كانت قوية، لا يمكن لها أن تحتفظ بجميع الأحداث والمواضيع، وكنت أستعين بالرفيق دانيال نعمة في شحذها وفي تدقيق المواضيع، وساعد في كثير من الأمور، إلا أن القدر، سارع بحكمه على الرفيق دانيال نعمة وفقدناه في عز عطائه. وحاولت الاستعانة بذاكرة عدد من الرفاق القدامى الذين عاشوا هذه المرحلة، الرفيق إبراهيم بكري والرفيق الدكتور مصطفى أمين والرفيق جورج عويشق، وساهموا بقسط ملحوظ في المساعدة. واستعنت في الكتابة بما لدي من أرشيف الحزب، وبالاطلاع على مذكرات عدد من رجالات السياسة في سورية

لذلك أتوجه إلى كل رفيق، يقرأ هذا الكتاب أن يرسل إلي، ما لديه من كنوز الذاكرة، سواء بما أغفل ذكره، أو بما هو تدقيق للوقائع.

وهكذا فإنني أبدأ الخطوة الأولى التي أتمنى أن تتلوها خطوات من رفاق آخرين، عاشوا المرحلة وما بعدها،أن يُقدموا على كتابة مذكراتهم. ومن مجموع هذه المذكرات، سيأتي يوم، يكتب فيه مختصون تاريخ الحزب الشيوعي السوري.

لقد حاولت في هذا الكتاب أن أبين أن تاريخ الحزب الشيوعي السوري، هو حصيلة نضالات جماهيرية واسعة وعدد كبير من الملاكات الحزبية، وليس فقط حصيلة عمل ونشاط أفراد بعينهم، وهو ماينطبق كذلك على جميع الحركات الثورية في التاريخ.

ويضم الكتاب طائفة كبيرة من أسماء الرفاق الذين قدموا كل ما لديهم: شبابهم وحياتهم في سبيل الحزب، ومن الواجب علينا أن نتذكر هؤلاء الذين طوى النسيان نضالهم.

وحاولت أن أبدي رأيي بموقف الحزب في منعطفات مفصلية كالوحدة السورية المصرية، وأن أشير حسب قناعتي إلى الخطأ والصواب، بما في ذلك الانتقاد الذاتي لموقفي من هذا الخطأ أو ذاك، فليست مسيرة الحزب كلها صفحة بيضاء وليست كلها إنجازاً إيجابياً، ففيها الأسود والأبيض والسلبي والإيجابي. ولكن المهم في ذلك، هو الحصيلة الإيجابية الكبرى التي حققها الحزب، ونتيجة للمرحلة الأولى من تاريخه، وارتباطاً بالمرحلة موضوع الكتاب.

وهذا كله جرى، في إطار حرصي على الموضوعية الكاملة، وعدم الانجرار إلى المواقف الذاتية.

إن آلاف الشيوعيين السوريين حتى من كان منهم، في سن الخمسين والستين لم يعيشوا هذه الأحداث، وهم بحاجة لمثل هذا الكتاب لتوسيع معارفهم ولربط حاضرهم بماضيهم، ناهيك عن حاجة جيل الشباب الجدد الذين يطرقون أبواب الحزب إلى وثيقة تاريخية تمدهم بأحوال حزبهم وماضيه المجيد. بخاصة أن هؤلاء جميعاً يسمعون انتقادات وتهجمات على الحزب، ولا يعرفون حقيقتها فلا يستطيعون، بذلك، لها رداً.



الفصل الأول

الطفولة

ولدت في حي كبير من أحياء مدينة حمص. كان يسمى «باب التركمان»، ثم أعطي تسمية رسمية هي «ظهر المغارة». والمنطقة التي كان بيتنا في إطارها عرفت باسم سوق الحشيش، ولكنها الآن لم تعد موجودة، إذ أتت عليها تدابير الهدم والتنظيم.

كان ذلك في ليلة شديدة البرودة يوم السابع من شباط (فبراير) عام ١٩٢٤ . وكان والدي رحمه الله يسجل ولادة كل طفل في الساعة والدقيقة واليوم والسنة حسب التقويم الميلادي. إلا أنه لم يقم بذلك بشأني، ولاأدري ماالسبب؟ ولذلك بقيت سنوات طويلة من حياتي لاأعرف عن ولادتي سوى عام ١٩٢٦ سنة التسجيل الرسمي في دوائر النفوس. وعندما كنت أذهب إلى أوربا أو أشارك في فعاليات مختلفة، كنت أُسأل عن ميلادي، فأجيب أن المسجل رسمياً هو عام ١٩٢٦ . وهكذا حرمت خلال سنوات وسنوات من أن يكون لي عيد ميلاد، أتلقى فيه التهاني. إلى أن قام أخي الأكبر، ظهير الفيصل بتفتيش أوراق والدي، فوجد على دفة أحد الدفاتر الصغيرة، تاريخ ميلادي بالتقويم الهجري وقد سجل والدي: رزقنا بولدنا يوسف ليلة..... سنة كذا. وكان هذا الخبر مفاجأة مفرحة لي وأعطيت صديقين من اختصاصيي الرياضيات: الأستاذ ساسين داود والأستاذ منذر الشمعة هذه الأرقام ليحولاها إلى التقويم الميلادي. وأتاني الاثنان بجوابين شديدي التقارب. أحدهما قال السابع من شباط ١٩٢٤ ، والثاني قال الثامن من شباط ١٩٢٤ . وهكذا ومنذ السبعينيات، وبعد أن مضى أكثر من خمسين عاماً، أصبح لي تاريخ ولادة صحيح وعيد ميلاد. وقررت أن يكون التاريخ ٧ شباط. وهذا التاريخ يتفق مع ماكانت تقوله والدتي، من أن ولادتي تمت في أيام شديدة البرودة، كانت الثلوج تغطي الطرقات، وكانت أيام توتر مع سلطات الاحتلال الافرنسي وبدء الثورة السورية المعروفة بثورة ١٩٢٥ .

كان والدي محمد رشيد الفيصل، من عائلة متوسطة، معروفة في مدينة حمص، بأخلاقها وتعاملها الطيب مع الناس. وقد درس والدي في مكتب عنبر بدمشق، ثم تابع دراسته في جامعة الأستانة (إسطنبول) وتخرج صيدلياً. وافتتح في عام ١٩٠٨ أول

صيدلية في مدينة حمص. وكان أول صيدلي في هذه المدينة. وشغلت الصيدلية إحدى قاعات البيت المطلة على الشارع العام، ثم انتقل إلى مكان آخر، وفي عام ١٩٣٥ استقر في صيدليته المعروفة بحمص باسم «صيدلية الاستقامة» وكان مكانها في مركز المدينة أمام الساعة القديمة والساحة المحيطة بها ويعرفها جميع أبناء حمص وريفها.

في سنوات الحرب العالمية الأولى جُنِّد والدي في صفوف الجيش العثماني في إطار الخدمات الطبية. وكان مسؤولاً عن مستشفى في مدينة «بئر السبع» الفلسطينية، وبعد انتهاء الحرب، عاد إلى مهنته، وبقي يعمل فيها حتى وفاته المبكرة، بعد إصابته بجلطة دماغية.

أذكر من حياة والدي سهره الدائم على عمله، ليلاً ونهاراً، وأذكر أنه كان يلبي طلبات بعض المرضى الذين يطرقون باب البيت في ساعات الليل المتأخرة، يطلبون دواء معيناً، وكان والدي يستيقظ ويلبس ثيابه ويذهب لتلبية الطلب، في عربة سوداء تجرها الخيول. كان شديد الاستقامة في عمله، وشديد الإخلاص لزبنه. وكان العديد من المواطنين يلجؤون إليه لوصف الدواء المفيد لهم، ويثقون به ثقتهم بالأطباء، الذين كان عددهم قليلاً آنذاك.

كان والدي يحرص على التقيد بواجباته الدينية، وكان يتقيد بالأوقات الخمسة، ولايتخلى عن صلاة الصبح في وقتها، ويجلس بعدها، ليقرأ القرآن في مصحف أثري مكتوب بخط اليد، لاأزال أبحث عن مصيره، وأدى فريضة الحج مرتين إحداهما مع والدتي. وقد اكتسب لقب الحاج رشيد الذي ظل يعرف به حتى وفاته، ومن طرائف ما أذكره عنه أن بنات الهوى، عندما كن يركبن عربة تجرها الخيول ويعرضن أجسادهن في شوارع المدينة، يأتين إليه ويطلبن من الحاج قطناً وكحولاً ومطهرات ومواد مختلفة! وكان يرفض مصافحتهن. ويطلب منهن أن يضعن ثمن ما أخذنه بالنقود المعدنية على الطاولة. وبعد أن يغادرن يسكب على هذه النقود كحولاً ويشعله، ثم يجمع النقود بعد أن تكون قد تطهرت.

اهتم والدي، بتربية أبنائه، وحرص على تعليمهم، خلافاً لأولاد عمومتي الذين انغمسوا بالأعمال التجارية وغيرها!

لم يلتزم والدي بأي توجه سياسي، ولكن عواطفه كانت مع الكتلة الوطنية، ولعب ذلك دوراً في انتماء أخي الكبير محمد روحي الفيصل إلى هذا الحزب.

إن عائلتنا تمت بصلة القربى إلى آل الحراكي في حمص، عن طريق جدتي أم أبي. وكان عبد الحميد الحراكي، المربي الكبير المعروف على النطاق السوري، وأول مدير لتجهيز دمشق، خال والدي. كما تمتُ عائلتنا بقرابة إلى آل حاكمي عن طريق جدتي أم

والدتي، وكانت صلات القربى وشيجة مع آل الحراكي، كان لي عم واحد هو الشقيق الأكبر لوالدي الشيخ طاهر الفيصل، وكنا نسكن متجاورين. ومن أبناء عمي المعروفين الفريق جمال الفيصل، قائد الجيش الأول، أيام الوحدة السورية المصرية.

وكانت غالبية أقاربي من آل الفيصل، يعملون في صناعات حرفية، مثل تركيب (طرنبات الماء) على الآبار، وتمديدات الماء، وبيع الأقمشة وأدوات العربيات القديمة ثم السيارات، وبيع الدخان.

وعائلتنا متمركزة في مدينة حمص، ويوجد فرع في دمشق، ومن وجوهه المعروفة المرحوم الدكتور شكري الفيصل، عضو مجمع اللغة العربية والأستاذ والكاتب المعروف، كما يوجد فرع للعائلة في بيروت.

وليس معروفاً تاريخ هذه العائلة تماماً، وما كنت أسمعه من والدي وأقربائي، أن أصولنا من قبيلة يمنية هاجرت واستقرت في مدينة حمص. ومعروف تاريخياً أن أكثر عائلات حمص تعود لأصول يمنية.

تزوج والدي ورزق ولدين، محمد روحي الفيصل وبدريه الفيصل، ولكن زوجته الأولى توفيت مبكراً. وتزوج ثانية من وصفية السعيدي، والدتي وهي من عائلة بسيطة مغمورة، من حي الصفصافة، ورزق والدي منها ثلاثة أبناء هم: محمد ظهير الفيصل، يوسف الفيصل، محمد واصل الفيصل، وثلاث بنات هن: ثريا الفيصل، أسماء الفيصل، روحية الفيصل.

كانت والدتي ككل امرأة في تلك السنين، تلتزم بيتها، وتعتني بتربية الأولاد، وبتأمين الغذاء اليومي. وكانت تعرف القراءة والكتابة، وتقرأ القرآن بسهولة، وكانت ماهرة في فن التطريز بالإبرة، وكانت تلك مهنتها قبل الزواج واستمرت قليلاً بعده، ثم توقفت. كانت حريصة جداً على نظافة البيت، إذ كانت باحة الدار «تشطف» يومياً صباحاً ومساء، وكانت مولعة بالزهور على مختلف أنواعها وقد امتلأت باحة الدار بها مما أضفى على جو البيت جمالاً ورونقاً. عاشت والدتي أياماً صعبة، فقد أصيب ابنها البكر محمد ظهير بكسر في حوضه أقعده الفراش بضع سنوات، وكانت تعتني به كثيراً، وبصفتها خالة زوجة أب، فقد عانت صعوبات جمة، مع أخي الأكبر محمد روحي الفيصل.

كانت والدتي تسهر على دراستنا ويشجعها الوالد باستمرار. وكنا نمضي الليالي على ضوء الكاز لكتابة الوظائف وتحضير الدروس، وتسهر إلى جانبنا حتى ننتهي وتؤمن لنا فراشنا وتطمئن على نومنا!

كانت والدتي مؤمنة وتصلي الأوقات الخمسة، وأدّت فريضة الحج. ولعبت دوراً في غرس بعض المشاعر الدينية في نفوسنا نحن الأطفال. وأذكر أنني عندما كنت طفلاً كنت أصلي، وكنت أصوم مايسمونه (درجات المئذنة) بمعنى أنه مسموح لي بالإفطار قبل الغروب.

إخوتي هم:

أخي الأكبر محمد روحي الفيصل الكاتب والناقد المعروف في سنوات الأربعينيات والخمسينيات، وقد أرسله والدي لدراسة الصيدلة في جامعة القديس يوسف في بيروت، ولكنه لم يكمل دراسته وانغمس في الحياة الأدبية، التي كانت تعج بها بيروت، وكان يكتب في الصحف الأدبية (المكشوف، الأديب وغيرها).

أخي الثاني: محمد ظهير الفيصل، الذي تحدثت عن مرضه في سني الطفولة. وعندما توفي والدي كنت في الصف التاسع الثانوي وكان أخي في الصف الحادي عشر. وفرض واجب تأمين حياة العائلة انصراف أخي إلى إدارة الصيدلية وإعطائها اهتمامه الكامل، الأمر الذي حرمه من إكمال دراسته. وإنني أشعر بواجب الإقرار بأن إخلاص هذا الشقيق وتفانيه في سبيل حياة العائلة، هو الذي مكّن الإخوة الباقين، وأنا منهم من متابعة الدراسة والتخرج. وأستطيع القول إنه حل محل الوالد في العائلة، بتأمين المصاريف وكل ماتتطلبه الحياة الجامعية والدراسية. وقد استمر ذلك سنوات طوالاً.

أخي الثالث: محمد واصل الفيصل، درس الصيدلة وتخرج في جامعة دمشق، وقد نشط في حياته الطلابية وأصبح رئيساً لاتحاد الشباب الديمقراطي، وعمل في عدد من المؤسسات الدولية: كاتحاد الشباب الديمقراطي العالمي، ورأس وفوداً سورية إلى مهرجانات الشباب والطلاب في بولونيا وغيرها. وناضل طويلاً في صفوف الحزب الشيوعي، وأصبح عضواً في اللجنة المركزية ثم في المكتب السياسي. وفي عام ١٩٦٨، أصبح وزيراً للمواصلات لمدة عامين ونصف، وهو حالياً لايشغل أي مركز حزبي، وقد تقاعد عن العمل الصيدلي.

أخواتي:

بدرية الفيصل: وقد تزوجت من ابن عم لنا، اسمه محمد الفيصل، وكان حرفياً ماهراً يعمل في التمديدات الصحية. وقد رزقت أحد عشر ولداً.

ثريا الفيصل: درست حتى الثانوية، وتزوجت من السيد أديب الزهراوي، من أبناء العائلة المعروفة جداً في حمص والتي برز منها المجاهد الشيخ عبد الحميد الزهراوي. وقد رزقت بثمانية أولاد.

أسما الفيصل: وهي الوحيدة التي تابعت دراستها الجامعية، وتخرجت طبيبة من جامعة دمشق، ومارست الطب مدة طويلة، وكانت تعمل في فرع جمعية الهلال الأحمر في حمص، وكانت عضوة في الحزب الشيوعي، وناضلت في صفوفه وسجنت مدة سنتين لنشاطها الحزبي، تزوجت من المناضل الشيوعي المعروف رياض الترك ورزقت بابنتين.

روحية الفيصل: وهي خاتمة العنقود، درست حتى الثانوية، وتزوجت من السيد يوسف الإخوان، التاجر المعروف ورئيس غرفة تجارة حمص لمدة طويلة، وعضو اتحاد الغرف التجارية في سورية. ورزقت بستة أولاد.

لقد كان تأثر أولاد وبنات إخوتي وأخواتي بي قوياً. فقد انضم عدد جيد منهم إلى الحزب الشيوعي، وبعضهم لوحق وسجن. وأغلبهم تابع دراسته الثانوية ثم الجامعية. وبينهم الأطباء والمهندسون والمهندسون الزراعيون والصيادلة والمدرسون واختصاصيو المخابر والحرفيون. وأستطيع القول إن من لم ينل عضوية الحزب، كان متعاطفاً مع الحزب، وهذا كان حال أخي الكبير محمد ظهير الفيصل الذي كان طوال سني حياتنا السرية أنا وأخي واصل وملاحقاتنا وسفرنا خارج الوطن، يقدم لنا كل أنواع المساعدة ويتعاطف مع نضالنا! وعندما كانت أختي أسما سجينة هي وزوجها، أخذ أخي على عاتقه معيشة ابنتيهما. ولم يتعارض ذلك مع إيمانه الديني وقيامه بجميع الفرائض.

لم أعرف في طفولتي أقارب عن طريق والدتي. فإخوتها جميعاً، أي أخوالي، جندوا في الجيش العثماني، وذهبوا للقتال في جبهات مختلفة، ولم يعودوا. ولم أتعرف على جد أو جدة، لا عن طريق أبي ولا عن طريق أمي. وكانت القريبة الوحيدة عن طريق أبي هي عمة لي كانت تزورنا في البيت وكانت طاعنة في السن، وعندما يحين وقت الصلاة كانت تسألنا عن القبلة، ويدور شيطان الطفولة فنحدد لها الشمال بدل الجنوب، وتأتي أمي فجأة وتراها في هذه الحال، فتنهال علينا، بكلمات قاسية ولكنها محببة. وعموماً كانت حياتي وحياة إخوتي يشوبها شيء من الجفاف والعاطفة بسبب هذا الوضع الذي فرضته الحياة على عائلتنا.

الأقارب عن طريق والدتي هم أربع أخوات، وكنت أزور بعضهن باستمرار، وبينهن واحدة، لم تتزوج كانت تسعد بزيارتي لها وتستقبلني للنوم عندها. وكانت تقص علي حكايات مشوقة منها أنها آخت أفعى ساكنة في سقف القاعة التي تنام فيها، وليس هناك من خطر. وكانت تعطيني «خرجية» كلما زرتها.

وكان لي قريب وحيد عن طريق والدتي، وهو ابن خال لي اسمه الشيخ عبد الرحمن السعيدي، وكان شيخاً وقوراً ومتواضعاً وفقير الحال. وكان منتمياً إلى إحدى

الطرق الدينية التي كانت تحيي «الذكر» في زاوية لآل زين العابدين. ومرة أخذني معه لحضور الذكر، وكانت ليلة حافلة لن أنساها أبداً. يبدأ الذكر بقراءة الأدعية ثم يبدأ ذكر الله بوتيرة هادئة وعلى إيقاع محدد، ثم يرتفع الصوت تدريجياً، وتتسارع الوتيرة مترافقة مع موسيقا صاخبة، وتبدأ حالة من الاندماج العميق، ويبدأ من «يأتيهم الحال» بترداد الذكر وقوفاً ويتلوون مع صوت الطبل وبأشكال ترعب الطفل اليافع مثلي، الذي يرى لأول مرة في حياته مثل هذه الصورة.. وتتفرج الأسارير فجأة عندما يدخل الحلقة من ينتمون إلى الطريقة الميلوية ويبدؤون رقصهم المعروف، يحملون على رؤوسهم قلنسوات طويلة من اللباد ويلبسون ثياباً مستديرة مخروطية الشكل تتسع من الأسفل لتضيق عند الخصر، ويدورون على ذواتهم بدقة وانضباط متناهيين، وبحركات تتوافق مع إيقاع الذكر ووتيرته ومع دقات الطبول.

كانت علاقتي بأخواتي حميمة جداً، وكنا نبتدع ألعاباً مختلفة، ونتصارع ونرمي بعضنا بعضاً. وكانت مهمتنا الأساسية شتاء هي تحضير منقل الفحم قبل أن يصل الوالد إلى البيت، وكان علينا إشعال النار وإحراق الفحم كاملاً لكي لاتبقى له أية رائحة ولايخرج منه غاز الكربون، وكانت عملية مسلّية نتسابق لأدائها. ولاتزال صورة العائلة مجتمعة حول المنقل، الوالد بفروته المصنوعة من جلد الخروف، يدخلنا في طياتها واحداً بعد الآخر، لكي نتدفأ أكثر، محفورة في ذاكرتي. وعندما أتى الوالد بمدفأة تعمل على الحطب والفحم الحجري كان ذلك تطوراً كبيراً جداً، ولكن أكثر التطورات إثارة للإعجاب كانت مد الكهرباء إلى البيت والخلاص من «الكاز»ومن ملئه وتنظيفه ومسح بلورة «الكاز» بدقة لكي لا تتكسر وتأمين أعداد وافرة منه لكي نستطيع أن نكتب الوظيفة أو ندرس الدرس.

وبما أنني كنت الأخ الأكبر بالنسبة للأخوات، بسبب مرض أخي، فكان علي أن أتابع ذهابهن إلى الكتاب وعودتهن إلى البيت، وكنت أحياناً قاسياً جداً، عندما أرى إحداهن لاتضع الغطاء الأبيض على رأسها وأبلغ الوالدة بذلك.

أذكر في طفولتي أنني كنت مشاغباً، وكنت أحرص على أن أنال أكثر من إخوتي. وكنت أصر على أن أرافق أبي في سفره وترحاله. ومرة أخذني معه لزيارة عائلات بدوية كان يضع لديها عدداً من الأغنام. وكانت مضاربها منصوبة على شاطىء بحيرة قطينة.. وفي تلك الأيام كانت قرية قطينة وبحيرتها تبعد عن المدينة مسافات طويلة. ولاأزال أذكر أنه لأول مرة في حياتي نمت تحت الخيمة السوداء الطويلة، وتناولت ماكانوا يسمونه «السيالات» وهي خبز مرقوق مغطى بالسمن والسكر... وبقي طعم هذه السيالات لايفارقني خلال سنوات.

وسافرت مرة مع والدي إلى بيروت، وأمضينا يوماً كاملاً في القطار حتى وصلنا إليها، عبر بلدة رياق اللبنانية، ونزلنا في فندق يملكه حمصي من آل الدويري، ويبدو أن الفنادق المتوسطة كانت موزعة على المدن السورية. ولأول مرة شاهدت البحر والمراكب الشراعية، وكنت أقف على الشرفة وأتأمل هذا المد الواسع الأزرق اللون وأتساءل إلى أين يصل، وكنت أعجب بمنظر البحارة الذين كانوا يصنعون خبزهم في مراكبهم. وأسر بصوت صفارات البواخر عند قدومها ورحيلها وأمتع ناظري بها.

في طفولتي كنت مغرماً بتربية الخراف والكلاب. وكنت أعاني إشكالية جدية. فالخروف الذي أسهر على إطعامه وعلفه ونظافته، كان مسموح له المبيت في البيت، يدخل الأبواب ويستقر في زاوية معينة، أما الكلب فحرام عليه دخول البيت، لأن الطهارة الدينية تمنع ذلك. ولهذا كان علي أن أجمع صبية الحارة، لنبني بيتاً للكلبة الصغيرة التي أعجبنا بها لكي تتقي البرد القارس. ولكن بناء البيت يتطلب الماء وأدوات النقل، وكان علي أن أهرِّب ذلك من بيتنا، دون معرفة أمي. ولكنني لم أكن أستطيع الهروب والتخفي عندما أعود، وقنبازي كله وحل، ويداي ورجلاي ملأى بالأوساخ. وكنت أواجه حينها بصراخ عالٍ، فأتسمَّر عند باب الدار، حتى تنزع والدتي كل ثيابي، وتقذفني إلى الحمام.

كنت مع صبية الحي نجول في المدينة، نصل حتى الساقية التي كانت تخترق المدينة، ومرة أولى ثم ثانية، كنا نغوص في هذه الساقية، إلى أن بدأنا نسبح بحرية وكمال... وهكذا تعلمت السباحة منذ طفولتي وبجهدي الخاص وأولعت بها ومازلت.

مازلت أذكر تلك الليلة التي شاهدت فيها في مقهى الحي، «كركوز وعيواظ»، على شاشة مركبة في زاوية، تخفي وراءها نوراً خافتاً، وتتلاحق عبر هذه الشاشة صور الصراع بين الاثنين بتعليقات حميمية تؤثر فينا نحن الفتية الصغار، ويشاركنا الكبار أيضاً، لأنه مامن فرصة لتمضية الوقت أفضل من هذه الفرصة.

بعد أن تجاوزت العاشرة من عمري، بدأت أعجب بكل مايمت إلى القوة، فقد أعجبت بملاكم في حينا كان يبرز عضلاته ويبرز قوته. وتطلعت إلى أن أكون ملاكماً مثله. وحاولت أن تكون لي عضلات مثله ولكن دون جدوى، وأذكر أنني أخذت صورة بوضع الملاكم.

أعجبت برجال الحي ممن يطلق عليهم اسم «القبضايات»، وحاولت تقليدهم بلباس الصاية والشملة السوداء التي كان يتم لفها حول الخصر عدة مرات وبعرض معين. وكنت أتشبه بهم وأضع خنجراً في زناري. وأذكر أنني لبست البنطال لأول مرة،

بعد أن نجحت في امتحان الشهادة الابتدائية «السرتفيكا»، وكان علي أن أنتقل إلى الصف السادس الإعدادي في التجهيز. ولم يكن مقبولاً أن يأتي الطالب إلى التجهيز بلباس عربي، بل عليه لبس البنطال والقميص. كما لم يكن مقبولاً، أن يلبس صبية الحي البنطال لأسباب أخلاقية، ولذلك كنت ألبس القنباز وتحته البنطال، وعندما أتجاوز الحي، أضع القنباز تحت البنطال لأصل إلى المدرسة بالقيافة المطلوبة!

كنت مشدوداً باستمرار لقصص أولئك الثائرين الذين تمردوا على الاحتلال: «نظير النشيواتي وخيرو الشهلة» اللذين حاربا الاحتلال الافرنسي، واغتال أحدهما «خيرو الشهله» محافظ المدينة. وكنت أسمع قصصهما من والدي ووالدتي.

مرة أخذني أخي الأكبر محمد روحي الفيصل إلى اجتماع حاشد للكتلة الوطنية، في فناء دار واسعة، يملؤه مئات الشباب والشيوخ. وكان يشرف على تنظيمه شباب الحرس الوطني بلباسهم الموحد. وشد انتباهي أفراد هذا الحرس، وبت أسأل عن أيام استعراضاتهم لأتمتع بمنظرهم البديع.

أحد مظاهر تمردي أنني لم أكن أعود إلى البيت في الأوقات المطلوبة، فإما أن أتابع اللعب مع صبية الحي، أو أتسكع في الشوارع ومرة قادتني خطواتي إلى إحدى صالات السينما «سينما روكسي»، فوقفت أمعن النظر في الصور المختلفة للمثلين والممثلات بلباسهم الغريب وأجسادهم المكشوفة. ولم أنتبه للوقت وقاربت الساعة الثامنة مساء، وعاد أبي إلى البيت من عمله ولم يجدني، وبدأت الوالدة تصرخ: أين ذهب الصبي؟ ولم يدر أبي ماذا يعمل؟ وإذا بي أفاجأ وأنا مشدود إلى الصور، بأخي الأكبر محمد روحي الفيصل يسألني ماذا تعمل هنا؟ وخفت منه وبكيت... وساقني مخفوراً إلى البيت، وانتهى الأمر (بفلقة) قوية لاأنساها نفّس فيها والدي عن قلقه، وكانت الأولى والأخيرة في حياتي.

في عام ١٩٣٦ شاركت حمص مثل غيرها من المدن السورية في الإضراب الخمسيني الشهير ضد الاحتلال الافرنسي ومن أجل تحقيق الاستقلال الوطني، وكان الإضراب شاملاً وأصبحت المدينة قسمين: قسماً تحت سيطرة الاحتلال، وهو يمتد من مدخل الجامع النوري الكبير، ومدخل الحمام الجديد، والساحة التي تليه، وحتى الساعة القديمة وبناء دار الحكومة القديم والبلدية ومقهى الروضة وماإلى ذلك، وفيه قسم من طريق حماة وشارع جورة الشياح وشارع الحميدية. والقسم الآخر وهو تحت سيطرة القوى الشعبية، ويشمل الأسواق التجارية كلها، وحي الفاخورة ثم الأحياء العميقة في داخل المدينة!

وبرغم أني كنت صبياً في الثانية عشرة من عمره، إلا أنني شاركت لأول مرة في حياتي في ضرب المقلاع ضد جنود الاحتلال الافرنسي، أذهب باكراً إلى خط التماس القائم عند الجامع النوري، وأفرغ طاقتي في ضرب المقلاع، وأعود إلى البيت بعد الظهر، وأبقى حتى اليوم الثاني، فنبدأ بجمع صبية الحي ونذهب للمشاركة في قذف الحجارة. لقد بقي الإضراب مستمراً في جميع المدن السورية، وكانت الشائعات تكثر وتتضارب كل يوم: حدث في دمشق صدامات وضرب بالمدافع!.. وحدثت في حماة صدامات بالأعيرة النارية وهجوم على القلعة، وما إلى ذلك، من وقائع لاندري أكانت صحيحة أم غير صحيحة، ولكننا نتناقلها ونبني عليها مصير اليوم التالي. وانتهى الإضراب، وتشكل وفد من الكتلة الوطنية برئاسة هاشم الأتاسي، القائد البارز في هذا الحزب، ليذهب إلى باريس ويفاوض سلطات الاحتلال الافرنسية، حول الاستقلال. وبعد نهاية الإضراب، وإعلان فتح الأسواق التجارية، أعطاني والدي مفاتيح الصيدلية، لأفتحها وأخبره بمصيرها، إذ سرت أخبار بأن المرتزقة من جنود الاحتلال، قد سرقوا المتاجر المختلفة ونهبوا مافيها.

وعندما وصلت إلى الساحة، عند الصيدلية، رأيت الجنود الفرنسيين على خيولهم، وكانوا يسمونهم الششان يملؤون الساحة أمام الصيدلية مباشرة. وترددت وتسرب شيء من الخوف إلى نفسي، ولكنني أقدمت واخترقت صفوفهم وفتحت باب الصيدلية، ووجدت القفل لم يكسر، ودخلت وأدرت ناظري داخل الصيدلية، فإذا كل شيء كما هو. وفجأة اكتشفت أن الباب الخلفي مكسور، وشاهدت بعض الفوضى في القسم الخلفي، الذي كان أشبه بالمخبر، وتطلعت إلى الجارور الذي كان الوالد يضع فيه أثمان الأدوية التي يبيعها فوجدت أنه قد نهب! ويبدو أن الخوف من أثر هذه الزجاجة أو تلك أو هذا الدواء أو ذاك، ومن حدوث تسمم أو غيره!.. قد حال دون أخذ الأدوية المختلفة. ومعروف أن الصيدلية، في تلك الأيام، كانت تعتمد على تركيب الأدوية وصنع الحبوب وخلط الشرابات. وكانت المواد المستحضرة نادرة جداً. واستغرقت مهمتي مدة ساعتين تقريباً، أغلقت في نهايتها الباب الخلفي مجدداً بقفل جديد، وعدت إلى البيت وقدمت تقريراً للوالد عن إنجاز المهمة التي كلفني بها، وكنت بذلك في غاية السعادة.

الدراسة الابتدائية:

بدأت الدراسة مبكراً، ويعود ذلك لحرص والدي على تعلم جميع أولاده إناثاً وذكوراً.

أمضيت أيام طفولتي في «كتّاب» تشرف عليه امرأة اسمها الشيخة ناجية الحداد. وكان عليَّ أن أتعلم قراءة القرآن، وأن أكتب بعض الكلمات. ولكن روح المشاغبة المبكرة، حالت دون ذلك، وكنت أحاول تمضية الوقت باللعب، مما أغضب الشيخة وعاقبتني بوضعي في غرفة الحطب، وكان ذلك أول سجن أواجهه في حياتي. وبدأت أصرخ وأبكي بصوت عالٍ جداً، مما أثار سخطها فتناولتني ورمتني في الباحة الخارجية.

ونتيجة هذا الظلم الذي لحق بي، نقلني والدي إلى كتَّاب آخر، لدى الشيخ الشراشفي، وكانت الأمور هنا أكثر انضباطاً. وعند هذا الشيخ بدأت بالانكباب على قراءة القرآن واتقان الكتابة. وكنا نحمل دواة بالحبر الأزرق، لها طرف طويل، نضعها في زنار الثياب، وأحياناً يسقط حبرها على الثياب، فننال قسطاً طيباً من «البهدلة» في البيت.

ثم نقلت إلى كتَّاب ثالث لدى الشيخ شاكر المصري، وكان قرب صيدلية والدي. وأذكر أنني استفدت منه كثيراً، وكان يهتم بتربيتي وتعليمي، لصداقته وجواره بالوالد.

قضيت الدراسة الابتدائية في «المدرسة الخيرية الإسلامية»، التي تحولت فيما بعد إلى الميتم الإسلامي. كان مديرها ضابطاً سابقاً في الجيش العثماني اسمه عبد الله التاجي، وكان إدارياً جيداً، وله هيبته، وكان يضبط الطلاب بشكل جيد.

المعلمون الذين درست على أيديهم، كانوا من خيرة المثقفين في مدينة حمص. أحمد نورس السواح، معلم التاريخ الذي ترك أثراً بالغاً في تربية مشاعري الوطنية، وذلك بسبب عرضه الشيق والوطني للتاريخ، وتأكيده الدائم للروح الوطنية. وأصبح فيما بعد صحفياً يملك صحيفة «السوري الجديد» التي كانت تصدر في حمص.

محيي الدين الدرويش: معلم اللغة العربية، الذي كان متفوقاً في الأداء والذي علمنا القواعد والنحو وما إلى ذلك. وكان شاعراً معروفاً في حمص وعلى النطاق السوري.

فؤاد خوري: معلم اللغة الافرنسية، وهو من لبنان، وكنا على تنافر معه، لأننا لانريد دراسة هذه اللغة الاستعمارية. ومرة أجرى لي فحصاً في الإملاء، وكتبت عشرين كلمة، وجد فيها سبعة وعشرين خطأ، وكانت النتيجة شَدّة أذن مؤلمة، وشدة شعر أكثر إيلاماً، وعدداً من الضربات على كفيَّ.

رفيق فاخوري: معلم الإنشاء... وكان بلطفه يملك علينا حواسنا، وكان يستخدم أساليب مشوقة لكتابة الجمل المتينة والصحيحة. وقد ترك في نفسي أثراً لتواضعه وقربه من قلوب التلاميذ.

وكان معلم الحساب نعيم مراد، شاباً أنيقاً، يلبس أفخر الألبسة ويحرص على هندامه، وحذاؤه كان عالي الكعب قليلاً، وعندما يأتي إلى الصف كان صوت خطواته

تطرق أسماعنا. وعندما يخرج إلى الشارع، كان يلبس طربوشاً مائلاً قليلاً، ويسبغ عليه حلة شيقة.

تلقّيتُ أوّل دروس الوطنية في هذه المدرسة. فكان علينا صباح كل يوم تحية العلم السوري، ذي النجوم الحمراء الثلاثة. وكانت مدرستنا على بعد بضعة أمتار من الثكنة العسكرية الافرنسية (المكان الذي تشغله حالياً دار الحكومة). وكانت فرصة لنا عند الخروج أن نتزود ببعض الحجارة لنقذف بها جنود الاحتلال، وكانوا يردون علينا بقذفنا بالبيض. وشاركت لأول مرة في تظاهرة عندما خرجنا من المدرسة وسرنا في شوارع المدينة، وكان المتظاهرون ينشدون أناشيد وطنية، تعلمناها فيما بعد وحفظناها:

يـــاظلامَ الســـجن خـــيِّمْ	إننـــــا نهـــــوى الظلامـــــا
بــــلادُ العـــربِ أوطــــاني	مـــــنَ الشــــامِ لبغــــدان

إلى جانب أهزوجات مثل:

ديغـــــول خبِّـــــر دولتـــــك	بــــاريز مــــربط خيلنــــا

لقد كنت تلميذاً عادياً، أتابع الدروس التي تعجبني وأهمل الدروس الأخرى. ولهذا كنت مولعاً بالتاريخ والإنشاء، ولم أكن مولعاً بالحساب واللغة الأجنبية. ومع ذلك نجحت في دراستي ووصلت إلى امتحان السرتفيكا.. وصباح يوم الامتحان ألبستني والدتي معطفاً جديداً وطربوشاً، ووضعت في جيبه الداخلي لفافة ورق، وأصرت على أن لاأرمي أو أفتح هذه اللفافة فامتثلت لأمرها، ولكنني بعد انتهاء الامتحان أعدتها لها وتلهفت على معرفة السر. وأجابتني بأن هذا «حجاب» من الشيخ الفلاني ليساعدك على النجاح! وقد نجحت في الامتحان ونلت الشهادة التي كانت مرموقة في أيامنا، ولم يعد لها وجود الآن.

عندما نلت السرتفيكا كنت أولع بالملاكمة والسباحة، وبشباب الحي ذوي الشوارب المفتولة، وترك ذلك في نفسي صراعاً لم يمكن حسمه إلا عند بدء الدراسة الإعدادية، وتعرفي على رفاق كان لهم أثر كبير في حياتي، فعن طريقهم انتسبت إلى فرقة كشفية، ومن صفوف هذه الفرقة تحولت إلى النشاط الفكري والسياسي، وأصبحت بين ليلة وضحاها عضواً في الحزب الشيوعي، وبقيت كذلك طوال حياتي.

الدراسة الإعدادية والثانوية

بعد نجاحي في السرتفيكا سُجِّلتُ في تجهيز حمص في الصف السادس، كما كان معروفاً في حينه، وهو الأول الإعدادي آنذاك. وأمضيت سنة واحدة، قام والدي بعدها بنقل تسجيلي إلى الكلية الأرثوذكسية، المعروفة حالياً باسم المدرسة الغسانية.

في هذه السنة التي أمضيتها في التجهيز تعرفت على الكثير من الطلاب وأصبح لي بينهم أصدقاء. وكان أقربهم إليَّ عدنان البني وعبد الحكيم عبد الصمد ومحمد المعصراني وعبر هذه الصداقة تعزز تحوّلي نحو الأفكار الشيوعية، وخلال هذا العام، تقرر مصيري الذي عشته حتى الآن والذي سأكمله حتى نهاية حياتي.

شدني إلى عدنان البني، ماسمعته من أخي الأكبر محمد روحي الفيصل، من أحاديث حول الشهيد عبد الباسط البني، الذي حاول برفقة أكرم الحوراني، اغتيال صبحي بركات رئيس مجلس النواب الموالي للسلطات الافرنسية، ولم يطاوعه المسدس مما أدى إلى مبادرة حرس صبحي بركات لقتله. وكان أخي على صداقة قوية مع وصفي البني الأخ الأكبر لعدنان، والذي أصبح أديباً ماركسياً معروفاً ووجهاً بارزاً في الحزب الشيوعي السوري.

عبر هذه الصداقة أصبحت عضواً في فرقة كشفية اسمها فرقة العدنانية، وتوسعت معارفي، عبر المحاضرات الأسبوعية التي كانت تنظم. أصبحت بعد ذلك عضواً في الحزب الشيوعي في مدينة حمص. وذهبت أول ماذهبت برفقة عبد الحكيم عبد الصمد، إلى عيادة طبيب الأسنان نسيب الجندي، وحضرت أول اجتماع شيوعي، تحدث فيه، كما أذكر، رفيق من حي الحميدية اسمه نديم جنب، وبحضور رفيق آخر من نفس الحي اسمه توفيق شوحي. وهكذا بدأت خطواتي الأولى من مسيرتي الطويلة في الحزب الشيوعي السوري، وتراجعت الأحلام التي كانت تشغل بالي، في الملاكمة، والتشبه بقبضايات الحي وما إلى ذلك!.

نقلني والدي من التجهيز بسبب كثرة الإضرابات والتظاهرات، وحرصاً على أن تتم دراستي بشكل جيد. وشجعه على ذلك أن الكلية الأرثوذكسية تدرّس المواد العلمية باللغة الافرنسية، مما يساعد على اكتسابي هذه اللغة.

في الكلية الأرثوذكسية، تعرفت على شباب أصبحوا أصدقاء لي، وكنا نجلس باستمرار على نفس المقعد، عبد الحليم مهير السعدي الذي هاجر إلى كندا وأصبح أستاذاً في جامعة مونتريال، وإميل صليبي وإحسان سركيس اللذين توفيا. وقد شكلنا فيما بعد فرقة حزبية في الكلية.

من أساتذتي الذين أحفظ لهم الذكرى الطيبة والحسنة في قلبي: إحسان حصني، بترو بنّوت، أنطوان مقدسي، راتب الحسامي، وكانوا جميعاً يحملون توجهات وطنية ويسارية. وعرفت فيما بعد أن بعضهم كان عضواً في الحزب الشيوعي مثل بترو بنوت، أستاذ الرياضيات. وكنت أتابع باهتمام دروس الأدب الافرنسي التي يقدمها الأستاذ أنطوان مقدسي، ونشأت بيننا صداقة، تابعتها في دمشق بعد انتقاله إلى العاصمة.

واستمر يعمل في وزارة الثقافة مسؤولاً عن النشر[1]. ودرست اللغة العربية على يد الأستاذ جرجس كنعان، مدير الكلية ومؤلف كتاب الأدب العربي، وبعده درست على يد الأستاذ حنا نمر.

كانت الدراسة صارمة في الكلية، وكان الناظر المعلم بديع قاسياً جداً. أمضيت الصفين السابع والثامن بشكل طبيعي، ولكن الصف التاسع كان مربكاً. ففي هذا الصف أصبحت متقدماً حزبياً وكان عليّ أن أتابع التظاهرات والاجتماعات، مما أدى إلى بعض الغياب، كانت نتيجته الفصل من الدراسة ثلاثة أيام، وهكذا نلت أول عقوبة على عملي الحزبي.

في الصف التاسع، كانت دراستنا مختلطة، وكان معنا خمس فتيات هن: ماري صراف، سعاد مرهج، سعاد لطوف، سهيلة ذكية، طلعت خانكان. وكن يضفين على الصف بهجةً وحيوية، وكانت بعضهن تتمتع بجمال أخاذ وبقينا معاً حتى الصف الحادي عشر وفحص البكالوريا الأولى، حين افترقنا، ولاأعرف عن مصيرهن سوى أن اثنتين هاجرتا إلى الأمريكيتين هما سعاد مرهج وماري صراف، وأن سهيلة ذكية، تزوجت وزير الخارجية الأردني، عبد الله الريماوي، وهي مقيمة في عمان، وقد قرأت خبر وفاتها في جريدة «البعث».

أثناء دراستي الإعدادية والثانوية، كان جل وقتي خارج ساعات الدراسة، أصرفه في العمل في الصيدلية، وكنت أعرف قراءة الوصفات وتركيب الأدوية وصنع الحبيبات والمراهم. وأحياناً كان والدي يتركني وحدي ويذهب إلى الصلاة، وكنت أقوم بواجب البيع والشراء كما يجب. كنت مشتركاً في جريدة «صوت الشعب» وكنت أنتظر موزع البريد ليحمل لي عدد الجريدة، وأقرأها كاملة. وكنت أتركها في الصيدلية لمن يريد الاطلاع.

كانت أيام دراستي الإعدادية والثانوية صاخبة، وكنت نشيطاً في أكثر من ميدان. تقدمت في الفرقة الكشفية وأصبحت مسؤولاً، وشاركت في رحلتين كشفيتين: الأولى على الدراجات إلى بعلبك، وكانت رحلة من أجمل ماأذكر، وكنا ننام في البراري ويحرس بعضنا بعضاً، وعند وصولنا إلى بعلبك، استقبلنا وجيه من آل الرفاعي، وأقام لنا وليمة كبيرة، وزرنا خلال الرحلة الهرمل ونبع العاصي.

أما الرحلة الثانية فكانت إلى دمشق لحضور أول استعراض أمام رئيس الجمهورية شكري القوتلي، الذي انتخب في عام ١٩٤٣. وكانت الرحلة بالقطار من حمص إلى دمشق، عبر مدينة رياق. ولاأزال أذكر تلك المناظر الخلابة في الزبداني وغيرها وفروع

---

[1] توفي أنطوان مقدسي في عام ٢٠٠٤.

بردى التي تسيل راكضة نحو مصيرها، وقد بتنا في دمشق، في مدرسة التجهيز على طريق بيروت، وأعطيت فرقتنا قاعة لتنام فيها. وفي اليوم الثاني حضرنا عرضاً (عسكرياً) شارك فيه الكشافة السوريون من مختلف المدن وبعض رجال الشرطة والدرك، وقدمنا التحية لرئيس الجمهورية الجديد.

لاأزال أذكر المخيمات العديدة التي كنا نقيمها على ضفاف العاصي أيام الصيف، ونمضي الأيام في السباحة وفي التعرض لأشعة الشمس. كما أذكر تلك السهرات المشتركة التي كانت تنظمها الفرقة أيام الشتاء، ويتم فيها العديد من الألعاب المسلية والنكات العديدة. وأذكر أن أحد أفراد الفرقة ممن هم أكبر سناً، واسمه أبو العباس، كان نجم السهرات والقفشات والنكات. وكان يتم تنظيم السهرات بالتناوب، وكان على من يقع عليه الدور، تحضير صدر من «الكنافة العثملية» والفواكه، لتكون مسك الختام في السهرة.

المهم في الحياة الكشفية، إضافة إلى هذه الروح الجماعية المشتركة، تعلم مبادىء الانضباط والنظام واحترام التراتبية، وتكوين الصداقات الأخوية، وتعلم الخشونة وشظف العيش، منذ الصغر. فالحراسة الليلية، أمر مهم جداً، وكانت منضبطة، وتتم بالتناوب، وكانت قضية جدية بالنسبة ليافعين في سن الثالثة عشرة أو أكثر أو أقل.

كانت أيام دراستي الثانوية ملأى بالنضال الحزبي. فقد تطور عمل الحزب وأصبح نشاطه واسعاً، وتقدمت وأصبحت مسؤولاً طلابياً.

في تلك المرحلة أوائل الأربعينيات، برز في سورية تحرك سياسي نشيط. فقد أخذت صفوف الحزب الشيوعي تتسع، بتأثير النشاط الفعال لأعضاء الحزب، وكذلك بتأثير إشعاعات الوضع الدولي، وخاصة التحول الذي طرأ على مجريات الحرب العالمية الثانية، إذ استطاع الجيش الأحمر، أن يصمد في معركة ستالينغراد وينتزع الإعجاب الجماهيري، ويتحول من الصمود إلى الهجوم ويطوّق القوى النازية الألمانية التي كانت تدق أبواب هذه المدينة وتحاول تجاوز نهر الفولغا. مأثرة ستالينغراد قررت عملياً مصير الحرب العالمية الثانية وأعلنت أول مؤشر لانتصار الاتحاد السوفييتي على الوحش الهتلري والتحالف الفاشي الألماني - الإيطالي. وكنا نحن اليافعين نتابع معركة ستالينغراد باليوم والساعة، وننام ونستفيق على ضربات مدافعها.

وفي هذه المرحلة بالذات، بدأ في سورية نشاط جماعة الإخوان المسلمين، وكان هذا النشاط بارزاً في مدينة حمص، فقد عاد الشيخ مصطفى السباعي من الدراسة في جامع الأزهر في القاهرة، وأصبح المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية. وكان والده إمام الجامع النوري الكبير في المدينة، وخطيب يوم الجمعة. وأخذ الشيخ

مصطفى السباعي يحل محل والده في الخطابة والإمامة، وهو الخطيب المفوه، ويباشر دعاية واسعة ضد الشيوعية. وأدى ذلك إلى احتقان واسع، وإلى صدامات شبه يومية بين الشيوعيين والإخوان المسلمين. وكان من نتائج هذا الاحتقان محاولات مهاجمة بيت الشيخ الجليل رفيق البني، والد وصفي البني والدكتور عدنان البني، ومحاولة حرقه بمن فيه. وتكررت هذه المحاولة أكثر من مرة، إضافة إلى رمي البيت بالحجارة. كما كان من نتائج هذا الاحتقان، الاستفزازات المستمرة التي كان يقوم بها شباب الإخوان المسلمين للشيوعيين وأصدقائهم. وكانت تجري معارك في شوارع المدينة، ينجو منها من ينجو، ويصاب من يصاب. وكانت أخطر حادثة وقعت نتيجة مجمل هذا التطور هو محاولة هجوم شاب من آل الحراكي، على محل لبيع الأقمشة يملكه شيوعي.. وذلك في سوق التجار، وأدى الأمر إلى قيام صاحب المحل بالدفاع عن نفسه، واستخدم مسدساً كان يضعه للحماية، وسقط الشاب المهاجم قتيلاً. وتطورت الأوضاع في المدينة تطوراً خطيراً، وكان من يقع من الشيوعيين بين أيدي الشباب الهائج للإخوان المسلمين يكون مصيره القتل. وكان علينا نحن الشباب الشيوعي أن نبتعد عن المجابهة مؤقتاً لتهدئة الأوضاع. وجمعنا أنفسنا بضعة شباب، وغادرنا إلى السلمية، ومنها إلى مصياف، وكان مرشدنا زهير البني، بصفته يعمل في التجارة ويعرف كثيراً من الفلاحين الذين يشترون حاجاتهم من متجر والده. قطعنا المسافة من السلمية إلى مصياف، ولكن آمالنا لم تتحقق، فلم يستقبلنا أحد ولم يجد مرشدنا من نلوذ به. وأصبحنا في وضع صعب، لانحمل مالاً لشراء الطعام وأخذت لحانا تطول، مما جعل منظرنا غريباً. والشيء الوحيد الذي حصلنا عليه أن أحد المحسنين سمح لنا بالبقاء في بيته. وفتشنا في الغرفة التي جلسنا فيها، فوجدنا عدداً من شفرات الحلاقة القديمة والصدئة، وعملنا على سنها وتشذيبها، وبالكاد استطعنا حلق لحانا الطرية. وبعد يومين، وصلنا إلى استنتاج أنه لابد من العودة، وعاد كل منا إلى بيته وأهله.

وبعد أسبوع قررت الخروج إلى الشارع، وتلاقيت مع باقي الرفاق، وحملت سلاحاً قاطعاً، كي أرد عن نفسي أي هجوم مفاجىء. ولكن لم يقع شيء وهدأت الأمور في المدينة، وعدنا أدراجنا نجلس في المقهى المحبب إلينا، مقهى الدبلان، وهو في الطرف الغربي من المدينة، وعادت حياتنا إلى طبيعتها.

كان الصراع الأيديولوجي، يمتزج بالصراع الطبقي. وكانت منظمة حمص، نشطة في سنوات الأربعينيات في القضايا العمالية. وأبرز نشاط لها كان في نقابة عمال النفط، وعن طريق العمل النقابي انتسب إلى الحزب عدد من العاملين في هذه الشركة، وأبرزهم جميل عثمان، الذي أصبح فيما بعد أحد القادة النقابيين. وشارك

عام ١٩٤٥ بوفد نقابي إلى باريس برفقة الرفيق إبراهيم بكري لحضور المؤتمر التأسيسي لاتحاد نقابات العمال العالمي. وكان الحزب نشطاً بين عمال النسيج والبناء والنجارة وفي ميادين أخرى.

وكان النضال ضد كبار ملاكي الأرض أحد أبرز الجوانب في حياة منظمة حمص في تلك الفترة. وقد شاركت في أكثر من جولة فلاحية في ريف حمص الشرقي، وكان مسؤول الجولة، الرفيق المرحوم بدر الدين السباعي، واستطاع الحزب أن يجند جماهير الفلاحين للنضال في سبيل الأرض وفي سبيل حقوقهم. وكانت نضالات فلاحي قرية المشرفة من أبرز هذه النضالات.

نشط الحزب الشيوعي السوري في المجال السياسي، وخلال الحملات الانتخابية، دعم بقوة نشاط أحد القادة السياسيين في المدينة الأستاذ هاني السباعي، الذي شكل في حينه وعلى نطاق المدينة ماسمي «الكتلة الديمقراطية». وكان عضواً في حزب الشعب ولكنه يرتبط بجذور شعبية. وفي إطار هذا النضال نشأت حالة استياء وغضب لدى عائلة الأتاسي، التي كان لها مرشحان للمجلس النيابي: فيضي الأتاسي الذي أصبح وزيراً للخارجية وحلمي الأتاسي، وقام شباب الأتاسي، بمهاجمة الشيوعيين، وخاصة في مقهى الدبلان، حيث كنا نقضي أوقات الفراغ، ودخلوا حديقة المقهى بالعشرات، واستخدموا الكراسي والعصي، ونشبت معركة بالأيدي، انتهت بمغادرة المهاجمين.

كان اهتمام الحزب بالمرأة واسعاً ذلك الحين، وكان جذب النساء للعمل السياسي، أمر هام جداً، في مدينة لم تعتد على ذلك. ونظمت النساء تظاهرات في المدينة، فهاجمتهن الشرطة بقيادة المفوض أبو شمسو، واعتقلت بعضهن ورمينهنَّ في سيارة الشرطة. ومن أبرزهن الرفيقة سلمى البني والرفيقة آمنة السباعي. وقد أفرج عنهن مباشرة. وكانت توفيقة شوحي من الناشطات.

كان قادة الحزب في منظمة حمص الرفاق: الدكتور نسيب الجندي، ظهير عبد الصمد، موريس صليبي، نوري حجو الرفاعي، بدر الدين السباعي، أنور حداد.. وغيرهم. وقد بذلوا جميعاً جهوداً كبيرة، لاتنسى، في سبيل رفعة الحزب وحسن أدائه وتطوير نضالاته. وكان هؤلاء الرفاق موضع الاحترام والتقدير من الجماهير الشعبية والقوى السياسية والمنظمات الاجتماعية المختلفة.

في عام ١٩٤٥ عندما أعلنت ألمانيا النازية استسلامها أمام الجيش السوفييتي وجيوش الحلفاء، أقامت سلطات الانتداب الزينات في المدينة. وبهذه المناسبة نظمت منظمة حمص احتفالاً جماهيرياً واسعاً في مقهى الروضة، تحدث فيه خالد بكداش وخطباء آخرون،

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها خطاباً للأمين العام للحزب خالد بكداش وأراه شخصياً. وبعد انتهاء الاحتفال وخروج المدعوين أخذ الدكتور نسيب الجندي بيدي، وقدمني لخالد بكداش بصفتي مسؤولاً طلابياً نشيطاً.

كان النضال خلال سنوات الأربعينيات جذاباً، وكان مليئاً بالمعارك المختلفة، وكنا نحن الشيوعيين الشباب نقدم على هذه المعارك بحمية وحماسة، ولم يكن بين أيدينا كتاب تثقيفي، والكتاب الوحيد الحزبي الذي قرأته في هذه الفترة كان بضعة أجزاء من تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي. ولم يكن هذا الكتاب قد أنجزت ترجمته إلى العربية، لذلك طبع بأجزاء صغيرة، لتسهيل تناول حمله ودراسته.

ولكنني انكببت على الدراسة والثقافة العامة، وأخذت أنهل من مكتبة أخي الكبير: فجر الإسلام وضحى الإسلام، وكتب أخرى. ولاأزال أذكر أنني تناولت كتاب نيتشه «هكذا تكلم زرادشت» وحاولت الغوص فيه، كما حاولت الغوص في كتب عبد الرحمن بدوي.

قدمت امتحان البكالوريا الأولى في عام ١٩٤٤ ونجحت فيه من الدورة الأولى. وانتقلت دراستي بعد ذلك إلى مدرسة التجهيز، التي كانت تضم الصف الثاني عشر، أي البكالوريا الثانية، وانتسبت إلى قسم الفلسفة.

كانت الحياة المدرسية نشطة في التجهيز، وكانت المنظمات الحزبية واضحة. فقد كان هناك تنظيمنا الطلابي الذي كنت مسؤولاً عنه، وكان هناك تنظيم حزب البعث العربي، وكان من وجوهه الأساسيين نور الدين الأتاسي ومحمد عمران وغيرهم، وكانا في صفوف أدنى من صفي، إنما كنا في مدرسة واحدة.

ودارت بيننا صراعات حول قيادة اللجنة الطلابية، وكنا نقدم طه بالي مندوباً عنا، وكان يفوز غالباً برئاسة لجنة الطلاب.

انعكست الحياة السياسية على نشاط طلاب مدرسة التجهيز، وكانت التظاهرات تندلع بين يوم وآخر، نجوب شوارع المدينة ونهتف ضد الاحتلال الاستعماري الفرنسي وفي سبيل الاستقلال الوطني.

وفي آخر العام الدراسي جرى امتحان البكالوريا الثانية ونجحت فيه، وأصبح علي مهمة الانتقال إلى الجامعة في دمشق.

من القضايا التي أريد تسجيلها بكل اعتزاز، أن والدي لم يقف حجر عثرة أمام نشاطي الحزبي، وكان متسامحاً جداً، ولكنه كان يخاف علي ويخشى انزلاقي إلى مزالق خطرة.

وكنا عندما ننتهي من التظاهرات، أذهب ورفاقي إلى صيدلية والدي لنجلس هناك، وكان الوالد يستقبلنا بترحاب، ويسأل بلغته التركية «يف صأتلك» أي هل هناك ضحايا؟ ونجيبه بالنفي، وأن الأمور لم تتعدَّ صداماً مع الشرطة والدرك الافرنسي وإطلاق رصاص في الهواء والفرار.

عمل والدي بطريق غير مباشرة لإقناعي بالتخلي عن نشاطي الحزبي أو التخفيف منه. وأرسل إلي أحد الأقارب واسمه حسين الشاه، وكان تاجر حبوب معروفاً لتقديم النصيحة لي بأن هذا الطريق ليس له مستقبل، والأفضل التخلي عن هذا العمل. وأجبته بكل حماسة الشباب وحماسة الثوريين، بأنني قد اخترت طريقي وعليَّ الاستمرار فيه. وطرح معي وضع والدي وحاجته إلينا، وما إلى ذلك، ولكنني بقيت صامداً حتى النهاية!

كانت الوالدة تساعد في بعض النشاطات، فكانت مثلاً، تقدم لي مانحتاجه من بسط وأغطية عندما ننظم المخيمات الكشفية، وتمدني بالطعام، ولكنها كانت حذرة عند انتهاء هذه الفعاليات، إذ يجب غسل كل ماأخذته، لإعادة استخدامه في البيت.

الفصل الثاني

الدراسة الجامعية

بعد نيلي شهادة البكالوريا الثانية، أصبح الباب مفتوحاً للدراسة الجامعية. وكانت دفعتنا الدراسية، هي آخر دفعة تنتقل إلى الدراسة الجامعية حسب المنهاج القديم الذي وضع في ظل الاحتلال الافرنسي، والذي كان يفرض الحصول على درجتين في البكالوريا، الأولى والثانية، وكانت الثانية تقسم إلى فرعين رياضيات وفلسفة. وقام بعد ذلك الأستاذ ساطع الحصري بالإصلاح المعروف باسمه، والذي وحد البكالوريا وأصبح الطالب يحصل على بكالوريا موحدة ، بفرعيها العلمي والأدبي، وينتقل بعدها إلى الجامعة حسب نجاحه في أحد هذين الفرعين.

كانت رغبتي وتوجهي هي التخصص العالي في الفلسفة أو الاقتصاد السياسي. ولذلك نلت شهادة البكالوريا الثانية قسم الفلسفة، وكنت أرى أن من يرغب في أن يكون شيوعياً جيداً ويستوعب الماركسية بشكل عميق، عليه أن يدرس أحد هذين الفرعين لارتباطهما المباشر بالثقافة الماركسية، والثقافة العامة. لكن الأمور لم تسر كما رغبت، وفرضت الحياة أحكامها، لسبب جوهري وأساسي، وهي أن العائلة بحاجة لصيدلي لكي تسجل باسمه الصيدلية التي ورثناها عن الوالد، والتي هي مصدر رزق العائلة وحياتها. وكان القانون يسمح بأن تبقى الصيدلية بعد الوفاة، سنة واحدة، دون إشراف صيدلي قانوني، وبعدها يتوجب إيجاد صيدلي للإشراف على عمل الصيدلية. وهكذا كان علينا أن نفتش عن مجاز بالصيدلة، لايمارس المهنة مباشرة، ومضمون، ويوافق على التعاقد معنا، وتسجل الصيدلية باسمه، حتى أنهي دراستي وأتسلم هذه المهمة. وقد وجدنا ضالتنا في صيدلي قديم، من خريجي العهد العثماني، وهو شيخ متقدم بالسن، مقيم في دمشق، ووافق على الإقامة في حمص والدوام اليومي في الصيدلية وحصل على راتب شهري. وأخذ أخي الأكبر محمد ظهير الفيصل على عاتقه إدارة الصيدلية والإشراف عليها، وأدى ذلك إلى وقف تحصيله العلمي. هذا الوضع العائلي فرض علي أن أُسجِّل نفسي في معهد الطب فرع الصيدلة.

انتسبت إلى الجامعة في العام الدراسي ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦، وكانت الجامعة تضم معهدَيْ الطب والحقوق، وكان معهد الطب يضم فروع الطب والصيدلة وطب الأسنان. وكان رئيس الجامعة آنذاك الدكتور حسني سبح وكان رئيس معهد الطب الدكتور منيف العائدي.

كانت مدارج كلية الصيدلة ومخابرها تقع في قاعات تكية السلطان سليم، التي أصبحت حالياً، مقر المتحف الحربي، كما كانت هناك مكتبة الجامعة وإلى جوارها معهد الحقوق، أما مباني الطب فكانت في المبنى الرئيسي، الذي لايزال قائماً حالياً، ويضم مدرج الجامعة، ورئاستها ومراكز الإدارة.

ولم تنتقل مدارج الجامعة إلى الثكنة الحميدية إلا في عام ١٩٤٦ بعد الجلاء مباشرة، وضمت الثكنة كلية الصيدلة التي أصبحت كلية مستقلة، وباقي الكليات التي بدأ إنشاؤها واحدة بعد الأخرى: كلية الآداب، كلية العلوم وغيرها وغيرها. ولاتزال الثكنة الحميدية مركزاً أساسياً للعديد من الكليات الجامعية.

كان الصف الأول الجامعي مشتركاً بين الأطباء والصيادلة وكان أشبه بسنة تحضيرية، وكان يسمى P.C.B أي فيزياء، كيمياء، علم الأحياء. وكان مجموع الطلاب في هذا الصف، أطباء وصيادلة بحدود ١٢٠ طالباً، بينهم ١٨ صيدلياً. كان منهم ثلاث فتيات، اثنتان لدراسة الصيدلة وهن نجاح الساعاتي من حمص ونزيهة الكواكبي من دمشق وفتاة واحدة لدراسة الطب وهي وجيهة العلبي. ولم يكن عدد الفتيات في الجامعة كلها، يزيد عن خمس عشرة فتاة، منهن في الطب جمانة الصالح ووحيدة العظمة، وفي الحقوق، سلمى العمري وأميمة رضا سعيد وطلعت الرفاعي، إضافة إلى فتاتين عراقيتين. وفي العام الدراسي ٤٦ ـ ٤٧، بدأ سيل الفتيات يتسع ويزداد باطراد. وكانت نجاح الساعاتي، هي أول فتاة تدرس الصيدلة من مدينة حمص.

أذكر من أساتذتي: الدكتور عبد الوهاب القنواتي، وهو عالم كيميائي بارز من أوائل من عمل على تصنيع الدواء وطنياً، وكان ينتج عدة مستحضرات: قطرة للعين ودواء للسعال وغيرها. ولايزال هذا الإنتاج مستمراً حتى اليوم. وكان يدرسنا الكيمياء المعدنية. أما أستاذنا في علم الأحياء فكان الدكتور محمد محرم، الرجل الأنيق الذي يهتم بمظهره ويسعى ليكون في أبهى حلة. أما الدكتور شوكت الجراح، أستاذ الكيمياء العضوية، فقد كان متواضعاً ومنحازاً للطلاب الصيادلة. بحكم مهنته. وكان الدكتور توفيق المنجد أستاذ الفيزياء.

تابعت دراستي بشكل طبيعي في السنة التحضيرية ونجحت في فحوص الانتقال، وأذكر أنني نلت علامة جيدة على تشريح ضفدعة، وانتقلت إلى الصف الأول في كلية الصيدلة، وانتقلت دراستنا إلى الثكنة الحميدية. وأصبحت أكثر جاذبية، بسبب

ارتباطها المباشر بمهنة الصيدلة التي مارستها في صيدلية والدي مدة طويلة. وكان من أساتذتنا الجامعيين: الدكتور عزة مريدن أستاذ الأدوية، والدكتور صلاح الدين الكواكبي، أستاذ الكيمياء العضوية، والدكتور عز الدين الزين، أستاذ علم النبات، والدكتور زهير البابا، أستاذ تشخيص العقاقير والصناعة الدوائية، والدكتور محمد طرقجي أستاذ السموم، والدكتور أحمد حمدي الخياط أستاذ الجراثيم. وكان لكل منهم صفاته وأسلوبه في التدريس وقربه وبعده عن أمزجة الطلاب. فقد كانت دروس الدكتور الخياط عموماً مابين الثانية والثالثة ظهراً، أي بعد الغداء مباشرة، وكان الطلاب يتزاحمون على المقاعد الخلفية، لكي ينالوا «غطة» نوم خلال الدرس. ولا أزال أذكر الدكتور محمد الطرقجي الذي يحمل دكتوراه في الطب وأخرى في الحقوق، وهو من كبار قادة الإخوان المسلمين، ينصحنا في درس الكحول، بأن الكحول سم شديد، ولهذا لايجوز تعاطيه، وإذا فرض أخذه فيجب أن يكون بدفعات صغيرة حتى لايؤثر على خلايا المعدة. ونشأت علاقة صداقة واحترام بيني وبين الدكتور عز الدين الزين الذي أصبح عميد كلية الصيدلة، وكذلك الدكتور زهير البابا.

كانت دراستنا الجامعية أربع سنوات. وتشمل الدراسة سنة تدريب في إحدى الصيدليات، وقد قسمت إلى أربع فترات يتم قضاؤها خلال العطلة الصيفية. وبذلك كسبنا سنة كاملة.

خلال دراستي الجامعية، وقع حادث الهجوم على مكتب الحزب، إثر التظاهرة التي تمت بعد قرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين. واعتقلت وقتئذٍ وبقيت سنة في السجن.* مما أدى إلى تأخري عن رفاقي سنة دراسية كاملة، وتابعت الدراسة بعد خروجي من السجن، وأنهيت دراستي في عام ١٩٥٠ ونلت ترخيص ممارسة المهنة في العام نفسه.

كانت حياتي الدراسية طبيعية، وكنت أتابع الدروس باهتمام، ولكن بحكم ممارستي للعمل الصيدلاني في صيدلية الوالد، مبكراً وخلال دراستي الثانوية، من صنع المراهم إلى خلط المساحيق الكيميائية وتعبئة البرشام وصنع الحبوب والقطرات والشرابات، وما إلى ذلك، كنت أرى أن المواد التي ندرسها، نظرية وبعيدة عن الممارسة العملية للصيدلي، ولكنها كانت تشكل أساساً لابد منه، لفهم أثر هذه المادة أو تلك، وكان عليَّ المتابعة والدرس.

لقد كانت مهنة الصيدلة، تقوم على تركيب الأدوية عموماً، وكانت المستحضرات نادرة جداً، وكان الأطباء يصفون الوصفات ويحددون المقادير من كل مادة دوائية، وكان

---

* سيأتي تفصيل هذا الموضوع في فصل خاص.

من المهم إتقان وزن هذه المقادير بالميزان الحساس جداً، وخلطها وتعبئتها، ولهذا كان للمهنة نوع من الاختصاص. أما اليوم، فتحولت مهنة الصيدلي، خاصة في بلادنا، إلى نوع من بيع الأدوية الجاهزة، ولم تعد تتطلب أية تجربة عملية.

من زملاء الدراسة الذين أذكرهم والذين قضيت معهم الصف التحضيري من أبناء حمص، خالد محسن السباعي وهو صيدلي، سامي السقا وصبحي الحايك وسامي سحلول وريمون سلوم وهم جميعاً أطباء. ومارسوا المهنة في حمص، وأصبح سامي السقا عضواً بارزاً في حزب البعث، وسامي سحلول أحد قياديي الحزب السوري القومي الاجتماعي. وكان من زملاء الدراسة من المدن السورية الأخرى مشيل سابا من دمشق، الذي تطوع في الخدمات الطبية ووصل إلى رتبة لواء، ولديه حالياً مخبر للتحاليل الطبية في دمشق هو مخبر سابا ونقيب. وعمر شيشكلي الذي مارس المهنة في حماة وأصبح أحد قياديي الحركة الناصرية وعضواً في البرلمان السوري، والأخوان نزار برازي وعدنان برازي من حماة، وخالد ماميش من اللاذقية، ولا أعرف مصيرهم. وتيسير طه من دوما، الذي استشهد في فلسطين في إطار حملة جيش الإنقاذ، وسليمان عبد النور ومحمد الماشطة وشامل السامرائي الذي أصبح وزيراً للوحدة في العراق.

في السنوات الجامعية الأولى، سكنت في نزل (بانسيون) تديره إمرأة يونانية، متقدمة في السن، اسمها مدام فكتوريا. ويقع النزل مقابل حديقة السبكي الحالية. وكانت المنطقة في ذلك الحين جميلة جداً، فموقع النزل كان في نهاية المدينة من ناحية الغرب، ومابعده عبارة عن بساتين زراعية ومزارع مختلفة، ولم تكن ساحة عرنوس موجودة، بل كان مكانها جامع اسمه جامع دك الباب، وكان شارع الصالحية متواصلاً مستقيماً، حتى منطقة الجسر الأبيض، وعندما أتى شقيقي محمد واصل للدراسة، ثم شقيقتي أسما استأجرنا بيتاً، في زقاق بندق، قرب البرلمان، وعشنا فيه، إلى جانب مالكته وهي امرأة مسنة، وكانت الوالدة تأتي من حين لآخر لقضاء بضعة أيام عندنا.

أشهري الأولى في العاصمة كانت صعبة، وكانت كل حواسي مرتبطة بمدينتي حمص، وكنت أخط أسبوعياً أكثر من رسالة لرفاقي في حمص وللعائلة، كما كنت أحرص على السفر إليها، أو كلما سنحت لي فرصة لذلك، وكانت سيارات النقل (البوسطة) تقطع المسافة بين دمشق وحمص بنحو أربع ساعات. وشيئاً فشيئاً بدأت تتباعد المواعيد، إلى أن اندمجت في الحياة الحزبية والسياسية في العاصمة، وأخذت رسائلي تتباعد وسفراتي تتقلص.

بعد أسبوعين من وجودي في دمشق، أصبحت أتردد على مكتب الحزب، وكان عبارة عن شقة واسعة، لاتزال في مكانها حتى الآن، وهي في جادة في طرف شارع

الباكستان، قرب مخفر شرطة عرنوس. وكان البناء مؤلفاً من ثلاثة طوابق، وشغل المكتب الطابق الأخير، وكان فوقه ملحق صغير. ومع ترددي إلى المكتب، تعرفت على الرفاق القياديين آنذاك، وكان في مقدمتهم المرحوم رشاد عيسى، وكان من بينهم الرفيق نجاة قصاب حسن، الذي كان مسؤولاً عن منظمة العاصمة، وبدأت أدخل في حياة الحزب السياسية.

كانت منظمة الحزب الشيوعي السوري، في الجامعة السورية، التي أصبحت عضواً فيها، تضم طائفة متنوعة من الطلاب. وكان في عدادها رفاق لبنانيون أذكر منهم: رياض حولا، قصدي الشهال، نزيه مظلوم، والثلاثة كانوا من مدينة طرابلس ويدرسون الطب، وكان إلى جانبهم عدد من الرفاق الأردنيين وفي مقدمتهم الرفيق الدكتور نبيه رشيدات، ومحمد حوراني، ووديع برقان. كما كان هناك مجموعة عراقية يتقدمها الرفيق جواد العبادي. وكان من الرفاق السوريين: مصطفى العشا من دمشق، إلياس ورد من حلب، عدنان المحمود من طرطوس، وآخرون كثيرون. وكانت اللجنة الحزبية للجامعة مكونة من الرفاق: رياض حولا أميناً للجنة، نبيه رشيدات، جواد العبادي، مصطفى العشا، إلياس ورد أعضاء.

بدأت نشاطي الحزبي عضواً عادياً، وخلال النشاط الحزبي والسياسي، والمشاركة في التظاهرات السياسية المختلفة، تطور موقعي في المنظمة الجامعية، وأصبحت فيما بعد مسؤولاً عنها. ومع تطور الجامعة وافتتاح فروع جديدة فيها وكون جامعة دمشق، الوحيدة في سورية واسمها الجامعة السورية،أصبحت المنظمة الجامعية، منظمة واسعة، وأصبحت عنصراً فعالاً في النشاط السياسي الجامعي، وبتوجيه من قيادة الحزب، عملنا على تشكيل تنظيم طلابي جامعي حمل اسم اتحاد الطلاب الجمهوريين وكان سكرتير هذا التنظيم الدكتور فؤاد أيوب.كما عملنا على تشكيل اتحاد للشباب الديمقراطي، عمل في قيادته المرحوم عبد الكريم محلمي ومحمد واصل الفيصل. وذلك بهدف المشاركة في النشاطات العالمية الطلابية والشبابية التي كان لها دور كبير في النشاط العالمي.

كان عام الدراسة الأول ١٩٤٥- ١٩٤٦، عام نضالات وطنية عارمة وكانت النضالات الطلابية جزءاً هاماً فيها.

في عام ١٩٤٣ جرت انتخابات وفازت الكتلة الوطنية وأصبح شكري القوتلي رئيساً للجمهورية، وتألفت الحكومة برئاسة سعد الله الجابري، ورأس البرلمان فارس الخوري. وكانت جذوة النضال الوطني تتعالى وتتسع، وانتزعت سورية الكثير من سيادتها، ماعدا الإشراف على الجيش الذي بقي بيد المحتلين الافرنسيين. وكان النضال الوطني يتعاظم باستمرار لتحقيق الاستقلال الناجز. وفي عام ١٩٤٥ وإثر نضالات واسعة

جـرت في مختلـف المـدن السـورية، في حلـب وحمـص وحمـاة واللاذقيـة، إلى دمشـق العاصـمة التي امـتلأت سـاحاتها بالمتظاهرين تطالـب بـالجيش وبالاسـتقلال الكامـل وجـلاء الاحـتلال الافرنسـي، قـام القـائد العسـكري الافرنسـي لمنطقـة دمشـق أوليفـا روجيه في أواخـر شـهر أيـار، بقصـف دمشـق بالمدفعيـة وإحـراق بعض أحيائها واحتلت الجيـوش الاسـتعمارية مراكـز الحكومـة. وخـلال هـذه الحملـة العاتيـة، حـاول جنـد الاحتلال الافرنسي احتلال البرلمان وإنزال العلم السوري عنـه، وقاومت حاميـة البرلمان وسقط عدد من الضحايا نتيجة القصف وعلى رأسهم طيب شريك الضابط الشيوعي وقائـد الحاميـة. وبـذلك أصـبح يحتفـل كـل عـام بيـوم ٢٩ أيـار ١٩٤٥. يـوم العـدوان الوحشي على البرلمان السوري.

رفـض رئـيس الجمهوريـة شـكري القـوتلي، الاعـتراف بـالأمر الواقـع، وقامـت ضـجة دولية كبيرة تحتج على العدوان، ساهم فيها الاتحاد السوفييتي، الذي كان لتوه قد خرج منتصراً في حربه الوطنية العظمى ضد النازية الألمانية والفاشية الإيطالية والعسكرية اليابانية. وأصبح يحتل مكانة دولية كبيرة.

اعتبرت السلطات البريطانية، التي كانت جيوشها موجودة في سورية، أنه آن لهم أن يطردوا النفوذ الافرنسي والحلول محله، ووجه تشرشل إنذاراً إلى الجنرال ديغول بلزوم سحب الجيوش الافرنسية.

ومن الأحداث الهامة التي جرى تداولها لـدى مختلـف الأوسـاط الرسميـة والشـعبية خلال احتدام العـدوان، هـي أن سـعد الله الجـابري رئـيس الـوزراء، كـان يقـيم في فنـدق الشـرق، وحوصـر هنـاك، ولم يسـتطع التحـرك. وقـد أنقـذه السـفير السـوفييتي آنـذاك سولود، إذ أتى بسيارته الرسمية، رافعاً عليها العلم الأحمر، وأخرج سعد الله الجـابري بطريقة ما ونقله بالسيارة وأنقذه من الحصار.

على أرضية هذا الواقع، كانـت النضـالات الجامعيـة متـواترة، وتتركـز علـى المطالبـة بـالجلاء، وكانـت الـبلاد كلـها تعلـن عـن المطلب الـوطني. وتقـدمت سـورية بشـكوى إلى مجلس الأمن، وجرت تداولات وأبحـاث، ومثَّلَ سورية فـارس الخـوري، وبنتيجـة الفيتـو السـوفييتي، نجحـت سـورية باستصـدار قـرار بجـلاء جيـوش الاحـتلال الافرنسـية والبريطانية، وتم ذلك في ١٧ نيسان ١٩٤٦.

كانـت احتفـالات الجـلاء واسـعة جـداً، وخـرج طـلاب الجامعـة يحملـون الأعـلام والشـعارات المختلفـة تحيـة للجـلاء، وللـدور الـذي لعبـه الاتحـاد السـوفييتي. وكانـت الاحتفـالات تشـمل جميـع الطـلاب مـن مختلـف الاتجاهـات، وقـد أعطينـا نحـن الشـيوعيين، الجـلاء سمتـين: الأولى السمة الوطنيـة والنضـالات الباسـلة الـتي خاضـها شعبنا. وكانت الحلقة الرئيسية في تحقيق هذا النصر التاريخي الكبير. والثانية السمة

الأممية، التي ظهر خلالها وجه الاتحاد السوفييتي، المؤيد للنضال الوطني التحرري للشعوب، والذي تبدى في الفيتو المذكور آنفاً.

خلال نضالاتنا ضد استمرار الاحتلال، ومن أجل الجلاء، نظم الطلاب أكثر من حملة لحرق الكتب الافرنسية. وأذكر أن أطناناً من الكتب الفرنسية، جمعت قريباً من ساحة المرجة، ورمي عليها البنزين وزيت الكاز واشتعلت النيران فيها. وطبيعي أننا لم نفرق بين العِلْم والنضال ضد الاحتلال، وفرضت العواطف حكمها على الجميع. وجرى تحطيم اللوحات المكتوبة باللغة الافرنسية، حتى إن أحد أصحاب مصبغة لتنظيف الألبسة، كتب على لوحة كلمة LAWNDRY ، وكتب إلى جانبها لوحة أخرى تقول هذه الكلمة باللغة الإنكليزية وليست بالافرنسية.

عند التحضير لمعركة الجلاء، طرحت قضية التطوع في سلك الدرك السوري، لأنه كان يشكل الجهاز العسكري الوحيد في سورية. وأذكر أن منظمة الجامعة الحزبية بأكملها تطوعت في هذا المجال كما تطوع العديد من الطلبة الجامعيين.

ومع تحقيق الجلاء والاستقلال الوطني، بدأ التآمر الاستعماري، يأخذ مداه، وكان من أبرز مظاهر هذا التآمر الاتفاق الإنكليزي ـ الافرنسي، لتقاسم النفوذ مجدداً في المنطقة والذي حمل اسم اتفاق بيفن ـ بيدو. ولاأزال أذكر تلك التظاهرة الصاخبة التي خرجت من الجامعة وانضم إليها طلاب مدرسة التجهيز، وسارت باتجاه محطة الحجاز ثم عبرت جسر فكتوريا، متوجهة نحو البرلمان. وكنت أهتف فيها بسقوط اتفاق بيفن ـ بيدو الاستعماري، وبرزت بعد هذه التظاهرة كهتاف في التظاهرات الطلابية. وكانت عادتنا أن تنتهي التظاهرة أمام البرلمان بخطاب لمسؤول أو لأحد الطلاب.

كانت المجموعات الطلابية في الجامعة متعددة. فهناك التيار القومي، الذي كان يمثله طلاب من أنصار أكرم الحوراني، والبعث، والتيار الإسلامي الذي يمثله الإخوان المسلمون، والتيار الشيوعي الذي كانت تمثله منظمة الحزب الشيوعي السوري. وكان لكل مجموعة عناصرها القيادية إضافة إلى عناصر صدامية، ومن حين لآخر كانت تقع اشتباكات بالأيدي وتنتهي سريعاً. فمثلاً كان لدى جماعة الحوراني طالب صدامي ضخم الجثة اسمه نوري عبد الباقي من حماه، وكان يرعب بعض الطلاب، وكان من عندنا طالب صدامي اسمه فيليب عجلوني من دير عطية.. ويردفه خالد الكردي. وكنا نؤمن التوازن دائماً. ومن مصادفات الحياة. أن نوري عبد الباقي بعد تخرجه، عمل طبيباً في حمص، وتحول إلى صديق حميم للشيوعيين، بينما ترك فيليب عجلوني. الحزب وتطلع إلى العمل التجاري. أما خالد الكردي فبقي محافظاً على حزبيته الناصعة ومبدئيته، وشغل فترة طويلة مركز عضو فرع نقابة المحامين في دمشق.

إلى جانب التوترات، كانت لقاءات ممثلي التيارات السياسية، متواترة، وكنا نجتمع غالباً، لتنظيم تظاهرة، أو لإصدار بيان، وكان يشاركنا عدد من الطلاب المستقلين من أمثال موفق لحام ومنذر موصلي (نائب دمشق سابقاً) ومحمد الرفاعي وغيرهم.

من أبرز النشاطات الجامعية المهرجان الكبير الذي نظمته الجامعة احتفالاً بالذكرى الأولى للجلاء. ففي يوم ١٧ نيسان ١٩٤٧ خرجت تظاهرات طلابية واسعة، جابت شوارع دمشق، تحيي الجلاء والاستقلال الوطني، وتعلن مطالب من الحكومة تتعلق بتطوير القوانين وتحقيق حلم الشعب بأن يحكم نفسه بنفسه. وفي مساء ذلك اليوم طافت شوارع دمشق تظاهرة طلابية تحمل المشاعل والأضواء، لقيت التصفيق الحار من الجماهير المحتشدة في شوارع المدينة.

كان النادي الجامعي بقيادة طالب الطب أحمد عزيز من القنيطرة، ونظم هذا النادي حفلات سمر طلابية عديدة، كان الطلاب يلقون فيها أحاديث فكاهية إلى جانب الأغنيات والمداعبات. وطرائف. وأذكر طرفة بل واقعة ذات دلالة بالنسبة للنضال النسوي آنذاك والصعوبات التي كانت تواجه مشاركة النساء في الحياة العامة، ومرة أتى وفد من جامعة فؤاد الأول في القاهرة قام بزيارة الجامعة السورية، وتقرر تنظيم حفلة موسيقية، وكانت الوحيدة التي تملك إمكانية العزف على البيانو، بين طلاب الجامعة، نجاح الساعاتي. وبعد أن طلب إليها التدرب استعداداً لتلك الحفلة جوبهت بهجوم شديد من طلبة الإخوان المسلمين، وكتابات معادية على جدران الجامعة، مما اضطرها إلى التخلي عن العزف... واضطرت إدارة الجامعة إلى جلب شخص آخر ودفعوا أجره، ليعزف على البيانو.

من ذكرياتي في حياتي الجامعية أنني ذات يوم خرجت من بيتي، وجلست في صالون الحلاقة القريب، وبدأت أسمع الأخبار.. وكان من ضمنها خبر قرار الإعدام الذي اتخذته حكومة نوري السعيد، بحق الأمين العام للحزب الشيوعي العراقي، فهد. وعند سماعي النبأ ذهبت مباشرة إلى مكتب الحزب، وأبلغنا بأن علينا أن نكتب في مختلف شوارع دمشق، شعارات تندد بنوري السعيد، وبالحكم العميل في العراق، ونحيي بطولة فهد وشجاعته.

وخلال دراستي الجامعية، عقد في لندن مؤتمر للحزب الشيوعي البريطاني، ومؤتمر للأحزاب الشيوعية في الإمبراطورية البريطانية. وقد ذهب لحضور هذا المؤتمر خالد بكداش رئيس الحزب الشيوعي السوري، وفرج الله الحلو رئيس الحزب الشيوعي اللبناني. وخلال وجوده في لندن، زار الرفيق خالد بكداش قبر كارل ماركس، ووضع بطاقته الحزبية في تراب القبر. وعند عودتهما، نظمنا استقبالاً لهما عند مدخل العاصمة، قرب مطعم القصر حالياً، وكان في حينه بيتاً صيفياً لخالد العظم.

وخطب خالد بكداش، ومما قاله ومايزال يرن في أذني: نحن الشيوعيين العرب، لانتلقى أوامر لامن لندن ولامن باريس ولامن موسكو. وتركت هذه الجملة من الخطاب تأثيراً كبيراً علينا نحن الطلاب الجامعيين، كما تركت أثرها على الرفاق الآخرين الذين أتوا للاستقبال.



الفصل الثالث

كوثر رحمون

عندما أنهيت دراسة الصيدلة، أصبح اهتمامي منصباً على عودتي إلى مدينتي حمص، لأمارس المهنة التي درستها والتي ورثتها عن والدي.

وفي الوقت نفسه فكرت أن بإمكاني تحقيق رغبتي التي تمنيتها عند إنهاء دراستي الثانوية، وهي دراسة الفلسفة أو الاقتصاد السياسي. وبسبب عدم وجود كلية للاقتصاد، بل كانت بعض مواده تُدَرس في كلية الحقوق، فقد تطلعت إلى الفلسفة. وشجعني على ذلك وجود قرار جامعي، ينص على أن الطالب الذي يحمل شهادة جامعية، يمكن أن يعفى من سنة دراسية إذا تسجل في كلية الآداب. وهكذا عزمت على التسجيل في كلية الآداب قسم الفلسفة، وبدأت الدوام وسماع المحاضرات. وكان بإمكاني التنسيق بين الدوام في الصيدلية في حمص، ومتابعة محاضرات الفلسفة في دمشق. إذ إن الصيدلية لن تقوم على عاتقي، فشقيقي الأكبر قد تسلم هذه المهمة وبرع فيها . والأمر يتطلب مني دوام أيام هنا وأيام هناك، ووافق أخي على ذلك.

لقد كنت مرتاحاً جداً، لأنني من جانب، حققت للعائلة غايتها، وحققت طموحي العلمي من جهة أخرى، إضافة إلى أن هذا التنسيق يساعد على بقائي في دمشق أياماً وأسابيع، مما يحقق غاية ثالثة، وهي العمل الحزبي ومتابعته، فقد أصبحت مع إنهاء دراستي الجامعية، أحد الملاكات الأساسية في منظمة دمشق، وبدأت أدعى لاجتماعات قيادة منظمة العاصمة، ثم أصبحت عضواً فيها ..

ولكن الأمور سارت إلى نحو آخر. ففي يوم من الأيام وبعد بضعة أشهر من تخرجي، استدعاني الرفيق نقولا شاوي، القائد الشيوعي اللبناني المعروف، وكان وقتئذ عضواً في القيادة المركزية للحزب ومسؤولاً عن سورية ويقيم في دمشق، وأبلغني، بأن قيادة الحزب بحثت موضوعي وقررت أن لاأتفرغ لمهنة الصيدلة، حرصاً على مستقبلي الحزبي، ولأن القيادة ترغب في إيفادي إلى أوربا، للعمل في اتحاد الطلاب العالمي. وكان لهذا القرار وقع أليم في نفسي، إذ إنني كنت خلال سنوات طويلة قبل الدراسة وخلالها وبعدها أهيئ نفسي لمساعدة العائلة، التي عملت كل شيء لكي أحقق لها هدفها، ولمساعدة شقيقي الذي ضحى بنفسه وأوقف دراسته وتفرغ للعمل في

الصيدلية، لكي يعيل العائلة ويضمن استمرار عمل الصيدلية، ويساعدني على إنجاز دراستي. وكان الألم ناتجاً أيضاً عن أنني سأتوقف عن استمرار دراسة الفرع الذي أحببت وهو الفلسفة. وقد حاولت الاستفسار عن دوافع هذا القرار، وسألت أكثر من رفيق عضو في القيادة المركزية وخاصة: نقولا شاوي وأرتين مادويان. وكان الرفيق أرتين صريحاً جداً... إذ قال لي بكل صراحة ووضوح، إن القيادة المركزية، ترى أنك إذا انصرفت للعمل المهني، فيمكن أن تغرق فيه، وتبدأ تلمس بيدك الأرباح، الأمر الذي سيبعدك تدريجياً عن العمل الحزبي، وعن التطور في الحزب. وقال إن القيادة المركزية تتطلع بأمل لمستقبلي الحزبي. أصابتني هزة عنيفة، وفكرت طويلاً وبعمق، وقلبت الأمور من جميع جوانبها، وخاصة وضع والدتي وشقيقي، وبقيت كذلك عدة أيام إلى أن اتخذت قراري. وأقول الآن بعد خمسين عاماً، من ذلك التاريخ، إنني حسمت الموضوع بشكل سريع، وقررت تلبية طلب قيادة الحزب، وتم ذلك بقناعة كاملة، فقد كانت قضية الحزب هي العليا. وكان علي بعد ذلك، أن أضع الأمر أمام شقيقي ووالدتي، لنتبادل الرأي، ونتخذ القرار معهم. حصل عدد من اللقاءات والاتصالات، كانت خلالها الوالدة متوترة وخائفة على مصير ابنها وحاولت أن تثنيني عن قراري، بكل التوسلات وبكل التعابير التي تنضح بالحنان. وأبلغتها بأن مصيري أصبح معلقاً بهذا القرار وعلي أن أمتثل له. تصوروا كيف يكون موقف امرأة من عامة الناس، ليس لديها أية ثقافة سياسية، سوى ماتثقفت به بالتجربة، والتي كانت تقف بوجه الشرطة لتفتيش البيت وتمنعهم وتطلب وجود مختار الحي، لقد بكت وذرفت دمعها ... ودعت لي بالتوفيق.

أما الموقف الآخر، الذي لن أنساه أبداً، فهو موقف شقيقي، الذي قال لي صراحة، هذه قضيتك والقرار لك!

بعد أن انتهى البحث مع العائلة، أبلغت الرفيق نقولا شاوي الموافقة على القرار، وبدأت بانتظار إبلاغي بالمهمة التي ستوكل إلي، وماهي تفاصيلها، وماذا علي أن أعمل!

ومرة أخرى، وبعد شهر من الزمن، أبلغني الرفيق نقولا شاوي قراراً آخر، وهو أن علي الزواج قبل أن أسافر. فأجبته وكيف ذلك؟ هل يمكن أن يتم زواج هكذا بدون معرفة مسبقة وتحضير وما إلى ذلك؟ قال هذا قرار وعليك تنفيذه! وكان علينا أن نمتثل للأوامر، فالحزب تنظيم شبه عسكري والانضباط فيه يقوم على هذا الأساس. هكذا كانت تربيتنا الحزبية!

كنت أحب فتاة دمشقية جميلة ورقيقة وأكن لها احتراماً عميقاً، ولكن ظروفها الحزبية والعائلية لم تكن مساعدة لكي أفكر بها، إضافة إلى معرفتي بأن قيادة الحزب لن توافق عليها ! لذلك بدأت أفتش عن فتاة أخرى.

في إطار عملي الحزبي كنت مسؤولاً عن الرفيق ممتاز رحمون، وكنت غالباً ماأزوره في البيت، ونعقد اجتماعاتنا عنده، وكان رفيقاً مخلصاً وأميناً. يسكن في بيت دمشقي قديم، في زقاق القداح، أحد فروع شارع الصالحية القريبة من الجسر الأبيض. وكان البيت مبنياً على الطريقة الدمشقية القديمة، غرف فوق بعضها، تتصل بأدراج وتدور حول فسحة سماوية تشكل الفناء الأرضي. وكانت لقاءاتنا تتم في الغرفة العليا. وكنت عندما أنتهي ونهم بالمغادرة ألاحظ أن باب إحدى الغرف ينشق قليلاً وتسرق فتاة أو فتاتان، النظر من خلاله، وتكررت هذه القضية أكثر من مرة. وعرفت فيما بعد أن للرفيق ممتاز أخت اسمها كوثر، وكانت هي التي تسترق النظر. طلبت من الرفيق ممتاز تنظيمها حزبياً وتم ذلك وبدأت أتابعها، إلى أن تعارفنا وتلاقينا وكانت هي التي وقع عليها اختياري. وأخبرت الرفيق نقولا شاوي بالأمر، وسألني ماذا يعمل والدها، أجبت إنه طبيب، وسألني عن اسمه، فقلت: أحمد حمدي رحمون. وتحدثت معه عن الرفيق ممتاز شقيق كوثر وعن عمله ونشاطه، قال أعرفه جيداً. واطمأن قلبي لجوابه عن ممتاز، وبدأت أنتظر قرار الموافقة ولكن الموافقة لم تأت، بل أتى مكانها سؤال استفساري؟ أين تقع عيادة الطبيب أحمد حمدي رحمون؟ لقد فتشنا في دمشق، فلم نجد طبيباً بهذا الاسم، ولم نجد عيادة له. فقلت ماالهدف من ذلك؟ فقال نريد أن نعرف هذا الطبيب وعمله ودخله، وفهمت أنهم يفشتون عن الوضع الاجتماعي وعن الحالة المادية، فالطبيب في تلك السنوات، كان شخصاً اعتبارياً عالياً، وكان وجهاً من وجوه المجتمع، وكان دخله كبيراً، ويمكن أن يكون برجوازياً وموقفه السياسي لايتفق مع تطلعات الحزب، فقلت له هذا الطبيب، كان مناضلاً وطنياً. فقد عمل في شمال العراق، في مدينة راوندوز الكردية، وعندما وقعت ثورة رشيد عالي الكيلاني ساندها وشارك فيها، وبعدها أبعد عن العراق، وهو الآن موظف حكومي، ويعمل في مستوصف حكومي في مدينة الصنمين في حوران.

نقل الرفيق نقولا شاوي هذا التقرير للقيادة المركزية، وأتى الجواب إيجابياً... ومحتواه بأن الطبيب الذي يقبل العمل في مدينة الصنمين في حوران في تلك السنوات، لن تنطبق عليه أي من الصفات التي فكروا بها. ومعروفة النظرة إلى حوران في الخمسينيات وماقبلها... لذلك أتت الموافقة، وبدأت أفكر بالمرحلة الثانية وهي موافقة الأهل!

طرحت الفكرة أمام العائلة، وتحدثت عن الفتاة وأنها مثقفة، أنهت الدراسة الثانوية، وأنهت الصف الخاص الذي كان صف تأهيل للمعلمين والمعلمات.. وهي جميلة، بل أخاذة.. والدها طبيب وشقيقها يدرس في الجامعة في معهد الحقوق... ولكنني صدمت! إذ لم ألق الحماسة التي انتظرتها. فالوالدة كانت تفكر بأن أتزوج

إحدى فتيات حمص، من العائلات المعروفة، وكانت تعتقد بأن الزواج هو رباط أبدي، فقد يؤدي إلى ابتعادي الكلي عن العائلة. ولكني توجهت إلى الوالدة أستنجد حنانها للوصول إلى موافقتها، فهذه قضيتي وأنا الذي سأعيش معها، وكررت حديثي عن محاسن الفتاة وعن سمعة العائلة، وانتزعت في النتيجة قرار الموافقة، وتلا ذلك الخطوبة، فقد أتت الوالدة إلى دمشق بمفردها، تحمل معها سواراً وعقداً، وطلبت يد كوثر، وتمت الموافقة وبدأنا نذهب معاً وأقوم بالزيارات المتتابعة وبالنزهات الليلية وما إلى ذلك، من حياة الخطوبة، التي يمكن أن تكون أسعد أيام الشاب والشابة. فالحب القلبي العميق، يتجلى خصوصاً في مثل تلك الأيام، بالأحاديث والهدايا والقبلات والتعرف الخفي لكل من الطرفين على شخصية الآخر، والنكات اللطيفة والحديث عن الورد والفل والياسمين.

كانت غرفة الاستقبال في بيت عائلة كوثر، تقع في الطابق الأول وراء باب البيت، وكانت الغرف الأخرى فوقها، ولذلك كانت لقاءاتنا في غرفة الاستقبال هانئة، ولكنها لم تكن أمينة تماماً، إذ إن المفاجأة تأتي بفنجان القهوة أو كأس ماء أو ابتداع أي شيء آخر، ولكي نكون أكثر أماناً، فقد عرفت كوثر على بيتي السري الذي كان في شارع بغداد قرب معمل الكونسروة. وكنا نجلس بأمان كامل... ولكنني سرعان ما تنبهت إلى مراقبة الجوار وحرصت على أن لايخالجهم الظن بأشياء خارجة عن الأخلاق، لذلك قررنا التوقف عن اللقاء في بيتي السري واقتصرنا على بيت العائلة! وخلال ذلك تعرفت على والد كوثر وجلست معه أكثر من مرة، إذ كان حضوره للبيت قليلاً. وجلست مع والدتها ومع أخواتها وإخوانها، وأصبحت تدريجياً جزءاً من العائلة.

تم عقد القران، وتم الاتفاق على حفلة الزفاف في حمص، وكان ذلك في ٢٣ تموز ١٩٥٢. واستعداداً للحفلة فقد خاطت كوثر بدلة عرس بيضاء وأخرى فستقية اللون، كانتا جميلتين جداً. وقد عمل الأهل كل جهودهم لتكون حفلة الزفاف، عرساً يذكر. ودعت الوالدة جمعاً كبيراً من النساء، امتلأت بهن أرض دارنا الواسعة، ونصبت منصة جلست عليها العروس، وتجمع الأهل والأقارب يطلقون الرصاص ويهزجون الأهازيج الشعبية، وكان علي أن أدخل بين هذا الجمع النسوي وأختلي بعروستي لتنطلق بعد ذلك الزغاريد. وفي خلوتي مع كوثر قبلتها بحنان وقلت لها: نحن اليوم في حفل زفاف، ونتمنى أن تكون أيامنا سعيدة دائماً، ولكن علي أن أقول لك، بأنني كحزبي، قد أعتقل وأسجن وأقتل! هذا ماقلته وأذكره حرفياً لأنني حين أسترجع الآن هذا الذي فعلته، بتأثير التربية الحزبية، أتساءل هل يمكن لإنسان في أسعد لحظات حياته أن يتحدث عن السجن والاعتقال والقتل؟!

بعد يومين من عرسي، استدعيت إلى دمشق، وأبلغت بأن علي أن أسافر بعد أسبوع إلى براغ للعمل في اتحاد الطلاب العالمي. وهكذا عشت عريساً مدة أسبوع، وبعدها سافرت مع كوثر إلى بيروت وأقمنا في بيت سري، ومن هناك غادرت إلى براغ وتركتها وحيدة، فعادت حزينة إلى بيتنا في حمص، وبعد عدة أشهر، انتُدبت هي أيضاً للعمل في اتحاد النساء الديمقراطي العالمي، وأصبحنا أنا في براغ وهي في برلين، وبقينا كذلك مدة ستة أشهر، كانت تتصل بي تلفونياً يومياً، إلى أن أشفقت عليها سكرتيرة اتحاد النساء الديمقراطي العالمي، ماري كلود فايان كوتورييه، وقالت إنها تصرف راتبها على الهواتف، ولاتأكل جيداً.. وساعدت على نقلها إلى براغ. وبهذا الشكل اجتمعنا في براغ وبدأت تعمل معي في اتحاد الطلاب، وسكنّا في مهجع طلابي في غرفة صغيرة قرب ساحة نامسكي نيفستي.

عملت في اتحاد الطلاب أقل من سنة وكانت أمانة الاتحاد تضم الرئيس وهو روماني، وسكرتيراً سوفيتياً، وآخر بلغارياً إضافة إلى افرنسي وصيني. وقد تابعت مصير هؤلاء، فالروماني واسمه بريانو عاد إلى بلاده، وأصبح أستاذاً جامعياً، والسوفييتي واسمه فدوفين أصبح سفيراً في وزارة الخارجية، والبلغاري واسمه تللالوف، أصبح سفيراً ثم وزيراً للخارجية ثم مسؤول العلاقات الخارجية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغاري، والافرنسي واسمه جاك فرجيس وهو من جزر الريونيون وأصبح محامياً مشهوراً، ودافع في قضايا كبيرة عن العديد من الثوريين، وكان آخرها قضية كارلوس. وتزوج جميلة بوحيرد الثائرة الجزائرية المعروفة. وكان هناك سكرتير سوفييتي آخر مسؤول عن الإعلام واسمه برختكو. ولم ألتق بأحد من هؤلاء بعد تركي العمل في اتحاد الطلاب سوى بالسفير فدوفين، مرة خلال زيارة له إلى سورية مع وفد سوفييتي، ومرة في موسكو، ومرة في لشبونة العاصمة البرتغالية، إذ كنت ممثلاً لحزبنا في أحد مؤتمرات الحزب البرتغالي، وكان واسطة تعارف بيني وبين غورباتشوف. أما السكرتير المسؤول عن الإعلام، فقد التقيت به مرة واحدة، في قصر الكرملين، عندما منحني غروميكو وسام الصداقة بين الشعوب، وكان سكرتيراً صحفياً لدى رئيس الدولة السوفييتية.

بعد اتحاد الطلاب عملت فترة بسيطة في اتحاد الشباب الديمقراطي في بودابست، وعدت بعدها إلى براغ لأعمل في مجلس السلام العالمي.

انتقل سكننا في براغ من رعاية اتحاد الطلاب العالمي إلى رعاية مجلس السلام، وأقمنا في فندق قديم اسمه فندق اتلانتيك، وشغلنا جناحاً واسعاً بغرفتين، غرفة للنوم وأخرى للجلوس، ومعها مطبخ صغير.

كانت حياتنا في براغ، هادئة، حلوة، فقد عشنا بهدوء وارتياح نفسي في المدينة التي أعتبرها إحدى أجمل مدن العالم، والتي تضم أبنية قديمة بنيت على الطراز القوطي ومليئة بالتماثيل، على الجسور وفي الشوارع الضيقة القديمة، وكنت أجد متعة خاصة في الذهاب إلى عملي سيراً على الأقدام عبر هذه الكنوز الفنية التي لايمل الإنسان من تأملها والنظر إليها.

في براغ رزقنا بأول طفل لنا وأسميناه خالد، تيمناً باسم خالد بكداش الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. وأصبح فيما بعد معروفا باسم خلدون حتى إنهم في المعاملات الرسمية يذكرون اسمه خالد ويضيفون المشهور باسم خلدون. ويعود ذلك إلى سببين : الأول أن زوج أختي الصغرى ، واسمه يوسف الإخوان سمى ابنه البكر خالد، وكان علي أن أتمايز عنه بالاسم لكي لا يكون كلانا «أبو خالد»، والسبب الثاني، أن الرفيق دانيال نعمة سمى ابنه البكر خالد أيضاً، وهكذا أصبحت «أبو خلدون».

لم تعمل كوثر في مجلس السلام العالمي، بل بقيت في الفندق، تهتم بطفلها الأول وترعاه، وكم كانت حريصة على صحته، بحيث كانت تضع الكمامات عند إرضاعه، وكان حمامه صباحاً ومساء.

في مجلس السلام العالمي، عملت مسؤولاً عن البلدان العربية، أتابع نشاطات حركات السلام فيها والنشاط السياسي العام وبضمن ذلك نشاطات حركات التحرر الوطني، وكنت أرفع تقارير حول هذه النشاطات، وأقدم اقتراحات لتنظيم فعاليات هنا وهناك، واقتراح شخصيات لدعوتها إلى مؤتمرات أنصار السلام.

لقد لعبت حركة السلام العالمية، دوراً هاماً، في درء أخطار حرب كونية ثالثة، وفي النضال ضد استخدام أسلحة الدمار الشامل النووية والجرثومية والكيميائية، وكان نشاطها في تأييد النضال العربي من أجل الاستقلال والحرية وضد المؤامرات واسعاً.

عدت إلى سورية في أوائل عام ١٩٥٤ بعد سقوط ديكتاتورية الشيشكلي وسكنّا في بيت سري، كان يعرفه الرفيق خالد بكداش ورفاق القيادة، وكان ممنوعاً على أحد التعرف على البيت، الذي يقع قرب المستشفى الإيطالي، ولذلك، لم يستطع أحد لامن أهلي أو من أهل كوثر زيارتنا في بيتنا، وكنا نزور الناس ولا أحد يزورنا. الأمر الذي كان يتركني في حرج كبير أمام والدتي وأخواتي. وهم، بالطبع، لم يستطيعوا أن يستوعبوا هذا السلوك، ولم يكن ذلك بإمكانهم، فهو على أية حال أمر غريب جداً بالنسبة لعادات الأهل وتقاليدهم، ومرات عدة طلبت الوالدة أن تأتي لترى كوثر والطفل ولتعيش معنا قليلاً، وكنت أجد الأعذار المختلفة لرفض طلبها. وكان الوجه الوحيد الذي يتردد على بيتنا هو سائق الرفيق خالد بكداش وهو أرمني لبناني اسمه أبو خليل ....، ولم تدم هذه الحالة طويلاً، فقد تبين أن هذا البيت مكشوف لأحد

الجوار، الذي كان شقيقاً لأحد الرفاق من أمه، ولهذا كان يحمل كنية أخرى غير كنية الرفيق. وحين جاءني هذا الرفيق وأخبرني بالسر، أخبرت القيادة، وتقرر تغيير البيت. إلى بيت آخر، لم يكن محكوماً بالشدة التي كانت تحكم البيت الأول، ولكنه مع ذلك كان سرياً.

في تموز ١٩٥٤ رزقنا بالطفل الثاني وكانت فتاة وأسميناها سوسن. وفي كانون الأول ١٩٥٥ رزقنا بالابنة الثانية وهي مها. وهكذا أصبحنا عائلة كبيرة من خمسة أشخاص. ونقلت العائلة إلى حمص وعاشت في بيتنا هناك في نفس البناية التي يسكنها أشقائي.

مرة أخرى كان علينا السفر، فقد اتخذت القيادة قراراً بإيفادي إلى موسكو للدراسة الحزبية. وفي أواخر عام ١٩٥٦ شددت الرحال إلى العاصمة التي كانت محط أنظار شعوب العالم ومناضليها الأحرار في كل مكان. وفي أحد أيام الأحد يوم العطلة ويوم الحمام، وكان شديد البرد والحرارة منخفضة إلى ٢٠ تحت الصفر، أبلغت بأن زوجتي مع أولادها الثلاثة، وصلوا إلى المطار، وكان علي أن أتدبر أمري سريعاً، من أجل لقائها ومساعدتها، وأخبرت أنها اتجهت إلى المدينة وستصل إلى فندق موسكو. استقبلت العائلة عند أبواب الفندق، وبدأت أرفع الحقائب وأنقلها إلى الطابق الثالث وكانت كبيرة وثقيلة، تحوي ألبسة للأم وللأولاد الثلاثة، ومنحنا غرفتين، واحدة للأطفال والأخرى لنا، وخلال الليل، ونتيجة خروجي من حرارة الماء الساخن الذي كنا نستحم به، إلى الجو البارد الذي ذكرت، بفارق نحو ٤٠ درجة، ورفع الحقائب الثقيلة، أصبت بنوبة قلبية، نقلت إثرها إلى المستشفى وبقيت ٣٥ يوماً تحت المعالجة. ولم يتمتع الزوجان بفرح اللقاء، بل فرض على كوثر واجب جديد إضافة إلى العناية بالأطفال، هو زيارة الزوج الممدد في المستشفى. وبعدها نقلت إلى إحدى المصحات لمدة شهرين، عدت بعدها إلى الفندق لأعيش مع العائلة، إلى أن خصصت لنا شقة، انتقلنا إليها وعشنا فيها حتى أيار ١٩٥٩، تاريخ عودتنا إلى سورية مجدداً.

عدنا إلى الوطن في ظروف معقدة جداً هي ظروف الوحدة السورية - المصرية، وكانت تعليمات الحزب أن أعود إلى بيروت ومعي عائلتي. وهكذا كان. فقد أقمنا في بيت متواضع، وكانت التعليمات مشددة جداً للأطفال لكي لايتحدثوا مع الجيران. فقد كانوا يتكلمون الروسية فقط، نتيجة وجودهم في روضات الأطفال المختلفة. وكلام الأطفال باللغة الروسية، يمكن أن يكشف جانباً من شخصيتنا ويخرق القاعدة الأمنية التي كان الرفاق اللبنانيون فرضوها، فقد كانت عيون أجهزة الأمن السورية والمصرية، في عهد الوحدة، منفتحة ومنتشرة في لبنان. ولهذا، وتبعاً للعادات الشرقية، فعندما

يسكن جار جديد، يأتي الجوار للسلام عليه. وطبقاً لذلك أتت الجارة التي تقابل شقتها شقتنا للسلام، وبقي الأولاد متسمرين حول والدتهم، وعندما سألتهم الجارة عن أسمائهم ضحكوا وهربوا، وأخذت الوالدة على عاتقها الجواب، بأنهم يخجلون كثيراً.

عهد الرفاق اللبنانيون إلى رفيق من قرية رعيت في البقاع اسمه جرجس صليبا، بالعناية بالأسرة. وعبر هذا الرفيق الإنسان، الذي كان مشبعاً بالإخلاص والأمانة، سجلنا الأطفال في مدرسة داخلية في إهدن، وأعطيناهم أسماء أخرى. فخالد أصبح خالد خليل صليبا، وسوسن احتفظت باسمها وحملت اسم عائلة صليبا. وكان صعباً جداً أن تنقل الأطفال إلى هذه الحالة مع أننا نجحنا جداً في ذلك، لكننا لم نستطع منع حدوث بعض المآزق التي لم ننتبه إليها.

ففي المدرسة الداخلية، وعند النوم كان خالد يرفض وضع صورة العذراء تحت مخدته، وكان يرميها جانباً، الأمر الذي جعل الراهبة تغضب عليه وتوبخه، ووضعت هذا الأمر أمام والدته التي كانت تأتي كل يوم سبت لنقلهم إلى بيروت ثم تعيدهم صباح الاثنين. وماكان من كوثر إلا أن أبدت تذمرها، وقالت للراهبة: إنني على خلاف جدي مع زوجي، فأنا أعمل لتربيتهم دينياً ووضع صورة العذراء.. بينما والدهم لايريد ذلك، مما خلق خلافاً عائلياً. الأمر الذي ترك أثره على الراهبة التي بدأت تخفف من الضغط على كوثر.

ومن المخاطر التي كانت كوثر تتعرض لها، هي أنه كان عليها أن تقف على الطريق العام في إهدن، وهو طريق دمشق - بيروت. لتأخذ سيارة إلى بيروت، وكانت تخشى أن تقف لها سيارة سورية، ويتعرفون على كلامها، أو سيارة لبنانية تحمل مسافرين سوريين. وأحياناً كانت تتم هذه الرحلة ليلاً، مما كان يشيع الرهبة والخوف في نفسها!

بعد الانفصال نقلت الأسرة إلى حمص واستقرت هناك عدة سنوات، كنت خلالها أعمل في دمشق، وأذهب كل خميس لأعود كل سبت للعمل في العاصمة، وأحياناً أقضي أكثر من يومين. وفي الخامس والعشرين من نيسان ١٩٦٢ رزقنا بالابن الرابع، فراس، الذي كان خاتمة العنقود.

لقد سببت الإقامة في حمص عناء لكوثر، فقد كانت ترغب في السكن بدمشق، مع زوجها، ليطمئن قلبها، وتكون بذلك أقرب إلى أهلها وخصوصاً والدتها. ونشأت بيننا بعض الصعوبات نتيجة ذلك، لأنني كنت أرغب في بقاء الأولاد بحمص في كنف العائلة، مع أولاد عمومتهم ومع أقربائهم. ولكن النتيجة كانت انتصار كوثر. وقررنا الانتقال إلى دمشق وتم ذلك، ولم يكن هناك بيت مؤمن لنا، مما أجبرنا على التنقل بين عدة بيوت، نستأجرها مفروشة، أو يقدمها لنا بعض الرفاق، مما كان يخلق لنا تعقيدات كثيرة،

فالأطفال أصبحوا تلامذة في المدارس، ولا يمكن نقلهم كل أربعة أو خمسة أشهر، من مدرسة لأخرى، وبعد عناء طويل وفي عام ١٩٦٩ وبمساعدة الدكتور نبيه رشيدات تم استئجار شقة قريبة في حي ركن الدين وسكنا فيها، إلى أن تمكنّا من شرائها، ولاأزال أعيش فيها.

في نهاية الثمانينيات أصيبت كوثر بجلطة دماغية، نتج عنها شلل في طرفها الأيسر، وتبعه ورم في صدرها، وأجرينا لها العمليات الضرورية والمعالجات الكاملة واستمر ذلك بضع سنوات، واستطاعت أن تخرج سالمة مع بقاء بعض الآثار في سيرها. ثم فوجئت مرة أخرى، وكانت في مشفى اللجنة المركزية في موسكو، بأزمة دماغية حادة أفقدتها النطق والقدرة على البلع. وكانت حياتها مهددة. وقد بذل الأطباء السوفييت جهوداً كبيرة لإنقاذها، وأنقذوا قدرتها على البلع، وتمكنت من تناول الطعام بعد تحضيره بصورة خاصة، ولكن لم يستطيعوا إنقاذ القدرة على النطق، والقدرة على السير. وقد عانيت آلاماً كثيرة في تلك الأيام. فكنت أقاوم الدمع وأقاوم الصمت، لأساعد كوثر معنوياً... وقد اضطررنا إلى إعادتها إلى دمشق، بهذه الحالة، وبقيت تعاني مرضها، ونعاني معها آلامنا النفسية اليومية. ونعمل جميعاً أنا والأولاد، وخاصة الفتيات، لمساعدتها والعناية بها، إلى أن وافاها الأجل وغادرت الحياة يوم ٢٢ شباط ١٩٩٨.

لقد كانت كوثر عضوة نشيطة وفعالة في الحزب الشيوعي، فقد شاركت في تأسيس اتحاد الطلاب الجمهوريين، وعملت بجد وحيوية في صفوف رابطة النساء السوريات لحماية الامومة والطفولة، وشاركت في عدد من التظاهرات الحزبية والنسائية التي جرت ضد دكتاتورية حسني الزعيم، وساهمت في الكثير من الاعمال المساعدة لقيادة الحزب، وتأمين الاجتماعات وفي خدمة الرفاق. وفتحت بيت أهلها لاستقبال الرفيقات عضوات المؤتمر الثالث للحزب وتأمين نومهم وإقامتهم. وانتخبت عضوة مرشحة للجنة المركزية في المؤتمر الخامس، وأصبحت عضوة في اللجنة المركزية في المؤتمر السادس واستمرت في هذا المركز حتى وافاها الأجل.

كانت كوثر ذات قلب كبير وحس إنساني مرهف تحمل شعور المحبة والاحترام لكل رفيق، وهكذا كان سلوكها مع كل من طرق باب بيتنا يطلب لقاء أو مساعدة. وشعوراً منها بأن الحزب يتطلب كفاءة ومعرفة تسجلت في الجامعة، فرع التاريخ وحازت على إجازة في التاريخ. وبعدها بدأت تدرس لنيل الدكتوراه في فرعها الذي أحبته. وكانت تعمل نهاراً في المدرسة وتقوم بالواجبات العائلية المطلوبة وتتابع دراسة مناهج الدكتوراه ليلاً.

كانت مربية جيدة وكان تعاملها مع طالباتها يتسم بنوع من الاخاء والصداقة، وقد اعتبرتها كثرة من طالباتها مثالاً لهن. وكن يطرقن باب بيتنا لأخذ نصائحها.

تعاملت مع أولادها كأم ومربية وصديقة، وكانوا جميعاً أقرب إليها، يفتحون صدورهم لها، وهي تساعدهم بالنصيحة، ولم تكن تلجأ إلى مساعدتي إلا عندما تتعقد الأمور، وتقول لي: «شوف أولادك»، كانت تدفعني للاقتراب منهم أكثر ولإزالة الفواصل بيني وبينهم.

أحبت والدتها كثيراً وعملت كل ما بوسعها لجعل حياتها أكثر هناء وسعادة، وأحبت عائلتها كلها وأولاد الإخوة والأخوات.

وفي عملها الحزبي والنسوي، كانت قريبة من قلوب الجميع، آسرة بتواضعها ولطفها واحترامها لهم ولهن، وكانت الرفيقات الأصغر سناً اللواتي عملن معها يقدّرن كفاءاتها وصفاتها الذاتية، ويعددنها قدوة لهن في السلوك والنشاط والتفاني في العمل. لقد أحببنها بصدق وبكينها بحرقة حين غادرت الحياة، وتركت كوثر تأثيراً عميقاً على تلميذاتها، وبكينها بحرقة أيضاً.

لقد أحببت كوثر بصدق حتى آخر لحظة في حياتها، وبكيتها كما لم أبك أحداً من قبل. أحببت فيها صدقها وإخلاصها وتفانيها في سبيل الأسرة والحزب والقضية النسائية التي كانت تتحرق شوقاً لتطويرها باستمرار بحسب متطلبات كل مرحلة. أحببت كونها مناضلة حقيقية من أجل حقوق المرأة بعيداً عن مخلّفات الماضي، أحببت إيمانها العميق بأن يوماً سوف تشرق شمسه وسوف ترى هي ورفيقاتها ثمار نضالهن، حقوقاً متساوية تليق بمقام المرأة السورية وقدراتها اللامحدودة.

إن فقدان كوثر رحمون هو خسارة جسيمة لي وللعائلة، وخسارة للحزب وللحركة النسائية. وسأحتفظ بذكراها ما دمت حياً، وستبقى في ذاكرتي وقلبي.

الفصل الرابع

الهجوم على مكتب الحزب الشيوعي

كنا سبعة عشر رفيقاً تجمَّعنا في المكتب المركزي للحزب، الكائن في منتصف شارع فرعي يمتد من أول شارع باكستان عند مقسم شرطة عرنوس، ويقع على الزاوية، ولم يكن في ذلك الحين من بناء سوى في الجانب المحاذي لمقسم الشرطة أما المساحة المقابلة فكانت خالية بشكل ساحة واسعة.

أذكر من هؤلاء الرفاق: المهندس فوزي الشلق، مهندس الكهرباء في محافظة دمشق، الأستاذ عبد القادر إسماعيل (وهو اللاجئ العراقي الذي هرب من تعسف نوري السعيد وأقام في سورية وناضل في صفوف الحزب الشيوعي السوري)، المحامي نجاة قصاب حسن، وكان في حينه مسؤولاً عن منظمة دمشق، جورج عويشق تاجر وعضو المجلس الملي لطائفة الروم الأرثوذكس في دمشق، جوزيف شاغوري عامل نجار، حسين عاقو عامل نسيج، عدنان البني، عدنان شرف، طلاب جامعيون، كمال يعقوب،معلم، ألبير قدسي، جوزيف مصابني موظفون، عبد الرحمن الأيوبي مصور، بهجة بكداش متفرغ في الحزب؛ عبد الوهاب كيكي معلم وأنا.

كان ذلك في ٢٨ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ في اليوم التالي لقرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين. عشية هذا اليوم، جرى اجتماع قيادي حضره الرفيق خالد بكداش وفوزي الشلق وجورج عويشق، بحث فيه احتمالات الهجوم على مكتب الحزب وعلى بيوت الرفاق، وتقرر أن يغادر الرفيق خالد بكداش إلى بيروت، وأن ينفذ الرفاق الآخرون المهام المقررة. وهكذا في صبيحة ذلك اليوم، الساعة الثالثة صباحاً غادر الرفيق بكداش دمشق.

تجمع طلاب الجامعة وخرجنا بتظاهرة صاخبة تهتف ضد قرار التقسيم وضد إسرائيل المعتدية، وضد الولايات المتحدة وبريطانيا وسارت التظاهرة بشكل طبيعي دون أية إشكالات، وعندما قاربت نهايتها في شارع الصالحية، أبلغنا بأن نذهب إلى مكتب الحزب، احتياطاً من أي طارىء، خصوصاً أن قوى سياسية معينة، أخذت توجه

غضب الرأي العام ضد الاتحاد السوفييتي، وتتغافل عن الدوائر الاستعمارية التي طبخت القرار، وكانت هذه القوى مشكلة بالأساس من الإخوان المسلمين ومن الحزب السوري القومي ومن شبيبة فيصل العسلي.

لقد كانت مشاعر الرفاق، تضج بالقوة والعزيمة والصدق مع الذات، فقد تربوا على النضال الحازم ضد الإمبريالية والصهيونية، وعملوا دائماً على فضح مختلف أشكال التآمر الاستعماري، البريطاني ـ الأمريكي، وغيرهما، وهم الآن يجدون أنفسهم أمام محاولات الرجعية العربية والسورية وجميع الأوساط العميلة، لتوجيه مشاعر الغضب العارم الذي ساد الشارع العربي بسبب قرار التقسيم، ضد الاتحاد السوفييتي، الذي كان أكبر نصير للعرب ولفلسطين، والذي كشف اتفاقية سايكس بيكو، وسلح العرب ضد عدوهم بدلاً من توجيهه ضد العدو الرئيسي للأمة العربية والشعب الفلسطيني والمسؤول عن تنظيم الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإقامة دولة إسرائيل، لذا توجه الرفاق بقلوب مؤمنة عامرة بالمشاعر الوطنية والقومية الصادقة، إلى مكتب الحزب يحدوهم التصميم على الدفاع عن مكتب الحزب وعن شرف الحزب.

ذهبنا إلى المكتب وعند وصولنا، كلف بعضنا بالذهاب إلى شارع الروضة لكي يراقب مكتب جمعية الصداقة السورية ـ السوفييتية ـ الذي هاجمه بعض الصبية وعاثوا فيه فساداً. وعندما أراد هذا البعض العودة إلى المكتب، وجد أعداداً غفيرة قد تجمعت في الساحة ولم يستطع المغامرة للوصول إلى المكتب الكائن في الدور الثالث.

جرى توزيع عمل بين الرفاق، وأخذ المسؤولون الحزبيون، مثل فوزي الشلق وعبد القادر اسماعيل، عضوي اللجنة المركزية، ونجاة قصاب حسن، مسؤول منظمة دمشق، أخذوا مهام القيادة ووزعوا العمل على الرفاق الآخرين. وبدأنا بإغلاق الستائر الخشبية للنوافذ المطلة على الشارع «الأبجورات». وكانت غرفة الانتظار بدون ستائر فوضعنا فيها عدداً من كراسي القش وبعض المقاعد، لمنع وصول الحجارة إلى الداخل وكلفنا بعد ذلك بحماية باب الشقة التي نشغلها مستفيدين من أنها تقع في طابق علوي، ومن كان يخطط للهجوم كان عليه الصعود إلى أعلى، بينما نحن نطل عليه ونملك هذه الأفضلية.

كان بحوزتنا عصي وبضعة سكاكين وثلاثة مسدسات، وبها جابهنا الهجمات المستمرة.

في نحو الساعة الثانية عشرة، كان قد تجمع في الساحة مابين ألفين إلى ثلاثة آلاف شخص، أغلبهم ممن يشاهدون مايجري، أما المتحمسون الذين بدؤوا بشن الهجمات فكانوا بضع مئات.

كانت خطتهم الصعود إلى مكتب الحزب وحرقه وقتل من فيه. وكانوا يصعدون بأعداد كبيرة، وننهال عليهم بالعصي ونردهم إلى الأسفل، وهكذا وتكررت هذه العملية عشرات المرات. وكنا شجعاناً متفانين، نضع دمنا على أكفنا، فأمامنا مصير واحد، هو الذبح على أيدي هؤلاء القتلة.

ولايمكن لإنسان أن يصف مدى الاندفاع الأعمى الهمجي الذي كان يشد الجموع الصاعدة إلى المكتب، والتي رغم الفوارق الفكرية والإيمانية فيما بينها، إلا أنها توحدت وذابت في بوتقة العداء للشيوعية، وتحولت إلى قطعان همجية، تريد التهام هؤلاء البضعة عشر إنساناً، الذين يدافعون عن حياتهم وعن مبادئهم وعن شرفهم الحزبي.

كنا نتسابق في من يكون الأول في رد الهجوم، وفي من يكون الضحية ليفدي الآخرين، ويكون له شرف المأثرة التاريخية التي يعيشها الحزب.

كنا خلية نحل، هذا يفتح أدراج الطاولات ليرى مافيها من أوراق ويمزق هذه ويرسل تلك للحرق في الحمام، وكان بعضنا يراقب الهجمات عند الباب، والبعض الآخر يفتش ويفكر عن مخرج من هذا الوضع، لإنقاذ الرفاق وإنقاذ حياتهم.

وكان المهاجمون، وخاصة رؤوسهم المتآمرة، تفكر هي أيضاً في إيجاد أشكال لتصعيد الهجوم. وقد مضى أكثر من ساعتين ونحن في كر وفر، يصعدون للوصول إلى المكتب ونردهم بالعصي والسكاكين وبطلقة مسدس. فكروا بحرق المكتب بمن فيه. وهكذا قام أحدهم واسمه صلاح الجعفري، وكان عضواً في تنظيم الإخوان المسلمين، بالصعود إلى سطح البناية، وحاول النزول إلى بلكون غرفة الانتظار، لرمي الكاز على المقاعد الخشبية التي كنا قد وضعناها سداً أمامهم وإعطائها عود كبريت وتشب النار وتحرق الأخضر واليابس، ويصبح أمام السبعة عشر رفيقاً، إما الذهاب ضحية النار الملتهبة أو الفرار، ليقعوا فريسة سهلة لهؤلاء الغادرين فيعملون فيهم قتلاً وذبحاً.

أحد الرفاق لحظ هذا المغامر، يتدلى من سطح البناية، فلم ينتظر حتى وصوله، بل أرداه مباشرة برصاصة أوقعته وسقط على بلكون البيت، وتم سحبه للداخل، حيث فارق الحياة، ووقع هذا الشاب ضحية من أوقدوا صدره بنار العداء للشيوعيين، ومن شحنوه بالحماسة القاتلة التي أودت به، بعد هذه الحادثة، هاجت جموع المهاجمين، كمن أصابه مس كهربائي وصمموا على الانتقام بأي ثمن... وأخذت الهجمات تتوالى تباعاً دون أي فارق زمني، مما أنهكنا وحولنا إلى جمرة من اللهب الذي لم يعد يبالي بشيء. وأصبح وضعنا أكثر خطورة، عندما فطن المهاجمون إلى سطح البناء وصعدوا إليه وكرُّوا علينا من فوق، وأصبحنا بين فكي كماشة، تفغر فاها لكي تقضمنا معاً. ومع هذا التطور في حدة الهجوم، زاد اندفاعنا وأصبحنا غير مبالين بأي شيء، سوى الحفاظ على شرف حزبنا

وعلى أنفسنا... ومن أجل صد الحملة الآتية من فوق، تقدمنا بضعة رفاق وكنت من بينهم، بهجوم صاعق وأطلق أحد الرفاق بضع رصاصات في الهواء، لإحداث الرعب وتفريق المهاجمين، وتحقق لنا ذلك واستطعنا تطهير سطح البناية من المغامرين، ولكني أصبت بحجر في راسي ونزف دمي، واضطررت إلى العودة إلى المكتب من أجل تنظيف الجرح وتضميده.

رغم كل هذه الوقائع، وكل هذه الهجمات، لم تحرك سرية الشرطة والدرك التي كانت هناك ساكناً، ولم تتدخل أبداً ولم تبدر منها أية محاولة لوقف هذه المغامرة الثأرية العمياء، واتصل الرفاق برئيس الوزراء جميل مردم بك، وبوزير الداخلية محسن البرازي أيضاً. ولم يبدر منهما أي تجاوب ولم يصدرا أوامر بالتدخل، وكأنهما كانا راضيين عما يجري، وموافقين على ذبح هؤلاء السبعة عشر شاباً. وكانت الاتصالات تجري من دمشق، ومن بيروت، ويأتي النداء تلو النداء ولا من سميع أو مجيب. وقد اتصل الرفيق الدكتور نبيه رشيدات بوزير الدفاع أحمد الشراباتي، فأجابه أنا وزير دفاع ولست وزير داخلية.

في هذا الوقت تمكن الرفاق القادة، فوزي الشلق وعبد القادر اسماعيل أن يجدا مخرجاً لوضعنا الذي نحن فيه. فقد اتفقوا مع جار يسكن شقة تقع في الجهة المقابلة ويفصلها عن شقتنا منور مستدير بقطر يتراوح بين ٧ و ٨ أمتار. واتفقنا على مد جسر بين مطبخنا ومطبخ الشقة المقابلة، والخروج من طاقة المطبخ إلى الطاقة المقابلة، والتوزع في الشقق التي تقع في الجانب الآخر للبناء. وهكذا مددنا السلم الخشبي الطويل الذي كان موجوداً في مكتب الحزب، والذي أصبح جسر الخلاص نحو الخروج من أجواء الجاهلية والعدم والدم، إلى أجواء يتنفس فيها المرء أفق النجاة. وبدأنا نتسلل الواحد إثر الآخر زاحفين على بطوننا، نمسك بقبضاتنا درجات السلم، حتى لاينهار أحدنا إلى أسفل المنور وينتهي هناك. وماإن يصل أحدنا إلى الشقة المقابلة، حتى يهرع إلى أحد بيوت البناء التي فتحت أبوابها لاستقبال هؤلاء المحاصرين ومساندتهم، ليس بالعواطف والحنو القلبي، بل بوضع بيوتهم تحت تصرفهم غير عابئين بما يمكن أن يحمله ذلك من أخطار. وكان بين أصحاب البيوت التي لجأنا إليها ضابط في الجيش السوري، وأساتذة وموظفين ومعلمين، وتجار وحرفيين، ودون أن يكون بيننا وبينهم أي رابط، تصرفوا على هذا النحو الإنساني والأخلاقي النبيل.

أما أنا فقد صعدت إلى سطح البناية والتجأت إلى الملحق الوحيد فيها حيث استقبلني صاحب البيت، وقال لي «دبر حالك»، البيت مفتوح وأنا ذاهب، وقبل أن يغادر حمل لي قطناً وكحولاً لتضميد جرحي ولكي لاينزف الدم ويشير إلى مكاني.

ألقيت نظرة عامة على غرف البيت، واخترت غرفة لها نافذة على السطح وسحبت السرير إلى جانب النافذة ووضعت طاولة أمام السرير، لأعطي انطباعاً بأني قفزت من هذه النافذة، وتمددت تحت السرير ولم أكن أملك سوى سكين صغيرة، ولم يمض وقت طويل حتى هوجم البيت وكسرت أبوابه ودخل الغوغاء يفتحون الخزن وأبواب الغرف... وبحكمة القدر، فتحوا الغرفة التي أويت إليها، وصرخوا لقد هربوا من هنا، وغادروا الغرفة والبيت يفتشون عن هدفهم!

عندما توقفت المقاومة من مكتب الحزب، قامت الجموع بهجوم صاعق، كسرت الأبواب ودخلت ولم تجد أحداً، سوى جثة الشاب المغامر الذي حاول إحراق المكتب، حملوه على أكفهم وبدؤوا يهتفون بسقوط الحزب الشيوعي والاتحاد السوفييتي.

وكان الأمر المحير بالنسبة لسرية الشرطة والدرك التي كانت موجودة بين الجمهور، والتي لم تحرك ساكناً، هو: كيف وأين اختفى هؤلاء الذين كانوا يقاومون، بل أين ذابوا؟ وبدأ التفتيش الدقيق عن مخابىء سرية أوى إليها من كانوا قبل ساعات يقاتلون بكل عزيمة وقوة، عملوا على طرق جدران المكتب ليصلوا إلى أي رنين، ينبئ بفراغ ويدل على المخبأ السري، ولم يجدوا شيئاً.

وبينما كان رجال النظام يقومون بذلك، كانت جموع المهاجمين، تغزو الغرف واحدة بعد الأخرى، وتحمل الأثاث وترميه من الطابق الثالث، ليتحطم على الأرض، ولم يتركوا شيئاً على حاله. وقد تبعثر الأثاث بأكمله، وتطايرت الأوراق في جميع الجهات، وكان هذا آخر يوم عاشه الحزب الشيوعي السوري في هذا المكتب التاريخي، وتحول فيما بعد إلى شقة سكن عادية، ولاتزال آثار الحجارة على الجدران قائمة حتى الآن.

أحس بعض أصحاب البيوت التي آوت الرفاق، بالخطر المحدق، والمتمثل في أن تنقض عليهم الغوغاء فتعيث فساداً في البيوت، ويمكن أن تلحق ضرراً بسكانها. وتوجه البعض إلى الرفاق اللاجئين، طالبين منهم التسلل بهدوء ومغادرة المكان وتم ذلك فعلاً، ونجح البعض، في التسلل والخروج بشكل طبيعي، ووقع البعض بين أيدي الدهماء المتجمعة، وانقضوا عليهم بالعصي والسكاكين وبالأيدي والأرجل، وكانت النتيجة سقوط شهيد هو عامل النسيج حسين عاقو وطرح عدد من الطلاب الجامعيين أرضاً حيث بدأ التشنيع بهم لولا تدخل ضابط أمن اسمه عبد الوهاب بفجاتي، الذي أشهر مسدسه، وتمكن من إنقاذ عدنان البني، الذي أصيب بأكثر من عشر طعنات في جوانب مختلفة من جسمه، كما أنقذ عدنان شرف الذي لقى نفس المصير وكذلك عبد الوهاب كيكي. واستطاع جورج عويشق الهرب ولحق به عدد من الجمهور وأطلقوا عليه الرصاص، وأصيب برصاصة في رجله وأخرى في رأسه، ووقع مغشياً عليه، وحاول

المهاجمون الانقضاض عليه لذبحه نهائياً، لولا سرعة تدخل ضابط الأمن نفسه الذي أنقذه وساعده على الهرب بصعوبة فائقة بعدها. استطاع جورج بمساعدة عدد من الرفاق أن يغادر إلى حمص ثم إلى بيروت حيث تابع علاجه هناك إلى أن تماثل للشفاء. وقد تركت الرصاصة التي أصابت رجله أثراً دائماً، يظهر واضحاً خلال سيره.

حملوا عدنان البني وعدنان شرف وعبد الوهاب كيكي إلى المستشفى الوطني، ووضعوهم في سجن المستشفى، وعولجوا هناك إلى أن تماثلوا للشفاء.

أما أنا، فلم يزايلني القلق، حتى بعد أن زالت الضجة، وخمدت أصوات المهاجمين فقد بقيت ممدداً تحت السرير. ومع غروب الشمس وعندما بدأ الليل يخيم على المدينة، سمعت صوت أقدام تدخل الملحق، وارتفع صوت ينادي: الجو أمان، تستطيع الخروج، ولم أصدق ذلك، إلى أن تمكنت من رؤية رجل واحد لا غيره، وخرجت بتؤدة من تحت السرير، وإذا بصاحب الملحق يقف أمامي، وباشرني بالقول، لقد ذهب الناس جميعاً والشارع خالٍ ويمكنك الخروج بأمان. وقبل أن أغادر، مسح لي جرحي مرة ثانية بقطعة قطن مبللة بالكحول، وودعني على بركة الله.

هذا الإنسان الشهم الغيور الطيب، اسمه محمد علي السباعي، وكان موظفاً، ولم تسعفني الحياة للتعرف على اسمه، إلا بعد عدة عقود، عندما أبلغني رفيقي وصديقي الدكتور عدنان البني، بأن فلاناً التقى به وقص عليه ما حدث، ورجوت الدكتور البني أن يرتب لي لقاء معه، لأقول له شكراً وألف شكر، فأنا مدين له بخمسين عاماً من حياتي الطويلة.

ولم يتحقق هذا اللقاء بسبب بُعد لقاءاتي مع الدكتور عدنان البني. فهو قد أصبح عالم آثار كبيراً، ويغيب عن البلد كثيراً لأعمال التنقيب ولإلقاء محاضرات في جامعات أوربا، من جهة، ولانغماسي في العمل الحزبي من جهة أخرى. إلى أن وقعت مصادفة جميلة جمعتني بمن أسعى إليه، حدث ذلك في شهر أيلول عام ٢٠٠٠، وبعد أن تقدم بكلينا العمر. فقد كانت عائلة صديقة، جارة لنا في الحي، عائلة العقيد حسام طهبوب، تفتش لابنها الدكتور عصام الآتي من الولايات المتحدة الأمريكية، عن عروس. واتبعت الطريقة الشعبية، إذ سألت عن فتيات صالحات للزواج، وذكر لها كثيرات، إلى أن وافاها الحظ بفتاة من آل الرهونجي، واستقر الرأي عليها، وتم الاتفاق بين الطرفين وحدد يوم الخطوبة. ودعي لحضور الخطوبة ابنتاي، سوسن ومها، وفي يوم الخطوبة حملتا معهن باقة ورد لتقديمها لآل العروس، كتب عليها سوسن ومها الفيصل. وخلال الحفل تقدمت سيدة وسألت من هن سوسن ومها الفيصل. وتقدمتا إليها سألتهن: ما علاقة يوسف الفيصل بكن، أجابتا والدنا، وكررت وما علاقة كوثر

رحمون بكن، وأجابتا، إنها الوالدة، انفرجت أسارير السيدة وضحكت كثيراً، وقالت إن كوثر رحمون هي رفيقتي في المدرسة، وكنا معاً في صف واحد، وكنا صديقات. أما والدكن، فقد سمعت من زوجي قصته عندما وقع حادث المكتب... وجرى حديث حول الموضوع.

نُقل إلي هذا الحديث من العائلة الصديقة ومن ابنتي. واتصلت بصديقي والد العريس وسألته عن الموضوع، فأجابني بالإيجاب، وقال إن السيدة هي جدة العروس، ومن تفتش عنه هو جد العروس، وسيكون حاضراً يوم عقد القران، وسيتم لقاؤكما. وتلقيت الدعوة لعقد القران في نادي الشرق، وكان أول من استقبلني هو ذلك الغائب الحاضر في ذهني طوال نصف قرن وأكثر، السيد محمد علي السباعي، وتعانقنا وأبدى كلانا سعادته بهذا اللقاء، وعبرت له عن شكري العميق الذي بقي محفوظاً في قلبي، وأعلنت له أني مدين له بأكثر من خمسين عاماً من عمري، واتفقنا على تنظيم لقاء آخر نتحدث فيه عن شجوننا المشتركة، فقد تبين من كلامه أن كلانا كان يفتش عن الآخر.

انفجرت سورية غضباً على قرار التقسيم، وعمت التظاهرات جميع المدن السورية، وخرجت في دمشق أكثر من تظاهرة، توجهت إحداها إلى القصر الجمهوري وألقى شكري القوتلي، رئيس الجمهورية آنذاك. خطاباً أكد فيه أن قرار التقسيم لن يمر وفي عروقنا تجري دماء العروبة ودماء الأجداد.

لقد كان النضال ضد الصهيونية وضد محاولات اليهود السيطرة على فلسطين، نضالاً دائباً ومستمراً، بلغ ذروته في عام ١٩٤٧ حين صدر قرار التقسيم ودخلت الجيوش العربية للحفاظ على عروبة فلسطين.

ولن أدخل في تاريخ التآمر على فلسطين، إنما أريد تسجيل بديهية تعرفها الجماهير العربية من أقصاها إلى أقصاها، وهي أن بريطانيا هي صاحبة وعد بلفور، وهي التي شكلت قطعات عسكرية يهودية خلال الحرب العالمية الثانية، وهي التي فتحت أبواب الهجرة إلى فلسطين، فقد كانت هي حكومة الانتداب وهي التي تتصرف بكل شيء.

لقد ناضل العرب ضد حكومة الانتداب وضد العصابات الصهيونية ووقعت معارك عديدة، واستطاعت قوى سورية أن تصل إلى صفد وتحتلها ولكن القوى العربية الأخرى لم تدخل الميدان كما يجب، بل بدأت تتلكأ وتتأخر، وانتهت الأمور لصالح الصهيونية.

طرحت حكومة الانتداب البريطانية، القضية الفلسطينية على الأمم المتحدة، وبحثت الجمعية العمومية الوضع، وشكلت لجنة زارت المنطقة وبحثت وأوصت بتدبير ذي شقين: إقامة دولتين عربية ويهودية مع وحدة اقتصادية، أو تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية من دون الوحدة الاقتصادية.

عندما طرح الأمر على الجمعية العمومية، كان موقف الاتحاد السوفييتي هو منح الاستقلال لفلسطين وإقامة دولة موحدة ديمقراطية عربية ـ يهودية، ولم يمر هذا الاقتراح، وعارضته القوى الإمبريالية، كما عارضه عدد من القادة العرب الذين كانوا في الاجتماع، وعرض الاقتراح الثاني الذي ينص على وحدة اقتصادية، وأقرته الجمعية العمومية ووافق عليه الاتحاد السوفييتي، وينص القرار على مايلي:

«إن الجمعية العمومية، بعد أن أجمعت في دورة خاصة بناء على طلب السلطة المنتدبة، على الشروع في إنشاء وتحديد مهمة اللجنة الخاصة المكلفة بأن تهيئ للجمعية العمومية في دورتها العادية درس مسألة حكومة فلسطين المقبلة، وشكلت لأجل هذا لجنة خاصة انتدبتها للتحقيق في جميع المسائل المتعلقة بالمعضلة الفلسطينية وإعداد اقتراح لحل هذه المعضلة، وبعد أن تلقت ودرست تقرير اللجنة الخاصة المنطوي على عدة توصيات قدمتها اللجنة بالإجماع، وعلى مشروع تقسيم مع اتحاد اقتصادي وافقت عليه أكثرية اللجنة... تأخذ علماً بتصريحات السلطة المنتدبة التي أعلنت فيها أنها تقترح إنهاء الجلاء عن فلسطين في أول آب ١٩٤٨.

توصي المملكة المتحدة بصفتها دولة منتدبة على فلسطين، وكل دولة أخرى عضو في الأمم المتحدة، بما يتعلق بحكومة فلسطين للمستقبل، بإقرار وتنفيذ مشروع التقسيم مع الاتحاد الاقتصادي المبين أعلاه».

لقد كان موقف الاتحاد السوفييتي، في صالح العرب، لأنه أراد وضع أساس لدولة موحدة يشكل فيها العرب أكثرية واضحة، ولكن الأمور لم تسر بهذا الاتجاه بسبب الدور الذي لعبته الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا والدول الأخرى التي تسير في نهجها، وبسبب خيانات بعض الحكام العرب.

أما فيما يتعلق بالحزب الشيوعي، فقد كان باستمرار ضد تقسيم فلسطين وهناك أكثر من خطاب لقادة الحزب، سواء خالد بكداش أم فرج الله الحلو أم غيرهما، يندد بالتقسيم. وللحزب تاريخ مديد في التنديد بالصهيونية والنضال ضدها. وقد شجع الحزب عدداً من الرفاق الذين سافروا إلى فلسطين للمشاركة في المعارك الدائرة ضد الصهيونية، ومنهم محمد الحبال من حماة وسري السباعي من حمص وغيرهما.

وعندما صدر قرار التقسيم، اتخذ الحزب الشيوعي السوري موقفاً آخر، فقد أعلن موافقته على موقف الاتحاد السوفييتي، ولم تكن هذه القضية شكلية، إذ ترتب عليها معارك طويلة خاضها الحزب الشيوعي وأدت إلى اعتقال العديد من أعضائه وسجنهم ومحاكمتهم، كما أدت إلى خلافات ومشاكل في قيادة الحزب.

ومن المعروف أن عضو القيادة المركزية الرفيق فرج الله الحلو من لبنان والرفيق رشاد عيسى من سورية رفضا الموافقة على موقف الحزب وطلبا إدانة قرار التقسيم. ودفعا ثمن ذلك غالياً، إذ اتخذت بحق الاثنين تدابير تنظيمية: فقد أبعد رشاد عيسى عن القيادة وكلف بالعمل في مطبعة سرية للحزب، كما أبعد فرج الله الحلو عن القيادة أيضاً.

لقد برز موقف الحزب الشيوعي السوري وموقف الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية، بحقيقته الساطعة، كمناضلين طليعيين ضد الصهيونية ومطامعها في العالم العربي، وضد الصهيونية كأيديولوجيا توسعية والتي برزت في جميع حروب إسرائيل العدوانية. وقد تطوع الشيوعيون في العمل الفدائي على نطاق واسع وقدموا تضحيات كبيرة في هذا السبيل، ودافع الشيوعيون في جميع المواقع، في الداخل والخارج، ولدى مختلف القوى والأحزاب التقدمية واليسارية في العالم، عن حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته الوطنية المستقلة وعاصمتها القدس العربية، وشكلت الحركة الشيوعية العالمية وقلبها الاتحاد السوفييتي وحزبه المجيد أكبر قوة دعم ومساندة مادية وسياسية لحركة التحرر الوطني الفلسطينية والعربية. وتستمر هذه المواقف حالياً، في دعم نضال الشعب الفلسطيني لنيل حقوقه المشروعة على أرضه وفي وطنه.

ومع ذلك ظل موقف الحزب الشيوعي من قرار التقسيم، غير واضح، بالنسبة لغالبية الشعوب العربية، واستمدت منه القوى المعادية وما زالت تستمد منه، أبشع استخدام، كما ذكرت آنفاً.

الفصل الخامس

سنة في سجنَيْ القلعة والمزة العسكري

بعد تفرق الجموع التي أحاطت بمكتب الحزب، ومع بدء هبوط الليل، غادرت الملحق الذي أويت إليه، وسرت نحو مكان سكني، وكان غرفة في بانسيون لامرأة يونانية، اسمها مدام فكتوريا. بجوار حديقة السبكي اليوم، ولم تكن الحديقة موجودة آنذاك، بل كانت تشكل الحدود الغربية لمدينة دمشق وجزءاً من البساتين التي كانت تحيط بالمدينة وتعطيها رونقها وجمالها وعبقها.

كانت الشوارع فارغة تماماً، يخيم عليها حزن ذلك اليوم، الذي سقط فيه قتيلان وعدة جرحى، وبين حين وآخر تمر عربة سوداء تنقل أناساً إلى بيوتهم وتعبر الطريق بهدوء، وكانت حافلات الترامواي قد توقفت، وخف الضجيج وخيم السكون.

وصلت إلى البيت، بعد أن قطعت مسافة قصيرة وذلك لقرب مكان سكني من مكتب الحزب، وفي نفسي هواجس عديدة وأسئلة كثيرة، ماذا حل بفلان وفلان، وكيف انتهت الأمور وكيف سأتدبر حياتي، وهل تنتظرني أجهزة الأمن في البانسيون، وكيف سنتابع نضالنا لاحقاً، وكيف سيكون الوضع في الجامعة ومع رفاق الدراسة وما إلى ذلك من هواجس وتساؤلات.

سار كل شيء سيراً طبيعياً، ولم ألحظ أية مراقبة أو متابعة وأكملت خطواتي نحو بيتي بحذر شديد، ووجدت صاحبة البانسيون جالسة في غرفتها وحولها بعض الأصدقاء وساكنو الغرف الأخرى في البانسيون قد فوجئوا بدخولي، إذ كان في تقديرهم أني أصبحت في حكم المقبوض عليه، وأنني أصبت أو ذهبت إلى الأبد، لذلك كان ترحيبهم بي كبيراً، وجلست بينهم وأخذ الحديث يدور حول ماشاهدوه، إذ كان بعضهم يتابع من بعيد مجريات الأحداث، ويتحدث عن التناقض بين آراء الناس الذين كانوا، بين من يتساءل عن دوافع وخفايا هذه الحملة الهوجاء، ويعبر عن استنكاره وتعاطفه، دون أن يكون بمقدوره فعل أي شيء، لا باليد ولا باللسان، وبين من يشجع ويدعو إلى قتل الكفرة، وبين من يستهجن موقف قوى الأمن التي لم تحرك ساكناً.

بعد أن أخذت قسطاً من الراحة وشربت كأساً من الشاي، بدأنا نتساءل نحن المحيطين بصاحبة البيت، هل من الحكمة أن أبقى في مسكني؟ ألا يمكن أن يداهم البيت من أجهزة الأمن أو من رجال السوء... وكنا بين متسائل ومجيب حين دخلت امرأة تلبس ملاءة سوداء، وتغطي وجهها بمنديل رقيق، تتحرك بحذر وانتباه، وحين اقتربت من الغرفة التي نجلس فيها ورفعت منديلها، وجدنا أننا أمام الرفيقة وصال فرحة، الشابة الشيوعية، التي كانت مكلفة بالمجيء إلى البانسيون للسؤال عن مصيري، وقد فوجئت بوجودي وتنهدت ووضعت يدها على قلبها الذي كان يخفق بشدة، وطلبت مني النهوض ومرافقتها للمبيت في بيت آخر، وفي محفظتها مسدس صغير للحماية فيما إذا حدث طارىء. ودعت أصدقائي وسرنا معاً في شوارع دمشق الخالية إلى بيت طالب من حمص، اسمه عبد المجيد جمال الدين، قضيت ليلتي عنده، وفي اليوم التالي، نقلنا إلى بيت خال وصال في قرية القابون، حيث وجدنا هناك الرفيق بهجت بكداش، ومنذ ذلك اللقاء، عشنا معاً، بهجت وأنا، طوال عام كامل.

العائلة كردية وتتكلم باللغة الكردية ولا أزال أحفظ حتى الآن بعض التعابير والكلمات التي كانت تتردد أمامي. «فابي بكرو» أغلق الباب، «فحو» اشرب، «بخو» كل، «شاوايي» كيف حالك. قضينا يومين أو ثلاثة عند هذه العائلة، ثم نقلنا بمعرفتها، إلى بيت صغير بغرفة ومطبخ، داخل بساتين الغوطة في مكان مكتظ بالأشجار وبعيد عن الأحياء السكنية، أمام ساقية صغيرة، ينساب فيها الماء الرقراق. حيث عشت والرفيق بهجت نحو أسبوعين، كنا خلالها، نتلقى الطعام والشراب من الرفاق الآتين إلينا، ونخرج عصر كل يوم، ونجلس على كتف الساقية، نمتع أنظارنا بالخضرة والماء، ومع هبوط الليل ندخل إلى بيتنا ونغلق الأبواب.

كنا غارقين في النوم، عندما سمعنا دبيباً على سطح المنزل، وقبل أن ندرك ما حدث أطبق علينا أكثر من خمسة عشر رجل أمن، طوقونا ووضعوا القيود في أيدينا وساقونا إلى النظارة المركزية للشرطة، حيث بقينا نحو أسبوع نقلنا بعدها إلى سجن القلعة.

كيف وقعنا، وكيف كشف مكان سكننا؟ هل سببه ذلك التصرف الذي يقوم به من لايملك أية تجربة، بالدخول والخروج، ورآنا خلاله بعض الفلاحين الذين يعملون في حقولهم، أم قلة تجربتنا في الحياة السرية، إذ كان الحزب في ذلك الحين علنياً حراً في تحركاته، حزبٌ يزهو بالانتصار الوطني الكبير الذي حققه الشعب السوري بجلاء جيوش الاحتلال الاستعماري عن أراضيه، لتكون سورية أول بلد عربي يحقق

الاستقلال السياسي الكامل الناجز. وكنا نحن طلاب الجامعة نفخر بهذا الإنجاز، ونتبارى نحن الطلاب الشيوعيين مع غيرنا من الطلاب الوطنيين، في إبراز هذا النصر بأفضل الأشكال. أم أن هناك من وشى بنا وأوقعنا . وكان رأي الرفيق بهجت، وهو الأقدم مني حزبياً وعاش حياة سرية صعبة إذ كان يسكن في أعالي جبل قاسيون، ويطبع المناشير هناك على الجلاتين بعدها يأتيه رفاق من أمثال حسين عاقو وحسن دورو وسعاد الأستاذ لأخذها وإيصالها إلى المنظمات وتوزيعها، بأن خبراً تسرب من البيت الأول الذي أقمنا به ووصل إلى أجهزة الأمن، وتم بنتيجته تطويقنا واعتقالنا .

لم يحقق معنا في نظارة الشرطة، وأحلنا إلى سجن القلعة بتهمة قتل الشاب صلاح الدين الجعفري.

وضعنا في المهجع (القاووش) رقم (٥) وهو المكان المعد لاستقبال كل سجين جديد . وهو بطول نحو خمسة وعشرين متراً وعرض نحو خمسة أمتار، ويُنزَل إليه ببضع درجات. وهو عبارة عن مسطبتين متقابلتين تنبسط عليهما فرش السجناء (يطقات) المتلاصقة. وبين المسطبتين ممر بعرض يزيد قليلاً على المتر الواحد، لحركة السجناء داخل القاعة، وفي آخر القاعة بيت الخلاء، وحنفيات الماء. واختار لنا زعيم القاعة، المكلف من الإدارة بترتيب شؤونها، مكاناً لإقامتنا حيث وضعنا مانحمله، وجلسنا نمعن النظر، بمن حولنا، ونتلمس أسس حياتنا الجديدة، وكان أول من تحدث معنا زعيم القاعة، عن الجرم الذي أوصلنا إلى السجن، وأجبناه «تهمة القتل»، وقد أكسبنا ذلك احترامه وتقديره، فهذه التهمة هي أرفع التهم التي يحملها سجين قياساً إلى التهم الأخرى، كالسرقة واللصوصية والقضايا الأخلاقية والمالية وغيرها، وتأتي كلها بعد القتل وبتراتب معين.

في هذه القاعة دخنت لأول وآخر مرة في حياتي سيكارة تحوي قطعة حشيش، وتركت تأثيرها الشديد علي، فكنت أرى الممر بعرض نهر كامل، بحيث خفت النزول إليه، كما كنت أرى القاعة وكأنها معرض كبير تزينه أدوات الطبخ، والألبسة ذات الألوان المختلفة والمعلقة جميعاً هنا وهناك.

بعد أسبوع نقلنا إلى المهجع رقم (٦) وهو القاعة التي تضم «وجهاء السجن». فقد كان فيها عدد من الشخصيات. وكانت مرتفعة ونصل إليها بدرج متوسط الارتفاع وكانت الشروط الصحية فيها أفضل بكثير، مفتوحة على باحة السجن الأساسية. ولكن ترتيبها الداخلي مختلف، فأرضها منبسطة وعلى جوانبها يمتد سجاد وبسط، وفي آخرها، بيت الخلاء وصنبور المياه. وكانت سمعتنا قد سبقتنا إلى المقيمين فيها،

واستقبلنا زعيم القاعة، وهو رجل متقدم بالسن محكوم بجريمة قتل، لم أعد أذكر اسمه، أسمر الوجه داكن اللون، يضع على رأسه طاقية السجن البيضاء ويلف رقبته بحطة بيضاء، وحدد لنا مكاناً قريباً منه في صدر القاعة، وفي هذا تقدير واضح.

كانت القاعة تضم شيخاً معمماً، كبير السن، اسمه الشيخ طه أبو الورد، وهو من قرية عربين قرب دمشق، ودارت حوله فضائح كبيرة حول خداع النساء وإخراج الجن منهن، تناقلتها الصحف كثيراً، وكان جاري تماماً، ونشأت بيني وبينه علاقة ود وصداقة. كنت خلالها أتصرف بخبث لمعرفة سبب سجنه، ولم أستطع الوصول إلى شيء، إذ كان جوابه الدائم، تهم ملفقة. وكان من نزلاء القاعة موظف إداري كبير في مالية دمشق اتهم، ومعه سجين آخر، بالتلاعب بأموال مالية دمشق. وإلى جانبهم لص ماهر، سطا على محلات لبيع المجوهرات، وقبض عليه، وكذلك مجموعة كبيرة من آل الجراح من دير عطية، الذين أدت خلافات بين عائلتهم وعائلة أخرى إلى وقوع مصادمات دموية راح ضحيتها عدد من القتلى والجرحى. وكان بينهم الأب وهو إنسان مسن ذو أخلاق عالية، والابن والأقارب.. إضافة إلى آخرين يقضون بقية أحكامهم التي أدينوا بها.

عشنا في هذه القاعة بضعة أشهر، كانت الحياة روتينية، نخرج إلى التنفس صباحاً في نحو الحادية عشرة مدة ساعة أو ساعتين، ثم نعود إلى أماكننا، نقرأ ونتحادث نبتكر وسائل لقتل الوقت. وكانت الزيارات مسموحة مرتين في الأسبوع، ويأتي أقرباؤنا، ورفاق من الحزب، وطلاب الجامعة لزيارتنا، يحملون لنا الطعام والحلوى والفواكه وغيرها. وبعد شهرين، وكنا حينئذ في فترة التنفس، وإذ بالرفيق بهجت بكداش يدور حول أطراف الباحة ويقلب النظر فيها، وسألته مابك؟ أجاب، إنني أدرس إمكانية الهرب وأفتش عن المخارج التي يمكن استخدامها، ولما لم نجد مايساعد على ذلك أقلعنا عن هذه الفكرة تماماً، إذ كان السجن محاطاً بجدران عالية، مبنية بصخور كبيرة ويحيط بها خندق عميق.

بدأت مجريات التحقيق، وبين حين وآخر، كنا ندعى للخروج إلى الإدارة، ومعنا عدد من السجناء الآخرين من قاعات مختلفة وبأعمار متقاربة. وكنا نقف في صف واحد وبعدد يتراوح بين العشرة والخمسة عشر سجيناً، وينادى على شخص أو أشخاص من غرفة الإدارة ويبدؤون بالتحديق بنا واحداً إثر الآخر، ثم يدل أحدهم على سجين ما، ثم يدعو آخر وثالث، ويقومون بنفس العملية ويشيرون إلى سجناء مختلفين. ولم يشر أي من هؤلاء إليّ ولا إلى الرفيق بهجت. وبعد انتهاء هذا التدقيق

نعود إلى أماكننا ونتابع حياة السجن. وتكررت هذه العملية أكثر من مرة، ولم يحدث أبداً أن أشار أحد إلى أي منا نحن الاثنين. وفهمت فيما بعد أن هذا إجراء تحقيقي، إذ يتقدم شهود عيان بشهادتهم للمحققين بأنهم رأوا من أطلق الرصاص أو لمحوه، ويؤتى بهم ونوضع نحن الاثنين بين مجموعة من السجناء، لكي يتعرف الشهود إلى من رأوه أو لمحوه، بهدف تثبيت التهمة أو نفيها.

كنت أنتظر وقت الزيارة، لما له من تأثير نفسي، فخلال هذا الوقت، يتصل السجين بعالم الحرية، يسمع أخبار الأهل والأقارب والأصدقاء، وخصوصاً أخبار الحزب والرفاق، وكان يوجد فاصل بعرض لايقل عن متر، بين الشبكة التي يتحدث منها الزوار وبين السجناء، يقف فيها دركي، لتفتيش كل مايقدم إلى السجناء، لمنع وصول آلات حادة، أو مواد مخدرة وغيرها إلى السجناء. وكان الدركي الذي يراقب قاعتنا، يأتي بعد نهاية الزيارات، لنيل نصيبه من الحلوى أو من الفواكه.

كنا نعيش هذه الظروف الروتينية، حين وصل إلى سمعنا أن رفاقاً لنا اعتُقلوا واقتيدوا إلى سجن القلعة، وبينهم الرفيق خليل الحريري، ووضعوا في (السيلول)، الغرف الضيقة المهيأة لمعاقبة السجناء. طالبنا بالإفراج عنهم، وبأن يكونوا معنا في مهجعنا رقم ٦. رفضت الإدارة طلبنا، فكان جوابنا إعلان الإضراب عن الطعام تضامناً مع رفاقنا. وبعد يوم من إعلان إضرابنا دعينا إلى الباحة أمام الإدارة، وكان مدير السجن، وهو مقدم اسمه عزت الساطي، وضابط صف شرس جداً، وعدد من أفراد سرية الدرك في السجن. وسألنا مدير السجن لماذا تضربون عن الطعام؟ كل شيء مؤمن لكما! وصفع الرفيق بهجت على وجهه. فما كان منا نحن الاثنين إلا أن انتفضنا وانتزعنا من ضابط الصف «كرباجاً» كان يحمله، وهجمت على المدير وضابط الصف بالضرب، وأحاط بي رجال الدرك، وأوسعوني ضرباً بالعصي إلى أن أغمي علي، ولم أفق إلا وأنا مع الرفاق الآخرين في نفس السيلول الذي هم فيه. وكانوا يرشّون الماء على وجهي إلى أن صحوت. وكان نصيب بهجت كنصيبي.

بقينا في السيلول خمسة أيام مضربين عن الطعام، مكتفين بالماء. وفي يوم الزيارة أتى الرفاق لزيارتنا فلم يجدونا، ووجد من أبلغهم بما جرى، وأننا في المكان الفلاني في السيلول. وذهبوا إلينا ومُنعوا من الوصول إلينا، وهتفوا ضد الإدارة وضد الاضطهاد، وتجمع الدرك عليهم وأخرجوهم. في اليوم السادس أخرجنا من السيلول، وأنهينا إضرابنا، وقدمت لنا شوربة ساخنة كأول وجبة، بعدها بدأنا نعود تدريجياً لتناول الطعام.

رفع هذا الحادث مكانتنا بين السجناء، الذين أخذوا ينظرون إلينا باحترام أكبر. ولكن النظرة إلينا من جانب الإدارة كانت عكس ذلك تماماً. فقد رفعت الإدارة تقريراً شديد اللهجة ضدنا، وأحلنا إلى محكمة عسكرية تابعة لقيادة الدرك لمحاكمتنا ومعاقبتنا على تصرفنا. ولكي لاتنتقل العدوى إلى السجناء الآخرين، صدر قرار بنقلنا إلى سجن المزة العسكري. واستقبلنا مدير سجن المزة عزت حسين بوجه قاس وبصرامة شديدة، كانت تعبيراً عن تحذير صارم بأن الأمور هنا ليست كما في سجن القلعة، فهي أكثر قسوة بما لايقاس. صعدنا إلى الطابق الثاني في السجن وأدخلنا إلى أحد المهاجع، وفوجئنا برفاق لنا في المهجع، بينهم الرفيق فوزي الشلق وغيره.

قبل أن أنهي الكلام عن سجن القلعة، لابد من ذكر حادثتين:

الأولى، هي أنه في تلك الأيام ظهرت في دمشق جائحة الكوليرا. وخوفاً من انتقال العدوى إلى السجناء، اتخذ قرار بزرق جميع السجناء بحقن مضادة للكوليرا لتحصينهم، وكان مسؤول مشفى السجن وصيدليته رجل من آل الغزي، إنسان تبدو عليه مظاهر الوجاهة والصحة والوسامة، وكان محكوماً بالسجن المؤبد، وهو الذي دس السم لأبي الدستور السوري فوزي الغزي، بسبب علاقة غرامية بينه وبين زوجة الفقيد، التي ساعدته على هذه الجريمة المنكرة، التي استنكرتها سورية بكاملها، وقد عرف من إدارة السجن أني طالب في كلية الصيدلة، وأتى إلي وسألني عماً إذا كنت مارست زرق الحقن سابقاً أم لا؟ وأجبته بالإيجاب، وأعطاني عدة زجاجات من المصل المضاد للكوليرا، ودُعِي السجناء ووضعوا في صفين، وبدأت بزرق هذا وذاك إلى أن انتهيت من عملي، وأذكر أني قمت بأكثر من مئة حقنة.

كان مشفى السجن في مكان آخر، يفصل بينه وبين مهاجعنا سجن النساء، وتوجد هناك مهاجع أخرى يعيش فيها مئات السجناء ممن أحكامهم أقسى من الآخرين، أو ممن تحرص الدولة على وضعهم في أماكن مأمونة جداً. وأصبحت بعد ذلك شبه مساعد صحي، أتنقل بشيء من الحرية بين المهاجع.

والثانية: خلال تنقلي بين المهاجع تعرفت على فاتح المرشد وإخوته، الذين وضعوا جميعاً في السجن بعد أن قامت حكومة شكري القوتلي بإعدام والدهم سليمان المرشد. وجرت بيني وبينه وبحضور إخوته أحاديث متنوعة، أشارت كلها إلى ثقافة رفيعة وتنوُّر واضح.

قضينا في سجن المزة نحو خمسة أشهر، كانت تجري خلالها متابعة المحاكمة إلى أن تقررت الجلسة النهائية التي سيتم فيها النطق بالحكم علينا نحن الاثنين.

وتحضيراً لهذه الجلسة، كتبتُ دفاعاً عن نفسي وعن الرفيق بهجت، وكان دفاعاً سياسياً لأنني لاأعرف القضايا القانونية ومبادىء قانون العقوبات ومالإلى ذلك. وقد عالجت الموضوع من الجانب السياسي، إذ إن هذه المحاكمة وتوقيفنا طوال هذه المدة، كانت نتيجة تآمر سياسي قامت به قوى رجعية معروفة، بتشجيع أو صمت من المسؤولين في الدولة. وأشرت إلى دور الحزب الشيوعي السوري وموقفه السلبي من قرار التقسيم وأشرت إلى مواقف مختلفة اتخذها الحزب ضد الصهيونية وضد بريطانيا الدولة المنتدبة وهي التي لعبت الدور الأساسي في جلب الصهاينة وفي وعد بلفور وفي قرار التقسيم. وكانت أصواتنا وكتاباتنا تركز في ذلك الحين على الاستعمارين البريطاني والافرنسي. ولم تكن الولايات المتحدة قد برزت بصورتها البشعة التي ظهرت فيما بعد . وفي غمرة الحماسة قارنت بين هذه المؤامرة، ومحاولة حرق مقر الحزب الشيوعي بمن فيه، بمؤامرة حرق الرايخستاغ الذي قام به هتلر، لاتهام الشيوعيين واعتقالهم وسجنهم.

كان مقر محكمة الجنايات في ساحة المرجة في طرفها الشرقي عند زاوية جامع يلبغا الذي هدم ويقوم مكانه بناء كبير. وهي مكونة من بناء خشبي ذي طابقين، وقد أزيلت من مكانها بسبب الإصلاحات المتواصلة.

كلف أخي الأكبر ظهير الفيصل، الأستاذ يوسف الحكيم بمهمة الدفاع عني. والأستاذ يوسف الحكيم من أكبر رجال القانون في سورية وكان وزيراً للعدل في حكومة الملك فيصل الأولى، وشغل مركز وزارة العدل مرة ثانية.

وقد تطوع للدفاع عنا نحن الاثنين عشرات المحامين من سورية ولبنان، من أبرزهم الأستاذ حبيب أبو شهلا، رئيس مجلس النواب اللبناني الأسبق، ومن بينهم الأساتذة أنيس الحلبي، الدكتور مصطفى أمين، الدكتور نصوح الغفري، موريس صليبي، الفرزلي... وغيرهم كثيرون من مختلف المدن السورية.

لقد كانت جلسة النطق بالحكم هامة جداً، سواء بحضور هذا العدد الكبير من المحامين، أو بالحشد الكبير الذي ملأ مقاعد المحكمة والذي تجمع خارجها وفي الشارع، وكانت قوى سياسية عديدة تنتظر النتيجة، لما سيكون لها من وقع إيجابي أو سلبي على تطور عمل الحزب الشيوعي السوري ونشاطه.

وقد تتالى المحامون واحداً بعد الآخر بإلقاء دفوعاتهم، وبعد مطالعة النيابة العامة، اختلى القضاة وهم ثلاثة برئاسة القاضي مصطفى الرحيباتي، وعادوا ونطقوا بحكم البراءة علينا نحن الاثنين. وقد برىء الرفيق بهجت بكداش بإجماع القضاة الثلاثة، بينما برئت بالأكثرية أي اثنين فقط بينهما رئيس المحكمة.

عدنا إلى سجن المزة وحملنا حوائجنا وحملتنا سيارة عسكرية إلى ساحة المرجة، ومن هناك افترقنا وذهب كل منا إلى بيته.

حادثة طريفة وخبر عادي، مرا علينا في سجن المزة العسكري:

أما الحادثة، فهي أننا اكتشفنا مصادفة، وجود سجينات جميلات يخرجن للتنفس يومياً، بمدد طويلة، وجميعهن شابات، يلبسن قمصاناً شفافة وبناطيل رمادية، يذهبن ويجئن في الساحة وأحياناً يجلس بعضهن ويرسمن بالإبرة والخيوط الملونة رسوماً جميلة على أقمشة بيضاء. وكان تطريزهن وسيلة التسلي وقتل الوقت. وكنا ننظّم صعود بعضنا على كتف البعض الآخر، لرؤيتهن من النافذة، وكان هذا البعض يمتع نظره، بمقدار تحمُل من يحمله، وهكذا كانت تجري عملية التناوب. ورأى بعض رفاقنا أن يتعامل معهن، فأخذ يرسم أشكالاً جميلة، من وردة إلى غصن شجر، ويدفع بهذه الرسوم من النافذة لتصل إليهن. وعرفن اللعبة وأخذن يطرزن هذه الرسوم ويلوحن بها لنا، من دون أن يصل إلينا أي شيء. وعلمنا فيما بعد أن الشابات هن أسيرات إسرائيليات، وقعن في أسر القوات السورية خلال المعارك التي كانت تدور على الحدود الجنوبية السورية، في منطقة الجولان، وكن بعهدة الصليب الأحمر الدولي الذي كان يؤمن لهن هذه الحوائج طوال بقائهن في الأسر. ولاأدري الآن وبعد ثلاثة وخمسين سنة، ما إذا كان هذا الاعتراف يشكل جرماً بالتعاون مع إسرائيل، وأساق من أجله للتحقيق والحبس من جديد!

أما الخبر العادي، فهو أننا استطعنا تأمين أكثر من زجاجة كحول، وأخذنا نمدد أجزاء منها بالماء، ونتناولها بمقدار معين لكل واحد بالتساوي، حتى لاتزيد حصة أحدنا على حصة الآخر. وهكذا أمضينا بعض الليالي بخمر مصطنع ولكنه حاد جداً، وكنا ننام مرتاحين.

وهكذا تأخرت عن الدراسة سنة كاملة، مابين سجنَيْ القلعة والمزة، وسبقني رفاقي. وعندما عدت إلى الجامعة عند بدء السنة الدراسية، وجدت نفسي مع زملاء جدد، تابعت معهم حتى نهاية دراستي الجامعية وتخرجي.

محاكمة بهجت بكداش ويوسف الفيصل[٢]

وقائع الجلسات الأولى للمحاكمة

كان يوم محاكمة بهجت بكداش ويوسف الفيصل يوماً مشهوداً تجلى فيه بأروع شكل، وجه هذه القوة الوطنية الشعبية التي هي الحزب الشيوعي، واتضح ما لها من مكانة واحترام في كل قلب مستقيم وشريف في العاصمة العربية الجبارة، ولدى جميع

[٢] ـ النص الكامل لهذا الفصل منقول من ملحق جريدة «نضال الشعب» العدد ٣٤ الصادر في تموز ١٩٤٨.

الـوطنيين الصـادقين والـديموقراطيين والجمـاهير الشـعبية في سـورية ولبنـان. لقـد ازدحمت قاعـة محكمـة الجنايـات (في بنايـة العابـد)، يـوم ١٤ تمـوز، وكذلك الممـرات والمداخل إلى المحكمة، بالجماهير التي كانت تضم في صفوفها، إلى جانب أبنـاء دمشـق، وفوداً من حمص وحلب وطرابلس وبيروت وبقية الأنحاء، إذ حرص أبناء الشعب في كل زاوية من البلاد على أن يرسلوا ولو واحد منهم ليعود فيروي لهم ما رآه وما سمعه في هذه المحاكمة التي ليست سوى معركة من معارك النضال ضد الاستعمار والرجعية، معارك الحرية والخبز، التي خاضها الشيوعيون ويخوضونها بجرأة وثبات وبإخلاص لا حد له لوطنهم وشعبهم.

وقد قام محسن البرازي[٣] «وزمله» من رجال الأمن العام، بمناورات ومحاولات سافلة لأجل طمس المغزى الوطني الشعبي الذي انعكس في ما ذكرناه، لأنهم يخشون الحقيقة. ويرتعشون ذعراً من أن يطّلع الشعب على هذه الحقيقة. وقد حاولوا قبلاً نقل الدعوى إلى مدينة أخرى، غير أن «المتهمَيْن» احتجا بشدة وطلبا أن تجري المحاكمة أمام شعب دمشق الذي شهد الاعتداء وشاهد وحشية المعتدين!

وهكذا كان! ولكن في يوم المحاكمة، هال محسن البرازي إقبال الشعب بهذا الشكل، واستولى عليه الذعر من أن تتحول المحاكمة إلى منبر اتهام ضد سادته المستعمرين الإنكليز والأمريكيين، فتنفضح أمام هذا الجمهور من الناس جرائمه وجرائم زملائه الحكام وأصدقائهم الإخوان المسلمين، إخوان كلايتون، وغيرهم، ولذلك جرت المحاولات لمنع الجماهير من دخول القاعة، ولكنها لم تنجح كما كان يشتهي البرازي، ... فافتتحت الجلسة في الساعة الثانية عشرة والنصف عوضاً عن الساعة العاشرة كما كان مقرراً، ولكن عدد الجماهير لم يخفَّ بل كان قد ازداد.

فجرى حينئذ عند افتتاح الجلسة شيء أثار دهشة العامة إذ أعلن رئيس المحكمة، الأستاذ مصطفى الرحيباني، أن الضبط الاستنطاقي قد ضاع، وأعلن رفع الجلسة نصف ساعة للبحث عنه. ولما عادت المحكمة إلى الالتئام أعلن الرئيس أن الجهود للتفتيش عن الضبط لم تثمر، ولكن الرئيس نفسه لم يخفِ امتعاضه ودهشته فقال: «هذه أول مرة يفقد فيها ضبط استنطاقي لا في تاريخ هذه المحكمة فقط، بل في تاريخ القضاء كله.

ورأى جميع الحضور في فقد الضبط، شيئاً مقصوداً فيه إصبع مردم[٤] والبرازي، ومحاولة لاجتناب هجمات بهجت بكداش ويوسف الفيصل على الاستعمار والرجعية أمام هذا الجمهور الشعبي الكبير!

---

[٣] ـــ وزير الداخلية آنذاك.

[٤] ـــ رئيس الوزراء في سورية آنذاك.

وقد قدم الأستاذان أحمد محفل وموريس صليبي صورة عن الضبط الاستنطاقي للاستناد إليه فيما لو بقي «الأصل ضائعاً». ثم أراد الرئيس تأجيل الدعوى إلى ما بعد رمضان، فأصر محامو الدفاع على أن تكون في اليوم التالي (١٥ تموز). وهكذا كان، وتفرق الناس وهم يلغطون بهذا الحادث الذي كان له دوي كبير في أوساط القضاء وفي جميع الأوساط الدمشقية. ورأى فيه الجميع دليلاً آخر على ضعف المسؤولين وخوفهم من الرأي العام!

وكانت هيئة الدفاع مؤلفة من أكثر من خمسين محامياً سورياً ولبنانياً، حضر منهم في الجلسة الأولى ١٤ محامياً، في مقدمتهم الأساتذة يوسف الحكيم، أنيس الحلبي، أحمد محفل، الدكتور نصوح الغفري، موريس صليبي، أنيس حداد، إلياس شاهين، هنري مخيبر،إيليا مباردي، حسيب نمر. أما محامو الادعاء الشخصي فهم الأساتذة حسن الغزاوي، ورياض العابد، (وهو من أركان الحزب الوطني) وصبحي دك الباب.

الجلسة الثانية في ١٥ تموز!

فتحت الجلسة في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر، وقد اتخذت التدابير لمنع الجمهور من دخول قاعة المحكمة، ولكن كان فيها رغم ذلك عدد لابأس به من الجمهور. وأعلن الرئيس أن الضبط الاستنطاقي قد عثر عليه. وحضر للدفاع عن المتهمين الأساتذة يوسف الحكيم، أنيس الحلبي، أحمد محفل، نصوح الغفري، إلياس شاهين، حسيب مخايل، أنيس الحداد، كما حضر محامو الادعاء الشخصي.

وبعد تلاوة مضابط الاتهام، وتقارير الخبراء، سأل الرئيس «المتهمين» بهجت بكداش ويوسف الفيصل عما ينسب إليهما.

النائب العام: أرجو الرئاسة أن تطلب من المتهمين الاعتراف بالحقيقة.

المتهمان: نحن لا نخاف الحقيقة، ولا نقول إلا الحقيقة.

ثم بدأ الاستجواب.

بهجت بكداش: ابتدأ بوصف الحادث، وتكلم بتأنٍ واطمئنان ورصانة، وكان لموقفه ولهجته الحازمة الهادئة أثر كبير لدى المستمعين، وقد ذكر كيف أن المعتدين - وأبى أن يسميهم متظاهرين - هاجموا مكتب الحزب الشيوعي بالحجارة والأسلحة، ثم كيف حاولوا إحراقه، وذكر أنه أصيب بجرح في رأسه، ثم سمع بأن واحداً من المهاجمين المعتدين قد قتل (وهو صلاح الدين الجعفري). ونفى نفياً باتاً التهمة الموجهة إليه من حمل السلاح وإطلاق النار ثم قال: «إن هذا الهجوم قد دبره الاستعمار الإنكليزي والأمريكي بواسطة الإخوان المسلمين لإلهاء الشعب عن النضال ضد المستعمرين

الإنكليز والأمريكيين، وعن مكافحة مؤامراتهم ومشاريعهم مع الملك عبد الله، وتحويل هذا النضال إلى وجهة أخرى». ثم شرح كيف أن رجال الأمن لم يرغبوا في رد الهجوم، ثم فضح تقاعس المسؤولين عن إرسال القوة الكافية رغم إشعارهم. وسأله الرئيس عن مقتل الطفل سمير، فقال بأنه يعتقد جازماً أن المعتدين هم الذين قتلوه للتهييج وإثارة الفتنة.

الرئيس: من تعتقد أنه قاتل الجعفري؟

بهجت بكداش: لا أعلم. لأنني كنت في غرفة أخرى ساعة وقوع الحادث. ثم نفى اشتراكه في إطلاق النار كما أيد إفادته الاستنطاقية بكاملها. ثم طلب من الرئاسة أن تسجل أن المحاكم العسكرية الاستعمارية الفرنسية كانت قد حكمت عليه بالسجن ثماني سنوات لمحاربته الاستعمار.

الادعاء الشخصي: أرجو الرئاسة أن تسأل المتهم عن التهمة التي حكم من أجلها لأن محاربة الاستعمار كلمة مطاطة.

بهجت بكداش: إنني اتهمت بالعمل والنضال لاستقلال سورية، وكان هذا العمل يشكل جريمة في نظر الاستعمار (وهنا همس أحد الحضور في أذن رفيقه: وهو لا يزال يشكل جريمة في نظر مردم والبرازي).

النائب العام: وهل قضيت هذه المدة في السجن؟

بهجت بكداش: إن يد الاستعمار لم تستطع أن تنالني، وكان الحكم غيابياً.

ثم وقف يوسف الفيصل، فتكلم ببلاغة واطمئنان وهدوء أثار الإعجاب. وذكر أدوار القضية كما جاءت في إفادته الاستنطاقية، ونفى اشتراكه في إطلاق النار، وقال إنه يجهل من قتل الطفل سمير، ولكن في استطاعته أن يقول إن المرحوم حسين عاقو هو الذي أطلق النار على الجعفري لما رآه يحاول إحراق المكتب. ثم قال: «إن المؤامرة قد دبرها الإخوان المسلمون» وأضاف أنه أثناء المظاهرات التي جرت صباح يوم الحادث، سمع من بعض المتظاهرين أنهم سيهاجمون مكتب الحزب الشيوعي. ثم خاطب الرئيس قائلاً: «تذكر يا حضرة الرئيس لما كنت رئيساً لمحكمة البداية في حمص كيف حاول هذا المضلل مصطفى السباعي إثارة الفتن في تلك المدينة، وقد جاء إلى دمشق فثابر على خطته نفسها».

الرئيس: هناك أحد الطلاب يشهد بأنه رآك تطلق النار.

يوسف الفيصل: إن هذا الطالب هو زميلي في الصف (في معهد الطب في الجامعة السورية) وفي استطاعته أن يصفني غيباً من أخمص قدمي إلى قمة رأسي، وليس لشهادته قيمة.

وفوق ذلك فأنا على خلاف معه في الآراء السياسية، وهو يعمل ضدي باستمرار كما أناضل أنا أيضاً ضد آرائه.

الادعاء الشخصي: أرجو من الرئاسة أن تدون أن المتهم سمع أثناء سيره في المظاهرة أن المتظاهرين سيهاجمون مكتب الحزب.

يوسف الفيصل: سمعت ذلك، ولكنني لم أنقل الخبر إلى أحد . على أنني أرجو الرئاسة أن تدون أنه على إثر الانتخابات في تموز من السنة الماضية، حين كانت «صوت الشعب» تفضح مصطفى السباعي ومحمد المبارك والإخوان المسلمين، أرسل محمد المبارك إنذاراً إلى قادة الحزب الشيوعي بدمشق يقول لهم إنه ستأتي مناسبة يحرق فيها مكتب الحزب الشيوعي. وقد نشرت جريدة صوت الشعب هذا التهديد .

الرئيس: إن المحاكمة منعت عن مصطفى السباعي ومحمد المبارك.

يوسف الفيصل: أرجو تدوين ذلك على سبيل المعلومات وللدلالة على أن الهجوم على مكتب الحزب كان مدبراً.

وهنا أعلن الرئيس ختام الجلسة، وبعد مناقشة بينه وبين جانب الدفاع، قال إنه يرغب في إنهاء هذه القضية بسرعة، وتأجلت الجلسة إلى ١٦ آب ١٩٤٨ الساعة الثامنة صباحاً.

قرار المحكمة ببراءة يوسف الفيصل وبهجت بكداش

لفظت محكمة الجنايات بدمشق حكمها في قضية الاعتداء على مكتب الحزب الشيوعي (٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٧) الذي قتل خلاله أحد المعتدين المدعو صلاح الجعفري فبرأت الطالب الجامعي يوسف الفيصل والعامل بهجت بكداش، وشملت البراءة الشهيد حسين عاقو الذي قتله المهاجمون بين أيدي قوى الأمن ولم يحاكم أحد بشأنه.

لقد كانت البراءة صفعة شديدة لعملاء الاستعمار الإنكليزي والأمريكي من الحكام الرجعيين إلى الإخوان المنافقين إلى زعماء الحزب الوطني وجميع شركائهم وأذنابهم من سفاكي فيصل العسلي إلى المجرمين الطاشناق الأرمن الذين تعاونوا جميعاً في تنظيم تلك الحملة الرعناء على الشيوعيين وعلى الاتحاد السوفييتي.

لقد بينت وقائع المحاكمة كم كانت منكرة وسافلة تلك الجريمة الشنعاء التي كان الدافع الأساسي إليها السعي لصرف الأنظار عن خيانة الحكام وعن جرائم الاستعمار ضد فلسطين وضد جميع الشعوب العربية تحت ستار مكافحة الشيوعية.

وبينت وقائع المحاكمة أن الهجوم على الشيوعيين كان تمهيداً لما نراه اليوم من هجوم عام على حريات الشعب وعلى معيشته وخبزه وعلى كل الحركة الوطنية والشعبية.

واليوم، بعد أن اتفقت بريطانيا وأمريكا وفرنسا على مشروع برنادوت القاضي بإبقاء نظام الاستعمار في فلسطين وإلحاق القسم العربي من فلسطين بمستعمرة شرق الأردن، أتت وقائع المحاكمة برهاناً جديداً على هول تلك الجريمة الوطنية التي ارتكبها الحكام الرجعيون تحت شعار الدعوة إلى الثقة ببريطانيا.

وكم كان الجو في المحاكمة مهيباً حين أخذ الدفاع يشرح أن الاتحاد السوفييتي كان على حق، وأنه كان ولا يزال وسيبقى نصير الشعوب العربية الثابت الأمين في نضالها لأجل الاستقلال والحرية والديموقراطية.

إن جميع الحجج التي استند إليها الادعاء الشخصي انهارت كلياً أمام براهين الدفاع الدامغة حتى اضطر ممثل الادعاء الشخصي نفسه إلى الإعلان في قاعة المحكمة بأنه لا يشك أبداً في وطنية الشيوعيين.

إن المحاكمة، خصوصاً في جلسة المرافعات الأخيرة، لم تكن في الواقع محاكمة بهجت بكداش ويوسف الفيصل. فقد أصبح موقفهما موقف الهجوم. وتمثلت لأذهان الحضور في المحكمة وجوه صفراء لئيمة أخذها الارتباك: وجوه المتهمين الحقيقيين،مردم والبرازي والعسلي ومصطفى السباعي وجميع زملائهم الرجعيين المخضبة أيديهم بالدماء العربية، والملوثة ضمائرهم بوحل الخيانة الوطنية!

إن الاهتمام الذي أبداه الرأي العام بهذه الدعوى، هذا الاهتمام الذي انعكس حتى في الصحافة المعادية للحزب الشيوعي، وما أثاره حكم البراءة من موجة ابتهاج شعبية شملت العمال والمثقفين الأحرار وجميع الوطنيين الصادقين في دمشق، وسرت إلى الجماهير الشعبية في القرى والمدن السورية واللبنانية، وكل ذلك كان مظهراً سياسياً واضحاً لما يكنه الشعب من كره للمستعمرين وعميلتهم الرجعية السوداء، وما يشعر به الشعب من استنكار لجريمتهم السافلة التي لم تكن في الحقيقة جريمة ضد الحزب الشيوعي فقط، بل كانت فاتحة سلسلة من الجرائم الفظيعة ضد فلسطين، وضد الحركة الوطنية الديموقراطية العربية بأسرها.

إن المناضلين فيصل وبكداش رغم براءتهما أعيدا إلى السجن بتهمة ضرب الدرك، مع أنهما وعشرة من إخوانهما المعتقلين، لقوا من الدرك ومدير سجن القلعة، «زلمة» جميل مردم، أفظع أنواع الضرب والتعذيب الوحشي وهم مضربون عن الطعام.

إن التضامن الشعبي قد أحبط ما حاولته الحكومة السورية من إبعاد دعوى فيصل وبكداش عن الرأي العام، بأمل إخفاء مسؤوليتها وجرائمها وضرب المناضلين

المحبوبين، فينبغي أن يستمر هذا التضامن لإنقاذهما وجميع إخوانهما من المؤامرة الجديدة.

إن مجموع المناضلين النقابيين والديموقراطيين والشيوعيين، من العمال والشباب والطلاب والمثقفين، المعتقلين في سجن المزة العسكري وسجن دمشق هو ٢١، وفي بعلبك ١٦، هذا عدا السيدة ماري باشا المعتقلة في الدكوانة، والعامل محمد صند في المعتقل في حلب. فينبغي أن يستمر التضامن الشعبي في سورية ولبنان وأن يشتد دون انقطاع لإنقاذهم جميعاً!

إلى الاتحاد والنضال لإطلاق الحريات وانتزاع الحقوق الديموقراطية من استبداد الحكام الرجعيين الذين يدوسون بأقدامهم أبسط المبادئ التي ينص عليها الدستور السوري والدستور اللبناني نفسهما.

عاش الاتحاد والنضال ضد الاستعمار الإنكليزي والأمريكي وعملائهما الرجعيين الخونة، في سبيل الاستقلال والحرية والديموقراطية!

ملحق وقائع الجلسة الأخيرة للمحاكمة

الرئيس: مصطفى الرحيباتي. العضوان: موفق الحبيس وصادق العظم. النيابة العامة: عبد الحميد المارديني.

الدفاع: يوسف الحكيم، أنيس الحلبي، أحمد محفل، موريس صليبي، عبد الله حريكة. أما محامو بيروت فهم: حسني أبو ظهر، هنري مخيبر، حسيب نمر، إلياس شاهين، حسيب مخايل، فقد أرجعهم الأمن العام السوري من الحدود، فكان الاستنكار عاماً، واحتجت نقابتا المحامين بدمشق وبيروت، وأثار المحامون القضية خلال المحاكمة نفسها.

وقد تجمع في القاعة والأروقة والباحة جمهور حاشد من العمال والشباب والطلاب، ووفود من القرى ومن حمص وحلب وزحلة وطرابلس. أما وفد بيروت فقد أرجعه كذلك الأمن السوري من الحدود.

وكان في القاعة كثير من رجال القضاء والمحاماة ومندوبي الصحف.

وقد طلبت النيابة العامة تبرئة بهجت بكداش وتجريم يوسف الفيصل مع اعتبار كل الأسباب المخففة إلى حد الاكتفاء بالمدة التي قضاها بالسجن.

وحمل محامي الادعاء الشخصي على الشيوعية والشيوعيين بالنغمة المألوفة أكثر مما تكلم عن الحادث نفسه لفقدان الأدلة لديه.

ثم بدأت مرافعات الدفاع، فألقى الأستاذ الحكيم دفاعاً كبيراً مفعماً بالوقائع غنياً بالمستندات العلمية والقانونية، وكان جَهْوَري الصوت قوي اللهجة. وقد أثار الإعجاب والانتباه الشديد.

وبعد أن فند الحملات على الحزب الشيوعي وما فيها من أضاليل، شرح الحادث بدقة عظيمة وأسقط كل حجج الاتهام والادعاء الشخصي ولم يُبْقِ منها حجراً على حجر.

ثم ألقى الأستاذ أحمد محفل دفاعاً سياسياً شاملاً، بعد ان بين أنه لا يمكن الفصل بين الناحيتين القانونية والسياسية في هذه القضية.

ويدأ بفضح ما أرادته بريطانيا، بمعونة بعض الأوساط المسؤولة العربية، من ضمن القسم العربي من فلسطين إلى شرق الأردن، وشرح صواب شعار الحزب الشيوعي بإقامة دولة عربية مستقلة في القسم العربي من فلسطين. وتجاه ذلك شرح موقف الذين هاجموا مكتب الحزب الشيوعي من قضية فلسطين فبين أن الإخوان المسلمين ينفذون سياسة يرسمها إبراهيم الدباس الموظف بالمفوضية البريطانية بدمشق. أما جماعة العسلي فيتسلحون،متمتعين بالحماية التامة، لقتل الناس كما فعلوا بالشيوعيين وبالطالب الوطني محمد علوش.

ثم قال إن الحكومات العربية كانت سياستها الدعوة إلى الثقة ببريطانيا ثم بها وبأمريكا مع العداء للاتحاد السوفييتي، وكل عربي يرى اليوم إفلاس هذه السياسة، ثم بين انهيار حملة الافتراء على الاتحاد السوفييتي. وشرح الموقف السوفييتي من فلسطين فبين أنه وافق على إقامة دولتين مستقلتين في فلسطين، رغم إعلان مندوبيه مزايا الدولة الموحدة أو الاتحادية وذلك نظراً للتوتر الشديد بين العرب واليهود بسبب السياسية البريطانية. وبين مقاومة الاتحاد السوفييتي لمشروع برنادوت، ثم قال إن الاتحاد السوفييتي أيدنا في نضالنا لأجل الجلاء حين اتفق الإنكليز والفرنسيون والأمريكيون علينا، وهو قد أيد ويؤيد نضال جميع الشعوب العربية.

ثم ذكر إحراق مكتب العلاقات الثقافية بين سورية والاتحاد السوفييتي وقال: «إن هذا المكتب كان يطلع العرب على حضارة جديدة يزعم أبواق الاستعمار أن دونها سوراً من حديد، حتى إذا جاء من يثبت أن لا سور هناك أوقدوا بيته وودوا لو ذبحوه». ثم قال: «لا الوطنية ولا الشرف العربي يقضيان بالانحناء أمام الاستعمار. الوطنية الصحيحة هي الحرص على أن يكون وطننا حراً مستقلاً لا تسحقه غطرسة الأجنبي ولا يسوده الفقر والجهل ولا الخداع.. هي وطنية بهجت بكداش ويوسف الفيصل والشهيد حسين عاقو».

ثم قال: «لقد نجح الاستعمار بواسطة أعوانه في الجامعة العربية باتخاذ قرار بحل الحزبين الشيوعيين السوري واللبناني. ولكن من السخف أن يتصور أحد أنه يستطيع بجرة قلم أن يزيح من طريق النضال تلك القوة الديموقراطية التي نبتت في أرض هذا الوطن واستمدت من عماله وكادحيه جميعاً معيناً لا ينضب من الثبات والقوة للنضال ضد الاستعمار وأعوانه».

وانتقل إلى الحادث فشرحه، وبين مسؤولية الحكومة التي أدى سلوكها إلى جعل بلادنا مسرح إرهاب بدأ بالشيوعيين ثم اتصل بمقتل علوش ويسير بنا إلى هاوية الإجرام السياسي والإرهاب الذي يسمونه الفاشيستية!

وتكلم الأستاذ أنيس الحلبي، فرد رداً قوياً على الادعاء، ثم أعلن تأييده لدفاع الأستاذ أحمد محفل وبقية الزملاء.

ثم ألقى الأستاذ موريس صليبي دفاعاً قوياً رد فيه على الادعاء الشخصي، ودحض التهم التي وجهها للشيوعيين وأشار إلى الأصابع الخفية التي وجهت التحقيق. وحمل الأستاذ عبد الله حريكي حملة شديدة على المؤامرات والمشاريع الاستعمارية والحربية، وقال إن ملاحقة الشيوعيين لا تفيد إلا إنكلترا وأمريكا.

وألقى يوسف الفيصل وبهجت بكداش دفاعين قويين فيهما الاعتزاز بحزبهما الوطني الشعبي، والثقة التي لا حد لها بشعبهما وبانتصاره في نضاله ضد الاستعمار والرجعية.

ودامت المرافعات أربع ساعات، وبعد أن اختلت المحكمة أعلنت حكمها المأخوذ بالأكثرية، ببراءة المناضلين، فضجت القاعة بالتصفيق الشديد والهتاف. وتهافت إخوان المناضلين عليهما يعانقونهما بحرارة وإخاء.

وكان لهذا الانتصار دوي كبير في دمشق لم يلبث أن امتد إلى سورية ولبنان!

الفصل السادس

الانقلابات العسكرية

انقلاب حسني الزعيم:

وقع هذا الانقلاب ليلة ٢٩ ـ ٣٠ آذار ١٩٤٩.

خرجتُ صباح ٣٠ آذار من بيتي الكائن في حارة بندق، المتفرعة من شارع العابد باتجاه منطقة عرنوس. ولم أكن قد سمعت أخبار الصباح، وإذا بي أفاجأ بأصوات تضج في أكثر من مخزن بخطاب يلقيه قائد الجيش الزعيم حسني الزعيم. وكانت الفقرات الأولى التي سمعتها مصادفة قد تضمنت هجوماً بشعاً على الشيوعيين وتهديدات بالتصفية والشنق. حولت اتجاهي مباشرة إلى بيت أحد الرفاق المسؤولين في دمشق في ذلك الحين الرفيق عبد القادر إسماعيل.

وكان عبد القادر إسماعيل أحد القادة الشيوعيين العراقين اللذين لجؤوا إلى دمشق هرباً من اضطهاد الطاغية نوري السعيد، وانضم إلى صفوف الحزب الشيوعي السوري وعمل في قيادته، وكان عضواً في قيادة دمشق التي كانت تضم إلى جانبه الرفاق: نجاة قصاب حسن، إبراهيم بكري، أنور حداد، وأنا. وكان كذلك عضواً في اللجنة المركزية ويقيم في بيت سري قرب سوق الجمعة في حي الشيخ محيي الدين بن العربي. طرقت الباب على النحو المتعارف عليه، ودخلت، وتحدثنا قليلاً حول الوضع وخطورته، وطلب إلي التريث وعدم اتخاذ أية تدابير، انتظاراً لتعليمات القيادة المركزية التي تقيم في بيروت.

تعود الأسباب العميقة والحقيقية لهذا الانقلاب بالدرجة الأولى، إلى التآمر الإمبريالي، المتعدد الوجوه، الإنكليزي والأمريكي، والافرنسي. وقد تصارعت هذه القوى الطامعة فيما بينها لجني مكاسب الانقلاب، ووظفت لهذا الغرض عملاء عرباً وسوريين وعدداً من الحكام. ووجدت هذه القوى في شخص حسني الزعيم وأخلاقه ومواصفاته وطموحه وشذوذه الأداة الطيعة لتنفيذ أغراضها. فمنذ كان حسني الزعيم

قائداً لموقع دير الزور، أقام علاقات مع موفدين من الملك عبد الله الذي كان يطمح إلى تحقيق حلمه في حكم سورية، ليخلف بذلك أخاه الملك فيصل. كما أقام علاقات مع موفدين من السلطات العراقية القائمة آنذاك. ثم عندما أصبح ضابطاً كبيراً في دمشق وقائداً للجيش، أقام علاقات مع ضباط مخابرات أمريكيين وإنكليز، إلى جانب عملاء إسرائيليين.

ولكن حسني الزعيم ومن وراءه استغلوا، لدرجة كبيرة، واستخدموا على نطاق واسع، الأوضاع الداخلية المتردية لجماهير الشعب، وخاصة الحالة النفسية التي انتشرت في أوساط الجماهير السورية والعربية، إثر هزيمة الجيوش العربية في عام ١٩٤٨ في فلسطين. واستطاع حسني الزعيم الظهور في الأيام الأولى، كمنقذ ومحرر، وخرجت تظاهرات تهتف باسمه، وامتلأت شوارع دمشق بتظاهرات الطلاب التي تحيي الانقلاب.

على هذه الأرضية بررت جريدة «الانقلاب» التي كان صاحبها ومديرها المسؤول منير الريس، وسكرتير التحرير فيها ممتاز الركابي، هذا الانقلاب بالعوامل التالية:

١ ـ الانتخابات النيابية التي جرت في تموز ١٩٤٧ في جو مليء بالتزوير وسلب إرادة الشعب.

٢ ـ تعديل الدستور السوري في العشرين من آذار ١٩٤٨ لتجديد انتخاب رئيس الجمهورية السابق قبل انتهاء مدة الخمس سنوات المحددة لرئاسته.

٣ ـ فاجعة فلسطين وماسببته من صدمة موجعة وردة فعل أليمة لدى الشعوب العربية، ولاسيما الشعب السوري، بسبب التباين الشاسع بين الوقائع الحقيقية والتصريحات الصادرة عن قادة البلاد في ذلك الوقت.

٤ ـ الميوعة في الحكم والاستهتار برغبات الشعب، والسير في سياسة طبقية، وضعف السلطة التنفيذية.

٥ ـ الغوص والميوعة في الحياة النيابية، والابتعاد بها عن تمثيل الشعب إلى قضاء المصالح وجني المنافع الخاصة.

٦ ـ القيام بمحاولات تهدف إلى تحطيم كرامة الجيش، رغم مابذله من تضحية ووفاء لشرف العروبة في فلسطين، ورغم ماحققه من أمجاد في الذود عن سورية متحدياً المناورات السياسية الأجنبية.

والباحث في هذه العوامل كلها، يرى فيها أسباباً تبريرية، إن لم تكن محاولة لخداع الشارع والجمهور لتغطية العوامل العميقة التي ذكرناها والكامنة وراء هذا الانقلاب، على الرغم من أنه صحيح ما ذكر حول رجال الحكم في ذلك الحين، فطبيعتهم

كبرجوازية كبيرة وملاكين وإقطاعيين، كانوا قد غرقوا في الاستهتار برغبات الشعب وساروا في سياسة طبقية معادية لمصالح الجماهير الشعبية.

لقد كان الاستقلال حديثاً ولم يمض بعد على الجلاء سوى ثلاث سنوات، وخلالها كان النضال حاداً جداً بين البرجوازية الحاكمة، التي أرادت توظيف الاستقلال الحديث لخدمة مصالحها، وبين جماهير الشعب التي ناضلت في سبيل الاستقلال وخاضت الثورات والإضرابات وعانت الجوع والعسف الاستعماري وقدمت الدماء رخيصة في هذا السبيل، والتي أرادت أن تكون لها حصتها في هذا الانتصار وفي هذا الاستقلال، في مشاريع خدمية وإصلاحات وضرب هياكل الاحتلال والرجعية، من إقطاع وملكية كبيرة للأرض ومزارع شاسعة يستثمر فيها مئات ألوف الفلاحين الفقراء والمعدمين.

هذا كله صحيح، وصحيح أيضاً ذلك الشعور المنكسر، شعور الهزيمة التي أصابت الجيوش العربية كاملة وكأن القضية كانت مناورة أو لعبة مكشوفة، لتحقيق ماأرادته الإمبريالية العالمية، وخاصة الاستعمار البريطاني من إقامة الدولة الصهيونية في قلب العالم العربي، لتقسيمه وللدور المستقبلي المنوط بها، وهو ضرب حركات التحرر الوطني وضرب الاتجاهات الاستقلالية والتحررية لدى الشعوب العربية.

لقد كان الصراع في سورية حول أسباب الهزيمة حاداً جداً، وقد ألقى الجيش العربي السوري المسؤولية في ذلك على الأنظمة العربية، وبدأ التراشق في تحميل المسؤولية. وأصدر شكري القوتلي، رئيس الجمهورية آنذاك، قراراً بتشكيل لجنة لبحث أسباب الهزيمة، وكان يشير في مجالسه الخاصة وأحاديثه للمقربين منه، إلى تحميل المسؤولية لقائد الجيش آنذاك حسني الزعيم ورئيس أركانه.

وانعكست هذه الحالة في مجلس النواب، وأخذ النواب يبحثون في هذا الأمر الهام، انطلاقاً من المصالح الطبقية الخاصة. وألقى في ذلك الحين أحد أعضاء مجلس النواب فيصل العسلي المقرب من قيادات السلطة، خطاباً اتهم فيه حسني الزعيم بالخيانة.

وبدا أن حسني الزعيم شعر بأن الأمور تتجه نحو إبعاده عن مركزه، خاصة أن وزير الدفاع أحمد الشراباتي كان يفكر بإبعاد حسني الزعيم، ونشأ بينه وبين رئيس الوزراء جميل مردم خلاف حول ذلك، أدى إلى استقالة الشراباتي، واستلام جميل مردم وزارة الدفاع بالوكالة وأطلق يد حسني الزعيم في الجيش.

وقبل الانقلاب بيومين قام حسني الزعيم بزيارة الجبهة واجتمع إلى الضباط، وفي ليلة ٢٩ آذار اعتُقل شكري القوتلي وفيصل العسلي وآخرون وأعلن الانقلاب.

إن الأسباب الحقيقية للانقلاب، تعود إلى العوامل الحقيقية التي ذكرناها وأبرزها، مباحثات الهدنة السورية - الإسرائيلية. فقد كانت هذه المباحثات تتعثر، وكان

العسكريون السوريون يرفضون التراجع عن المواقع التي كانت بأيديهم، وكانت تشمل مساحة هامة من الأراضي العربية الفلسطينية، وبضمن ذلك مستعمرة مشمار هايردن. وكانت القوى الإمبريالية، تضغط لإعادة هذه الأراضي إلى إسرائيل. وقد تحقق ذلك فعلاً. ففي ٢٠ تموز ١٩٤٩ عقدت اتفاقية الهدنة بين سورية وإسرائيل، وأخليت مستعمرة مشمار هايردن، وماحولها وأبعدت القوات السورية، وأقيم بين سورية وإسرائيل خط حدود جديد هو خط الهدنة.

القضية الثانية التي كانت محط اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية، هي توقيع اتفاقية التابلاين، والسماح بمرور خط أنابيب هذه الشركة القادم من السعودية، عبر الأراضي السورية، إلى ميناء صيدا في لبنان.

يقول أكرم الحوراني في مذكراته متحدثاً عن زيارة له لمقر الأركان العامة في اليومين التاليين للانقلاب. «في زحمة مقابلات واجتماعات ذلك اليوم في وزارة الدفاع، تقدم مني حبيب أبو شهلا، وطلب مني الاجتماع على انفراد. وقال لي: إنه وكيل شركة التابلاين وإنه مفوض من قبل الشركة بأن يبحث معي التعديلات التي اقترحها على الاتفاقية، وإن الشركة مستعدة لرفع العائدات بما يحقق مصلحة سورية». وأجابه الحوراني أنه ليس هو المسؤول عن ذلك، وألح أبو شهلا عليه ووعده بما يطلبه من أموال.

بذلك تنتهي رواية مذكرات الحوراني. ولكن فيما بعد وقع حسني الزعيم هذه الاتفاقية، وأجيز إمرار أنابيب النفط الأمريكية في الأراضي السورية.

وكان لفرنسا أهدافها أيضاً، منها إبقاء سيطرتها على بنك سورية ولبنان والاحتفاظ بحق إصدار النقد، إلى جانب سعيها لإبقاء المؤسسات والمدارس الثقافية الإفرنسية مفتوحة وعاملة، وقد تحقق للإفرنسيين هذا الهدف أيضاً.

أما السبب الرابع والهام فقد عبر عنه تصريح لحسني الزعيم إلى هيئة الإذاعة البريطانية في ٩ آب ١٩٤٩. ويقول هذا التصريح «إن صاحب الفخامة المشير حسني الزعيم على استعداد للسعي إلى قيام ميثاق في الشرق الأوسط معادل لميثاق الأطلسي، على شرط أن تمده الولايات المتحدة بالمساعدة الاقتصادية والعسكرية، وذكر أنه إذا تم عقد ميثاق كهذا أوجد خطاً دفاعياً ثابتاً وراء تركيا، وأن فخامته راغب كل الرغبة في أن يتولى دوراً رئيسياً في إيجاد كتلة إقليمية موجهة ضد الشيوعية، وأن يقبل فخامته انضمام إسرائيل إلى هذا الميثاق لئلا يتسرب الطابور الخامس الشيوعي إلى صفوفه..»[٥].

---

[٥] ــ جريدة الانقلاب العدد ٦٦ السنة الأولى ١٠ آب ١٩٤٩.

بقي أن نشير إلى اتصال حسني الزعيم بوزير الخارجية الإسرائيلي «موشيه شاريت»، ويروي عميل المخابرات السورية سامي جمعة متابعته لهذه الاتصالات التي كانت تتم في فندق بلودان، والذي كان يشرف على ترتيبها إبراهيم الحسيني رئيس الشرطة العسكرية آنذاك. وقد ذكر أكرم الحوراني في مذكراته هذه الواقعة في نهاية الحلقة ١٢، معتمداً على مذكرات عادل أرسلان التي اطلع عليها، والموجودة في مكتبة الجامعة الأمريكية.

سار حسني الزعيم في طريق الحكم الفردي والديكتاتورية منذ اليوم الأول، فالأمر العسكري رقم (١)، منح الحاكم العسكري الصلاحيات الممنوحة لرئيس الجمهورية كافة. ومنح الأمر العسكري رقم (٢) قائد الجيش حق إصدار المراسيم والدعوة لانتخاب جمعية تأسيسية.

ثم أصدر حسني الزعيم بعد ثلاثة أيام في ٣ نيسان قراراً بحل مجلس النواب، ونظم بعد ذلك استفتاء على رئاسته للجمهورية، ثم منح نفسه لقب المشير.

لقد استقبلت الأوساط السياسية الانقلاب بشكل مختلف، فالأحزاب والكتل البرلمانية اعترضت على الانقلاب، وحاول فارس الخوري رئيس مجلس النواب آنذاك، إيجاد صيغة وسط، لإبقاء مجلس النواب، وأعطى تصريحاً باعتبار الانقلاب أمراً واقعاً.. ولكن حسني الزعيم لم يقبل ذلك وحل البرلمان كما ذكرنا.

لقي الانقلاب تأييد حزب البعث، وألقى مدحت البيطار أحد قادة حزب البعث في ذلك الحين، خطاباً في مسجد بني أمية أيد فيه الانقلاب وأشاد بحسني الزعيم وحركته ومناقبه.

وتتحدث الكثير من الوقائع، عن تأييد أكرم الحوراني للانقلاب، بل حتى عن نشاطه في تحقيقه. فقد كان معاون رئيس الأركان بهيج كلاس على صلة بأكرم الحوراني، عن طريق أخيه خليل كلاس، الذي نجح بالنيابة عن حماه على قائمة الحوراني.

ولكن حسني الزعيم انقلب على مساعديه، فقد ابتعد عنه أكرم الحوراني وبدأ حزب البعث يهاجم نظام حسني الزعيم، مما أدى إلى اعتقال أمينه العام ميشيل عفلق وزجه في سجن المزة العسكري.

ولقي انقلاب حسني الزعيم تأييد الحزب السوري القومي، وتآمر حسني الزعيم مع رئيس الحزب أنطون سعادة على تنظيم انقلاب في لبنان وضرب الحكومة القائمة آنذاك. ولكن بعد أن سويت الأمور بين حسني الزعيم والسلطات اللبنانية، تحول مجدداً ضد الحزب السوري القومي، واعتقل رئيسه أنطون سعادة وسلمه إلى السلطات اللبنانية وحوكم بتهمة التآمر على النظام اللبناني وأعدم.

ناور حسني الزعيم في ميدان السياسة العربية، فقد قدم إلى سورية بعد أيام من الانقلاب موفد عراقي، ثم تبعه موفد أردني، وكان البلدان يطمحان إلى جر سورية للسياسة التي يسيران عليها والمتمثلة بالتحالف مع الاستعمار البريطاني. ولكن حسني الزعيم اندار بسرعة وسافر إلى القاهرة واتفق مع الملك فاروق وتبادل معه الهدايا، وسار في اتجاه التحالف المصري السعودي...

ولم يطل عهد حسني الزعيم ففي ١٤ آب ١٩٤٩ وقع انقلاب سامي الحناوي.

❖ ❖ ❖

عدت بعد يومين إلى بيت الرفيق عبد القادر إسماعيل، لتسليمه بياناً مرسلاً من القيادة لإرساله إلى المطبعة السرية لطبعه وتوزيعه لاحقاً. وكان مهماً إخفاء البيان، وأدخلته في لسان البنطال الذي يقع عند الزنار، وسرت متوجهاً في الشوارع الضيقة بين البيوت، لأتجنب رجال الأمن الذين كانوا ينتشرون انتشاراً واسعاً. وعندما اقتربت من مدرسة ابن خلدون، متجهاً إلى شارع بيروت، وإذ بعنصر أمني، اسمه كما أذكر، أحمد عيسى، يقبض علي ويدعو الأفراد المنتشرين في الزوايا لسوقي.. ووضعت وحدي في المقعد الخلفي لسيارة، وجلس عنصر أمن إلى جانب السائق. وسارت السيارة مسرعة نحو هدفها. تركز تفكيري في التخلص من البيان. وعملت بسرعة لإخراجه من لسان البنطال وأدخلت يدي وراء المقعد ورميته وكلي اعتقاد بأنه سيقع على الأرض وننتهي منه، وتبين لي فيما بعد، أن البيان بقي في السيارة في مكان الحقائب الذي يقع تحت المقعد الخلفي. وبقيت قلقاً طوال فترة الاعتقال، من وضع اليد عليه، وُضعت بضع ساعات في نظارة الشرطة العسكرية الكائنة في البرامكة أمام مدخل الباب الرئيسي لجامعة دمشق. ثم ساقني بعض رجال الشرطة العسكرية إلى سجن المزة، وأدخلت إلى مهجع في الطابق الثاني، ووجدت هناك عدداً من الرفاق سبق اعتقالهم وسوقهم إلى السجن، وأكثرهم من حي القصاع وباب توما في دمشق، ومنهم حنين شاغوري، عامل النجارة، والوجه الشيوعي البارز في هذا الحي، وجوزيف بركات عامل الميكانيك. وأخذت أعداد الرفاق تتكاثر. وزادت على الثلاثين رفيقاً. وبعد فترة أقل من شهر، أعادونا إلى نظارة الشرطة العسكرية، وألقوا علينا تنبيهات، بعدم معارضة النظام وبعدم العمل بالسياسة ثم أفرجوا عنا جميعاً.

لقد تراجع وضع الجماهير الشعبية كثيراً. ففي رسالة مؤرخة في أيار ١٩٤٩ وجهت إلى القيادة المركزية من منظمة حلب جاء مايلي:

إن تصريحات الزعيم الرنانة لم يعد لها أي أثر على الشعب الحلبي، بعد أن رأى بأم عينيه أن استثماره من الطبقة الحاكمة هو هو، بل زاد قوة تحت وطأة الإرهاب العسكري. إن محافظ حلب حسني البرازي الذي والى جميع عهود الاستعمار الفرنسي

منذ عام ١٩٢٧ في الإسكندرونة حتى عام ١٩٤٣، ضلل في البدء، إذ أصدر بياناً بتسعير بعض الحاجيات المعاشية، إلا أنه بدلاً من أن يراقب التجار الكبار والمستوردين والمحتكرين، وضعت القيود على «الدكانجية» الصغار الذين هم تحت رحمة المحتكرين، وفرضت عليهم التسعيرة تحت شتى ضروب الإرهاب. وكانت النتيجة أن اختفت معظم الحاجيات من السوق وتفاقم الغلاء وارتفع سعر اللحم إذ أصبح الكيلو غرام يباع في السوق السوداء بـ ٥ ليرات إلى ٥,٥٠، بعد أن كان يباع بأربع ليرات ونصف. وقد مرت بضعة أيام فقد فيها الخبز من الأسواق وكذلك اللحم.

ولم تعد تصريحات الزعيم الرنانة عن محو المحسوبيات وقطع دابر الرشوة لتفيد شيئاً بعد أن رأى الشعب الحلبي أن المحافظ يرتشي. وأن أكثر البرقيات التي أرسلت بتأييد الحكم الإرهابي الفردي، إنما كانت ترسل بعد التهديد من قبل الشعبة السياسية ومن الأمن العام.

إن استياء الجماهير يشتد ويتعاظم وخاصة من الطبقة العاملة التي تلقى في هذه الأيام بالمئات إلى الشوارع بسبب الأزمة الشديدة التي تعانيها الأسواق بسبب الضغط الاستعماري الأجنبي وبضائعه، حتى اضطر أخيراً أرباب العمل في اجتماع مشترك مع العمال أن يضعوا بياناً طالبوا فيه بوقف توريد البضائع الأجنبية وحماية الصناعة الوطنية، وبدأت الإفلاسات تعلن في الأسواق.

إن الوضعية السياسية بعد الانقلاب قد أثرت كثيراً على الأحزاب السياسية والجماهير الشعبية. إن حزب الشعب قد انقسم إلى قسمين في اجتماعه الذي عقده في فندق أوريان بالاس بدمشق. وقد كان الاجتماع مؤلفاً من ٢٤ شخصاً. وجرى تصويت سري على الاشتراك في حكومة الانقلاب أو عدمه. وكانت النتيجة أن وافق ١٥ من أصل ٢٤. وكان بين الموافقين ناظم القدسي، عبد الوهاب حومد، الشيخ معروف الدواليبي، فيضي الأتاسي. إلا أن رشدي الكيخيا كان من المعارضين، وحين أعلنت النتيجة انسحب من الاجتماع بعد أن ترك للمجتمعين أن يعمل كل واحد منهم باسمه الشخصي. وصدر قرار حزب الشعب بحلب بإيقاف نشاطه مؤقتاً. ومن هنا نرى أن سياسة اللجنة المركزية في انتقاد حزب الشعب كانت صحيحة، إلا أنه من المستحسن أن لانجمل جميع زعماء الحزب حين الانتقاد، بل أن نتحدث عن معظمهم، عسى أن نترك مجالاً لاتصالنا بالباقين لتكوين معارضة أو شبه جبهة أو إلى شكل من أشكال العمل المشترك، وأظن أن ذلك في استطاعتنا وخاصة مع زعماء الأحياء التابعة لحزب الشعب.

إن حملة الاعتقالات التي قامت بها الحكومة مؤخراً في حلب لم تؤثر على نشاط الحزب السياسي والتنظيمي. ولم يدل ببيانات الانسحاب سوى أربع أشخاص.

وقد وزع منشور في أول أيار وكان له أثر قوي بين مختلف الهيئات السياسية والجماهير الشعبية. إلا أن بعض من زعماء حزب الشعب عاتبونا على مهاجمتهم بهذه الصورة، إلا أن عتابهم كان ضعيفاً.

في ٢٥ حزيران ١٩٤٩ أصدر الحزب الشيوعي بياناً دعا فيه الشعب إلى مقاطعة الاستفتاء الذي دعا إليه حسني الزعيم.

كان عنوان البيان: فليسقط الاستفتاء المزيف، فلتسقط الديكتاتورية المجرمة وسيدها الاستعمار الأجنبي. عاش اتحاد جميع الوطنيين والديمقراطيين والقوميين الصادقين في النضال لأجل الاستقلال الوطني، ولأجل جمهورية ديمقراطية حقيقية ودستور ديمقراطي صحيح يضعه مجلس تأسيسي ينتخبه الشعب انتخاباً حراً مباشراً.

وجاء في متن البيان!

أيها السوريون والسوريات!

إن الاستفتاء الذي يدعو إليه الكولونيل حسني، خادم الاستعمار الأمريكي الإنكليزي، هو أكبر مهزلة في تاريخ سورية، هو استهانة وقحة بكرامة الشعب السوري، هو استهتار فظيع بأبسط مبادىء الديمقراطية والحرية.

إن الأسئلة المعروضة في هذا «الاستفتاء» المزعوم غايتها خداع الشعب وإيهامه بأن المراد أخذ رأيه في شؤون وطنه العليا، مع أنها في الحقيقة مناورة مفضوحة غايتها الوحيدة «انتخاب» الكولونيل بالتزوير والإرهاب وقوة الحراب، رئيساً لجمهورية موهومة، ليس لها من الجمهورية إلا الاسم، ثم تكليفه وضع دستور يصدره بمرسوم (كما كان يفعل المفوض السامي الافرنسي) ويعين فيه هو مدة حكمه وصلاحياته. فليست الغاية من «الاستفتاء» إذن سوى إلباس الحكم الديكتاتوري الحالي ثوباً «شرعياً»، بحجة أن الشعب السوري «قد صوت وانتخب». وهكذا يتيسر للمستعمرين الأمريكيين وشركائهم الإنكليز والافرنسيين أن يزعموا غداً أمام العالم، أن الاتفاقات والمعاهدات الاستعبادية العسكرية والبترولية التي يعقدونها مع خادمهم الكولونيل، رغم إرادة الشعب السوري، هي معاهدات واتفاقات شرعية.

ولكن شكل هذا الاستفتاء، والأسئلة السخيفة الواردة فيه، تكفي لإفهام الرأي العام الديمقراطي العالمي، بأنه مؤامرة فاشستية سافلة، لايمكن أن تعبر عن إرادة الشعب السوري في شيء، وتقليد ممسوخ لأساليب هتلر وموسوليني التي كنستها الشعوب وعلقت أصحابها على المشانق.

إن أبسط قواعد الديمقراطية تجعل وضع الدستور من حق مجلس تأسيسي ينتخبه الشعب انتخاباً حراً بالاقتراع السري العام على درجة واحدة، في ظل الديمقراطية والحريات الشاملة والدستور الموضوع هو الذي يحدد صلاحيات الرئيس وشكل انتخابه ومدة رئاسته، وكذلك صلاحيات المجلس النيابي ومدته.

وبعد أن يتحدث البيان عن الحكم الاستبدادي والإرهاب الأسود وفقدان حرية الرأي والكتابة والنشر وحظر كل اجتماع أو نشاط وطني وسجن مئات الوطنيين من شيوعيين وقوميين مخلصين ونقابيين وديمقراطيين وتعذيبهم بوحشية، وقلع أظافرهم، وكيهم بالنار، وإجبارهم على الأشغال الشاقة، واعتقال أقرباء الملاحقين بل حتى أمهاتهم كرهائن. بعد ذلك يقول البيان: «إن الكولونيل يعمل ويركض، لأنه يخشى أن يسبقه الزمن، ففي أقل من ثلاثة أشهر، تبددت جميع المزاعم والوعود الكاذبة التي كالها للشعب السوري. فقد مكن سيطرة الاستعمار الأمريكي وشريكه الإنكليزي والفرنسي على بلادنا، فصدق اتفاقية التابلاين الأمريكية، والاتفاقية الاقتصادية الفرنسية، وهو يستعد لتصديق اتفاقية شركة البترول الإنكليزية الإيرانية، وعقد قرضاً مع السعودية، وهو يمهد لفتح أبواب سورية أيضاً وأيضاً لرساميل وقروض أمريكية أخرى تنفيذاً لمشروع ترومان الاستعماري عن «تطوير الأقطار المتأخرة».

ثم يتابع البيان «إن الشعب السوري الذي تعوَّد فيما مضى أن يقاوم «انتخابات» المستعمرين المزيفة، ويجابه دباباتهم وحرابهم سيجيب على مهزلة «الاستفتاء» بالمقاطعة التامة.

ويتوجه البيان في النهاية:

أيها السوريون: إن الحزب الشيوعي السوري الذي عرفتموه مناضلاً جريئاً واعياً في سبيل الاستقلال الصحيح والديمقراطية وخبز الشعب، يدعوكم إلى مقاطعة «الاستفتاء» الفاشستي المفضوح مقاطعة تامة.

إن الحزب الشيوعي السوري يمد يده الوطنية الأخوية إلى جميع الوطنيين والقوميين الصادقين والديمقراطيين، مهما كان حزبهم واتجاههم، لتأليف جبهة وطنية ديمقراطية تقف في وجه الديكتاتورية وسيدها الاستعمار الأجنبي وتكافح التكتلات والمعاهدات الحربية العسكرية المجرمة، وتناضل في سبيل السلم والاستقلال الوطني والجمهورية الديمقراطية، وفي سبيل مجلس تأسيسي منتخب بالاقتراع السري العام المباشر في ظل الحرية التامة والديمقراطية، لكي يضع لسورية دستوراً ديمقراطياً صحيحاً يمثل إرادة الشعب السوري الحقيقية.

وقد وزع هذا البيان على نطاق واسع في مختلف المدن السورية وقام الرفاق يوسف نمر، جوزيف شاغوري، سليمان حلال بتوزيعه على دراجات هوائية في أحياء الشاغور وجوارها. وقامت مجموعات أخرى بتوزيع البيان في أحياء دمشق الأخرى.

وقد تفجر غضب الديكتاتورية، وقامت الأجهزة الأمنية بحملة شرسة اعتقلت على أثرها العشرات، ومارست أعمال تعذيب وحشي ضدهم. فقد اعتقل الرفاق خليل حريري وداود رستم وجوزيف مسلم وسليمان حلال... وقد صمدوا بصلابة أمام التعذيب واتخذوا موقفاً قوياً في مجابهة أجهزة الأمن وسيق أعداد من الرفاق من حمص إلى دمشق وسجنوا في سجونها منهم راتب جبنة وغيره. وكان بين معتقلي دمشق الرفاق: سليم شمعون، جوزيف أبيض، مطانيوس فويا، معروف بطاط، رفلة معماري، يوسف الصيفي. وقد فقد الرفيق يوسف الصيفي الوعي نتيجة التعذيب وبقيت آثار ذلك عليه سنين طويلة.

وكان هدف هذه الحملة، تلبية رغبة الأوساط الإمبريالية في توجيه ضربة إلى الحزب الشيوعي، الذي كان في طليعة المناضلين ضد الديكتاتورية الجديدة. وقد أقر عميل المخابرات سامي جمعة عند عرضه للوضع السياسي بعد الانقلاب بأن «الحزب الشيوعي شكل رأس الحربة في محاربة نظام حسني الزعيم ومقاومته، وذلك بذريعة أنه نظام عسكري ديكتاتوري قمعي عميل لأمريكا»[6] وإذا كانت الحملة قد أعطت بعض النتائج في حدوث إرباكات في النشاط الحزبي في المرحلة الأولى، وخاصة في مدينة حلب، إذ تبعثرت قيادة المنظمة، مما دفع القيادة إلى تكليف الرفيق إبراهيم بكري بالسفر إلى تلك المدينة، واستلام قيادة المنظمة وإعادة بنائها. وقد ساعد، في هذا النشاط الرفيق عبد الحكيم عبد الصمد من حمص والذي عمل محامياً في مكتب أحمد محفل.

واستطاع الرفيق إبراهيم بكري ومساعدوه في مدة زمنية قصيرة، أن يجمعوا الرفاق ويعيدوا بناء المنظمة. أما في دمشق وحمص وباقي المدن السورية فقد استمر العمل السري بشكل نشيط، واستمر توزيع البيانات والمنشورات المعادية للنظام الإرهابي الجديد. وأنشئت في دمشق مطبعة سرية كان يعمل فيها الرفيق رشاد عيسى عضو القيادة السابق.

وكان من أبرز النشاطات التظاهرة النسائية التي جرت في دمشق وسارت في شارع الصالحية باتجاه البرلمان، تهتف ضد الإمبريالية وتطالب بالحريات العامة وتحرير السجناء. وقد شاركت في هذه التظاهرة جموع نسائية من مختلف أحياء دمشق، وكان

---

[6] ـــ سامي جمعة أوراق من دفتر الوطن ص ٧٠.

على رأسها فضة حلال (أم سليمان). وداهمت الشرطة هذه التظاهرة وألقت القبض على عدد من الشابات وأودعتهن التوقيف لبضعة أيام ثم أفرجت عنهن.

لقد دشن حسني الزعيم مرحلة خطرة في حياة سورية وشعبها الأبي، وهي مرحلة الانقلابات العسكرية، التي كانت تتكرر واحداً إثر الآخر. ولكن عهد حسني الزعيم لم يطل، ففي ١٤ آب ١٩٤٩ وقع انقلاب سامي الحناوي.

حملة تضامن عربية وعالمية مع الشيوعيين:

اتسعت حملة الاعتقالات في الأشهر الأخيرة من حكم حسني الزعيم، ووصل عدد المعتقلين الشيوعيين إلى ١٥٠ معتقلاً من مختلف المحافظات السورية. ووصلت أنباء الاعتقالات إلى الرأي العام العالمي، وقامت حملة تضامن واسعة للإفراج عن المعتقلين. وقد وردت برقية تضامن من الاتحاد النقابي العالمي جاء فيها:

حضره رئيس الحكومة السورية ـ دمشق!

باسم الاتحاد النقابي العالمي، نحتج بأقصى الشدة على اعتقال النقابيين السوريين: داود رستم، يوسف مسلم، جميل عثمان، محمد سليقة، وصال فرحة، الذين زجوا في السجن بصورة كيفية، خلافاً لحقوق الإنسان وشرعة الأمم المتحدة وأبسط مبادىء العدل والحرية.

إننا نطالب بالإفراج عن جميع الديمقراطيين المعتقلين بسبب نشاطهم التقدمي، وبصورة خاصة بسبب نشاطهم النقابي، والمسجونين حالياً دون محاكمة ودون أن توجه إليهم أية تهمة، وتفضلوا ياحضرة الرئيس بقبول فائق احترامنا: لويس سايان: الأمين العام للاتحاد النقابي العالمي.

وبرقية من الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي، جاء فيها:

حسني الزعيم، رئيس الجمهورية السورية ـ دمشق!

نحتج بشدة على اعتقال الديمقراطيين السوريين بصورة كيفية، نستنكر أساليب الإرهاب وأعمال التعذيب المطبقة بحقهم، نطالب بإلحاح بوقف الملاحقات والإفراج حالياً عن النساء والطالبات الديمقراطيات باسم ٨٢ مليوناً من نساء العالم.

وبرقية من الاتحاد الدولي للطلاب جاء فيها:

رئيس الجمهورية السورية!

إن إضراب المعتقلين السياسيين عن الطعام في سورية، ابتداء من ٥ آب، قد أثار الضمير العالمي، باسم الاتحاد الدولي للطلاب الذي يضم ٦ ملايين عضو، نحتج بأقصى الشدة على اعتقال الطلاب وسجنهم دون محاكمة، وعلى إرهابهم وتعذيبهم

بوحشية خلافاً لمبادىء شرعة حقوق الإنسان وشرعة الأطلنطي وقوانين المعتقلين السياسيين، نطلب تدخلكم للإفراج عن السجناء المضربين. جاماهيدا خباتامي، عضو اللجنة التنفيذية لبلدان الشرق الأوسط للاتحاد الدولي للطلاب.

من أعضاء الوفود إلى مهرجان الشباب العالمي في بودابست:

نحن شباب جميع بلدان العالم، المجتمعون في باريس، قبل سفرنا إلى بودابست للاشتراك في المهرجان العالمي للشباب، نعرب عن قلقنا على مصير ١٥٠ معتقلاً سياسياً ديمقراطياً، مضربين عن الطعام منذ الخامس من آب في سجن المزة، ونحتج أشد الاحتجاج على التدابير الإرهابية وأعمال التعذيب الوحشي التي تطبقها حكومة الديكتاتور حسني الزعيم في سورية بحق الوطنيين المناضلين من أجل الاستقلال الوطني والديمقراطية والسلم.

إن الحكومة السورية، بوصفها عضواً في هيئة الأمم المتحدة، تخرق بعملها هذا أبسط مبادىء حقوق الإنسان بصورة فاضحة

إننا نلتمس تدخل هيئة الأمم بصورة سريعة لإنقاذ حياة ١٥٠ معتقلاً، ونطلب إطلاق سراحهم حالاً من قبل الحكومة السورية ووضع حد نهائي للإرهاب البوليسي.

وقد وقع هذا القرار الذي أرسل إلى هيئة الأمم، وإلى رابطة حقوق الإنسان، وإلى الحكومة السورية، مئات من الشباب من مختلف القوميات من العالم.

ووصلت برقية من هيئة الإغاثة الشعبية في فرنسا جاء فيها:

رئيس الجمهورية السورية حسني الزعيم - دمشق!

إضراب ١٥٠ معتقلاً سياسياً عن الطعام في قلعة المزة، احتجاجاً على إبقائهم في السجن بصورة كيفية منذ فترة طويلة وعلى سوء معاملتهم، أثار شعورنا، إن الإغاثة الشعبية في فرنسا تطالب بإلحاح بالإفراج عنهم.

كما وصلت برقية من اتحاد النساء في فرنسا جاء فيها:

علم المكتب الوطني لاتحاد النساء في فرنسا، بدهشة وقلق أن ١٥٠ ديمقراطياً سورياً بينهم ٣ فتيان تتراوح أعمارهم بين ١٣ و ١٤ و ١٦ عاماً وامرأتان، معتقلون في السجن منذ أربعة أشهر، وأنهم أعلنوا الإضراب عن الطعام. باسم ملايين الأمهات الفرنسيات، نطلب احترام أبسط مبادىء العدل والحرية والإفراج حالاً عن المعتقلين..

ووجهت اللجنة المركزية لاتحاد الطلاب الجمهوريين السوريين في أوربا الرسالة التالية:

دمشق فخامة رئيس الوزارة السورية!

إن اتحاد الطلاب الجمهوريين السوريين في أوربا، الذي ناضل دون هوادة ضد الاستعمار وصنيعته الديكتاتور الزعيم، يرى أن خطر المؤامرات الاستعمارية على استقلال وطننا وحرية شعبنا يتعاظم ويستفحل، ويعتقد أن خير وسيلة لإنقاذ استقلالنا وحريتنا المهددين هي المطالب الوطنية الآتية:

١ ـ تأليف حكومة اتحاد وطني ديمقراطي تضم جميع الهيئات التي أثبتت بنضالها ضد الديكتاتورية والاستعمار أنها مخلصة لوطنها وأمينة على مصالح شعبها.

٢ ـ إطلاق الحريات العامة وإطلاق سراح جميع الوطنيين، معتقلي العهد الديكتاتوري وإدانة المسؤولين عن اعتقالهم وتعذيبهم الوحشي وتحريم ملاحقة المناضلين ضد الاستعمار ومن أجل تقدم شعبهم ورخائه مهما كانت آراؤهم السياسية واتجاهاتهم الفكرية.

٣ ـ الدعوة لانتخاب مجلس تأسيسي يضع دستوراً تقدمياً للبلاد يتفق وروح العصر.

٤ ـ إلغاء الضرائب الاستبدادية عن الشعب، وتطوير اقتصاديات البلاد وحفظ ثرواتنا الوطنية، وإشاعة العدل الاجتماعي، وتحسين شروط حياة الشعب العامة.

٥ ـ تنظيف جهاز الحكومة والدولة الحاضر من العناصر التي ثبتت خيانتها للمصالح الوطنية واستهانتها بحقوق الشعب في أدوار مختلفة.

٦ـ إلغاء الاتفاقات الاستعمارية التي عقدها الديكتاتور لإرضاء أسياده المستعمرين، وانتهاج سياسة خارجية تقف بحزم في وجه جميع المشاريع الاستعمارية المختلفة، بترولية كانت أم عسكرية أم سياسية واقتصادية أم مالية.

١٨ آب ١٩٤٩

اللجنة المركزية لاتحاد الطلاب الجمهوريين السوريين في أوربا.

ووجهت لجنة الحقوقيين السوريين التقدميين الرسالة التالية:

دولة رئيس مجلس الوزراء السوري الأفخم!

إن الظروف الدولية التي تزداد تعقداً، والمؤامرات الاستعمارية المتواصلة على حريات الشعوب الضعيفة ومن بينها شعبنا السوري، تضع وزارتكم أمام مسؤولية تاريخية كبرى. ولذلك نرى من واجبنا، إنقاذاً لسمعة سورية دولياً، ومحواً لعار الديكتاتورية الفاشستية، أن نطالب باتباع سياسة وطنية جريئة، تنقذ استقلالنا وتحافظ على النظام الجمهوري وفق دستور ديمقراطي جديد، ينبثق عن انتخابات حرة عامة، ويضمن لشعبنا، مستقبلاً لابؤس فيه ولاجهل، سياسة جريئة أمام كل المشاريع الاستعمارية المقبلة، وتلغي كل العقود الأجنبية الاستعمارية التي وقعها الديكتاتور، والمغايرة لمصلحة شعبنا واستقلاله، سياسة تضمن إشاعة الحريات العامة

للجميع قولاً وعملاً، وتحترم حرية التفكير والتنظيم والنشر المقدسة لدى جميع الأمم الحرة والمنصوص عنها في كل الشرائع الدولية والتي تعهدت حكومات سابقة، باسم شعبنا، باحترامها وتطبيقها.

لذا نرى أن إطلاق سراح المحامين مع جميع الديمقراطيين المعتقلين في سجن المزة منذ أشهر لنضالهم ضد الاستعمار والديكتاتورية، واجب وطني ننتظر تحقيقه. إن كل سياسة تتبعها حكومتكم في سبيل السلام ورفاهية الشعب اقتصادياً واجتماعياً تكسبها ثقة الشعب وتأييده، وإننا لنرجو أن يكون هذا سبيل حكومتكم.

وتفضلوا بفائق الاحترام.

باريس ١٩٤٩/٨/٢٠

لجنة الحقوقيين السوريين التقدميين

العضوة في المجلس العام لجمعية الحقوقيين الديمقراطيين العالمية.

وأصدرت اللجنة الوطنية للدفاع عن الحريات وعن المعتقلين السياسيين في سورية بياناً إلى الشعب وزع على نطاق واسع يحمل العناوين التالية:

١٥٠ معتقلاً سياسياً في سجن المزة مضربون عن الطعام

صباح الجمعة في ٥ آب أعلن ١٥٠ معتقلاً وطنياً، بينهم محامون وأطباء ومثقفون وعمال وشباب وفلاحون، الإضراب عن الطعام احتجاجاً على اعتقالهم الاستبدادي وتعذيبهم بالنار والكهرباء وتشغيلهم بالأشغال الشاقة.

أيها السوريون! انقذوا أبناءكم الوطنيين المعتقلين من خطر الموت.

طالبوا بإطلاق سراحهم حالاً ووقف أعمال التعذيب والأشغال الشاقة عنهم!

أيها السوريون والسوريات!

لقد أضرب المعتقلون السياسيون في سجن المزة عن الطعام منذ صباح الجمعة في ٥ آب، احتجاجاً على الاضطهاد الوحشي الذي يقاسونه في السجن، وعلى الأعمال الشاقة المرهقة التي يجبرون على القيام بها، والتي يراد منها الانتقام منهم وإيذاؤهم وتعذيبهم. وأعلن المعتقلون أن إضرابهم عن الطعام سيستمر إلى أن يجابوا إلى مطالبهم من الكف عن اضطهادهم وعدم تشغيلهم والإفراج عنهم أو إحالتهم إلى المحاكمة.

ويبلغ عدد المعتقلين في هذا السجن وحده مئة وخمسين وطنياً، وهم من العمال والفلاحين والمثقفين والطلاب، وبينهم فتيان لم يبلغوا الخامسة عشرة من العمر وكهول ومرضى. وقد اعتقلتهم شرطة حسني الزعيم في دمشق وحلب وحمص واللاذقية وطرطوس والجزيرة وبقية المدن والقرى السورية، وعزلتهم عن العالم في هذا السجن العسكري، دون أية محاكمة وأنزلت بهم أحط ماعرفه العالم من صنوف

التعذيب البربري، كقلع الأظافر والكي بالحديد المحمي وإمرار التيار الكهربائي في أجسادهم، والضرب بالعصي والكرابيج والتجويع والزحف على البحص والحجارة إلى أن تسيل الدماء من أرجلهم وأيديهم.

إن هؤلاء المعتقلين الذين يلاقون هذا العذاب الوحشي هم من خيرة أبناء الشعب السوري، وفي مقدمة العاملين في سبيل الديمقراطية والحرية وفي سبيل الاستقلال والسيادة الوطنية. وقد عرف الكثيرون منهم سجون الاستعمار لنضالهم الوطني ولدفاعهم عن مصالح الشعب وحقوقه، ولأنهم وطنيون صادقون كافحوا الاستعمار الافرنسي، ثم الاستعمار الإنكليزي بعده، كما أنهم أعداء ألداء للاستعمار المزدوج الأمريكي - الفرنسي، الذي يسيطر حالياً على بلادنا المنكوبة بفضل «الانقلاب».

إن حياة هؤلاء المواطنين الشرفاء، معرضة للخطر وتقع المسؤولية في ذلك، وفي كل مالاقوه من تعذيب واضطهاد، على رأس الحكومة التي يرأسها حسني الزعيم ومحسن البرازي.

إن اللجنة الوطنية تتجه إليكم وإلى كل وطني شريف وإلى كل ديمقراطي صادق، وإلى كل صاحب ضمير، بهذا النداء طالبة منكم جميعاً، على اختلاف آرائكم واتجاهاتكم السياسية أن تقفوا صفاً واحداً في وجه الطغيان وأن تنتزعوا حرية المعتقلين وحياتهم.

إن سورية العربية المناضلة يجب أن تتخلص من عار أساليب الحكم في عهد الانتداب، ويجب أن يتمتع جميع أبناء الشعب بكامل حقوقهم السياسية والديمقراطية.

ولتسقط أساليب الحكم والإرهاب الوحشي الاستعمارية الديكتاتورية!

عاش الاتحاد الوطني لأجل الاستقلال والسيادة القومية ولأجل الديمقراطية وحريات الشعب السوري!

آب ١٩٤٩

اللجنة الوطنية للدفاع عن الحريات وعن المعتقلين السياسيين.

لم تثمر هذه الحملة الواسعة الداخلية والعالمية الإفراج عن المعتقلين، وبقوا في سجن المزة حتى بعد سقوط حسني الزعيم ونظامه. وفي الأسابيع الأولى من مرحلة سامي الحناوي أفرج عن هؤلاء المعتقلين، واستقبلوا في مدنهم استقبالاً جماهيرياً حماسياً، وزارتهم في بيوتهم حشود كبيرة ضمت المئات.



الفصل السابع

انقلاب سامي الحناوي

كان أسعد طلس عديل سامي الحناوي موظفاً في وزارة الخارجية السورية. وكان على صلة وثيقة بالنظام العراقي، واستطاع أن يشتري عدداً من الضباط الصغار ليعملوا لصالح العراق في سورية. ولكن هؤلاء على صغر رتبهم لايستطيعون تحقيق الهدف، لذلك توجه اهتمامه إلى عديله الضابط الكبير وذي السمعة الحسنة في الجيش، نتيجة خوضه معارك ناجحة ضد الإسرائيليين. وبدأ أسعد طلس عمله بإقناع الحناوي بفكرة اتحاد سورية والعراق، ونجح في ذلك. وعمل بعد ذلك ليدفعه للانقلاب على نظام حسني الزعيم وتصفيته لفتح الطريق لتحقيق هذا الاتحاد. وكانت فضائح حسني الزعيم آخذة في التزايد والتفاقم. فقد أغرق البلاد في الشهرين الأخيرين من حكمه، بتدابير زجرية، فأصدر أمراً بإيقاف الأحزاب عن نشاطها، ونظم استفتاء شكلياً، حاز فيه على ٧٢٦١١٤ صوتاً من ٧٣٠٧٣١ صوتاً لإحلال نفسه في منصب رئيس الجمهورية، وسمى نفسه مشيراً. وقام بتسريح عدد من ضباط الجيش بينهم العقيد أديب الشيشكلي. إضافة إلى كل ما ارتكبه من موبقات ومامارسه من تدابير معادية للشعب وللديمقراطية. وقد لعب دوراً كبيراً في تدني سمعة حسني الزعيم، لقاءاته مع الإسرائيليين، حتى إن الحناوي والعديد من الضباط شكلوا وفداً، لمقابلة الزعيم وطرح هذه القضية أمامه، مؤكدين رفضهم القاطع لها وطالبين إيقافها.

في الرابع من تموز ١٩٤٩ أعطى حسني الزعيم تصريحاً قال فيه: «الواقع أن علاقاتي بمصر وجلالة الملك فاروق على خير مايرام. ومنذ الساعة الأولى فقد سلكت مصر وجلالة مليكها نحوي مسلكاً نبيلاً، ولايسعني إزاءه إلا أن أعلن شكري على رؤوس الأشهاد» وأضاف:

«كان صنيع الملك عبد العزيز آل سعود أيضاً صنيع الأبطال، ولن أنسى قط ماقطعه على نفسه من وعود».

«وفيما يخص العراق فإن نوري السعيد باشا، قدم إلي يهنئني بمجرد أن توليت مقاليد الأمور. ولاشك أنه كان يظن أنه سيظفر مني بالموافقة على ضم سورية إلى

العراق، في ظل العرش الذي يتولى الوصاية عليه الأمير عبد الإله، ولكنني أعارض وسأظل أعارض في قيام سورية الكبرى... ». ورداً على ذلك أعلن نوري السعيد عدم اعترافه بنتائج الاستفتاء وتوجه إلى البلدان العربية، بطلب عدم الاعتراف بالنتائج، ووصفها بأنها غير دستورية.

وهكذا احتدم الصراع على سورية بين المجموعتين العربيتين: مصر والسعودية من جهة وورائهما تقف الولايات المتحدة وفرنسا، والنظام الملكي العراقي، وتقف وراءه بريطانيا. وبدأ سامي الحناوي يعد العدة. واستطاع أن يجمع عدداً من الضباط ذوي الرتب العالية والمتوسطة والصغيرة، وبضمنهم خالد جادا، مسؤول الحراسة على بيت الزعيم نفسه، ورتبوا الأمور، وفي ليلة ١٤ آب ١٩٤٩ وزعوا المواقع على أنفسهم، وقاموا باعتقال حسني الزعيم ومحسن البرازي رئيس الوزراء، وجرى سوقهم إلى سجن المزة. وعندما تأكد سامي الحناوي من اعتقال الاثنين ووصولهم إلى سجن المزة، شكل مجلساً حربياً، اجتمع في المزة وأصدر قراراً بإعدام الاثنين. ورميت جثتاهما في مكان ناءٍ. وهناك رواية تقول بأنه تم الإعدام مباشرة لدى وصول الاثنين إلى سجن المزة. بعدها شكل المجلس الحربي الذي اتخذ قرار الإعدام كمخرج شكلي.

صدر مرسوم تشريعي رقم (١)، يعطي المجلس الحربي الأعلى جميع الصلاحيات التشريعية والتنفيذية وسلطة إصدار مراسيم تشريعية وتنظيمية ريثما تتألف الحكومة الدستورية.

وصدر مرسوم تشريعي رقم (٢) أعاد أسعد طلس إلى وزارة الخارجية بعد أن نقل أيام حسني الزعيم إلى وزارة التربية.

وفي اليوم الأول للانقلاب صدر بلاغ عسكري بدعوة عدد من الشخصيات السياسية في البلاد للاجتماع، بغية التشاور في تأليف حكومة مدنية. وأعلنت القيادة العسكرية أن مهمة الجيش «سوف تكون مقصورة على حفظ الأمن، وأن الهدف العاجل الذي ترمي إليه هو تسليم الأمور بأسرع مايمكن إلى حكومة مدنية تمثل الشعب وتطمئنه وتكفل رغائبه وتعيد له عزته وكرامته وتمضي قدماً في سبيل إقرار الأمور في نطاقها الدستوري المشروع». وشكلت لجنة من هاشم الأتاسي وفارس الخوري ورشدي الكيخيا وناظم القدسي ومصطفى برمدا وسامي كبارة وأكرم الحوراني ونبيه العظمة وفيضي الأتاسي، وحددت مهمتها في بحث الشكل الشرعي للحكم وتقديم اقتراحات للمجلس الحربي. وقررت هذه اللجنة تكليف هاشم الأتاسي بتشكيل حكومة مؤقتة.

شُكّلت الحكومة برئاسة هاشم الأتاسي وعضوية كل من: خالد العظم، عادل العظمة، فيضي الأتاسي، أكرم الحوراني، سامي كبارة رشدي الكيخيا، ناظم القدسي، ميشيل عفلق، عبد الله عطفة، فتح الله آسيون، مجد الدين الجابري.

وقد اشترط أكرم الحوراني قبوله بالمنصب الوزاري عودة الضباط المسرحين إلى الجيش وبينهم طبعاً العقيد أديب الشيشكلي وعدد من أنصاره.

وفي اليوم التالي لتشكيل الحكومة، قام الحناوي بعملية استعراضية، فقد سار بقافلة من السيارات تضم عدداً من العسكريين من رئاسة الأركان إلى سراي الحكومة على ضفة نهر بردى. ودخل بهو السراي، وكان في استقباله هاشم الأتاسي رئيس الوزراء وعدد من الوزراء، وأعلن الحناوي أمامه، بأن الجيش قرر العودة إلى الثكنات، بعد أن سلم الحكومة لرجال مدنيين، وأن مهمته انتهت عند هذا الحد، وشكره هاشم الأتاسي على موقفه، وانتهت العملية الاستعراضية.

بعد فترة قصيرة من تأليف الحكومة، بدأ العمل الجدي لتحقيق الاتحاد بين سورية والعراق. وطرحت القضية أمام مجلس الوزراء، ويتبين من رواية أكرم الحوراني في مذكراته، أنه بدأ بمقاومة هذا الاتجاه، بطرح موضوع الأخطار التي يشكلها هذا الاتحاد على الاستقلال السوري.

ويتحدث خالد العظم عن موقفه فيقول: «لقد لمسنا الصعوبات الناشئة عن المشاركة في الشؤون الاقتصادية بين سورية ولبنان وماكانت تجره على البلدين من المشاكل، رغم الحدود المشتركة وقرب المسافة بين العاصمتين. فكيف تكون الحال بين العراق وسورية اللذين تفصل بينهما صحراء شاسعة، وهل يؤمل قيام مجلس اتحادي يؤلف بين مصالح البلدين، دون أن يلحق بأحدهما ضرر، أو دون أن يعتقد أحدهما أن مصالحه مهضومة. ومن جهة أخرى، فإن السوريين اعتادوا أن تكون عاصمتهم دمشق، فإذا اتحد البلدان، فلن يرضى العراق، بطبيعة الحال، ببقاء هذا الامتياز لدمشق. وإذا افترضنا أن الاتفاق تم على تنقل دوائر الدولة الاتحادية بين بغداد ودمشق بمعدل ستة أشهر في كل منهما، فإن لهذا التدبير من المصاعب مايجعله غير يسير».

«ولذلك أبديت رأيي بضرورة التعمق في بحث هذه المواضيع قبل الإقدام على الرأي الحاسم»[٧].

ثم تكونت مجموعة وزارية ضمت خالد العظم وأكرم الحوراني وسامي كبارة، وقفت ضد مشروع الاتحاد، واستمروا بمواقفهم حتى النهاية، وأصدر الحزب الوطني بلاغاً وقعه أمين سر الحزب صبري العسلي بالموافقة على مشروع الاتحاد.

وفي هذه الفترة وفي شهر أيلول عقد الإخوان المسلمون مؤتمراً لهم، وأعلنوا تأييد المشروع. وصدر عن الحكومة ترخيص رسمي لحزب البعث العربي الاشتراكي، وقام الحناوي بزيارة مكتب الحزب. وصدر إعلان رسمي عن قيادة الجيش تعلن الترحيب بأي اتحاد بين الدول العربية، وأنه يترك الأمر للحكومة للبت بهذا الأمر.

---

[٧] ــ مذكرات خالد العظم، الجزء الثاني ص ٢١٩.

ونظم الحناوي انتخابات لجمعية تأسيسية لوضع دستور للبلاد وممارسة السلطة التشريعية. ونجح في هذه الانتخابات أنصار الاتحاد مع العراق من أنصار حزب الشعب ومن يواليهم. ونجح فيها نائب عن الحزب السوري القومي. وأربعة نواب عن الإخوان المسلمين. وانتخبت الجمعية التأسيسية هاشم الأتاسي رئيساً للدولة، وأصبح ناظم القدسي رئيساً للوزراء. ونشطت المؤسسات العراقية في هذا المجال، فقدم الأمير عبد الإله لزيارة سورية، وعين رئيس أركان الجيش العراقي عبد المطلب الأمين ملحقاً عسكرياً عراقياً في سورية. وبدأ صرف الأموال على نطاق واسع لكسب المؤيدين لهذا المشروع.

ولم تقف مصر والسعودية مكتوفتي اليدين تجاه هذا النشاط، وعقد اجتماع للجامعة العربية طرح فيه مشروع مناوىء، وهو ميثاق الضمان الجماعي. وقدم الاقتراح ممثلو مصر والسعودية ولبنان.

والمفارقة الكبرى كانت في موقف الملك عبد الله ملك الأردن. الذي اتخذ موقفاً معادياً للاتحاد بين سورية والعراق، وقام بنشاط ملموس في هذا المجال منطلقاً من أن مشروعه، أي مشروع سورية الكبرى، يضم الأردن وسورية، تحت ظل تاجه، هو المشروع الشرعي وهو الأحق بذلك.

وعقد مجلس الوزراء جلسة حاسمة طلب فيها إعطاء رأي نهائي، وطلب هاشم الأتاسي أن يبدي كل وزير رأيه. ووفق بالأكثرية على مشروع الاتحاد. عندئذ وقف خالد العظم وأعلن استقالته من الحكومة، وهم بمغادرة الجلسة، الأمر الذي أحدث إرباكاً، وكاد يؤدي إلى أزمة وزارية. وجرت مداولات، واتفق على العودة إلى النقاش العام، وعدم إعلان موافقة أكثرية الوزراء.

اجتمعت الجمعية التأسيسية وانتخبت هاشم الأتاسي رئيساً للدولة، وهو يتمتع بنفس صلاحيات رئيس الجمهورية.

الحناوي والشيوعيون

تابع الحناوي سياسة العداء للشيوعية، وحافظ على مكتب مكافحة الشيوعية في قيادة الجيش. ومارس سياسة تنكيل واسعة.

هاجم رجال الأمن اجتماعاً نظمه مؤتمر العمال السوريين وشارك فيه نقابيون من مختلف المدن السورية. واعتقل نتيجة المداهمة الرفاق إبراهيم بكري وخليل الحريري وعدد من المشاركين، وساقوهم جميعاً إلى دائرة الشرطة، ثم نُقلوا إلى سجن المزة.

وقرر الرفاق الإضراب عن الطعام احتجاجاً على اعتقالهم مطالبين بالإفراج عنهم. وقد زار الرفيق الدكتور نصوح الغفري المضربين وأبلغهم قرار القيادة بوقف الإضراب. وبعد خمسة عشر يوماً من الاعتقال نقلوا إلى مكتب الوزير سامي كبارة، الذي أطلق سراحهم مباشرة.

وأصدر الحزب بياناً مؤرخاً في تشرين الأول ١٩٤٩ حمل العنوان التالي: فليسقط الإرهاب الإقطاعي الفاشستي. جاء فيه:

«لقد أسرعت الحوادث أكثر مما كان يتصور الكثيرون، في إثبات صحة ماقلناه بشأن حكام الانقلاب الثاني»، فلم يمض شهر واحد على وجودهم في الحكم حتى أخذوا يسفرون عن وجوههم، ويستخدمون أساليب حسني الزعيم وأساليب حكم القوتلي في قمع الحريات العامة، رغم تصريحاتهم عن احترامهم للحريات، ورغم ماأذاعوه من أن مجيئهم للحكم إنما هو لإنقاذ سورية من مخازي ذينك العهدين البغيضين.

«إن حكام سورية الحاليين لم يكتفوا بالموافقة على الاتفاقيات الاستعمارية البترولية التي عقدها حسني الزعيم، كاتفاقية التابلاين، واتفاقية الانكلو ـ إيرانيان، وغيرهما، ولم يكتفوا بالإبقاء على قسم من الضرائب الفاحشة التي فرضها حسني الزعيم، بل أخذوا يطبقون أساليب حسني الزعيم نفسها في قمع حرية الشعب، واعتقال وتعذيب المناضلين الوطنيين، العمال والفلاحين والشباب والطلاب، الشيوعيين والديمقراطيين.

«ففي حمص التي انصبَّ أشد إرهاب حسني الزعيم على عمالها وشبابها البواسل الشيوعيين والديمقراطيين دون أن ينال منهم منالاً، استأنف رجال الشرطة نفس أساليب حسني الزعيم الإرهابية.

«فمنذ أيام اعتقلوا في الشارع، دون أي جرم عامل النسيج راتب جبنة، ثم اعتقلوا أيضاً بنفس الطريقة الشاب فهمي الأخرس، وساموهما تعذيباً وحشياً وضرباً فظيعاً.

«أما في العلويين فلم يختلف قائد درك صافيتا «أبو حمدو» عن زملائه في حمص. على أثر توزيع نشرة اللجنة المركزية في قرية المشتى التابعة لقضاء صافيتا، جرد أبو حمدو حملة واسعة فاعتقل أكثر من عشرين رجلاً من صافيتا والمشتى بينهم العامل والفلاح والمثقف وتلاميذ عمر أحدهم ١٤ سنة. وجن جنون أبو حمدو، لما وزعت في اليوم الثاني للاعتقال، جريدة «صرخة الجماهير» التي تصدرها اللجنة المنطقية للحزب الشيوعي السوري، فأخذ «يتفنن» في تعذيب المعتقلين وضربهم، ويستدعي آباءهم وأقرباءهم ويهددهم بالاعتقال.

«وقد هاجت صافيتا لتصرفات هذا الوحش الضاري (أبو حمدو)، وتجمعت الجماهير حول السرايا. فلجأ أبو حمدو لحراستها وحراسة نفسه بقوة كبرى من رجال الدرك. وأخيراً اضطر إلى إخلاء سبيل الموقوفين، وقدم اثنين للمحاكمة هما دانيال نعمة وفايز أمطانيوس حلو، فبرأتهما المحكمة.

ويتابع البيان فيقول:

«وفوق ذلك كله تدل اتجاهات الحكم الحالي على أنه يسير نحو عقد محالفة مع نوري السعيد وعبد الإله، وذلك معناه تمهيد السبيل لتحقيق مشروع «سورية الكبرى» وإيصال الاحتلال البريطاني إلى سورية، وتسليم بلادنا إلى المستعمرين الإنكليز والأمريكان والافرنسيين، الذين يريدون تسخيرها وجعلها مركزاً للهجوم على الاتحاد السوفييتي في الحرب التي يهيئونها، وجعل شبابنا طعاماً للمدافع، وجلب الخراب والدمار لديارنا.

وينتهي البيان بنداء: أيها السوريون!

«إن الواجب الوطني الأكبر على كل سوري وسورية، مهما كان رأيهما واتجاههما، هو الاتحاد والنضال ضد الإرهاب الوحشي الفاشستي ضد عار أساليب حسني الزعيم الوحشية البربرية السافلة، وفي سبيل الحريات الشعبية العامة، وعلى رأسها حرية تنظيم النقابات والأحزاب، وحرية الصحافة والنشر والاجتماع والكلام».

«اتحدوا وناضلوا في سبيل حرية الانتخابات للمجلس التأسيسي الذي يجب أن يكون انتخابه معركة وطنية كبرى في سبيل إيصال ممثلين للشعب حقيقيين إلى ندوته، يناضلون في سبيل الاستقلال الوطني ويقفون في وجه المشاريع الاستعمارية المجرمة، ويفضحون خيانات الحكام الإقطاعيين والرجعيين وجرائمهم، ويدافعون عن مصالح الجماهير الشعبية الكادحة وعن خبزها وحريتها، ويعلنون إرادة الشعب السوري في مقاومة الحرب والمساهمة في توطيد السلم...».

وقد ركز الحزب الشيوعي على موضوع الاتحاد مع العراق، وأصدر بياناً مؤرخاً في تشرين الأول ١٩٤٩ يكشف فيه خفايا هذا المشروع وأخطاره على سورية والشعب السوري. كان عنوانه:

فليسقط مشروع «الاتحاد» السوري العراقي.

مشروع الاستعمار والعبودية والحرب.

الشعب السوري لايريد عساكر الإنكليز ولامشانق عبد الإله ونوري السعيد بل يريد سلماً واستقلالاً وحرية وخبزاً، وجمهورية ديمقراطية متحررة من سيطرة الاستعمار ومعاهداته، ومن تحكم الإقطاعية وطغيانها!

وجاء في مقدمة البيان:

أيها السوريون والسوريات!

إن خطراً عظيماً ماحقاً يهدد وطننا وشعبنا، فالمستعمرون الأنكلو ساكسون يسعون بواسطة عملائهم المفضوحين - زعماء «الحزب الوطني» في سورية، وعبد الإله ونوري السعيد في العراق، إلى إخراج مشروع استعماري جديد، أطلقوا عليه اسم «الاندماج» أو «الاتحاد» أو «التحالف العسكري» بين سورية والعراق، وهو مثل مشروع سورية الكبرى، قد طبخ في مطابخ الاستعمار البريطاني وهدفه الوحيد جعل سورية مستعمرة خالصة لبريطانيا، خاضعة لاحتلالها العسكري وحكمها المباشر.

لقد أحبط شعبنا السوري الأبي حتى الآن كل معاهدة استعمارية، سياسية أو عسكرية تجعل حكم المستعمرين «مشروعاً» على وطننا، ولذلك حاول المستعمرون دائماً، القضاء على كيان سورية السياسي، وحينما تبين لهم أن من المستحيل أن يفرضوا على الشعب السوري مشروع سورية الكبرى المفضوح، لجؤوا إلى هذه المناورة التي يراد منها جعل سورية مثل شرق الأردن والعراق المنكوبين بالاحتلال العسكري الإنكليزي ونشر أنواع الحكم الإقطاعي الاستبدادي والمقيدتين بمعاهدتين مع بريطانيا هما من أفظع ماسجل تاريخ المعاهدات الاستعمارية.

ويتابع البيان فيقول:

إن دعاة «الاتحاد» أو «الاندماج» السوري العراقي، يزعمون أنه يؤدي إلى تقوية سورية والعراق معاً، فيا للكذب والتضليل. إنه يؤدي فقط إلى تقوية الاستعمار الإنكليزي، ويوطد سيطرته الغاشمة على العراق وسورية معاً، إنه مشروع إجرامي غايته ضرب الحركة التحررية الوطنية الديمقراطية في سورية، وفي العراق في آن واحد.

ويزعمون، كذباً وبهتاناً أن مشروعهم سينعش الاقتصاد الوطني، فمتى كان الاستعمار منعشاً لاقتصاد مستعمراته؟ أليس سبب تدهور إنتاجنا الوطني الصناعي والزراعي و«تأخره»، ماقام ويقوم به الحكام من ربط بلادنا سياسياً واقتصادياً بمعسكر المستعمرين، الأنكلو أمريكيين، وفتح أسواقنا لرساميلهم؟ وهاهو العراق يعاني أزمة اقتصادية خانقة، بسبب سيطرة المستعمرين الإنكليز وعملائهم الإقطاعيين ونهبهم الوحشي للشعب العراقي!

كلا! إن «الاندماج» أو «الاتحاد» لاينعش اقتصاد سورية ولا اقتصاد العراق، بل ينعش اقتصاد الإنكليز المتفسخ المتداعي على حساب خيرات وطننا، وبانتزاع آخر لقمة من فمنا! وفي رأس أهداف الإنكليز من تخفيض الجنيه الإسترليني، وتنشيط

صادراتهم إلى مستعمراتهم والأقطار المرتبطة بهم! وقد أدى هبوط الدينار العراقي تبعاً لهبوط الإسترليني، إلى استفحال البؤس في العراق، وانخفاض أجور العمال أيضاً وأيضاً، وتدهور مستوى المعيشة بشكل فظيع هائل!

إن الإنكليز الذين يسيطرون على بترول العراق، يريدون تأمين إشرافهم المباشر، العسكري والسياسي، على سورية التي هي طريق هذا البترول إلى البحر، ولهذا يدعون إلى مشروع الاندماج أو الاتحاد السوري العراقي! هذا هو الهدف «الاقتصادي» الرئيسي الكامن وراء هذا المشروع المجرم! هذا هو الهدف الاستعماري الذي يخفونه وراء العبارات الكاذبة «الطنانة» عن «القومية» وعن «المصلحة العربية العليا»!

ويزعمون أن هذا «الاتحاد» أو «الاندماج» هو حلف ضد الصهيونيين! إنهم يكذبون! فالطبقة الرجعية الحاكمة في إسرائيل واقعة تحت نفوذ الأنكلو - أمريكيين وسيطرتهم، مثل الطبقة الحاكمة الرجعية في الأقطار العربية! فهم جميعاً عبيد لنفس المستعمرين! وبينما يناضل الشعب العربي الفلسطيني، ومعه جميع الوطنيين المخلصين في البلدان العربية، لأجل إقامة دولة عربية مستقلة ديمقراطية في القسم العربي من فلسطين، ترى الحكام الرجعيين الصهيونيين في إسرائيل، والحكام الرجعيين في سورية والعراق والأردن ولبنان، متفقين جميعاً على إلحاق القسم العربي من فلسطين، بالمستعمرة الإنكليزية - الأردنية، ليكون تحت حكم البريطانيين!

إن نوري السعيد لم يختلف مع وايزمن وبقية الرجعيين الصهاينة في يوم من الأيام، بل هو بالاتفاق معهم ومع أسياده وأسيادهم المستعمرين، قد وضع مشروع موريسون لتقسيم فلسطين ومشروع سورية الكبرى، وفي الوقت نفسه نرى نوري السعيد ووايزمن وجميع الخونة من الأقطار العربية ومن إسرائيل، يعملون معاً على إيقاد نار العداء العنصري بين الجماهير الشعبية العربية والجماهير الشعبية اليهودية! ويتخذون ذلك ستاراً لتنفيذ أغراض المستعمرين الإنكليز والأمريكيين.

ويزعم دعاة «الاتحاد» «والاندماج» مع العراق بأنه «يقوي» بلادنا عسكرياً. أما الحقيقة فهو لا «يقوي» سوى المستعمرين الإنكليز، فيمد احتلالهم إلى سورية، ويؤدي إلى منحهم مراكز استراتيجية وعسكرية في أراضينا، وإلى جعل الجيش السوري خاضعاً لهم مباشرة، مثل الجيش الأردني والعراقي، يسخرونه لمآربهم كما يشاؤون، ويسفكون دماء جنوده متى اقتضت مصالحهم ومطامعهم الاستعمارية!

إن المهازل المفجعة التي نزلت بالجيشين العراقي والأردني في فلسطين على أيدي جون كلوب باشا وعبد الله وعبد الإله، قد فتحت حتى أعين العميان، إلا أن أعين

أولئك الزعماء والحكام الذين طمست الخيانة الوطنية أبصارهم وبصائرهم وخنقت ضمائرهم!

إن مشروع «الاتحاد» معناه إضاعة ثلاثين سنة قضاها الشعب السوري في النضال والبطولة والتضحية لأجل تحقيق الجلاء، وضد معاهدات الاستعباد والاحتلال!

أيها السوريون والسوريات!

إن معظم زعماء حزب الشعب يؤيدهم فريق من القائمين على حزب البعث، إن لم يعلنوا رأيهم صراحة، لخوفهم من الشعب، فهم يؤيدون مشروع الاتحاد أو المعاهدة مع عبد الإله ونوري السعيد، ورغم مايتظاهرون به من عداء بينهم وبين الحزب الوطني، فهم جميعاً متفقون على تنفيذ أكبر خيانة وطنية في تاريخ سورية، وإذا كان هناك خلاف فهو على أشكال التنفيذ وأساليبه.

أيها المواطنون!

إن سياسة تنفيذ أوامر المستعمرين، والهجوم على معيشة الجماهير الشعبية، لاتزال مستمرة في العهد الحالي، كما كانت في العهود السابقة. لقد أنقصوا أجور عمال النسيج، كما يهاجمون أجور جميع العمال، والتسريحات الكيفية مستمرة، والبطالة تنتشر بشكل فظيع، والفلاحون في أشد حالة من البؤس والضيق، تخنقهم الديون والضرائب ويسحقهم طغيان الإقطاعيين، والجماهير الشعبية لاتستطيع الحصول على حاجتها من السكر والكاز والحطب والفحم، ونوع الخبز رديء، وأسعاره لاتزال مرتفعة بالنسبة لهبوط أسعار القمح والحبوب، وتكتسح البضائع الأجنبية أسواقنا، والصناعة الوطنية تندثر، وكثير من المعامل الوطنية تقفل أبوابها، والتجار الصغار وأصحاب الحرف يستبد بهم المحتكر وكبار المستوردين وتزهقهم الضرائب الفاحشة ويعانون ويلات الإفلاس والخراب.



الفصل الثامن

الانقلاب الثالث..
انقلاب العقيد أديب الشيشكلي

بعد انتخابات الجمعية التأسيسية، دعي الأعضاء لمناقشة مشروع الدستور المؤقت، وضمنه مناقشة قَسَم النواب الجديد. وينص هذا الدستور على تسمية رئيس البلاد رئيساً للدولة وليس رئيساً للجمهورية. كما تبين أن القسم الجديد يخلو من التأكيد على النظام الجمهوري، وقد أثار هذا الأمر قلق الضباط، الذين كانوا على يقين من نوايا اللواء سامي الحناوي وأنصاره ونوايا حزب الشعب، الأمر الذي سرّع بعملية الانقلاب. وفي صباح ١٩٤٩/١٢/١٩، قُبض على سامي الحناوي وأنصاره. وهكذا بدأت المرحلة الأولى من انقلاب العقيد أديب الشيشكلي، وصدر البلاغ رقم (١) وجاء فيه:

إلى الشعب السوري الأبي:

ثبت لدى الجيش أن رئيس الأركان العامة، اللواء سامي الحناوي، وعديله[1] السيد أسعد طلس وبعض ممتهني السياسة في البلاد يتآمرون على سلامة الجيش وكيان البلاد ونظامها الجمهوري، مع بعض الجهات الأجنبية. وكان ضباط الجيش يعلمون هذا الأمر منذ بدايته. وقد حاولوا بشتى الطرق، بالإقناع تارة والتهديد الضمني تارة أخرى، أن يحولوا دون إتمام المؤامرة وأن يقنعوا المتآمرين بالرجوع عن غيهم فلم يفلحوا. فاضطر الجيش، حرصاً على سلامة البلاد وسلامته، وحفاظاً على نظامها الجمهوري، أن يقصي هؤلاء المتآمرين، وليس للجيش أية غاية أخرى. وأنه ليعلن أنه يترك البلاد في أيدي رجالها الشرعيين ولايتداخل إطلاقاً في القضايا السياسية، اللهم إلا إذا كانت سلامة البلاد وكيانها يستدعيان ذلك.

العقيد أديب الشيشكلي

---

[1] ـ العديل هو زوج أخت الزوجة.

وجرت تعيينات عسكرية جديدة. فعين الزعيم أنور بنود رئيساً للأركان، وعين أديب الشيشكلي معاوناً له.

وقد أحدث الانقلاب ضجة كبيرة وكانت أصداؤه متفاوتة خارج سورية، وصدرت تعليقات تفسر الانقلاب حسب رغبة الكاتب. وأمام ذلك، وبعد أسبوع واحد، أصدرت رئاسة الأركان بياناً إلى الشعب برقم (٢) يتضمن الأفكار التالية:

إن رئاسة الأركان، تعبيراً عن حرصها على إطلاع الشعب على التفاصيل، ترى أن الانقلابات التي حدثت كان هدفها الأساسي إقصاء العناصر الفاسدة، وبث روح التقدمية في صفوف الأمة لكي ينطلق الجوهر العربي في أجواء حرة. ولكن الانقلاب الأول خرج عن هدفه الأساسي، وكان على الانقلاب الثاني أن يصلح ماافسده الحكم السابق وأن تعود الحياة الدستورية والنظام الجمهوري. غير أن الحناوي، لم يكن غير أداة طيعة تسيرها أهواء مغرضة.

ويشرح البيان بعد ذلك محاولة تمرير الاتحاد السوري ـ العراقي بصورة مفاجئة، ومحاولات الضباط منع ذلك. ثم يقول: إن هذه المساعي باءت بالفشل. ويتحدث البلاغ عن محاولة الحناوي اعتقال عدد من كبار الضباط، ليتسنى للجمعية التأسيسية إقرار المشروع الاستعماري فوراً. وينتهي البلاغ بالقول:

أيها الشعب الكريم: إن الجيش السوري بضباطه وجنوده، عربي قومي، ينشد تحقيق الوحدة العربية الصحيحة بأجلى معانيها، وإن الجيش علم أن في المشروع الاستعماري مؤامرة يقصد منها القضاء على استقلال سورية وتحطيم جيشها وإنشاء عرش جديد، يبعد تحقيق الوحدة المنشودة».

وحسب وعود الجيش فقد بدأ رئيس الدولة هاشم الأتاسي استشاراته الوزارية. وكانت الرغبة متجهة نحو تكليف ناظم القدسي، ولكنها لم تنجح، وطلب إلى خالد العظم تشكيل الوزارة. وفي نفس الوقت وصل وفد من الضباط إلى بيت خالد العظم وأبلغوه رغبتهم في أن يشكل الوزارة. ولكن رشدي الكيخيا رئيس الجمعية التأسيسية وزعيم حزب الشعب، بدأ يضع العصي في عجلات مسيرة التأليف، ونتيجة إصرار الكيخيا على تسمية وزراء حزب الشعب، ورفض العظم ذلك، ونتيجة رفض الكيخيا لاقتراحات الكتل الوزارية الأخرى، أصبح الاتفاق متعذراً وأعلن العظم استقالته... وتعذر بعدها تكليف شخص آخر، الأمر الذي وضع رئيس الدولة أمام مأزق حاد وقدم استقالته، مما وضع البلاد أمام وضع حرج جداً. ونتيجة خوف النواب من أن يؤدي ذلك إلى تدخل الجيش تنادوا فيما بينهم إلى تشكيل لجنة وفاق من: فيضي الأتاسي،

مصطفى السباعي، أكرم الحوراني. ونجحت هذه اللجنة في تلافي الأزمة، فرفضت الجمعية التأسيسية استقالة الرئيس، وشكل خالد العظم الوزارة حسب رغبته من: خالد العظم، فيضي الأتاسي، سامي كبارة، هاني السباعي، عبد الباقي نظام الدين، عبد الرحمن العظم، معروف الدواليبي، أكرم الحوراني، محمد المبارك، فتح الله أسيون.

تميزت مرحلة الشيشكلي بظاهرة عدم الاستقرار والانتقال من وزارة إلى أخرى. فمنذ نيسان ١٩٥٠ بدأت أوضاع وزارة العظم تهتز، فخرج منها الحوراني، ثم استقالت بمجموعها. وفي حزيران من نفس العام تشكلت وزارة برئاسة ناظم القدسي. ونتيجة تدخل العسكريين في الأمور السياسية استقالت هذه الوزارة، وعاد خالد العظم مجدداً. وفي ذلك الوقت أصبح العقيد أديب الشيشكلي رئيساً للأركان، وخطا خطوة جدية نحو السيطرة الفردية التي يعمل لها. ثم أتت وزارة حسن الحكيم، وانتهت هي أيضاً إلى الاستقالة بعد أكثر من مئة يوم. وأتت بعدها وزارة الشيخ معروف الدواليبي، ولم تعش سوى يوم واحد، واعتقل رئيسها وأعضاؤها وزُجوا في السجن، واستلم العسكريون بعد ذلك كامل السلطة، وأصبح فوزي سلو رئيساً لحكومة من الأمناء العامين للوزارات. وخلال ذلك نظم الشيشكلي تنظيمه السياسي الواحد «حزب التحرير»، وحل مجلس النواب وحل الأحزاب، ونظم «انتخابات» برلمانية جديدة، وجرى التصويت على دستور رئاسي جديد منح الشيشكلي السلطة كاملة وأصبح رئيساً للجمهورية. وفي ربيع ١٩٥٤ قام الضباط بعصيان في حلب وحماه وحمص، واضطر الشيشكلي إلى التراجع وهرب إلى لبنان، ثم إلى فرنسا وسويسرا واستقر أخيراً في البرازيل حيث جرى اغتياله.

وقعت أحداث كثيرة خلال هذه المرحلة تبلورت حولها مجموعة من القضايا الخلافية. فقد استمرت الهجمة الاستعمارية ضد الشعب السوري، واستمر الصراع حول سورية عربياً وعالمياً. وطرأت تطورات داخلية كثيرة أيضاً. وليست مهمتنا الإحاطة بجميع هذه الأحداث، إنما يمكن ذكر ماهو مهم منها.

القضية الأولى: تصريح الدواليبي

في نيسان ١٩٥٠ عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعاً له. وقد مارست الولايات المتحدة ضغطاً شديداً على مندوبي الدول العربية من أجل دفع الحكومات العربية إلى عقد صلح مع إسرائيل. وقام موفد أمريكي خاص بجولة على ممثلي الدول العربية وأيقظهم من النوم وأبلغ كلاً منهم رسالة شفوية تطالب بهذا الصلح. كما طلب إليهم

عدم الإقدام على أي تحرك ضد الأردن إذا أقدم على عقد هذا الصلح. وكان عزام باشا أمين عام الجامعة العربية موافقاً على الصلح إذا وافقت إسرائيل على إعادة اللاجئين. وأعلنت سورية رفضها لهذا الطلب وأغلقت الحدود مع الأردن. ونتيجة هذا الموقف أعطى الشيخ معروف الدواليبي تصريحاً إلى الصحف المصرية جاء فيه: «يعلن الأستاذ الدواليبي بصفته الخاصة، لابوصفه وزيراً مسؤولاً في الحكومة السورية، أنه إذا استمر ضغط الحكومة الأمريكية على البلاد العربية لجعلها تسير في سياسة لن تنتهي إلا بتهويد بقية أبناء الشعوب العربية، فإنه يرجو إجراء استفتاء في العالم العربي، ليعرف الملأ، إذا كان العرب يفضلون ألف مرة أن يصبحوا جمهورية سوفييتية، على أن يكونوا طعماً ليهود».

وقد أحدث هذا التصريح ضجة كبيرة في سورية وفي العالم العربي، فقد كان أول تصريح من نوعه يخترق النفوذ الإمبريالي وعقلية القوى الرجعية الحاكمة في البلدان العربية التي كانت تمالىء الدول الغربية الاستعمارية. وقد قوَّم الحزب الشيوعي هذا التصريح تقويماً إيجابياً، وقام وفد من المكتب السياسي بزيارة معروف الدواليبي وحيا موقفه الوطني.

القضية الثانية:

ـ نتيجة هذا التصريح ولقطع طريق التقارب مع الاتحاد السوفييتي وللحيلولة دون شراء أسلحة من عنده ولخداع العرب بعدم وقوع اعتداءات إسرائيلية، عقد وزراء خارجية الدول الاستعمارية الثلاث، الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، اجتماعاً وقرروا إصدار بيان سُمّي في حينه البيان الثلاثي، ويتضمن النقاط التالية:

١ ـ تعترف الحكومات الثلاث بأن الدول العربية وإسرائيل تحتاج إلى رفع مستوى تسليح القوات المسلحة بنسبة معينة، لتعزيز أمنها الداخلي ولتأمين الدفاع الشرعي عن ذاتها والدفاع عن المنطقة، وسوف ينظر في جميع طلبات الأسلحة.

٢ ـ تأكيد جميع البلدان المعنية أنها لاتنوي القيام بأي عمل من أعمال العدوان.

٣ ـ تعلن عن رغبتها واهتمامها بعدم اللجوء إلى القوة بين دول المنطقة، وإذا رأت أن أي دولة تستعد للاعتداء على الحدود أو خطوط الهدنة، تتخذ في الحال التدابير اللازمة.

لقي هذا التصريح ردود فعل شديدة، وعُدَّ تدخلاً في شؤون الدول العربية وتهديداً لها. وقامت ضده العديد من التظاهرات، ونوقش في الجمعية التأسيسية ووافقت عليه الحكومة السورية آنذاك، برئاسة ناظم القدسي، رغم المعارضة الشعبية الشديدة له التي كان الحزب الشيوعي في مقدمتها.

القضية الثالثة: الدستور:

طرح الشيشكلي مشروع دستور جديد، أثار نقاشاً واسعاً، وخاصة المادة الثالثة منه المتعلقة بدين الدولة، التي شغلت الرأي العام والأوساط السياسية ردحاً طويلاً من الزمن، وكانت موضع أخذ ورد بين رجال الفقه الإسلامي وبين رجال السياسة. وكان الحرص على عدم إحداث خلاف طائفي، يشغل بال الجميع. وتشكلت لهذا الغرض لجنة برلمانية من عشرة أعضاء، بينهم الشيخ مصطفى السباعي مرشد الإخوان المسلمين.

أقرت اللجنة المكلفة بالموضوع الصيغة التالية:

- دين رئيس الجمهورية الإسلام.
- الفقه الإسلامي المصدر الرئيس للتشريع.
- حرية الاعتقاد مصونة، والدولة تحترم جميع الأديان السماوية وتكفل حرية القيام بجميع شعائرها، على أن لايخل ذلك بالنظام العام.
- الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية!

وقد أغضبت هذه الصيغة جمعية العلماء، وبدأ التحريض للمطالبة بأن ينص على أن «دين الدولة الإسلام». ولعبت الأهواء السياسية دوراً في ذلك، وكان موقف الحزب الشيوعي هو فصل الدين عن الدولة، وشن حملة على الفقرة الثانية، ولعب الشيخ مصطفى السباعي دوراً إيجابياً في ترجيح اقتراح اللجنة، كما ساعد على قبولها موقف الطوائف المسيحية.

القضية الرابعة:

- رفض النقطة الرابعة من مشروع ترومان.

القضية الخامسة:

- رفض مشروع قيادة الشرق الأوسط.

القضية السادسة:

- قيام الثورة المصرية ضد الحكم الملكي في تموز ١٩٥٢، ونسجت نتيجة ذلك علاقات صداقة وثيقة بين الشيشكلي واللواء محمد نجيب الذي كان قائد الثورة في أول مراحلها. وزار الشيشكلي القاهرة على رأس وفد كبير، وجرت احتفالات ترحيباً به، كما ألقى أحد أنصار الشيشكلي المحامي علي حيدر محاضرة عن انقلاب الشيشكلي أمام ضباط القوات المسلحة المصرية، وعدّ أديب الشيشكلي ثورة مصر دعماً معنوياً كبيراً له.

- قيام حكومة سورية الحرة في العراق برئاسة الشيخ معروف الدواليبي، ومحاولة تنظيم تمرد في المناطق الشرقية يبدأ من دير الزور ثم يمتد نحو الداخل، وقد انتهت هذه الحركة بسقوط نظام الشيشكلي.
- بدأت الخلافات تنخر جماعات الشيشكلي، وخاصة الخلاف مع الحزب العربي الاشتراكي وحزب البعث، الأمر الذي أدى إلى صدور قرار بحل هذين الحزبين في نيسان ١٩٥٥ . وهكذا أصبحت جميع الأحزاب الموجودة آنذاك بحكم المحلولة: حزب الشعب، الحزب الوطني، الحزب التعاوني الاشتراكي، جماعة الإخوان المسلمين. وكان الحزب الشيوعي ملاحقاً منذ الانقلاب الأول، واستمر كذلك حتى نهاية حكم الشيشكلي، والفترة التي تلته. وبقي الحزب السوري القومي يتمتع بالحرية والنشاط. في إطار هذا الوضع لوحق كل من أكرم الحوراني وميشيل عفلق وصلاح البيطار، وغادروا سوية سورية إلى لبنان، ومنها إلى إيطاليا . وبقوا على اتصال بالبلاد وتابعوا نشاطهم السياسي من الخارج.

في ذلك الوقت كان العدوان الأمريكي على كوريا الديمقراطية قائماً، وكانت حرب شديدة تدور هنالك، وتلحق بالقوات الأمريكية خسائر بالغة.حاول الأمريكيون دفع الشيشكلي لإرسال قطعة عسكرية سورية لمعاونة الأمريكيين. وعندما طرحت هذه الفكرة بين ضباط الجيش قوبلت باستنكار شديد، وعبر العديد من الضباط عن رفضهم القاطع لذلك. ولعب الشيوعيون دوراً بارزاً في ذلك.

في إطار الخلافات التي نشأت بين الشيشكلي وأصدقائه السابقين، نظم الشيشكلي حملة اعتقالات واسعة شملت عشرات الضباط، وزج بعضهم في سجن تدمر، ومن بينهم عبد الغني قنوت. كما اعتقل العديد من المناضلين السياسيين البعثيين وغيرهم، إضافة إلى اعتقالات الشيوعيين المستمرة. وكان بين من اعتقلوا منصور الأطرش، ابن قائد الثورة السورية سلطان باشا الأطرش، الذي كان يحمل بيانات معادية للنظام، وضبطت هذه البيانات عند تفتيش السيارة. الأمر الذي أثار حمية أهالي الجبل وخاصة قرية القريا، قرية سلطان باشا . ونتيجة هذه العملية خرجت تظاهرات في الجبل أدت إلى صدامات وجرى إطلاق الرصاص، وتحولت إلى صدامات مسلحة بين حامية الجبل وبين أهالي القريا، ثم اتسعت وتحولت إلى حملة عسكرية لإسكات الجبل بقيادة الزعيم رسمي القدسي، واستخدمت فيها المدفعية والدبابات ووقع مئات القتلى.. ولم ينته هذا الوضع إلا بسقوط نظام الشيشكلي وهربه.

❖❖❖

موقف الحزب الشيوعي

ناضل الحزب الشيوعي السوري ضد نظام أديب الشيشكلي بمختلف الوسائل والأساليب. وترك نضال الحزب تأثيره الفاعل على جماهير الشعب من عمال وفلاحين ومثقفين.

أصدر الحزب في أواخر كانون الثاني ١٩٥٠، أي في بدء العهد الجديد، وثيقة تحمل العنوان التالي:

المبادىء الأساسية التي يريد الشعب السوري أن يجعلها أساساً للدستور الجديد، مذكرة الحزب الشيوعي إلى الجمعية التأسيسية.

بدأت المذكرة بمقدمة حول الظروف الداخلية وكفاح الشعب السوري وتعلقه بالاستقلال والسلام والديمقراطية والجمهورية وحقوق العمال والفلاحين، وقالت:

«إذ يتقدم حزبنا بهذه المذكرة إلى المجلس التأسيسي، لايكتم رأيه في تركيب هذا المجلس. فقد لمست جماهير الشعب بنفسها ماجرى خلال الانتخابات الماضية من تدخل المستعمرين الإنكليز والأمريكيين والافرنسيين السافر بواسطة جواسيسهم أمثال داردن وسترلينغ، وعن نشاط عملاء الملك عبد الله، ومانثره جميع هؤلاء من أموال لينتخبوا أعداء كيان البلاد والنظام الجمهوري ودعاة مشاريع الاستعمار والحرب. ولمست الجماهير بيدها ماجرى خلال هذه الانتخابات من إرهاب وضغط وتزييف، وشهدت بعينها كيف أن الوكلاء الحكوميين ورجال الشرطة والأمن ورؤساء مراكز الاقتراع، كانوا هم الذين صوتوا «نيابة» عن الأمة، وركَّبوا هذا المجلس من مزيج متناسق من الإقطاعيين والمحتكرين والرجعيين ومن عدد لايستهان به من عملاء المستعمرين وأجرائهم المفضوحين. ولذلك فإننا لانتقدم بمذكرتنا هذه اعترافاً بشرعية المجلس أو بصدق تمثيله للأمة السورية، ولكن لنضع أمام رجاله، مهما كانت صفته، المبادىء الأساسية التي يتمسك بها الشعب السوري بأن تكون أساساً للدستور....

وشملت المذكرة المواضيع التالية:

١ ـ النضال من أجل الاستقلال الوطني ورفض عودة الاحتلال.

٢ ـ النضال في سبيل السلام ورفض المشاريع والتكتلات الحربية.

٣ ـ صيانة كيان سورية وأراضيها.

٤ ـ النظام الجمهوري الديمقراطي.

٥ ـ محو الإقطاعية وتوزيع أراضي الإقطاعيين على الفلاحين.

٦ ـ تحقيق مطالب الطبقة العاملة.

٧ ـ تحقيق مطالب الفلاحين.

٨ ـ حقوق المرأة السورية.

٩ ـ في سبيل اقتصاد وطني مزدهر سليم.

١٠ ـ احترام الملكية الفردية ثمرة العمل، دون الملكية الاحتكارية والربائية.

١١ ـ الحريات الديمقراطية وحقوق المواطنين.

١٢ ـ مجلس نيابي وحيد له وحده حق انتخاب رئيس الجمهورية.

١٣ ـ بطلان القوانين التي تخالف الدستور والديمقراطية.

١٤ ـ واجبات الدولة نحو المواطنين.

١٥ ـ في سبيل دستور لاطائفي.

وقد نص المبدأ الرابع حول صيانة كيان سورية وأراضيها على المطالبة بلواء الإسكندرونة المغتصب، ومحاربة كل مشروع يرمي إلى اقتطاع أي جزء جديد من الأراضي السورية. كما نص البند الخامس على أن الإقطاعية هي العقبة الرئيسية نحو حياة حرة تقدمية. وطالب باقتلاع أعمق جذور الإقطاعية السياسية والاجتماعية. والسبيل الوحيد الذي يؤدي إلى هذا الهدف هو مصادرة أراضي الإقطاعيين وأدواتهم ومواشيهم وتوزيعها دون مقابل على الفلاحين.

وأتى البند الثامن على حقوق المرأة، بحق الانتخاب وعضوية البرلمان ومساواتها بالرجل في الأجر، عند تساوي العمل، وحقها في التعلّم وفي تولي الوظائف العامة، وفي أن يكون لها في العائلة، ما للرجل من حقوق، على قدم المساواة.

وفيما يتعلق بالبند العاشر حول احترام الملكية الفردية، جاء مايلي «يتمسك الشعب السوري بأن تكون الملكية الشخصية ثمرة الكد والعمل مصونة لاتمس، بينما يمنع الربا والاحتكار وتصادر الملكيات الناشئة عنهما وعن الصفقات غير المشروعة، وتُحوَّل إلى ملك للشعب». ويجب أن ينص الدستور عدا ذلك، على ضرورة تأميم جميع المرافق الكبرى الأساسية في البلاد، كالمناجم والطاقة الكهربائية وشركات النقل الكبرى، كالسكة الحديدية وطرق المواصلات القائمة أو التي ستقوم في أراضي الجمهورية.

وبشأن البند الأخير جاء في المذكرة «لقد أظهر أبناء الشعب السوري في كل وقت، أنهم متحدون على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ومعتقداتهم السياسية والاجتماعية وفي سبيل الأهداف الوطنية والشعبية الكبرى. ولذلك يجب أن يسجل الدستور هذا الإخاء العميق بين جميع المواطنين دون تفريق بإقراره مبدأ فصل الدين عن الدولة، إن لجميع المواطنين حرية الاعتقاد والعبادة، وهذا لايتنافى مع ماتطلبه جماهير الشعب السوري من جعل دستورنا دستوراً وطنياً شعبياً لا طائفياً.

في شباط ١٩٥٠ أصدرت القيادة المركزية للحزب نشرة داخلية مركزية بالعنوان التالي: إلى اللجان المنطقية واللجان الفرعية وإلى المناضلين النقابيين.

وتناولت النشرة وضع الحركة النقابية والقيادات النقابية الخائنة لمصالح الطبقة العاملة ومحاربتها كل تكتل عمالي وكل تنظيم نقابي طبقي، ويحلون كل نقابة طبقية لاتأتمر بأوامرهم ولاتسير حسب مشيئتهم، ويحرمون العمال من أبسط الحقوق الديمقراطية في حرية التنظيم النقابي وإصدار النشرات النقابية وحرية الاجتماع.

وشنت النشرة حملة على القادة النقابيين الخونة، أمثال صبحي الخطيب وزملائه. وفضحت أساليب عملهم، كالفصل بين عمال مهنة ومهنة ومدينة ومدينة. وتحدثت النشرة عن مذكرتهم إلى المجلس التأسيسي وطلبهم جعل الانتماء إلى النقابات إجبارياً، وأن لايقبل أي عامل في عمل إلا بشهادة منهم، وتقوية تدخل الحكومة والشرطة في النقابات.

وتتوجه النشرة بدعوة إلى توسيع العمل بين العمال وتحدده بثلاثة اتجاهات:

الأول: وحدة جماهير العمال بصرف النظر عن انتمائهم الحزبي أو اتجاههم النقابي، أو كانوا منتمين إلى نقابات أو غير منتمين.

الثاني: العمل بين العمال غير المنظمين وجلبهم للنضال وتنظيمهم.

الثالث: العمل داخل النقابات الموجودة، ودفعها للنضال ضد القوانين الإرهابية وضد التدخل الحكومي وضد الانتهازيين الخونة.

وتتحدث النشرة أن على هيئات الحزب قيادة العمل النقابي وتوجيهه، أما القيادة المباشرة للعمل النقابي، فلا يمكن أن يقوم به إلا الشيوعيون الذين يعملون في هذا الميدان بصورة دائمة ثابتة. وتستشهد النشرة بنصائح لستالين موجهة للجنة المركزية للحزب الشيوعي الافرنسي «أن تقلل تدخلها في أقل تفاصيل النشاط النقابي» وأن يكتفي الحزب وهيئاته بالقيادة.

وقد وضعت القيادة مهمة العمل لعقد مؤتمر، تنبثق عنه حركة عمالية جماهيرية منظمة لها مركزها العام ولجان في المدن وفي كل مهنة، وأعلنت هذه المهمة أنها ذات أهمية كبيرة وفي رأس المهمات الموضوعة أمام الحزب.

وتضع النشرة أخيراً المهمات المباشرة للتحضير لمؤتمر العمال السوريين:

- دراسة أوضاع عمال كل مهنة وشروط عملهم (الأجور، ساعات العمل، العطل، البطالة، ووضع النقابة والمنتسبين لها ودفع الاشتراكات والاتجاه السياسي لهيئتها الإدارية.

ـ دراسة مطالب عمال كل مهنة.

ـ إعطاء العمل بين عمال المراكز الصناعية الأهمية الأولى: بترول، سكة الحديد، النسيج الآلي، الكهرباء، الشمنتو، الريجي، السكر، الزجاج.

ـ الاهتمام بالعمل بين العاملات.

ـ محاربة النقابيين الانتهازيين.

ـ العمل لإيجاد لجان العمال للدفاع عن السلم.

وتركز النشرة في النهاية على وحدة العمال ووحدة الحركة النقابية، والعمل بين العمال غير المنظمين.

لقد كانت هذه النشرة هي التوجيه الأساسي لبناء المنظمة النقابية الشيوعية وهي «مؤتمر العمال السوريين». وبدأ هذا المؤتمر أعماله وقام بنشاطات عدة. ففي أيار ١٩٥١ أصدر بياناً موجهاً لعمال النسيج الآلي في حلب كان شعاره الأساسي: إلى الاتحاد والنضال ضد التسريح والبطالة وفي سبيل زيادة الأجور وإعطاء البطالين خبزاً على حساب الدولة. ويعدد البيان أعداد المسرحين، فقد سرحت شركة الغزل والنسيج ٥٠٠ عامل، وسرح معمل شبارق ١٥٠ عاملاً، ومعمل الحاج وهبي الحريري ٥٠٠ عامل، والحاج سامي صائم الدهر ٢٠٠ عامل، ومعمل خضير ٢٠٠ عامل.

ويتحدث البيان عن استغلال أصحاب العمل بؤس العمال وفقرهم وكثرة البطالة التي انتشرت بينهم فأخذوا يخفضون الأجور، حتى أصبحت أجرة المتر الواحد (مسنن ٢٤)، بثمانية أو سبعة قروش. وارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعاً فاحشاً، فزاد سعر كيلو الخبز عشرة قروش، كما ارتفعت أسعار البرغل والزيت واللحم وغيرها!

وبعد ذكر الأسباب الأساسية لهذا الوضع، كالسياسة الاقتصادية التي فتحت أبواب البلاد لبضائع المستعمرين، والحظر الذي فرضته الدول الاستعمارية، وضعف القوة الشرائية عند الجماهير وسياسة الاحتكار، يتوجه البيان إلى العمال للنضال في سبيل مطالبهم.

في ٢٥ حزيران ١٩٥٠ قامت الولايات المتحدة الأمريكية بعدوان على كوريا الديمقراطية، وقد نظم الحزب نشاطات واسعة ضد هذا العدوان، وأصدر عدة بيانات بهذا الشأن. وجرت محاولات ضغط على نظام الشيشكلي لإرسال قطعة عسكرية للمساهمة بهذا العدوان. وفشلت هذه المحاولة نتيجة الرفض القاطع الذي اتخذه الضباط السوريون.

في أواخر آب ١٩٥١ أصدرت اللجنة المنطقية في دمشق بياناً موجهاً إلى سكان دمشق جاء فيه:

«إن سورية بلد القمح والتي تنتج كميات من الحنطة وبقية أنواع الحبوب، تقف اليوم على أبواب مجاعة مخيفة. ويباع كيلو الخبز فيها بأغلى مما بيع أثناء الحرب العالمية الأخيرة، ويذكر أبناء الشعب الازدحام على الأفران وانتظارهم الساعات الطوال للحصول على خبزهم اليومي، كل ذلك بسبب سياسة الخضوع للمستعمرين الأمريكيين والإنكليز، سياسة الإفلاس الوطني والتآمر على مصالح الشعب وخبزه...

لقد أراد المستعمرون تجويع سكان دمشق وإرهاقهم، وينفذ هذه الساسة عملاؤهم من الديكتاتور الشيشكلي إلى حسن الحكيم العميل الهاشمي الإنكليزي إلى زعماء حزب الشعب والحزب الوطني الإقطاعيين الرجعيين..».

ويتحدث البيان ويقول:

«لقد رد شعب دمشق وسيرد أوسع فأوسع على هذه السياسة الاستعمارية الرجعية بالنضال الذي أصبح تقليداً مجيداً من تقاليد شعبنا السوري.

إن دمشق تغلي والاستياء يعمها... لقد قامت بالأمس تظاهرة من حي الدباغة إلى حي العمارة، حيث أوقفتها الشرطة. ولكنها أرسلت وفداً يحتج على سياسة التجويع والإفقار. وهب عمال حي الأكراد وتبعه أحياء دمشق بوجه سياسة التجويع، ويوقع الشعب في جميع الأحياء والشوارع عرائض احتجاجية تفضح سياسة الحكام الخونة. ويرسل وفوداً من المدينة والقرية للاحتجاج...».

في شباط ١٩٥٢ وجهت القيادة المركزية للحزب رسالة إلى جميع منظمات الحزب تحت عنوان: إلى أمام في سبيل تجمع القوى!

أيها الرفاق الأعزاء!

إن نظرة عامة على مجمل تطورات الحوادث في سورية، يتبين لنا أن الوضع بمجمله يتلخص في الكلمات التالية: لقد بقينا وحدنا، كقوة منظمة، نتابع المعركة. فإن الإخوان المسلمين، منذ إقفال المدارس، ومنذ حوادث حلب، قد تركوا تقريباً، أو حتى تماماً، أساليب النضال الجماهيري، ويقال إنهم يفكرون بأساليب الإرهاب الفردي، كذلك زعماء الأحياء من حزب الشعب في حلب يفكرون باستخدام المفرقعات وما إلى ذلك، بأمل دفع الأسواق للإقفال عن هذا الطريق. والبعثيون من جهتهم مشلولون نظراً لتخاذل قيادتهم، ولما يقال عن انقسام في الرأي، حول وجوب أو عدم وجوب الاشتراك في المظاهرات والنضال الجماهيري، أو الاكتفاء «بمعارضة» هادئة تتمثل في السكوت والصمت في صحافتهم لكي تصدر وتكتب مايمكن كتابته. أما الحزب الاشتراكي فيقوم بلعبة مزدوجة، فمن جهة يتظاهر في جريدته بالاستياء من بعض مايجري تلميحاً، ومن جهة أخرى يكيل المديح لبعض التدابير الديماغوجية التضليلية

التي تقوم بها الديكتاتورية (فمثلاً يمدح المرسوم الأخير الخاص بتوزيع أملاك الدولة). أما صحافة الحزب الوطني (الفيحاء، الإنشاء، وحتى بردى المقربة من الحزب الوطني)، فإنها تؤيد الديكتاتورية علناً. وينظر أن صبحي الخطيب يريد أن «يدلي بدلوه بين الدلاء»، (خصوصاً بعد مؤتمر العمال الأخير الذي يبدو أنه كان له صدى قوي وطيب بين العمال، ووصلت أخباره إلى الخطيب). فقد جاء في الصحف أنه دعا رؤساء النقابات إلى مؤتمر يعقد في دمشق قريباً. أما المنظمات الجماهيرية، فبعضها، مثل الطلاب، قد نزل في صلب المعركة، وبعضها مثل العمال والشباب والنساء، لم يستطع بعد أن يحرك جماهيره لعمل أو لنضال واسع في سبيل المطالب المباشرة لهذه الجماهير. وينبغي أن نلاحظ أن هناك نقطتي ضعف كبيرتين في المعركة التي بدأت في ١٦ كانون الثاني حتى الآن، وهما: أولاً عدم تحريكها للفلاحين، ثانياً: عدم تحريكها النساء، أو على الأصح عدم سعيها لجر النساء إلى المساهمة في النضال. أما حركة السلم كحركة فهي فعلاً لعبت دوراً كبيراً بتقديمها طلباً بالإفراج عن الدواليبي (وقد كان ذلك إشارة الابتداء فيما جرى بعد ذلك من تطورات أدت إلى المعارك التي لاتزال مستمرة). ولكنها أي حركة السلم، لم تخض المعركة رسمياً كحركة، بعد أن احتدمت، ولايزال في وسعها طبعاً تلافي ذلك. ومن المعلوم أن الجماهير الشعبية مستاءة جداً بسبب الإرهاب، وبسبب رداءة الخبز وقلته، وبسبب الغلاء، وبسبب ازدياد كرهها للمستعمرين لأعمالهم في مصر وتونس..إلخ وبسبب قلقها من أن تكون الحالة الحاضرة (الديكتاتورية) تمهيداً لتنفيذ مشروع قيادة الشرق الأوسط (الدفاع المشترك). والجماهير الشعبية، ليست مستاءة فقط، بل ومستعدة للنضال أيضاً. بل تبين الحوادث (الجرأة بوجه رجال الجيش، الإقبال على الحشود، حضور المؤتمرات حتى السرية... إلخ) أن لدى الجماهير أيضاً ثقة متعاظمة بأن في استطاعتها الصمود في وجه الديكتاتورية، ومقاومتها ومقاومة مشاريع المستعمرين الاحتلالية بنجاح لشعورها بضعف الدكتاتورية من جهة، وضعف الاستعمار العالمي من جهة أخرى، وقوة الاتحاد السوفييتي وحلفائه وحركة السلم العالمية من جهة ثالثة.

هذا هو الوضع، أو هذه هي خطوطه العامة الأساسية التي تصوره تصويراً أقرب مايكون من الواقع، فما هي المهمات التي يضعها مثل هذا الوضع أمامنا؟ أو على الأصح ماهي المهمة المباشرة العاجلة التي تواجهنا في مثل هذا الوضع؟

إن مهمتنا المباشرة الآن هي مجموعة من الأعمال يمكن أن نسميها:

تجمع القوى في سبيل هجوم جديد...

علينا بالاستناد إلى هذا الأساس السياسي المتين الذي حققناه خلال هذين الأسبوعين أو هذه الأسابيع الثلاثة، أن نعمل لتجميع قوانا في سبيل هجوم جديد، وماذا يجب أن نفهم من تجميع قوانا؟...

١ ـ متابعة المعارك الجزئية للمحافظة على المعنويات ودفعها إلى أمام.

٢ـ الاتجاه نحو الجماهير الشعبية العميقة بعمل تثقيفي واسع، لتنويرها سياسياً عن حقيقة الأوضاع في بلادنا وفي الشرق الأوسط والعالم.

٣ ـ العمل بجد ونشاط لأجل خلق وتوطيد وتوسيع الجبهة الوطنية، وإنشاء لجان لها في المدارس والأحياء والأسواق ومحلات العمل والقرى.. إلخ.

٤ـ أن يعمل إخواننا العاملون في مؤتمر العمال السوريين على القيام بنشاط واسع في قواعد النقابات وبين جماهير العمال غير المنظمين لأجل النضال في سبيل زيادة الأجور، وفي سبيل زيادة كمية الخبز والطحين والقمح وتحسينها وترخيصها، وفي سبيل الضمان الاجتماعي... إلخ. (وليس من الضروري «إجبار» العمال على المطالبة بزيادة ٢٥٪، بل حسب ظروفهم واستعدادهم، فإن مطلب زيادة ٢٥٪ قد وضع أساساً لدعاية عامة ولطلب العمل المشترك، مع اتحاد النقابات ومع النقابات التقدمية. ويمكن أن يطلب بعض العمال زيادة ٢٥٪ أو أكثر أو أقل، فالمهم القيام بحركة واسعة من أجل زيادة الأجور).

٥ ـ تقوية وتوسيع عمل الدعاية شفهياً وكتابياً بين جماهير الفلاحين وبذل جهد كبير لجلب جماهير الفلاحين.

٦ ـ السعي الحثيث لجلب جماهير النساء. إن النضال ضد الديكتاتورية وضد مشاريع الاستعمار لن يكون واسعاً جماهيرياً وكاسحاً إذا لم ننجح في جلب جماهير النساء. إن تجارب جميع الأقطار وتجارب سورية نفسها في نضالها ضد الاستعمار الافرنسي وضد ديكتاتورية حسني الزعيم، تبرهن ذلك بشكل صحيح.

٧ ـ القيام بدعاية كبرى ونشاط واسع لمؤتمر شعوب الشرق الأدنى والأوسط وشمال إفريقيا.

٨ ـ متابعة حملة التواقيع على نداء مجلس السلم العالمي الداعي إلى عقد ميثاق للسلم بين الدول الخمس الكبرى.

وبعد أن تعدد النشرة المهام الحزبية المباشرة، كتقوية بناء الحزب ونظامه ورفع مستواه الثقافي والسياسي وتحسين أساليب العمل السري وتقوية مبدأ الطاعة الحزبية وتطوير الانتقاد والانتقاد الذاتي وتوزيع العمل ومراقبة التنفيذ وتكوين كادر جديد... تقول النشرة:

إن الشيشكلي وسلو وأسيادهما المستعمرين، وكذلك كل القوى الرجعية في سورية وفي كل الشرق الأوسط قد انتعشت آمالهم وازدادوا وقاحة بعد تنصيب علي ماهر باشا في مصر، وإقامة الأحكام العرفية العسكرية فيها ضد الشعب المصري الباسل... ولكن خابت آمالهم فإن نضال الشعب المصري مستمر، ونضال الشعب التونسي مستمر، ونضال الشعب الإيراني مستمر، والشعب العراقي يتخفز، والشعب اللبناني يتقدم في طريق النضال الوطني، وسيرى المستعمرون وخدمهم أن نضال الشعب السوري مستمر أيضاً.

قام الشيشكلي بعملية خنق للصحافة عن طريق دمج الصحف بعضها مع بعض. فقد أصدر قراراً عام ١٩٥٢ بتطبيق مبدأ الدمج بين صحيفتين اثنتين في صحيفة واحدة، وقد نفذت هذه التجربة، إلا أنها كانت فاشلة ولم تعمر طويلاً، فعادت كل صحيفة إلى استقلالها في أواخر عام ١٩٥٣. ومن الصحف التي دُمجت: العلم مع القبس في جريدة اسمها الزمان، والأيام مع الإنشاء في جريدة تدعى اليوم، والنصر مع الأخبار في جريدة النصر الجديد، والنضال مع ألف باء في جريدة ألف باء النضال ثم الأنباء، والمنار مع بردى في جريدة تدعى اللواء، والصرخة مع عصا الجنة في جريدة تدعى الأسبوع[٢].

❖❖❖

نشط الحزب الشيوعي ليس فقط في إصدار البيانات وتوزيعها من مختلف أنحاء البلاد. بل لجأ إلى أسلوب التظاهرات الطيارة والعرائض ووفود الاحتجاج. وكان من أبرز مانظمه الحزب التظاهرة الكبرى التي تمت في آب ١٩٥١ في العاصمة دمشق. واستغرق التحضير لها مدة شهر كامل لتحديد الأسلوب الذي سوف تتبعه والشعارات السياسية التي يجب أن ترفع والهتافات التي يجب أن تطلق. وهكذا ففي اليوم المحدد، وكان على الأكثر العاشر من آب، بدأت وفود المحافظات تتجمع كل في المكان المحدد له مع مسؤوليها. وانطلقت التظاهرة من مكانين في وقت واحد، من شارع ٢٩ أيار أمام مقهى الكمال الصيفي، ومن أمام محطة الحجاز، في الساعة السادسة مساء، وكان عدد المشاركين بحدود ألف متظاهر. ورفعت اللافتات وبدأت الهتافات بسقوط الديكتاتورية العسكرية المقنعة، وضد مشاريع الدفاع عن الشرق الأوسط، وضد الإمبريالية، وتحيات لنضال الشيوعيين. وعندما وصلت التظاهرتان إلى أمام مقهى الهافانا داهمتهما سيارات الشرطة العسكرية، وحدثت معركة بين المتظاهرين وأفراد الشرطة. وصادف أن قفز أحد

---

[٢] ـــ الصحافة السورية في مائة عام ١٨٦٥ ـــ ١٩٦٥. الجزء الثاني، المؤلف جوزيف الياس.

المتظاهرين وهو أسعد خوري إلى سيارة الشرطة وبدأ برمي أفرادها على الأرض وتجمعوا عليه واعتقلوه وساقوه إلى نظارة الشرطة المدنية حيث تعرض لعذاب وحشي، غاب نتيجته عن الوعي، وأصبح في حالة خطرة، مما أقلق رجال الشرطة فكفوا عن تعذيبه، حتى يتبينوا حقيقة وضعه. واعتقل كذلك دانيال نعمة، وتعرض للتعذيب نفسه. وبعد ذلك نقلا إلى مركز الشرطة العسكرية في منطقة البرامكة، وهناك التقيا برفيق آخر هو عثمان إبراهيم من الجزيرة، وأحيل الثلاثة إلى المحكمة العسكرية، بعد أن قصُّوا شعورهم بشكل متصالب، وعندما رأى الحاكم منظرهم رفض البدء بالمحاكمة وانسحب احتجاجاً. وسيقوا إلى سجن المزة، وأفرج عنهم بكفالة قدمها المحامي الرفيق نصوح الغفري في تشرين الأول.

من الأحداث الهامة ما جرى في حمص، فقد قاد الرفيق واصل الفيصل اجتماعاً واسعاً، حضره نحو ٥٠ رفيقاً في ضاحية المدينة، في منطقة نهر العاصي اسمها «الجديدة»، وكان مخصصاً للبحث في نداء ستوكهولم الذي يطالب بتحريم القنبلة الذرية. وقد اكتشفت هذا اللقاء أجهزة الأمن وطوقته برجال الدرك، ووقع أغلبية الحاضرين بيدهم، وبعد إيقافهم في مخافر الدرك مدة يوم أو يومين، أتت الأوامر بسوقهم مشياً على الأقدام إلى دمشق. وساروا جميعاً يحيط بهم رجال الدرك على خيولهم باتجاه دمشق حتى قرية حسياء، ثم نقلوهم بالسيارات، وقد مثلت هذه الحادثة همجية السلطة بقدر ما مثلت إيمان المناضلين الشيوعيين وصلابتهم.

كانت إضرابات الطلاب دائمة تقريباً. وغالباً ما كان طلاب الجامعة، وبينهم رفاقنا، يشكلون العنصر الأساسي. ولاتزال صور هذه التظاهرات في ذاكرتي، فقد كنا نتجمع في الساحة مقابل كلية الحقوق ونخرج حاملين اللافتات باتجاه محطة الحجاز ثم باتجاه جسر فكتوريا، وكنت الهتاف الأساسي. وفي إحدى التظاهرات التي استمرت على مدى يومين، وقع صدام مع أجهزة الأمن وجرى إطلاق الأعيرة النارية ووقع عدد من الجرحى. وكلفت من اللجنة المنطقية بالسفر إلى بيروت لإطلاع القيادة على تفاصيل الوضع، ووصلت نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً، وذهبت إلى نقطة الاتصال في دكان نجارة وكانت مغلقة، ثم ذهبت إلى نقطة اللقاء الثانية في أحد البيوت. وبدأت الانتظار، ونحو الثانية عشرة ليلاً جاءني الرفيق فرج الله الحلو، وجلس معي نحو ساعتين، وسجل جميع التفاصيل وأبلغني تحية الرفيق خالد بكداش، وطب متابعة النشاط ضد نظام الديكتاتور الشيشكلي، وأكد ضرورة عودتي مباشرة إلى دمشق.

اعتقل الرفيق إبراهيم بكري في آخر عام ١٩٥٢ وأمضى شهراً في نظارة الشرطة، ثم سيق إلى سجن المزة وأحيل إلى القضاء الذي أعلن براءته.

وفي كانون الثاني ١٩٥٣ جرت اعتقالات واسعة للطلاب الشيوعيين والبعثيين، وسيقوا إلى سجن تدمر، وعند وصولهم أفرج عن جميع البعثيين لأنهم قدَّموا تعهداً بعدم العمل السياسي لاحقاً، ماعدا طالباً واحداً هو نور الدين الأتاسي الذي بقي في السجن. وقد اعتقل في الوقت نفسه تقريباً عدد كبير من الشيوعيين وأودعوا سجن تدمر، ومنهم الرفاق: إبراهيم بكري، إسماعيل الطرودي، دانيال نعمة، بشار الموصلي، سميح الجمالي، توفيق أتاسي، علاء الدين الرفاعي، بدر مرجان، توفيق أستور، خالد كردي، عطا الله قوبا، يوسف نمر، جرجس الهامس، عبد الكريم طيارة. وفرضت عليهم الأشغال الشاقة للتفتيش عن الآثار. وبعد بضعة أشهر بدأ الإفراج عن البعض، وبقي منهم: إبراهيم بكري ودانيال نعمة وعبد الكريم طيارة وإسماعيل طرودي وبدر مرجان وفي الأول من تموز استدعوا إلى دمشق واستقبلهم الشيشكلي، باستثناء بدر مرجان الذي أبعد إلى لبنان، وقدم لهم القهوة والدخان. ومما قال لهم: أنتم تتهمونني بأني عميل للاستعمار، وأنا أستطيع أن أتهمكم بأنكم عملاء للاتحاد السوفييتي. ولو كانت سورية بلداً مجاوراً للاتحاد السوفييتي لكانت لنا سياسة أخرى. فما كان من عبد الكريم طيارة إلا أن رد عليه: أنت عميل هذا صحيح، أما نحن فأصدقاء للاتحاد السوفييتي، وأنهى الشيشكلي المقابلة وأفرج عنهم!

وقد حرص أديب الشيشكلي على أن لا يبقى أي سجين عندما رشح نفسه لرئاسة الجمهورية. وكان الإفراج عن الشيوعيين في هذا الإطار.

وفي إطار الاعتقالات، فقد اعتقل خليل الحريري والدكتور مصطفى أمين بتهمة إلقاء قنبلة على مكتب المعلومات الأمريكي في دمشق. وقد وجهت رسائل احتجاج شديدة على اعتقالهما. وجاء في إحدى هذه الرسائل:

إن المؤامرة التي تدبر في سورية للقضاء على الصمود الراسخ الذي يجابه به الشعب السوري الباسل، جميع مشاريع الحرب والاحتلال لا تخدم سوى الاستعمار وهي من إيعازه.

إن الديكتاتورية في سورية، استغلت حادث القنبلة على مكتب المعلومات الأمريكي فألصقته فوراً بالدكتور مصطفى أمين عضو مجلس السلم العالمي، والسيد خليل الحريري عضو اللجنة التنفيذية لمؤتمر العمال السوريين، واعتقلتهما وعذبتهما وما تزال. فأصيب خليل الحريري بسبب الضرب والتعذيب بنزف دماغي أشرف منه على خطر الموت، كما أصيب الدكتور مصطفى أمين بعطل في أذنه. فعلوا ذلك كله على

الرغم من عدم وجود أي دليل، ولا ظل من دليل وقبل إجراء أي تحقيق. وإتماماً للمؤامرة أحيل المتهمان إلى المحكمة العسكرية تنفيذاً لخطوط هذه المؤامرة المفضوحة أسلوباً وهدفاً، بغية قمع حركة السلم المتصاعدة وتشويه وجهها الوطني والإنساني وقمع كل حركة وطنية تحررية مقاومة للمشاريع التي يطبخها الاستعمار للبلدان العربية.

إننا نضع أمام الضمير العالمي هذه المؤامرة التي تدبر في سورية، وكل المؤامرات التي تدبر في عالمنا العربي ضد حركة السلم والتحرر الوطني، ونطالب الرأي العام العالمي بالتدخل للحؤول دون تنفيذها، وإنقاذ الدكتور مصطفى أمين والسيد خليل الحريري وجميع المعتقلين الوطنيين من السجن والتعذيب.

❖❖❖

كانت قيادة المنظمة في دمشق مكونة في ذلك الحين من الرفاق: إبراهيم بكري وخليل الحريري وعمر يونس، وكنت أشارك معهم كما كان يشارك أيضاً الرفيق المحامي الدكتور نصوح الغفري. ومن حين لآخر، كان يأتي الرفيق أنور حداد للمشاركة في الاجتماعات، كما كان الرفيق حسن قريطم موفد القيادة المركزية يأتي من حين لآخر ويشارك في أعمال اللجنة المنطقية.

نشطت الحياة الحزبية في هذه الفترة. وفي عام ١٩٥١ نظمت القيادة المركزية اجتماعاً في بيروت وحضر هذا الاجتماع من سورية الرفاق إبراهيم بكري، وخليل الحريري، وأنا. وقدم الرفيق خالد بكداش تقريراً حول عمل الحزب بين العمال والفلاحين، الذي تحول فيما بعد إلى التقرير الشهير «حزب العمال والفلاحين».

كما صدر كراس بعنوان «ماذا وراء مكافحة الشيوعية» كتبه الرفيق خالد بكداش، وحلل فيه الأهداف الأساسية الداخلية والخارجية وراء مكافحة الشيوعية في ظل الانقلابات التي وقعت.

وفي هذه الفترة أيضاً نشط العمل بين المثقفين وتشكلت رابطة الكتاب السوريين، كما نشطت التنظيمات الجماهيرية: مؤتمر العمال السويين، واتحاد الشباب الديمقراطي، ورابطة النساء السوريات، واتحاد الطلاب الجمهوريين، ورابطة الحقوقيين الديمقراطيين، ورابطة الكتاب السوريين.

وكان التركيز الأساسي ينصب على الحملة الجماهيرية الواسعة لتوقيع نداء استكهولم الذي أصدره مجلس السلم العالمي،من جماهير العمال والفلاحين والنساء

والشباب والمثقفين ورجال الدين.، وقد نجح الحزب في تنظيم حملة جمعت مئات ألوف التواقيع، وأذكر كيف كنا نجوب الأحياء ونزور القرى لجمع التواقيع.

في هذه المرحلة جرت محاكمات حزبية أبرزها تلك المحاسبة الشديدة التي تمت للرفيق نجاة قصاب حسن، كما جرت محاسبة للرفيق جميل عثمان، وجرى تعميم نتائج هذه المحاكمات على مجموع الحزب.

❖❖❖

أدت جميع النشاطات التي تمت في البلاد والغليان الشعبي الذي رافقها والتي تراكمت سنة بعد أخرى، إلى نضوج الظروف لإسقاط نظام الشيشكلي. فقد كانت أوضاع الطبقة العاملة متردية جداً، وكذلك أوضاع الفلاحين، وحلت الأحزاب، وزج بالمئات من مختلف الاتجاهات في السجون.. لقد تحول التراكم الكمي إلى تحول نوعي وبدأ الإعداد لإسقاط النظام. وأدركت القيادات البرجوازية والإقطاعية لحزب الشعب والوطني هذا التحول النوعي، وبدأت التحضير لقطف ثماره، وجرت لقاءات وتقرر عقد مؤتمر سياسي في مدينة حمص.

جاء في مذكرات المحامي بشار الموصلي[٣] تفاصيل عن هذا المؤتمر جاء فيها: «لقد بدأ الإعداد السياسي لمؤتمر حمص الذي قررت عقده القوى السياسية التقليدية: الحزب الوطني وحزب الشعب، إضافة إلى القوى السياسية الصاعدة، كحزب البعث العربي الاشتراكي. وكان الهدف من المؤتمر، تنظيم الجبهة الداخلية التي تستند إليها هذه القوى للانقضاض على عهد أديب الشيشكلي. وقد طرحت شعارات المؤتمر في البلاد رداً على الإعلان الدستوري لعهد أديب الشيشكلي، وتقرر عقد المؤتمر في مدينة حمص في دار المرحوم عبد الله فركوح، وهي دار الكتلة الوطنية سابقاً.

لقد اتفق السياسيون من رجالات هذه الأحزاب أن لا مكان للشيوعيين في المؤتمر المذكور. ورغم العرائض التي قمنا بتدبيجها وجمع التواقيع عليها متضمنه المطالب الشعبية والوطنية، فقد أصر منظمو المؤتمر على استبعاد الشيوعيين. وطبيعي أن يكون الأمر على هذا الشكل، فقد كانت رائحة حكم نوري السعيد تفوح من أحاديث منظمي المؤتمر الأساسيين في الحزبين التقليديين، والدعوة إلى الحديث عن وحدة عراقية - سورية في ذلك الحين، كانت تصب في طاحونة حكم نوري السعيد الذي ناصب حكم أديب الشيشكلي العداء الكامل.

---

[٣] ـــ مجلة دراسات اشتراكية، العدد الأول، كانون الثاني ١٩٨٨.

كانت شعاراتنا في تلك المرحلة، الدعوة إلى إقامة مجتمع ديمقراطي ونظام حكم وطني تقدمي يسهم في خلق سورية الحديثة. وكانت جرائد الحزب السرية تدعو إلى ذلك وتوضح للجماهير أهمية إقامة حكم ديمقراطي ينقذ سورية من التآمر والرجعية والديكتاتورية.

ومع ذلك فقد أصرت تلك القوى على استبعادنا، وكانت اتصالاتنا مكثفة مع البعثيين، لكي يلعبوا في المؤتمر الدور التقدمي المنشود.

قررنا الدخول إلى المؤتمر بأي شكل كان رغم عدم دعوتنا إليه، واستطعنا كمجموعة من الشباب الشيوعي[4] الدخول إلى ساحة المؤتمر عبر زقاق خلفي، ودخلنا إلى البيت من جهة مهجورة. وهكذا وجدنا أنفسنا في ساحة المؤتمر الذي كانت توجد فيه قيادات تلك القوى: عبد الرحمن الكيالي، صبري العسلي، رشدي الكيخيا، ناظم القدسي، نجيب الريس وعبد الفتاح الزلط ونور الدين الأتاسي وغيرهم (عن البعثيين) وحسني البرازي عن المستقلين.

ألقى المؤتمرون كلماتهم، وكانت كلمة حزب البعث متميزة عن تلك الكلمات في المؤتمر، إذ كانت تعكس إلى حد ما وجهة النظر الشعبية.

قررنا أن نلقي كلمة، وأن تكون من إلقاء الرفيق سميح الجمالي. وعقب إلقاء عبد الفتاح الزلط كلمته وقف سميح الجمالي وألقى كلمة، وتضمنت، كما روى سميح نفسه، الأفكار التالية:

إن الشيشكلي يعلن عن إجراء انتخابات ليعطي الديكتاتورية طابعاً ديمقراطياً، فأية ديمقراطية هذه مع وجود معتقلين سياسيين في السجون، وأنا الذي بينكم ومعي بعض الرفاق هنا، قد خرجنا لتونا من سجن المزة ودليلي على ذلك هو شعري المحلوق. ومايعلنه الشيشكلي هو تضليل للجماهير لإطالة عمر الديكتاتورية.، ويتابع الأستاذ بشار الموصلي ويقول: (وعندما وصل سميح الجمالي إلى القول: «إننا نحن الشيوعيين، نعلن أن هذه البلاد بلادنا، ومن حقنا إبداء كلمتنا»، وقف حسني البرازي وقاطعه قائلاً لا هذه البلاد ليست بلادك)!

---

[4] ـــ الرفاق الذين دخلوا هم: سميح الجمالي، بشار الموصلي، توفيق أتاسي، باصيل سمين خالد كالو. وكانت اللجنة المنطقية التي نظمت هذه العملية تضم الرفاق: ظهير عبد الصمد، راتب جبنة، جميل عثمان، عبد المجيد جمال الدين، حسني كباش... أبو جنب.

سكت الجميع وسكت سميح، وترقبنا نشوب معركة كلامية، غير أن حسني البرازي وببراعته اللفظية قال: إن هذه البلاد بلاد ابن عمتي. وانفجر الناس ضاحكين فابن عمته هو أديب الشيشكلي.

انتهى المؤتمر إلى الإعلان عن مقاطعة استفتاء أديب الشيشكلي على الدستور والرئاسة في ١٩٥٣/٦/٢١ . وقد لبى الشعب المقاطعة، فكان الاستفتاء هزيلاً، ومع ذلك أُقر الدستور وانتخب أديب الشيشكلي رئيساً للجمهورية، وباشر الدعوة إلى انتخاب مجلس نيابي..».



في الرابع والعشرين من شباط ١٩٥٤ بدأت حركة اعتصام عسكرية في حلب وانضم إليها بعض قادة المناطق، وأدت إلى تصفية نظام الشيشكلي وهروبه إلى بيروت... وبدأت مرحلة جديدة.

الفصل التاسع

قضية الرفيق سهيل

سهيل هو نجاة قصاب حسن، وهو ابن دمشق. كان والده يعمل نجاراً وأصبح في مرحلة ما رئيساً لنقابة النجارين، وكان متديناً، ولكنه كان متسامحاً مع ابنه البكر نجاة ومع إخوته وأخواته، ويتمتع بأخلاق رفيعة. أنهى نجاة دراسته الجامعية وتخرج محامياً، ومارس مهنة المحاماة. أما في الحزب فكان يشغل مركز أمين اللجنة المنطقية لمنظمة دمشق، وأصبح عضواً في اللجنة المركزية. كان الرفيق نجاة قصاب حسن متعدد المواهب، فهو موسيقي ورسام وصاحب نكتة، وكان متابعاً للحياة الأدبية. وبرزت مواهبه الصحفية، فكان يشرف على رسالة دمشق الموجهة إلى صحيفة الحزب الشيوعي «صوت الشعب» اللبنانية. يضاف إلى ذلك كله عمله ونشاطه السياسي وصلاته الواسعة بالأوساط الشعبية والثقافية الدمشقية. ترشح للنيابة عن دمشق، ودافع كمحام عن العديد من الرفاق الذين اعتقلوا لأسباب مختلفة.

في نهاية عام ١٩٥٠ والنصف الأول من عام ١٩٥١، نشأت قضية شغلت الحزب، وشغلت الهيئة القيادية في دمشق، إضافة إلى اهتمام القيادة المركزية ومتابعة الرفيق خالد بكداش الأمين العام، شخصياً لها. وعقد اجتماع في بيروت للبحث فيها برئاسة الأمين العام، وبحضور أعضاء القيادة المركزية، وحضرتُ من سورية باسم الرفيق بشار مع الرفيق إبراهيم بكري (هارون) والرفيق الدكتور مصطفى أمين. وكان الحوار الأساسي يدور بين الرفيق سهيل، وبين الرفيق ظافر (أنور حداد)، إضافة إلى الرفيق فهيم (خليل الحريري).

سبق هذا الاجتماع وتبعه سلسلة مراسلات بين اللجنة القيادية في دمشق والقيادة المركزية، ومع الرفيق خالد بكداش. وانتهت هذه القضية بقرار ينص على فصل نجاة قصاب حسن من اللجنة المركزية واللجنة المنطقية في دمشق، بعدها آثر الرفيق نجاة أن ينهي علاقته بالحزب وعاد إلى الحياة الخاصة.

القضايا التي حوسب عليها الرفيق نجاة هي التالية:

التصويت لفرزت المملوك في انتخابات ريف دمشق، الموقف من الهتاف للاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي، الموقف من الانتقاد والانتقاد الذاتي، مسألة الاستهتار بالعمل السري، وقضايا أخرى ليست بنفس المستوى. وقد طرحت هذه القضايا أمامه، وجرت مناقشات متعددة. وقد كتب الرفيق سهيل رسالة مطولة إلى القيادة المركزية والى الرفيق خالد بكداش شخصياً يشرح فيها موقفه من هذه الأمور وفهمه لها . وتقع الرسالة في نحو ثلاثين صفحة، نذكر بعض ماجاء فيها :

١ ـ مسألة فرزت المملوك: كانت تدور معركة انتخابية، وكان فرزت المملوك مرشحاً في ريف دمشق. وجاء رفاق من صيدنايا يطلبون التوجيه في التصويت. ولم يعط نجاة توجيهاً واضحاً، خاصة بعد انسحاب صديق الحزب أحمد أباظة، وقال نصوت لمن يزعج الحكومة. وعدَّ الحزب ذلك خطأ وأنه في صالح فرزت المملوك، المعروف بميوله الغربية ورجعيته، ولكنه معروف أيضاً بصداقته القوية مع الرفيق خالد بكداش، وبأن الرفيق المحامي الدكتور نصوح الغفري يعمل في مكتبه.

لقد قدر سهيل أن تشجيع فرزت المملوك يفسح المجال لتناقضات داخلية بين القوى النافذة، وخاصة الموقف ضد حزب الشعب. ويعترف نجاة بالخطأ في هذا الجانب، ويقول: بدل أن ننشط التناقضات بين الفريقين من الخارج، زججنا أنفسنا في تناقضاتهم، وخسرنا أمام إخواننا لتأييدنا فريقاً مكروهاً .

٢ ـ مسألة الهتاف للاتحاد السوفييتي وللحزب الشيوعي: وتتلخص هذه المسألة بأن الحزب نظم اجتماعاً انتخابياً باسم الجبهة الوطنية، ودعا إليه مرشحين آخرين. وجرى نقاش حول الهتافات، وكان رأي ظافر «أنور حداد» أن يطلق العنان بالهتاف للاتحاد السوفييتي وللحزب الشيوعي. وكان جواب سهيل أن مجرد عقد الاجتماع باسم الجبهة الوطنية وحضور جماهير توافق على شعاراتها يجب أن يقرب موقف الجماهير من الاتحاد السوفييتي، ولذلك ينبغي أن نهتف له عندما يذكر اسمه كقوة تقاوم أخطار الحرب وتقاوم مشاريع المستعمرين. وعندما يذكر اسم الرفيق خالد بكداش يمكن أن نهتف للحزب. ولكن لايجوز جعل هذه الهتافات مسبحة. وقد أيدت أكثرية الرفاق موقف سهيل، إلا أن ظافراً دفع للإكثار من الهتافات، وأفلتت القضية، وقد وصفت هذه القضية على أنها تمثل موقفاً مبدئياً من الاتحاد السوفييتي.

٣ ـ مسألة الانتقاد والانتقاد الذاتي: لقد قيل عن الرفيق سهيل بأنه إذا أوكل إليه عمل، لايشعر المسؤول بطمأنينة إلى أنه سينفذ، وقيل عنه إنه خفيف في مسائل العمل السري ومستهتر، وقيل أيضاً إن لديه ميولاً انتهازية.

ويناقش سهيل هذه القضايا ويرد عليها، ويقول «إن كل مسألة لم تنفذ وكل مسألة تؤجل تصلح لإصدار حكم»، وطلب محاسبته على حادثة بعينها، وطرح توزيع العمل بين الرفاق علماً أن المهام المطروحة هي: التنظيم، قيادة الحملة الانتخابية، حملة السلام، المنظمات العلنية، الكتابة، مسائل الترشيح، مقابلة الشخصيات، المالية، العمال، الفلاحون، الثقافة، توزيع النشرات الحزبية. وقال بأن مأمون «جميل عثمان» مسؤول العمال، وظافر مسؤول التنظيم وقيادة الحملة الانتخابية، وصامد « خليل حريري على الأغلب» مسؤول الفلاحين، وسهيل كل المسائل الباقية، ويتساءل، هل مثل هذا التوزيع في العمل، مهما تكن الظروف، توزيع صحيح من الناحية المبدئية؟ وهل هناك عملاق يستطيع أن ينهض بشكل كاف ومرض بكل هذه الأمور. أناشد الجميع ضميرهم، ألا تهرب بعض المهمات في مثل هذه الحالة؟ ثم يسترسل في شرح ماعمله في كل ميدان، ويذكر بأن هناك خطأ أساسياً، هو توزيع العمل بهذا الشكل، و ٩٠٪ من التعديلات التي طرأت على توزيع العمل هذا، جرت لزيادة عمل سهيل: ويطالب بأن نتجنب المحاسبة على الشعور، حين فقدان الأدلة، أو نسيانها على الأقل. وإذا جرت المحاسبة على الشعور، كان هذا مفتاحاً لشعور آخر، شعور بالظلم، وهذا الشعور لاينشّط بل يثبّط، خصوصاً إذا كان واحدنا قد مدّ قواه إلى أقصى حدود التوتر. مرة قال لي مهدي (الرفيق خالد بكداش) إن الدليل على قلة اهتمامي بالعمل هو أني كتبت القسم الخاص بهم في الآخر بخط مشبول، بينما كتبت القسم الأول بخط معتنى به. في المحاسبة يجب أن تبرز النواحي الإيجابية والسلبية، فلا تطغى لا هذه ولا تلك، والصراحة يجب أن تكون في مراقبة التنفيذ، وعلى التفكير في الصعوبات وحلها قبل أن تكون في توجيه الانتقاد.

٤ ـ مسألة الاستهتار بالعمل السري: ويقول سهيل، من المؤكد أولاً أن الحوادث المأخوذة علي كان ينبغي ألا تحدث. ففي حادثة العود، ظننت أن العود يغطي، فلا يخطر لأحد أن فلاناً يحمله. ولكنني لم أنظر إلى الناحية الثانية، وهي أنه يمكن أن يمر أحد يعرفني شخصياً، ولكن ليس هذا استهتاراً، فمنذ لمحني الحارس بادرت إلى الخروج وإخطار صدقي واتخذنا احتياطات دامت أسبوعاً، فأين يكون الاستهتار؟ يكون بأن نخطىء ولا نصلح. قولوا مخطىء ولا تقولوا مستهتر، ألم يكفني أنني خلال نحو سنتين أعاني الندم العميق العميق من هذه الحادثة، ثم أضرب بها على رأسي في كل مناسبة، وهل تكرر لهذه الحادثة مثيل؟

المستهتر هو صدقي، فقد عرف نحو ١٠ رفاق على بيت الخياطة.

المستهتر هو فهيم، ناضلت معه ثلاثة أشهر حتى وضع نعلاً من الكاوتشوك، دخل مرات نهاراً إلى دار أنا فيها سريًة، ورآه أحد أبناء حيه يدخلها، دون أن ينتبه. نام مرتين دون سبب عندي رغم عدم وجود مكان آخر للنوم عندي سوى السرير الذي أنام عليه، وقد دللته على أمكنة ينام فيها، ولكنه (استحى) أن يذهب إليها.

إن ظافر وفهيم، أصرا رغم معارضتي، على تشغيل (صاحب البيت السري الوحيد في ذلك الوقت) في الميدان العمالي وفي فرقة حزبية، وكادا يعطيانه التوكيل لحضور مؤتمر العمال السوريين (الذي اعتقل كل أعضائه كما تعلمون). وكنت أقول: إذا كانت حركة العمال متوقفة على هذا الرفيق، فإن قواعد العمل السري تحتم ألا نشغله حتى نصفي بيته ونجد بيتاً غيره، وظللت أناضل حتى مللت.

ثم يجب سؤال ظافر، هل من الحرص على قواعد العمل السرية التفريط بالكادر؟ و هو ما اعترف به بعد نقاش وجدل طويلين، وبعد أن وضعت أمامه حوادثه المتكررة وبعد أن طلبنا تدخل القيادة لإصلاح تطرفه في حادثتي الاعتقال قبل الترشيح والنزول رغم الملاحقة؟

هل من الحرص على قواعد العمل السرية استعمال ظافر مكاناً واحداً للمواعيد، لكل الإخوان في طريق مكشوفة، حتى صار من يفتش عنه يذهب إلى هذا المكان؟ حتى القادمون من بلد آخر؟ وهل من الحرص على القواعد السرية أن يكلفني أنا بأخذ أحد الرفاق ممن ينقلون المناشير السرية، من دار مكتومة إلى دار مكتومة أخرى، وكنت آنذاك علنياً والموعد نهاراً.

أنا الذي يصر هنا على التدقيق في قواعد العمل، وإذا كانت قد وقعت لي أخطاء وهي قليلة وبسيطة وسهلة التلافي وتلافيتها، فقد كانت درساً لي ولغيري الذي استفاد من الدرس، ولا أراكم تنظرون إليها كمادة للكلام في كل مناسبة.

ويعلن سهيل: أنا من أنصار الانتقاد الذاتي الحازم، وربما ليس بين الموجودين هنا من حياته العامة والخاصة معروفة من الجميع مثلي، لماذا؟ لأنني أضع قضاياي، ليست المسألة مجرد ذكاء من الآخرين في كشفي، ولو حاولت إخفاء أشياء صغيرة لأخفيتها، ولكنني أمامكم معروف ظهراً لبطن وبطناً لظهر.

وأنا أعتقد أن موقفي من الانتقاد الذاتي موقف سليم، ويتحسن مع ذلك كل يوم. ولكن إذا كنت صارماً مع نفسي، فهل يجوز استمرار قذفي حتى بالتهم القديمة التي اهترأت وصارت كجراب الجندي!

ويعدد بعد ذلك المآخذ على الآخرين ويقول: ما الذي تأخذه على ظافر؟

- التطرف في شؤون الكادر.
- لا خطة معينة بل مواقف متناقضة في مسائل البيوت.
- إهمال أحياناً وتأجيل أحياناً.
- قياسه الأمور بالشعور بالنسبة للكثيرين، لا بالنسبة إليّ وحدي.
- موقفه من الانتقاد أدنى من المستوى المطلوب.

ماالذي نأخذه على فهيم؟

- قلة ثقته عملياً بالعمال مع ثقته بهم نظرياً.
- الرغبة في الأشياء الجاهزة.
- اعتراف سطحي بالخطأ لوقف المناقشة وصعوبة الاعتراف بالخطأ اعترافاً عميقاً صادقاً.
- وصفه مسائله (وخصوصاً المادية) بطريقة غير صحيحة.

ما الذي آخذه على نفسي:

- بقايا تردد وانتهازية، ولكن أكافحها قبل أن تظهر أو فور ظهورها.
- بعض التأجيل في الأعمال.
- أخطاء معينة لا تتكرر.

وناقش في نهاية رسالته بعض أفكار مهدي «خالد بكداش» حول الفرق بين حسن الظن والتفسير وسوئهما. أنا مع مهدي حين يقول بأن سوء الظن عصمة. ولكن سوء التفسير، قد لا يكون عصمة. فالعصمة من الخطأ لا من غيره، وسوء التفسير قد يقود إلى الخطأ. في كل شيء يصح تفسيره بتفسيرات قاسية إن كان الأمر يحتمل الوجهين ينبغي أن يكون السؤال والاستفسار أسبق من التفسير، حتى لا نتورط في حكم عاجل ثم نسميه، وهذه ملاحظة لي على مهدي بصورة عامة.

أما بشأن معاملتي للإخوان، فقد انتقد ظافر موقفي في معاملة الإخوان بأنه يتضمن نوعاً من البرطيل. مثلاً أجد طريقة لجعل المهمات أقرب للنفوس وأحلى، وأثير اهتماماً شخصياً لهم فيها. وإنني أعاملهم معاملة تكسبهم إلي، وقال - وفي كلامه صحة إلى حد بعيد - بأن من الواجب أن ننهض الإخوان إلى العمل لمجرد أنه عمل.

ولكن ألسنا - مرة أخرى - نعامل البشر؟ لقد اقتنعت بالجانب السياسي من رأيه، جانب تربية الإخوان على أن يقوموا إلى العمل لأنه عمل، ودون أية مشجعات مهما يكن نوعها، ولكن أليس هؤلاء الناس بشراً؛ إنجلز انزعج من ماركس لأنه لم يعزّه تعزية كافية بوفاة صديقته، وانقطع عن الكتابة إليه شهراً، بعد نحو عشرين سنة من صداقة ونضال مشترك.

وبشأن إنضاج الانتقاد والانتقاد الذاتي، فمن رأيي أن ذلك واجب الجميع، حتى لا يبنى الانتقاد على الشعور. لقد انتقدت ظافر مرات عديدة، حول حوادث فردية، وبشكل ليّن وأخوي، وتركت مسائل لتتضح لأنها تحتمل التفسير الحسن، مثل المواقف المتناقضة من البيوت، مع تحدثي عما لا يجوز تأجيله مثل التفريط بشؤون الكادر.. وانتقدت فهيم كذلك بعد أن اتضح اتجاهه.

إن مقصدي من هذه الرسالة هو:

أولاً: عرض مكنونات صدري أمامكم، حتى لا يكون لدي شعور غير صحيح، حتى تصلحوا بعض الآراء وتفسروا بعض المواقف.

ثانياً: أن يشتد جو المراقبة والانتقاد بيننا.

واختتم سهيل رسالته بقوله «الآن وقد قلت معظم ما في نفسي، إلا الحوادث القليلة التي لا تخرج عن إطار ما تقدم - والمهم هو الاتجاهات - أقبلكم بكل ما في من حب صادق، وأذكر لكم أنني مازلت شديد الحب والتقدير لظافر وفهيم، ولجميع الإخوان، شديد الثقة بكم وبقيادتكم. نحن متعاونون الآن أحسن ما يكون التعاون، والجو بيننا صافٍ، وما رسالتي هذه في نظري إلا شكل من أشكال تقوية التعاون وتحسين العمل والسير به إلى أمام. تحيات وقبلات لجميع الإخوان من سهيل.

❖❖❖

وقد وجه الرفيق بشير (خالد بكداش) رسالة إلى الرفيق شارل «حسن قريطم» حول رسالة سهيل جاء فيها:

فيما يتعلق بقضية سهيل، فقد وصلتني رسالته، وهو يقول فيها إنه في يأس مطبق، وإنه مهدد بأقسى عقوبة في الدنيا هي حرمانه أشرف لقب في الدنيا.. ثم يقول، ولكنني في نفس الوقت لا أستطيع أن يكون وجودي في الحزب، مبنياً على الخوف من الخروج منه... ثم يذكر أشياء كثيرة، خلاصتها أنه مظلوم (كالعادة)، ويقول إن سبب ما نزل به أنه حارب الروتين والجمود والبيروقراطية والاستعلاء على الكادر واللامبالاة بالإنسان وبميول الرفاق وسلوك الاستفزاز تجاه المناضلين، ولمحاربة سياسة حل فرق العمال في الحزب.

وفي النهاية يطلب مقابلتي (وها أنا أرسل لك الرسالة كلها لتطلعوا عليها) فالرجاء مقابلته وإجابته بما يلي: إنني لا أجد مانعاً من مقابلته، والمانع الوحيد هو وجود عوائق فنية كما تعلم، وحين تزول هذه العوائق سأقابله دون ريب. هذا أولاً، وثانياً: إنه لم يعاقب لأنه حارب الاستعلاء على الرفاق والبيروقراطية، بل لأنه ارتكب أخطاء

سياسية وتنظيمية معينة خطيرة اعترف بها ووافق على معاقبته بشأنها. وثالثاً: قد تكون ملاحظاته على العمل ونواقصه فيها شيء كثير من الصحة، فهناك دائماً أساليب بيروقراطية لابد من محاربتها.. إلخ.. ولكن ذلك لا يعني أبداً أن من الممكن ارتكاب الأخطاء الخطيرة التي ارتكبها، ثم هو كعادته ينسى التاريخ، فلماذا أُبعد قبل عهد حسني الزعيم؟ هل كذلك لأنه حارب البيروقراطية وما إليها من أسواء.

هذا ماينبغي إيضاحه له بكل هدوء وإخاء، ولكن طبعاً بما يقتضي من الحزم أيضاً.. والغريب أنه يتحدث عن «اليأس المطبق». إن كلمة يأس لامعنى لها هنا، سوى أنه ينظر فقط إلى نفسه، وينظر إلى الحركة كلها من خلال نفسه، وإلا، فهل هو يائس من الحركة وانتصارها، وحتى بالنسبة إليه ما الداعي إلى اليأس؟ أفهموه ياأخي أنه لم يكن ولايمكن أن يكون بينه وبين الحزب «عقد» **contract**، يقضي بأن يكون في مركز معين وبلد معين: إن في الحزب كثيراً من المناضلين، يضعهم الحزب حيث يجد أن فائدة الحركة تقتضي بوضعهم. وهكذا المسألة موضوعة بالنسبة إليه. وقد يكون له رأي آخر في المكان الذي يجب أن يكون فيه. ولكن هل يمكن أن يقطع المرء مع حزبه لاختلاف على مكان وجوده وعلى نوع عمله. إنني لا أفهم ذلك على الإطلاق. فيجب أن ينفذ ما يطلبه منه الحزب، وأن يقوم بما يكلف به من عمل بكل استقامة واندفاع، ويجب أن يتذكر كلمات المعلم الأكبر بأنه: «لم يقيض لكل إنسان أن يكون عضواً في هذا الحزب»، فالبقاء في الحزب يستحق أن يضحي المرء بحياته في سبيله، لا ببعض الفردية والذاتية فقط.

إن كل كلامه يدور على نفسه، وعلى نفسه فقط، وخلاصة كلامه هي أنه يريد أن يكون في المكان الذي يود، في المركز الذي يروق له. هذه هي المسألة في آخر تحليل، كما ينتج من كلامه. وهو شيء لا يقنع أحداً على الإطلاق. هذه هي ملاحظاتي عليه. وطبعاً يجب أن نساعده إلى النهاية، ويجب أن يفهم أن الحزب قضية طويلة، قضية مستقبل، فلماذا يبدي ما يبديه من فروغ الصبر؟ يجب أن يقتنع بأنه أخطأ، وأن يرجع إلى نفسه بهدوء، وأن يكف عن التفكير فقط بنفسه، بفرديته بـ «كرامته» بـ «راحته» بـ «مزاجه» إلخ... فليفكر فقط حينما يفكر بنفسه، بأنه ثوري، تلك هي قضيته الوحيدة، ولا قيمة له غيرها. وعلى هذا فليفعل مايقوله له الحزب.

إنني لا أزال آمل في أن يصلح نفسه. إنها فردية المثقف عنده تثور وتصطخب. فيجب أن نساعده على محاربتها. وسنفعل مابجهدنا مادام ذلك لا يتناقض مع مصلحة الحزب العامة.

وأرجو أن تطلبوا منه أن يكتب مايريد كتابته إلي، وليقل حتى ما ليس هو موافقاً عليه في المحضر (الذي وافق عليه مع ذلك).

كذلك الرجاء تحسين حالته، ولكن لا ينبغي أن يسمى ذلك مساومة.فلماذا نساوم؟ ألأننا نخاف منه؟... هنا أيضاً فردية المثقف تعظمه جداً في نظر نفسه. ليكن واثقاً بأن كل مانريده هو أن لانفقده. أن لاتفقده الحركة، وليس هناك أي اعتبار آخر على الإطلاق، أبداً على الإطلاق.

دم لأخيك، بلغ تحياتي ومصافحاتي إلى الجميع.

٢٧ شباط ١٩٥١ بشير

أجاب الرفيق سهيل على رسالة بشير بما يلي:

إلى القيادة المركزية، مع التحية والاحترام.

لقد تلا علي الرفاق الذين قابلوني باسم القيادة، ماكتبه الرفيق مهدي جواباً على رسالتي الأخيرة. وإنني أسجل هنا شكري للرفيق مهدي على رسالته، وموافقتي على ما جاء فيها بصددي. والحقيقة أن رسالته كانت مشجعة جداً، ولكنني لم أعد أهلاً للعمل بموجبها لأسباب أشرحها فيما يلي:

أنا معترف بأخطائي السياسية الكبيرة، وأرى أن جزاءها عدم وجودي في أي مركز قيادي، مع عقوبة، وهو الموقف الذي اتخذه اجتماع القيادة. ولم أرجع عن هذا. والاستفزازات التي تعرضت لها هناك لايمكن أن تكون سبباً في أخطائي. وهذا الاعتراف لم أسحبه ولن أسحبه لأنني مقتنع بصحته وعدالته.

ولكن مانسب إليّ فوقها كان جارحاً إلى حد لايحتمل. وقد ثرت عليه منذ الاجتماع وتأهبت للرد ثم لم أفعل، لظني أن الوقت سيحل هذه الأمور، ولم أكن أتصور أن كل كلمة قيلت ستعرض على كل رفيق في سورية ولبنان. فلما قرأت المحضر بعد شهرين، يوم وصل إلى زوجتي (لم أطلع منه إلا على نص كلمتي التي أرسلها لي مهدي)، هالني الأمر، وأصبت بصدمة عنيفة، ولكنني تجلدت وقلت: الحزب يملك حياتي وسمعتي، له أن يتصرف بها كيف شاء لمصلحته، وكان رد فعلي الفوري أنني كتبت رسالة أؤكد فيها اعترافي بالأخطاء، وأطلب تشديد العقوبة، حتى الطرد من المركزية وفتح تحقيق حول أمانتي نحو الحزب وسياسته وقيادته يشمل كل الرفاق والأصدقاء. وكان في رأيي أن الطرد من المركزية سيختم صفحة الأخطاء السياسية الماضية، وأن التحقيق سيكشف عن أمانتي التامة للحزب وقيادته وسياسته وعن حبي للقيادة والحزب. فكان جواب الرفيق آزاد (أرتين مادويان): لم تكن شريفاً ومستقيماً في هذا الطلب. فكانت صدمة أعنف من كل ما سلف. ثم عمدت خلال هذه المدة إلى العمل

بصمت، ولكن كان هناك ما لايمكن وما لايجوز السكوت عنه، وهو غياب المطبوعات نحو شهرين. فلما كتبت أحتج على هذه العزلة كان جواب آزاد (أي القيادة) أنك تستثمر صعوبات الحزب. وكانت صدمة أشد وأعنف. ووردتني النشرات نحو عشرة أيام. أكداساً قديمة، بلغت في القدم حتى ماقبل مجيئي إلى هنا بستة أشهر، ثم انقطعت من جديد أكثر من شهرين لم أتلق خلالهما إلا ما وجدته بطريق المصادفة أو ما أرسل إلي بطريق العمل. فكلما احتججت كان جوابي هذه المرة أيضاً أنني استثمر صعوبات الحزب، وأن مقصدي الإحراج لا شيء آخر.

أعود إلى ماقيل عني، حين قابلت القيادة زوجتي، عادت إليَّ ليلتها محطمة الأعصاب وأصرت أن تحدثني عما جرى، ومانعت طويلاً، ولكنها قسرتني على الاستماع، فإذا الرفاق بعد شهرين من الاجتماع والمحضر لا يزالون يشكُون فيَّ، بل ارتفعت شكوكهم إلى حدٍ عالٍ جداً. حتى قيل لها - والعهدة عليها - إنها هي أيضاً أصبحت موضع بحث، لأنها لم تعط حوادث ضدي تدل على... ما لا أدري! ولوح لها أحد الذين قابلوها بالطلاق مني. نحن نرجو أن لا يصل الأمر إلى هذا الحد، ولكن... إلخ. وسئلَتْ عن أشياء لم يسألني أحد عنها إلا بعد مقابلتها بزمن.

فماذا كان موقفي؟ الاقتناع بأن المسألة لم تعد تحتمل أبداً فكرة الخطأ وإصلاح الخطأ، مهما يكن، وخرجت عن طورها السياسي، وأصبحت تهديماً شاملاً لكل شيء فيَّ، حتى المسائل التي كان ينبغي أن تصبح في أية لحظة موضع شك، مثل المسائل المالية وانعدام روح التضحية.

إن الحزب على حق في رفع اليقظة إلى أعلى حدودها، ولو ذهب ضحية لهذه اليقظة بعض الرفاق الأمناء. ولكن هاتوا عصياً يحتمل كل هذا!

ذلك كان سبب طلبي الإعفاء من العمل كموظف، ولكن مانلته بعد ذلك من تهم ونعوت كان أقسى، وطبعاً لم يكن ذلك نتيجة موقفي، بل كان سابقاً لموقفي، وموقفي كشفه لي فقط. فأنا مسؤول عن تقديم الخونة، ثم سؤالات وجهت لي، أذاهب أنت لنجدتهم؟ هل أرسلت تعليمات مع قريبك؟ ألم تكن على اتصال بهم؟ لماذا اتفقت مع صدقي على الكتابة للخارج؟

وفوق ذلك جو تبرره اليقظة، وأحترمه على هذا الأساس، ولكنه أجهز على البقية الباقية فيَّ من الأعصاب.

إنني كالإناء المشعور، إن لم أقل المكسور، أنا لا أستطيع أن لا أفكر بشخصي إلى هذا الحد، إلى حد الاعتقاد بأنني أستطيع أن أخدم وأعصابي عرضة في نفس الوقت

لهذا الرجم المستمر. أنا لا أستطيع أن أتحرر من الاعتقاد بأنني في نظر القيادة شخص مشبوه (ولم أعد أخشى الكلمات بعد ما سمعت) بالخيانة ومحاولة نسف الحزب من الداخل وإثارة الكره للقيادة والبلبلة، إلخ. ولست أطلب أن تسحب القيادة ماقالته عني. بل أنا - وحزبي وحياة ابنتي - مغتبط ليقظة الحزب، وأرجو الاستمرار عليها ورفعها. ولكنني لا أستطيع أن أعيش وأعمل في هذا الجو. الفرح والإيمان والثقة والطمأنينة هي غذاء المناضل، وأنا فقدت الفرح وضعف إيماني بنفسي وثقتي بها وطمأنينتي لها، ولكن ظلت ثقتي بالحزب وقضيته ونصره الأكيد لا تتزعزع. فما الذي أطلبه؟

كل ما أطلبه هو التالي: إقرار عقوبة الطرد من المركزية والمنطقية، وإعلان كجواب على أخطائي السابقة، وضعي تحت المراقبة إلى أي وقت وأي حد تشاؤون، تشغيلي في أية مهمة في القاعدة وعلى طول الخط، حتى أخطر المهمات (أكثرها تعريضاً للخطر). ولكن مع السماح لي بأن أعيش في جو عائلتي.

لقد اقترحت تسويات مختلفة لكي لا أقطع مع الحزب. أغيب عن بلدي مدة، إن كان هذا يوافق القيادة والمصلحة في نظرها. أتعهد إذا سمح لي بالعودة بأن لا أتصل بأحد ولا أقوم بأي نشاط شخصي إلا بموافقة القيادة. كل كلامي سيكون تأكيداً دون تلميح لما قالته القيادة عني في المحضر، حتى ولو كانت هناك أشياء غير صحيحة في التفاصيل. كل ماتريدون أن أنفذه، مع رجائي القبول بطلبي. بل إذا وجد الحزب أن سلامته تقتضي وقفي عن العمل - أي الطرد المؤقت - من الحزب، كعقوبة إضافية وكافل للسلامة - قبلت، وبذلك يمنع الجميع من الاتصال بي خلال ذلك.

يارفاقي الأعزاء! مع شكري للتشجيع الذي ورد في رسالة الرفيق مهدي، أكرر رجائي بقبول طلبي، فما أنا في حالة تفيد، في الوقت الحاضر، ولا في حالة تطاق. لا أستطيع الاستمرار على هذا الوضع، ولا أعتقد بأنني أفيد فيه، وإذا بقيت بقوة الديسلين، بقيت بلا روح.

ولقد سبق أن فكرت في الانتحار مرات ومرات خلال هذه المدة. وكفى الحزب فخراً أن رضاه سعادة وغضبه تدمير، وكفاه قول إنه لايليق به إلا أحسن الناس.

وأؤكد في الختام أنني لا أكن للقيادة سوى الحب والتقدير والإعجاب، ولا أكن لنفسي إلا الأسف لما وصلت إليه، حتى حرمت من رفقة أشرف وأطيب وأشجع من حملتهم أرضنا، مهدي وصحبه، وقد كان ذلك التفكير دائماً معي.

فكونوا أرحم في قراركم، ولا تنسوا أن في الدنيا من ييئسون، وأن ليس كل يائس خائناً ولا جباناً. مع التحية والاحترام.

سهيل
١٩٥١/٣/٦

❖❖❖

نجاة قصاب حسن يتحدث عن قضيته

في مذكراته «جيل الشجاعة»[٥] تحدث نجاة قصاب حسن عن قضيته مع الحزب الشيوعي السوري. قال «كانت رغبتي في العدالة الاجتماعية قد قادتني نحو أحد هذه الأحزاب، فانتميت إليه ببساطة وإخلاص، وظلت علاقتي بجميع الأحزاب علاقة مودة ومنافسة شريفة. وعندما تنتفي المزاحمة على المصالح الشخصية يكون الحوار مثيراً ويغني الفكر الوطني.

وقد تقدمت بسرعة في الحزب الذي انتميت إليه بسبب النشاط والإخلاص. ولكن بعد عشر سنوات من العمل فيه، بدأت أشعر بشيء يثقلني وفقدت بالتدريج، ما كان بيني وبين القيادة الحزبية من انسجام، وزال معه الفرح الذي يصاحب كل عمل ينطوي على تضحيات آنية، فآثرت التنحي بلطف. ولكن قيادة الحزب بادرتني بقرار أليم فصلتني به من صفوف الحزب، ولعلها - وهذا من حسن الظن - خشيَتْ أن يكون من وراء عزمي على التنحي محاولة انقسامية أنا بعيد عنها كل البعد. وكان في وسعي أن أجادل وأن أدافع وأعرض الحقائق، ولكنني آثرت أن أتحمل ما قالوه واثقاً من أن العمل الشريف على النطاق الشعبي والمهني كفيل بمحو كل وصمة غير صحيحة ولا مستحقة. ورفضت أن أتكلم بكلمة في الدفاع عن نفسي سوى قولي إن المستقبل كفيل بإيضاح الحقائق. وفعلاً وبعد ست وثلاثين سنة من الصمت الذي رافقه نشاط عام كثيف في خدمة الشعب عاد الحزب - الذي كان انقسم إلى فصيلين رئيسيين، وبضعه فصائل أخرى - فأعلن بقرار رسمي إعادة اعتباري معترفاً أنه ظلمني، فقلت في نفسي: مليح أنني عشت ستاً وثلاثين سنة من الصبر حتى اعترف الآخرون بالحقيقة. وظللت في طريقي مستقلاً أتعاون مع كل الشرفاء والمخلصين في مجالات العمل الإيجابي. وقد رفضت وأظل أرفض كل جدل حول ملابسات هذا الماضي، معتبراً أن الشعب هو الذي يدين أو يبرىء، وأعتقد أن شعبي الذكي كان يعرف حقيقتي منذ البداية ودائماً لأن

---

[٥] ـ جيل الشجاعة ـ المذكرات (٢) نجاة قصاب حسن ص ٤٦١.

روائزه في التقدير هي السلوك، والذكاء الشعبي قادر على إدراك الحقيقة، فلا التهجم ولا المديح يلغيان الحقيقة التي يدركها الناس. وقد كان من أسباب تمسكي بالسكوت أنني لا أريد أن أحمل الماء إلى طاحون المخاصمين لحزبي السابق، ولا أريد أن يستغل أحد هذه الحادثة. التي تكرر مثلها مع آخرين، بينهم رفيقي الأستاذ رشاد عيسى، إتهاماً ثم تبرئة وإعادة اعتبار، حتى لا نرمي حجراً في بئر شربنا منها. وهذه قاعدة أخلاقية أتمسك بها دائماً. وإذا كنت لا أسمي فلأن الشعب كله يعرف ما أعني ومن أعني وجميع الحقائق والملابسات.

حين أصدر الحزب كراساً يهاجمني فيه ويتهمني بأمور عجيبة غريبة وبأخلاط من الحوادث التي لا أصل لها، وصلت نسخة من هذه الكراسة إلى أبي. ولعل الحزب تعمد أن تصل إليه بصورة غير مباشرة. فلما قرأها، وهو يعرف من ربى وما هي حقيقة سلوكي، تألم وبعث إليَّ في مخبئي قبل أن أقرر الهجر والخروج برسالة كتبها ببساطة المؤمن وعمق تفكير الرجل الناضج، وكان أبي أعمق الرجال الذين عرفتهم في حياته، ولا أبلغ قطرة من بحره. قال لي في هذه الرسالة: «إلى الابن السابق والصديق اللاحق نجاة حفظه الله ووجهه إلى الخير. لقد قرأت ما كتبه عنك جماعتك فتألمت جداً، وأنت لك الحق في أن تقبل أو ترفض، ولكن لما كان رضا الأب أو عدم رضاه يؤثران على الولد والمستقبل، وكنت لا أريد أن يكون عدم رضائي ضاراً بك وبمستقبلك، لأن رضا الله من رضا الوالدين. ولما كنت غير راض عما كتبوه، وحتى أترك لك حريتك الكاملة، فإني أسقط عنك أبوتي، وأدعو لك أن يوفقك الله إلى صواب الرأي وحسن الاختيار... التوقيع الأب القديم والصديق الجديد سعد الدين.

وتتصورون كم فعلت بي هذه الرسالة العميقة، وكم استدرت من دموع الحزن ومشاعر الاعتزاز بأنني أنتمي إلى أب فيه هذه الروح الشفافة. فاتخذت قراري بأن أظل ابنه وعلى طريقته في حب الناس ورفض النزول وشجاعة التخلي. ولم يكن ذلك هيناً، ومررت بأزمة عنيفة إذ كان انفصالي يعني أنني أدرت ظهري لأربع عشرة سنة من الإخلاص والعمل وترك المنافع ودوزنة السلوك على مقتضيات التضحية. ولكنني قررت. وحين تركت العمل الحزبي ورجعت معلماً في المعارف وساعدني الوزير المرحوم رئيف الملقي في تعييني فوراً، ورغم أن الوقت كان مطلع العطلة الصيفية، فقد ندبني إلى دار المعلمين الريفية في يبرود التي تعمل في الصيف ليبدأ راتبي. وكان هذا الراتب مئتين وليرتين سوريتين، وعدت أسكن غرفة في بيت أبي مع زوجتي وابنتي الصغيرة، وكانت فترة معاناة لم أكن أستطيع تخطيها إلا بالكثير من الصبر والشجاعة.

❖❖❖

عرضت قضية «سهيل» بشيء من التفصيل وذلك لأهميتها في إلقاء الضوء على المواقف التي تكررت من الكادر وأدت إلى خسارة عدد هام منهم.

١ ـ كانت خسارة الرفيق نجاة قصاب حسن، خسارة هامة وجدية بالنسبة للحزب الشيوعي السوري ولمنظمة دمشق خاصة، وقد عانت المنظمة نتيجة هذه الخسارة، فتوالى على قيادتها رفاق عديدون: أنور حداد، جميل عثمان، حسن قريطم، نقولا شاوي، وهم جميعاً ملاكات حزبية، وبعضها كان في عضوية اللجنة المركزية، ولكنهم جميعاً غير دمشقيين، لا يعرفون تقاليد المدينة وأهلها وحاراتها وشعبها الذكي المعطاء.

إضافة إلى ذلك، فقد مثل الرفيق نجاة وجهاً مثقفاً. ذا كفاءات متنوعة، وأعتقد أنه كان هناك تطرف في التعامل مع المثقفين والحذر من تقديمهم في الحزب، وعدم استيعاب نمط تفكيرهم ومناقشاتهم. وكان المثقف إما صديقاً للحزب، ويحتل مكانته، وإما كادراً يدور سوء الظن به وتتم متابعته والحذر منه. وهذا هو السبب العميق الذي أدى إلى عدم بروز مثقفين كبار كقادة حزبيين. وأذكر في هذه المناسبة مقارنة عقدها الرفيق خالد بكداش في إحدى كتاباته: إذا كنا بحاجة لرفيق مسؤول، وكان أمامنا اثنان: رفيق مثقف وغير شعبي، ورفيق أمي ولكنه شعبي، فمن نختار؟ نختار الأمي بالطبع. وباعتقادي أن هذه الروحية طبعت عمل الحزب لفترة طويلة.

٢ ـ لقد ظلم الرفيق نجاة قصاب حسن، بسلسلة الاتهامات التي وجهت ضده. فبعضها كان مبالغاً به، وبعضها كان مجرد افتراء، وأحياناً وضع في مواقف محرجة، سيطر عليها الجمود العقائدي، كالموقف من الهتافات، وبعضها كان من طبيعة الرفيق ظافر الذي كان يعمل معه. وأقدم نموذجاً لمثل هذه الإحراجات، وقع معي. فقد طلب مني الرفيق ظافر مرة قيادة تظاهرة طيارة في أحد المواقع المركزية في دمشق، ولم أعد أذكر تماماً، إما في مدخل سوق الحميدية، أو في طريق الصالحية، فوافقت معه، ولكنني نبهته إلى أن لدي في الوقت المحدد فحصاً في الجامعة، يتوقف عليه نجاحي أو سقوطي في السنة الدراسية، وقلت له أنت تتحمل المسؤولية أمام القيادة في حال سقوطي، فلم يتراجع وأصر على موقفه، وطلبت منه أخذ رأي الرفاق المسؤولين الآخرين، فأنصفوني، وطلبوا مني الذهاب إلى الفحص الجامعي. مثل هذه المواقف وغيرها، كانت تتم من قبل الرفيق ظافر، وأعتقد أنه وقع منها الكثير مع الرفيق نجاة.

٣ ـ هل كان الأمر ما يمكن أن نسميه شعوراً بالمزاحمة؟ إن لم تكن في تلك اللحظة، وإنما تطلعاً حتى لو لم تكن واردة في اللحظة، بل قد تحدث مستقبلاً، ومن الأفضل

إذن، إبعاد من هم أهل لاحتلال مراكز قيادية، وقادرون على التطور والتقدم، وممن يستشف منهم أدنى شعور بالخطر.

٤ ـ لقد مضى على تلك الأحداث خمسون عاماً أو يزيد، وإذا كان الذين عايشوها أصبحوا قلائل أو نادرين، فإن على كادر الحزب أن يطلّع ويعرف الحقائق، وأن يستفيد من الدروس. وإذا كان الرفيق نجاة قد أعطى بسلوكه ونمط معيشته وحبه للحياة بعض المبررات، فكان من واجب القيادة العليا صاحبة القرار، وخاصة الرفيق خالد بكداش الأمين العام أن يساعد نجاة أكثر وأكثر على الخلاص من سلبياته، وأن تفتح أمامه إمكانية التجربة مرة أخرى. فخسارة رفيق من نوع نجاة يصعب أن تعوض. وإن ممارسة سياسة كادر صحيحة هي من أهم مقومات نجاح العمل التنظيمي في الحزب.

٥ ـ سلك الرفيق نجاة قصاب حسن، سلوكاً أخلاقياً عالياً، في تعامله مع التدابير التي نفذت بحقه. ورغم أنه فرض عليه البقاء في بيروت ما يزيد عن سبعين يوماً في عزلة تامة. وفصل عن عائلته وابنته الصغيرة التي كان يعشقها، لم ينبس بكلمة سوء واحدة تجاه الحزب، ولم يعط الأعداء، أية إمكانية لاستغلال وضعه، وكان سلوكه مثال السلوك الأخلاقي والشيوعي المبدئي.

٦ ـ لقد أعيدت عضوية الحزب إلى الرفيق نجاة قصاب حسن بقرار من المؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري (٢٩ ـ ٣١ كانون الثاني ١٩٨٧).

الفصل العاشر

قضية الرفيق رشاد عيسى

رشاد عيسى ابن مدينة دمشق، ولد عام ١٩٠٩ وانتسب إلى الحزب الشيوعي السوري عام ١٩٣٠ . ودرس في معهد الحقوق في دمشق وتخرج محامياً . كان مسؤولاً عن منظمة الحزب الشيوعي السوري في لواء إسكندرون، وساهم في تنظيم العمل ضد ضم اللواء إلى تركيا . تدرج في الحزب إلى أن انتخب عضواً في اللجنة المركزية. وكان عضواً في سكرتارية الحزب إلى جانب خالد بكداش وكانا ممثلين لسورية في القيادة الموحدة للحزب الشيوعي في سورية ولبنان التي ضمت في ذلك الحين، خالد بكداش، رشاد عيسى من سورية، وفرج الله الحلو، ونقولا شاوي من لبنان. وشغل بهذه الصفة المكان الثاني في الحزب السوري بعد خالد بكداش. وجدد انتخابه عضواً في اللجنة المركزية في المؤتمر الثاني للحزب عام ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ ، وانتخبته اللجنة المركزية عضواً في المكتب السياسي. عين في بدء حياته العملية مدير ناحية في الجزيرة. وعندما قام عصيان الجزيرة أيام الاحتلال الافرنسي طرد قادة العصيان المتصرف (المحافظ) والجهاز الإداري المرتبط بالدولة السورية، وشمل هذا الطرد رشاد عيسى نفسه.

عاد إلى دمشق وأصبح متفرغاً حزبياً ، وكانت منظمة دمشق تابعة لسكرتارية الحزب مباشرة، وبالتالي كان الرفيق رشاد عيسى قائدها الفعلي.

عندما أعلن تقسيم فلسطين وأصدرت الجامعة العربية قراراً بتدخل الجيوش العربية لحماية عرب فلسطين، صدر بيان عن الحزب الشيوعي ضد هذا التدخل. وأدى إلى اعتقال عدد من أعضاء الحزب الذين أحيلوا إلى المحكمة العسكرية وبرأتهم جميعاً .

وجه الرفيق رشاد عيسى رسالة إلى قيادة الحزب يعلن فيها عدم موافقته على قرار التقسيم، واعتبر ذلك عائقاً أمام التقارب مع القوى الوطنية الأخرى، وعائقاً أمام

تحقيق شعار الحزب بإقامة جبهة وطنية، وأعلن في الرسالة عدم قدرته على تحمل المسؤولية الحزبية نتيجة هذا الموقف.

استاء الرفيق خالد بكداش من الرسالة ودعا إلى اجتماع للجنة المركزية دعا إليه رشاد عيسى لمحاسبته على هذا الموقف. وتم الاجتماع في بيروت وحضره إلى جانب رشاد عيسى، الرفيق إبراهيم بكري. وبعد التحقيقات اتخذت اللجنة المركزية قراراً بفصل الرفيق رشاد عيسى من اللجنة المركزية لمدة سنة على أن يعيد النظر بموقفه، ولم يعلن هذا القرار في حينه.

عاد إلى دمشق وعاش حياة سرية فترة من الزمن، وكلف بالعمل في مطبعة سرية حتى نهاية حكم حسني الزعيم. ولكنه بعد فترة من الزمن ومن العمل في المطبعة، قرر العودة إلى حياته العلنية وممارسة المحاماة. وبدأ عمله في المحاماة واستمر في ذلك حتى وفاته. وانتخب أميناً لصندوق التقاعد، وجدد انتخابه أكثر من مرة، وظل يحوز ثقة زملائه لهذا المركز حتى مرضه ووفاته في ١١ أيلول ١٩٨٩. بعد هذا الموقف الذي اتخذه تجاه نفسه وعمله، عقدت اللجنة المنطقية في دمشق اجتماعاً، بحثت فيه وضعه واتخذت قراراً بطرده من الحزب.

وقد نشرت جريدة «نضال الشعب» في العدد ٧٣، الصادر أواخر آب ١٩٥٠ نص هذا القرار كما يلي:

مطرود من الحزب الشيوعي السوري

- اتخذت اللجنة المنطقية للحزب الشيوعي بدمشق قراراً بطرد المدعو رشاد عيسى من الحزب الشيوعي.

وكانت اللجنة المركزية للحزب قد اتخذت قراراً في أواخر سنة ١٩٤٨ بإبعاده من عضويتها سنة كاملة، بسبب انسحابه من العمل المسؤول الموكول إليه، بدافع عن انحرافاته القومية البرجوازية، وانتهازيته وميوله البرجوازية الصغيرة. وكان انسحابه بذلك الشكل، في ابان احتدام النضال الوطني والطبقي ضد الاستعمار والرجعية انهزاماً وقراراً مخجلاً، كما كان مخالفاً لأبسط قواعد العمل الحزبي.

وتبين بعد انقضاء السنة أنه لم يفهم أخطاءه، رغم جميع المساعدات التي قدمت إليه، ولم يعترف بها، بل قد كرر ارتكاب نفس الأخطاء، وفر بجبن من معركة الانتخابات، ورفض العمل الذي كلف به. وتابع اتصاله بالعناصر الوسخة المطرودة من الحزب لتخاذلها وانهزامها أو لثبوت خيانتها واتصالها بالدوائر الاستعمارية الأجنبية،

كأذناب عصابة تيتو وغيرهم من أعداء الحركة الديمقراطية الوطنية والحزب الشيوعي وعملاء الاستعمار والرجعية المباشرين، وهو يتابع اتصالاته بجميع هذه العناصر حتى الآن.

وقد وضعت قضيته أمام جميع منظمات الحزب لبحثها وإبداء الرأي فيها فأجمعت هيئات الحزب كلها (اللجان المنطقية والفرعية والفرق) على وجوب طرده من الحزب الشيوعي كعنصر غريب معاد الحزب.

وحين بحثت اللجنة المكلفة من قبل اللجنة المركزية، قضيته بحضوره في عدة اجتماعات، وناقشته بسلوكه وأخطائه، تبين أنه يصر على مواقفه الخاطئة والمعادية للحزب، وأنه يكابر ويتعنت بصورة مخجلة وغير لائقة. ولذلك قررت طرده من الحزب. وقد وافقت اللجنة المركزية على هذا القرار، وقررت إعلانه» .

كان الرفيق رشاد عيسى رجلاً هادئاً صبوراً جداً، يحسن فن الإصغاء إلى الرفاق ومساعدتهم على حل مشاكلهم، وكانت معاملته للرفاق وللآخرين معاملة أخلاقية وجيدة.

تحدث الرفيق يوسف خطار الحلو الذي رافق رشاد عيسى في كتابه «أوراق من تاريخنا» الصادر عام ١٩٩٢، عنه بما يلي:

توفي في دمشق الرفيق رشاد عيسى، وبوفاته فقدنا رفيقاً عزيزاً ومناضلاً شجاعاً ومفكراً مبدعاً.

الجيل الشيوعي القديم في لبنان يعرف رشاد عيسى معرفة صحيحة، والجيل الوسيط لابد أنه سمع به، والجيل الحديث لاشك أنه قرأ له في صحافة الحزب خلال الأربعينيات وفي مجمل وثائقه عن رشاد عيسى.

عندما انتدب الحزب الشيوعي سنة ١٩٢٨، بمبادرة من فؤاد الشمالي الرفيق هيكازون بوياجيان إلى دمشق لتأسيس حزب شيوعي، كان أول من اتصل به هو رشاد عيسى، وعن طريق رشاد تم الاتصال بفوزي الزعيم وناصر حده وعلي خلقي، وبواسطة فوزي الزعيم تم الاتصال بخالد بكداش.

«تخرج رشاد من معهد الحقوق، وأصبح محامياً، ولكنه تابع نشاطه الحزبي، وفي حزيران عام ١٩٣٣، انتدب مع فرج الله الحلو إلى مدرسة الأممية الشيوعية في موسكو، فمكث الاثنان سنة واحدة هناك وعاد إلى الوطن، وكان الحزب الشيوعي قد أصبح اسمه «الحزب الشيوعي السوري»، قيادته موحدة وله أمين عام واحد.

تعرفت إلى رشاد عيسى في مطلع شهر شباط ١٩٣٧، حيث أتى من دمشق لاستقبال خالد بكداش أمين عام الحزب العائد من فرنسا. ثم كان اللقاء الثاني به في الثلث الأول من شهر شباط في الاجتماع الواسع للجنة المركزية للحزب المنعقد في دمشق. وفي هذا الاجتماع انتخبت سكرتاريا من أربعة رفقاء، خالد بكداش ورشاد عيسى وفرج الله الحلو ونقولا شاوي، وحلت هذه السكرتاريا محل المكتب السياسي.

ولاحقاً أخذت العلاقات تزداد توطداً مع رشاد إلى أن اندلعت الحرب العالمية الثانية، فامتدت يد المستعمرين الفرنسيين إلى عشرات الرفقاء من كوادر الحزب في سورية ولبنان ومنهم فرج الله الحلو، نقولا شاوي، رشاد عيسى، إبراهيم بكري، وميُر مسعد، وأمضى مدة في السجن وأطلق سراحه بعد دخول الجيش الإنكليزي والديغوليين إلى سورية ولبنان، وحكم على رشاد عيسى بالسجن لمدة خمس سنوات.

وهنا ومنذ تموز ١٩٤١ بدأ رشاد نشاطه اليومي في الحزب، فعمل في مختلف المهمات وكان بارعاً فيها، ومحبباً إلى من يعمل معهم، ويعملون معه، ولطالما أطلق عليه خالد بكداش: الذهن الصافي والفكر النيِّر.

وبعد عام ١٩٤٨ وقرار التقسيم وموقف الحزب اللاقومي، وأقول، والمشوب بالتحدي والاستفزاز أمام ذلك، وتجنباً لانشقاق الحزب، كتم فرج الله على جرحه، وعاد رشاد إلى دمشق لممارسة المحاماة، وعاد ميُر مسعد إلى مرجعيون يعتني بأرضه وينصب الزيتون.

منذ ذلك التاريخ انقطعت عن رشاد الرفيق الصديق، اللهم عندما وقعت مأساة فرج الله الحلو، وانكشفت غوامض الجريمة، بعثت إليه بتكليف من الحزب، رسالة، رجوته فيها أن يكون وكيل فيرجيني الحلو في دعوى تقام ضد قتلة فرج الله. وقد لبى الرجاء بكل ترحاب، ورافق القضية حتى صدر الحكم فيها ضد القتلة، ووافانا بنسخة عنه، وقد كتبت إليه شاكراً اهتمامه ومقدار جهوده.

وبعدها لم يتسن لي رؤية رشاد، إنما كنت أستطلع الأخبار عنه فأطمئن إليه. «وآخر ماعلمته أنه حضر المؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري الشقيق، وأنه كان مرتاحاً إلى نشاط الحزب، وإلى ماهيمن عليه من وحدة، طالما كانت إحدى أماني رشاد في مسار حياته التي مارس فيها العمل القيادي في الحزب...»

بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، طالب الرفيق خالد بكداش بعودة رشاد عيسى إلى الحزب. وأبلغ رشاد بهذه الرغبة وأبدى موافقته عليها، وطلب أن يقدم الرفيق خالد نفسه هذا الاقتراح. ولكن الرفيق خالد بكداش لم يوافق على

هذا الطلب، واستمر وجود رشاد عيسى خارج الحزب، إلى أن عقد المؤتمر السادس للحزب. حيث دعي رشاد عيسى ونجاة قصاب حسن لحضوره.

لبى الرفيق رشاد الدعوة لحضور المؤتمر وألقى الكلمة التالية: «إنني في السابعة والسبعين من عمري، ويظهر أنني محظوظ لأنني بقيت حياً إلى أن جاء اليوم الذي عدت فيه إلى صفوف الحزب.

إنه لشرف عظيم ومسؤولية كبيرة، أن يكون الإنسان عضواً في الحزب الشيوعي، وأن يسير جنباً إلى جنب مع جميع الشيوعيين والتقدميين في النضال ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية، ولأجل الدفاع عن مصالح الجماهير الكادحة.

أحييكم وأعتز بوجودي بينكم لإلقاء هذه الكلمة، وأشكر من أعماق قلبي الرفاق الذين أعادوني إلى الحزب.

ومع الإصرار على تقدير موقفكم نحوي، وتمسكي بأن الحق في إعادتي إلى الحزب واعترافي بعدم وجود الانسجام والتوافق في أقوالي، فإنه لابد لي أن أركز على أمر هام يتعلق بشخصي، وبما مضى من علاقاتي مع الرفاق ومابينته للرفاق بكل صراحة، وهو أنني انطلاقاً من اعتقادي بأن الحزب يجب أن يكون حزباً واحداً، ومع بقائي ضمن حدودي كرفيق عادي، لايتطاول إلى مايخرج عن حدوده، فإنني لا أعتبر نفسي منتمياً إلى فريق واحد، وأعلن ولائي وثقتي بجميع قادة الحزب وهيئاته القيادية، وأطلب من قيادات الحزب، أن يكونوا قادرين على توحيد الحزب، ولأنهم قادة الحزب، فإن عليهم أن يجدوا الوسائل التي تحقق وحدة الحزب وأن يشعروا شعوراً كاملاً ومسؤولاً بواجبهم وقدراتهم على توحيد الحزب.

أحييكم أيضاً وأيضاً وأتمنى أن أعانقكم جميعاً، وأرجو أن يلازمني حسن الحظ وأن أعيش إلى أن أرى اليوم الذي يتم فيه توحيد الحزب.

أشكركم وأتمنى لكم التوفيق والسلامة».

١٩٨٧/١/٣٠

بحث المؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري الذي عقد في كانون الثاني ١٩٨٧ قضيتيْ رشاد عيسى ونجاة قصاب حسن، واتخذ قراراً الغى فيه فصل الرفيقين من الحزب وإعادة العضوية إليهما. وحمل القرار العنوان التالي:

إلغاء قرارات فصل بحق بعض الرفاق، وجاء فيه:

«يقر المؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري، إلغاء القرار الصادر في آب ١٩٥٠ عن اللجنة المنطقية في مدينة دمشق والمصدق من اللجنة المركزية، والقاضي بفصل الرفيق رشاد عيسى من الحزب.

ويقرر المؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري إلغاء القرار الصادر عن اللجنة المركزية والقاضي بفصل الرفيق نجاة قصاب حسن من الحزب.

إن هذه القرارات اتخذت خلافاً لطرق المحاسبة المقررة في النظام الداخلي وارتكزت إلى تهم لم تبحث في هيئات الحزب ولم يفسح المجال لأصحاب العلاقة للتعبير عن رأيهم فيها.

إن المؤتمر السادس يحيي نضال الرفيقين رشاد عيسى ونجاة قصاب حسن، ويقدر المسؤوليات التي حملوها خلال مرحلة تاريخية صعبة في حياة البلاد ...».

شباط (فبراير) ١٩٨٧ المؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري

توفي الرفيق رشاد عيسى في ١١ أيلول ١٩٨٩. وشيعت جنازته في دمشق وشارك في التشييع وفد من قيادة الحزب، ضم عدداً من أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية وعدداً من قيادة منظمة الحزب في دمشق، وقد رأستُ وفد التشييع كأمين عام للجنة المركزية للحزب، وشارك في التشييع أيضاً ممثلون عن نقابة المحامين وعدد كبير من عائلة الفقيد وأبناء حيه.

تحدث أمام جثمان الفقيد الأستاذ نزيه قدورة رئيس فرع نقابة المحامين في دمشق، والرفيق إبراهيم بكري والأستاذ نجاة قصاب حسن والدكتور مصطفى أمين والدكتور نبيه رشيدات. وألقى الأستاذ محمود عباس كلمة باسم نقابة المحامين.

إن فقد الرفيق رشاد عيسى خسارة للحزب ولجسم المحاماة في دمشق. فقد مثل في حياته الأخلاق الشيوعية والاستقامة الحزبية، وكان وطنياً قوي الشكيمة، يحنو على الكادر الحزبي، ويساعده في عمله ونشاطه. عرف بتواضعه وحسن استماعه للآخرين وفهمه للمواضيع والمشاكل المعقدة، والمتنوعة التي تواجه الحزب، وكان يركز على ماهو جوهري وأساسي، ويعين المواقف الصحيحة التي يجب اتخاذها.

ويعود ذلك كله، إلى أنه كان يتجنب الضياع في التفاصيل والجزئيات، وكانت مداخلاته ومعالجاته سهلة وواضحة وصريحة.

إن هذه الصفات جعلت من رشاد عيسى محامياً ناجحاً، وموضع ثقة من يتوجهون إليه للدفاع عن حقوقهم. واستمر أكثر من ثلاثين عاماً ممثلاً لمحامي دمشق في مجلس خزانة التقاعد، وكان يصرف جزءاً هاماً من وقته لخدمة زملائه وخدمة عائلاتهم.

لقد كانت خسارة الحزب الشيوعي بابتعاد رشاد عيسى عن العمل في صفوفه وفي قيادته خسارة بالغة.

الفصل الحادي عشر

حزب العمال والفلاحين

في كانون الثاني عام ١٩٥١ عقد اجتماع للقيادة المركزية للحزب الشيوعي، في سورية ولبنان، وقدم فيه الرفيق خالد بكداش تقريراً تحت عنوان: «لأجل النضال بنجاح في سبيل السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية، يجب الاتجاه بحزم نحو العمال والفلاحين» . وقد أصبح هذا التقرير، مادة للدراسة في جميع منظمات الحزب، وأصبح الأداة التوجيهية الأساسية، وتحول إلى منهج للعمل يوجه جميع النشاطات الحزبية.

وهذا التقرير موجود في وثائق الحزب، ولن أقوم بعرضه بنصه الكامل، إنما سأعرض مقتطفات منه، لتقديم بعض الاستنتاجات:

أهداف الحزب الكبرى وثوابته:

«إن وضعية الحزب الآن، وأعمال هيئات الحزب، وخصوصاً اللجان المنطقية، وكذلك إلى حد ما - نشاط القيادة المركزية، تدل على أننا لانبحث، إلا لماماً، مهمات الحزب الثابتة، ولانعالج إلا قليلاً خطة الحزب العامة الدائمة».

«إن الرفيق ستالين ينبه بشكل حازم إلى هذا الخطر، خطر إضاعة الهدف، فهو يقول إن من الواجب «بعد اتخاذ الاتجاه، السير فيه خلال جميع أنواع الصعوبات والتعقيدات التي تبرز على الطريق المؤدية إلى الهدف، وذلك لكي لاتضيع الطليعة الهدف الأساسي للنضال، ولايغيب هذا الهدف عن ناظريها»».

إن للحزب الشيوعي دائماً أهدافاً ثابتة، أهدافاً لاتتغير طوال مرحلة استراتيجية معينة. وهذه المرحلة الآن بالنسبة لبلادنا، بالنسبة إلى حزبنا، هي مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي، مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية، وأهدافنا خلال هذه المرحلة

تتلخص في القضاء على سيطرة الاستعمار وعملائه، وتصفية بقايا الإقطاعية في بلادنا، أي تحقيق التحرر الوطني الديمقراطي، تحرير شعبنا من نير الاستعمار الأجنبي السياسي والاقتصادي ونير عملائه، ومن بقايا القرون الوسطى، وإقامة حكم ديمقراطي شعبي، وعند ذلك تبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة توطيد الحكم الديمقراطي الشعبي وتوفير الشروط اللازمة لتحقيق الاشتراكية في بلادنا.

وهكذا تكون الشعارات الرئيسية التي يناضل حزبنا في سبيل انتصارها خلال مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي هي: السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية.

ومهمتنا هي حشد أوسع الجماهير الشعبية وخصوصاً جماهير العمال والفلاحين وجذبها إلى اعتناق هذه الشعارات عملياً، وإلى الاستعداد للنضال، حتى أعلى درجاته في سبيل تحقيقها.

ولكي نحقق ذلك، لابد أن يكون الاتجاه الرئيسي لجهدنا، لنشاطنا متوجهاً نحو عزل البرجوازية الوطنية، والقضاء على نفوذها في الشعب، لأن هذه البرجوازية الوطنية، مهما اختلفت أسماء أحزابها، تستعمل نفوذها لخدع الشعب، وصرفه عن النضال الثوري، وتعمل من وراء ظهره، للتفاهم مع الاستعمار.

الطبقة العاملة المتحالفة مع جماهير الفلاحين هي القوة الرئيسية للثورة الوطنية الديمقراطية التي تجابهها بلادنا

العمال وحلفاؤهم الفلاحون، هم الذين يستطيعون تحقيق شعارات السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية. أما الفئات الشعبية الأخرى، الطلاب والمثقفون وصغار التجار، فهي دون شك، قوة هامة في النضال ضد الاستعمار والإقطاعية، وهي تريد السلم والتحرر الوطني والديمقراطية، ولكنها لاتستطيع في أحسن الحالات سوى «إزعاج» الاستعمار ومشاريعه، بل هي قد تستطيع أحياناً إحداث ضجة كبرى تلقي شيئاً من الارتباك في مشاريع الاستعمار وعملائه، لكنها لاتستطيع السير وحدها إلى النهاية، ولن يعطي نضالها ثمرة تامة نهائية، إلا إذا التفّتْ حول الطبقة العاملة المناضلة وسارت معها وتحت قيادتها، جنباً إلى جنب مع جماهير الفلاحين.

«أما الطبقات المالكة الكبرى في البلاد، طبقة الإقطاعيين وكبار الملاكين، ومعهم المساهمون في الشركات الاستعمارية، وكبار المستوردين والمحتكرين، فهم، بطبيعة موقفهم الطبقي، حلفاء الاستعمار، هم خدم الاستعمار. ويشعرون تماماً بأن مصيرهم مرتبط بمصيره».

«بقيت البرجوازية الوطنية، أي تلك الطبقة المرتبطة بالصناعة الوطنية، وكذلك من يمثلها فكرياً من مثقفين وغيرهم، والتي تتعارض مصالحها في كثير من الأحيان، مع مصالح الاستعمار وسياسته، فهذه الطبقة ليست ثورية، ولايمكن أن تقوم بدور أساسي أو حاسم أو قيادي في النضال ضد الاستعمار. إنها أفلست تاريخياً من هذه الناحية، ولكنها يمكن أن تعارض مشاريع الاستعمار، بل إذا تطور النضال الشعبي الثوري، ونهضت جماهير العمال والفلاحين وسائر الكادحين في موجة عاتية عظيمة، إلى النضال ضد الاستعمار والإقطاعية فيمكن أن يحدث، بشكل مؤقت ومحدود وفي شروط معينة، أن تؤيد بعض فئات من البرجوازية الوطنية الحركة الثورية ضد الاستعمار.

ومعنى ذلك أن من الخطأ الفادح النظر إلى البرجوازية الوطنية أو إلى بعض فئاتها، كقوة أساسية، أو حتى كقوة ذات شأن في حركة التحرر الوطني الديمقراطي.

إنها من حيث الأساس، وبصورة رئيسية قوة تخدير للشعب، قوة تفاهم مع الاستعمار، فمهمتنا الرئيسية، بالنسبة إليها هي عمل كل شيء لعزلها عن الشعب، لقتل نفوذها بين الجماهير.

إن فضح ممثلي البرجوازية الكبيرة وعزلهم عن الشعب، يعني قبل كل شيء، فضح الحكام البرجوازيين والأحزاب البرجوازية الكبيرة، مثل حزب الشعب والحزب الوطني في سورية، وزمرة بشارة الخوري والكتلة الإدية ورياض الصلح وكميل شمعون وأمثالهم في لبنان.

وينبغي الانتباه الشديد والعمل المستمر في سبيل فضح الجماعات والأحزاب التي تزعم أنها اشتراكية، ينبغي فضحها فكرياً وسياسياً. إن هؤلاء رغم ضآلة نفوذ بعضهم، في مدن أو مناطق معينة أو بين فئات محدودة، يشكلون مع ذلك، بدعاياتهم المضللة، خطراً على الحركة الوطنية الديمقراطية المتعاظمة ضد الحرب والاستعمار، وضد الإقطاعية والاستثمار، إنهم يحاولون استغلال الاتجاه الشعبي المتزايد نحو الاشتراكية، ويسعون لتضليله داخلياً ودولياً.

العمال والفلاحون إذاً، ومعهم جميع الجماهير الكادحة، هم الذين يؤلفون بتحالفهم، القوة القادرة على تأمين انتصار قضية السلم والاستقلال والديمقراطية في بلادنا».

يتناول التقرير بعد هذا العرض الأيديولوجي والسياسي، الأخطاء في الاتجاه العام لنشاط منظمات الحزب وبعض أسبابها التاريخية.

يرى التقرير أن نشاط الحزب يتم في اتجاهين:

أولاً: أن ٧٥٪ من النشاط سواء في الدعاية أو التنظيم أو في العمل اليومي تكاد تكون محصورة في نطاق البرجوازية الصغيرة في المدينة أو القرية من جهة والعمال المميزين الميسورين من جهة أخرى.

ثانياً: إن انتباه منظماتنا، هو بوجه عام متجه إلى إحداث ضجة حول الحزب وحول شعاراته، أكثر بكثير مما هو متجه نحو بناء قواعد وأسس بين العمال وبين جماهير الفلاحين، وخصوصاً الفقراء منهم. (خط التشديد من الكاتب.).

ولهذين السببين، نرى أن حملاتنا، تقتصر غالباً على إحداث ضجة كبرى سطحية، وتجري هذه الضجة، بمعظمها على الأقل، إما بين فئات من البرجوازية الصغيرة والمثقفين والطلاب...».

فكيف نشأ هذا الوضع في حزبنا؟

إن ذلك يعود قبل كل شيء إلى أسباب تاريخية متصلة بنشوء حزبنا وتطوره.

ويعلن التقرير:

أولاً: إن الوسط العام، الجو العام، الذي يعمل حزبنا ضمنه لم يصبح وسطاً بروليتارياً، جواً بروليتارياً، بل هو لايزال على الإجمال جواً برجوازياً صغيراً.

وثانياً: إن الجهود التي تبذلها منظماتنا تبذل على الغالب، أي بأكثرها في غير الأوساط التي يجب أن تبذل فيها.

وثالثا: إن الاتجاه لإحداث أكثر مايمكن من الضجة، دون استخدام هذه الضجة لبناء أسس جماهيرية منظمة للحزب بين العمال والفلاحين، وخصوصاً الفلاحين الفقراء، هو الاتجاه الذي لايزال سائداً في الحزب.

يؤكد التقرير بعد ذلك أن لدى الحزب الإمكانية والقوة اللازمة ليكون حزباً جماهيرياً. ويستدل على ذلك بنجاح الحزب في جمع ٢٠٠ ألف توقيع في سورية ولبنان على نداء استوكهولم بتحريم السلاح الذري، ونجاحه في وضع الاتجاهات والأسس لحركة نقابية طبقية صحيحة آخذة في التبلور والتطور، وإدخال شيء من التحسين على النشاط المتعلق بتنظيم الفلاحين ضد استبداد الحكومة والإقطاعيين، وإصدار نشرات خاصة بالفلاحين، وتحقيق خطوات في العمل بين النساء والشباب والطلاب،

وإيجاد كادر منطقي ثابت إلى حد ما، وتحقيق خطوات ملموسة في توطيد وحدة الحزب الفكرية والسياسية.

ويستخلص التقرير أن لدى حزبنا، وبشكل ملموس، الإمكانات الذاتية والقوى اللازمة لكي يصبح في المستوى اللازم المتناسب مع الإمكانات الواسعة بين الشعب.

وبعد ذلك يتناول التقرير المهمات، ويعددها كما يلي:

أولاً: الأمانة التامة لمبادىء الحزب.

ثانياً: عدم الإقدام على أي شيء، وعدم التساهل في أي شيء، يمكن أن يطمس وجه حزبنا، أو يشوهه أو يطمس شعاراته أو يشوهها أمام جماهير العمال والفلاحين وجميع الكادحين.

ثالثاً: ينبغي على جميع منظماتنا، عند نضالها وعملها في جميع الحركات والمنظمات الجماهيرية، أن تسعى لتوجيهها نحو العمال والفلاحين.

رابعاً: ينبغي أن يكون عملنا في الميدان النقابي، عملاً جماهيرياً عميقاً، لا عملاً سطحياً فقط، ولا عملاً قائماً على إحداث الضجة فقط.

خامساً: إن العمل بين الفلاحين يتطلب وضوحاً في موقف الحزب من مختلف الفئات التي يتألف منها سكان الأرياف.

سادساً: إن تعيين الاتجاه السياسي للعمل بين العمال والفلاحين، لايكفي وحده لتحقيق الانعطاف المطلوب نحو العمال والفلاحين، فبعد تعيين الاتجاه، تتوقف المسألة على التدابير التنظيمية الضرورية لتحقيق هذا الاتجاه.

فما هي التدابير التنظيمية الواجب اتخاذها لتحقيق الاتجاه الحازم المطلوب نحو العمال والفلاحين» .

ويشرح التقرير هذه التدابير في مجال الدعاية وتوزيع الكادر وجهد هيئات الحزب القيادية ويقول:

إن كل عمل نقوم به، وكل نشاط نبذله ينبغي أن يؤدي، قبل كل شيء، إلى تقوية حزبنا، سياسياً وتنظيمياً، بين العمال والفلاحين..» . ويشرح التقرير ذلك في مجالات الحملات الانتخابية، والدعاية، وأن لايكون ذلك عمل واحد أو اثنين في اللجان المسؤولة على مختلف الدرجات، وأن تترك نهائياً الاعتقاد بأن العمل بين العمال معناه العمل النقابي فقط، وأن يكون ذلك مهمة النشاط في الحركات والمنظمات الجماهيرية.

ويتساءل التقرير بعد ذلك: «هل يمكن تحقيق هذا الانعطاف الحازم نحو العمال والفلاحين بالسرعة المطلوبة المتناسبة مع تطور بلادنا؟ وفي العالم؟

... نعم يمكن. إن ذلك ممكن تماماً، إذا هب حزبنا كرجل واحد، كوحدة لاثغرة فيها، للنضال في هذا السبيل، لأن وحدة الحزب الشيوعي هي، كما تقول تعاليم لينين وستالين، وحدة الإدارة والعمل.» .

ويطرح بعد ذلك موضوع الانتقاد والانتقاد الذاتي واليقظة الثورية والسعي لاكتشاف المخربين والجواسيس وتطهير الحزب منهم. ويقول: ثلاثة أشياء لابد منها لتقوية بناء الحزب وهي:

أولاً: أن تحسن القيادة المركزية عملها القيادي التوجيهي، السياسي منه والتنظيمي والثقافي.

ثانياً: ينبغي أن تتبع سياسة جريئة دائمة مدروسة في تقديم الكادر. ومن الواجب النظر إلى الكادر حين تقديمه، من ناحيتين معاً، الناحية السياسية وناحية الكفاءات العملية.

ثالثاً: ينبغي أن نعمل، من القمة إلى القاعدة، لتطوير العمل الثقافي النظري في الحزب، إن ذلك واجب ذاتي على كل رفيق وعلى كل فرقة، وعلى كل هيئة مسؤولة، وطبعاً على القيادة المركزية بالدرجة الأولى.

وينتهي التقرير بالجملة التالية: «لنكن جديرين بمهماتنا التاريخية الكبرى» .

❖❖❖

إن هذا التقرير الذي أعطي اهتماماً استثنائياً في الحزب، والذي تحول إلى وثيقة برنامجية، يتضمن تحليلات هامة، بعضها لايزال يتصف بصفة آنية، ويشكل أساساً نظرياً لعمل الحزب، يمكن أخذ جوهره لتطبيقه حسب الظروف الملموسة وحسب المرحلة التاريخية موضوع البحث. ولكنه بالمقابل، يتضمن توجيهات ألحقت ضرراً بالحزب وبعمله ونشاطه وتعاونه مع القوى الأخرى. ففي هذا التقرير تناقض، وفيه تعارض مع بعض الوثائق الحزبية، وقد أتى في ظروف تاريخية معينة، من تطور الحزب الشيوعي السوري ومن تطور الحركة الشيوعية العالمية.

إنني أرى في عرض هذه الوثيقة التاريخية، أهمية خاصة لمن يرغب في دراسة تاريخ الحزب وتطوره، أو مناقشة ماورد فيها من أفكار ضروري للباحث المؤرخ، كما هو ضروري لفهم حالة الحزب الراهنة. وسأعمل على عرض أبرز ماتكوّن لدي من أفكار لدى دراسة هذا التقرير والوثيقة.

أولاً: إن التقرير المعروض يتضمن تناقضاً صارخاً وعميقاً. فهو يحدد وانطلاقاً من توجهات ستالين بأن للحزب الشيوعي دائماً، أهدافاً ثابتة طوال مرحلة استراتيجية معينة. ويحدد التقرير هذه المرحلة بالنسبة لبلادنا وبالنسبة لحزبنا، بمرحلة التحرر

الوطني الديمقراطي، مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية وأهدافها هي القضاء على سيطرة الاستعمار وعملائه وتصفية بقايا الإقطاعية، أي تحقيق التحرر الوطني الديمقراطي، تحرير شعبنا من نير الاستعمار الأجنبي السياسي والاقتصادي ونير عملائه، ومن بقايا القرون الوسطى.

وهذا التحديد صحيح تماماً باعتقادي، من الناحية النظرية، ولاشك في أن القوة الأساسية في هذه المعركة هي الطبقة العاملة، المتحالفة مع جماهير الفلاحين ومع البرجوازية الوطنية، وخصوصاً الصناعية منها، ولكن هذا يتطلب أن تكون الطبقة العاملة متطورة بذاتها وواعية لذاتها. والمعروف أن الطبقة العاملة السورية لم تكن بهذا المستوى من التطور في إطار المرحلة التي يجري الحديث عنها. ففي هذه المرحلة، كان للبرجوازية الوطنية وزن أكبر في مجرى الأحداث وفي تطورها. وقد برزت هذه الموضوعة بوضوح في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، في رفع شعار الدولة الوطنية وفي تحديد القوى الفاعلة في هذه الدولة.

وفي مكان آخر يقول التقرير «وهكذا تكون الشعارات الرئيسية التي يناضل حزبنا في سبيل انتصارها خلال مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي هي: السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية... ولكي يتحقق ذلك، لابد أن يكون الاتجاه الرئيسي لجهدنا ونشاطنا متوجهاً نحو عزل البرجوازية الوطنية، والقضاء على نفوذها في الشعب، لأن هذه البرجوازية الوطنية، مهما اختلفت أسماء أحزابها تستعمل نفوذها لخدع الشعب وصرفه عن النضال الثوري، وتعمل من وراء ظهره للتفاهم مع الاستعمار..» .

فكيف يمكن لحزب الطبقة العاملة أن يحقق مهمة التحرر الوطني الديمقراطي بمثل هذا الموقف من البرجوازية الوطنية، وكيف يمكن تحقيق مهام الثورة الوطنية الديمقراطية؟ إن مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية وخاصة تحرير شعبنا من نير الاستعمار الأجنبي السياسي والاقتصادي يتطلب تجميع كل القوى المعادية للإمبريالية، وبضمنها قوى البرجوازية الوطنية، لتشكيل جبهة موحدة تناهض الاستعمار الأجنبي ومؤامراته وتدخلاته. وإذا كانت هناك إمكانية لصراع بين قوى الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين من جهة وبين قوى البرجوازية الوطنية من جهة أخرى، فيمكن أن يحصل وأن يبرز حول قيادة المعركة، وهذا ممكن وطبيعي باعتقادي. بسبب أن البرجوازية الوطنية، رغم أنها قوة معادية للسيطرة الاستعمارية، وتحارب ضدها وتخوض معارك حادة معها، فهي ليست حازمة وحاسمة حتى النهاية في هذا النضال. أما استبعاد البرجوازية الوطنية كلياً فهو خطأ جسيم تماماً. وتجارب الأحزاب

الشيوعية، وبضمنها تجربة الحزب الشيوعي السوري تبرهن ذلك. فالتجربة الفيتنامية تقدم نموذجاً حياً، للتحالف مع البرجوازية الوطنية. كما أن حزبنا الشيوعي السوري، تحالف عملياً، مع قوى واضحة من هذه البرجوازية، سواء أكان الأمر يتصل بالتعاون الذي أقامه مع خالد العظم خلال فترة طويلة، أم مع قوى أخرى ذات طبيعة وطنية ديمقراطية في حزب الشعب أو الحزب الوطني أو بين المستقلين.

ثانياً: مثل هذا التقرير سياسة انعزالية سار عليها الحزب الشيوعي السوري، تحت تأثير مواقف أعلنت في المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفييتي. ففي التقرير المقدم إلى المؤتمر، أعلن ستالين موضوعة أن البرجوازية قد رمت علم النضال في سبيل الاستقلال، وعلى الطبقة العاملة والأحزاب الشيوعية رفع هذه الراية. ويطرح التقرير نفس الأفكار تقريباً عندما يقول «إن البرجوازية الوطنية، ومن يمثلها فكرياً من مثقفين وغيرهم... ليست ثورية، ولا يمكن أن تقوم بدور أساسي أو حاسم أو قيادي في النضال ضد الاستعمار، إنها أفلست تاريخياً من هذه الناحية..» .

لقد عقد المؤتمر التاسع عشر في عام ١٩٤٩، أي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بأربع سنوات، وبعد بدء نهوض شعوب المستعمرات لتطهير بلادها من نير الاحتلال الاستعماري. وكانت المعركة في تلك المرحلة على أشدها، بين قوى التحرر الوطني وبين نظام الاحتلال الاستعماري، ولم تكن بعد سوى سورية ولبنان قد تحررتا من نير الاحتلال، وكانت المعركة على أشدها في مصر وبدأت تأخذ أبعادها في الجزائر وفي أماكن أخرى. ومعروف جيداً دور القوى الوطنية المختلفة في هذه المعارك، وبضمنها قوى البرجوازية الوطنية، وقوى الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين. وتاريخ الثورة المصرية حافل بالدور الهام الذي لعبته لجنة العمال والطلاب، والدور الهام لقوى برجوازية كحزب الوفد، إلى جانب قوى اليسار الشيوعية وغيرها، وبضمن ذلك قوى الإخوان المسلمين.

ثالثاً: تبرز الانعزالية في هذا التقرير في مجرد طرح الأمور نظرياً دون ربطها بشواهد معينة من تجارب بلادنا. واعتمد التقرير خصوصاً على أفكار ستالين. ففيه سبعة عشر استشهاداً من ستالين، ومرتان أحياناً في صفحة واحدة، إلى جانب ستة أو سبعة استشهادات من لينين.

لقد اعتادت الكتابات الماركسية، الإكثار من ذكر النصوص، بهدف دعم التحليل المقدم، وتأكيد صحته، وكلما كثرت الاستشهادات، أصبحت الفكرة المطروحة، أكثر تدعيماً وأكثر إقناعاً، مما يشبه الاستشهاد بالنصوص الدينية.

قد يكون ستالين، بالمكانة التي كان يحتلها، والمركز الذي كان يشغله، قادراً على تعميم تجربة عدد من البلدان، وعدد من الأحزاب، انطلاقاً من الدور الذي كان يلعبه الحزب الشيوعي السوفييتي، وأعتقد أن تجربة البلدان العربية كانت بعيدة عن هذا التعميم، إما لضعف الأحزاب الشيوعية أو لعدم وجودها في ذلك الحين، وإما لضعف الصلة مع الحزب الشيوعي السوفييتي، وتبادل التجربة والخبرة مع قادته. وحسب معرفتي، فإن صلة عدد من الأحزاب الهامة كالحزب الشيوعي العراقي والحزب الشيوعي المصري وكذلك الحزب الشيوعي الأردني، مع الحزب الشيوعي السوفييتي، لم تتم إلا في أواسط الخمسينيات، وكان للحزب الشيوعي السوري دوره البارز في ذلك.

رابعاً: اتخذ التقرير موقفاً انعزالياً من الذين يعلنون تبنيهم لشعار الاشتراكية حين يقول: «ينبغي الانتباه الشديد والعمل المستمر في سبيل فضح الجماعات والأحزاب التي تزعم أنها اشتراكية..» وهذا التحذير ينطلق من موقفين كلاهما خطأ، الموقف الأول هو حصر تبني شعار الاشتراكية بالشيوعيين وحدهم، وهو موقف شديد الانعزالية، فالاشتراكية شعاراً وعقيدةً، بدأت تأخذ طابعاً عالمياً واسعاً، بعد انتصار الاتحاد السوفييتي في الحرب الوطنية العظمى، وقد حدد الشعار الأساسي الذي طرح في الستينيات والسبعينيات سمة العصر بأنها الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، وتبنّي الاشتراكية هو دليل على قوة الجاذبية التي تحملها أفكار الاشتراكية والتطورات العالمية برهنت على صحة هذا الموقف، سواء بالنسبة لكوبا، أو بالنسبة للعديد من الأحزاب الإفريقية ومن حركات التحرر الوطني العربية والعالمية. والموقف الثاني ينطلق من موقف احتكار الحقيقة، الذي لازم الماركسيين فترة طويلة من الزمن، ومن موقف الشك بالآخرين، وعدم إدراك طبيعة التطور الاجتماعي والفكري في البلدان التي تحررت من نير الاستعمار. وقد لازم هذا الموقف الرفيق خالد بكداش طوال حياته، وعندما كانت تطرح مشاريع لقاءات بين الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية والقوى التي تعلن عن تبنيها للماركسية كان يرفض ذلك... وكان يصر على تسميتها «بالتي تعلن عن نفسها أنها تتبنى الماركسية».

خامساً: لقد صدر هذا التقرير بطبعتين الأولى التي مثلت قمة الانعزالية، حين تضمنت مواقف واضحة ضد قوى مثل كمال جنبلاط وغيره، أما الطبعة الثانية التي صدرت بعد عدة سنوات، فقد حذف منها هذه التوجهات وهي الطبعة الموجودة بين أيدينا الآن. وهذا الأمر، بحد ذاته، يمثل إدراكاً لخطر التوجه الانعزالي وضرورة

تجنبه، ويمثل إدراكاً لأهمية التحالف مع هذه القوى، في المعركة الدائرة مع القوى الاستعمارية ومع الصهيونية.

سادساً: كانت المرحلة التي صدر فيها هذا التقرير، مرحلة إنجاز الاستقلال الوطني، وخاصة الجانب السياسي منه، ولم تكن قد أنجزت بعد مرحلة التحرر الاقتصادي، وكانت في بدء تباشيرها. وإلى جانب ذلك، نشأت وضعية جديدة في المنطقة، بقيام إسرائيل، وماتشكله من خطر توسعي واستيطاني، على المنطقة بأكملها، وخاصة على دول المواجهة، مصر وسورية ولبنان والأردن، ومع الشعب الفلسطيني الذي شرد واغتصبت أرضه ووطنه وسيادته. وكانت ضرورة إدراك هذا الخطر الجاثم، تتطلب طرح سياسة تضع القضية الوطنية في المقام الأول، وتوضح، وعلى أوسع نطاق، خطر الصهيونية الجاثم، وضرورة تجميع أوسع جبهة وطنية للنضال ضد هذا الخطر.

سابعاً: إن التوجه الذي أصر عليه التقرير، بالاتجاه بحزم نحو العمال والفلاحين، هو توجهٌ صحيح، وهو ضروري لكل حزب شيوعي، وخاصة في تلك المرحلة، مرحلة النهوض الوطني التحرري. وإذا كان لابد من قول حقيقة، فهي أن الجانب الانعزالي سيطر على فكر الشيوعيين في تلك المرحلة، أكثر مما سيطر فكر التوجه نحو العمال والفلاحين. وقد أخذت هذه الوضعية تعود إلى طبيعتها الصحيحة، بعد سقوط نظام الشيشكلي وبدء المرحلة الذهبية في تطور سورية، مرحلة ٥٤ ـ ٥٨، التي ازدهرت فيها الديمقراطية، وبدأت بعض أشكال التحالف الجبهوي وخاصة في البرلمان بين الحزب الشيوعي وحزب البعث العربي الاشتراكي والكتلة الديمقراطية (خالد العظم) وبعض المستقلين، والتعاون مع القيادة الوطنية التي كانت على رأس الجيش العربي السوري.

ثامناً: لقد قدم هذا التقرير وأحيط بالدعاية الضرورية. وكأنه أشبه ببرنامج جديد للحزب، وكان الاهتمام بدراسته من قبل الهيئات الحزبية ومن كادرات الحزب المركزية والمنطقية، يضعه على هذا المستوى البرنامجي. ولم يكن في ذلك الحين لدى الحزب أية وثيقة برنامجية سوى الوثيقة التي صدرت عن المؤتمر الثاني نهاية عام ١٩٤٣ ـ أول عام ١٩٤٤، والتي حملت اسم الميثاق الوطني. وبمقارنة ماجاء في الميثاق الوطني حول البرجوازية الوطنية، وماجاء في هذا التقرير نجد تعارضاً صارخاً، مما يؤدي إلى استنتاج أن محتوى هذا التقرير لم يدرس بشكل معمق، ناهيك بأنه لم يوضع بشكل جماعي.

تاسعاً: إن عدداً من التوجهات التنظيمية التي طرحها التقرير مهمة جداً، وهي تتسم بصبغة آنية أيضاً. جاء في التقرير:

❖يجب أن ننتهي من الحالة الحاضرة، حيث تعتقد كل هيئة في الحزب، من الفرقة فما فوق، أن مهمتنا هي انتظار تعليمات الهيئة التي هي أعلى منها، يجب أن ننتهي من هذه الحالة.

❖من دون تقديم كادر جديد باستمرار، يصعب علينا القيام بالمهمات الكبرى التي تجابهنا. غير أن من واجبنا أن نتبع في تقديم الكادر مقاييس صحيحة. فلا يجوز النظر إلى الكادر نظرة وحيدة الطرف. ولايجوز الحكم عليه من ناحية واحدة من نواحيه...

❖فمن الواجب النظر إلى الكادر حين تقديمه، من ناحيتين معاً، الناحية السياسية وناحية الكفاءات العملية.

❖وإلى جانب العمل لتقديم كادر جديد باستمرار، ينبغي أخذ أعضاء جدد إلى الحزب من بين الجماهير الشعبية، من الشباب والمثقفين والنساء، وخصوصاً من بين العمال والفلاحين الفقراء. إن مهمة تكبير صفوف الحزب بأعضاء جدد، يجب أن توضع بشكل جدي أمام كل فرقة وأمام كل رفيق.

❖ ينبغي أن نعمل من القمة إلى القاعدة لتطوير العمل الثقافي النظري في الحزب... يجب أن نفهم فهماً عميقاً أن معظم النواقص في عملنا، ومعظم التقصير في عملنا، بالنسبة للإمكانات والاستعداد الشعبي، تعود إلى ضعف المستوى الثقافي الفكري، النظري في صفوفنا.

❖هل يبذل رفاقنا الجهود اللازمة للاستفادة من المطبوعات؟ كلا!

بل إن الوضع مؤسف من هذه الناحية... ينبغي أن نفهم فهماً عميقاً أننا إذا لم نعالج قضية الثقافة النظرية، ولم ننجح في جعلها شيئاً مستمراً عادياً في حياة الحزب، مهما كانت الظروف والأحوال، ومهما كان العمل كثيراً، مع سعينا المستمر لزيادة المطبوعات الماركسية اللينينية، فإننا لن نستطيع التقدم أبداً، مهما نشطنا ومهما قمنا بحملات شعبية ومظاهرات طيبة....».

إن هذه التوجهات بمجملها صحيحة، ولكن تطبيقها لم يتم بالشكل المطلوب. فالثقافة النظرية في الحزب، لم تأخذ بعداً كافياً إلا عندما فتحت المدارس الحزبية في الاتحاد السوفييتي وبعض البلدان الاشتراكية الأخرى، أبوابها لقبول ملاكات حزبية سورية، وقد درس المئات من الرفاق في هذه المدارس واكتسبوا ثقافة نظرية تساعدهم على العمل والنضال في مختلف الظروف. ولكن المساعي الحزبية الخاصة لتحقيق هذا الهدف بقيت بسيطة جداً، وتكاد لا ترى. واستمر هذا النقص في عمل الحزب وترك تأثيره على تطور الكادر الحزبي.

أما الموقف من الكادر فلم يقم أبداً على التوجهات المطروحة، بل على أساس النظرة الشخصية والمزاج الشخصي، وغالباً ما كانت تتقدم بعض الكادرات، ثم فجأة يبدأ إحاطتها بالشكوك وبمحاولات العزل.

الفصل الثاني عشر

قضية سالم

سالم هو الرفيق فرج الله الحلو، الذي ولد في قرية «حصرايل» في جبل لبنان. وهو من عائلة فلاحية، عمل والده وأفراد من عائلته في الأرض.

انتسب فرج الله الحلو إلى الحزب الشيوعي باكراً في أوائل الثلاثينيات. وعمل مدرساً في إحدى مدارس حمص، وهناك تعرف على الرفيق ناصر حدّة، وعاد إلى لبنان وعمل متفرغاً في الحزب منذ أولى سنواته.

سافر إلى موسكو للدراسة الحزبية في سنوات الثلاثينيات، وعاد ليتسلم مناصب رئيسية في الحزب الشيوعي في سورية ولبنان. انتخب في المؤتمر الوطني عام ١٩٤٣ - ١٩٤٤ رئيساً للحزب الشيوعي اللبناني. وكان عضواً بارزاً في قيادة الحزب، سافر مع خالد بكداش لحضور مؤتمر الحزب الشيوعي البريطاني، وعندما عاد جرى لهما استقبالات حافلة في سورية ولبنان. كان عضواً في المؤتمر الوطني اللبناني، وعاش زمناً طويلاً في قيادة الحزب في بيروت.. وفي عام ١٩٥٤ ونجاح خالد بكداش نائباً عن دمشق، أتى إلى سورية وعمل في قيادة الحزب في دمشق، واستلم مهمة الإشراف على تحرير جريدة «النور»، الإصدار الأول الذي انتهى مع الوحدة السورية المصرية. وكان كاتب الافتتاحيات والمشرف على جهاز التحرير. وبعد إعلان الوحدة السوية - المصرية وملاحقة الحزب الشيوعي السوري، عمل فرج الله الحلو قائداً لعمل الحزب السري في سورية، وكان مركزه في دمشق، إلى أن وقع في أيدي المباحث وعذب واستشهد.

يتميز فرج الله الحلو بأخلاقه وهدوئه وحسن استماعه للناس وصبره وجلده على العمل. وكان قائداً متفانياً لا يهمه الشهرة ولا التطبيل، بل يهمه العمل المخلص ليلاً ونهاراً.

نشأت قضية مؤسفة ومؤلمة للرفيق فرج الله الحلو خلال حياته الحزبية في لبنان، ونشأت عنها قضية عرفت في تاريخ الحزب بقضية سالم، فيما يلي نطرح هذه القضية ونعلن موقفنا منها.

وجهت القيادة المركزية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان الرسالة التالية إلى منظمات الحزب حول الرسالة التي بعث بها الرفيق سالم (فرج الله الحلو) إلى القيادة المركزية حول موضوع أخطائه:

أيها الرفاق الأعزاء!

إن الرفيق سالم قد اقترف سلسلة من الأخطاء يعود تاريخها إلى العهد العلني، دلت في تسلسلها على أنها لم تكن مجرد أخطاء مفصول بعضها عن الآخر، بل إنها كانت اتجاهاً معيناً مغايراً ومنافياً لمفاهيم ومبادىء حزبنا الشيوعي، الحزب الثوري الماركسي اللينيني الستاليني للطبقة العاملة. وقد تبين للقيادة المركزية خلال بحثها ومناقشتها لأخطاء الرفيق سالم ومنشأها وجذورها أنه كان لا يزال واقعاً تحت تأثير العقلية البرجوازية، ويحمل ميولاً كوسموبوليتية، غريبة عن عقلية الطبقة العاملة وعن حزبها الثوري. وقد كان لهذه الميول الكوسموبوليتية التي يحملها الرفيق سالم أثرها السيء الكبير في مختلف الميادين التي كلف بالعمل فيها، حتى إنها أدّت به إلى مواقف تتعارض على خط مستقيم مع خطة الحزب الثورية. ويعود الفضل الأكبر في اكتشاف جذور الميول الكوسموبوليتية والشوفينية وخطرها، إلى الرفيق خالد بكداش الذي حارب بحزم وعناء تيارها في قلب اللجنة المركزية. وقد بين الرفيق خالد والقيادة المركزية مدى خطورة تسرب هذه العقلية، عقلية الأعداء الطبقيين، عقلية القومية البرجوازية بمظهرها الشوفيني والكوسموبوليتي، إلى داخل حزبنا في القرارات التي صدرت عن اجتماع القيادة المركزية المنعقد في حزيران ١٩٥١ والتي طبعت في كراس تحت عنوان «خطة الحزب في الاتجاه بحزم نحو العمال والفلاحين والعوائق السياسية والتنظيمية التي تحول دون تحقيق هذا الاتجاه ومهمات الحزب في النضال ضد هذه العوائق والتغلب عليها». إن هذه القرارات تظهر بوضوح أن الميول الشوفينية والكوسموبوليتية لا تعرقل تطبيق خطة الحزب الثورية وحسب بل تعزله عن الجماهير وتجره في طريق التصفية المحتوم.

إن الرفيق سالم تنفيذاً لقرار القيادة المركزية التي بحثت أخطاءه وجذورها ونتائجها، قد أرسل إليها رسالة يعترف فيها بهذه الأخطاء ويحلل أسبابها ومنشأها

ويبين نتائجها على الحزب. وقد رأت القيادة المركزية في هذه الرسالة محاولة طيبة للانتقاد الذاتي المبني على أساس فهم الأخطاء وجذورها ومنشئها وأسبابها الذي هو بمثابة الخطوة الأولى الضرورية في سبيل إصلاح هذه الأخطاء.

والقيادة المركزية إذ ترسل هذه الرسالة إلى جميع الرفاق والفرق والفروع واللجان المنطقية، تطلب إليهم جميعاً قراءتها بإمعان ودرسها واستخلاص الدروس منها، فتكون، بما تظهره من أخطار الميول الكوسموبوليتية على حزبنا، دافعاً إلى مضاعفة اليقظة والنشاط والحزم في محاربة هذه الميول بلا هوادة في صفوف حزبنا.

أواسط شباط ١٩٥٢

القيادة المركزية

١ - يلاحظ القارىء أن الانتقادات الموجهة للرفيق فرج الله الحلو، صدرت في اجتماع القيادة المركزية المنعقد في حزيران ١٩٥١، وإن تاريخ الرسالة الموجهة للحزب هو شباط ١٩٥٢. فإلى ماذا يشير هذا الأمر.

يشير هذا الأمر حسب المعلومات التاريخية، إلى أن الرفيق فرج الله، حاول تقديم نقد ذاتي. ورفض المشروع الأول الذي قدمه، وطلب منه أن يعيد النظر به وأن يتشدد في الانتقاد الذاتي ويعترف بأخطائه، بالأسلوب الذي ورد في هذه الرسالة. وقام بمحاولة ثانية، ورفضت أيضاً، إلى أن تم الاتفاق على النص المنشور في هذا الكتاب، وقد استغرق الأمر نحو تسعة أشهر، قضاها الرفيق فرج الله في وضع نفسي قلق جداً وسيئ جداً.

وكما جرى مع بعض الرفاق المسؤولين الآخرين، فقد كلف الرفيق فرج الله بالعمل في جهاز الطبع السري، وبكل إخلاص شيوعي، وبكل تفان، وبكل جرأة نفذ هذا العمل ومارسه. وكان هذا الأسلوب خطر جداً، وهو يعني وضع الرفيق في ظروف حياتية صعبة، وامتحان صبره وجلده، أو إحراجه لإخراجه، وكانت الروح الحزبية، هي التي تتغلب دائماً وينتصر الإخلاص للحزب، على محاولات الإحراج.

ومن هنا أستطيع القول بأن هذه الرسالة ليست في حقيقتها انتقاداً ذاتياً، إنما هي نصوص فرضت فرضاً، ووافق على صدورها الرفيق فرج الله الحلو، انطلاقاً من مبدئيته وإخلاصه للحزب، وحرصه على أن الحقيقة ستظهر جلية، عاجلاً أم آجلاً.

٢ - الحلقة الأساسية الأيديولوجية التي ينتقد عليها هذا القائد الشيوعي الكبير هي الميول الكوسموبوليتية والشوفينية وهما مفهومان متناقضان، فما هي هذه الميول؟

وهل هي موجودة لدى الرفيق فرج الله الحلو؟ الكوسموبوليتية هي اللا وطنية، والشوفينية هي التعصب القومي الذي يصل إلى درجة رفض الآخر. فهل فرج الله الحلو يمثل في حياته ومواقفه التاريخية سلوكاً لا وطنياً؟ وهل هو قومي عربي متطرف، كما يراد تصويره.

إنه في الحقيقة لا هذا ولا ذاك. وهو في جميع مواقفه وفي التقارير التي قدمها، يمثل أعلى درجات الوطنية، كما كان يعبر عن شعور قومي صحيح، فلماذا تساق إليه هذه التهم!

القضية الجوهرية، هي الموقف المبدئي من قرار تقسيم فلسطين، فقد رفض الرفيق فرج الله هذا القرار وطالب بأن يبقى الحزب على موقفه المبدئي السابق برفض تقسيم فلسطين، وأن تقام دولة ديمقراطية في فلسطين. وحاول التمييز بين موقف الحزب الشيوعي في سورية ولبنان، وبين موقف الاتحاد السوفييتي، وهذه قضية مبدئية. فالحزب الشيوعي السوفييتي، عندما حدد موقفه، انطلق من مصلحة الشعبين العربي واليهودي، ومن سعيه لقطع الطريق على تآمر الإمبريالية الإنكليزية بالدرجة الأولى، وطالب في البدء بدولة ديمقراطية تجمع الشعبين، ولما رفض ذلك، رأى أن هذا الحل هو الأفضل. وهذا منطق يمكن أن يناقشه الإنسان، في الظرف الملموس والمكان الملموس، من وجهة نظر دولة عظمى في ظرف دولي معين. أما الرفيق فرج الله الحلو، فقد نظر إلى الأمر من وجهة نظر المصلحة العربية العليا، ومن وجهة نظر مصلحة الشعب العربي الفلسطيني ومستقبله، ومصلحة الشعوب العربية. ولهذا رأى أن الموقف السوفييتي والموقف الذي اتخذه فرج الله الحلو، يكمل أحدهما الآخر من حيث المصلحة العليا.

إن قيادة الحزب في ذلك الحين، وعلى رأسها الرفيق خالد بكداش، وعضوية الرفيق أرتين مادويان، وعضوية الرفيقين نقولا شاوي وحسن قريطم رأت في موقف فرج الله الحلو تناقضاً مع موقف الاتحاد السوفييتي.. وعدّته أمراً غير مقبول، ولا يجوز أن يقع أبداً، وهو الموقف الشوفيني والكوسموبوليتي.

لقد كان الرفيق خالد بكداش حريصاً كل الحرص، ليس فقط، على أن لا يتعارض موقف حزبنا الشيوعي في سورية ولبنان، مع مواقف الحزب الشيوعي السوفييتي، بل أن يتطابقا حرفياً ويتلازما. وينطلق في ذلك من موقف خاطئ برأيي، وهو أن على الشيوعيين أن يقفوا مع الاتحاد السوفييتي على الخطأ والصواب. وهذا المنطلق الذي

أدى بقادة تاريخيين للابتعاد عن الحزب في ظرف معين، لم تكن فيه أية إمكانية للمناقشة الموضوعية، والذي أدى إلى انقسام عام ١٩٨٥، عندما كان يجري التحضير للمؤتمر السادس للحزب، وكلف الرفيق خالد بكداش بوضع المشروع الأول لتقرير اللجنة المركزية الذي كان من المفروض أن يقدم للمؤتمر، وكان الفصل الأول فيه بعنوان: نحن مع الاتحاد السوفييتي على الخطأ والصواب. وكنا في حينه، الرفاق يوسف فيصل ودانيال نعمة وظهير عبد الصمد وموريس صليبي، أعضاء في المكتب السياسي واعترضنا على العنوان والفصل كله، وقلنا بأن الأصح والأفضل أن نقول بأننا مع الاتحاد السوفييتي، لما يقدمه لنا من مساعدات وخاصة تعزيز دفاعنا الوطني ضد عدوانية إسرائيل، وللمساعدات الكبيرة في بناء السدود والمعامل وسكك الحديد وما إلى ذلك... إضافة إلى الموقف المبدئي من الاتحاد السوفييتي كأول بلد اشتراكي، والذي انتصرت فيه ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى. وهكذا يفهمنا الشعب ويفهم لماذا نحن مع الاتحاد السوفييتي ونؤيد خطواته. فما كان من الرفيق خالد بكداش إلا أن جمع أوراقه وقال: سنتابع البحث في اجتماع قادم.. ولم يتم هذا الاجتماع، وآلت الأمور إلى الانقسام المشار إليه.

٣ ـ إن الأسلوب الذي صيغت فيه هذه الرسالة، فيه مساس بالكرامة الإنسانية، وليس مقبولاً أبداً معالجة الأخطاء، إذا وقعت، بمثل هذا الأسلوب، ففيه مجافاة للحقيقة وللواقع، وفيه تقويل لصاحب القضية، مغاير جذرياً لقناعاته، الأمر الذي لا يساعد على اكتشاف الخطأ، ويمكن أن يؤدي بصاحب القضية، إلى التخلي عن الهدف الجوهري، وهو استمراره بالنضال في صفوف الحزب، خدمة للهدف الكبير الذي وهب نفسه إليه.

إن هذا الأسلوب ينظر إلى المناضلين كآلات تتحرك في عملية منتظمة لكل واحد منهم دوره الملحوظ، ولا تنظر إلى المناضلين كبشر لهم مشاعرهم وأحاسيسهم وكراماتهم وعنفوانهم وإباؤهم. وهي كلها تتحرك داخل النفس البشرية وتدفع بالإنسان في هذا الاتجاه أو ذاك، فقد تدفعه إلى المغامرة أو إلى الإرباك، وقد تدفعه إلى التسليم أو إلى الرفض، وبالتالي فهذا العنصر الهام والأساسي، في دراسة نفسيات المناضلين، كان مفقوداً تماماً، ويعود لأسباب أيديولوجية، عاناها الاتحاد السوفييتي كثيراً. فمن المعلوم أن دراسة علم النفس كانت مهملة في الدراسات الفلسفية السوفييتية، وخاصة، في المجال الحزبي. وقد كانت برامج التدريس تحوي الكثير من الفلسفة إلى الاقتصاد

السياسي، إلى مفهوم الحق، إلى البناء الحزبي، إلى تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي، ولكن هذا البند من الدراسات لم يكن موجوداً أبداً، مع أن الحياة برهنت على أنه أساسي وضروري.

إن من يعرف الرفيق فرج الله الحلو، ويعرف مزاياه القيادية، وأسلوبه البنّاء في التعامل مع الكادرات الحزبية، وتربيتها بروح الأخوة والرفاقية والتفاني، يرفض كلياً الصفات التي ألحقت به في الرسالة المشار إليها.

لم تدم أزمة الرفيق فرج طويلاً، فعاد إلى الحياة الحزبية بكل قواه وبإخلاص شامل واندفاع لا حدود له.

لقد برزت جميع الصفات التي يتحلى بها الرفيق فرج الله الحلو، خلال عمله في دمشق بين أعوام ٥٤ ـ ٥٨ من القرن الماضي، وعندما تسلم قيادة جريدة «النور».

إن الافتتاحيات العديدة التي كتبها بخط يده، هي شاهد حي على الوطنية الأصلية التي يتحلى بها، وعلى الأممية الصادقة كما يفهمها، فقد كانت الجريدة مدرسة يومية للمناضلين البواسل، في تلك الفترة الحرجة من تاريخ سورية، وكانت مقالات فرج الله، تبثُّ الثقة بالنصر على التآمر الإمبريالي المحيط بالبلاد، وعلى الرجعية الداخلية. وكان فرج الله الحلو قائداً يملك مشاعر إنسانية في تعامله مع عمال المطبعة. فقد كان يزورهم في آخر الليل، ويشجعهم ويرفع نشاطهم، كما كان يمارس نفس الروح مع الموزعين.

إن صفات فرج الله الحلو هذه، برزت في جميع علاقاته مع الرفاق في الحزب ومع عائلته ومع أصدقائه، وكان ينظر إليه كنموذج للقائد الشيوعي وللأخلاق الشيوعية.

لقد كان الحزب الشيوعي اللبناني محقاً في قراره في حذف هذه الرسالة من تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني، فهي نموذج سيّئ عن التربية الحزبية المبدئية، وهي نموذج سيّئ في التعامل مع الكادر على مختلف درجاته، سواء كان كادراً قيادياً أم عادياً.

والسؤال الأساسي الذي لابد من طرحه هو: لماذا تعامل الرفيق خالد بكداش مع رفيق دربه بهذا الشكل؟

هل هذا هو الأسلوب اللينيني، الماركسي، في التعامل مع الكادر ومع أعضاء الحزب؟

هذه قضية محورية لابد من الإجابة عنها. وبتقديري فأن الرفيق خالد بكداش، كان يقظاً جداً، لكي لا يظهر مزاحم له في القيادة، وإذا ظهر رفيق متقدم ويتمتع بمؤهلات

قيادية فسيلقى مقاومة وضغطاً للابتعاد، وهذا ما جرى مع الرفيق رشاد عيسى، وهذا ما جرى مع الرفيق ناصر حدة وهو ما جرى مع فرج الله الحلو.

في حياتي الحزبية كدت أقع في نفس المنعطف، ولكن يقظة الرفاق الآخرين، حالت دون ذلك، وسأتحدث عن هذا الموضوع في الفصل المناسب.

نص رسالة الرفيق سالم (الموجهة إلى القيادة المركزية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان)

إلى الرفاق الأعزاء أعضاء القيادة المركزية!

إن الانتقادات التي وجهت إليَّ في اجتماع اللجنة المركزية في نيسان، ثم في اجتماعها الآخر في حزيران هي انتقادات صائبة وفي محلها تماماً، وإني مقتنع كلياً. فقد فتحت عيني هذه الانتقادات، أخيراً، على مدى ابتعادي عن الطريق اللينينية الستالينية، وإمعاني في اتجاه خطر ثابرت عليه، رغم الانتقادات والملاحظات والتنبيهات التي ظلت، خلال مدة طويلة، توجه إليّ، في داخل القيادة المركزية، وخصوصاً من الرفيق خالد بكداش.

وكلما أمعنت النظر الآن في تلك الأخطاء والانحرافات، تبينت لي، بصورة أجلى، جسامة الأضرار التي جرتها على الحزب، بما أدت إليه من عرقلة تنفيذ خطته الثورية الصحيحة. وهذا ما يملأ نفسي شعوراً بعظم التبعة التي أحملها أمام حزبنا وشعبنا، وأمام التاريخ، وأمام كل الشيوعيين في سورية ولبنان، بل في جميع الأقطار العربية، إذ كنت في نظرهم جميعاً أحد من يحملون شرف تمثيل الحزب الشيوعي، طليعة النضال الشعبي الوطني ضد الاستعمار.

وإني أفهم الآن وأقدر كل مغزى غضب الرفاق أعضاء اللجنة المركزية نحوي، فهو غضب مشروع حقاً، ومتواز مع الثقة التي كانت موضوعة بي.

وإن موقف اللجنة المركزية من أخطائي وانحرافاتي، وإجماعها على تسجيلها لمن أكبر العلامات على أن حزبنا يصبح فعلاً، بقيادة الرفيق خالد بكداش، حزباً جدياً إذ إن الحزب الجدي يُعرَف، كما يعلمنا لينين وستالين، على أساس موقفه من أخطائه وأخطاء أعضائه، ومدى تطور الانتقاد والانتقاد الذاتي فيه.

أيها الرفاق!

إن أخطائي وانحرافاتي تعود لانزلاقي إلى مواقف الانتهازية، وضياع الهدف الثوري من أمامي، وخروجي عن طريق المبادئ اللينينية الستالينية واتباعي طريقاً آخر معادياً للبلشفية، خصوصاً فيما يتعلق بمفهوم الحزب الشيوعي ودوره الثوري.

لقد غاب عني مفهوم الحزب الشيوعي اللينيني ودوره الثوري. بدأ ذلك منذ العهد العلني، ثم استمر بعد دخول حزبنا مرحلة النضال السري، رغم الحوادث والانتقادات والملاحظات. إن نظرتي للحزب الشيوعي غدت نظرة مناقضة تماماً للفكرة اللينينية الستالينية عن الحزب، لقد كانت، في الواقع، نظرة اشتراكية ديمقراطية. لقد غاب عني منذ عهد النضال العلني، دور الحزب الشيوعي كقوة قائدة ومحركة إلى أمام للطبقة العاملة وللجماهير الشعبية الكادحة، كفصيلة الطليعة المنظمة من الطبقة العاملة. وصرت أنظر إلى الحزب كمنظمة تقوم بالانتخابات وببعض الدعاية للأفكار الشيوعية فقط. ونسيت أن على الحزب القيام بمهمة قيادة حركة التحرر الوطني ضد الاستعمار، وتحقيق الثورة الوطنية الديمقراطية في بلادنا، هذه الثورة التي تلخص أهدافها في القضاء على سيطرة الاستعمار وعملائه وتصفية بقايا الإقطاعية في بلادنا، أي تحقيق التحرر الوطني الديمقراطي، تحرير شعبنا من نير الاستعمار الأجنبي السياسي والاقتصادي ونير عملائه، ومن بقايا القرون الوسطى، وإقامة حكم ديمقراطي شعبي. وعند ذلك تبدأ مرحلة جديدة، هي مرحلة توطيد الحكم الديمقراطي الشعبي وتوفير الشروط اللازمة لتحقيق الاشتراكية في بلادنا، (تقرير خالد بكداش «لأجل النضال في سبيل السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية يجب الاتجاه بحزم نحو العمال والفلاحين»).

«ومن الواضح، كما يقول الرفيق بكداش، في تقريره التاريخي المذكور آنفاً، أن نضالنا في سبيل هذه الأهداف الوطنية الديمقراطية، يمتزج امتزاجاً عضوياً بالنضال العام ضد خطر الحرب العالمية الثالثة التي يعمل لإشعالها الاستعمار العالمي، بقيادة الاستعمار الأمريكي».

وبنتيجة المفهوم الخاطئ لدور الحزب، ولغياب أهدافه الثورية عن ناظري، غاب عني دور القيادة الشيوعية البلشفية، ومفهوم مهمات القائد في الحزب الشيوعي. وقد بلغ بي الأمر أنَّ نظرتي لدوري كقائد انحطت حتى أصبحت كالنظر لدور القيادة في الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية، أو للزعامة البرجوازية: «أكثر ما يمكن من التشريفات، وأقل ما يمكن من الواجبات». لقد أصبحت القيادة في نظري «امتيازات» لا أعباء ثقيلة مرزحة. فلم أكن أحفل بما تتطلبه مهمة القيادة في الحزب الشيوعي من صلة حيوية دائمة بالحزب، وتلبية جميع حاجاته ومتطلباته، ومن يقظة وسهر وروح ابتكار في حل المشاكل والقضايا السياسية والتنظيمية التي تضعها الحياة وظروف النضال أمام الحزب، ومن تعب وجد ودرس في وضع خطة سياسية للحزب، وشعارات

مناسبة في كل ظرف بعينه، والسهر على تطبيقها، واختيار الرجال أي الكادر الصالحين لتنفيذ هذه الخطة، مع تقديم المساعدة المستمرة لهم، والعمل على رفع مستواهم، والإكثار منهم، أي إغناء الحزب دائماً بأفواج جديدة من الرجال المناضلين. لم أكن أحفل بأن دور القيادة هو دائماً دور قوة محركة تشد الحزب دائماً إلى أمام وإلى مستوى أعلى في شعاراته وسياسته، وفي تنظيمه وثقافته، وهدفها الدائم جعله فصيلة الطليعة حقاً، من الطبقة العاملة، وقائد الجماهير الشعبية.

وانعكس المفهوم الخاطىء لدور الحزب الثوري في قلة اهتمامي بمصير المنظمات الحزبية وبعملها ونضالها، وكيفية اتجاهها وتطورها، وكيفية تركيبها وتأليف قياداتها. مثال ذلك أن منظمات كثيرة في الحزب، كانت تولد وتندثر، أو كان يتسلمها عملاء العدو، أو كانت تطبق قانون الحزب وخطته السياسية كما يحلو لها أو لا تطبقهما أبداً، دون أن يلقى ذلك اهتماماً مني. ولم أكن أحفل بالانتقادات والملاحظات من الرفيق خالد بكداش، كما لم أكن ألقي بالاً لملاحظات الرفاق الآخرين. وكان من جراء ذلك عيوب عديدة في عملي الحزبي: طغيان الأسلوب العشائري على عملي الحزبي، وطمس المبادىء الأساسية التنظيمية في الحزب، كالتخلي عن المركزية الديمقراطية وعن الانتقاد والانتقاد الذاتي، وعدم احترام هيئات الحزب وعدم إقامة وزن لمقرراتها وعملها، مع الميل إلى العمل الفردي، وعدم التعاون مع الرفاق الآخرين المسؤولين، وعدم تقدير لجدوى هذا التعاون، وكره اجتماعات الحزب (السكرتاريا، المكتب السياسي، اللجنة المركزية). وعملياً أصبح تصرفي تصرف شخص غير مسؤول، وفي أحسن الحالات صار دوري كدور «مستشار»، وتكوّن عندي رأي بأني «ثمينٌ» جداً بالنسبة للحزب. وفي الوقت نفسه كان عجزي عن القيام بمهمات الحزب يتفاقم، وينمو عندي شعور بالاكتفاء والغرور. فصرت أميل إلى إخفاء تقصيري وأخطائي حتى عن رفاق السكرتاريا والمكتب السياسي. فكان ذلك مني خداعاً للحزب والقيادة، من الناحية العملية، دفعت إليه بشعور برجوازي صغير، شعور المحافظة على ظواهر «زعامتي».

ومن عيوب عملي الناتجة عن الانغماس في الانتهازية وعن المفهوم الخاطىء لدور الحزب الثوري، عدم الاهتمام بإيجاد الكادر وتكوينه وتثقيفه وتقديمه، وكانت نظرتي إلى تقديم الكادر خاطئة ومغايرة للقاعدة الستالينية. فلم يكن الغرض الرئيسي تهيئة رجال يساهمون في تنفيذ مهمات الحزب المتعاظمة، بل كان اتجاهي هو إيجاد أشخاص ينفذون من المهمات الجارية ما يمكن أن يخفف الأعباء عني، دونما نظر إلى كيفية تطورهم في المستقبل، ومدى كفاءتهم، ودون نظر إلى سيمائهم السياسية التي يتحدث عنها الرفيق ستالين، ولم أكن أقدم لهم المساعدة والعناية، وكان الناس

«الراضون» «السكوتون» هم المفضلون عندي، وبسبب ذلك جررت اللجنة المركزية إلى أخطاء في هذا الباب. ومن المعلوم أنه قد تقع أخطاء في تقديم الكادر، وفي كل عمل حزبي آخر، ولكن تظل هذه الأخطاء تعد بسيطة إذا وقعت ضمن الخطة الصحيحة. أما أخطائي في تقديم الكادر فلم تكن من هذا النوع، بل كانت في الخطة نفسها. والفرق بين الأمرين عظيم.

وبالطبع، كان هذا الإهمال والاستهتار في مسائل الكادر، ناتجاً عن ضياع الهدف الثوري، ونسيان دور الحزب، ويصح بي هنا قول ستالين عن الموقف السلبي الذي تقفه أحزاب الأممية الثانية من مسألة الفلاحين حيث يفسر هذا الموقف بقوله «إن تلك الأحزاب لا تؤمن بديكتاتورية البروليتاريا وإنها تخشى الثورة، ولا يخطر ببالها أن تقود البروليتاريا إلى الحكم، ومن يخشى الثورة، ولا يريد أن يقود البروليتاريين إلى الحكم، لا يمكن أن يهتم بمسألة حلفاء البروليتاريا في الثورة، فمسألة الحلفاء في نظره، ليست بذات بال، ولا هي موضوعة على بساط البحث بشكل ملح».

كذلك يمكن القول فيما يتعلق بموقفي من الكادر، إن من ينسى دور الحزب الثوري وتغيب عنه أهدافه الثورية، وينغمس في حمأة الانتهازية، لا يمكن أن يهتم بتوفير المزايا الرئيسية التي تقوي الحزب وتجعله كفؤاً للقيام بمهمته، ومن أهم هذه المزايا تكوين الكادر وتثقيفه وتصليبه.

وهكذا نسيت شيئاً فشيئاً أن الحزب حزب نضال ومعارك وكفاح ثوري حافل بالمصاعب والمشاكل والتضحيات. وحين أستعرض الماضي الآن، أرى كم من الأخطاء ارتكبتها، وكم من ضرورات للنضال ضيعتها. لقد مرت سنوات، دون أن يدخل أحد من الشيوعيين إلى السجن. لقد نسي الشيوعيون السجن. ولماذا؟ هل زال الاستعمار من بلادنا في تلك الفترة أم توقفت البرجوازية عن الخيانة واستثمار الجماهير؟ فكم من خيانة ارتكب الحكام الرجعيون، وكم من تدخل استعماري سافر ومستتر، وكم من عدوان على العمال وخبز الشعب وحرياته! كان الشعب يناضل والعمال يضربون، ولم تكن الطبقة العاملة تنقصها روح الكفاح. ولكن خطتي التي كنت أسير عليها قصّت من أظافر الحزب، وأضعفت من روحه الكفاحية. صحيح أن لرفاقنا النقابيين المسؤولين تبعتهم، فيما يتعلق بقضايا العمال والعمل النقابي، ولكن التبعة الكبرى عليَّ، على خطتي. ولقد كان الرفيق خالد بكداش ينتقد وينصح وينبه، ولكن بلا جدوى، فقد كانت تلك في نظري آراء «تصح» في غير لبنان، ذي «الوضع الخاص»، كما يفكر الاشتراكيون الديمقراطيون تماماً. كم عطلت «صوت الشعب» وكم اعتدي على

الحريات الشعبية، وكان من الضروري إعلان النضال، وتجنيد قوى الحزب للمعارك والمظاهرات، ولكن أسلوب النضال كان المراجعات من «فوق» والبرقيات، بسبب خطتي تلك. فلقد ذهب من قلبي الحقد الطبقي على الاستعمار وعملائه الخونة. وكانت تلك الخطة هي التي أفسحت أرحب مجال لتغلغل العناصر البرجوازية الصغيرة في الحزب، وترعرعها فيه، وطمس عناصره الثورية.

وحين اضطر الحزب للانتقال إلى مرحلة النضال السري، اتخذت نظرتي الانتهازية شكل استصغار لإمكانيات النضال عند الحزب وعند الشعب. ونسيت ما كان قاله جدانوف، منذ أمد قريب إذ ذاك، في تقريره التاريخي، في الاجتماع الأول (١٩٤٧) «لمكتب الأنباء» (الكومنفورم) من أن النضال بين المعسكرين، الاستعماري والمعادي للاستعمار، يجري في ظروف أشد ملاءمة للمعسكر الثاني، وأن قوى الديمقراطية والسلم والاشتراكية أكبر من قوى الاستعمار، وأن أكبر خطر على الطبقة العاملة الآن هو استصغار قواها الخاصة واستعظام قوى خصومها.

لقد نظرت إلى حزبنا وإلى شعبنا، تجاه القوى الاستعمارية المتألبة على بلادنا، نظرة منفصلة عن الوضع العالمي، نظرة برجوازية قومية، نظرة، في الأصح، أضيق أفقاً أيضاً، نظرة كوسموبوليتية. ولم أؤمن إيماناً تاماً أن شعبنا وبلادنا، كما كان يقول الرفيق خالد بكداش، قطاع من الجبهة العالمية الجبارة المناضلة ضد الاستعمار والحرب، وفي طليعتها الاتحاد السوفييتي، وفصيلة من جيش الشعوب الجرار، جيش السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية والاشتراكية. ولذلك لم أكن مؤمناً إيماناً تاماً بجدوى نضال الحزب. لقد استعظمت المصاعب، وضعفت ثقتي بإمكان تغلب الحزب على النواقص التي كان يعانيها، وفي رأسها تكاثر العناصر البرجوازية الصغيرة فيه. لقد كانت نظرتي إلى الحزب والظروف نظرة جامدة، محافظة، لا نظرة ديالكتيكية، أي لا نظرة إلى شيء متحول متحرك. فكان موقفي العملي مهادنة البرجوازية والاستعمار، والتزام خطة الدفاع لا الهجوم، بأمل المحافظة على ما عندنا. وهذه الخطة هي خطة التصفية بعينها.

وحين بدأ الحزب بمحاربة هذه النواقص والعيوب بمبادرة الرفيق خالد بكداش وتحت قيادته، ظللت غير مؤمن بجدوى ذلك، رغم إعلان موافقتي. فكنت من جهة غير مدرك لخطر العناصر الانتهازية في الحزب، ومن جهة ثانية غير مؤمن بإمكان التغلب عليها. ولذلك لم أشاطر في تنفيذ المهمات والتدابير المتخذة لتصفية تلك العيوب والنواقص في الحزب، بل كنت، على الضد من ذلك، متجهاً في كل سلوكي إلى «حماية» هذه العناصر، والتهوين من شرها، وعرقلة محاربتها. فمن جهة أعلن الموافقة على

ضرورة محاربتها، وعلى التدابير المتخذة لذلك، ومن جهة أخشى تنفيذ هذه التدابير والصعوبات التي ستنجم عنها، فكنت أؤجل وأماطل. وهكذا كنت عملياً أخدع الحزب والقيادة، وأعمل على تصفية المنظمات. وقد أوشكت فعلاً بعض المنظمات على التصفية «بفضل» خطتي.

كل هذا، ولم أحفل بالانتقادات المستمرة التي توجه لي، ولا بالتنبيهات الأخوية والتحذيرات الشديدة. لقد كانت هناك أشياء تمنع وصول الانتقاد إلى أعماق قلبي، حتى سميت انتقادات الرفيق خالد بكداش مرة «وعظاً».

والحقيقة أن غرقي في حمأة الانتهازية جعلني فكرياً وسياسياً أقرب إلى الانتهازيين مما إلى خطة الحزب الثورية، وكنت لا أرى فرقاً كبيراً بيني وبينهم، ولذلك لم أجد القدرة على محاربتهم. حتى إني كنت لا أرى الانتهازيين ولا أستطيع اكتشافهم في المنظمات، ولا اكتشاف عرقلتهم وتخريبهم وعملهم على تصفية المنظمات التي يتولونها . إن كثيرين من الانتهازيين وصغار البرجوازيين قد أبعدوا عن المراكز المسؤولة في المنظمات، بفضل يقظة الرفيق خالد بكداش، في وقت لم أكن أشعر بضرورة إبعادهم، أو بضرورة التعجيل بذلك، رغم أن وجودهم في القيادات المنطقية أو على رأسها كان يعرقل عمل الحزب وتطوره بشكل ظاهر، بل كان يقود هذه المنظمات إلى التصفية.

لقد كنت عملياً درعاً للعناصر الانتهازية، ومفسدة للعناصر الثورية الطيبة، إذ كانت تتشبه بي وتأخذ عني، نظراً لوضعي كقائد مسؤول، في نظرها .

وهكذا أشعر الآن بمرارة وبوخز في الضمير، إذ إني بسبب التساهل مع الانتهازيين وعرقلة تصفيتهم من الحزب قد أخرت عملياً اتجاه الحزب نحو العمال والفلاحين الفقراء، ونحو الجماهير الشعبية الكادحة، هذا الاتجاه الذي وضعه الرفيق خالد بكداش في داخل الحزب، منذ صيف ١٩٤٨ ، قبل تقريره التاريخي الأخير (كانون الثاني ١٩٥١).

إن أساس انزلاقي إلى هذه المواقف الانتهازية يعود خصوصاً إلى وقوعي تحت تأثير الميول الكوسموبوليتية، هذه الميول الرجعية الغربية عن عقلية الطبقة العاملة والمعادية لها على خط مستقيم.

فالكوسموبوليتية التي هي في الأساس إنكار الوطن ونبذ فكرة السيادة الوطنية، والاستهتار بالشرف الوطني، هي عقلية الإقطاعية الرجعية العفنة وعقلية البرجوازية المالية الكبرى، البرجوازية السمسرية التي لا تعرف وطناً ولا شرفَ وطنيٍ عندها،

والمندمج رأسمالها بالرأسمال الاستعماري والمرتبطة مصالحها بوجود الاستعمار ارتباطاً متيناً.

ونشر الكوسموبوليتية هو دائماً من وسائل الاستعمار في كل بلد واقع تحت سيطرة الاستعمار أو يراد استعماره. والمستعمرون الأمريكيون هم اليوم حملة لواء نشر الكوسموبوليتية بغية إضعاف النضال الوطني القائم في جميع الأقطار ضد مشاريعهم الحربية والتوسعية الاستعبادية للسيطرة على العالم.

والميول الكوسموبوليتية قد غذاها، في لبنان منذ عهد طويل، المستعمرون الأجانب ولاسيما الفرنسيون، ونشروها على يد شركاتهم الأجنبية وإرسالياتها ومدارسهم التبشيرية، (الجزويت والفرير وغيرها من مدارس الذكور والإناث).

ولما تولوا السيطرة المباشرة على لبنان، في عهد الانتداب، اتخذوا نشر الكوسموبوليتية والتفرقة الطائفية سلاحاً لتدعيم سيطرتهم ولضرب النضال الوطني الشعبي ضد الاستعمار. وقد وجدوا في الإقطاعيين والفئات العليا من البرجوازية وفي رجال الأكليروس المسيحيين ولاسيما الأكليروس الماروني عوناً لهم على أغراضهم المجرمة.

والإقطاعيون وكبار البرجوازيين، على اختلاف طوائفهم، قد وجدوا في الاستعمار عوناً لهم ضد الشعب، وضد العمال والفلاحين، فساعدوه على نشر الكوسموبوليتية والتفرقة الطائفية متخذين من ذلك ستاراً لإخفاء استثمارهم للعمال والفلاحين، مسلمين ومسيحيين، ووسيلة لطمس الشعور الطبقي وشل النضال الطبقي.

أما رجال الأكليروس، وخصوصاً كبارهم، ولاسيما الأكليروس الماروني الذين يشكلون من الناحية الاقتصادية والاجتماعية جزءاً من الإقطاعية والبرجوازية، فقد كانوا خدم الاستعمار الفرنسي، وساعدوه على بث دعايته السامة الزاعمة أن مصلحة لبنان ومستقبله وازدهاره لا تقوم على استقلاله الوطني وتحرره من كل سيطرة أجنبية، بل على الارتباط بدولة أجنبية كبرى «تحمي المسيحيين» وتحافظ على «التوازن» بين الطوائف. وقديماً كانت فرنسا هي في نظرهم هذه الدولة، أما اليوم فقد أصبحت (مع محافظة بعضهم على الولاء لفرنسا) الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة التي «يكلون» إليها أمر هذه «الحماية»، ويقوم الفاتيكان عميل الاستعمار الأمريكي من الدرجة الأولى، بمساندة هذا الاتجاه والعمل له بشدة. وتنفذ الفئة البرجوازية العليا المتربعة في الحكم هذا الاتجاه متحالفة مع الإقطاعيين ومع رجال الأكليروس أنفسهم. وهكذا نرى أن معظم المتفرنسين القدماء قد تأمركوا اليوم.

وتتجلى الميول الكوسموبوليتية، من الناحية السياسية والفكرية، بمظاهر عدة. فمن مظاهرها ضعف الشعور الوطني وضعف الرابطة الوطنية، وحلول الرابطة الطائفية محلها، مما يؤدي عملياً إلى إقامة الحواجز بين المواطنين على أساس انتمائهم الديني، ويضعف الشعور الطبقي عند العمال والفلاحين، ويفسح المجال لإثارة التفرقة الطائفية وتحويل العمال والفلاحين وسائر الجماهير الكادحة عن القيام بنضال موحد ضد الاستعمار والإقطاعية وضد الاستثمار البرجوازي إلى نزاع داخلي وانقسام على أساس الانتساب الطائفي.

ومن مظاهر الميول الكوسموبوليتية أيضاً اتخاذ موقف العداء نحو سورية والشعب السوري بصورة خاصة، وموقف العداء من الحركة الوطنية التحريرية ضد الاستعمار في الأقطار العربية بصورة عامة. ومن أبرز حملة لواء هذه الميول الرجعية، في هذا المجال، ممثلو الأوساط المالية البرجوازية المرتبطة بالرأسمال الأجنبي الاستعماري، وخدم هذه الأوساط كزعماء «الكتائب» وزعماء الكتلة الإدية، وغيرهم من الرجعيين كالمطران مبارك. وفي الميدان الفكري، يحمل لواء هذه الميول آخرون رجعيون وجزويتيون كالبنكي ميشال شيحا وغيره ممن يبشرون «بالثقافة المتوسطية»، ويبدون الإعجاب والتمجيد «للثقافة» الاستعمارية الغربية الفرنسية والأنكلو أمريكية، أو ممن ينكرون الطابع العربي للثقافة في لبنان، ويحملون عزلها وفصلها عن التراث العربي.

ومن مظاهر هذه الميول أنها، مع تعاليها على الثقافة الوطنية للشعوب العربية، ترى مقاييس «التقدمية» و «الديمقراطية» في مظاهر «الثقافات» الاستعمارية. في حين أن مدى التقدمية والديمقراطية يقاس بمقدار الكره للاستعمار الأمريكي الإنكليزي الفرنسي، وكره «ثقافته» الأمريكية خصوصاً التي تبث البغض للإنسان، وتمجد الوحشية والحروب واللصوصية، وتنشر التخنث والتفسخ عن طريق الصحافة الخلاعية والسينما والكتب والراديو. فأبسط فلاح أو عامل يكره الاستعمار والحرب ويناضل ضدها، هو تقدمي وديمقراطي أكثر من شخص كشارل مالك، كلب الاستعمار الأمريكي، رغم شهاداته الجامعية الطويلة.

وتبرز هذه الميول أيضاً بشكل عطف على الرجعية الصهيونية، يحمل لواءه خصوصاً أناس رجعيون خدموا الاستعمار طول حياتهم، كالمطران مبارك نفسه، أو بيير الجميل وكثير من متزعمي الإديين وغيرهم ممن يرون بينهم وبين الصهيونية وحكام إسرائيل الرجعيين صلة نسب سياسية وطبقية ونوعاً من «الزمالة» في خدمة الاستعمار، باعتبار الرجعية الصهيونية التي تحكم في إسرائيل، سنداً رئيسياً للاستعمار الأمريكي ضد الحركات الوطنية التحريرية لشعوب الشرق الأدنى، وعوناً

للمستعمرين في مشاريعهم الحربية الاحتلالية الموجهة ضد الشعوب العربية وضد الاتحاد السوفييتي وبلدان الديمقراطية الشعبية.

ولكن تجب الملاحظة أن هذه الميول، عند انعكاسها في الحزب الشيوعي، تتقنع بأقنعة مختلفة، فتظهر مثلاً بشكل «تقدمي» مزعوم. كالنفور من العادات المتأخرة عند الجماهير الشعبية، مع أن الجماهير غير مسؤولة عن ذلك، أو كالمبالغة في تعظيم الصعوبات الموضوعية التي تعترض عمل الحزب بين هذه الجماهير (انتشار الأمية، قوة نفوذ الإقطاعية في بعض المناطق الفلاحية، انتشار الأوهام الباطلة حول موقف الشيوعيين من المرأة والعائلة والدين... إلخ. ظروف المعيشة الصعبة مع هذه الجماهير... إلخ). وتنعكس هذه الميول أحياناً في النظر إلى هذه الجماهير من خلال الزعماء الرجعيين، وقياسها بمقياسهم وتحميلها أوزارهم وجرائرهم.. إلخ. بحجة أن قسماً من هذه الجماهير لا يزال يسير وراء أولئك الزعماء، أو عنده أوهام حولهم.

وخلاصة هذه الميول، عند انعكاسها في الحزب الشيوعي، برجوازية صغيرة لا تستطيع أن ترى القوة الثورية الحقيقية الكامنة في الجماهير الشعبية الفقيرة، تلك القوة الوطنية والطبقية المعادية للاستعمار والإقطاعية والاستثمار الرأسمالي.

وإذا كانت الميول القومية البرجوازية أساسها عدم رؤية الصلة بين الحركة الوطنية التحريرية والحركة البروليتارية العالمية والانحصار في الأفق القومي الضيق، فالميول الكوسموبوليتية ليست كذلك وحسب، بل هي لا ترى القوى الوطنية التحريرية في الأقطار العربية الشقيقة، بل لا ترى هذه القوى في لبنان نفسه. وكذلك تؤدي بأصحابها إلى الشعور أو الاعتقاد بعدم إمكان أو بعدم جدوى النضال ضد الاستعمار، والنتيجة المنطقية لذلك هي القبول عملياً بالعبودية للاستعمار.

وهذه الميول التي أدى انتشارها في لبنان إلى منع اتساع النضال الوطني ضد الاستعمار، قد حال تسربها إلى صفوف الحزب، عن طريق العناصر البرجوازية الصغيرة التي تكاثرت فيه في عهد النضال العلني، دون ظهور وجهه الوطني وصفته الطبقية، وبالنتيجة عرقل دخوله بين العمال والفلاحين.

وكان من نتيجة وقوعي في هذه الميول أن انعكست طبعاً في مواقفي المختلفة، فصرت من حامليها، بشكل أو بآخر، ولذلك لم أستطع محاربتها، بل جنحت إلى مسايرتها والتساهل نحوها، والارتياح لها، بل إلى خلق جو عرقل عملياً محاربتها وساعد على ترعرعها ونموها في الحزب.

ومن الواضح أن حزبنا لن يستطيع أن يقوم بتطبيق خطته الموضوعية في تقرير الرفيق خالد بكداش عن «الاتجاه بحزم نحو العمال والفلاحين»، وأن يهيئ الجماهير

لخوض المعارك الكبرى ضد الاستعمار وفي سبيل السلم والاستقلال والتحرر الوطني والديمقراطي، إلا بإشهار النضال الصارم ضد جميع هذه الميول حتى استئصالها من جذورها استئصالاً تاماً.

وحين يتعمق المرء في تعرية هذه الميول من قشورها المختلفة حتى يصل إلى جذورها، ألا يرى أنها، حين تنعكس في الحزب الشيوعي، تصبح تياراً يمتُ إلى التروتسكية بنسب قوي، حين كانت التروتسكية لا تزال معدودة تياراً سياسياً في حركة العمال، قبل أن تصبح عصابة تجسس وخيانة وتخريب واغتيال، في خدمة الاستعمار، وأفظع أقسامه رجعية، ضد الاتحاد السوفييتي، وضد الحركة الشيوعية؟

فالتروتسكية، كتيار في حركة العمال، كانت تنكر كفاءة الفلاحين الثورية، وتنكر أيضاً كفاءة الطبقة العاملة على جر جماهير الفلاحين وراءها. وفي ظروف بلادنا، أليس احتقار الجماهير الشعبية الكادحة، ونسيان كفاءة الفلاحين الثورية، ولاسيما الفلاحين الفقراء، وإهمال الاهتمام بالجماهير المناضلة ضد الاستعمار، أليس ذلك كله ضرباً من التروتسكية؟

كذلك إلى وقوعي تحت تأثير الميول الكوسموبوليتية وانزلاقي إلى مواقف الانتهازية ونسياني مفهوم الحزب الثوري، يجب رد خطأ موقفي المخزي، حين فكرت أن بالإمكان بحث مسألة إبداء الأسف لموقف الاتحاد السوفييتي من قضية فلسطين وموافقته على قرار التقسيم. لقد حاولت في حينها أن أفسر موقفي تفسيرات مختلفة، ثم حاولت بعدها، حتى المدة الأخيرة، أن أجد له «التعليلات» والأسباب «المخففة» أو أن أصوره كشيء غير ذي خطر، ولا علاقة له بأخطائي الانتهازية ومواقفي السابقة، كالقول إن أساس الفكرة لم يكن التنصل من الاتحاد السوفييتي، بل تفسير موقفه، وكتذرعي بأشياء أخرى لتفسير الخطأ وتبريره. ولكن يجب أن أقول إن كل هذه التفسيرات لا معنى لها سوى زيادة جسامة الخطأ، وسوى البرهان على موقف انتهازي، موقف ارتداد، وعداء للثورة. فقد كان مجرد خطور الفكرة على بالي، فكرة إبداء «الأسف»، خضوعاً وتراجعاً أمام تهويش الاستعمار وعملائه الرجعيين، وتقديم تنازل مبدئي وفكري وسياسي لهم. وكان ذلك من شأنه توجيه طعنة لسمعة حزبنا الوطنية والدولية، لم يكن ليتسنى له الشفاء منها، قبل مضي وقت طويل. ولم يكن موقفي ذاك وليد تلك الظروف وحدها، بل كان أيضاً نتيجة لاتجاهي العام في التهاون والاستهتار بالمسائل المبدئية، وهو ميل انتهازي، اشتراكي ديمقراطي، ليبرالي، ميل إلى الانقلاب من السياسة العلمية القائمة على الماركسية اللينينية، والسير، كيفما اتفق، دون هدف ثوري، لقد كان نتيجة لاستصغاري قوة حزبنا وقوة معسكر الديمقراطية، واستعظام

قوى الرجعية والاستعمار، نتيجة لعدم رؤيتي دور الاتحاد السوفييتي في العالم على رأس معسكر السلم والديمقراطية والاشتراكية. لقد كان موقفي نتيجة عدم الثقة التامة بسياسة الاتحاد السوفييتي، وانطباقها التام على مصالح الشعوب. وماذا تعني عملياً فكرة «الأسف» لموقف الاتحاد السوفييتي من قضية فلسطين؟ إنها تعني بلا مراء، أن الاتحاد السوفييتي قد اتخذ موقفاً ضد مصلحة جماهير سكان فلسطين، أو قسم منهم - أي الجماهير العربية. لقد كانت فكرة إبداء «الأسف» تضليلاً وكذباً بالنسبة للشعب، وافتراء على الاتحاد السوفييتي. لقد رأى المستعمرون وعملاؤهم الرجعيون أن كل تهويشهم وافترائهم على الاتحاد السوفييتي بشأن فلسطين، لم يستطع أن يوصلهم إلى ما يبتغون من تحويل غضب الجماهير عنهم، وخلق تيار قوي ضد الاتحاد السوفييتي. فإن كثيرين بين الجماهير، رغم كل أكاذيب الدعاية الاستعمارية، رأوا أن التقسيم قد يكون في صالح العرب، ما دام الاتحاد السوفييتي، صديق الشعوب العربية الأمين، قد وافق عليه. ولذلك ظلت الجماهير غير مقتنعة بأن الاتحاد السوفييتي اتخذ موقفاً ضد العرب، في قضية فلسطين. ولكن لم أكن أستطيع، في حينها، سماع صوت الجماهير، ولا الإحساس بنبضات قلبها. بل فتحت أذني لصوت الرجعيين والقوميين البرجوازيين، وكنت أريد أن أقدم خير خدمة لهم في إنكار موقف الاتحاد السوفييتي. ولو أني أحسست في حينها، بنبضات قلب الجماهير، لكان يجب علي أن أرى أن التقسيم الذي أراده الاتحاد السوفييتي، أي تأليف دولتين مستقلتين ديمقراطيتين عربية ويهودية لا جيوش أجنبية فيهما، هو خير موقف لمصلحة الجماهير العربية واليهودية. لقد أقنعت الحوادث الآن، حتى أشد الغلاة، كم كان موقف الاتحاد السوفييتي متفقاً مع مصالح الجماهير العربية في فلسطين، وكم كان موقفاً بعيد النظر، وكم كان يرمي إلى توفير مآس وآلام على الجماهير العربية في فلسطين، وأن يخطو بالنضال الوطني التحريري خطوة كبرى ضد الاستعمار في الشرق الأدنى.

إني أرى الآن فظاعة تلك الفكرة، فكرة إبداء «الأسف»، إذ كانت تخلياً مني عن الأممية التي تعني، قبل كل شيء الثقة بالاتحاد السوفييتي، والالتفاف حوله، والأمانة التامة للحزب البلشفي، ولمعلم الشغيلة ومرشدهم وقائدهم الرفيق ستالين. وهكذا أيضاً نسيت قول ستالين إن السياسة الصحيحة هي السياسة المبدئية، فهي التي لها المستقبل.

إن موقفي ذاك، الذي كنت أعده هفوة عابرة، هو في الواقع، أنموذج لعمق المنحدر الذي صرت إليه، في الابتعاد عن الطريق الثوري، طريق اللينينية الستالينية، ودليل

على مدى انغماسي في الانتهازية، وعلى مدى الخفة والاستهتار الذين كنت أواجه بهما مسائل الحزب الحيوية الخطيرة.

أما عدم اهتمامي بالنضال ضد الانتهازيين والانهزاميين، وخصوصاً عدم اهتمامي بالنضال ضد المخربين التيتويين، من هاشم الأمين إلى باشابزيان وقدري قلعجي ورشاد عيسى ومير مسعد ورئيف خوري وإميلي فارس وغيرهم، فمن أسبابه الرئيسية استصغاري لشأنهم، واحتقاري لدورهم. ولكن لم يكن ذلك ناتجاً عن إيماني بقدرة الحزب على سحقهم، بقدر ما كان ناتجاً عن استصغاري لدور حزبنا في نظر العدو الطبقي، ولعدم إدراكي الكافي لمدى كره العدو لحزبنا وخوفه منه، ولعدم رؤيتي الدور المتعاظم الذي يقوم به ويمكن أن يقوم به حزبنا في مقاومة مشاريع المستعمرين الحربية الاستعبادية وعرقلتها، وإيقاد جذوة النضال الشعبي ضد الاستعمار والحرب. ولم أكن مقدراً أهمية الانعطاف الجماهيري الشعبي في بلادنا، وفي العالم، نحو الاتحاد السوفييتي، ونحو الشيوعية، ولم أكن مقدراً ضعف معسكر الاستعمار بكل مداه. ولم أقدر الأهمية التي يعلقها الاستعمار على مروق العصابة التيتوية وخيانتها، وسعيه إلى تعميم الخيانة التيتوية في جميع الأقطار،، وفي سورية أيضاً، وتقسيم صفوف الحركة الشيوعية والديمقراطية بواسطتها.

لذلك نظرت إلى المخربين التيتويين كأفراد سيئين، كأفراد غير جديرين بشرف الانتماء للحزب الشيوعي، أو المساهمة في الحركة الديمقراطية، كأفراد تنقصهم مزايا الشجاعة والاستقامة وحب الشعب، فكانت نظرة إلى جهة واحدة فقط. ولكن لم أنظر إليهم من خلال منظار احتدام النضال الطبقي، ولا كممثلين لأفكار ومحاولات طبقية معادية للحزب الشيوعي وللطبقة العاملة وللشعب. ولم أنتبه لإمكان وجود يد الاستعمار وزمرة تيتو وراءهم، ولا لتطورهم الذي سيسير بهم حتماً وسريعاً إلى أحضان الاستعمار والزمرة التيتوية. وقد اعتبرت أنهم «ماتوا» سياسياً واندثروا، منذ أن ساروا في اتجاه القطيعة مع الحزب، أو لن يلبثوا أن «يموتوا» ويندثروا. وهذا صحيح، لقد ماتوا كجماعة مفروض فيها أنها ثورية، ولكن لن «يموتوا» كخونة وجواسيس ومخربين إلا بالنضال الدائب لفضحهم وعزلهم. لقد كانت نظرتي إليهم نظرة سطحية وغير علمية، نظرة مجردة عن وجود الاستعمار واحتدام النضال الطبقي. ولم أتعمق في النظر إلى ما كان يبلغني من «مديحهم» إياي، وإلى مقاصدهم من وراء ذلك. وكنت أشعر أن ذاك المديح مهين لي، ولكني كنت أحسب أنه محاولة مسكينة منهم لخلق انقسام مستحيل في قيادة الحزب، أو كنت أحسبه أحياناً نوعاً من «التغطية» لتطاولهم الوقح على الرفيق خالد بكداش. لكنهم في الواقع، كانوا يمدحون

في نقصاً وضعفاً، يمدحون خطتي التي كانت تعبيراً عن رغباتهم في الحزب، لا عن رغبات الشعب. وقد نسيت كلمة ذلك الثوري الألماني: «إذا رأيتُ العدو يبتسم لي، أفكر حالاً أية حماقة ارتكبت». لقد سلكت نحوهم سلوكاً خالياً من اليقظة الثورية. وليست قلة التجربة هي السبب بفقدان اليقظة الثورية عند شيوعي مسؤول ومجرب مثلي، بل هو فقدان الحقد الطبقي، هو ضعف الحقد على الاستعمار وعملائه الخونة، هو عدم الشعور بما يقترفه المستعمرون وعملاؤهم الحكام الرجعيون ضد شعبنا، ضد أطفالنا، ضد العمال والفلاحين.

كذلك، إن غياب دور الحزب الثوري عن ناظري، ونسياني مفهوم الحزب اللينيني الستاليني قد أدّى بي إلى فهم خاطئ لوحدة الحزب ووحدة القيادة. فقد ظننت أن الموافقة الشكلية، حتى من دون قناعة تامة، معناها وحدة الحزب ووحدة القيادة. مع أن ستالين يقول في تحديد الحزب بأنه «وحدة الإرادة ووحدة العمل التامة المطلقة بين أعضائه». لا بين أعضاء القيادة فقط، وهذه الوحدة، كما يقول ستالين، هي «الشرط الذي لا غنى عنه، والذي بدونه لا يمكن تصور حزب موحد»... فالوحدة الحقيقية الفعلية هي المشاطرة العملية الفعلية الحقيقية في وضع خطة الحزب السياسية، وتنظيم تنفيذها، وإيجاد الرجال أي الكادر للقيام بها، وإن هذه الوحدة تعني وجود مستوى سياسي وفكري واحد أو متقارب إلى الحد الأقصى بين أعضاء القيادة، ومفهوماً لينينياً ستالينياً واحداً عن الحزب ودوره.

وهكذا، كنت حين أعلن موافقتي، بلا اقتناع تام، لا أستطيع المساهمة في تنفيذ خطة الحزب على وجه صحيح. فكنت عملياً أخدع القيادة والحزب.

أيها الرفاق! هذه أهم الأخطاء والانحرافات، وليست كلها. ومن ذلك يتبين، أنها أشياء عميقة، كما قال الرفاق في اجتماعات اللجنة المركزية، أشياء لا يمكن الاستهانة بها. فقد كان هناك فعلاً، في القيادة، مفهومان للحزب ودوره، وخطتان في سياسته وتنظيمه. مفهوم لينيني ستاليني يمثله الرفيق خالد بكداش، ومفهوم اشتراكي ديمقراطي أمثله أنا. خطة ثورية يمثلها خالد وخطة انتهازية أمثلها أنا.

وحين أرجع بالذاكرة إلى تلك «المشاهد» التي كانت تجري في القيادة المركزية بسببي، حتى اتهمت القيادة المركزية مرة «بالتغرض»، وحين أتذكر كم كنت أكابر على الانتقاد، وكم كنت أعاند في الاعتراف بالخطأ، وحين أتذكر كم مرة وعدت بالإصلاح ولم أصلح، وبالتنفيذ ولم أنفذ، وحين أتذكر أن الانتقادات البلشفية الرفاقية المخلصة الصادقة كانت تدفعني أحياناً إلى اتخاذ موقف الاستقالة الضمنية، بسبب مكابرتي وضيق أفقي وروح البرجوازية الصغيرة، والوقوع تحت تأثير الميول الكوسموبوليتية، حين أتذكر كل ذلك، أرى كم اتسعت الشقة بيني وبين الحزب، حتى لقد صار هناك اتجاهان في اللجنة المركزية: اتجاه يسير على طريق لينين وستالين بقيادة الرفيق بكداش، واتجاه آخر أسير فيه على طريق أخرى معاكسة تماماً، طريق الانتهازية والاشتراكية الديمقراطية، طريق كل ما هو معاد لمفهوم الحزب الشيوعي.

وإني أعتقد الآن أن هذا الانتقاد الذاتي الذي أقدمه هنا لا يشمل كل أخطائي، ولا يصل إلى كل أعماقها، ولكنه، في كل حال، يمس جذوراً أساسية منها. وسأتابع الكشف عن أخطائي في ضوء الانتقادات الموجهة لي، وفي ضوء العمل، وبمساعدة الحزب، وأعضاء القيادة المركزية، وعلى رأسهم الرفيق خالد بكداش.

وإني لأعرف أن بين الانتقاد والاعتراف بالخطأ من جهة، وبين إصلاح الأخطاء من جهة ثانية، مسافة شاسعة. فالانتقاد الذاتي، حتى لو بلغ درجة عالية من الكمال، لا يمثل سوى فتح مجال الأمل بالإصلاح.

أيها الرفاق، يجب أن أقول أيضاً، قبل الختام، إني حين أعود الآن، إلى التعمق في أسباب انزلاقي إلى مواقف الانتهازية، وفقدان مفهوم الحزب الثوري والأهداف الثورية، وحين أتعمق خصوصاً في بحث مسألة عجزي عن التخلص من هذه الأخطاء وعن إصلاحها، ووقوعي تحت تأثير الميول الكوسموبوليتية إلى ذاك الحد، أرى بوضوح أن هناك عاملاً لعب دوراً كبيراً في ذلك، هو إهمالي الثقافة النظرية الماركسية اللينينية، إهمالاً يكاد يكون تاماً. وقد تحققت من ذلك أثناء مطالعاتي الأخيرة لمؤلف ستالين «مبادىء اللينينية»، بعد اجتماع اللجنة المركزية. فإن هذه المطالعات، بعد الانتقادات التي وجهت لي، قد ساعدت في فتح عيوني، وفي إبراز أخطائي أمامي بصورة أكثر جلاء ووضوحاً.

إن وضع قضيتي في اللجنة المركزية وأمام الحزب عملية ضرورية لتخليص الحزب من العيوب التي أورثتُهُ إياها، ولاستئصال أخطائي وانحرافاتي ونتائجها وآثارها، بل أقول لاستئصال «مدرستي» من الحزب استئصالاً تاماً وسريعاً. فذلك هو الشرط الضروري لتمكين الحزب من تنفيذ الاتجاه المرسوم في تقرير الرفيق خالد بكداش، الاتجاه الذي سميناه انقلاباً، لأجل النضال لجعل حزبنا فعلاً حزب العمال والفلاحين القادر على النضال بنجاح في سبيل السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية.

وإني أرى أن خير مساهمة يمكن أن أقوم بها، في نضال الحزب، في هذا الباب، هي متابعة البحث والدرس والتعميق في كشف أخطائي والنضال للتعجيل في إصلاحها والخلاص منها.

وأعلن استعدادي للعمل والنضال بدون توفير أية قوة من قواي، في سبيل التعويض عن بعض ما ارتكبت. لقد كنت وسأبقى أبداً جندياً من جيش الحركة الشيوعية العظيم، جندياً من جنود الحزب الشيوعي في سورية ولبنان، حزبنا الذي ليس أشرف وأنبل من الانتماء إليه ومن مهمة النضال تحت لوائه، في خدمة قضية الشعب، قضية السلم والاستقلال الوطني وخبز الشعب، قضية الحرية والاشتراكية.

حزيران ١٩٥١

سالم

الفصل الثالث عشر

حركة السلام في سورية وفي العالم

في عام ١٩٤٩ عقد المؤتمر الأول لقوى السلام في العالم، في باريس وبراغ بوقت واحد. وفي عام ١٩٥٠ عقد المؤتمر العالمي الثاني للمدافعين عن السلام في العاصمة البولونية وارسو. وشاركت في المؤتمر وفود تمثل ١٤١ بلداً، وأعلن في هذا المؤتمر عن تأسيس مجلس السلام العالمي.

ولم يكن نشوء حركة السلام العالمية، تعبيراً عن إرادة عدد من الناس، من مختلف زوايا الأرض، الذين يرفضون الحرب كوسيلة لحل الخلافات الدولية فقط، بل كانت تعبيراً عن تحرك الضمير الإنساني وارتقائه إلى مرتبة المسؤولية الكاملة بضرورة تحريم صنع السلاح الذري والنووي أو استخدامه، ومنع الإمبريالية الأمريكية المغامرة، عدوة الشعوب، من أن تدفع البشرية إلى حرب عالمية ثالثة، حرب إبادة، تكون القنابل الذرية سلاحها الرهيب، خاصة بعد أن أرهبت الولايات المتحدة العالم، عندما استخدمت هذا السلاح المرعب في حربها ضد اليابان وألقت أولى القنابل الذرية على هيروشيما ثم على ناغازاكي، وذهب ضحيتها مئات ألوف القتلى والمشوهين.

ومن الطبيعي أن يكون الشيوعيون أول المدافعين عن السلام، وأول المؤيدين لقيام هذه الحركة ومدها بكل أسباب القوة والاستمرار، والعمل على تكوين لجان وطنية للسلم في كل بلد وحيثما أمكن.

وهكذا نشأت في سورية حركة جماهيرية شعبية واسعة، ضمت إلى جانب الشيوعيين، قوى سياسية مختلفة العقائد، ورجال دين مختلفين، ومثقفين وأساتذة جامعات، وعمال وفلاحين ونساء وطلاب،حملت اسم المجلس الوطني لأنصار السلام في سورية ومقره في العاصمة دمشق وكانت له فروع في مختلف المحافظات السورية.

وقد ضم المجلس الوطني في أولى نشاطاته الدكتور مصطفى أمين، الفنان سعيد تحسين، الدكتور نظيم الموصلي، السيد أحمد أباظة،المربية فلك طرزي، المهندس مراد

القوتلي، الأستاذ سعد الكواكبي، وغيرهم. وتدريجياً بدأت تنضم إليه شخصيات سياسية وطنية وفعاليات ثقافية وأدبية، ومنها الأستاذ عبد الغني قنوت وعلي عدي وأحمد عبد الكريم وسهيل الغزي وفتح الله علوش.

في تشرين الأول عام ١٩٥٠ عقد في دمشق أول مؤتمر لأنصار السلام في سورية. وعقد في وضح النهار في باحة مقهى الكمال الصيفي، شارع ٢٩ أيار، وقصدته وفود من جميع المحافظات السورية. وكان المشتركون من اتجاهات سياسية مختلفة، ولكن بأكثرية للشيوعيين وأصدقائهم. وقبيل انتهاء المؤتمر داهمته الشرطة بأعداد كبيرة وجرت معركة حامية بين بعض المشتركين ورجال الشرطة ساهمت فيها أعداد من الفتيات اللواتي رمين بأنفسهن أمام سيارات الشرطة لمنع نقل المعتقلين. وتم ذلك بناء على قانون المجلس العدلي الذي كان قائماً آنذاك. وأثناء وجود الموقوفين في سجن القلعة ألغي المجلس العدلي، وأحيلوا إلى المحاكم العادية، وكانت المحاكمة منبراً للدفاع عن السلم والحرية والديمقراطية. ولم يبق الموقوفون طويلاً في السجن إذ صدر عفو عام شملهم جميعاً.

وفي عام ١٩٥٢ عقد مؤتمر ثان في أحد بيوت دمشق، حضره عدد من الوفود السورية، وتليت فيه تقارير متنوعة وتلقّى برقيات تأييد من العديد من منظمات السلم العربية والأوربية.

كانت أبرز حملة نظمها المجلس الوطني لأنصار السلام في سورية، هي حملة التواقيع على نداء استوكهولم. فقد أقرت دورة اللجنة الدائمة للمؤتمر العالمي لأنصار السلام في ١٩ آذار ١٩٥٠ نداء لمنع استخدام السلاح النووي. جاء فيه:

«إننا نطالب بالمنع غير المشروط للسلاح النووي بوصفه سلاح إرهاب وإبادة جماعية للناس، ونطالب بإيجاد رقابة دولية صارمة على تنفيذ هذا القرار.

إننا نعتبر الحكومة التي تكون أول من يستخدم السلاح النووي ضد أي بلد كان تقترف جريمة بحق البشرية، ويجب النظر إليها بوصفها مجرم حرب.

إننا ندعو كل الناس ذوي الإرادة الطيبة في كل العالم أن تتبنى هذا النداء».

وقد جمع على هذا النداء في مختلف أنحاء العالم أكثر من مليار ونصف مليار توقيع. وجمع في سورية أكثر من ستمئة ألف توقيع. ويشكل هذا الرقم دلالة صارخة. إذ إنه يشكل نسبة كبيرة من سكان سورية البالغين، في ذلك الزمن الذي كان فيه مجموع سكان سورية نحو أربعة ملايين.

لقد كانت حملة جمع التواقيع على هذا النداء من أوسع وأكبر الحملات الجماهيرية التي جرت في البلاد . وشملت مئات اللجان من مختلف المدن السورية في الريف والمدينة، بين النساء والرجال، الشيوخ والشباب، وكانت هذه اللجان تجوب القرى السورية واحدة إثر أخرى، وتدق أبواب البيوت في الأحياء، وتدعو سكان كل بيت رجالاً ونساء للتوقيع على النداء، وزارت المعامل ودخلت المدارس والجامعة، وانتشرت في الأسواق وبين التجار وأصحاب الدكاكين الصغيرة، وذهبت إلى المساجد والكنائس وإلى دور العبادة حيثما وجدت، ونشطت اللجان بين الكتاب والأدباء ورجال الثقافة والعلم.

وبمثل هذا العمل الجماهيري الرائع الذي ساهم فيه ألوف المشاركين، أمكن إيصال هذا النداء إلى أعمق مناطق سورية وإلى أوسع فئات الشعب. وإلى جانب التواقيع الشعبية، فقد وقع النداء شخصيات سياسية ورجال دين ومثقفون كبار. وكان بين الموقعين في ذلك الحين أربعون عضواً من أعضاء المجلس النيابي، بينهم رشدي الكيخيا زعيم حزب الشعب آنذاك ومعروف الدواليبي، رئيس مجلس الوزراء. والشيخ مصطفى السباعي المرشد العام للإخوان المسلمين ورهط كبير من قادة هذه الحركة. ووقع النداء البطريرك طحان بطريرك أنطاكية والمشرق لطائفة الروم الأرثوذكس، والشيخ محمد الحكيم مفتي حلب، والشيخ محمد الأشمر والشيخ صلاح الزعيم وعدد كبير من رجال الدين.

لقد تمت هذه الحملة الجماهيرية الواسعة في ظروف صعبة، وكانت سلطات النظام العسكري تلاحق هذه الحملة وتعمل جاهدة لعرقلتها . وكان من أشد هذه الملاحقات قساوة ما جرى في مدينة حمص، عندما اجتمع عدد كبير من أنصار السلام من مختلف المناطق السورية في إحدى الضواحي على أكتاف نهر العاصي وطوقهم رجال الدرك، وساقوهم عقاباً لهم، مشياً على الأقدام حتى قرية حسياء، أي مايقارب أربعين كيلومتراً، إضافة إلى الاعتقالات الفردية هنا وهناك، وكان المعتقلون يحالون إلى المحاكم فيبرّؤون، لأنه ليس هناك أي جرم ارتكبوه.

طلبت السلطات من المعتقلين دفع أجور نقلهم إلى دمشق، ورفض المعتقلون ذلك، مما أدى إلى اتخاذ قرار بنقلهم مشياً على الأقدام. وكبلوا أيديهم بالحديد وبدؤوا سيرهم نحو دمشق، وكان في مقدمتهم الرفيق واصل الفيصل مسؤول الاحتفال. وقد حول هؤلاء المعتقلون مسيرتهم على الأقدام من حمص إلى حسياء إلى تظاهرة شعبية، وكانوا يوقفون السيارات والشاحنات ويهتفون للسلام وضد الحرب. الأمر الذي أقلق السلطات، فأوقفت مسيرتهم عند حسياء ونقلتهم بالسيارات.

لقد مرت على حركة السلام السورية ظروف شتى، تختلف باختلاف الأنظمة والأوضاع، وتتأثر بوضع الحزب الشيوعي السوري، وما تحيط به من تضييقات تصل إلى حدود الملاحقة اليومية وتسليط مختلف أشكال الإرهاب عليه. ولذلك ازدهرت هذه المنظمة وازدهر نشاطها في سنوات الخمسينيات. ففي عام ١٩٥٣ قام الشيخ محمد الأشمر أحد قادة ثورة الـ ٢٥، بزيارة إلى موسكو في طريقه إلى بكين لحضور اجتماع التضامن الآسيوي، كممثل لحركة السلام السورية، ورافقتُهُ في هذه الزيارة. ولم يكن اسمي العلني يوسف الفيصل هو المتداول آنذاك، بسبب ظروف الحكم العسكري في سورية، بل كنت أحمل اسم محمد الكسار. وبه رافقت الشيخ الأشمر، وما تزال هذه الزيارة حية في ذاكرتي. فقد كانت تلك أول زيارة لي إلى موسكو. أنا الشيوعي الشاب المتحمس المتشوق إلى رؤية عاصمة الاشتراكية وأهلها. وقد وصلنا ليلاً إلى موسكو ونزلنا في فندق ناسيونال، وهو فندق يطل من ناحية على ساحة مانيج قرب الساحة الحمراء، وعلى شارع غوركي من الناحية الثانية. واستيقظت باكراً لأتعرف إلى الشعب السوفييتي للمرة الأولى. وفتحت النافذة في الثامنة وإذا الشارع مقفر لاحركة فيه. وفكرت بأن الوقت مازال مبكّراً. ثم عدت في التاسعة، وبعدها في العاشرة، والوضع كما هو، وفي الحادية عشرة دبت الحركة وامتلأت الشوارع بالناس. واستغربت هذا الوضع ولم أجد له تفسيراً. وسألت المرافقين، فكان الجواب بكل بساطة أن العمل يبدأ صباحاً في الساعة الحادية عشرة، وينتهي ليلاً الساعة الحادية عشرة! وتساءلت حول أسباب مثل هذا الإجراء في أوقات العمل، خاصة أنها مغايرة لكل مثيلاتها في مختلف دول العالم، إذ يبدأ العمل في الثامنة صباحاً وينتهي في الخامسة مساء... وكان الجواب، أن الرفيق ستالين يعمل ليلاً ويحب هذا النوع من العمل، ولذلك كان على جميع دوائر الدولة أن تبقى ساهرة لكي تلبي أي طلب يمكن أن يطلبه الرفيق ستالين، وأن تتوافق كل أجهزة الدولة مع طبيعة عمل ستالين!... وكان هذا أول ما صادفني من غرائب في رحلتي.

تابعنا رحلتنا إلى الصين، وكان في عداد الوفود المسافرة على الطائرة لحضور مؤتمر التضامن الآسيوي، مندوب من إسرائيل. وكان علي أن أكون يقظاً طوال الرحلة، لكي لا يقوم هذا المندوب بأية محاولة للتحدث مع الشيخ الأشمر.

وصلنا إلى بكين واستُقبلنا استقبالاً حافلاً، واتخذ الرفاق الصينيون جميع الترتيبات لكي يؤمنوا للشيخ الأشمر الراحة الكاملة، ويؤمنوا له قيامه بالصلوات الخمس يومياً باطمئنان. ورافقنا في ذلك الحين السيد برهان شهيد أحد القادة المسلمين من منطقة الأوغور (سينكيانغ).

وبعد انتهاء الاحتفالات عرض علي زيارة شنغهاي، وكان عليّ العودة سريعاً، لأن زوجتي كوثر، كانت حاملاً وفي شهرها الأخير، ولم أرد البقاء بعيداً عنها في مثل هذه الظروف. وتولى مهمة مرافقة الشيخ الأشمر الشاعر العراقي كاظم السماوي.

ولابد من ذكر طُرفة أخرى بهذه المناسبة. فقد استقبلت الشيخ الأشمر في براغ ورافقته في السفر باسمي المتداول أحمد الكسار. وخلال إقامته في الفندق في براغ، كنت أذهب إلى عملي وتتولى كوثر مرافقته لمساعدته في الترجمة، وتعرف عليها كواحدة من آل رحمون، ومن نفس العائلة التي تسكن في الميدان وتربطه صداقات مع بعض وجهائها مثل السيدين هاشم رحمون وصادق رحمون، وكان سعيداً بذلك. ولدى عودته إلى دمشق أتت وفود كثيرة لتهنئته بالعودة، كان بينها وفد من آل رحمون وعلى رأسهم هاشم. ورحب بهم وأبلغهم أنه تعرف على قريبتهم كوثر رحمون وعلى زوجها أحمد الكسار. واستغرب هؤلاء، فهم يعرفون أن زوجها هو يوسف الفيصل، الأمر الذي خلق إشكالاً. وترك انطباعاً سيئاً لدى الشيخ الأشمر، إلى أن تيسر لأحد الأصدقاء، وأعتقد أنه الدكتور نصوح الغفري، أن يشرح الموضوع للشيخ الأشمر، وأن دواعي سياسية فرضت تغيير الأسماء. ولكن ذلك لم يحل الأمر، وبقي في ذاكرة الشيخ حتى عودتي إلى دمشق، وقمت بزيارته لأطمئن على صحته... وبادرني بالعتاب! لماذا كذبت علي وأوقعتني في ورطة مع أصدقائي، ألا تثق بي أنا المجاهد الصادق وتعلمني عن اسمك الحقيقي... واعتذرت له وطلبت صفحه وأغلق الموضوع!

في آذار ١٩٥٦ قدم إلى دمشق وفد من مجلس السلام السوفييتي برئاسة الكاتب المعروف تيخونوف، وعضوية الشيخ ضياء الدين بورخان والمستشرق تشيريتيلي، يحمل جائزة ستالين للسلام المقدمة إلى الشيخ محمد الأشمر. وجرى بهذه المناسبة احتفال شعبي كبير في صالة سينما الفردوس، حضره عدد من كبار الشخصيات السياسية، كنائب رئيس المجلس النيابي رفيق بشور، والوزيران علي بوظو وأسعد هارون، وعدد كبير من النواب بينهم الشيخ معروف الدواليبي وراتب الحسامي وصالح عقيل. وحضرت وفود من لبنان والأردن. وتكلم في الاحتفال الدكتور نظيم الموصلي والشيخ ضياء الدين بورخان والدكتور نبيه رشيدات والدكتور جورج حنا والكاتب تيخونوف والأكاديمي تسيريتلي، وأخيراً الشيخ محمد الأشمر. وانتهى الاحتفال بتظاهرة شعبية سارت مع الشيخ الأشمر حتى حي الميدان.

رحم الله هذا الشيخ الجليل، الذي كان مناضلاً عنيداً ضد قوات الاحتلال أيام ثورة الـ ٢٥، التي كان أحد قادتها البارزين، والذي كان مؤمناً وصادقاً. وكان من أكبر وجهاء حي الميدان بل أحد أبرز شخصيات دمشق وسورية. وقد أقامت السلطات

السورية نصباً تذكارياً في حي الميدان لتخليد اسمه ودوره، وتعرف الساحة التي يقوم فيها هذا النصب بساحة الأشمر. وقد دمج نضاله الوطني، بنضاله من أجل السلام وضد الحرب، وكان يعبر في ذلك عن روح وطنية صادقة.

لقد بذلت حركات السلم العربية، وخاصة السورية واللبنانية والمصرية والعراقية منذ الخمسينيات جهوداً كبيرة في الميدان الدولي وفي التأثير على الرأي العام العالمي وفضح سياسة إسرائيل العدوانية ومن أجل كسب الرأي العام العالمي لصالح القضايا القومية العربية.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية كان الرأي العام العالمي، وحتى التقدمي، متعاطفاً مع إسرائيل كدولة ديمقراطية وسط محيط عربي متخلف ورجعي، خاصة أن الدعاية الصهيونية استغلت ماحل باليهود على أيدي النازيين. وقد واجهت مجالس السلم العربية بشجاعة واستمرارية هذه الصورة المزيفة للواقع أمام الرأي العام العالمي.

ولابد أن نقّيم عالياً الدور الذي لعبته بعض الشخصيات العربية الناشطة في حركات السلام العربية، مثل المهندس أنطون ثابت والدكتور جورج حنا وحسين سجعان من لبنان، وخالد محيي الدين من مصر، وعزيز شريف من العراق. كما لابد أن نقيم عالياً الدور الذي لعبه فلسطينيو عام ١٩٤٨ إذ كان ممثلوهم يساهمون عملياً في فضح الطبيعة العدوانية لإسرائيل، ومن الضروري ذكر الدور الذي لعبه توفيق طوبي في هذا المجال.

وقد ضمت رئاسة مجلس السلام العالمي عدداً من الشخصيات السياسية، منها أنطون ثابت من لبنان، وخالد محيي الدين من مصر، وعزيز شريف من العراق، ومراد القوتلي ومصطفى أمين من سورية.

عمل في مجلس السلام العالمي عدد من الرفاق السوريين على التوالي، كانوا الدينامو المحرك لهذا النشاط. وقد عملتُ في هذا المجلس في سنة ٥٣ - وجزء من الـ ٥٤ في براغ، في قسم العلاقات الدولية، الذي كان يرأسه رفيق إسباني ممن شاركوا في الحرب الأهلية اسمه سلادا. وكان معنا مجموعة رفاق من بولونيا والسويد وفرنسا وإنكلترا والصين. وكان السكرتير العام لمجلس السلام العالمي الشخصية الفرنسية المعروفة جان لافيت، وكان الرئيس هو العالم الفرنسي الكبير جوليو كوري. وكانت مهمتي تعريف أمانة المجلس بجميع النشاطات العربية المعادية للاستعمار وللصهيونية، وتقديم تقارير عن نشاط حركات السلم العربية والاتصال بها ومكاتبتها.

لقد عشت في براغ طوال هذه المدة، وعشقت هذه المدينة، البلدة القديمة بخاصة التي هي أشبه بمتحف حقيقي، وأمضينا حياتنا في غرفتين في فندق اسمه

«اطلانتيك». وكنت أفضل الذهاب مشياً على الأقدام لعملي، لأمتع ناظريَ، يميناً وشمالاً بالتحف المنقوشة على واجهات المنازل وأبوابها. وكان مقر عملنا في بناء حمل اسم قصر شايو، يطل على نهر الفولتافا. وبقيت نحو السنة في مجيئي وذهابي، أنظر إلى الجبل المقابل لمركز عملنا، حيث كان يقام نصب ضخم لستالين، استغرق العمل به عدة سنوات، ثم نسف بين ليلة وضحاها بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي وبداية نهاية الستالينية. وبراغ مدينة للفن والموسيقا، لا يمل المرء من التمتع بجمالها الآخاذ. وفي هذه المدينة رزقت بأول أولادي خالد الفيصل «خلدون»، في مستشفى بودولي في ٢٦ آذار ١٩٥٣.

وأتى بعدي لهذه المهمة الرفيق موريس صليبي، وفي ذلك الوقت نُقلَ مقر المجلس إلى فيينا، كما تحول مركز الأمانة من أوربا إلى آسيا، وأصبح روميش شاندرا الهندي رئيساً لمجلس السلام العالمي.

ثم أتى بعد ذلك الرفيق فاروج سلاطيان، الذي عمل فترة طويلة في عاصمة فنلندا وكانت له مساهمات بارزة في تنشيط حركات السلم العربية، وفي اتخاذ العديد من المبادرات للتضامن مع حركة التحرر العربية ومع النضال الفلسطيني.

لقد نظمت حركة السلام العالمية سلسلة مبادرات لدعم نضال الشعوب العربية، أذكر منها:

- مؤتمر الدفاع عن شعوب الشرق الأوسط والأدنى، كانون الأول ١٩٥٣ بيروت.
- المؤتمر الدولي لدعم الشعوب العربية، نيودلهي ١٠ - ١٤ تشرين الثاني ١٩٦٧. ونتج عن هذا المؤتمر إعلان تشكيل لجنة عالمية لنصرة الشعوب العربية ورأسها في ذلك الحين كرشنا منون، وزير خارجية الهند البارز.
- المؤتمر الثاني لدعم الشعوب العربية ٢٦ - ٢٨ كانون الثاني ١٩٦٩ القاهرة.
- مؤتمر عالمي للبرلمانيين حول النزاع في الشرق الأوسط ٢ - ٥ شباط ١٩٧٠ القاهرة.
- مؤتمر دولي لنصرة الشعوب العربية، روما ١٩٧٢.
- مؤتمر وطني من أجل السلام والعدالة في الشرق الأوسط روما ١٠ - ١١ تموز ١٩٧٥.
- مؤتمر دولي في سبيل حل عادل لمسألة الشرق الأوسط، باريس ١٤ - ١٦ تشرين الأول ١٩٧٧.

ـ مؤتمر عالمي لدعم الشعوب العربية وقضيتها المركزية فلسطين، لشبونة ٢ ـ ٦ تشرين الثاني ١٩٧٩ .

ـ مؤتمر عالمي للتضامن مع سورية والثورة الفلسطينية، دمشق، ٢٢ ـ ٢٥ حزيران ١٩٨٤ .

وقد نظمت زيارات لوفود تضامنية من مجلس السلام العالمي، زارت الرؤساء جمال عبد الناصر، حافظ الأسد، أحمد حسن البكر.

في عام ١٩٦٤ توسع المجلس الوطني للسلام في سورية وأصبح يضم إضافة إلى الأعضاء السابقين كلاً من مصطفى حمدون، فؤاد قدري، نوري حجو الرفاعي، موفق الحفار، وصفي مرتيني، ميلاد شايب، محمد كامل الصالح، رشيد بارودي، ياسين شكر. وكان أمين سر المجلس الرفيق مراد القوتلي. وبذلك أصبح المجلس ممثلاً لمختلف القوى الوطنية السورية والمثقفين والفنانين.

وفي نهاية الستينيات توسعت الحركة وأصبح تعاونها مع حزب البعث العربي الاشتراكي واضحاً . وضمت الحركة شخصيات قيادية بعثية. وبعد قيام الجبهة الوطنية التقدمية في عام ١٩٧٢ ، أصبح تركيب المجلس يعكس الواقع الجبهوي. وضم المكتب التنفيذي عام ١٩٧٤ : يسار عسكري رئيساً، مراد القوتلي نائباً للرئيس، عودة قسيس مسؤول الدعاية والنشر، حسان مريود مسؤول العلاقات الخارجية، درويش الزوني مسؤولاً مالياً، والأعضاء عبد الغني قنوت، أنور حمادة، فيصل سماق، وفيق عرنوس، موريس صليبي. وأصبح بعد ذلك الرفيق جابر بجبوج، عضو القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي، رئيساً لمجلس السلام السوري، وانتخب في دورة مجلس السلم العالمي في صوفيا ٢٧ نيسان ١٩٨٦ ، نائباً لرئيس مجلس السلام العالمي.

أصدر المجلس الوطني لأنصار السلام في أوائل الخمسينيات جريدة أسبوعية تحمل اسم «السلام». وكان الدكتور مصطفى أمين المشرف على تحريرها ، ويساعده الرفيق ممتاز رحمون. وكنت أمثل الصلة بين الحزب وهذه الصحيفة، وأشارك في انتقاء مواضيعها وتحرير مقالاتها . ولكن هذه الصحيفة المتواضعة لم تعمر طويلاً . ولم يصدر منها سوى ستة أعداد ، وأغلقت فيما بعد .

لم يقتصر نشاط حركة السلم العالمية على منع تحريم استخدام السلاح الذري، بل امتد نشاطها إلى ميادين عديدة واسعة. وأبرز هذه النشاطات: حملات التضامن مع الشعوب الإفريقية المناضلة ضد الاحتلال الاستعماري ومن أجل الاستقلال الوطني، والحملات المتتالية والواسعة ضد العدوان الأمريكي على فيتنام التي شملت مختلف

أنحاء العالم، وبضمن ذلك الولايات المتحدة الأمريكية، حملات التضامن مع الشعوب العربية ضد السياسة العدوانية والتوسعية لإسرائيل.

وفيما يلي إحدى وثائق حركة السلم العالمية، تضامناً مع نضال الشعب الفلسطيني والشعوب العربية.

قرار حول الشرق الأوسط، الصادر عن دورة هيئة رئاسة مجلس السلم العالمي المنعقدة في موسكو ٢ ـ ٦ نيسان ١٩٧٠.

لقد ازداد تفاقم الوضع في الشرق الأوسط في الآونة الأخيرة، نتيجة تصعيد إسرائيل أعمالها العدوانية ضد البلاد العربية ودعم الولايات المتحدة المستمر لها.

إن رئاسة مجلس السلام العالمي تحذر الرأي العام العالمي من التطور الخطير للأحداث في الشرق الأوسط الذي يهدد السلم والأمن العالميين ويمكن أن يؤدي إلى انفجار جديد يتعدى حدود المنطقة.

لقد أصبح واضحاً أنه دون دعم الولايات المتحدة، لما استطاعت إسرائيل انتهاج هذه السياسة العدوانية المستمرة. إن الولايات المتحدة تزيد مساعداتها العسكرية والمالية والسياسية لإسرائيل بقصد تنفيذ المخطط الإمبريالي الهادف إلى الإطاحة بالأنظمة التقدمية من أجل إعادة سيطرتها وبسط نفوذها على ثروات المنطقة ولاسيما البترول.

إن المؤامرات الأخيرة ضد لبنان والسودان وقبرص التي جرت في الوقت الذي يتسع فيه العدوان الأمريكي في الهند الصينية، قد أوضحت العلاقة الوثيقة بين مختلف مظاهر تفشي المخطط الشامل للإمبريالية. ومن مظاهر هذا المخطط العلاقات الوثيقة بين إسرائيل وبين ألمانيا الاتحادية والنظام العرقي في إفريقيا الجنوبية، وهي تشكل خطراً على شعوب إفريقيا وعلى شعوب العالم كله.

وبتشجيع من الولايات المتحدة تصعد إسرائيل غاراتها الإجرامية على السكان والأهداف المدنية في الجمهورية العربية المتحدة وسورية والأردن ولبنان. وتقوم إسرائيل بحملات إرهاب وتنكيل وتعذيب واغتيال وهدم المنازل في الأراضي المحتلة. إن هذه الأعمال تثير استنكار الرأي العام العالمي، وقد أدانتها الأمم المتحدة باعتبارها خرقاً للحقوق الدولية ولحقوق الإنسان.

وبرغم الإدانة، أعدت إسرائيل مخطط تهجير ٣٠٠ ألف عربي من قطاع غزة بالقوة ـ وقد بدئ بتنفيذه ـ ، بقصد إلحاق هذا القطاع بإسرائيل. وهذا دليل جديد على عنصرية إسرائيل ونواياها التوسعية وعلى كذب تصريحات حكام إسرائيل السلمية.

إن تعنت إسرائيل في رفض قرارات الهيئة العامة للأمم المتحدة ولمجلس الأمن ونواياها التي أعلنتها على لسان حكامها ووزرائها برفضها الرجوع إلى حدود ما قبل ٥ حزيران ١٩٦٧ وإقامتها المستعمرات وغيرها في الأراضي المحتلة، تضع أمام البلاد العربية وشعوبها مهمة زيادة تنمية قواتها الدفاعية لترد على الغارات الجوية ولتحرر أراضيها المحتلة.

إن البلاد العربية تلقى تفهماً ودعماً من كل أصدقائها وخاصة الاتحاد السوفييتي، وهم يقدمون لها دعماً متزايداً ونزيهاً.

إن رفض إسرائيل المستمر قبول قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن قبل وبعد ٥ حزيران، المتعلقة بفلسطين، تضع أمام الشعب العربي الفلسطيني واجباً مقدساً للنضال في سبيل استرداد حقوقه الوطنية المشروعة، إن المقاومة الفلسطينية التي هي جزء من حركة التحرر العالمية ضد الإمبريالية والاستعمار والصهيونية، تحظى بدعم جميع قوى الاستقلال والسلم.

إن رئاسة مجلس السلم العالمي، تدعو جميع القوى المحبة للسلام والحرية في العالم إلى عمل مشترك في سبيل منع انفجار جديد في الشرق الأوسط، ومن أجل إقامة سلم عادل، وذلك بالعمل على وقف الغارات الجوية وغيرها من الأعمال العسكرية الإسرائيلية ضد السكان والأهداف المدنية.

- وقف الغارات الجوية وغيرها من الأعمال العسكرية الإسرائيلية ضد السكان والأهداف المدنية.
- سحب القوات الإسرائيلية الكامل من جميع الأراضي العربية المحتلة.
- تطبيق جميع قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وخاصة قرار ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧.
- الاعتراف بالحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم وفق قرارات الأمم المتحدة المتكررة.

وحول هذه الأهداف، يمكننا ويجب علينا أن ننظم أكبر تجمع لقوى السلم في أعمال موحدة ومنظمة. إن قطاعات أوسع فأوسع من الرأي العام العالمي في أوربا وفي الولايات المتحدة وحتى في إسرائيل نفسها، يرون أكثر فأكثر، الأخطار الجسيمة التي تلحقها إسرائيل التوسعية والعرقية بسلم الشعوب وأمنها.

إن رئاسة مجلس السلم العالمي تدعو بإلحاح جميع قوى السلام إلى التضامن مع الشعوب العربية، وإلى أن تعمل بقوة ونشاط من أجل العدل والسلم في الشرق الأوسط، وليكون الأسبوع الأول من حزيران، الأسبوع العالمي للتضامن مع نضال الشعوب

العربية، من أجل إزالة آثار العدوان الإسرائيلي، أسبوع نشاط كبير في سبيل تحقيق هذه الأهداف.

إن خطورة الوضع في الشرق الأوسط تتطلب من جميع محبي السلم في العالم كله عملاً فورياً وجهداً خاصاً.

❖❖❖

وكان التضامن مع الشعب الفيتنامي أحد أبرز النشاطات التي قامت بها حركة السلم العالمية، والتي وجدت انعكاساتها في نشاط حركة السلم السورية، وفي نشاطات حركات السلم العربية. وفيما يلي نص بيان صادر عن اللجنة الوطنية لأنصار السلم، يعكس موقف الحركة.

بيان إلى الرأي العام الكريم

في الآونة الأخيرة، جددت الولايات المتحدة الأمريكية، غاراتها الوحشية على أراضي فيتنام الديمقراطية بشكل أشد وأوسع من السابق.

إن هذا العمل ينطوي في الوضع الدولي الراهن على خطورة بالغة الأهمية، فأشد الأوساط الأمريكية الاستعمارية تعطشاً للحرب وكرهاً للشعوب، عادت بعد تظاهرها الخادع بالرغبة في إيجاد صيغة للسلام في فيتنام، إلى استئناف غاراتها العدوانية الآثمة على المدن والقرى والمستشفيات والمدارس وبيوت الأطفال في الفيتنام الديمقراطية، موغلة في مغامرات لا تحدها مسؤولية، وواضعة الإنسانية وحضارتها ومستقبل أبنائها أمام أخطار الدمار النووي المريع.

إن هذه الأوساط الاستعمارية تواصل حشد مئات الألوف من الجيوش الأمريكية والمرتزقة، وتضاعف من أساليب القتل والدمار لإخضاع شعب فيتنام الجنوبية البطل الذي يكافح منذ سنوات عديدة لطرد الجيوش الاستعمارية من أرضه وانتزاع سيادته وحريته. كما تجهد الأوساط العدوانية الأمريكية لزج بلدان أخرى في هذه الحرب القذرة ضد الشعب الفيتنامي البطل. فقد حملت الأنباء العالمية قرار حكومة الفلبين بإرسال جيوشها لمقاتلة شعب فيتنام، وهناك أخبار عن تهيئة الجيوش في ألمانيا الغربية لإرسالها إلى نفس الهدف. وبمعنى آخر فإن الأوساط العدوانية الأمريكية التي استأنفت قصف فيتنام الشمالية وحضرت إلى اجتماع هونولولو، تهدف عملياً إلى توسيع مناطق القتال والخراب في الفيتنام والشرق الأقصى وزج دول حلف السنتو وحلف السياتو والأطلسي في هذه الحرب، بحيث تتحول إلى حرب يشمل لهيبها عدداً كبيراً من بلدان وشعوب العالم وتهدد جدياً بالتحول إلى حرب عالمية.

إن استنكار العدوان الأمريكي لم يعد مقتصراً على التوجه للضمير الإنساني وحسب، وإنما انتقل إلى صعيد التأييد الفعلي الملموس. وبرز ذلك في مؤتمر شعوب القارات الثلاث الذي انعقد في هافانا والذي دفع فيه المؤتمرون قوى الإمبريالية العالمية والاستعمار بشكليهما القديم والجديد، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية عدواً للبشرية جمعاء وعدواً للأمن والسلم وحقوق جميع الشعوب.

ولقد كانت سورية من البلدان العربية التي ساهمت بنشاط في هذا المؤتمر، ووقفت كما يجب أن تقف إلى جانب الحرية ضد قوى البغي والطغيان. كما وقفت سورية العربية في الداخل شعباً وحكومة إلى جانب شعب فيتنام البطل. فقد اتخذت الصحافة والإذاعة أكثر من موقف تأييدي للشعب الفيتنامي، كما أعلن الناطق بلسان وزارة الخارجية السورية.

إن مأساة الشعب الفيتنامي الذي يقصف بالموت والدمار من الأجواء، أضحت مأساة إنسانية، وهي تعيش مع الشعب العربي في سورية في كل بيت، وليس من المقبول أبداً أن يمنع عن الشعب الفيتنامي حقه في تقرير مصيره وحقه كبلد نام متحرر في أن يعيش بسلام، لأن في ذلك تهديداً لكل الشعوب النامية المتحررة الأخرى في كل مكان.

وأضاف البيان:

(وإن حكومة الجمهورية العربية السورية مقتنعة بأنه ليس هناك من حل سوى الحل السلمي الذي يستند إلى التقيد باتفاقية جنيف نصاً وروحاً، وإلى الاعتراف بجبهة التحرير الوطنية كحركة تحرر قومي، وإنها الممثل الشرعي لشعب فيتنام المكافح صاحب الحق في المفاوضة عنه).

(إن استئناف الغارات الجوية على جمهورية فيتنام الديمقراطية، وتقتيل الألوف من العمال وتخريب بيوت الفلاحين، وإبادة الأطفال والنساء، عمل لا يمكن تفسيره إلا بتأصل روح الإجرام واحتقار إرادة الشعوب في حق تقرير مصيرها).

إن لجنة أنصار السلم في سورية التي وقفت دائماً إلى جانب حق الشعب الفيتنامي ضد قوى الغزو والاستعمار، تتوجه من جديد إلى كل قوى الحرية والتقدم والسلام، للوقوف بصلابة وحزم ضد جرائم المستعمرين ومنعهم من تنفيذ خططهم الإجرامية ضد السلام العالمي، ولدعم كفاح شعب الفيتنام البطل الذي صمم على تحرير وطنه مهما غلت التضحيات.

وإن وقف الغارات على الفيتنام الديمقراطية وسحب الجيوش الأمريكية وتطبيق اتفاقيات جنيف والاعتراف بجبهة التحرير الفيتنامية هي أسس حل القضية الفيتنامية وليس توسيع الحرب والعدوان.

إن المستعمرين في سعيهم لتوتير الوضع الدولي، لا يقتصرون على أعمالهم العدوانية في جنوبي شرقي آسيا، وإنما يبذلون مساع محمومة لإلهاب منطقة الشرق الأوسط أيضاً وتحويلها إلى فيتنام ثانية معتمدين على الرجعية والصهيونية وعلى التآمر والأحلاف المشبوهة.

إن المساعي التي تبذلها الرجعية والاستعمار في هذه المنطقة تتجلى في أعمال تكريس الأسلحة في عدد من البلدان العربية كالسعودية والأردن وفي تقديم القواعد العسكرية وخاصة في تركيا والظهران وإيران، والمستعمرون الأمريكيون والإنكليز في نشاطهم لتنسيق جهودهم، وفي دعمهم للمؤامرات والرجعية يهدفون إلى توطيد مواقعهم ومواقع الرجعية العميلة وخنق الحركات التحررية وضرب الاتجاهات التقدمية في المنطقة، ومن أهدافهم الأساسية، إعطاء الفرصة لقاعدة الاستعمار الكبرى في المنطقة (إسرائيل)، كي تتزود بالأسلحة الحديثة والصاروخية، خاصة البرية والجوية، وتوسيع نشاطها في ميادين الأبحاث الذرية الحربية، مما يزيد من طاقاتها الهجومية، ويضخم خطرها على الأمن والسلم في المنطقة بأسرها. وهذا النشاط بأجمعه يؤدي إلى توتير الوضع في الشرقين الأدنى والأوسط.

لقد ظن المستعمرون والحكام الرجعيون، أنهم إذا ما غلفوا تآمرهم تحت اسم الحلف الإسلامي، يصبح بإمكانهم تنفيذ مشاريعهم المشبوهة بسلام ودون مقاومة، إن جماهير الشعب العربي، وكل قوى السلام والحرية تشعر بخطر هذه الأحلاف المفضوحة سلفاً وتستنكرها، وهي مصممة على مقاومتها وإحباطها. وأنصار السلم في سورية الذين يرون في هذه المشاريع تهديداً للسلم والأمن يدعون إلى تضافر جهود جميع محبي السلام والحرية لشل أيدي المستعمرين والرجعيين سد الطريق أمام أحلافهم المشبوهة. إن هذا النشاط الاستعماري المحموم يمتد إلى مناطق أخرى في العالم أيضاً، فلقد جاءت أخبار إسبانيا تتحدث عن الذعر الذي أحدثه انفجار القنبلة الذرية الأمريكية التي سقطت من إحدى الطائرات. إن هذا الحادث برهان على جرائم المستعمرين الأمريكيين الذين ينقلون القنابل الذرية فوق الأراضي والمدن الآمنة، وينشئون القواعد الذرية في مختلف البلدان، تزداد اتساعاً ويزداد خطرها على السلام والأمن العالميين. وإن انفجار القنبلة الأمريكية في الأراضي الإسبانية يفضح مخططات الأوساط العدوانية الاستعمارية الأمريكية، التي تسعى لزج الشعوب في أتون حرب نووية

مدمرة، وهي نذير لجميع الشعوب ولجميع القوى الخيرة قوى السلم والتقدم والحرية في الدنيا، كي تضاعف من نشاطها وجهودها لشل أيدي دعاة الحرب الأمريكيين وحماية السلام العالمي وتأمين النصر للحرية والتقدم لجميع الشعوب. وإن الشعوب في مختلف بقاع العالم، ترفع صوتها مدوياً ضد العدوان الأمريكي على الفيتنام وتطالب بتحريم الأسلحة النووية وإتلاف المخزون منها ووسائل نقلها. ولجنة أنصار السلم السورية، تهيب بجميع الشرفاء في الوطن العربي لرص صفوفهم من أجل وقف العدوان الأمريكي على فيتنام، شمالها وجنوبها وسحب الجيوش المعتدية فوراً من الأراضي الفيتنامية والاستجابة للنقاط الأربعة التي قدمتها جبهة التحرير الوطنية لفيتنام وفضح الأحلاف الجديدة المشبوهة في منطقة الشرق الأوسط وإحباطها، وخاصة ما يسمى بالحلف الإسلامي والإسلام منه براء، وتحريم جميع أنواع الأسلحة الذرية وتجاربها ووسائل نقلها وصنعها. وإننا على ثقة بأن قوى السلام والحرية لديها كل الطاقات والإمكانات لصيانة السلام وإحباط مؤامرات المستعمرين أنصار الحروب.

اللجنة الوطنية لأنصار السلم في سورية

في ١٨ ـ ١٩ تشرين الأول ١٩٦٩ جرى اجتماع للجان السلم العربية في الخرطوم. حضره وفد من مجلس السلام العالمي ضم خالد محيي الدين (الجمهورية العربية المتحدة)، مستر دامانتانج (غينيا) متغييف (الاتحاد السوفييتي) فاروج سلاطيان (سورية)، مستر فاريلا (الأرجنتين)، مستر فالنسي (إيطاليا). رولتان كالدي (المجر). وتمثلت اللجان العربية بـ: عبد الله باذيب (اليمن الشعبية)، ناجي علوش (فلسطين). د. إسماعيل عبد الرحمن (فلسطين)، وإبراهيم الحاج (لبنان)، سعيد قبال ج.ع.م، رفعت السعيد (ج.ع.م)، د. عبد الرحيم عجينة (العراق) غانم عبد الجليل (العراق)، يسن شكر (سورية) نوري الرفاعي (سورية) فوزي الثوم، حسان محمد الأمين، خديجة صفوت، د. سليم عيسى (السودان). وصدر عن هذا الاجتماع: نداء إلى الرأي العام العالمي. ونداء إلى الرأي العام العربي وتوصيات حول: المؤتمر الثالث لنصرة الشعوب العربية، والمركز الدولي للإعلام في القاهرة ومؤتمر البرلمانيين الدولي ومؤتمر القانونين الدولي، وأسبوع التضامن العالمي مع الشعوب العربية. وكشف دور الولايات المتحدة في العدوان. وبيان بمناسبة العيد العشرين لحركة السلم العالمية، وبرقية عاجلة إلى السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة باستنكار رفض إسرائيل لتنفيذ قرار مجلس الأمن بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ القاضي بانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها بعدوان حزيران ١٩٦٧، برقية إلى مجلس قيادة الثورة السوداني ومجلس

وزراء حكومة السودان الديمقراطية، برقية إلى منظمة التحرير الفلسطينية عمّان، بيان بخصوص الموقف على الحدود الإيرانية - العراقية، برقية إلى حركات التحرر الإفريقية، برقية إلى: الحكومة الثورية المؤقتة لجمهورية فيتنام الديمقراطية.

❖❖❖

لقد عاشت هذه الحركة في العالم وفي سورية وفي عدد من البلدان العربية، مرحلة نشاط واسع ومزدهر، طوال نحو أربعين عاماً وخاضت نشاطات شعبية ورسمية واسعة، ونظمت حملات ضد الحرب الذرية وتضامناً مع الشعوب العربية والإفريقية ومع الشعب الفيتنامي، وخاضت نضالاً متفانياً، من أجل حق الشعب العربي الفلسطيني، في إقامة دولته الوطنية المستقلة ووقف أعمال العدوان الإسرائيلي على الشعوب العربية. وبرز في صفوفها شخصيات عالمية، ناضلت بتفان من أجل السلام وحق الشعوب في الحرية والاستقلال، ومن أبرزهم: جوليو كوري، البروفسور جون برنال، روميش تشاندرا، ألكسندر كورينتشوك، بابلو نيرودا، الجنرال كارديناس، رئيس جمهورية المكسيك، إيليا اهرنبورغ وتيخونوف وخالد محيي الدين وأنطوان ثابت وعزيز شريف. وكان من أبرز المناضلين العرب السوريين في هذه الحركة الرفيقان مراد القوتلي ود. مصطفى أمين. ومع الزمن تقلص نشاطها وبدأ يخف تدريجياً، إلى أن انطفأ إشعاع هذه الحركة في نهاية الثمانينيات.



الفصل الرابع عشر

سقوط أديب الشيشكلي وعودة الحياة الدستورية

اتسعت موجة الاستياء الشعبي في أواخر عهد الشيشكلي، فإلى جانب مؤتمر حمص الذي أتينا على ذكره، نشأت حركة تمرد شعبية مسلحة في جبل العرب قادها سلطان الأطرش. ووجه أديب الشيشكلي حملة عسكرية كبيرة بقيادة الزعيم رسمي القدسي لقمع هذه الحركة، وتمكنت بعد محاصرة بلدة «القريا» ومتابعة المتمردين من خنق الحركة.

وترافقت هذه الأحداث بحملة شائعات واسعة عن الفساد المستشري والاعتقالات ومختلف الموبقات وصالات القمار والنساء والمخدرات. واتسعت الاعتقالات للشخصيات السياسية ولأفراد من عامة الشعب. وشكل هذا الاستياء الشعبي الواسع، أرضية لتحرك عسكري جديد، وبدأت الاتصالات بين ضباط حلب ودير الزور وحمص واللاذقية والجزيرة. وفي صباح ١٩٥٤/٢/٢٥ قام مصطفى حمدون، وهو من حزب البعث العربي الاشتراكي، باحتلال قيادة موقع حلب واعتقل قائد الموقع الزعيم عمر خان تمر، وقام ضباط آخرون باحتلال مبنى الإذاعة ومبنى الهاتف، وتمت السيطرة على الشرطة المدنية، واعتقل جميع الموظفين الإداريين كالمحافظ ورئيس حركة التحرير وغيرهم.

وأذيع من إذاعة حلب بيانان:

بيان عسكري جاء فيه:

إخواننا في السلاح مواطنينا الأعزاء!

ليس هذا ببلاغ بل هو اعتراف وعهد ونداء،

اعتراف بما آل إليه وضع الجيش والبلاد على أيدي فئة من ذوي النفوس الشريرة استغلت نياته الحسنة في سبيل مآربها الشخصية، فلوثت بذلك سمعته وأخرجته من تقاليده النبيلة القائمة على التضحية والفداء وكادت تحكم بينه وبين الأمة العداء.

وعهد أن نغسل ما لحق به من عار ونعيد إليه مناقبه ومزاياه، وأن نعود إلى الثكنات عسكريين مخلصين لا دخل لنا في إدارة دفة الحكم في البلاد.

ونداء إلى الرفاق في السلاح من سائر مناطق البلاد أن يحذوا حذونا في هذا الشأن وأن يساهموا معنا في إعادة الأمور إلى النصاب.

وتحقيقاً لهذا الهدف النبيل تعلن المناطق العسكرية الشمالية والشرقية والغربية انفصالها عن دمشق ما دام حكم الزعيم أديب الشيشكلي مفروضاً عليها، وهي تناشده أن يغادر البلاد حقناً للدماء لكي تعود الطمأنينة إلى النفوس ويرفرف السلام والرفاه على هذا الجزء من الوطن العربي الذي نفديه جميعاً بالأرواح.*

قائد المنطقة الغربية، قائد المنطقة الشمالية، قائد المنطقة الشرقية

وبيان مدني جاء فيه:

إننا نعلن باسم جميع أبناء الشعب مدنيين وعسكريين في حمص وحماة وحلب ودير الزور واللاذقية والجزيرة، أن الشيشكلي معتدٍ وغاصب وأنه لا يتمتع بأية مشروعية، وأنه يجب أن يتخلى فوراً عن السلطة ليحول دون وقوع كارثة قومية في البلاد، وإننا ندعو رفاق السلاح من ضباط وجنود أن يقفوا صفاً واحداً لإعلاء إرادة الشعب.

إن حركتنا تستهدف تحقيق رغبة الشعب الجماعية في إنهاء عهد الشيشكلي الأسود، ودعوة الشعب لممارسة سيادته ممارسة حرة مطلقة، وإقامة نظام الحكم الجمهوري الشعبي ودعوة الجيش إلى مهمته المقدسة في الحفاظ على الوطن والسهر على الحدود**

وتحت تأثير هذه الحركة وامتداداتها قرر أديب الشيشكلي أن يستقيل من رئاسة الجمهورية ويغادر البلاد. وكتب نص الاستقالة التالية، وسلمها إلى الزعيم شوكت شقير مساعد رئيس الأركان.

«حقناً لدماء الشعب الذي أحبه، والجيش الذي أفتديه، والوطن الذي أردت أن أخدمه بتجرد وإخلاص، أقدم استقالتي من رئاسة الجمهورية السورية إلى الشعب

---

* ــ بشير فنصه التكتيكات والمغامرات ص ٣٢٠.

** ــ حسين الحكيم: لعنة الانقلابات ص ١٦١.

السوري العزيز الذي انتخبني ومنحني ثقته الغالية، راجياً أن يكون ذلك خدمة لبلادي وأن يحقق وحدتها ومنعتها ويأخذ بيدها في قمة المجد والرفعة».

حاول الضباط الموالون لأديب الشيشكلي منعه من الوصول إلى لبنان ولم ينجحوا، كما حاولوا مقاومة الحركة الانقلابية، والإجهاز عليها بسلاح المظليين والطيران، ولكن قوى المظليين التي أرسلت هبطت في مطار النيرب وانضمت إلى الانقلابيين، مما أعطى الحركة دفعاً قوياً جديداً.

وأصر الضابطان عبد الحق شحادة وحسين حدة على استمرار الوضع وأعلنا تنصيب مأمون الكزبري رئيساً للجمهورية. ولكن الجماهير الشعبية ردت على هذا التدبير بتظاهرات شعبية عارمة، خرجت في شوارع دمشق وحلب، الأمر الذي أعطى حركة العسكريين في محافظات الشمال صفة شعبية واسعة، وأحيطت بالتفاف شعبي وتضامن سياسي واسع.

واستطاع الزعيم شوكت شقير مساعد رئيس الأركان تهدئة الأجواء في دمشق ومنع صدام العسكريين بعضهم ببعض وحقن الدماء، وأدى ذلك إلى وحدة في الموقف وإنهاء حكم الشيشكلي نهائياً.

قررت الأحزاب التي اجتمعت في حمص العودة إلى دستور عام ١٩٥٠ وإعادة هاشم الأتاسي إلى رئاسة الجمهورية. وفي ١٩٥٤/٣/١ تسلم الأتاسي رسمياً منصب رئاسة الجمهورية، وكلف صبري العسلي بتشكيل حكومة جديدة بعد أن قدم الدكتور معروف الدواليبي استقالة حكومته. وقد تشكلت الحكومة من ممثلي الحزبين الأساسيين في ذلك الحين، حزب الشعب والحزب الوطني. وبقي مجلس النواب الذي حله الشيشكلي مبعداً. ونشأ نقاش دستوري حول موضوع عودة مجلس النواب إلى الانعقاد، انطلاقاً من مبدأ عودة الحياة الدستورية فما دام رئيس الجمهورية قد عاد إلى مركزه، فمن الضروري عودة مجلس النواب. ولعبت المصالح الحزبية دورها في اتخاذ القرار. وكان الحزب الوطني متحفظاً على عودة المجلس بسبب أن أكثريته هي من حزب الشعب، وخوفاً من استمراره طويلاً إذا عاد.

وبعد مباحثات طويلة ومطالب قدمها الحزب الوطني دعي المجلس إلى الانعقاد، على أساس شروط، من أبرزها تنظيم انتخابات جديدة، وتحديد موعد الانتخابات مسبقاً وإقرارها، قبل اجتماع المجلس.

وهكذا عادت السلطة السابقة بكل مكوناتها وبدأت تمارس أعمالها، وكان من أوائل التدابير التي اتخذتها تسريح مديري الشرطة والأمن العام والإذاعة ورئيس الدائرة

القانونية من رئاسة الجمهورية، وأباحت السفر إلى لبنان، كما سرحت عدداً من أساتذة الجامعة وفي مقدمتهم مأمون الكزبري.

وفي يوم ١٩٥٤/٣/٦ قام مجلس الدفاع العسكري الذي يضم قادة جميع المناطق العسكرية برئاسة رئيس الأركان شوكت شقير، بزيارة رئيس الجمهورية والإعلان عن الانصراف التام للقيام بالواجبات العسكرية بعيداً عن الشؤون السياسية والحزبية، متمنياً أن تلقى هذه الرغبة الصدى المقابل لدى جميع الأوساط السياسية.

ومنذ الأسابيع الأولى بدأت الصراعات، فعند مناقشة منح الثقة لحكومة صبري العسلي، جرت مناقشات حادة، فقد صوت أكرم الحوراني وجلال السيد، النائبان البعثيان ضد منح الثقة للحكومة. ومما قاله أكرم الحوراني خلال النقاش: «إننا نعتبر أن تشكيل هذه الحكومة على هذا الشكل غير مشروع، لأن المشروعية في تشكيل الحكومات بعد الانقلابات تستمد من العناصر المناضلة التي تحملت التضحيات، ولا تستمد المشروعية من استبداد الفئات الأخرى والجحود والنكران».

بدأ التحرك الشعبي ضد الحكومة. وكانت هناك عدة عوامل تدفع بهذا التحرك. فمن جهة تشكلت الحكومة من الحزبين البرجوازيين حزب الشعب والحزب الوطني، واستبعد حزب البعث عن المشاركة، مع أنه لعب دوراً هاماً في إسقاط نظام الشيشكلي. الأمر الذي أثار البعثيين. ومن جهة ثانية بدأ وزير الدفاع معروف الدواليبي بإجراء تبديلات في المواقع العسكرية وإبعاد بعض العسكريين وبضمنهم مصطفى حمدون الذي قاد الحركة العسكرية في حلب، الأمر الذي أثار الريبة والشكوك. وكان هناك عامل آخر هام، وهو أن الجماهير الشعبية، عانت خلال الديكتاتوريات المتعاقبة، وتتطلع إلى الحرية والانعتاق وإلى حلول ديمقراطية وحريات وإلى تحسين أوضاعها الاجتماعية. جميع هذه الوقائع تفسر النهوض الشعبي الذي أخذ يتسع. فقد أقدمت الحكومة على تقديم مشروع لتعديل قانون المطبوعات حمل اسم المرسوم (٥٠)، يبيح التعطيل الإداري، ويفتح الطريق لتسخير الصحافة لمصالح الحكام. وأدى ذلك إلى تأليب الصحافة ضد الوضع، ودفع الصحف إلى كتابة مقالات عديدة ضد الحكم القائم وتتحدث عن أزمة وزارية. وقامت تظاهرات عدة ضد هذا المشروع شارك فيها الطلاب والعمال، وأمت وفود طلابية عديدة مجلس النواب وقدمت لرئيسه ناظم القدسي عرائض احتجاج، ووصلت برقيات احتجاج عديدة من مختلف المدن السورية، وبضمنها مدينة حلب. رفعت في التظاهرات الشعبية والطلابية شعارات مختلفة تطالب بالديمقراطية وبقانون ديمقراطي للانتخاب، وبحكومة حيادية تشرف على الانتخابات.

وذكرت جريدة «النضال». أنها تلقت بيانات ذات طابع واحد، تحمل تواقيع عدد كبير من المثقفين والشباب والطلاب والعمال تتضمن المطالبة باسم الشعب السوري بحكومة وطنية ديمقراطية تقف موقفاً حازماً صريحاً في وجه الاستعمار ومشاريعه وأحلافه الحربية ومساعداته العسكرية، حكومة تطلق الحريات الديمقراطية وتعمل لإجراء انتخابات حرة تكون نتائجها مرآة صادقة لإرادة الشعب السوري. وهذه العرائض هي عملياً عرائض الشيوعيين الذين ساهموا بقسطهم الكبير في هذه الحملة.

وأمام حملة الضغط الشعبية الواسعة أعلن صبري العسلي سحب المشروع.

كان لسقوط أديب الشيشكلي أثره الخارجي أيضاً. فقد قامت فرنسا بدعوة حليفتيها في البيان الثلاثي، الولايات المتحدة وبريطانيا، لعقد اجتماع لإجراء مباحثات سريعة حول ما حصل في سورية. ونشرت صحيفة «النضال» اليومية خبراً يقول: «إن ذهاب أديب الشيشكلي قد أحدث في فرنسا نفس الأثر الذي تركه مقتل حسني الزعيم، على أساس أن الشيشكلي اعتبر متعاوناً مع السياسة الافرنسية في الشرق الأوسط. وكانت جميع الأسلحة التي يستوردها الجيش السوري، يوصى عليها من فرنسا، كما أن بعثات الضباط السوريين، يرسل معظمها إلى فرنسا. وبطبيعة الحال كانت فرنسا مغتبطة جداً إذ تعتبر سورية منطقة من مناطق نفوذها المعنوي في الشرط الأوسط»*.

الحزب الشيوعي السوري يحلل المرحلة الجديدة

أدلى الرفيق خالد بكداش الأمين العام للحزب في ١٢ آذار ١٩٥٤ بحديث إلى جريدة «التلغراف» اللبنانية أوضح فيه موقف الحزب من الحركة العسكرية الجديدة ومستقبل البلاد. وجاء الحديث على شكل أسئلة وأجوبة:

س. ما رأيكم في انهيار ديكتاتورية الشيشكلي؟

ج. إن جميع «الانقلابات» السابقة حدثت بنتيجة اتفاق بين عدد ضيق من الأفراد بمعزل عن الشعب. أما ديكتاتورية الشيشكلي فقد انهارت تحت ضربات حركة شعبية واسعة تم فيها التآخي بين الشعب وبين جماهير الجنود والضباط الشرفاء. ولهذا فانهيار هذه الديكتاتورية ستكون له نتائج غير نتائج الانهيارات السابقة، وكل من يتجاهل ذلك يرتكب خطأً كبيراً ومصيره الإفلاس الأكيد.

* ـــ جريدة «النضال» اليومية لصاحبها سامي كبارة، السنة الأولى العدد ١١، تاريخ ١٢ آذار ١٩٥٤.

إن لشعبنا السوري تقاليد قديمة مجيدة في النضال الوطني والديمقراطي وهو شعب صبور على الشدائد، صعب المراس، وقد أعجز كل مستعمر أراد استعباده، وكل رجعي أو ديكتاتور أراد إذلاله وامتهان كرامته. فالثقة المطلقة بهذا الشعب الأبي كانت دائماً حافزاً عظيماً للشيوعيين ولجميع الوطنيين والديمقراطيين في أقسى المراحل.

وهكذا كان الحزب الشيوعي، كما هو معروف لدى الجميع، دائماً في طليعة النضال ضد الديكتاتورية. بل كثيراً ما بقي في الميدان وحده كقوة سياسية منظمة. ومنذ عهد حسني الزعيم إلى آخر عهد الشيشكلي، دخل السجون أكثر من ألف عضو من أعضائه العمال والفلاحين والطلاب والشباب والمثقفين والنساء في محافظات دمشق وحمص وحماة وحلب والجزيرة واللاذقية. وكثيرون منهم قاسوا في سراديب المزة ومنافي تدمر أفظع أنواع التعذيب الوحشي: من الضرب الشديد والتجويع والأشغال الشاقة، إلى قلع الأظافر وحرق أجزاء من الجسم بالبنزين. ولا يزال في السجن حتى الآن ١٤ فلاحاً من قرية الصقيلبية في ضواحي حماة، حكم عليهم في عهد الشيشكلي حاكم عسكري فرد بالسجن عاماً كاملاً لهتافهم للسلم والاستقلال الوطني، وذلك دون أن يسمح لهم حتى بالدفاع عن أنفسهم أو بتوكيل محامين عنهم. وقضيتهم الآن في محكمة التمييز وجميع الوطنيين والشرفاء في سورية يستغربون بقاءهم حتى الآن في السجن.

س - ما رأيكم في أوضاع سورية بعد انهيار الديكتاتورية؟

ج - إن سورية بحاجة إلى حكومة يؤيدها الشعب وبدون ذلك لا استقرار أبداً. فإن حكماً يؤيده الشعب يستطيع أن يقف في وجه جميع مؤامرات الاستعمار وعملائه. ومهما بذل المستعمرون من جهود وأموال، فهم أعجز من أن يثيروا فتنة جدية أو إحداث انقلابات إذا كان الشعب يؤيد الحكم القائم تأييداً شاملاً قوياً. فالفتن والانقلابات وما إليها ممكنة فقط عندما تكون هناك هوة بين الشعب والحكم القائم.

ومطالب الشعب السوري واضحة وهي: السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية، وما ينبغي أن ينتج عن ذلك من تحسين لأوضاع الشعب الاقتصادية. فكلما كان الحكم القائم في سياسته الواقعية وأعماله الملموسة أقرب إلى هذه المطالب، كان تأييد الشعب له أعظم وأقوى.

س - ما رأيكم بالموقف فيما يتعلق بميثاق تركيا الباكستان ومشروع فاضل الجمالي وما إلى ذلك؟ وكيف تنظرون إلى مصير الحريات الديمقراطية في سورية؟

ج - إن سورية تجابه الآن أخطاراً استعمارية واضحة، فالأمريكيون والإنكليز، الذين يتطاحنون على البترول وعلى سائر مظاهر السيادة السياسية والاقتصادية في الشرق

الأوسط، يتساومون الآن لإيجاد صيغة يتفقون عليها لأجل فرض مشاريعهم الحربية على سورية وسائر البلدان العربية وتحويلها إلى قواعد استراتيجية موجهة ضد الاتحاد السوفييتي، بلد الاشتراكية والسلم وصديق العرب الوفي. ولكن من الواضح وضوح الشمس في رائعة النهار أن الشعب السوري مَثَلُه مثل سائر الشعوب العربية، يرفض رفضاً باتاً أن تكون أراضيه وخيراته ودماؤه أداة يستخدمها الاستعماريون الأمريكيون والإنكليز في الحروب التي يهيئونها . ولذلك فالشعب السوري، بما فيه جماهير الجنود وجميع الضباط الشرفاء، بعد أن رفض مشروع الدفاع المشترك، يرفض الآن الانضمام إلى ميثاق تركيا الباكستان، كما يرفض مشروع فاضل الجمالي حول الاتحاد السوري العراقي المزعوم، وكذلك جميع الاتفاقات الاستعمارية الثنائية. تلك هي إرادة سورية.

فالحكومة التي تريد الاستقرار والتمتع بتأييد الشعب وجماهير الجنود والضباط الشرفاء يجب أن تحترم هذه الإرادة احتراماً مطلقاً تاماً لا أثر فيه لأي تردد أو وجل، أي أن تكون حكومة وطنية، وأن تنتهج في الحقل الخارجي سياسة وطنية استقلالية حازمة.

وحين شاع في الأسبوع الأسبق أن بعض الحكام الجدد أبدوا لبعض وكالات الأنباء الأجنبية تأييدهم لميثاق تركيا الباكستان أو لمشروع الاتحاد السوري العراقي، استولى على الشعب السوري قلق كبير عميق حتى إن المسؤولين سارعوا حالاً إلى نفي هذه الشائعات بتصريحات على لسان رئيس الوزارة ووزيرَيْ الداخلية والخارجية. وكان لهذه التصريحات صداها في الشعب السوري، غير أن القول مثلاً بأن الحكومة انتقالية فهي لن تعقد أية التزامات خارجية هو قول لا يكفي ولا يرضي الشعب السوري الذي يطلب مواقف أحزم وأصرح. فمهما كان الوضع سواء كانت هنالك حكومة انتقالية أم غير انتقالية، فينبغي أن يكون مفهوماً أن سورية لا يمكن أن تقبل أي مشروع استعماري حربي كيفما كان اسمه ومصدره.

ولأجل الاطمئنان إلى أن مثل هذه السياسة الخارجية الوطنية المستقلة ستطبق فعلاً، فأول ما ينبغي من الناحية الداخلية، هو إطلاق الحريات الديمقراطية لتأمين إشراف الشعب؛ ولا ريب أن المستعمرين الأمريكيين والإنكليز سيغضبون لإطلاق الحريات الديمقراطية، وسيلجؤون إلى مختلف أساليب الضغط لمنع إطلاقها . وذلك لسببين:

أولاً: لأن المستعمرين يخشون إشراف الشعب ويأملون أن يكون تسيير مشاريعهم أسهل إذا كُمّت أفواه الشعب.

وثانياً: لأن المستعمرين لا يريدون قيام حكومات وطنية قوية متمتعة بتأييد الشعب في بلادنا، وهم يعلمون أن كبت الحريات يضعف الحكومات القائمة ويعزلها عن الشعب، فتصبح تحت رحمتهم ينسفونها متى شاؤوا بسهولة. وتاريخ سورية نفسه خلال السنوات العشر الأخيرة حافل بالعبر والعظات من هذه الناحية.

إن إطلاق الحريات الديمقراطية شيء رئيسي أساسي في الوقت الحاضر، فينبغي إلغاء جميع المراسيم والقوانين الإرهابية الصادرة في عهد الديكتاتوريات، وتمكين الشعب من ممارسة حرياته في ظل نظام جمهوري ديمقراطي برلماني صحيح. أما التذرع بأن ثمة «عقدة دستورية» مثلاً، فهو شيء لا يقبله الشعب السوري. فإن أية «عقدة دستورية» لم تقف دون الرجوع إلى دستور ١٩٥٠ . فلماذا تكون هناك «عقدة دستورية» عندما يتعلق الأمر بتطبيق هذا الدستور الذي، رغم أن فيه عيوباً ونواقص كثيرة، يمكن أن يؤمن قسطاً وافياً من الحريات للشعب، هذا إذا كانت تشرف على تطبيقه حكومة وطنية ديمقراطية فعلاً؟

س . ما هي الخطوات الواجب اتباعها، في الوقت الحاضر، لتحسين الوضع الاقتصادي العام في البلاد، وهل تساعد الوحدة الاقتصادية بين سورية ولبنان على ذلك؟

ج . لا يمكن بلوغ الاستقرار في البلاد إذا لم يعالج الوضع الاقتصادي بروح وطنية وديمقراطية.

إن الرساميل الاستعمارية قد زاد تغلغلها في سورية وهي تسعى لتوسيع هذا التغلغل أيضاً وأيضاً، فيجب الوقوف في وجه هذا التغلغل، ويجب تشجيع وحماية الإنتاج الوطني، الصناعي والزراعي، بمختلف الوسائل. ومن جملة هذه الوسائل: تحقيق الوحدة الاقتصادية مع لبنان وإقامة علاقات تجارية واقتصادية مع جميع الأقطار بصرف النظر عن أنظمتها الداخلية، على أساس المنفعة المتبادلة، وهو شيء يطلبه جميع رجال الاقتصاد الوطنيون سواء في سورية أم في لبنان.

ومن أهم الوسائل لتحسين الوضع الاقتصادي العام، اتخاذ تدابير ناجعة لتحسين حالة العمال والفلاحين ومعالجة مشكلة البطالة. فلا يمكن حدوث أي ازدهار صناعي . ولو بسيط . ما دامت السوق الداخلية ضعيفة نتيجة لضعف المقدرة الشرائية عند الجماهير الشعبية، وخصوصاً عند الفلاحين الذين يؤلفون أكثرية الأمة. فينبغي أن يكون واضحاً أن ضغط الرساميل الاستعمارية الأجنبية والبضائع الأجنبية من جهة،

وإبقاء الفلاحين في حالة بؤس وفقر وتأخر وتركهم فريسة للإقطاعية الرجعية من جهة أخرى، هما العلة الكبرى والعائق الرئيسي الذي يحول دون تطور بلادنا الاقتصادي، الصناعي والزراعي في آن واحد.

إن حكومة وطنية وديمقراطية تسير في هذه الاتجاهات المذكورة: أي تقف في وجه الاستعمار ومشاريعه، وتطلق الحريات الديمقراطية وتعالج الوضع الاقتصادي، هي حكومة تنال تأييد الشعب فتؤمن الاستقرار.

والشيوعيون مستعدون لتأييد مثل هذه الحكومة دون أن يشترطوا لذلك اشتراكهم فيها.

س ـ ما رأيكم في التطورات المقبلة في سورية؟

ج ـ إن سورية مقبلة على انتخابات نيابية، فإذا جرت هذه الانتخابات بحرية وسمحت للشعب بالتعبير عن إرادته، وبانتخاب من يراهم صالحين لتمثيله، وإذا خرج الشعب من هذه الانتخابات وهو مقتنع بأنها فعلاً جرت بحرية بصرف النظر عن نتائجها، فإن إمكانات الاستقرار ستكون أوفر في سورية. والشعب يطلب منذ الآن ما يوحي إليه الاطمئنان عن حرية الانتخابات.

ومهما كانت التطورات فإن يقظة الشعب واتحاده لدى الملمات، ووطنية جماهير الجنود وكل الضباط الوطنيين الشرفاء هما الضمانة ضد كل خطر استعماري وكل طغيان رجعي.

إن الشعب السوري لن يرضى أبداً بالرجوع إلى وراء، بل يريد السير إلى أمام في طريق الاستقلال الوطني والديمقراطية. وهنالك قوة واحدة تستطيع رفع راية الاستقلال الوطني والديمقراطية خلال جميع التطورات وهي قوة الجبهة الوطنية التي يجب ويمكن أن تتوحد فيها صفوف العمال والفلاحين وجميع المنتجين ورجال الاقتصاد الوطنيين من صناعيين وتجار ومزارعين، والمثقفين والنساء والطلاب وكل من يهمه مستقبل وطنه ومصير شعبه. ولا ريب أن جماهير الجنود وجميع الضباط الشرفاء يؤيدون مثل هذه الجبهة.

❖❖❖

أدت التناقضات الداخلية، والنهوض الشعبي والطلابي الواسع إلى نشوء أزمة وزارية جوهرها محاولة الخروج من الوضع. وبدأ رئيس الجمهورية استشاراته وجمع ممثلين عن الأحزاب الثلاثة، الوطني والشعب والبعث، للاتفاق على صيغة وزارية. ولكن الخلافات كانت عميقة لدرجة لم يكن ممكناً الوصول بها إلى أي اتفاق، مما دفع

إلى استقالة الوزارة وتشكلت وزارة جديدة تتسم بالحياد والاستقامة في ١٨ حزيران ١٩٥٤.

وكانت الوزارة الجديدة برئاسة المحامي سعيد الغزي للرئاسة والدفاع، وإسماعيل قولي، القاضي النزيه للداخلية، أسعد الكوراني للخارجية والعدل، نبيه الغزي للزراعة والمعارف، عزت الصقال للأشغال والصحة، جورج خوري للمالية والاقتصاد.

وقد أشرفت هذه الحكومة على الانتخابات الجديدة التي جرت في أيلول ١٩٥٤ ونجح فيها خالد بكداش مرشح الحزب الشيوعي.

ومع تشكيل هذه الوزارة اندفعت الحركة الشعبية إلى الأمام، وبدأ نشاط عمالي واسع من أجل تنفيذ مطالب الطبقة العاملة وتأمين حقوقها. فقد جرت احتفالات واسعة في الأول من أيار. وقد تألفت لجنة شعبية لعقد اجتماع شعبي في الأول من أيار في دمشق في قاعة سينما الرشيد الصيفي، وتكلم فيه صبحي الخطيب رئيس اتحاد نقابات العمال، والرفيق النقابي خليل الحريري، والطبيب الدكتور محمد الرفاعي، والأديب الأستاذ مواهب كيالي، والدكتور نصوح الغفري. كما جرت احتفالات في مدن حلب وحمص وغيرها من المحافظات السورية. وتحت الضغط الشعبي أقر المجلس النيابي قانوناً أجاز فيه إعادة الموظفين الذين أبعدوا عن وظائفهم في الفترة ما بين ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥١ والأول من آذار ١٩٥٤، بسبب امتناعهم عن حلف يمين الولاء لنظام الشيشكلي، إلى وظائفهم التي كانوا يشغلونها عند التسريح.

وفي ٢٧ حزيران أضرب عمال الشركة الخماسية وعمال المغازل والمناسج وخرجوا بتظاهرة قوية قطعت الطريق من القابون إلى دمشق، وطافوا في شوارع المدينة، وتجمعوا أمام دار الحكومة وقابل وفد منهم رئيس الوزراء ووزير الداخلية، وقدموا عريضة بالمطالب التالية:

١ ـ تطبيق الحد الأدنى للأجور.

٢ ـ تأمين الحريات والحقوق النقابية وحرية الانتساب إلى النقابات.

٣ ـ إعادة العمال المسرحين فوراً ومنع التسريح التعسفي.

٤ ـ دفع أجور أيام العطل الأسبوعية والرسمية والأعياد.

٥ ـ إلغاء الحسم والعقوبات.

٦ ـ عدم تشغيل العامل على أكثر من ثلاثة أنوال.

٧ ـ تأمين الطبابة المجانية والعلاج المجاني الكافي.

٨ ـ تأمين وقت لتناول الطعام خلال أوقات العمل.

٩ ـ تأمين مياه الشرب النقية للعمال داخل المعامل.

وأعطى العمال الحكومة فرصة يومين من أجل بحث المطالب وتحقيقها. وساهمت الحكومة برئيسها ووزير داخليتها في الضغط على أرباب العمل للتجاوب مع مطالب العمال. ولما لم يتم تحقيق جميع المطالب واستمر تسويف أرباب العمل استمر الإضراب وانضمت إليه نقابة عمال النسيج الآلي، ونقابات أخرى: عمال الخطوط الداخلية، وعمال الجر والتنوير، مما أدى إلى توقف حافلات الترام، وتبعهم عمال النحت والبناء.

وساهم دخول عمال النسيج الآلي الإضراب، في رفع سوية الإضراب وتنشيط حركته، وإذا كان إضراب عمال الشركة الخماسية هو أول إضراب لهم، وتم بمعرفة أوساط من الجيش، فإن إضراب عمال النسيج الآلي، كان أحد الإضرابات التي نظمتها هذه النقابة. وكانت مطالب عمال النسيج الآلي، هو وضع تعرفة موحدة لأجور العمال لنسج نفس النوع من النسيج. وقد دام إضراب نقابة عمال النسيج الآلي ٦٠ يوماً، وجاعت عائلات العمال. وشكلت النقابة لجاناً لقيادة الإضراب. وقام الحزب الشيوعي بحملة تضامن واسعة لجمع تبرعات للعمال المضربين، وتم ذلك في مختلف المحافظات. وكانت التبرعات تقدم إلى رئيس النقابة رشدي الشيخة الذي يوزعها على العمال المضربين. وشملت حملة التضامن قيام مجموعات من المثقفين بزيارة مقر اتحاد نقابات العمال وإعلان التضامن وإلقاء الخطب بتأييد الإضراب. ومن جملة من قاموا بهذه الزيارات الشاعر شوقي بغدادي، والمرحوم سعيد حورانية وغيرهم.

قرر عمال النسيج تنظيم تظاهرة أمام مجلس الوزراء، وألقى الرفيق إبراهيم بكري خطاباً بالعمال ندد فيه بموقف أرباب العمل وطلب من الحكومة مساعدتهم.. وأعلن أن الإضراب ليس موجهاً ضد رئيس الحكومة سعيد الغزي، ولا ضد وزير الداخلية إسماعيل القولي. فالعمال لا خلاف بينهم وين الحكومة وإنما مع أرباب العمل.

وقرر العمال تسيير تظاهرة إلى رئاسة الجمهورية، كان على رأسها الرفيق إبراهيم بكري وقد منعت هذه التظاهرة.

وإثر هذه النشاطات، اعتقل من الطريق الرفيق إبراهيم بكري، وأودع في نظارة الشرطة. وقامت حملة تضامن كبرى للإفراج عنه.

فقد قامت وفود من المهن المختلفة ووفود طلابية بزيارة رئاسة مجلس الوزراء للمطالبة بالإفراج عن إبراهيم بكري، ونشرت الصحف عريضة حملت مئات التواقيع من حي القصاع وباب توما جاء فيها:

«إن اعتقال المناضل إبراهيم بكري وغيره من عمال النسيج الآلي المناضلين في سبيل تحقيق مطالب العمال العادلة تهمة باطلة بعيدة كل البعد عن الطبقة العاملة وأعمالها.

إن هذا العمل هو مؤامرة مدبرة لضرب الحركة العمالية بقصد التملص من تحقيق مطالب العمال واعتداء سافر على الحريات النقابية.

لذلك نحن الموقعين أدناه من عمال المهن المختلفة من حي القصاع وباب توما نحتج على هذه الأعمال، ونطالب بالإفراج عن المعتقلين ووضع حد للاعتداءات المتكررة على الحريات النقابية».

كما أرسل الاتحاد الدولي لنقابات العمال برقية احتجاج على اعتقال إبراهيم بكري وطالب بالإفراج عنه.

ونتيجة هذه الحملة الواسعة أفرج عن الرفيق إبراهيم ورفاقه. لقد كانت التهمة الموجهة إلى الرفيق إبراهيم أنه ورفاق له، قد ألقوا إصبع ديناميت على بيت أحد أرباب العمل «خطاب»، وكان هذا العمل مرتباً من أجل إجهاض لحركة العمال الناهضة.

عودة شكري القوتلي إلى سورية

في شهر آب ١٩٥٤ عاد شكري القوتلي من منفاه الاختياري في مصر إلى سورية. واستقبل استقبالات حافلة.

أصدر القوتلي بياناً شكر فيه الشعب السوري على الاستقبال الواسع الذي نظم له. وقد جاء فيه:

أيها المواطنون! عدت إلى الوطن فألفيت بلادي بحمد الله متمسكة باستقلالها، حريصة على نظامها الجمهوري، رانية إلى مستقبل عتيد، تواجهه بوعي راشد، منطلقة إلى حياة صاعدة كريمة، ملؤها العزة والمنعة. بعد أن مرت بها أحداث طارئة وتجارب قاسية صمدت لها في صبر وثبات، فلم توهن قواها، بل زادتها تمسكاً بالمبادىء القويمة واتخذت منها عبراً وعظات تحفزها للسير إلى الأمام في قوة وعزم وإيمان.

ثم عبر عن مطالبته بقيام اتحاد وطني ليقف رجالات البلاد «جبهة مرصوصة أمام المطامع الاستعمارية والصهيونية العالمية التي استشرت موجتها الآثمة، ولن يتأتى ذلك إلا باتحاد وطني تتجمع فيه كل القوى، معززة بالجيش المجهز بأمضى الأسلحة وأحدثها بما تبذله الأمة من سخاء لهذه الغاية التي تجعل جيشها عمادها المتين وحصنها الحصين».

الفصل الخامس عشر

الانتخابات النيابية ونجاح خالد بكداش

كانت المهمة الأساسية التي أتت من أجلها حكومة سعيد الغزي، هي إجراء انتخابات حرة ونزيهة لانتخاب مجلس نيابي جديد، يعكس واقع التطورات الجارية في البلاد وواقع القوى السياسية.

كان من المفروض أن تجري الانتخابات في شهر آب ١٩٥٤، وفجأة أعلن عن تأجيلها إلى العاشر من أيلول في نفس العام، وتمت عملياً في ٢٤أيلول. وكان وراء ذلك مناورة من حزب الشعب، الذي أعلن مقاطعة الانتخابات ونشر شائعات عن إمكان استقالة رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي، وهدفه من ذلك تحقيق تحالفات جديدة، وإبعاد خالد العظم عن الترشيح لمنصب رئاسة الجمهورية، ونفذت المناورة بأن نظم حزب الشعب عن طريق أنصاره إضرابا للقضاة، وتعطلت بذلك أعمال البت بالشكاوى المتعلقة بالمرشحين، ولم يعد ممكناً الاستمرار في العملية الانتخابية، ونجح في محاولته، فقد تحول الجيش من تأييد ترشيح خالد العظم، إلى تأييد ترشيح شكري القوتلي، وعادت المساومات بين الحزبين على المواقع، ويشير خالد العظم في مذكراته إلى أن قوى خارجية ساهمت في هذه المناورة ومنها سفارات بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.*

خاض الحزب الشيوعي السوري هذه الانتخابات بنشاط واسع وكثيف ومتعدد الجوانب، سياسياً وتنظيمياً. قد انتقلت أغلبية قيادة الحزب إلى دمشق، وخاصة الرفاق فرج الله الحلو ونقولا شاوي وحسن قريطم، إضافة إلى القيادات الحزبية السورية. كان الرفيق خالد بكداش يقيم في بيروت، وتقرر انتقاله إلى دمشق ليكون

---

* – مذكرات خالد العظم ـــ الجزء الثاني ص ٢٨٨.

قريباً من المعركة الانتخابية والإشراف عليها. ولم يكن وجوده في دمشق حتى ذلك الحين علنياً، وظل محتاطاً ومتحفظاً. وقد كلّفتُ بتأمين إقامته في بيت استأجرته لإقامة عائلتي، في منطقة الطلياني، وبقي كذلك حتى عشية الانتخابات وخروجه العلني وبدء حياته البرلمانية. وبعد نجاحه في الانتخابات أصبحتُ رفيقه الدائم الأساسي في ذهابه إلى البرلمان وعودته منه، وتأمين حمايته الشخصية ليلاً نهاراً.

قدم الحزب الترشيحات التالية باسم مرشحي الاتحاد الوطني:

مدينة دمشق: خالد بكداش، نصوح الغفري، جورج عويشق.

ريف دمشق: مراد القوتلي.

مدينة حلب: أحمد محفل.

مدينة حمص: محمد ظهير عبد الصمد، موريس صليبي، محمد خالد كالو.

مدينة بانياس: محمد حكيم.

مدينة طرطوس: عبد الكريم طيارة.

منطقة صافيتا: دانيال نعمة.

مدينة دير الزور: ثابت عزّاوي.

مدينة القامشلي: إبراهيم بكري.

منطقة تلكلخ: حنا دياب.

منطقة السلمية: بدر الدين السباعي.

وقد وضعت قيادة الحزب بياناً انتخابياً سمي برنامج مرشحي الاتحاد الوطني ووزع في جميع الدوائر الانتخابية التي خاض الحزب الانتخابات فيها.

وكان يضاف على البرنامج العام المطالب الخاصة بكل دائرة انتخابية.

إن قائمة الترشيحات هذه، لم تكن موفقة تماماً، الأمر الذي انعكس سلباً على النتائج التي توخاها الحزب الشيوعي، كترشيح محمد الحكيم في مدينة بانياس ومنطقتها، وهو عضو الحزب الشيوعي، ولكنه كان يمثل مشيخة دينية ويأخذ زكاة من الناس، ولم تكن النظرة إليه كمناضل شعبي. وترشيح الرفيق بدر الدين السباعي في السلمية، وهو غريب عنها، وليس له نضالات بين أهاليها، وكان من الصعب كسب أصوات له. ونفس الأمر ينطبق على ترشيح الرفيق مراد القوتلي في غوطة دمشق. والرفيق مراد وجه وطني وديمقراطي في دمشق، ولكنه في الغوطة ينظر إليه الفلاحون بمنظار آخر، منظار عائلة القوتلي، التي كانت تمثل ملكية كبيرة في الغوطة.

هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد وضع البعض ملاحظة حول التسمية. فلماذا أطلق الحزب الشيوعي على قائمة مرشحيه اسم مرشحي الاتحاد الوطني وليس

الحزب الشيوعي على الرغم من أنهم جميعاً كانوا شيوعيين؟ وهذه ملاحظة وجيهة، والحقيقة أن الحزب أراد أن يقدم برنامجاً للوحدة الوطنية، وفعلاً فإن البرنامج هو برنامج وطني ديمقراطي، هو برنامج وحدة وطنية واسعة، الأمر الذي كان يعكس استراتيجية الحزب الشيوعي في ذلك، وهو جمع أوسع الجماهير حول شعارات مقبولة، لإسقاط رهان القوى اليمينية التي كانت ترتبط بعلاقات مشبوهة مع أوساط استعمارية ورجعية عربية، والتي كانت ترفض جميع الخطوات الديمقراطية.

برنامج مرشحي الاتحاد الوطني في الانتخابات النيابية العامة في سورية (آب ـ أيلول ١٩٥٤)

أيها الإخوان الناخبون، أيتها الأخوات الناخبات!

هذا برنامج الاتحاد الوطني، وهو البرنامج الذي نطلب ثقتكم على أساسه، وقد ناضلنا من أجله بجميع الوسائل وفي جميع العهود، ونعاهدكم بالنضال في سبيله تحت قبة البرلمان، وهو مستمد من صلب أماني شعبنا وحاجات وطننا.

ونحن على يقين أن القوة القادرة على تحقيق هذا البرنامج هي، في كل الأحوال قوة الشعب، قوة اتحاده الوطني، اتحاد العمال والفلاحين وسائر الكادحين بسواعدهم وأدمغتهم وجميع الوطنيين المخلصين. وهذا هو البرنامج:

١ ـ توطيد الانتصار الوطني الذي تحقق بجلاء الجيوش الأجنبية عن سورية واستكمال أسباب الاستقلال الوطني، ورفض الارتباط بأي معاهدة أو حلف استعماري حربي، كحلف تركيا الباكستان، و«المساعدة» العسكرية الأمريكية والمشاريع «الاتحادية» المزيفة وسائر المشاريع الاستعمارية الأمريكية والإنكليزية.

٢ ـ توطيد أسس النظام الجمهوري الديمقراطي في سورية، وإطلاق الحريات الديمقراطية: حرية الصحافة والرأي والكلام والاجتماع وحرية تأليف الجمعيات والأحزاب السياسية والحريات النقابية، واحترام العقائد الدينية، وتمكين جميع فئات الشعب من ممارسة هذه الحريات، وإلغاء جميع القوانين الرجعية التي تقيدها أو تحدُّ منها، وتحريم الاعتقال الكيفي والتعذيب الجسدي.

٣ ـ توثيق عرى التضامن مع الشعوب العربية الشقيقة في النضال العام المشترك ضد الاستعمار ومعاهداته وبرامجه العسكرية الحربية، وفي سبيل الجلاء والاستقلال والسلم.

٤ . السعي لحل قضية فلسطين، بمعزل عن تدخل المستعمرين الأمريكيين والإنكليز، على أساس أن حل هذه القضية مرتبط ارتباطاً تاماً بالقضاء على سيطرة الاستعمار في الشرق العربي وعلى حكم عملائه وعلى الصهيونية الرجعية صنيعة الاستعمار الأمريكي.

٥ . انتهاج سياسة خارجية وطنية سليمة صريحة في الميدان الدولي قوامها التضامن مع جميع الشعوب المناضلة في سبيل تحررها الوطني والمساهمة في العمل لتحقيق الانفراج الدولي وتوطيد السلام العالمي وتحريم الأسلحة الذرية والهيدروجينية.

٦ . في سبيل تعزيز مكانة سورية الدولية وصيانتها من أخطار الحروب، وبغية تطوير اقتصادنا الوطني، العمل على توطيد أواصر الصداقة وتوثيق العلاقات الاقتصادية والثقافية مع الاتحاد السوفييتي بلد السلم والاشتراكية وصديق العرب، ومع الصين الشعبية وسائر بلدان معسكر الديمقراطية.

٧ . في سبيل تحقيق الاستقرار الذي تنشده سورية، وتلبية مطالب الشعب العاجلة الملحة، إقامة حكومة وطنية ديمقراطية تقاوم كل تدخل استعماري في شؤون بلادنا وترفض كل مشروع استعماري حربي وتطلق الحريات الديمقراطية وتعمل على رفع مستوى الشعب المعاشي والثقافي.

٨ . في سبيل رفع مستوى القرية السورية وإنقاذ جماهير الفلاحين من البؤس والتأخر، القيام بإصلاح زراعي يحرر الريف السوري من الإقطاعية ويؤمن الأرض والمياه لكل فلاح في سورية.

٩ . إلى حين تحقيق الإصلاح الزراعي الشامل المنشود، المباشرة فوراً باتخاذ تدابير للتخفيف من عبء الأوضاع القاسية التي تعانيها جماهير الفلاحين الفقراء، وذلك بتحسين شروط المحاصصة، وإلغاء الأتاوات الإقطاعية الظالمة، ومنع طرد الفلاحين من الأرض، وتحسين شروط العمل للعمال الزراعيين برفع أجورهم ومنحهم الحقوق الممنوحة لعمال الصناعة في قانون العمل.

١٠ . تحسين حالة الفلاحين الصغار والمتوسطين بتخفيف الضرائب عنهم وتأمين البذار لهم بأسعار رخيصة ومد جماهير الفلاحين بقروض طويلة الأجل بدون فائدة أو بفائدة ضئيلة، وتقديم المساعدات الفنية المجانية لهم، وتوسيع مشاريع الري، وشق الطرقات لجميع القرى، وتأمين وصول مياه الشرب والكهرباء إليها، وتأمين الطبابة والتداوي والمستشفيات لجميع سكان الريف السوري.

١١ ـ تحسين أوضاع الطبقة العاملة بزيادة الأجور وتطبيق ثماني ساعات عمل في اليوم، وتأمين تعويضات التسريح والإجازات السنوية والمرضية وتحقيق ضمان اجتماعي تموله الحكومة والشركات الأجنبية وكبار أرباب العمل لتأمين العمال الصناعيين والعمال الزراعيين والمستخدمين في حالات العجز والمرض والشيخوخة وطوارىء العمل والبطالة، مع ضمان صحي شامل يؤمن التطبيب والدواء والمستشفى لجميع هذه الفئات.

١٢ ـ تأمين الحقوق والحريات النقابية للعمال وفي رأسها حرية تأليف النقابات بدون قيد أو شرط وحرية ممارسة نشاطها وعقد اجتماعاتها وإجراء انتخاباتها دون أي تدخل من السلطات واحترام حق الإضراب والتظاهر وحماية المناضلين النقابيين من التسريح الانتقامي وأي تدبير ثأري.

١٣ ـ تحرير مرافقنا الاقتصادية الوطنية من ربقة الرأسمال الاستعماري وذلك بتأميم الشركات الاستثمارية الأجنبية ومنع تغلغل رساميل استعمارية جديدة في اقتصادنا الوطني وإنشاء مؤسسة إصدار وطنية لتحرير النقد السوري من التبعية الأجنبية.

١٤ ـ انتهاج سياسة اقتصادية وطنية قوامها العمل على ازدهار الصناعة الوطنية والإنتاج الزراعي وذلك بمنع طغيان بضائع الدول الاستعمارية على أسواقنا، وتوفير المواد الأولية والتجهيزات الآلية والفنية اللازمة للصناعة الوطنية، ورفع القدرة الشرائية عند جماهير الشعب، وتأمين الأسواق للإنتاج الوطني الفائض عن حاجات الاستهلاك الداخلي بتنشيط العلاقات والمبادلات التجارية والاقتصادية القائمة على التكافؤ والمنفعة المتبادلة مع جميع البلدان بصرف النظر عن أنظمتها الداخلية السياسية والاجتماعية.

١٥ ـ إلغاء القطيعة بين سورية ولبنان، وإقامة العلاقات الاقتصادية بين البلدين الشقيقين على أساس وحدة اقتصادية قوامها حماية الإنتاج الوطني الصناعي والزراعي في البلدين، وتنظيم الاستيراد والتصدير وفقاً لمصلحة اقتصادهما الوطني ومصلحة الجماهير الشعبية الواسعة.

١٦ ـ تخفيف الضرائب عن جميع الفئات الشعبية، وإعفاء العمال وصغار المنتجين من ضريبة الدخل، واتخاذ الوسائل لتحسين حالة الحرفيين وصغار التجار وصغار المنتجين، وحمايتهم من أخطار الإفلاس والخراب.

١٧ ـ العناية بالجيش السوري وتعزيز الروح الوطنية في صفوفه ضد الاستعمار وأحلافه ومؤامراته على سورية، مع العمل لتحسين حالة الجنود والضباط المادية، وإعادة الحصانة إليهم.

١٨ ـ تعميم التعليم الابتدائي المجاني الإلزامي وتوسيع شبكة التعليم الثانوي وإزالة العقبات المصطنعة المقامة في طريقه، وتأمين ديمقراطية التعليم الجامعي والثانوي والعناية بحالة الطلاب الاقتصادية وتأمين مساعدة المعوزين منهم على إكمال تحصيلهم.

١٩ ـ حماية الإنتاج الفكري وضمان حريته والعمل على إحياء التراث الفكري العربي وتوسيع التبادل الثقافي وتشجيع النشر الأدبي والعلمي والفني، والعناية برجال الفكر مادياً ومعنوياً، وتأمين الإمكانات اللازمة لتطورهم، ومكافحة «ثقافة» التفسخ والانحلال الاستعمارية، ومنع الأفلام والمجلات الخلاعية.

٢٠ ـ منح المرأة السورية حقوقها السياسية كاملة، وتأمين ممارستها لهذه الحقوق، والعمل على رفع مستواها الثقافي والمادي وتأمين أجرة متساوية للعمل المتساوي، وحماية الأم والطفل بإيجاد الوسائل اللازمة لذلك، من مستشفيات ودور توليد ورياض أطفال وطبابة مجانية.

٢١ ـ العناية بالشباب صحياً وثقافياً، وتشجيع الحركة الرياضية وتخصيص مساعدات مالية وافية في سبيل نشر الروح الرياضية في الشباب، والعمل للإكثار من الأندية الرياضية والثقافية، وإنشاء معاهد مسائية مجانية لمكافحة الأمية بين الشباب في القرى والمدن، وإيجاد مكتبات وطنية عامة في المدن وفي المراكز الريفية.

٢٢ ـ العناية بموظفي الدولة، ولاسيما الصغار منهم، وبضمن ذلك المعلمون والأساتذة، وتحسين أحوالهم اقتصادياً ومعنوياً، وخلق الإمكانات أمامهم لرفع مستواهم المسلكي والفكري وإعادة الحصانة إليهم.

٢٣ ـ توجيه الجهود الكبرى للعناية بحياة جماهير الشعب في المدن والقرى، فيما يتصل بتأمين المساكن الصالحة بأجور رخيصة وتخفيض أسعار مواد الغذاء والكساء الرئيسية، وتحسين الشروط العمرانية والصحية كتأمين الكهرباء والمياه النظيفة للشرب بكميات كافية وأسعار رخيصة، وتعبيد الطرقات وتوفير كل ما يؤمن حداً أدنى من الشروط اللازمة لحياة إنسانية معقولة.

❖❖❖

كان العمل التنظيمي محكماً جداً، فقد أتت وفود من مختلف المنظمات إلى دمشق لتساعد منظمة دمشق في الحملة الانتخابية.وقسمت المدينة إلى أقسام، وبدأ العمل بزيارة البيوت بيتاً بيتاً، وتقديم البرنامج الانتخابي والحديث عن خالد بكداش ونضاله وتاريخه. وقامت وفود حزبية بزيارة وجهاء الأحياء الذين كانوا يلعبون دوراً هاماً في المعارك الانتخابية، آنذاك، وتمت زيارة المرشحين الوطنيين والديموقراطيين والتحدث معهم حول التحالفات الانتخابية وتبادل الأصوات. وقد أعير اهتمام كبير للعملية الانتخابية ذاتها، من حيث تأمين مندوبين يمثلون خالد بكداش، في جميع الصناديق الانتخابية، وانتقائهم بشكل جيد، ومهمتهم مراقبة عملية التصويت ومنع أية محاولة لتزوير إرادة الناخبين، وللإشراف على عملية فرز الأصوات.

وإلى جانبهم جرى تأمين مجموعة من الرفاق تعمل خارج صناديق الاقتراع، لاستقبال المقترعين، ودعوتهم للتصويت لمرشحي الاتحاد الوطني. وكان الرفاق في الأحياء يزورون البيوت وينقلون المصوتين إلى صناديق الاقتراع.

أما النشاط السياسي فقد تركز في عدة اتجاهات، وفي مقدمتها تنظيم حملة دعم سياسية في مختلف مناطق سورية، وكانت جريدة «الطليعة» الأسبوعية تنشر هذه البرقيات والعرائض تباعاً.

وفيما يلي نموذجاً عن هذه العرائض:

إلى إخواننا العمال والفلاحين وجميع الوطنيين في مدينة دمشق العربية المناضلة الباسلة:

نحن مندوبي المناطق الريفية، قضاء صافيتا، المجتمعين في بلدة صافيتا والممثلين لرغبات الألوف من أبناء قضاءنا الفلاحين والطلاب والمثقفين والحرفيين وصغار التجار وجميع الوطنيين، نعلن أننا بعد دراستنا الوضع الانتخابي على النطاق السوري ونطاق دائرتنا الانتخابية وصلنا إلى النتائج التالية:

إن المستعمرين وبصورة خاصة الأمريكيون يتدخلون في شؤوننا الانتخابية طامعين بإخراج مجلس مطواع قادر (حسب زعمهم) على تحقيق مطامع هؤلاء المستعمرين الرامية إلى احتلال بلادنا وجعلها إحدى مستعمراتهم الحربية وذلك بمختلف الأسماء: الحلف التركي الباكستاني والاتفاقات الثنائية والمساعدات المزعومة.

وإن هذا التدخل يشكل خطراً جدياً على الانتصار الذي حققه الشعب السوري الباسل بإجلائه الجيوش الفرنسية من أراضيه.

وهو كذلك يهدد كل ما يطمح إلى تحقيقه شعبنا الباسل. وقد رأينا إزاء هذه الأخطار الجدية التي تحيق بنا، أن خير طريق للقضاء على هذه الأخطار ولإفساح المجال أمام شعبنا كي يتمكن من استكمال أسباب سيادته الوطنية ورفع مستوى الحياة في وطننا ومن تعزيز التضامن العربي والحفاظ على السلم في العالم، هو النزول إلى المعركة الانتخابية بقصد تحويلها إلى معركة وطنية مجيدة، تساهم في توطيد الجبهة الوطنية وتخيب آمال المستعمرين وأهدافهم وأعوانهم ووطننا وأوطان العرب وجميع الإنسانية، وترفع إلى الشعب جميع المرشحين الوطنيين والتقدميين العاملين بقوة وضد الاستعمار ومن أجل الحريات وحياة أكثر سعادة وهناء.

إننا نحن ممثلي مناطق صافيتا الواثقين من نتائج المعركة الانتخابية نتوجه إلى جميع إخواننا أبناء دمشق العربية المجاهدة، أن تشددوا المعركة لإحباط مشاريع الاستعمار، وإلحاق الهزيمة بمرشحيهم وعملائهم ولرفع مرشحي الاتحاد الوطني من أي حزب كانوا ومن أي جهة كانوا.

إننا واثقون بأن دمشق ستكون دائماً كما كانت باستمرار أمنع حصن لسورية والعرب وأمضى سلاح في المعارك الوطنية والشعبية ومعارك النضال الوطني على أساس الجبهة الوطنية ضد جميع المستعمرين وعملائهم وخدمهم الخونة المارقين*

وكان الكتاب والصحفيون الوطنيون والديموقراطيون ينشرون مقالات متعددة حول خالد بكداش ونضاله.

جاء في مقالة كتبها سعيد حورانية:

«أنا أستطيع أن أفهم تلك اللهفة البادية على الوجوه من مختلف أفراد الشعب السوري وهم يتساءلون في فرح:

- متى سنرى خالد بكداش ؟

أنا أفهم هذه اللهفة لأنني أحسها في أعماقي، ولأنني ككثير غيري، لم نره مطلقاً، حتى أصدقاؤه القدماء، يحدوهم ذلك الشوق الجامح لرؤية وجهه بعد هذا الاختفاء الطويل، إبان مطاردة المستعمرين له سبع سنوات متعاقبة، ذاق فيها صنوف العذاب والاضطهاد.

وقد نظم الشاعر نصوح الفاخوري قصيدة من وحي المعركة الانتخابية بعنوان «الثائر العربي المعاصر» ننشر بعض مقاطعها:

---

* «الطليعة» العدد ٣٠ السنة الأولى ٢ آب ١٩٥٤.

لم ينـــثنِ الأحــرارُ في وطــني نضــالاً للســلامْ
ولصــوصُ واشـــنطنْ، بــدولاراتها تطــأُ الأنــامْ
وعلـــى جبـــاه «الدبلوماســـيين» خـــزيٌ لا ينــامْ
إخوانَنــا الشـــرفاءَ لم تـــبرحْ مـــواكبُكم تســيرُ،
لم يلوهــا زأرُ الرصـــاصِ، ولا الـــدخانُ المســتطيرُ
مهمــا يضـــرجها العـــدو، فقلبُهـــا يقـــظٌ بصـــيرُ
أحـــرارُ ســورية تمــدُ يــدَ الصــديقَ إلى الصــديقْ
فعلـى شــعابِ الأرضِ، تزهــرُ دوحــةُ الحــبٌ الوريــقْ
النصـــرُ يولـــدُ مـــن تآخينـــا، ويزدهـــرُ الطريـــقْ
وأخـــي الســـجينُ، ووجــهُ ثــوريْ يضـــيءُ ويســـتنيرْ
والطيِّبـــونَ الغاضـــبونَ، تُبـــاركُ الغضـــبَ الكـــبيرْ
لمّـــا يـــزلْ للشـــامِ ثائرُهـــا «وخالـــدُها» المناضـــلْ
في كـلْ منطلـقٍ، يـبرعمُ كــالربيعِ، جــبينُ عامــلْ
الشـــامُ للعمـــالِ كانَـــتْ، والمـــزارعُ والمعامـــلْ
«الغوطـــةُ الفيحـــاءُ» والجبـــلُ المطـــلُ علـــى ثراهـــا
ووليُهـــا «بـــردى» ترقـــرقَ في خمائلهـــا وتاهـــا
جَبَلَـــتْ يـــدُ الفـــلاح تربتَهـــا وشـــبَّتْ في حماهـــا
مهمـــا يكـــن «إقطاعُهَـــا» ويطـــلُ عملاقـــاً وينمـــو
مهمـــا تـــوطّئُ عنقَهـــا العيـــدانُ والطغيـــانُ يســـمو
فهنـــاكَ «خالـــدُ» والرفـــاقُ وكـــلُ ثـــوريْ يهـــمُ.

وكانت جريدة «الصرخة» اللبنانية تنشر أنباء النشاط الانتخابي في دمشق وفي مختلف المناطق السورية، ففي عددها رقم ٢٤١ الصادر في ٢٩ آب أي عشية الانتخابات نشرت رسالة مراسلها السياسي في دمشق، وتحدثت الرسالة عن التعاطف مع ترشيح خالد بكداش. ومما جاء في الرسالة:

«ويلمس اليوم كل مواطن أن شعب دمشق على اختلاف اتجاهاته وأحيائه يؤيد خالد بكداش ويعمل من أجل إيصاله إلى المجلس النيابي.

ويبرز ذلك بجلاء كلّي في عشرات الاجتماعات الشعبية التي تعقد كل ليلة في مختلف أحياء العاصمة، في الميدان والأكراد والعمارة والشاغور والقزازين والقصاع والمهاجرين والصالحية وباب الجابية والقيمرية وغيرها وغيرها، حيث يجري فيها شرح برنامج خالد بكداش الانتخابي ويتفق فيها المجتمعون على أفضل الوسائل لإيصال شعارات هذا البرنامج إلى جماعات جديدة وأوساط جديدة من المواطنين.

إن المعركة الانتخابية تدخل الآن في طورها الحاسم، وستزداد فيها خلال الأيام المقبلة محاولات الاستعمار ومساعي الفئات الرجعية المتعاونة معه، لإيجاد جو ملائم لهم في الانتخابات، وقد ظهر ذلك خلال الأسبوع في عدد من المظاهر، فبعد التدخل الأمريكي المعروف ضد ترشيح خالد بكداش، هذا التدخل الوقح الذي أثار موجة سخط كبيرة في الشعب وزاد من التفاف جميع الوطنيين حول مرشحي الاتحاد الوطني، نقول، بعد هذا التدخل الاستعماري، أشارت بعض الصحف خلال الأسبوع المنصرم إلى تدخل مفضوح وقح آخر قامت به الرجعية التركية المؤتمرة بأوامر الأمريكيين، لدى الحكومة، للحد من نشاط المرشحين الوطنيين الديموقراطيين.

كذلك ظهرت المساعي الرجعية في أعمال الاستفزاز التي قامت بها الشركة الخماسية في دمشق للبطش بعمالها وحمل الحكومة على اعتقال العشرات منهم بصورة كيفية، مستهدفة من وراء ذلك، حرمان العمال من الحقوق التي انتزعوها خلال إضرابهم الأخير وتوجيه ضربة إرهابية إلى الطبقة العاملة...».

ونشرت الجريدة في نفس العدد أخباراً عن نشاط مرشحي الاتحاد الوطني في طرطوس وفي تلكلخ، وعن النشاط الواسع الذي يجري في حمص.

وأشارت إلى اجتماع جماهيري واسع عقد في حي الحميدية وحضره نحو ألفي شخص، وتحدث فيه مرشحو الاتحاد الوطني ظهير عبد الصمد وموريس صليبي وخالد كالو. كما تحدثت عن نشاط مرشح الاتحاد الوطني في دير الزور ثابت العزاوي، وأشارت إلى حفلة انتخابية أقيمت في حي «الجبيلية» لم تلبث أن تحولت إلى تظاهرة انتخابية أمت دار ثابت العزّاوي.

أما بشأن عمال الشركة الخماسية فقد قامت حركة تضامن واسعة، فقدمت وفود عمالية إلى دار الحكومة ومكاتب الصحف، وكان على رأسها وفد عمال النسيج الآلي،

والهيئة الإداريةلنقابة عمال النقل الداخلي، ووفد عمال الطيانة ونقابة عمال النحت والبناء. وقام رئيس اتحاد النقابات العام بزيارة رئاسة الوزراء وقدم احتجاجاً، وقد اضطرت الحكومة أمام الضغط الشعبي إلى تعيين لجنة تحقيق للتثبُت من وقوع الجرائم.

ولم تنجح مناورات الشركة في إلباس العمال أعمال التخريب والاعتداء على مركز توليد القوى الكهربائية التابع لمعملها. وأثبتت التحقيقات بطلانها جميعاً، وقد أُفرج نتيجة ذلك عن جميع العمال وخرجوا وبرفقتهم عائلاتهم من السجن في تظاهرة شعبية.

الانتخابات النيابية في سورية
وموقف الحزب الشيوعي

نشر موقف الحزب الشيوعي السوري من الانتخابات في تصريح لخالد بكداش رداً على أسئلة صحفية نشرته جريدة «الصرخة». وعدد من الجرائد الدمشقية والسورية في ٢٣ أيار ١٩٥٤. وسوف أورد هنا نص التصريح الذي يلخص رأي الحزب وتوجهاته تجاه الانتخابات آنذاك:

إن الاهتمام بالانتخابات النيابية المقبلة شديد جداً بين جماهير الشعب السوري. والشعب يطلب التعجيل في إجرائها. ذلك لأن هذه الانتخابات سيكون لها أثر كبير في تطور الأوضاع في سورية. والمهم، كما قال حزبنا دائماً، أن يقتنع الشعب عملياً بأن هذه الانتخابات تجري على أساس الحرية وبروح الديمقراطية. وبغير ذلك، من العبث أن يظن حزب أو جماعة أن الأمور يمكنّ أن تستقر لهم ولأنصارهم في سورية، فمن الخطأ الاستناد إلى بعض الظواهر للاعتقاد بأن «أمورهم ماشية» على ما يرام. إن مثل هذه النظرة هي سطحية بل سطحية جداً، وجميع الذين يعتنقونها إنما يدللون على أنهم عاجزون عن الوصول إلى العوامل العميقة التي تعمل في سير المجتمع السوري، عاجزون عن فهم التطورات التي جرت في سورية والشرق العربي والعالم بأسره.

إن سورية بحاجة إلى انتخابات حرة فعلاً، وديمقراطية فعلاً، وإن أدى ذلك إلى نتائج قد لا تعجب المستعمرين الأمريكيين وغيرهم وبعض الرجعيين المغرقين في الرجعية.

إن انتخابات غير حرة، وغير ديمقراطية، لن تكون نتائجها ثابتة ولا مستقرة ولن يستفيد منها حتى «المنتصرون» فيها. فمن العبث وقف عجلة التاريخ السائرة إلى أمام.

إن أهم مطلب للشعب السوري هو تأمين حرية الانتخابات، وضمان سرية التصويت، ومنع التزييف والتزوير بأساليب الإرهاب أو الرشوة أو غيرها. أما طريقة التمثيل، فأقربها إلى الديمقراطية هي، كما قال حزبنا دائماً، طريقة التمثيل النسبي، وذلك باعتبار سورية كلها دائرة انتخابية واحدة مع تعيين عدد الأصوات اللازمة للمرشح لكي يصبح نائباً، فكل من نال هذا العدد من الأصوات فاز بالنيابة. وإذا اعترض بعضهم على اعتبار سورية كلها دائرة انتخابية واحدة لما يخلقه ذلك من صعوبات مزعومة، فيمكن تطبيق طريقة التمثيل النسبي على أساس المحافظة مثلاً. فالمهم أن طريقة التمثيل النسبي تسمح بتمثيل كل الاتجاهات في المجلس النيابي. أما طريقة القائمة، إذ تتجابه قائمتان وتنجح منهما تلك التي تنال الأكثرية، فمعناها أن نصف الأمة يكون غير ممثل في المجلس النيابي.

ومن الواجب أن يضمن قانون الانتخاب حق التصويت والترشيح لجميع المواطنين وبضمنهم النساء دون أي قيد، سوى أن يكون سن التصويت ١٨ عاماً، وسن الترشيح ٢٥ عاماً على أكبر تقدير. كذلك الجنود والضباط يجب أن يمنحوا حق التصويت والترشيح، فهم مواطنون مثل غيرهم.

ولكن لا يكفي النص على حرية الانتخابات وسريتها في قانون الانتخاب. فالنصوص القانونية لا تكفي، مهما كانت ديمقراطية.

إن الشعب يطلب أن تشرف على الانتخابات حكومة يطمئن إلى أنها وطنية وديمقراطية. ولكن في كل الأحوال ينبغي أن لا ننسى أن القوى الاستعمارية، وفي رأسها الاستعمار الأمريكي، تريد أن ينبثق عن الانتخابات برلمان مطواع، لاعتقادها بأن ذلك سيسهل عليها تحويل سورية إلى قاعدة عسكرية استعمارية وجرها إلى أحلاف حربية. وهو اعتقاد باطل طبعاً. فإن الشعب السوري، مهما كانت نتائج الانتخابات، لن يسمح بتنفيذ مشاريع الاستعمار الأمريكي وغيره، وهو قادر على ذلك بصرف النظر عن تركيب البرلمان واتجاهه. ولكن قوى الاستعمار والرجعية تعتقد غير ذلك. ولهذا فمهما كانت نصوص قانون الانتخاب، فهي سوف تسعى بجميع الوسائل إلى التدخل في الانتخابات للحؤول دون ظهور وجه سورية الوطني الديمقراطي، ودون وصول ممثلي القوى الوطنية الديمقراطية إلى المجلس النيابي.

ومن هنا يتضح أن الضمانة الكبرى هي في جميع الأحوال، ومهما كانت الأوضاع الحكومية، يقظة القوى الوطنية الديمقراطية واتحادها.

إن أهم شيء هو تحقيق الاتحاد بين القوى الوطنية الديمقراطية من جماهير وأحزاب وهيئات وعناصر. فبهذا الاتحاد يمكن النضال بنجاح في سبيل مطالب الشعب الوطنية الديمقراطية، سواء في ذلك إحباط مشاريع المستعمرين، أم تأمين الحريات الديمقراطية وفي رأسها حرية الانتخاب.

وعن طريق الاتحاد الوطني بين جميع القوى الوطنية، يمكن التعجيل بإجراء الانتخابات التي يراد اليوم، كما نرى، تأجيلها والتسويف في إجرائها، كما يمكن النضال بنجاح في سبيل إحباط كل محاولة يراد منها تزييف إرادة الشعب في الانتخابات.

إن كل ما جرى ويجري منذ انهيار الديكتاتورية يقنع الشعب بأن الاتحاد الوطني بين القوى الوطنية الديمقراطية هو ضرورة وطنية ملحة وواجب وطني رئيسي، فإن قانون المطبوعات الذي صدر، ومشروع قانون الأحزاب، ومشروع قانون الانتخابات، وما فيها من أشياء تناقض أبسط مبادىء الديمقراطية البرجوازية نفسها، ثم إبقاء ضحايا الديكتاتورية حتى اليوم في السجون مثل فلاحي الصقيلبية، وعدم إلغاء بعض القوانين الإرهابية الفظيعة التي صدرت في عهد الديكتاتورية مثل قانون الأحكام العرفية، وقانون سوق الطلاب إلى الجندية عقاباً لهم على نضالهم الوطني والديمقراطي. واستمرار التدخل في شؤون النقابات، واعتقال العمال وسجنهم كما جرى خلال إضراب عمال النسيج الآلي في حلب، وتفريق المظاهرات الشعبية السلمية بالقوة كما جرى أثناء عيد الجلاء في بعض المناطق واعتقال المعلمين أثناء إضرابهم الأخير، وغير ذلك. كل هذا يدل الشعب على أن الطريق الوحيد هو طريق الاتحاد الوطني.

غير أن قوى الاستعمار والرجعية تحاول منع هذا الاتحاد سواء بأساليب الضغط والتهويل، أم بأساليب الإغراء والوعود التي تبذل لبعض العناصر المسؤولة في بعض الجماعات والهيئات الوطنية التقدمية، كوعدها بالاشتراك في الحكم أو وعدها بمساعدتها على النجاح في الانتخابات إن هي استنكفت عن الاتحاد الوطني ومانعت في تحقيقه.

ولكن، رغم ذلك كله، فإن تيار الاتحاد الوطني ينمو ويشتد بين جميع فئات الشعب، وقد ظهر ذلك بين العمال وفي الحركة النقابية بمناسبة أول أيار وفي الإضرابات، كما يظهر هذا التيار بين الفلاحين وكذلك بين الطلاب والمثقفين فجميعهم يريدون الوحدة الوطنية لمقاومة الاستعمار والرجعية.

ومن المفهوم أن الحزب الشيوعي في سورية سيخوض الانتخابات، لأنها في نظره معركة ضد الاستعمار والرجعية، وفي سبيل الديمقراطية والاستقلال الوطني والسلم. وسيخوضها حزبنا على أساس خطة الجبهة الوطنية الواسعة إلى أبعد الحدود.

ويهم الحزب طبعاً في الدرجة الأولى تأييد مرشحيه وجميع المرشحين الوطنيين الديمقراطيين المتحلين بالحزم والصلابة، ولكن خطتنا الانتخابية لن تكون ضيقة أبداً. فنحن سوف نستهدف، في جميع المناطق، فوز التقدميين جميعاً. ولكن ينبغي أن يكون واضحاً أن الصفة الأولى للتقدمية في نظرنا، ليست الديمقراطية الزائفة، أو المظاهر «التقدمية» الغربية المزعومة، فالتقدمية ليست قائمة على إنكار التقاليد العربية الطيبة الشريفة ولا على التنكر للعادات الوطنية الشعبية، كما يحسب بعضهم. بل على العكس، فإن المقياس الأول للتقدمية الحقيقية هو، قبل كل شيء، الصلابة الوطنية، وكره الاستعمار ومحاربته، والعمل لإحياء كل ما هو تقدمي ونيّر في التقاليد العربية. ويتبع ذلك طبعاً التمسك بالحريات الديمقراطية، والعمل على إنقاذ شعبنا من البؤس والفقر والبطالة والتأخر.

وعلى هذا فإن حزبنا سيؤيد، بكل قوة وبكل إخلاص، كل مرشح وطني ديمقراطي مهما كان حزبه وهيئته واتجاهه، بل ومهما كان مركزه الاجتماعي، وسواء كان مثقفاً أم عاملاً أم فلاحاً أم تاجراً أم صناعياً أو رجل دين، بشرط أن يقاوم الاستعمار ومشاريعه الحربية الاحتلالية و«مساعداته» العسكرية المزعومة، وأن يعمل في سبيل الحريات الديمقراطية.

نتائج الانتخابات:

صوَّت الناخبون في الدوائر على أساس الغرفة السرية، وكانت الغرفة السرية مفاجئة غير منتظرة لجميع المرشحين. فقد أظهرت هذه الغرفة السرية أن الغالبية العظمى من المصوتين، استفادوا من الغرفة السرية ليتحرروا من الضغط الواقع عليهم ويصوتوا كما يريدون، ونتيجة ذلك حدثت مفاجآت عديدة. ومع ذلك فقد حملت النتائج في دمشق خالد بكداش إلى الكرسي النيابي، وأصبح أول نائب شيوعي في المجلس النيابي السوري . وقد بلغ عدد المقترعين في محافظة مدينة دمشق الممتازة ٣٧٣٦٦مقترعاً.

وكان أول الناجحين خالد العظم الذي حصل على ٢١٣٧٠صوتاً، تلاه خالد بكداش الذي نال ١٦٥٣٢صوتاً. ونجح إلى جانبهم كل من صبري العسلي ومنير العجلاني

وسهيل الخوري، ووقع الباقون، وبينهم رئيس الوزراء سعيد الغزي في انتخابات الإعادة، وحصل مرشحا الاتحاد الوطني جورج عويشق على ٨٥٠٠صوتاً ونصوح الغفري على ٨٢٧٢صوتاً.

لقد كانت هذه الانتخابات، أول انتخابات حرة نزيهة بكل معنى الكلمة، وقياساً إلى الانتخابات التي سبقتها. وقد سادت فيها أجواء الحرية والديموقراطية، فبعد سلسلة الدكتاتوريات العسكرية والاعتقالات والسجون، انطلقت الجماهير لتعبر عن إرادتها في الحرية والكرامة، كما سادتها أجواء الوطنية والعداء للمستعمرين ولمؤامراتهم وأحلافهم ومواثيقهم، وجرى التعبير في هذه الانتخابات عن مواقف طبقية واضحة، خاصة، ضد بقايا الإقطاعية وكبار الملاكين.

لقد خذل الناجحون في حماة قائمة بقايا الإقطاع وكبار الملاكين ، حسني البرازي وعبد الرحمن العظم وفريد مرهج. كما أصيبت الإقطاعية الممثلة بآل الحراكي في معرة النعمان بهزيمة مماثلة. وفي طرطوس سقط الإقطاعي الكبير رياض عبد الرزاق.

لقد لعبت بعض التدابير الانتخابية دوراً في النتائج، وخاصة أن الانتخابات كانت مباشرة، وليست على درجتين كما كان يجري في الماضي، إضافة إلى أن الغرفة السرية لعبت دوراً هاماً جداً في ذلك الوقت إذ كان الفلاحون وأفراد الشعب يكتبون قوائمهم في بيوتهم ويحفظونها في ثيابهم، ثم يخرجونها في الغرفة السرية، ومع ذلك فقد استطاعت القوى التقدمية أن تحول دون نجاح عدد كبير من الرجعيين، وليس كلهم، وأوصلت إلى البرلمان ١٦ نائباً لحزب البعث العربي الاشتراكي، ونائباً شيوعياً، وعدداً من البرجوازيين الوطنيين وعلى رأسهم خالد العظم.

وإذا كانت القوى التقدمية، والحزب الشيوعي بخاصة، لم تستطع أن تحقق نجاحات أكثر، فإن ذلك يعود إلى طبيعة النظام الانتخابي. فعدد الأصوات التي نالها مرشحو الاتحاد الوطني، تقترب أو تماثل مجموع الأصوات التي نالها مرشحو حزب البعث، ولكن النتائج كانت مختلفة، وقد نجح نواب في بعض المناطق بألفي صوت.

لقد كانت المعركة الانتخابية معركة سياسية وطبقية وديموقراطية، فتحَتْ الطريق لتطور ديموقراطي في سورية، انعكس في حياة سورية طوال السنوات التي تلتها حتى إعلان الوحدة السورية المصرية.وعرفت هذه السنوات بالمرحلة الذهبية في تاريخ سورية المعاصر.

ويمكن أن يطرح هنا سؤال وجيه يدور حول الأسباب العميقة لنجاح خالد بكداش. فقائد الحزب الشيوعي السوري، كان حتى هذه الانتخابات يعيش حياة سرية، متنقلاً بين دمشق وبيروت وموسكو، ولم يختلط بجماهير الشعب، ولم تتعرف على شخصيته

القوى السياسية، وكانت تعرفه من خلال كتاباته ومايروى عنه ولهذا فمن الصحيح والضروري أن نطرح الاستنتاج الأساسي هنا، وهو أن التصويت لخالد بكداش، كان تصويتاً للوطنية الصادقة وللعداء القوي للمستعمرين وأحلافهم، وتصويتاً للنضال الديموقراطي في سبيل الحريات الديموقراطية لجماهير الشعب السوري وللنضال الطويل ضد الديكتاتوريات العسكرية المتعاقبة. وعندما أعلن صلاح الدين البيطار في المجلس النيابي: من منا لم يصفق لانقلاب حسني الزعيم، رفع خالد بكداش يده وقال: نحن لم نصفق لهذا الانقلاب وحاربناه منذ أول يوم، وقد كان تصويتاً للنضال الطبقي الذي خاضه ويخوضه الحزب الشيوعي السوري والمعارك الطبقية العمالية والفلاحية التي خاضها في كل مكان، وأخيراً تصويتاً للثقة بالحزب الشيوعي السوري ومناضليه، ولفكرة الجبهة الوطنية والاتحاد الوطني وجمع القوى الوطنية والديموقراطية في صف واحد. وقد صنع هذا الانتصار مئات وآلاف الشيوعيين والوطنيين التقدميين، نساءً ورجالاً، شباباً وشيوخاً، مثقفين وعمالاً وفلاحين.

وهكذا ما إن أعلنت النتائج، وعرف المواطنون بنجاح خالد بكداش، حتى بدأت الزغاريد والعراضات في مختلف الأحياء، وبدأ زحف الجماهير إلى بيته في حي ركن الدين. وكانت وفود الأحياء تأتي مجتمعة وبصفوف متراصة، وكان عليّ أن أتابع بعين ساهرة هذه الحشود لئلا يندسُ بينها من يسعى إلى تعكير الأجواء ويفسد الفرحة بالنجاح. وقد اعتمدت في سبيل ذلك على عدد كبير من الرفاق لاستقبال كل وفد وإدخاله إلى البيت بعد أن يمر من أمامي عند مدخل البيت. وكان على الرفاق أن يتأكدوا من صفاء الأجواء.

لا أستطيع تقدير عدد الذين دخلوا بيت خالد بكداش في الأيام الثلاثة التي تلت الانتخابات، وهم في أقل تقدير ألوف من مختلف فئات الشعب وخاصة من الجماهير الشعبية ورجالات الأحياء والعمال ومن الشباب والطلاب والنساء وعدد ملحوظ من المثقفين. وكان خالد بكداش يستقبل الوفود ويشكرها على دعمها ويتحدث إليها عن برنامجه كنائب وعن سياسة الحزب الشيوعي السوري.

كان لنجاح بكداش صدى واسع، بين الجماهير الشعبية والقوى الوطنية داخل سورية وخارجها. فقد صدرت جريدة «الطليعة» الدمشقية في عددها رقم ٣٦ تاريخ ٣٠ أيلول ١٩٥٤ تحمل عنواناً كبيراً في صدر صفحتها الأولى «خالد بكداش نائب دمشق، انتصار رائع للقوى التقدمية في الانتخابات». ونشرت أخباراً مفصلة في

الصـفحتين الأولى والثانيـة عـن نتـائج الانتخابـات وعـن نشـاطات خالـد بكـداش الانتخابية.

ونشـرت جريـدة «الأهـرام» المصـرية حديثاً عـن الانتخابـات السـورية وأشـارت إلى نشاط الحزب الشيوعي، وأنه تقدم إلى النـاخبين بعدد كبير من المرشحين وقالت «إن الحـزب يبذل جهداً واسـع النطاق للظفـر بـأكبر عـدد ممكـن من المقاعـد البرلمانيـة في الانتخابـات القادمـة». وذكـرت أن الشـيوعيين يوسـعون حملتـهم الانتخابيـة ويطوفـون بالبيوت بيتاً بيتاً ليظفـروا بالأصـوات. ثم تكلمـت عـن برنـامج الشـيوعيين الانتخـابي، وقالـت إنـه يتضمن في جملـة بنـوده محاربـة خطـط المسـتعمرين، والدفـاع عـن مطالـب مختلف فئات الشعب، ووضع حد لاستغلال الإقطاعيين للفلاحين والعمال والزراعيين.

كمـا نشـرت جريـدة «أخبـار اليـوم» رسـالة مفصـلة عـن مختلـف نـواحي النشـاط الانتخـابي في دمشـق وعـن الجـو السياسـي وقالـت «لأول مـرة في تـاريخ الحكم النيـابي يرشـح زعيم الحـزب الشـيوعي نفسـه في الانتخابـات. وزعيم هـذا الحـزب هـو خالـد بكداش، ويعدُ من أقدر وأذكى الرجال السياسيين في البلاد العربية.

ونشرت مجلة «النقاد» الدمشقية مقالة جاء فيها: ومن الجدير بالذكر في أحاديث الانتخابـات النيابيـة أن الأسـتاذ خالـد بكداش الأمـين العـام للحـزب الشـيوعي، نجاحـه مضمون وقوي في وقت واحد، لأن النـاجحين في دمشق على اختلاف ميولهم ونزعـاتهم لا يكتفون بتأييدهم فحسب، ولكنهم يعملـون جادين ونشـيطين في الـدعوة إلى انتخابـه نائباً عن العاصمة السورية...».

وجاء في كتـاب «النكبـات والمغـامرات» لمؤلفـه السـيد بشـير فنصـة حـول الانتخابـات ونجاح خالد بكداش: كانـت معركـة انتخابيـة حـرة، سـادتها روح رياضـية ومارسـت مـن خلالها جميـع الأحـزاب حقوقهـا الديموقراطيـة بكـل انطـلاق وحريـة سـواء أكانـت مـن أقصى اليمين أم من أقصى اليسار.

والغريـب في أمـر هـذه المعركـة الانتخابيـة، أن التقـى فيهـا رجـلان مـن رجـالات السياسـة البـارزين في البلد، الأول يمثل اليمين، والثـاني يمثل اليسـار، الأول كان خالـد العظـم ممثـل البرجوازيـة السـورية الناشـئة، والثـاني خالـد بكـداش زعـيم الحـزب الشيوعي.

لقد جمع بين الرجلين هدف واحد مشترك، هو الرغبة الملحة في إجراء إصلاحات جذرية في الحقل الداخلي، وفي سياسة خارجية تقوم على أساس الصداقة أو التحالف بين سورية العربية والاتحاد السوفييتي لمجابهة الضغوط الإمبريالية المختلفة على هذا البلد.

ومن هنا نرى أن قضية الصداقة السورية ـ السوفيتية ليست حديثة العهد، بل لها جذورها العميقة منذ فجر الاستقلال، إذ قدم الاتحاد السوفيتي مساعدات لا تنكر للحركات الوطنية التي كانت تناهض الانتداب الفرنسي، ومن ثم دعم مواقف الحكومات السورية المتعاقبة على الحكم منذ مشاريع الأحلاف المشبوهة.

وقد دخل المرشحان المذكوران في قائمة واحدة، اكتسحت المواقف، أسفرت عن فوزهما بأغلبية الأصوات إلى جانب فوز العديد من مرشحي حزب البعث العربي الاشتراكي.

وهكذا أثبتت سورية العربية للعالم مرة أخرى أن لا خطر عليها من وجود يمين ويسار وأن شعبها، إذا تركت له حريته ومارس حقوقه الأساسية يستطيع أن يحسن الاختيار.*

وتلقى خالد بكداش مئات البرقيات من مختلف مناطق سورية ولبنان، تهنئه بفوزه بالنيابة، وأنها انتصار للنضال ضد الاستعمار وعملائه، وأذكر هنا بعض هذه البرقيات:

«ثقة الشعب بكم هي ثقة بالمفكرين الأحرار وبالمثقفين المناضلين من أبنائه في سبيل فكر حر وحياة أفضل».

بيروت :

جورج حنا، حسين مروّة، أحمد سويد، محمد شرارة، محمد إبراهيم دكروب، نصار الأسعد، رضوان الشهال، أميل داغر، مصطفى محمود.

«إن فوزكم بالنيابة نصر للعدالة والحرية والديموقراطية»".

دير الزور:

بدر الدين عبيد، ممدوح عياش، وجيه جاسر، طه الصالح، داود الجندي.

«تحققت بنجاحكم آمال الشعب السوري الذي كان ينتظر هذا الحدث التاريخي العظيم بفارغ الصبر أهنئ الشعب السوري».

حمص :

الدكتور خالد البني

«فوزكم فوز الطبقة العاملة، وفقكم الله لخدمة الوطن والسلم ضد الاستعمار».

---

* - النكبات والمغامرات ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

صلخد:

جورج أوبري، كرم الحمصي، عبد الله غجري، مصطفى المدني، فارس جفامي، ميشيل شلهوب، بديع ترسن.

«باسم خمسين شخصاً أقول: نحن عمال النسيج الأغباني اليدوي، نشارك عمال سورية والشعب السوري ابتهاجه بفوزكم بالنيابة الذي ما كان دعامة للقضايا الوطنية فقط، بل كان نصراً لمطالبنا العمالية من حقوق وحريات نقابية وأجور حسنة وثماني ساعات عمل وضمان اجتماعي. نهنئكم ونهنئ الشعب السوري".

حلب :

أنطوان جبرا.

«فوزكم بالنيابة نقطة انعطاف وتحول في حياة سورية البرلمانية السياسية».

عامودة:

بيدروس إبراهيم، عبد الغني دباغ، نذير دباغ، جميل دباغ، حسن مرجي.

«نيابتكم عن الشعب السوري تكريس لعهده الصحيح إليكَ بقيادة النضال العنيد في سورية والبلاد العربية لأجل التحرر الوطني».

مرجعيون:

مير مسعد.

وقد فسّر أكرم الحوراني نجاح خالد بكداش في مذكراته التي نشرتها مكتبة مدبولي في القاهرة فيقول:

«كان لتعاظم حركة الفلاحين والعمال في سورية، أثره الكبير في تراجع الإقطاع وأفول نجمه ونجاح ستة عشر نائباً عن حزب البعث، ولكن ذلك سحب آثاره أيضاً على الانتخابات بالنسبة للفئات والأحزاب التقدمية الأخرى، وقد كان ذلك بارزاً في انتخاب خالد بكداش رئيس الحزب الشيوعي نائباً عن دمشق. ولأن ذلك كان أول نجاح لنائب شيوعي في المجالس العربية، وجب علينا أن نعلل هذه الظاهرة بدقة، تلك الظاهرة التي اختلف الناس في تعليلها فخدعتهم الظواهر عن معرفة الوقائع الحقيقية.

يعود نجاح خالد بكداش لأسباب عدة:

١. عرف خالد بكداش في الماضي مناضلاً وطنياً عام ١٩٣٦، عندما كان الوفد السوري في باريس، يفاوض حكومة ليون بلوم لعقد المعاهدة السورية، وقد اشتركت

الكتلة الوطنية والجبهة الشعبية الفرنسية في إبراز دوره في هذه المفاوضات، هذا إضافة إلى ما يتمتع به من المزايا القيادية الذاتية، ولو قدر له عدم الانتماء إلى الحزب الشيوعي لكان من المحتمل أن يفوز بالنيابة عن دمشق قبل الانتخابات عام ١٩٥٤ .

٢- ينتمي خالد بكداش لحي ركن الدين المعروف بعصبيته وشدة تماسكه، مما مكنه أن يتبادل الأصوات الانتخابية، وأن يعقد التحالف مع خالد العظم ومع المرشحين الآخرين في حي الميدان والأحياء الشعبية الأخرى.

٣- يضاف إلى العاملَيْنِ السابقَيْنِ عامل هام، وهو نضال حزب البعث العربي الاشتراكي في مقاومته العنيدة للغرب ومشاريعه وأحلافه، وفي تبشيره بالاشتراكية ومعارضته الباسلة للديكتاتورية، وقد ساعدت هذه الشعارات التي أطلقها البعث وناضل من أجلها على نجاح خالد بكداش في معركته الانتخابية».*

* – مذكرات أكرم الحوراني. القاهرة مكتبة مدبولي ص ١٦٨١

الفصل السادس عشر

البرلمان الجديد وتركيبته السياسية

دعي البرلمان الجديد للاجتماع وكان تشكيله السياسي على النحو التالي:

٣٨ نائباً الكتلة الديمقراطية (خالد العظم)، ٢٧ نائباً حزب الشعب، ١٨ نائباً حزب البعث العربي الاشتراكي، ١٨ نائباً كتلة العشائر، ١٤ نائباً الحزب الوطني، ١٠ مستقلون، ١٦ الكتلة الحرة، ٥ الكتلة الإسلامية، ٢ الحزب السوري القومي، ٢ الحزب التعاوني، ١ الحزب الشيوعي السوري.

ويتضح من هذه التركيبة حجم القوى الرجعية وإمكاناتها . ولذلك كان العمل في إطار هذا المجلس صعباً ومعقداً، واستطاع خالد بكداش أن يثبت وجوده ودوره، اعتماداً على كفاءته ومبادراته، وعلى دعم الشارع وميزان القوى السياسي الشعبي، والدور الهام الذي لعبه الجيش.

ومنذ اليوم الأول بدأت مناورات الرجعية. فقد كان المرشح لرئاسة المجلس الأستاذ سعيد الغزي، رئيس الحكومة التي أشرفت على الانتخابات ونجحت في تحقيق مستوى عال من النزاهة والدقة. وطرح حزب الشعب مناورة جديدة، إذ اقترح أن تكون رئاسة المجلس له، على أن يتولى خالد العظم رئاسة الوزارة. والتزم خالد العظم بذلك وأيد ترشيح ناظم القدسي رئيساً للمجلس وانتخب لهذا المنصب الهام.

بعد ذلك بدأت المساعي لتشكيل الحكومة الجديدة. فقد كان من الطبيعي أن يقوم بذلك خالد العظم، بصفته رئيس أكبر كتلة برلمانية، والنائب الذي حاز على أعلى الأصوات. وهذا ما تم فعلياً، إذ استدعاه رئيس الجمهورية وكلفه بتشكيل الحكومة. وبدأ خالد العظم مشاوراته، ولكنه فوجيء برفض الحزبين البرجوازيين، الوطني والشعب، المشاركة بوزارة برئاسته. وفكر بالانسحاب، ولكن رئيس الجمهورية أصر على المتابعة، وتشكيل حكومة دون هذين الحزبين. ولم تنجح هذه المحاولة.

ونجحت المناورة، وتراجع خالد العظم، واستدعي الشيخ الجليل فارس الخوري لتشكيل الحكومة، وتم ذلك بمشاركة الحزبين البرجوازيين والكتلة الحرة وكتلة العشائر.

دعا خالد بكداش قيادة الحزب الشيوعي للاجتماع لبحث الموقف الوزاري، وحضر الاجتماع إلى جانب الأمين العام الرفاق: فرج الله الحلو، نقولا شاوي، حسن قريطم، أرتين مادويان وأنا، وقدم تقريراً عن الوضع وأشار إلى أن الحكومة الجديدة، بصرف النظر عن ماضي رئيسها ونضاله إلا أن القوى النافذة هي حزب الشعب الذي عمل ويعمل للاتحاد مع العراق، مع كتل أخرى تسير بنفس الاتجاه السياسي. وطرح قضية منح الثقة أو عدمها، وتم الاتفاق على عدم منح الثقة لوزارة فارس الخوري للأسباب السياسية المذكورة.

وعندما عقدت جلسة الثقة بالوزارة قدم رئيس مجلس الوزراء بيانه الوزاري وضمنه إعلاناً بعدم ضم سورية إلى أي حلف أو مشروع مطروح. ولكن هذه الصيغة لم تلبِّ مطلب القوى الوطنية في البرلمان. وتوجه خالد بكداش في مداخلته يطلب التأكيد على عدم جر سورية إلى أية أحلاف أو اتفاقات عسكرية، كما قام خالد العظم بتوجيه أسئلة مشابهة. وجواباً على ذلك أدلى فارس الخوري في المجلس بتصريح جاء فيه:

(أما من جهة تعهدات أو الدخول بالتزامات مع الدول الأجنبية غربية أو شرقية، فإنني أصرح من على هذا المنبر أنني عدو لها، ولن أوافق عليها ما دمت في هذه الوزارة.

(وإذا قدم لنا شيء من هذه العروض، التي لم تصل إلينا بعد، أو لوح إلينا بها ولو بالإشارة، فإننا نرفضها رفضاً باتاً ولن نبحث هذا.

(نحن لا يمكننا أن نرتبط بشيء، ولا يوجد شيء في الأوراق والأضابير الموجودة أمامنا، أما وإن وجد شيء من ذلك فنحن نرفضه رفضاً باتاً.

(وهذه الشكوك والتكهنات بأن الوزارة رجعية وتريد أن تفعل كذا وكذا وتتصل بدول الغرب، أو تعقد معها اتفاقات ضد مصلحة البلاد، هذا لا أصل له مطلقاً، ولا يوجد في ضميرنا ولا في جدول أعمالنا ولا في برامجنا ولا في أضابيرنا ولا بين الأوراق الموجودة تحت أيدينا، ولا في نية أحدنا أن يفعل ذلك).

وتوجه خالد بكداش بسؤال: هل يعتبر دولة فارس الخوري تصريحاته كجزء لا يتجزأ من البيان الوزاري؟ فأعلن رئيس مجلس الوزراء أن تصريحاته هي جزء من البيان الوزاري، وأنه يطلب الثقة على أساس البيان والتصريحات.

عند سماع هذا التصريح، فكر خالد بكداش بالأمر، وخرج من قاعة المجلس يفتش عني للتشاور في تغيير قرار قيادة الحزب حول التصويت بناء على هذا التصريح، وكنت عملياً عند باب المجلس الخارجي المطل على وزارة الموصلات وناداني، وأخبرني بما جرى وبتصريح رئيس مجلس الوزراء، وقال بأنه لم يعد ممكناً التصويت بحجب الثقة. فقلت له هذا قرار القيادة، فقال لقد تغيرت الوقائع، وما جرى هو موقف سياسي هام يتعلق بمصير البلد. واقترح اتخاذ موقف الاستنكاف، وافقت معه، واتفقنا على تحمل المسؤولية بشكل مشترك، وعاد إلى متابعة الجلسة وصوت بالاستنكاف. وكانت نتيجة التصويت نيل الحكومة الجديدة ثقة المجلس بـ ٨٤ صوتاً وحجب الثقة ٤٨ نائباً، من كتلة حزب البعث وقسم هام من الكتلة الديمقراطية.

وبعد انتهاء الجلسة تداعى الرفاق أعضاء القيادة إلى منزل الرفيق بكداش، وجرى تبادل الرأي في الموقف الذي اتخذ خلال الجلسة بقرار من خالد بكداش ومني، فأقروا ذلك وعدّوه موقفاً صحيحاً من الناحية السياسية.

عالج خالد بكداش موضوع تصويت الشيوعيين بالثقة للحكومات البرجوازية في كلمته التي ألقاها لمناقشة البيان الوزاري وقال:

(يقول بعضهم، ولأكن صريحاً فأقول يشيع بعض أنصار الحكومة، إن من عادة الشيوعيين أن يصوتوا ضد كل حكومة... يريدون بذلك أن ينتقصوا من مغزى تصويت زميلكم الواقف أمامكم، لا عددياً. فهو صوت واحد. ولكن سياسياً أيضاً!

(فاسمحوا لي أن أقول لكم إن هذا غير صحيح، فالشيوعيون في فرنسا مثلاً (وهم أكثر من مئة نائب لا نائب واحد) صوتوا لحكومة منديس فرانس لموقفه ضد أسرة الدفاع الأوربية، ولوعده القاطع بوقف الحرب القذرة الاستعمارية في الفيتنام.

(كذلك في الهند يصوت الشيوعيون لسياسية جواهر لال نهرو عندما تعمل في سبيل صون السلم وعلى الابتعاد عن كل تكتل حربي عسكري، مثل كتلة جنوبي شرقي آسيا التي رأينا الهند العظيمة وكذلك بورما الصغيرة ترفض الدخول فيها.

والشيوعيون في سورية الذين أمثلهم هنا، مستعدون للتصويت لحكومة تتخذ موقف رفض قاطع وصريح، غير مشروط للمشاريع والأحلاف والتكتلات الاستعمارية الحربية الأمريكية والإنكليزية، المكشوفة منها والمستورة! وتتعهد باحترام الحريات الديمقراطية، وتتخذ تدابير ولو بسيطة ولكن جدية لتحسين حالة العمال والفلاحين وسائر الكادحين في بلادنا.

(ومهما كان مصير الوزارة، وسواء أنالت الثقة أم لم تنلها، فأنا أعتقد أن في المجلس وفي البلاد، جميع الإمكانات لكي تقوم حكومة وطنية ديمقراطية تقف في وجه الاستعمار ومشاريعه وتساهم في دعم السلم العالمي وتحترم الحريات الديمقراطية، وتعمل لازدهار البلاد الصناعي والزراعي والثقافي، ولتحسين حالة العمال والفلاحين وسائر الكادحين).

وكان خالد بكداش قد ناقش في خطابه الذي ألقاه حول موضوع الثقة والبيان الوزاري عدة مواضيع. بينها مسألة الاستقرار في البلاد وذكر ما يلي:

(لقد صدق البيان الوزاري في إصراره سواء في مستهله، أو في خاتمته، على أن البلاد تنشد الاستقرار!

فهو شعور شعبي عام لا جدال فيه، بل هو حاجة قومية حيوية تجابهها سورية العربية اليوم.

فأين طريق الاستقرار؟

يقول أنصار الوزارة إن الطريق الوحيد نحو الاستقرار هو التصويت لوزارتهم. هكذا يقولون، وهكذا تقول صحفهم. أما معارضو الوزارة فيقولون إن الطريق نحو الاستقرار هو قيام غير هذه الوزارة.

فلابد إذن من تحديد مفهوم الاستقرار.

هناك استقرار واستقرار.

هناك استقرار ظاهري، عارض، طارىء، واه!

وهناك استقرار حقيقي عميق الجذور، وطيد البنيان لا تزعزعه العواصف، ولا تنال منه الزلازل.

عهد الديكتاتوريات في سورية مثلاً، كان عهد «استقرار» أيضاً، أو هكذا كان يبدو للعين المجردة. وقد أخذ كثيرون - بينهم مخلصون - بظواهر استقراره، فأشادوا بها. كما ذعر آخرون من ظواهر ذلك الاستقرار فطووا أعلامهم وفقدوا ثقتهم بالشعب مستغربين متسائلين، إذ بدا لهم الشعب وكأنه راض بهذا الاستقرار، فهم لم ينظروا إلى بعيد، ولم يروا النار تحت الرماد. ولكن هناك آخرون لم يؤخذوا بذلك الاستقرار وبما يحف به من مظاهر الجبروت، ولم يفقدوا ثقتهم بالشعب، فلم يهنوا ولم يطووا أعلامهم. وفعلاً تبين أن ذلك الاستقرار الديكتاتوري هو استقرار ظاهري واه، إذ لم

يلبث أن انهار تحت ضربات التآخي الرائع الذي تحقق بين الشعب وبين جماهير الجنود والضباط الشرفاء!

أجل! هناك استقرار واستقرار!

في الجارة إيران مثلاً يقولون أيضاً إنهم ينشدون الاستقرار: فيضعون الدكتور مصدق في السجن، ويحكمون وزيره فاطمي بالإعدام، ويعدمون رمياً بالرصاص عشرات الضباط الوطنيين البواسل من مختلف الاتجاهات،... كل ذلك لأجل تأمين الاستقرار... استقرار الشركات الأمريكية الإنكليزية في آبار البترول الإيرانية، واستقرار إيران بأسرها في أحضان حلف تركيا الباكستان!

وفي العراق العربي الشقيق، حلُّوا المجلس النيابي قبل أن يمضي عليه شهران، وأخرجوا مجلساً بالتزكية وملؤوا السجون بالأحرار لماذا؟... في سبيل استقرار المعاهدة البريطانية العراقية، وفي سبيل استقرار المساعدات العسكرية الأمريكية المزعومة، وفي سبيل استقرار العراق بأسره قريباً في أحضان حلف تركيا الباكستان أيضاً!

وفي الأردن يقتلون أربعين شهيداً لإخراج مجلس نيابي يؤمن الاستقرار للاحتلال البريطاني وللمعاهدة الأردنية البريطانية وللنقطة الرابعة الأمريكية!..

وفي مصر يعتقلون ويرهبون، ويحطمون الأقلام ويكمون الأفواه في سبيل تأمين الاستقرار وراحة البال للأمريكيين والبريطانيين فيما يتعلق بمصير مطامعهم في القنال، وفيما يتعلق بسعيهم إلى جر العرب إلى مغامراتهم العسكرية وبرامجهم الحربية عن طريق ربيبتهم الرجعية التركية!

ولكن الحوادث والتجارب تبين أن هذا النوع من الاستقرار يناقض التطور التاريخي، يناقض إرادة الشعب، فهو لا يدوم، فهو إذن ليس باستقرار.

فمثل هذا الاستقرار، لا يريده أحد في سورية، ولا يمكن أن تفرضه أية قوة عليها!

إن طريق الاستقرار في وطننا السوري العربي العزيز، ليس طريق التنكر للتطور التاريخي، ليس طريق تحاشي غضب الاستعمار، ليس طريق تجاهل إرادة الشعب! الطريق نحو الاستقرار في سورية هو طريق احترام إرادة الشعب!).

وعالج قضية الحريات الديمقراطية وقال:

لقد جعل البيان الوزاري عنوان السياسة الداخلية للوزارة «سيادة القانون»! ويقول في هذا المجال ما يلي: «ومن شأن سيادة القانون أن ترعى الحكومة رعاية كاملة

وتصون صيانة حازمة الحريات العامة والخاصة للجماعات والأفراد، دون أن تدع لأحد مجالاً للعبث بهذه الحريات أو تشويه معالمها أو تجاوز حدودها المقررة.

هكذا؟ كلما تكلم بيان وزاري عن الحريات أردف ذلك فوراً بالكلام عن حدودها المقررة!

ولكن المقررة أين؟... في القوانين طبعاً. فما هي هذه القوانين؟ يقول البيان الوزاري في حقل السياسة العدلية بأن الحكومة ستعنى بإبدال ما بقي من النصوص القانونية الصادرة قبل عهد الاستقلال بنصوص جديدة تتفق مع أوضاع البلاد وتطورها.

وفي انتظار ذلك؟... ستبقى الحدود المقررة للحريات هي الحدود الواردة في قوانين عهد الانتداب!

وعدا ذلك، هناك القوانين الجائرة التعسفية التي وضعت بعد «عهد الاستقلال»، وخصوصاً في عهد الديكتاتوريات، مثل المرسوم رقم ١٨٨ الذي يشل بل يمنع نشاط المنظمات الديمقراطية وحركة السلم، وكذلك مرسوم سوق الطلاب إلى الجندية جزاء لمساهمتهم في أي نضال وطني أو ديمقراطي،... فهل ستبقى السيادة لهذه القوانين أيضاً؟ ثم قانون المطبوعات الذي يجعل لرئيس الوزارة أو لمجلس الوزراء سلطة مطلقة للتصرف بامتيازات الصحف ورخصها، هل ستبقى له السيادة أيضاً؟

صحيح أن المادة ١٦٢ من الدستور تنص على تأليف لجنة نيابية للتوفيق بين التشريع القائم وأحكام الدستور، على أن تنجز مهمتها خلال سنتين، ولكن هناك عدد من القوانين واضح جوهرها وتعسفها من حيث خنقها أبسط الحريات، فلماذا لا تلغى حالاً ويوضع غيرها؟

وتبدي الحكومة في بيانها رغبتها في تعديل قانون الانتخاب... ففي أي اتجاه ستعدله؟... هل ستجعله على أساس التمثيل النسبي الذي يسمح بتمثيل إرادة الشعب بشكل أقرب ما يمكن إلى الصدق والديمقراطية؟ ليس هناك ما يدل على ذلك، بل ربما كان الجو العام الذي يخلقه البعض حول هذا المجلس، داعياً إلى الخشية من أن يتناول التعديل مثلاً... إلغاء الغرفة السرية، بحجة أن الانتخابات التي جرت قبل هذه الغرفة السرية وبدونها كانت تنشىء مجالس نيابية أكثر تجانساً واستقراراً! ضحك في القاعة.

من كل ذلك يتضح أن سيادة القانون أي سيادة القوانين الحالية، وصون الحريات العامة للأفراد والجماعات شيئان لا يأتلفان أبداً، بل هما متناقضان تناقضاً كلياً!

فالقضية متوقفة إذن على اتجاه الوزارة نفسها، على نظرتها هي إلى الحريات الديمقراطية، على مقدار احترامها لهذه الحريات،... فهل هناك ضمانة من هذه الناحية؟... إن على الوزارة فيما أعتقد أن تعلن أنها لن تطبق القوانين الجائرة المذكورة وأنها ستسارع في تقديم مشاريع قوانين - وهي ليست كثيرة - لضمان حرية الاجتماعات، والجمعيات والتجمعات والأحزاب والنشر... لكي يتيسر للشعب تنظيم نضاله ضد الاستعمار ومشاريعه ومؤامراته وفي سبيل الدفاع عن كرامته ولقمته وسائر مطالبه الحيوية.

وتناول الخطاب قضايا العمال والفلاحين وقانون العمل، وغيرها من المواضيع المرتبطة بالثقافة والدراسة على مختلف المستويات الابتدائية والثانوية والجامعية. وعند تعرضه للعلاقات مع لبنان جاء في الخطاب: (ينبغي السعي فعلياً لا كلاماً لتحقيق الوحدة الاقتصادية مع لبنان الشقيق، لا يجوز التضحية بمصلحة الشعبين معاً في سبيل حفنة من كبار المستوردين في لبنان، وفي سبيل مصلحة حفنة من كبار المستثمرين في سورية).

سميت الوزارة وزارة إنقاذ، إلا أن تركيبها يشير إلى أن الوزارات الأساسية أصبحت بيد حزب الشعب وكتلة العشائر والكتلة الحرة، وهم جميعاً من اتجاه سياسي واحد تقريباً. وأصبح فيضي الأتاسي وزيراً للخارجية، وأحمد قنبر للداخلية ومنير العجلاني للمعارف وعلي بوظو للعدلية ورزق الله أنطاكي للمالية وعبد الصمد الفتيِّح للزراعة.

وكانت الحكومة برئاسة فارس الخوري. ويصف خالد العظم في مذكراته هذه الشخصية ويقول: (كان الخوري من الرعيل الأول الذي حارب الانتداب الافرنسي، وكان له في الشعر والقانون مقام سام. إضافة إلى ما يتمتع به من الكياسية والتحبب إلى الناس، فكان يستميل قلوبهم، ولكنه لم يكن ذلك الزعيم الذي يسيِّر دفة الأمور في وجهة معينة يتبناها ويدافع عنها دفاعاً شديداً، ذلك أنه كان ضعيف العزيمة، لا يدافع عن رأيه إلا دفاع المحامي الذي يخضع في النهاية لما تقرره المحكمة. وهي خصلة حميدة في هذا المجال، لكن السياسية ليست محاماة، بل هي عراك واندفاع وعمل متواصل وتفان في سبيل فكرة أو مبدأ، فالسياسي لا ينحني أمام الأكثرية المعارضة لرأيه، وإنما يدأب على العمل لإنجاح فكرته وجعلها هي السائدة. أما الرئيس الخوري، فكان يبدي رأيه مستوحى غالباً من الآراء السائدة، ولم يتردد في القول: (هيك بيصير،

وهيك بيصير) ناظراً إلى الأمور نظرة فلسفية خاصة، وسائراً في ركاب الأكثرية ولو كانت تدين برأي معاكس لرأيه في الصميم.

ويصف فيضي الأتاسي ويقول: (أما فيضي الأتاسي، فكان من تلك الزمرة من حزب الشعب الدائبة على إلقاء سورية في أحضان الأحلاف ورجالات العراق السائرين في ركاب الاستعمار).*

* - مذكرات خالد العظم الجزء الثاني ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

الفصل السابع عشر

الوضع السياسي في سورية في سنوات ٥٤ ـ ٥٧

كانت خمسينيات القرن العشرين حافلة بالأحداث في منطقة الشرق الأوسط بعامة، وفي سورية بخاصة. وسوف نتحدث هنا عن الفترة ما بين عام ٥٤ إلى عام ٥٧.

كانت الدول الاستعمارية، بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية خاصة، تنشطان كثيراً. وكان لفرنسا نشاطها ودورها أيضاً. وكانت الدوائر الحاكمة في تركيا والعراق تسير وفق المخطط الاستعماري وتعمل لتنفيذه كاملاً. وانقسم الصف العربي إلى مجموعتين سورية ومصر والسعودية من جهة، والعراق والأردن ولبنان من جهة أخرى.

وقعت أحداث هامة، لا يمكن حصرها في مثل هذا الكتاب، لكننا نريد من الإشارة إلى أهم هذه الأحداث وحركتها أن نوضح مواقف الحزب الشيوعي السوري منها، وأن نبين حركة الجماهير تجاهها.

بتاريخ ١٩٥٤/١٠/١٩ وقعت مصر وبريطانيا اتفاقية الجلاء عن قناة السويس. وفي ٥٤/١٠/٢٦ جرت محاولة اغتيال فاشلة لجمال عبد الناصر، أبعد على إثرها اللواء محمد نجيب عن رئاسة الجمهورية وكلف عبد الناصر بها. وشنت حملة واسعة ضد الإخوان المسلمين، وأعدم خلالها عاملان. ونتيجة ذلك قام الإخوان المسلمون في سورية بشن حملة ضد عبد الناصر شاركت فيها قوى مختلفة وبضمنها الشيوعيون، وجرت اجتماعات احتجاجية وتظاهرات ضد عبد الناصر وحكمه الديكتاتوري.

الاتفاق التركي العراقي

في ١٩٥٤/١/١٢ أعلن نبأ اتفاق تركي ـ عراقي، الذي أسس لحلف بغداد.

فهمت مصر هذا الاتفاق كما يلي: «إدخال تركيا ضمن بوتقة الدول العربية وربط الجميع بميثاق يكون همزة وصل بين الحلف الأطلسي وحلف شرقي آسيا، وذلك

لخدمة مصالح الاستعمار ومقاومة الشيوعية وجعل الشرق الأوسط رأس جسر للجيوش الغربية في طريق هجومها على جنوب روسيا»*.

وكانت وجهة نظر سورية كما وردت في مذكرات خالد العظم تتلخص في: «معارضة الاتفاق مع الغرب وترجيح سياسة الحياد، مع إيضاح نظرتنا إلى الشيوعية، على أنها ليست النظام الاجتماعي المتفق مع مصلحتنا، هذا مع الاحتفاظ بصداقة الاتحاد السوفيتي والاعتماد عليه في مواجهة عدوان الغرب. وأن العدو الوحيد الذي تحسب له سياسة سورية الخارجية حساباً هو إسرائيل، وذلك خلافاً لأقوال العراقيين بأن عدو العرب هو الشيوعية. وكنا نجيب العراقيين بأننا لم نلمس هذا العدو في بلدنا»**.

إثر التفاهم على الاتفاق بين العراق وتركيا. قام رئيس الوزراء التركي بزيارة إلى دمشق لم يكن متفقاً عليها. واستقبل بمظاهرات طلابية عارمة وبتاريخ ١٩٥٥/١/٢٢ انعقد مؤتمر رؤساء حكومات ميثاق الضمان الجماعي لإقناع العراق بعدم توقيع الاتفاق. ورفض العراق ذلك. وكان موقف وزير الخارجية السورية فيضي الأتاسي مناوراً، فلم يطلب من العراق الانسحاب من الاتفاق ولم يشجبه، ولم يعلن أنه خروج على ميثاق الضمان الجماعي العربي، حسب توجهات وقرارات لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان السوري، الأمر الذي أدى إلى مضاعفات واستجوابات في البرلمان.

قرر مؤتمر رؤساء الحكومات إرسال وفد إلى بغداد لمطالبة الحكومة العراقية بعدم توقيع الحلف في الوقت الحاضر. وتألف الوفد من سامي الصلح، فيضي الأتاسي، وليد صلاح، صلاح سالم. ولم تثمر زيارة الوفد بشيء. ثم اقترح كميل شمعون عقد اجتماع في بيروت بين عبد الناصر ونوري السعيد، ولم ينجح الاجتماع.

عند هذه النتائج أعلنت مصر تخليها عن ميثاق الضمان الجماعي، واقترحت عقد ميثاق جديد يضم الدول المعارضة للحلف التركي ـ العراقي.

وقع اتفاق بين سورية ومصر في ٢ آذار ١٩٥٥. وسافر وفد سوري ـ مصري إلى عمان لدعوة الأردن إلى الالتحاق بالاتفاق، ولم ينجح الوفد بذلك. وتابع سفره إلى السعودية حيث وافق الملك عبد العزيز على الاتفاق وصدر بيان بذلك. ولدى زيارة لبنان والاجتماع إلى كميل شمعون، بادر إلى طرح فكرة عدم تفرقة العرب.

---

* ـ حديث الصاغ صلاح سالم. مذكرات خالد العظم ص ٣٨٨.

** ـ تلخيص اللقاءات مع الوفد العراقي برئاسة نوري السعيد مذكرات خالد العظم ص ٣٩٧.

سقوط وزارة فارس الخوري

نتيجة تأزم الوضع واتساع المؤامرات وموقف حكومة فارس الخوري المتأرجح، اضطر الأخير إلى تقديم استقالة حكومته.

وقد سقطت الحكومة نتيجة اشتداد التناقض بين معسكري: العراق من جهة، وسورية ومصر من الجهة الثانية. وانعكس هذا التناقض على كتلة العشائر وانقسمت على نفسها، إضافة إلى أن الحزب الوطني رجح السياسة المصرية. كل ذلك أدى إلى خلافات جوهرية داخل الوزارة وبين الحزبين، الوطني والشعب، وأدى إلى استقالة الوزارة.

تشكلت في البدء حكومة جديدة برئاسة سعيد الغزي ولم تدم طويلاً نتيجة ضعفها. ونشأ وضع معقد، وحاول أنصار العراق العودة إلى فارس الخوري ولم ينجحوا، ثم اقترح اسم لطفي الحفار لرئاسة الوزارة ورفض، إلى أن استقرت الأمور على تكليف صبري العسلي، ونجح في تشكيل حكومة عكست اختلال التوازن. فقد نشأ ائتلاف ضم الحزب الوطني والكتلة الديمقراطية والعشائر وحزب البعث، ودعم نائب الحزب الشيوعي هذا الائتلاف. وفي ١٢ شباط ١٩٥٥ أعلنت وزارة صبري العسلي وضمت الشخصيات التالية: خالد العظم، عبد الباقي نظام الدين، رئيف الملقي، حامد الخوجة، فاخر الكيالي، ليون زمريا، مأمون الكزبري، وهيب الغانم.

تعدُّ هذه الحكومة أول خطوة في تأكيد سير سورية باتجاه مصر والسعودية، وفي مقاومتها لسياسة الأحلاف. وكانت ردة فعل العراق سريعة، فأتى فاضل الجمالي إلى دمشق واجتمع مع زعماء الحزب الوطني لتغيير اتجاههم وتسقط بذلك الحكومة، ولكن الأمور سارت باتجاه معاكس، وجرت ضغوط داخلية على أشخاص الوزراء، ولكن الوزارة نجحت ونالت الثقة بأكثرية ٦٦ صوتاً ضد ٥٣.

رداً على نيل وزارة العسلي الثقة ظهر موقفان سريعان، الأول إعلان العراق إبرام الحلف مع تركيا وحده دون أي بلد عربي آخر، والثاني هو زيارة الصاغ صلاح سالم إلى سورية التي كانت فاتحة التنسيق السوري ـ المصري. ودارت المباحثات حول إقامة ميثاق عربي جديد مفتوح لجميع الدول العربية، وبضمنها العراق، إذا انسحب من الحلف مع تركيا.

قام السفير الأمريكي رداً على بدء عملية التنسيق السورية ـ المصرية بعملية ضغط على سورية ومطالبتها بعدم معارضة الحلف التركي ـ العراقي. وتضمنت المذكرة التي

قدمها ترحيباً بالحلف العراقي - التركي، واعتباره خطوة في اتجاه الدفاع عن الشرق الأوسط ضد التوسع الشيوعي، وأن الولايات المتحدة مستعدة لدعم الجهود التركية - العراقية الرامية إلى ترتيبات مجدية للدفاع، وأن على الدول العربية أن ترحب بالاتفاق، كتدبير يساهم في سلامة هذه الدول.

سارت الأمور باتجاه آخر تماماً، ووقع اتفاق بين مصر وسورية والسعودية تضمن البنود التالية:

١ - عدم الانضمام إلى الحلف التركي - العراقي أو أية أحلاف.

٢ - إقامة منظمة دفاع وتعاون اقتصادي عربي مشترك ترتكز على الأمور التالية:

أ: الالتزام بالاشتراك في صد أي عدوان يقع على إحدى دول المنظمة.

ب : إنشاء قيادة مشتركة دائمة، لها مقر رئيسي، تشرف على تدريب القوات العسكرية التي تضعها كل دولة تحت تصرف تلك القيادة وعلى تسليحها وتنظيمها وتوزيعها وفقاً للخطة الدفاعية المشتركة. كما تتولى هذه القيادة تنسيق الصناعات الحربية والمواصلات اللازمة للأغراض العسكرية.

ج : عدم قيام أية دولة مشتركة في المنظمة بعقد اتفاقات دولية، عسكرية أو سياسية، دون موافقة بقية أعضاء المنظمة.

د: دعم الاقتصاد بين دول المنظمة تمهيداً لتحقيق الوحدة الاقتصادية الجامعة.

وقد أتبع هذا الاتفاق بعدة أمور اقتصادية، كإحداث مصرف عربي ونقد عربي وإعادة النظر في نظام التبادل التجاري وتشجيع تأليف شركات مساهمة وتأليف مجلس اقتصادي عربي.

بعد توقيع الاتفاق الثلاثي قدمت تركيا مذكرة احتجاج إلى سورية قالت فيها: «إن الميثاق السوري - المصري، يهدف إلى عزل تركيا، وإن مصر قد عكّرت هدوء كل منطقة الشرق الأوسط، وإن الحكومة التركية ستعيد النظر في سياستها وفي موقفها من سورية المجاورة في حال تحقيق هذا الميثاق من قبل سورية، وهذا ما يحمل تركيا على اعتبار هذا العمل كعمل معاد لها...».

وقد أدى ذلك إلى خروج تظاهرات طلابية عارمة من جامعة دمشق ومدارسها الثانوية وفي حلب وحمص وباقي المدن السورية. وكانت التظاهرات تهتف ضد تركيا وتدخلها في الشؤون الداخلية.

بعد ذلك انضمت كل من بريطانيا والباكستان إلى الاتفاق التركي - العراقي، وتحول إلى حلف بغداد.

في تشرين الأول ١٩٥٥ أعلن عن تشكيل القيادة الموحدة السورية ـ المصرية بقيادة المشير عبد الحكيم عامر. وأدى ذلك إلى اعتداءات إسرائيلية وتركية على الحدود مع هذين البلدين، ونشأ وضع خطير. فقد أصبحت سورية مطوقة من الشرق والشمال والجنوب، وأضيف إلى الحشود التركية والإسرائيلية حشود عراقية أيضاً.

صفقة السلاح من تشيكوسلوفاكيا

بتاريخ ١٩٥٥/٩/٢٧ أعلن عبد الناصر عن صفقة سلاح مع تشيكوسلوفاكيا لتزويد الجيش بالأسلحة الثقيلة مقابل القطن المصري. وروى كيف كان يستجدي السلاح من فرنسا التي كانت تساومه وتطلب منه السكوت عن مذابحها في إفريقيا الشمالية، ومن الولايات المتحدة التي كانت تطلب منه توقيع ميثاق أمن متبادل، ومن بريطانيا التي زودته بكميات قليلة، بينما استطاعت إسرائيل أخذ السلاح من إنكلترا وفرنسا وبلجيكا وكندا وإيطاليا والولايات المتحدة ودول أخرى، حتى أصبحت الصحف الأمريكية والبريطانية والفرنسية تعلن دوماً أن جيش إسرائيل يستطيع أن يهزم الجيش المصري والجيوش العربية الأخرى.

وقد أحيطت هذه الصفقة بحملة دعاية واسعة جداً لدى الشعب المصري والشعوب العربية، وكان تأثيرها واضحاً في سورية بين أوساط الشعب والجيش.

إنهاء قيادة كلوب

في ١٩٥٦/٢/٢٩ أنهيت قيادة الجنرال الإنكليزي كلوب على الجيش العربي الأردني، مقابل دفع ١٢ مليون جنيه استرليني من مصر وسورية، تعويضاً عما كانت تدفعه بريطانيا.

وأتى ذلك نتيجة تحرك واسع في الشارع الأردني، فقد قامت تظاهرات هاجم خلالها المتظاهرون مكاتب الاستعلامات الأمريكية. وأعلن إضراب عام في الأردن ونزل الجيش إلى الشوارع وسقط فيها عشرات القتلى، وانتهت تلك الأحداث بموافقة الملك حسين على إعادة تنظيم الجيش العربي بصرف الجنرال كلوب باشا وجميع الضباط والمستشارين الإنكليز.

أدت هذه النتائج إلى تحسين العلاقات السورية ـ الأردنية وزار الملك حسين سورية، وأدى صلاة الجمعة مع شكري القوتلي في مسجد بني أمية، وزارا معاً ضريح صلاح

الدين. وفي ١٩٥٦/٨/١٦ دخلت قوات سورية إلى الأردن واستقبلت بحماسة. ثم زار القوتلي الأردن ووقع اتفاقية قيادة مشتركة.

تأميم قناة السويس

مساء الأربعاء في ١٩٥٦/٧/٢٦ ألقى عبد الناصر خطاباً في الإسكندرية في حفل شعبي ضم ما يقارب ٢٠٠ ألف إنسان، أعلن فيه تأميم قناة السويس وقال: «أقول لأخوانكم في سورية إننا نرحب بكم وسنسير معكم يداً واحدة وقلباً واحداً، ورجلاً واحداً، لنقيم بين ربوع الوطن العربي استقلالاً سياسياً واقتصادياً حقيقياً».

قامت حركة شعبية واسعة لنصرة مصر فقد تشكلت لجنة أطلق عليها اسم الهيئة العربية السورية لنصرة مصر. وتتكون اللجنة المركزية لهذه الهيئة من خالد العظم، معروف الدواليبي، علي بوظو، أكرم الحوراني، محمد المبارك، خالد بكداش، ظافر القاسمي. وانتخب الدكتور معروف الدواليبي أميناً عاماً لهذه الهيئة، وسمي السادة موفق المهايني وبشير القضماني وعصام العطار ويوسف الفيصل ومدحت البيطار وجورج شلهوب أمناء مساعدين.

أصدرت اللجنة المركزية بياناً إلى جماهير الشعب دعت فيه إلى إعلان الإضراب الشامل يوم الخميس في ١٦ آب وهو اليوم الذي ينعقد فيه مؤتمر لندن، كما أعلنت تحديد يوم الثلاثاء في ١٤ آب يوم مصر في سورية، على أن تقف الأعمال ابتداء من الساعة الرابعة بعد الظهر، لكي يتيسر للمواطنين حضور الاجتماع الشعبي العام في الساعة الخامسة والنصف مساءً بالملعب البلدي. وقد اتصلت اللجنة بمختلف البلدان العربية لكي يعلن يوم لمصر أيضاً في كل بلد عربي. وقد اجتمع أكثر من خمسين ألف شخص في هذا المهرجان. وألقى خالد العظم كلمة اللجنة، ثم تحدث عبد الوهاب حومد باسم الحكومة، وألقيت كلمات باسم الشعب المصري والحكومة المصرية. وجرت مهرجانات مماثلة في حلب وحمص وحماة واللاذقية وطرطوس وإدلب. وقد أرسل خالد بكداش برقية إلى عبد الناصر جاء فيها:

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري تحيي خطوتكم الجريئة بتأميم شركة القناة التي أعادت لمصر حقاً سليباً وعززت سيادتها واستقلالها سياسياً واقتصادياً، ودكت قلعة من قلاع الاستعمار وزعزعت أركانه في كل الشرق العربي، وملأت نفوس العرب غبطة واعتزازاً وثقة بقوتهم ومستقبلهم، وضربت المثل على أن السياسة التي تسير عليها مصر بقيادتكم هي السياسة الوطنية العربية التحررية.

إن مواقفكم الوطنية المتجاوبة مع إرادة العرب وأمانتهم تقف سداً منيعاً بوجه حلف بغداد وسائر الأحلاف العسكرية الاستعمارية، وتدعم قضية السلام العالمي، وتعزز عوامل الاتحاد بين سورية ومصر وتعجل السير نحو تحقيق الوحدة العربية المتحررة الشاملة.

إن الشعب السوري بأسره يؤيدكم ويقف إلى جانب مصر الشقيقة الكبرى في سيرها الجريء للتحرر الوطني الاقتصادي بعد التحرر من الاحتلال العسكري والسيطرة السياسية. وإذا رفع المستعمرون يداً على مصر فسيجدون العرب صفاً واحداً في وجههم يقاتلونهم بكل وسيلة حتى تصفى جذور الاستعمار نهائياً من كل الشرق العربي.

وأجاب عبد الناصر: كان لبرقيتكم المعبرة عن تأييدكم لقرار تأميم قناة السويس الذي رد للأمة حقاً من حقوقها المسلوبة أعمق الأثر في نفسي. وإني إذ أشكر لكم هذه المشاعر النبيلة أسأل الله أن يوفقنا لما فيه نصرة العرب وإعلاء كلمة العروبة.

قوبل خطاب عبد الناصر في مصر وجميع الأقطار العربية بحماسة شديدة، وقوبل خارج البلدان العربية بحملة احتجاجات شديدة. وبدأت الحكومتان البريطانية والفرنسية حشد القوات وتحريك الأساطيل إلى منطقة الشرق الأوسط. وأعلنت إسرائيل اشتراكها معهما. وجرى حشد قوات من قبرص وأقيم جسر جوي بين بريطانيا وقواعدها في المشرق العربي. وأعلنت أنباء من موسكو بأن قطعاً من الأسطول السوفييتي بدأت تتحرك باتجاه السواحل العربية. وأعلن النفير العام في مصر ثم في سورية، وأعلن مجلس النواب السوري تأييده التام لموقف مصر.

بتاريخ ١٩٥٦/٩/١ أطلق خروشوف أول تحذير للعالم من نشوب حرب واسعة، واستنكر موقف بريطانيا وفرنسا من مصر وأعلن أن قرار تأميم القناة شرعي.

العدوان على مصر

بدأ العدوان ليلة ١٩٥٦/٩/٢٩ باشتراك بريطانيا وفرنسا وإسرائيل. وبدأت المعارك الحربية، وجوبه العدوان بمقاومة مصرية باسلة. وجه المعتدون إنذاراً لإخلاء منطقة (السويس، بور سعيد، الإسماعيلية) رفض عبد الناصر الإنذار. وتوتر الوضع الدولي، واستقال الأمين العام للأمم المتحدة داغ همرشولد احتجاجاً على العدوان.

في إطار هذا الوضع سافر رئيس الجمهورية السورية شكري القوتلي إلى موسكو، والتقى بالقادة السوفييت الذين أعلنوا دعمهم الكامل لمصر في معركتها الوطنية

الباسلة. وكان في عداد مستقبلي القوتلي في مطار موسكو كل من خالد بكداش ويوسف الفيصل عضوي وفد الحزب إلى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي. وعاد خالد بكداش بعدها إلى دمشق على طائرة الرئيس القوتلي.

أوقفت السلطات السورية ضخ النفط من آبار كركوك إلى المتوسط، وبذلك قطع شريان النفط عن الدول الاستعمارية المعتدية.

أعلنت إضرابات واسعة في جميع البلدان العربية تأييداً لمصر في موقفها الحازم إزاء الهجمات العسكرية. ورفعت شعارات لتصفية القواعد العسكرية الاستعمارية ومحطات ضخ النفط. وجرى في سورية تنظيم المقاومة الشعبية. ودخلت البحرية السورية في المعركة وتمكن الضابط السوري جول جمال من تعطيل بارجة من أكبر البوارج الافرنسية تحمل اسم جان دارك.

وجه الماريشال بولغانين رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي إنذاراً إلى بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لوقف العدوان على مصر، والانسحاب فوراً وخلال ٢٤ ساعة من قناة السويس. وعلى الاثر أعلنت الحكومتان البريطانية والفرنسية وقف إطلاق النار في ٦ تشرين الثاني ١٩٥٦.

صرح خالد بكداش لجريدة «المساء» المصرية: «إن عنصرين هامين أجبرا الدول المعتدية على التراجع والانسحاب، أولهما ثبات الشعب المصري وصموده بقيادة الرئيس عبد الناصر، وثانيهما الإنذار السوفييتي»، وأضاف:

«يؤكد الإنذار السوفييتي أن الاتحاد السوفييتي عازم عزماً راسخاً على اللجوء إلى القوة لسحق المعتدين وإعادة السلام إلى الشرق الأوسط، وإن الاتحاد السوفييتي منذ نشأته وقف إلى جانب القضايا الوطنية العربية في جميع المجالات...».

في ١٤ تشرين الأول ١٩٥٦ عقد مؤتمر للملوك والرؤساء العرب لبحث الموقف نتيجة العدوان.

مؤامرة ستون

في عام ١٩٥٧ أعلن مبدأ أيزنهاور لملء الفراغ الناشيء عن خذلان بريطانيا وفرنسا، وقد وافقت عليه الأردن ولبنان والسعودية والعراق. ورفضته مصر وسورية.

في ١٢ آب ١٩٥٧ أعلن رسمياً عن اكتشاف مؤامرة لقلب نظام الحكم في سورية، وكان منظم الحركة ضابط المخابرات الأمريكية ستون، الذي قام باتصالات واسعة مع

ضباط سوريين لتجنيدهم في المؤامرة الانقلابية. وكان هدفها القضاء على عدد من الضباط الوطنيين وتغيير الاتجاه السياسي في البلد.

وفي عام ١٩٥٧ نشبت الثورة في لبنان ضد حكم شمعون. وتدخلت سورية لمساعدة القوى الوطنية المعادية لشمعون.

وفي تشرين الأول ١٩٥٧ كشفت المؤامرة التركية الموجهة ضد النظام الوطني في سورية، وأعلن عن تشكيل المقاومة الشعبية، وبدأت حراسة الأماكن العامة والمرافق الحيوية، كالكهرباء والمياه والمصارف ومؤسسات الدولة المختلفة.

التطورات في الوضع الداخلي

عاد شكري القوتلي إلى سورية بتاريخ ١٩٥٥/٧/١٦، واستقبلته وفود شعبية وحكومية إلى جانب وفد من الجيش برئاسة العميد شوكت شقير رئيس هيئة الأركان.

وفي يوم ١٩٥٥/٨/١٨ قدم القوتلي ترشيحه لرئاسة الجمهورية، كما قدم خالد العظم ترشيحه، وفاز القوتلي بـ ٨٩ صوتاً وحصل خالد العظم على ٤٢ صوتاً. ولكن القوتلي لم يحصل على أكثرية الثلثين.. وجرت محاولات لكي ينسحب خالد العظم ليصبح نجاح القوتلي بالتزكية، ورفض العظم الانسحاب. وفي الدورة الثانية حصل القوتلي على ٩٣ صوتاً والعظم على ٤١. وبذلك استلم القوتلي رئاسة الجمهورية في ٦ أيلول عام ١٩٥٥. والغريب في هذه الانتخابات، اتفاق مصر والعراق على دعم القوتلي، وكذلك اتفاق بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا على هذا الأمر. حتى إن أديب الشيشكلي أتى إلى لبنان خصيصاً لدعم القوتلي ضد خالد العظم. واستعداداً لما كانوا يتصورونه، بأن كره الجيش للقوتلي، قد يؤدي إلى عملية انقلابية.

من أهم الأحداث الداخلية كان اغتيال العقيد عدنان المالكي، الشخصية العسكرية البارزة في ذلك الحين، والتي تحمل توجهات وطنية معادية للاستعمار والرجعية. ففي ٢٢ نيسان ١٩٥٥ جرت مباراة في كرة القدم بين فريق الشرطة العسكرية السوري وفريق خفر السواحل المصري، وكان عدنان المالكي بين من حضر المباراة. وخلال المباراة قام يونس عبد الرحيم أحد رقباء الشرطة العسكرية بإطلاق الرصاص على المالكي وأرداه قتيلاً. ثم أطلق الرصاص على رأسه وخر صريعاً.

في ٢٣ نيسان أقيمت صلاة الجنازة في الجامع الأموي ألقيت خلالها خطب عديدة، وسار وراء نعش العقيد عشرات ألوف المشيعين.

مباشرة بعد حادث الاغتيال أصدر وزير الداخلية قراراً بإغلاق مكاتب الحزب السوري القومي الاجتماعي، وأقر القضاء حل الحزب ومصادرة أمواله ومكاتبه. ورفعت الحصانة عن النائب السوري القومي حنا الكسواني. وقامت أجهزة الأمن بمداهمة مراكز الحزب ومكاتبه ومقر جريدة «البناء» ومطبعتها. وشنت حملة اعتقالات شملت أعضاء الحزب ومناصريه، وكانت الحملة واسعة جداً.

وشكلت محكمة لمحاكمة أعضاء الحزب والمناصرين برئاسة القاضي بدر الدين علوش والمقدمان مظهر وصفي وعفيف البزرة «أعضاء»، والمقدم بشير الطباع «عضواً متمماً»، وحمدي الصالح نائباً عاماً، ومحمد الجراح ومحمد عابدين معاونين للنائب العام. وفي نهاية عام ١٩٥٥ صدرت الأحكام بين ١٥ عاماً وعامين، مع إقامة إجبارية في تدمر وحرمان من الحقوق المدنية ومنع الإقامة في دمشق. ومضمون الأحكام: الإدانة بالقتل والتحريض عليه، والتجسس وتحريض العسكريين على العصيان، والحصول على وثائق سرية، والتآمر على أمن الدولة الداخلي.

وقبل هذه الجريمة النكراء، وقعت جريمة أخرى، فأثناء احتفالات عيد الجلاء في حماة عام ١٩٥٥، أطلق غالب الشيشكلي النار على واصل حوراني، شقيق أكرم الحوراني وأرداه قتيلاً. وفي هذه الظروف عاد صلاح الشيشكلي إلى سورية وتوجه مباشرة إلى حماة بتظاهرة استفزازية.

لعب مقتل العقيد عدنان المالكي دوره في إحداث انقسامات داخل حزبي الشعب والوطني. فقد أعلن هاني السباعي نائب حمص، انفضاضه عن حزب الشعب بسبب سياسة النائبين الأتاسيين «فيضي الأتاسي وعدنان الأتاسي». وشكل كتلة خاصة به، واقترب من كتلة خالد العظم والبعثيين. كما أعلن عبد الرحمن الكيالي في حلب اعتراضه وانسحابه من الحزب الوطني وتأييد الاتجاهات الوطنية. وأيد موقف هاني السباعي كل من عبد الوهاب حومد، وعلي بوظو، ومعروف الدواليبي.

في أواخر عام ١٩٥٦ اكتشفت مؤامرة عراقية للإطاحة بالشخصيات الوطنية، وإفساح المجال أمام أنصار العراق لاستلام السلطة كاملة والانضمام إلى العراق. وضبطت أسلحة مرسلة من العراق، إلى عناصر المؤامرة، كانت عبارة عن ٣٠٠ بندقية.

شارك في المؤامرة من أعضاء المجلس النيابي: عدنان الأتاسي، منير العجلاني، ميخائيل إليان، هايل سرور، فرزت المملوك، فيصل العسلي، عادل العجلاني، فضل الله جربوع، وحامد منصور. ومن الشخصيات السياسية شارك فيها: سامي كبارة،

عدنان العائدي، صبحي العمري، محمد سليمان الأحمد، نوري بن مهيد. وكان النشطاء في هذه المؤامرة العميد إبراهيم الحسيني، واللواء غازي الداغستاني مدير المخابرات العراقية.

شكلت محكمة عسكرية لمحاكمة المتهمين برئاسة اللواء عفيف البزرة. وأصدرت أحكاماً بالإعدام وبالسجن، ثم خفف حكم الإعدام إلى السجن المؤبد.

كانت محاكمة قتلة عدنان المالكي، ومحاكمة السياسيين المتآمرين من أهم المحاكمات السياسية التي جرت في التاريخ السوري. فقد كانت الصحافة تنشر وقائع محاكمة السياسيين يوماً بيوم، وتنشر دفوع المحامين، وتنشر التعليقات اليومية، وكانت الجماهير الشعبية تتابع ذلك باهتمام شديد.

وبنتيجة تشابك الأحداث، وخصوصاً بعد مقتل عدنان المالكي نُحيَّ اللواء شوكت شقير عن رئاسة الأركان وعُيّن العميد توفيق نظام الدين مكانه. كما جرت تبديلات وزارية متعددة. وفي ٥٦/٦/١٦ استقالت وزارة سعيد الغزي المرتبكة، وحلت محلها وزارة جديدة برئاسة صبري العسلي من الشخصيات التالية: محمد العايش، مجد الدين الجابري، عبد الباقي نظام الدين، أحمد قنبر، رشاد جبري، الشيخ مصطفى الزرقا، صلاح البيطار، خليل كلاس، عبد الحسيب رسلان.

وأعلنت بياناً وزارياً كانت خطوطه العامة:

١ - مقاومة الاستعمار والصهيونية.

٢ - تعزيز ميثاق الجامعة العربية باتجاه الوحدة الاقتصادية.

٣ - مكافحة الإثراء غير المشروع.

٤ - مكافحة الإلحاد وتحقيق العدالة الاجتماعية.

٥ - منع التسريح التعسفي.

جاء تشكيل هذه الوزارة في مرحلة دقيقة وحرجة جداً، وقد بذلت جهود واسعة لكي تنال الثقة بغالبية ١١٠ أصوات من ١١١، ومن أهم خطوات هذه الوزارة كان اعترافها بحكومة الصين الشعبية.

كان نشاط الرجعية الدينية قوياً في تلك الفترة. فقد حاولت جاهدة لحرف المعركة عن اتجاهها الوطني المعادي للاستعمار. وشنت حملة شديدة ضد رئيس الحكومة صبري العسلي واتهمته بالشيوعية. ورد العسلي على ذلك بحملة قوية ضد الموتورين والرجعيين، الأمر الذي دفع الشيخ عبد الحكيم المنير من جماعة الإخوان المسلمين إلى

الرد عليه في خطبة في المسجد الأموي، وشن هجوماً على الحكومة واتهمها بالإلحاد والكفر، ودعا الشعب إلى الثورة عليها. وقد أوقف وحقق معه.

ومن المعارك الجانبية التي لجأت إليها الرجعية الدينية، مطالبة محمد المبارك عضو المجلس النيابي وأحد قادة الإخوان المسلمين بإلغاء تقديم الخمور في الحفلات الرسمية وغير الرسمية، وطالب بإغلاق الحانات والملاهي. وتعرض لقصيدة نظمها الشاعر نزار قباني: «خبز وحشيش وخمر» وطلب طرده من وزارة الخارجية. ودافع خالد بكداش عن نزار قباني واعتبر القصيدة عادية. وطالب أحمد إسماعيل بمنع الأغاني الأجنبية والاقتصار على الغناء العربي. وقامت فرق تابعة للشيخ عبد الرؤوف أبو طوق، والتي تسمي نفسها «فرق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» بمداهمة الملاهي والبارات والمقاهي ودور السينما، مهددة بحرقها، بمن فيها، وتدخلت الشرطة لمنع ذلك.

وقد دارت مناقشة حامية في البرلمان بين الشيخ عبد الرؤوف أبو طوق وخالد بكداش حول تعليم المرأة. فقد وقف الشيخ معارضاً منح المرأة حق التصويت والترشيح، وقال: إن على المرأة أن تلتفت إلى دارها وأولادها وزوجها، وطالب بإبعاد المرأة عن المجتمعات العامة والمجالس البلدية ومجالس المحافظات.. نحن اليوم أمام مجتمع غير سليم، وإن المرأة في تبرجها أصبحت سلعة.

وتكلم خالد بكداش وقال: إذا سايرنا الزميل الشيخ أبو طوق في دعوته، فيجب أن نغلق المدارس ونمنع المرأة من السير في الشوارع، ومن العيب جداً أن نقول إن المرأة إذا نزلت إلى الشوارع أصبحت سلعة، فيجب على الشيخ أن لايتهم نساءنا بالتهتك والتدهور.

أيها الشيخ، إذا أردت أن تكون المرأة مجرد متعة للرجل فنحن نعاكس ذلك، ونقول إن المرأة العربية يجب أن تكون مواطنة محترمة لها اليد الطولى في الحياة الاجتماعية، وأن تتحمل مع الرجل أعباء الواجبات الوطنية.

وعقد المجلس جلسة بحث فيها مسألة حق المرأة في الترشيح والانتخاب لمجالس البلديات. وصوت ٤٧ نائباً ضد انتخاب المرأة وصوت مع انتخابها ٤٦ . كان بين من صوت ضد انتخابها نواب حزب الشعب وكتلة العشائر والجبهة الإسلامية وأنصار مأمون الكزبري* .

---

* ـ بشير فنصه: النكبات والمغامرات ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

جرت أكثر من معركة انتخابية فرعية في هذه الفترة. ففي تشرين الأول ١٩٥٥ أعلن عن إجراء انتخابات في حمص للمقعد الذي شغر بوفاة النائب سليمان المعصراني. وقد اتفقت القوى التقدمية: حزب البعث، كتلة هاني السباعي، الحزب الشيوعي، على ترشيح الوجه التقدمي أحمد الحاج يونس.

وقد اهتمت قيادة الحزب بهذه المعركة بقوة فأرسلت الرفيق فرج الله الحلو إلى حمص للإشراف عليها، ورافقه عدد من الرفاق كنت من بينهم. وقد تحول بيتي آنذاك إلى مركز لنشاط الحزب الشيوعي في هذه المعركة. وقد تألفت لجان من الشباب والعمال والطلاب لدعم المعركة وزيارة القرى المختلفة للدعاية للمرشح التقدمي.

وقد أعلن الحزب الشيوعي سحب مرشحه ظهير عبد الصمد ببيان أصدرته اللجنة المنطقية، كما انسحب المرشح المستقل نظيم الموصلي. وقد زار الرفيق خالد بكداش مدينة حمص وشارك في اجتماع جماهيري جرى في بيتي، واستقبل العديد من الوفود كما نظمنا اجتماعاً جماهيرياً آخر.

وانتهت المعركة بنجاح أحمد الحاج يونس، وسقوط مرشح حزب الشعب القاضي راسم الأخرس.

ونتيجة المحاكمات حول المؤامرة المذكورة آنفاً والحكم على النائب الدمشقي منير العجلاني ونائب حمص عدنان الأتاسي، ومنعهما من ممارسة الحقوق المدنية، جرت انتخابات تكميلية في دمشق وحمص. فقد تقدم لإشغال المقعد الفارغ في دمشق، الشيخ مصطفى السباعي المرشد العام للإخوان المسلمين، والمحامي رياض المالكي شقيق العقيد الشهيد عدنان المالكي.

وجرت معركة من أهم المعارك الانتخابية، وتجند لصالح رياض المالكي قوى عديدة، من البرجوازية الوطنية والشيوعيين والبعثيين والتقدميين جميعاً ودعمه الجيش، ونجح رياض المالكي وصعق نجاحه القوى الرجعية في سورية وفي العالم العربي والإسلامي، فقد كان الشيخ مصطفى السباعي يحتل مكانة بارزة في حركة الإخوان المسلمين على النطاق العربي، وكانوا يعدّون دمشق حصناً لهم.

كما جرت معركة انتخابية تكميلية أيضاً في حمص فقد ترشح فيها كمال الكلاليب، باسم تحالف القوى الوطنية والتقدمية، وكانت كذلك معركة شديدة جداً، شاركت فيها جماهير واسعة جداً... ونجح كمال الكلاليب.

وقد أظهرت هاتان المعركتان الانتخابيتان أهمية ودور الشيوعيين في سورية، فقد كانوا في مقدمة الصفوف لإنجاح مرشحي الوطنية والتقدم.

من المعارك الهامة التي جرت في هذه المرحلة في سنوات ٥٥ - ٥٦ معركة البترول. فقد كان يمر في سورية خط أنابيب شركة نفط العراق، ويصب في بانياس، وكان يتفرع عنه خط إلى طرابلس في لبنان، كما كان يمر فيها خط أنابيب التابلاين القادم من السعودية، وقد طرحت قضية تعديل اتفاقيات مرور البترول.

واعتبرت الاتفاقات الموثقة سابقاً غير شرعية. فالأولى أي اتفاقية شركة نفط العراق، اعتبرت غير شرعية لأنها موقعة من حكومة الانتداب، والثانية لأنها أقرت من قبل حسني الزعيم. وكان المنطلق في هاتين المعركتين المبدأ الذي يقول، إنه مقابل الوفر الاقتصادي الهائل التي تحققه الشركتان، يحق لسورية أن تحصل على نصف الأرباح، لأن عامل النقل مساو لعامل الاستخراج. وبما أن عائدات المرور وضعت بشكل اختياري، وبما أن رسوم المرور كانت تدفع لسورية على أساس طن البترول وليس على أساس وحدة الطن الكيلو متري، فمن الضروري والواجب تعديل هذه الاتفاقيات.

كانت شركة النفط تدفع لسورية سنوياً، مليوناً ونصف مليون ل.س. أو بشكل أكثر تدقيقاً ١,٤٠٠,٠٠٠. وهي تستحق ١٧٧ مليوناً. وكانت شركة التابلاين تدفع ١٨٧ ألفاً و ٤٠٤,٣٤ ليرات سورية، بينما تستحق سورية ٣٣ مليوناً.

وقد تشكلت في سورية حركة جماهيرية واسعة، تحت اسم لجان البترول. كما تشكلت لجنة مركزية في دمشق ولجان في كل محافظة، ضمت شيوعيين وبعثيين وتقدميين وعمالاً وفلاحين وطلاباً ونساء. وكانت هذه اللجان تعقد اجتماعات جماهيرية. وتصدر البيانات وتنظم الاحتجاجات. الأمر الذي جعل القضية تخص كل إنسان في سورية.

في ١٩٥٥/١٢/٤ عقدت لجان القوانين المالية والاقتصاد الوطني والبترول في البرلمان السوري اجتماعاً مشتركاً لبحث مشاريع القوانين الخاصة بالموضوع وهي:

١- تصفية امتياز شركة نفط سورية المحدودة.

٢ - الاتفاقية المتممة للاتفاقية المعقودة في ٢٥ آذار ١٩٣١.

٣ - اتفاقية تحميل النفط من مرفأ بانياس.

٤ - اتفاقية توزيع حصة سورية من منتجات المصفاة في طرابلس.

وتناولت النقطة الأولى تصفية امتياز شركة نفط سورية وتنازلها عن موجوداتها، ودفع مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه إسترليني.

وتناولت النقطة الثانية - إعطاء مفعول رجعي عن المدة بين إنشاء خط بانياس وعام ١٩٥٥، وتسليم ٦٠٠ ألف طن إلى المصفاة في حمص بسعر مخفض. وقدرت حصة سورية لعام ١٩٥٦ مبلغ ٦,٥٤٧,٣٣٣ جنيه إسترليني. أما المفعول الرجعي فقد

بلغ ٨,٥٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني. وقد أقرت اللجان الثلاث الاتفاق بالإجماع. وشكل هذا القرار نصراً تاريخياً كبير لنضال الشعب السوري. واتخذ قرار بعد ذلك بتأميم توزيع المحروقات في سورية، بعد أن كان بيد ٧ شركات أجنبية.

ومن القضايا الهامة المتعلقة بموضوع البترول، إنشاء مصفاة للنفط في سورية. وتحولت هذه القضية إلى معركة وطنية أخرى، وانقسم البرلمان بشأنها. فقد كانت هناك عروض سوفييتية وتشيكية وألمانية غربية. وتمحور الصراع حول العرضين الألماني والتشيكي، وانتهت المعركة بتصويت البرلمان بالأكثرية لصالح العرض التشيكي.

كما أنجزت قضية أخرى بالغة الأهمية، فقد أمّم بنك الإصدار. ففي ١٩٥٥/٩/١ وقع وزير المال السوري عن الحكومة، والمسيو مارشال عن بنك سورية ولبنان، اتفاقاً يقتضي بإنهاء امتياز البنك كمؤسسة للإصدار، وأصبح إصدار النقد من حقوق سورية الوطنية.

مقالات مختلفة

كنت أقوم بأكثر من عمل في تلك الفترة. فإلى جانب مركزي في القيادة كنت مرتبطاً بكل تحرك للرفيق خالد بكداش، وكنت أتابع نشاط المنظمات وخاصة منظمة دمشق. وبحكم موقعي في القيادة كنت أنشر مقالات في جريدة «النور»، أردت أن أنشر هنا بعضاً منها في إطار الحديث عن فترة الخمسينيات التي تناولتها في هذا الفصل، مما قد يساعد في إلقاء الضوء على مواقف الحزب من بعض القضايا الأكثر أهمية في تلك الفترة، وقد اخترت ثلاثاً من المقالات التي تعالج ثلاث مسائل مختلفة.

درس من إيران*

كانت الأحداث الأخيرة في سورية وانفضاح مؤامرة السوريين القوميين بالتعاون مع المفوضية الأمريكية لنسف الحكم البرلماني والوضع القائم، ودمج بلادنا في الحلف التركي ـ العراقي مثار تعليقات كثيرة، في الصحافة العربية والعالمية والمحلية، وزادت هذه التعليقات كثيراً، عندما اشتدت مقاومة الشعب السوري للضغط التركي الأمريكي، ولمحاولات الاستفزاز الاستعمارية.

وذهبت هذه التعليقات مذاهب شتى، فمنها من أيّد تدابير الحكومة السورية، بحل عصابة الإجرام وملاحقة أفرادها والسير بعزيمة أشد ضد التدخل الاستعماري وضد

---

* ـ نشرت في جريدة «النور» بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٥٥.

الأحلاف العسكرية، وطالب بالإسراع بالتحقيق وعدم التساهل مع الخونة المجرمين، وكانت هذه أكثر التعليقات. ومنها من ذرف دموع التماسيح على الديمقراطية، وعلى مصير حرية الرأي، وأخذ بشن حملة تهويش حول وقوع سورية في أحضان الشيوعية، وغايتهم من ذلك حماية أعمال الإرهاب والتجسس.

وكان أطرف هذه التعليقات، تلك التي أخذت تنذر بالويل وسوء المصير، وتصرخ بأنه سيصيب سورية ما أصاب إيران، وأن مصير بعض المسؤولين سيكون كمصير مصدق. وأراد هؤلاء من أقوالهم زرع الرعب في صفوف البرجوازية الوطنية والأحزاب المناهضة للاستعمار ولأحلافه، ونسف التعاون الذي يتوطد أكثر فأكثر في صفوف الشعب والبرلمان، بين البعثيين الاشتراكيين، والشيوعيين والديمقراطيين والكتلة الإسلامية وبعض فئات الحزب الوطني والمستقلين.

وسنحاول فيما يلي الجواب على هؤلاء الذين ينطقون بلسان الاستعمار، مبينين أن ما جرى في إيران يختلف تماماً عما يجري في سورية، رغم تشابه الحوادث، ومتوخين أيضاً عرض الأخطاء التي ارتكبها مصدق، عسى أن ينتبه إليها المسؤولون، لأن فيها عبرة كبرى ودرساً بليغاً. فماذا جرى في إيران؟

لنترك جريدة «ستراداي افننغ بوست» تتحدث عن الموضوع في عددها الصادر في تشرين الثاني ١٩٥٤ في المقالة التي تحوي العنوان التالي «عملاء أمريكا السريون». كتب المقالة: ريتشارد وكلاديمس هاركنس، وكانت تدور حول «النشاط الرائع لدائرة التجسس الأمريكية». وعند الحديث عن إيران ذكرت المقالة «حققنا انتصاراً آخر بفضل نفوذ دائرتنا، وكان ذلك في إيران، عندما حققنا الانقلاب الظافر في صيف عام ١٩٥٣، وأطحنا بالوزير الأول الديكتاتور محمد مصدق، وتأمنت عودة صديق الولايات المتحدة، الشاه محمد رضا بهوي إلى السلطة».

وتابعت الجريدة مقالتها فتحدثت عن الانقلاب وقالت:

«لقد جرت الحوادث ضمن ظروف هي بحد ذاتها، أكثر غرابة من رواية بوليسية، وكان أبطالها دالاس وديبلوماسي وأميرة ورجل بوليس».

«في العاشر من آب استفاد دالاس من عطلته وذهب إلى جبال الألب في سويسرا لزيارة زوجته، واعتبر لوي هندرسون، سفير الولايات المتحدة في إيران، إن بإمكانه أن يقضي أيضاً عطلة قصيرة في سويسرا، واختارت الأميرة أشرف السمراء الجذابة وشقيقة الشاه الأسبوع ذاته، لأن تذهب أيضاً إلى سويسرا بغية الراحة.

«وكان الرابع الذي مثل في هذه المأساة هو الجنرال نورمان شوارزكوف، الذي اختار الوقت ذاته ليقوم بجولة تفسُح وإمتاع في الشرق الأوسط دون توضيح الهدف، وبطريقه في الباكستان وسورية ولبنان وإيران. فمن هو هذا الجنرال وما هو نشاطه؟

كان في عام ١٩٣٢ رئيس دوائر البوليس في نيوجرسي، وفي عام ١٩٤٢ ـ ١٩٤٨، أرسل إلى إيران لينظم البوليس الإيراني، وكانت من مهام شوارزكوف، كشف العناصر السياسية التي تعمل ضد الشاه، ومعرفة العناصر العسكرية الصديقة، التي يمكن الاعتماد عليها، وعثر الجنرال أثناء بحثه على زميله في دوائر البوليس فضل الله زاهدي.

في آب ١٩٥٣ عاد شوارزكوف إلى إيران «لزيارة بعض أصدقائه القدماء» وأعلن مصدق قلقه لهذه الزيارة.

وفي يوم الخميس ١٣ آب بدأت الحوادث، وصدر مرسوم ملكي بإقالة مصدق وتعيين زاهدي رئيساً للوزارة. وتتالت الأحداث وانتهت بما يعرفه القراء جميعاً.

لنعد الآن إلى بدء مقالتنا لنفي بالجواب.

إن هذا الشريط الذي عرضته الجريدة الأمريكية يبين أن أبطاله كانوا بالدرجة الأولى الجنرال الأمريكي ومساعدوه من عملاء دائرة التجسس التابعة للولايات المتحدة، وكان مجال النشاط مفتوحاً أمام رسل الوول ستريت، هؤلاء، إذ كانوا موجودين في الجيش خبراء رسميين ودوائر البوليس ودوائر الدول الأخرى، بواسطة النقطة الرابعة وبواسطة القروض الممنوحة لإيران.

ولم يتخذ مصدق، رغم سيره بجرأة في تأميم البترول وقطعه العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا، أي موقف حازم تجاه هذه الأوضاع، ولم يكتف بترك الخبراء الأمريكيين في الجيش، بل زاد الأمر تعقيداً، عندما أخذ بسياسة القروض من الولايات المتحدة ومن البنك الدولي، وعندما سعى لزيادة تبعية إيران الاقتصادية للدولار الأمريكي، وكثيراً ما لجأ أيزنهاور إلى ممارسة الضغط على مصدق وحكومته عن طريق هذه القروض. هذا من جهة ومن جهة ثانية، فإن مصدق، كان يترك المجال مفتوحاً أمام العناصر الإيرانية الفاشستية التي تشبه السوريين القوميين تماماً، لتمارس نشاطها، وكانت هذه الفئات تهاجم التظاهرات الوطنية، وتنظم أعمال الإرهاب ضد الوطنيين الإيرانيين. وقد ارتكبت جرائم كثيرة، منها اغتيال الجنرال رازمارا، وغيره من الشباب والعمال والطلاب. وكانت هذه العناصر موجودة بشكل

خاص في دوائر البوليس، حيث كان الجنرال الأمريكي يعمل بجد ونشاط لتنفيذ خطته وانقلابه.

يتبين إذن بوضوح أن خطأ مصدق، كان في تركه العسكريين الأمريكيين يعملون خبراء في الجيش، وسماحه للجنرال شوارزكوف بالعمل مع البوليس الإيراني، وتساهله أمام النشاط الاستعماري الذي كانت تمارسه المفوضية الأمريكية بشكل خاص. وهذه هي العناصر التي لعبت الدور الرئيسي في تنظيم الانقلاب الإيراني. وكان لهؤلاء الأمريكيين عملاؤهم في الجيش، ودوائر البوليس وبعض دوائر الدولة الأخرى، كما كانت تعمل بوحي منهم بعض الفئات السياسية كالحزب الفاشستي الإيراني، الذي كان أثناء الحرب العالمية الثانية على اتصال وثيق مع ألمانيا الهتلرية، والذي أصبح بعد انهيار النازية يعمل لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية، ومنظمة «فدائيان شاه» الإرهابية التي نظمت أعمال الاغتيال السياسي، والتي قام أفرادها بالهجوم على حسين فاطمي وطعنه بالسكاكين بغية الإجهاز عليه. وكانت هذه العناصر تتمتع بالحرية، ليس فقط في مجال العمل الشعبي، بل في أوساط الجيش وفي الدوائر الأخرى الحساسة. وقد نبهت العناصر الوطنية الدكتور مصدق وطلبت إليه اتخاذ مواقف حازمة ضد هؤلاء، وتطهير الجيش منهم، ولكن مصدق صمت أمام هذه التحذيرات وترك مجال التخريب رحباً أمام العناصر العميلة. يضاف إلى ذلك عنصر التردد الذي تميز به مصدق وعدم إقدامه في اتخاذ مواقف حازمة ضد مجموع هذا النشاط الاستعماري. وكثيراً ما قدمت الأحزاب الوطنية لمصدق مذكرات تبين تفاصيل المؤامرات التي تحاك وتحدد أسماء الضباط الذين يتعاونون مع الاستعمار. وكان نصيب هذه الصرخات جميعها الإهمال التام.

ورافق هذا السلوك تدابير سياسية زجرية ضد العناصر الوطنية في أذربيجان واستمرار الحكم العسكري فيها.

إن هذا الوضع بمجموعه كان يشكل ثغرات كبرى في مجموع النضال الوطني في إيران، ومن هذه الثغرات نفذ المستعمرون، ودبروا مؤامراتهم وأطاحوا بمصدق وحكمه وبانتصارات الشعب الإيراني الرائعة.

ولننظر الآن على ضوء هذه الوقائع إلى مجمل الوضع في سورية!

إن الجيش السوري لا يخضع لأية رقابة أجنبية، ولا يوجد مستشارون أمريكيون ولا غير أمريكيين في دوائر الجيش، والنقطة الرابعة لم تنفذ في سورية وقاومها الشعب

ولا يـزال يقاومهـا، كمـا أن سـورية ليسـت مقيـدة بـأي التـزام دولي، أو أي قـرض يبـيح التدخل بشؤونها ويفسح المجال أمام الخبراء الاقتصاديين للتغلغل في دوائرها.

ولكـن هـذا لا يمنـع أبـداً وجـود بعـض العناصـر الـتي تعطـف علـى الحلـف التركـي العراقي، أو التي ترحب باتحاد استعماري مع العراق، والتي لها ارتباطات مـع الأوساط الاستعمارية في مختلف دوائر الدولة وفي بعض النقاط الحساسة أيضاً. صحيح أن هذه العناصر قد أضحت معزولة وأن بعضها قد أبعد من مراكزه، ولكنها لم تُصفَّ نهائياً.

هذا من جهة ومن جهة ثانية، فإن بعض عملاء الاستعمار المكشوفين لا يزالون يتمتعون بحرية مطلقة، ويجرؤون حتى على الجهر بآرائهم المعادية لمصلحة البلاد الوطنية في الصحافة وفي المجالس العامة.

لقـد كـان صـحيحاً التـدبير الحكـومي بحـل عصـابة الإجـرام والخيانـة، ولـيس بالصحيح أبداً سلوك سياسة تساهل مع بقايا هذه العصابة، وترك بعض أفرادها في مراكزهم، والتغاضي عن نشاطهم الإجرامي المستمر، الذي برز مؤخراً في إدلب وبعض مناطق محافظة اللاذقية.

لقـد فشـل المسـتعمرون حتـى الآن في جـر سـورية إلى أحلافهـم ومشـاريعهم الاستعمارية وفي القضاء على كيانها وسياستها، وأصيبت المؤامرات الأمريكية بضربة شديدة بانفضاح الجريمة التي ذهب ضحيتها البطل الوطني عدنان المالكي، وبفشل جميع أساليب الضغط والاستفزاز التركية والعراقية.

إننا ندرك تماماً أن الاستعمار لن يكف عن محاولاته، وعلينا أن نتعظ بما جرى في إيران. والشعب على حق تماماً عندما يطالب عن طريق وفوده وعرائضه ونوابه، بالإسراع لإنجاز التحقيق في جريمة مقتل العقيد المالكي، وإنزال أقسى العقوبات بالمجرمين والدافعين، كما أنه على حق تماماً عندما يطالب بتطهير الجيش ودوائر الدولة من أفراد هذه العصابة المجرمة وعدم التردد حيال أي تدبير من هذا النوع.

إن سـلوك هـذه الطريـق والوقـوف بوجـه التـدخل الاسـتعماري في شـؤون بلادنـا الداخلية، وقطع دابر النشاط التخريبي للمفوضية الأمريكية والإنكليزية وغيرها، هو السبيل إلى حماية الانتصارات الوطنية التي حققتها سورية وزيادتها وتوسيعها.

نعم إن مصير سورية لـن يكون كمصير إيران، وإن تقوية أسس الجبهة الوطنية، وتوطيد التضامن بين الشعب والجيش، ضد الاستعمار وعملائه، وتأييد الرأي العام في البلدان العربية والعالم، هي الكفيلة بذلك.

دروس من المعارك الانتخابية*

جرت يوم الجمعة الماضي الانتخابات الفرعية في كل من داريا والقطيفة، ونجح في الأولى مظهر الشريجي من الحزب الوطني ونجح في الثانية محمد محمود دياب وهو مستقل. ومنذ فترة غير بعيدة، جرت الانتخابات في حمص، فاز فيها مرشح الجبهة الشعبية التقدمية أحمد الحاج يونس، كما فاز في طرطوس محيي الدين مرهج منذ بضعة شهور.

وقد اشتركت الجماهير في هذه الانتخابات بإقبال شديد قل أن شهدت البلاد نظيراً له. وكانت الأوساط السياسية والشعبية تتبع سير هذه المعارك بانتباه واهتمام. ورغم أن معركة حمص كانت محط أنظار الشعب السوري بمجموعه، لما تحقق فيها من اتحاد وطني على أساس التفاهم بين مختلف الأحزاب والهيئات، فذلك لا يقلل من أهمية المعارك الأخرى وأهمية النتائج التي أسفرت عنها، إذ كانت جميعها أشبه باستفتاء شعبي جديد، خصوصاً حول سياسة البلاد الخارجية والعربية.

وما هي هذه النتائج؟! إنها في كل مكان هزيمة لمرشحي حزب الشعب، أو بالأحرى لمرشحي أشد العناصر رجعية في قيادة هذا الحزب، أمثال فيضي الأتاسي وعدنان الأتاسي ورشاد جبري، ومن يشاطرهم نظراتهم ومواقفهم.

فالأولان هما اللذان قادا المعركة في حمص وطبعاها بطابعهما السياسي. ورشاد جبري هو الذي قاد معركة الغوطة، كما ساهم في هذه المعركة وفي غيرها عبد الرؤوف أبو طوق الذي يعادل في اتجاهاته أقصى اليمين في حزب الشعب. وقامت عصابة الغدر والخيانة بنصيبها أيضاً.

لقد كان محور هذه المعارك، من طرطوس إلى داريا، السياسة الخارجية واتجاه سورية العربي، وكان الفوز فيها للاتجاه الوطني التحرري، اتجاه مقاومة الأحلاف الاستعمارية ورفض الدخول في الحلف التركي - العراقي، والوقوف في وجه التدخل الاستعماري، السياسي والاقتصادي، وبوجه تدخل وضغط عملائه في العراق وتركيا وإسرائيل.

إن ذلك شيء هام جداً في حياة بلادنا. فالصياد الأروادي الذي يقاتل أمواج البحر في سبيل اللقمة، وعامل البترول في حمص، وفلاح القطيفة والمزارع في كروم داريا، قد أعلنوا جميعاً رفضهم الحازم للسياسة التي يسير عليها هؤلاء القادة في حزب الشعب،

---

* ـ صدرت هذه المقالة الافتتاحية في جريدة «النور» بتاريخ ١٥ كانون الأول ١٩٥٥.

والتي غالباً ما تطبع سياسة الحزب بطابعها، ونعني بها، سياسة إرضاء نوري السعيد وحلفائه الأتراك، والسكوت عن فظائع المستعمرين في البلاد العربية، سياسة العقلية الرجعية المنتنة، التي دفعت بأحد قادة حزب الشعب أن يكتب في جريدة «السوري الجديد» مقالات تحبذ القضاء على الحريات والإشادة بمحاسن النظم الديكتاتورية.

وهذا يعني أول ما يعني أن الاتجاه الوطني الذي اختطته سورية، وسارت عليه، هو شيء ثابت ومستمر، وليس بشيء عابر، يتغير بتغير الحكومات، وهو لايقتصر على فئة أو حزب، وإنما يشمل فئات عديدة، وأحزاباً مختلفة، إذ قد أيدته بحماسة جماهير غفيرة من العمال والفلاحين والنساء والشباب والطلاب ومن التجار وحتى من الملاكين الكبار وأرباب الصناعة، كما أيده الشيوعيون والبعث العربي الاشتراكي والحزب الوطني والكتلة الشعبية الاشتراكية في حمص وعناصر من أحزاب أخرى وعناصر لا حزبية.

ولكن سؤالاً يرتسم في ذهني، كما يرتسم في أذهان الآخرين، ترى ما رأي قادة حزب الشعب بهذه النتائج؟ وخصوصاً ما رأي فيضي الأتاسي وعدنان الأتاسي ورشاد جبري بسياسة حزبهم على ضوء هذا الاستفتاء الشعبي الذي شمل أكثر من منطقة في البلاد؟

هذا شيء هام. يجب على حزب الشعب بمجموعه، وعلى قيادته بالأخص، وعلى العناصر التقدمية فيه، أن تتدارسه وتأخذ بعين الاعتبار أن هناك من يأملون بحدوث تغيير في سياسة حزب الشعب، ويعلقون آمالاً على العناصر التقدمية في هذا الحزب. وباعتقادنا أن أمام هذه العناصر، وقد ظهر لها بجلاء الخذلان الذي تلاقيه سياسة حزب الشعب، مجالاً رحباً للعمل من أجل تعديل جوهري في هذه السياسة والحد من طغيان العناصر الرجعية المسايرة للمستعمرين وعملائهم وشركائهم، خصوصاً أن مؤتمر حزب الشعب سينعقد قريباً، وسيبحث في الدرجة الأولى السياسة الخارجية والعربية.

لقد حاول قادة حزب الشعب الرجعيون، التقليل من أهمية نتائج هذه الانتخابات، وراحوا يلتمسون الأعذار الوهمية لتبرير الفشل الذي لاقاه مرشحوهم، ولكن ذلك لم يثبت سوى إصرارهم على التعامي عن الواقع، وعلى المثابرة على سياستهم التي حكمت بها البلاد. وأرادت بعض الصحف الناطقة بلسان حزب الشعب أن تستغل النتائج لمصلحة هذا الحزب، لأنه على حد قولها، رغم اشتراكه في الحكومة، لم يلجأ إلى التزوير والضغط. صحيح أن حكومة سعيد الغزي كان موقفها طيباً في هذه الانتخابات، وهذا استمرار لموقف سعيد الغزي نفسه، عندما أشرف على الانتخابات

العامة التي جرت في سورية عام ١٩٥٤، وصحيح أيضاً أن موقف وزير الداخلية علي بوظو كان موقفاً محايداً لا غبار عليه؟

ولكن ذلك شيء وسياسة حزب الشعب شيء آخر، فالشعب عندما صوت، كان يضع في الميزان الاتجاه السياسي العام لحزب الشعب، وخصوصاً اتجاه العناصر الرجعية الموالية للاستعمار والطاغية في الحزب.. ونحن نرى أنه يجب النظر إلى الأمر من هذه الزاوية، وليس من زاوية أخرى. فالنظر إليه من زاوية أخرى، هو محاولة لوضع القضية في غير موضعها، هذا إذا أغمضنا العين عن موقف الجهاز الإداري وعن اعتداءات أتباع حزب الشعب واستفزازاتهم في حمص وغيرها.

لقد استخلصنا نحن وغيرنا دروساً من هذه الانتخابات، هي أن الشعب يكره الاستعمار وعملاءه وأحلافه ومشاريعه، وأنه على هذا الأساس، يؤيد هذا الحزب أو يرفض تأييده، وأنه مصمم على المقاومة والنضال، وهو يريد اتحاد وتضامن الأحزاب والفئات الوطنية، وأنه يريد ويؤيد الاتحاد الوطني، لأن ذلك يكفل النجاح والانتصار في كل معركة وطنية.

إننا نرجو مخلصين أن يدرك غيرنا هذه الدروس قبل أن تأتيه تجارب أشد مرارة، وأقوى صدمة، ولا ندري إذا كان فيضي الأتاسي، لا يزال على قوله، من أن حزب الشعب باق في مكانه، كما زعم على إثر انتهاء انتخابات حمص الفرعية.

ومهما يكن فالشعب السوري غير باق في مكانه، بل هو يسير إلى أمام ودائماً إلى أمام.

الشعب يحقق الجبهة الوطنية

بينما «الكبار» يقعون في مأزق كلما حاولوا تأليف وزارة قومية*

تدور منذ فترة طويلة أبحاث من أجل تأليف وزارة قومية في سورية. ويشترك في هذه الأبحاث ممثلون عن حزب الشعب والحزب الوطني وحزب البعث العربي الاشتراكي وعن المستقلين وكتل نيابية كالكتلة الدستورية. ويتضح أكثر فأكثر مع مر الأيام أن هذه الأبحاث تمضي وكأنها تدور في حلقة مفرغة، رغم جميع ما ينشر حولها.

وقد صرح محمد العايش رئيس لجنة الميثاق القومي، أنه لن يكون اتفاق حول الوزارة القومية بسبب الخلاف الشديد بين حزب الشعب والحزب الوطني.

---

* ـ نشرت في جريدة «النور» العدد ٩٥ تاريخ ٢٧ نيسان ١٩٥٦.

ويتساءل الناس كثيراً حول مواضيع الخلاف، وهم غير قانعين أبداً أن الخلاف يدور، حول رئاسة الحكومة أو حول نسبة توزيع الحقائب الوزارية بين الأحزاب.

وفي الحق، أن الموضوع أعمق من ذلك بكثير، وهو يتصل بمجموع الوضع في البلاد وبما يطمح إليه الشعب من أهداف وطنية عليا، سياسية واقتصادية.

إن دعاة الوزارة القومية يريدون تحقيق نوع من «الاتحاد الوطني» أو «الجبهة الوطنية»، ولكن بمعزل عن الشعب وأمانيه.

إن الاتحاد الوطني يتبلور في سورية حول قضايا وطنية كبرى، سياسية واجتماعية واقتصادية. وفي رأسها قضية النضال ضد الاستعمار والأحلاف الأجنبية ولاسيما حلف بغداد وصون الاستقلال وتوطيده، وحماية الحياة الديمقراطية والحريات العامة، وتحسين معيشة الشعب. ويتجلى هذا الاتحاد الوطني في البرلمان وخارج البرلمان أيضاً. فلقد تحقق الاتحاد الوطني في حمص في الانتخابات الفرعية، وهو يتحقق باستمرار في هذه المدينة في كثير من المناسبات. وبرز الاتحاد الوطني في أماكن كثيرة بمناسبة ذكرى الجلاء. وبمناسبة إحياء الذكرى الأولى لمقتل شهيد الوطن العقيد الركن عدنان المالكي.

وكان النضال ضد الضغط الاستعماري الأمريكي الإنكليزي وضد محاولات جرنا لحلف بغداد العدواني، صورة رائعة لأوسع اتحاد وطني، شمل جميع الفئات والأحزاب الوطنية في سورية.

وهناك أشياء أخرى يتحقق بها التعاون في ميادين النشاط النقابي وبين أوساط الطلاب والنساء.

وكثيراً ما تحقق الاتحاد الوطني بكل قوته في مجلس النواب حول القضايا الوطنية الكبرى. فقد تحقق الاتحاد الوطني ضد حلف بغداد، ولأجل التضامن مع الأردن الشقيق، ومع الجزائر الباسلة. وكذلك كان الموقف عند بحث حق المرأة في الترشيح، وعند بحث موضوع حق الطلاب في ممارسة النشاط السياسي، وعند بحث قانون العشائر الرجعي الذي يحمل في طياته كثيراً من مظاهر القرون الوسطى. وكان التصويت على بحث هذا القانون أو إرجاعه إلى اللجنة مناسبة تجلى فيها تعاون جميع القوى التقدمية في المجلس النيابي. فلم يقف ضده فقط، النائب الشيوعي خالد بكداش ونواب البعث العربي وعدد من النواب الديمقراطيين المستقلين، بل صوت ضده أيضاً عدد كبير من نواب حزب الشعب التقدميين، ومن نواب الحزب الوطني، وصوت كذلك ضده بعض الوزراء.

هذه بعض مظاهر الاتحاد الوطني الذي يتحقق في سورية على النطاقين الشعبي والبرلماني. فهل المتباحثون في أمر تأليف الوزارة القومية يأخذون ذلك بعين الاعتبار؟ وهل رأوا أن الشعب، في الواقع، موحد الصف موحد الهدف حول مطالبه الوطنية.

ومن الواضح تماماً أنه لو استوحى المتباحثون في مباحثاتهم إرادة الشعب وقضاياه الوطنية وحاجاته لما صعب عليهم الاتفاق، ولما كان تأليف وزارة اتحاد وطني، يلاقي هذه المصاعب

الفصل الثامن عشر

طريق الخلاص والاستقرار أمام سورية: نظام جمهوري برلماني ديمقراطي وحكومة وطنية ديمقراطية!

في شهر شباط ١٩٥٤، وكانت ديكتاتورية أديب الشيشكلي لا تزال تسيطر على البلاد، تردت الأوضاع السياسية والاقتصادية وأوضاع الحريات العامة بشكل مريع، ونضجت الظروف لإحداث تغييرات جدية في البلاد. في تلك الظروف عقدت قيادة الحزب الشيوعي السوري - اللبناني عدة اجتماعات، حللت فيها الأوضاع الراهنة، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وطرق الخلاص منها، والسبل المطروحة أمام سورية. وحللت القيادة نضالات الجماهير الشعبية في مختلف المدن السورية، والنهوض العمالي والفلاحي، ونشاط الأحزاب والقوى السياسية المختلفة. ووصلت إلى استنتاج بأن الظروف أخذت تنضج لإحداث تغيير في البلاد. فالسلطة تعاني أزمة حكم، والجماهير لم تعد تستطيع الاستمرار بالأوضاع القائمة. ورأت القيادة أن من المفيد والضروري التوجه إلى جماهير الشعب السوري برأي الحزب الشيوعي وتصوره عن التطور المستقبلي، وصدر بيان وقعه خالد بكداش، حلل فيه الوضع الملموس الذي آلت إليه البلاد نتيجة الانقلابات العسكرية المتتالية وسلطاتها الديكتاتورية، وطرحت طريق الخلاص أمام سورية، وهو الاتحاد الوطني من أجل نظام جمهوري برلماني ديمقراطي وحكومة وطنية ديمقراطية.

يعرض البيان في مقدمته الحالة المؤلمة التي يقاسي منها الشعب السوري ويقول:

«يجتاز الشعب السوري مرحلة عصيبة شاقة. فمنذ سنوات وسورية تعاني حالة غريبة من عدم الاستقرار والاضطراب. والحريات العامة تنتهك باستمرار، إن لم تكن

مخنوقة تماماً. وبين الفترة والفترة، تسلط الأحكام العرفية على البلاد، فتمتلىء السجون بالرجال والنساء من العمال والفلاحين والطلاب والمثقفين وسائر المناضلين الوطنيين.

ويجد المستعمرون في هذه الحالة جواً ملائماً لتدخلاتهم ومؤامراتهم الرامية إلى نسف كيان سورية من أساسه، أو دمجها في تكتلات استعمارية وأحلاف حربية وجعلها قاعدة عسكرية وإعادة الاحتلال الأجنبي إليها.

ويرافق ذلك تفاقم عام في وضع البلاد الاقتصادي. فدخل الأكثرية الساحقة من المواطنين في انخفاض مستمر. والبطالة في اتساع. وأجور العمال في هبوط. والجمود يسيطر على الأسواق. والإفلاسات تتوالى. والبؤس الأسود يخيم على القرى. ومحصولات الفلاحين في المواسم تباع بأسعار بخسة. وكثير من الفلاحين يطردون من أراضيهم. والضرائب المباشرة وغير المباشرة آخذة في الازدياد. وهناك فروع بأسرها من الإنتاج الوطني تعاني المصاعب والأزمات. وكثير من صغار أصحاب العمل والحرفيين تتدهور أحوالهم باستمرار. وأبواب المدارس تقفل في وجه الألوف من أبناء الشعب. والصحافة السورية في محنة شديدة لا تطاق.

هذه هي الحالة المؤلمة التي يقاسي كل الشعب السوري ويلاتها ويبحث عن طريق للخروج منها».

بعد ذلك يتساءل البيان، أين الطريق وأين المخرج؟ ويدين الأسباب العميقة لكل هذا الواقع ويقول:

«في زمن الانتداب الفرنسي كان سبب البلاء واضحاً. فقد كانت كل حياتنا السياسية والاقتصادية خاضعة للتحكم الاستعماري المباشر والسيطرة الأجنبية السافرة.

وقد عرفت جميع القوى الوطنية أن توحد صفوفها في وجه المستعمرين، فاستطاعت إلغاء الانتداب وتحقيق جلاء جيوش الاستعمار عن البلاد. وقد تكلل نضال الشعب السوري المجيد بالانتصار بفضل اتحاده وبطولته، وبفضل تضامن الشعوب العربية وتأييد القوى الديمقراطية العالمية، وطليعتها وطن الاشتراكية، الاتحاد السوفييتي.

فلماذا لم تستطع سورياة أن تقطف ثمرات نصرها الوطني، لماذا لم تبلغ ما تنشده من استمرار الحكم ورسوخ الحريات الديمقراطية وازدهار الحياة الاقتصادية؟

لقد أصبح من الواضح الآن أن جميع الحكومات التي تعاقبت على البلاد هي حكومات تمثل مصالح أشد فئات الإقطاعية بغياً ورجعية، ومصالح أشد كبار المستثمرين جشعاً ونهماً. ورغم جميع التبديلات و «الانقلابات» التي تتالت حتى يومنا هذا، لم يتبدل أي شيء في جوهر الحكم في سورية.

إن جميع الحكومات التي تعاقبت على الحكم لم تعمل للخروج بالبلاد من فلك الدول الاستعمارية، بل سلكت سلوكاً قوامه ممالأة الاستعمار وإرضاؤه، وفسح المجال لتدخله السياسي وتغلغله الاقتصادي. فأبقت على شركات الاستعمار ورساميله السابقة، وفتحت أبواب البلاد لرساميل وشركات استعمارية جديدة.

وهكذا بقيت السيطرة المطلقة على نقدنا وعلى معظم مرافقنا الاقتصادية وأعمالنا التجارية في يد بنك سورية ولبنان الذي يهيمن عليه الرأسمال الأجنبي الفرنسي الإنكليزي، وأخذ يتسرب إليه الرأسمال الأمريكي. وبقيت الشركات الاستعمارية القديمة الأخرى، كشركة سكة الحديد وحصر التبغ وبعض شركات الكهرباء والبنك الجزائري والبنك العقاري التونسي الجزائري، وكلها يسيطر عليها الرأسمال الفرنسي، ثم البنك العربي الذي يسيطر عليه الرأسمال الإنكليزي، وشركة البترول الإنكليزية (آي. بي. سي)، إن كل هذه الشركات والبنوك الاستعمارية ظلت قائمة تنهب ثروة البلاد وتستثمر الشعب.

ولم يكن الإعلان عن «تأميم» بعض هذه الشركات سوى نوع من التضليل النادر المثال.

وفوق هذا كله، دخلت إلى سورية أيضاً رساميل وشركات استعمارية جديدة. فمدت شركة البترول الأمريكية (التابلاين) ظلها الأسود فوق سورية. وشق أراضي البلاد خط بترولي جديد تابع لشركة آي. بي. سي. الإنكليزية. وأعطي مشروع مرفأ اللاذقية إلى شركة يوغوسلافية يكمن وراءها الرأسمال الأمريكي والمشاريع الحربية الأمريكية. وتغلغلت في البلاد بنوك أجنبية جديدة مثل «الكريدي ليونه» والكونتوار الفرنسي. وتأسست شركات تجارية أجنبية جديدة مثل شركة التصدير والتوريد الأمريكية، والشركة الإفريقية لحلج القطن وشراء الصوف ذات الرأسمال الإنكليزي. وأمعنت شركة (إمبريال) الإنكليزية الأمريكية المحتكرة لتصدير التبغ الفاخر في بغيها على مزارعي التبغ في اللاذقية، ووسعت شركة استخراج الإسفلت الأمريكية الفرنسية في شمال محافظة اللاذقية رساميلها وأعمالها. وهناك مشاريع لمنح امتيازات للرساميل الأمريكية بإنشاء معامل لصنع البيرة وللنسيج وغيرها.

ولم تتخذ الحكومات المتعاقبة موقفاً حازماً من مشاريع المستعمرين الحربية. وإذا كانت سورية لم ترتبط حتى الآن بأية معاهدة ولم تدخل أي حلف عسكري استعماري، ولم تقبل بالنقطة الرابعة الأمريكية، فالفضل الأول في ذلك هو لمقاومة الشعب السوري بجميع فئاته الوطنية، رجالاً ونساء، من العمال والفلاحين والطلاب إلى التجار والصناعيين الوطنيين وجماهير الجنود والضباط الشرفاء الوطنيين.

وفي جميع أدوار القضية الفلسطينية تعاونت هذه الحكومات مع الاستعمار ونفذت مشيئته، رغم أن جميع الأحداث قد برهنت أن حل قضية فلسطين حلاً نهائياً مرتبط كل الارتباط بالقضاء على الاستعمار في الشرق الأدنى والأوسط.

وإرضاءً للاستعمار، عملت جميع هذه الحكومات على حصر صلاتنا التجارية والاقتصادية مع بعض الدول الاستعمارية، مما عاد ويعود بأكبر الويلات على اقتصادنا الوطني، بينما جميع رجال الاقتصاد والتجار والصناعيين الوطنيين يرون أن من مصلحة سورية إقامة علاقات اقتصادية وتجارية على أساس التكافؤ والمنفعة المتبادلة مع جميع الأقطار بصرف النظر عن أنظمتها الداخلية، مما يؤدي إلى إيجاد أسواق فسيحة أمام الإنتاج الزراعي والصناعي السوري مثل أسواق الاتحاد السوفييتي والديمقراطيات الشعبية، في أوربا والصين الشعبية، ويسهل التجهيز التكتيكي للصناعة الوطنية السورية».

إن ما أتى عليه البيان في هذا المجال صحيح تماماً، من حيث أن النضال الشعبي الجماهيري، سواء في ثورة الـ ٢٥ أو بالإضراب الخمسيني عام ١٩٣٦، أو بالانتفاضات المتفرقة، والتظاهرات الشعبية الدائمة ومئات الشهداء قد أهملته البرجوازية التي استلمت السلطة بعد الجلاء عام ١٩٤٦ وارتكبت الكثير الكثير من الجرائم بحق الشعب وقواه الوطنية، مما أدى إلى الانقلابات العسكرية.. تحت شعار إنقاذ الشعب وإنقاذ البلاد. ولكن هذه الديكتاتوريات ارتكبت بدورها جرائم أفظع، مما أدى إلى ازدياد النقمة الشعبية، والتحركات الواسعة ضدها.

ولكن لابد من ذكر حقائق تاريخية، فإذا كان حسني الزعيم والحناوي كلاهما، مثّل ارتباطات خارجية، ونفذ سياسات تخدم هذه الارتباطات، كمد أنبوب نفط التابلاين، ومحاولة جر سورية إلى وحدة مع النظام العراقي المرتبط بمعاهدة عسكرية سياسية مع إنكلترا، فإن أديب الشيشكلي، لم يكن كذلك، فهو ديكتاتور حقاً، وعدو للديمقراطية، وسلط حملات عسكرية ضد جماهير الشعب، كان أبرزها حملة على

جبل العرب «جبل الدروز» آنذاك. إلا أنه رفض النقطة الرابعة لمشروع ترومان، التي كانت الشكل الذي تختفي وراءه الإمبريالية الأمريكية الطامعة بالمنطقة، كما رفض أن يرسل أي جندي سوري للمشاركة في الحرب العدوانية ضد جمهورية كوريا الديمقراطية، وبالتالي فإن الشيشكلي كان يعيش تناقضاً عميقاً أودى به، فهو من جهة لم يورط البلاد بأي اتفاق استعماري، ولكنه من جهة ثانية، لم يعتمد على الشعب ليعزز هذه السياسة ويعطيها قوتها، تمنح الجماهير الحرية والديمقراطية.

وينتقد البيان إعطاء مشروع بناء مرفأ باللاذقية إلى شركة يوغوسلافية، وربط بناء هذا المشروع بالمشاريع الاستعمارية الأمريكية.

أعتقد بأن هذا الموقف، الذي سرنا فيه آنذاك، دون تمحيص أو تدقيق، وانطلاقاً من الخلاف السوفييتي مع المارشال تيتو، هو موقف يعكس النظرة الميكانيكية للأحداث ولا يفسرها تفسيراً صحيحاً، كما يعكس الارتباط الجامد، بالموقف السوفييتي دون النظر إلى المصلحة الوطنية العليا. وقد برهنت الأحداث عملياً، أن بناء هذا المرفأ كان إنجازاً اقتصادياً كبيراً لسورية ساهم في نهضتها الصناعية وبناء مختلف مشاريعها الكبرى كالسدود وسكك الحديد وغيرها.

يعالج البيان بعد ذلك الموقف من الحريات الديمقراطية والإصلاحات والإنتاج الوطني، ويتخذ في هذا الجانب، موقفاً صائباً ومتماسكاً حين يقول:

«وجميع الحكومات التي تعاقبت على الحكم في سورية، بمختلف الأحزاب التقليدية التي هيمنت عليها، تميزت بالكره العميق والعداء الشديد للحريات الديمقراطية ولأبسط النظم الديمقراطية البرجوازية نفسها. ففي جميع العهود كان الدستور منتهكاً والحريات مخنوقة، وحرية الفرد لا وجود لها. أما حرية الصحافة والاجتماعات والنقابات والجمعيات والأحزاب فقد كانت، في أحسن الحالات، خاضعة لقيود قاسية لا مثيل لها.

وتميزت جميع الحكومات المتعاقبة بالكره الشديد لكل إصلاح زراعي ولكل تدبير يرمي إلى إنقاذ الفلاح من الفقر والبؤس. فالتأخر العام الشامل في القرى، والسخرة والطرد من الأرض، والربا الفاحش وانعدام الإسعاف الصحي وفقدان المدارس، والاضطهاد والتفنن في النهب، ذلك كان وما يزال نصيب الفلاح السوري في جميع العهود. مع أن تحسين حالة الفلاحين الذين هم أكثرية الأمة هو أحسن السبل لتنشيط الإنتاج الوطني ورفع المستوى الاقتصادي العام في البلاد. أما «الإصلاح الزراعي» الذي

طنطنوا به في عهود «الانقلابات» فقد تبين أنه مهزلة ومحاولة فاشلة لخداع الرأي العام.

وحقوق العمال، حتى المسلَّم بها في الأنظمة الديمقراطية البرجوازية نفسها، كانت دائماً ولا تزال عرضة للاضطهاد الشديد. وبضمن ذلك نفس الحقوق البسيطة التي تضمنتها بعض بنود قانون العمل السوري.

أما التطور المحدود الذي حققته بعض الصناعات الوطنية فقد جرى وسط ظروف عسيرة ومصاعب هائلة. والأخطار الشديدة محدقة دائماً بالصناعة الوطنية التي لا تسير خطوة إلى أمام، في جهة، حتى ترجع خطوات إلى وراء في جهات أخرى. إن السياسة التي انتهجتها الحكومات المتعاقبة حتى اليوم لم تساعد قط على إطلاق جميع إمكانات سورية العظيمة في ميدان الإنتاج الصناعي والزراعي الوطني. فالإنتاج الوطني في سورية لا يلقى أبداً ما هو واجب وممكن من الحماية والتشجيع.

وجميع الحكومات المتعاقبة أفسحت المجال للدعايات الاستعمارية الأمريكية، دعايات التضليل السياسي والتفسخ الخلقي، كالأفلام الأمريكية الخلاعية والكتب والمجلات الأمريكية المفسدة.

تلك هي الأوضاع المظلمة التي ما زالت تعانيها سورية منذ سنوات، سواء في العهود السابقة «للانقلابات» أم في عهود «الانقلابات» نفسها. بل إن أشكال الحكم الديكتاتورية التي رافقت «الانقلابات» قد زادت في تفاقم الأوضاع التي يقاسيها الشعب السوري، وفي استفحال التطاحن والتكالب الاستعماري على سورية».

وبعد أن يعالج البيان الانقلابات الثلاثة التي كابدتها سورية، ويشرح بالتفصيل ما قام به كل انقلاب، ينتقل إلى التأكيد على أن دوام هذه الأوضاع والأزمات، يهدد سورية بكارثة قومية رهيبة فيقول:

«إن استمرار هذه الأوضاع والأزمات التي تكابدها سورية منذ سنوات سيؤدي بوطننا إلى كارثة قومية رهيبة، إلى كارثة عامة شاملة. ولا ريب أبداً في أن جميع الساسة الذين توالوا على الحكم مسؤولون عن ذلك. فهم الذين أدوا ببلادنا إلى هذه الأوضاع وعملوا على استمرارها. فإن كل وطني حاول تبديل هذه الأوضاع، والسير على سياسة فيها أبسط بادرة وطنية أو ديمقراطية، وإن كان نائباً أو وزيراً، نبذ وحورب. فقد ألقى أحد الوزراء تصريحاً فضح فيه محاولات الاستعمار الأمريكي ضد سورية والشعوب العربية، ودعا إلى علاقات صداقة وصلات اقتصادية مع جميع

الدول بصرف النظر عن نظامها الداخلي، فكاد أن يعتبر مرتداً، وكان نصيبه النبذ، بوحي مباشر من الاستعمار، حتى إن قادة الحزب الذي ينتمي إليه تنكروا له وأزاحوه.

إنها حالة لا تطاق، ولا يستفيد من استمرارها سوى المستعمرين لتنشيط تدخلاتهم ومؤامراتهم وتغلغل رساميلهم، وسوى حفنة ضئيلة من الإقطاعيين المغرقين في الرجعية وعملاء الرأسمال الأجنبي، وكبار المحتكرين وبعض المغامرين الذين لا يجدون مجالاً لتحقيق مطامحهم في الحكم إلا عن طريق الديكتاتوريات والاضطرابات.

أما الأكثرية الساحقة من الأمة: العمال والفلاحون وصغار المنتجين والحرفيون وجميع ذوي المصلحة في تطور الإنتاج الوطني الصناعي والزراعي والمثقفون والطلاب والنساء فقد أصابهم ويصيبهم أذى هذه الأوضاع، وهم جميعاً يريدون الخلاص منها.

ومن الواضح أن المخرج النهائي من هذه الحالة المؤلمة، والحل الحاسم لجميع المشاكل التي تنتاب سورية هو التحرر الوطني والديمقراطي التام بالقضاء على كل سيطرة سياسية للاستعمار، وبتحرير مرافق البلاد الاقتصادية والمالية من ربقة الرساميل الأجنبية ومصادرة هذه الرساميل وتأميمها، وبإجراء إصلاح زراعي جذري يقضي على بقايا الإقطاعية في الريف السوري، ويعطي الفلاحين الأرض والمياه، وبإطلاق طاقة الإنتاج الوطني، الزراعي والصناعي، على مدى واسع، وبتحقيق مطالب العمال في ثماني ساعات عمل في اليوم، وبتحسين أجورهم ورفع مستواهم وتأمين الضمانات الاجتماعية لهم، وبإقامة حكم وطني ديمقراطي شعبي قوامه الاستقلال الوطني الصحيح الكامل والسلم والديمقراطية.

ولكن لاريب أنه، حتى قبل الوصول إلى هذه المرحلة العليا في السير نحو التحرر الوطني والديمقراطي التام، تستطيع سورية، في الوقت الحاضر، أن تحقق حلاً عاجلاً يؤمن للشعب السوري ما ينشده من استقرار ويضع حداً للمؤامرات الاستعمارية، وينقذ البلاد من الأزمات والأوضاع الشاذة التي تتالت عليها وأنهكتها.

إن سورية هي الآن بحاجة إلى نظام جمهوري برلماني ديمقراطي، يؤمن انتخابات حرة ويضمن تمثيل الشعب تمثيلاً ديمقراطياً صحيحاً، ويطلق الحريات الديمقراطية التي تمكن الشعب من توحيد قواه العظيمة للوقوف في وجه الأخطار الاستعمارية المحدقة بوطنه، وللخروج من الحالة الاقتصادية الوخيمة التي تتفاقم يوماً بعد يوم.

وجميع الظروف ناضجة والمجال متسع، أكثر من أي وقت مضى، لتوحيد جميع القوى السليمة في الأمة، على اختلاف اتجاهاتها وآرائها، في جبهة وطنية شاملة تناضل في سبيل نظام جمهوري برلماني ديمقراطي، وحكومة وطنية ديمقراطية، تنقذ

سورية من هذه الأوضاع وتعمل لإحباط مشاريع الاستعمار الحربية الأمريكية والإنكليزية على السواء، وتطلق الحريات الديمقراطية وتلغي المراسيم الإرهابية، وتشجع وتحمي الإنتاج الوطني الصناعي والزراعي، وتقف في وجه تغلغل الرساميل الاستعمارية وتعمل لتحقيق الوحدة الاقتصادية مع لبنان الشقيق، وتقيم علاقات تجارية واقتصادية، على أساس التكافؤ والمنفعة المتبادلة، مع جميع الأقطار بصرف النظر عن أنظمتها الداخلية، وتعمل لتحسن حالة الفلاحين والعمال، وتتضامن مع الشعوب العربية في النضال لأجل الاستقلال والجلاء، وتساهم في العمل لأجل الانفراج الدولي وتوطيد السلم العالمي.

إن الشعب السوري لم يهادن الاستعمار قط. ومواقع الاستعمار في سورية أضعف من مواقعه في أي بلد آخر من بلدان الشرق العربي. ولهذا يشن المستعمرون هجوماً شديداً عليها من كل جانب لتوطيد مواقعهم فيها وتوسيعها. فالأمريكيون يريدون مشروع الدفاع المشترك أو معاهدات ثنائية، كما يريدون تنفيذ مشروع جونستون المتعلق بمياه الأردن. والإنكليز يريدون مشاريع «اتحادية» «فيدرالية» كالمشروع الذي نادى به فاضل الجمالي، رئيس وزراء العراق. والفرنسيون ينظرون إلى سورية كمركز تقليدي من مراكزهم الاستعمارية ويضاعفون مؤامراتهم لبقاء الأوضاع الحالية التي يستفيدون منها إلى حد بعيد.

وهناك التطاحن البترولي الضاري بين الشركات الاحتكارية الأمريكية والإنكليزية، وقد كان هذا التطاحن دائماً العنصر الأساسي في مؤامرات المستعمرين على سورية وفي تدخلاتهم.

إن كل ذلك يتطلب من جميع الوطنيين والديمقراطيين يقظة كبرى حيال ما يجري على مسرح البلاد. فإذا كانت الديكتاتوريات تحاول أن تبرر أعمالها الإرهابية بحجة الأخطار الاستعمارية التي تهدد سورية، فهناك أيضاً بعض الساسة الذين يتسترون بمكافحة الديكتاتورية لخدمة بعض المشاريع الاستعمارية المعروفة.

ولمواجهة جميع هذه الأخطار، ولإحباط جميع هذه المؤامرات، وللخروج من الحالة الاقتصادية المنذرة بأوخم العواقب، ولتحقيق ما ينشده الشعب السوري من استقرار في الحكم وحريات ديمقراطية، يجب ويمكن تحقيق الاتحاد الوطني في سبيل إقامة نظام جمهوري ديمقراطي برلماني تنبثق منه الحكومة الوطنية الديمقراطية التي تفرض مصلحة سورية الوطنية العليا قيامها في الوقت الحاضر.

إن الكثرة العظمى من زعماء الأحزاب التقليدية التي توالى ممثلوها على الحكم في سورية، قد تخلوا عن راية الاستقلال الوطني ورموها جانباً، وتنكروا للحريات

الديمقراطية، ولم تبق سوى قوة واحدة تستطيع رفع راية الاستقلال الوطني والحريات الديمقراطية، وهي الجبهة الوطنية التي ينبغي أن تتوحد فيها صفوف العمال والفلاحين وجميع المنتجين ورجال الاقتصاد الوطني من صناعيين وتجار ومزارعين، والمثقفين والنساء والطلاب وكل من يهمه مستقبل وطنه ومصير شعبه. ولاريب أن جماهير الجنود وجميع الضباط الوطنيين الشرفاء يؤيدون مثل هذه الجبهة».

وقد يكون البيان في هذه الفقرة قد تطرق شيئاً ما إلى القوى السياسية والأحزاب العاملة آنذاك، وإلى نظرته إليها وتقييمه لها، حيث وضعها جميعاً في كيس واحد تقريباً، دون النظر إلى الفوارق فيما بينها، وإلى التباينات في داخلها، رغم أنه أشار إلى تصريحات معروف الدواليبي، دون أن يسميه.

فالقوى السياسية في ذلك الحين كانت تضم أفراداً واتجاهات متناقضة. ففي حزب الشعب مثلاً، كانت هناك شخصيات وطنية وتقدمية، مثل عبد الوهاب حومد ورشاد برمدا، وقد طالب الأخير ذات يوم، بالسماح للحزب الشيوعي السوري بالعمل العلني والحر والترخيص له كحزب شرعي وطني. وكان عبد الوهاب حومد يمثل قيمة وطنية وديمقراطية عالية.

وضم الحزب الوطني شخصيات وطنية أيضاً. ولا يجوز لنا أن نهمل الدور الهام الذي أخذ يلعبه حزب البعث العربي الاشتراكي، والتوجهات الاجتماعية والتقدمية التي لعب دوراً بارزاً فيها، وخاصة في تجنيد الفلاحين ضد قوى الإقطاع في محافظة حماة خاصة وفي مناطق سورية أخرى كمعرة النعمان وغيرها بعامّة.

لقد لعب الحزب الشيوعي، وأعضاؤه على مختلف المستويات دوراً هاماً جداً، وقاموا بنضالات باسلة، وضمت السجون في حينه مناضلين من مختلف الاتجاهات، كما بيّنا في فصول سابقة.

إن الفكرة التي يطرحها البيان والتي تتحدث عن رمي راية الاستقلال الوطني كما أسلفت في فصل سابق، مستمدة من موضوعة طرحها ستالين أمام المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفييتي عام ١٩٤٩، عندما قال بأن البرجوازية قد تخلت عن راية النضال الوطني ورمت راية الاستقلال، وعلى الطبقة العاملة أن تحمل هذه الراية. ويضع البيان هذه المهمة على عاتق الجبهة الوطنية التي ينبغي أن تتوحد فيها صفوف جميع فئات الشعب السوري. وبرأيي إن موضوعة الجبهة تختلف كثيراً عن تجمع قوى الأمة كلها، والجبهة هي تجمع أحزاب وقوى تمثل مصالح الفئات الاجتماعية المختلفة.

وينتهي البيان بتأكيد أن جميع الظروف العالمية والداخلية متوافرة لإحباط مشاريع الاستعمار وتحقيق حكم جمهوري وطني ديمقراطي ويقول:

«إن جميع الظروف الدولية والداخلية تبرر الإيمان التام بإمكان النجاح في تحقيق هذا الاتحاد الوطني. ففي سورية ومصر ولبنان والعراق والمغرب العربي تتعاظم موجة النضال ضد الاستعمار في سبيل الاستقلال الوطني والسلم والديمقراطية. وقد كان مؤتمر الدفاع عن شعوب الشرق الأدنى والأوسط الذي عقد في بيروت في كانون الأول الماضي واشترك فيه مندوبون عن سورية ولبنان ومصر والعراق وإيران والأردن والمملكة العربية السعودية وحضرموت برهاناً بليغاً على إمكان الاتحاد بين جميع القوى الوطنية والديمقراطية وتعبيراً رائعاً عن عزم الشعوب العربية على توطيد تضامنها في النضال من أجل السلم والاستقلال الوطني.

إن معسكر الاستعمار والحرب الذي يشدد ضغطه على سورية من جميع الجهات ليس من القوة كما يحاول أن يصوره أذنابه ودعاته. فالتناحر الداخلي يمزقه، ويزيده ضعفاً وتفككاً يوماً بعد يوم. وتلقى المشاريع الأمريكية الحربية والعدوانية مقاومة متعاظمة في آسيا وأوربا حتى إن دولاً بأسرها كبرى أو صغرى في العالم الرأسمالي نفسه، كالهند الكبيرة وبورما الصغيرة تقف في وجه المستعمرين وترفض الانجرار وراء مغامراتهم الحربية. وتزداد حركة السلم قوة وشمولاً مما أرغم الدول الاستعمارية على قبول المفاوضات في سبيل الانفراج الدولي.

إن القوى الرجعية في سورية، سواء في ذلك عملاء الرأسمال الأجنبي والمغامرون وأصحاب الديكتاتوريات أم رجال الإقطاع والساسة المرتبطون بالاستعمار ومشاريعه، والوصوليون الذين يبنون آمالهم على تدخل الاستعمار، ليسوا من القوة بحيث يستطيعون الوقوف في وجه القوى الوطنية الديمقراطية حين تتحد وتوطد العزم على النضال لتحقيق ما تفرضه مصلحة سورية من نظام جمهوري برلماني ديمقراطي، وحكومة وطنية ديمقراطية.

إن في سورية الآن جميع الإمكانات اللازمة، وبضمن ذلك الرجال الصالحون لتحقيق مثل هذه الحكومة الوطنية الديمقراطية. ولاريب أن جميع الوطنيين المخلصين، على اختلاف آرائهم واتجاهاتهم ومراكزهم الاجتماعية، سيؤيدون هذه الحكومة. والشيوعيون السوريون هم في طليعة الوطنيين الذين يعملون لقيام مثل هذه الحكومة، وهم مستعدون لتأييدها دون أن يشترطوا لذلك اشتراكهم فيها أو أي شرط

آخر سوى أن تعمل هذه الحكومة على تحقيق الأهداف الوطنية والديمقراطية التي ينشدها الشعب.

إن الطريق الوحيد أمام سورية نحو الخلاص والاستقرار هو طريق الاتحاد الوطني في سبيل نظام جمهوري برلماني ديمقراطي وحكومة وطنية ديمقراطية».

شباط ١٩٥٤



الفصل التاسع عشر

مؤتمر باندونغ
ومؤتمر البلدان الآسيوية في نيودلهي

في شهر نيسان ١٩٥٥ عقد مؤتمران هامان، لعبا دوراً سياسياً بارزاً في تطور الحياة السياسية في القارة الآسيوية وفي البلدان العربية.

بين السادس والعاشر من نيسان عقد مؤتمر عام شعبي لبلدان آسيا في عاصمة الهند نيودلهي.

وبعده مباشرة عقد في ١٨ نيسان في مدينة باندونغ الإندونيسية أول مؤتمر حكومي آسيوي ضم بعض الدول الإفريقية.

وقد تكامل عمل هذين المؤتمرين، فالأول كان شعبياً، لوفود تمثل القوى السياسية والحركات النقابية والمنظمات الشعبية المختلفة، والثاني كان حكومياً.

ونظراً لأهمية مؤتمر باندونغ وللحكومات والزعامات التي شاركت فيه، فقد أردت أن أفرد له فصلاً مستقلاً.

مؤتمر باندونغ

عقد في ١٨ نيسان ١٩٥٥ في مدينة باندونغ، أول مؤتمر آسيوي إفريقي. وكانت الحكومات المبادرة للدعوة إلى هذا المؤتمر هي حكومات الهند وباكستان وبورما وسيام.

شاركت في هذا المؤتمر جميع بلدان آسيا وإفريقيا، التي كانت آنذاك قد نالت استقلالها وتحررت من نير الاحتلال الاستعماري، وكان عددها في ذلك الحين ٢٨ دولة. وكان بينها دول متحررة ترفع لواء النضال التحرري وتناضل في سبيله، كالهند ومصر وسورية، كما كان بينها الصين الشعبية التي انتصرت ثورتها وانتصر حزبها الشيوعي في قيادة النضال التحرري الذي قضى على نظام الكومنتانغ وحول الصين إلى بلد متحرر متقدم. وكان بين المشاركين دول تتبع سياسة ممالأة الاستعمار ومخططاته كالعراق ولبنان وكذلك الباكستان.

لقد استقبلت شعوب البلدان المتحررة عقد هذا المؤتمر بترحاب كبير وشاركت فيه بوفود عالية المستوى. فقد كان الوفد الهندي برئاسة جواهر لال نهرو، رئيس وزراء الهند، وكان الوفد المصري برئاسة جمال عبد الناصر، رئيس الجمهورية المصرية، ورأس الوفد السوري خالد العظم وزير الخارجية، كما رأس الوفد الصيني شوآن لاي وزير خارجية الصين الشعبية وعضو المكتب السياسي وأحد القادة البارزين في الثورة الصينية.

شاركتُ في أعمال المؤتمر، مندوباً صحفياً عن جريدة (النور) الدمشقية التي يصدرها الحزب الشيوعي السوري. ولم أكن عضواً في الوفد السوري الذي ضم: خالد العظم وفاخر الكيالي ومأمون الكزبري، ومعهم وفد من المعاونين كان أبرزهم أحمد الشقيري الذي لعب دوراً بارزاً في مناقشات القضية الفلسطينية. ورافق الوفد وفد صحفي رسمي ضم الأساتذة سعيد التلاوي، ووديع صيداوي، وأحمد عسه، وفوزي أمين، ومنير الريس.

كان المؤتمر تجمعاً متناقضاً. ولا تزال مرسومة في ذاكرتي، عند افتتاح المؤتمر دخول عبد الناصر بقامته الفارعة وحوله أعضاء الوفد المصري، وتتابع وصول وفود الدول المناهضة للإمبريالية والأحلاف العسكرية، الوفد السوري ووفد العربية السعودية، وقد استقبل دخول شوآن لاي محاطاً بأعضاء الوفد الصيني الكثيري العدد، من قبل الحضور بالاحترام الكامل.

لقد انصبَّ جهدي خلال المؤتمر على اللقاء بالوفد الصيني، لإطلاعه على حقيقة الوضع في المنطقة والصراعات الدائرة فيها، وفي تقديم المساندة للقضية الفلسطينية وللوفدين السوري والمصري. وقد جرت لقاءات على هامش المؤتمر بين الوفدين السوري والصيني، وبحثت مختلف القضايا المطروحة للمناقشة.

كان جدول أعمال المؤتمر واسعاً، يعكس بعض جوانب الحياة السياسية في العالم في ذلك الحين. وضم المواضيع التالية: التعايش السلمي ، حظر الحرب النووية، الاستعمار وحريات الشعوب وحقوقها وتقرير المصير، عدم التدخل في الشؤون الداخلية. فلسطين ـ الجزائر.

كانت المناقشات عنيفة حول جميع هذه النقاط. وكان قادة الدول المتحررة يلقون كلمات هامة جداً، تحمل على الاستعمار والاحتلال، وتطالب بحرية الشعوب واستقلالها. أما مندوبو الدول الموالية للاستعمار، فكانت كلماتهم منصبة على مهاجمة الشيوعية، ومهاجمة الصين الشعبية، وكانت مهمتهم الأساسية معارضة شوآن لاي.

وكانت السياسة الأمريكية تركز على عزل الصين الشعبية، وتعرقل جلوسها على مقعد الصين في الأمم المتحدة.

اهتمت جمهورية الصين الشعبية بهذا المؤتمر، اهتماماً كبيراً. إذ كانت أول تظاهرة دولية على هذا المستوى تشارك فيها، وكانت أول مناسبة للقاء مع ممثلي الدول المتحررة وخاصة الدول العربية، واللقاء مع جمال عبد الناصر والإطلال على العالم وتعميم المواقف المبدئية التي أعلنتها الصين الشعبية.

طرحت قضية فلسطين بمبادرة من الوفد السوري، وجرت مناقشة حول قبول معالجة هذه القضية في جدول الأعمال، وهدد الوفد السوري بالانسحاب، إذا لم تدرج القضية الفلسطينية ، وتم للسوريين ذلك. وأقر المؤتمر القرار التالي بشأن القضية الفلسطينية:

«بالنظر إلى التوتر القائم في الشرق الأوسط بسبب الموقف في فلسطين، وخطر التوتر على السلم العالمي يعلن المؤتمر الآسيوي الإفريقي تأييده لحقوق شعب فلسطين العربي، ويدعو إلى تنفيذ قرارات الأمم المتحدة لعام ١٩٤٨ بشأن فلسطين وتحقيق التسوية السلمية واحترام حقوق العرب المشروعة».

ولم يلب هذا القرار مطامح الوفد السوري، وحاول الاعتراض عليه وتوسيعه، إلا أن الرئيس عبد الناصر أعلن موافقته، انطلاقاً من حرصه على تأمين وحدة المؤتمر.

وقد لعب شوآن لاي دوراً هاماً في دعم المطالب العربية بشأن فلسطين.

أقر المؤتمر المبادىء التالية:

١ ـ احترام حقوق الإنسان وميثاق الأمم المتحدة.

٢ ـ احترام سيادة جميع الدول ووحدة أراضيها .

٣ ـ الاعتراف بالمساواة الوطنية.

٤ ـ عدم التدخل في شؤون الدول الأخرى.

٥ ـ حق أي دولة في الدفاع عن نفسها بمفردها أو مع غيرها من الدول، طبقاً لميثاق الأمم المتحدة.

٦ ـ الامتناع عن الاشتراك في نظام دفاعي جماعي في صالح إحدى الدول الكبرى، والامتناع عن الضغط على البلاد الأخرى.

٧ ـ الامتناع عن تهديد أية دولة بالعدوان.

٨ ـ تدعيم التداول بين الدول.

٩ ـ احترام مبادىء العدالة والالتزامات الدولية.

واتخذ المؤتمر قرارات كثيرة أخرى منها:

- ضرورة تطوير اقتصاد البلدان الآسيوية والإفريقية على أساس المصالح المشتركة واحترام السيادة الوطنية لكل بلد.

- ينوه المؤتمر بالمغزى الخاص لتطور الطاقة النووية للأغراض السلمية بالنسبة للبلدان الآسيوية والإفريقية.

- اقتنع المؤتمر بأن من أقوى وسائل التفاهم المثمر بين الشعوب، تنمية التعاون الثقافي.

ولاحظ المؤتمر أن وجود الاستعمار في أجزاء كثيرة من آسيا وإفريقيا، أياً كان شكله لا يحول دون التعاون الثقافي فحسب، بل ويضطهد الثقافات القومية للشعوب.

- أعلن المؤتمر تأييده الكامل لمبدأ حق تقرير المصير للشعوب، واستنكر السياسات والمعاملات الخاصة بالتفرقة والتمييز العنصري.

اتفق المؤتمر على ما يلي:

أ - إعلان أن الاستعمار في جميع مظاهره شيء يجب وضع نهاية عاجلة له.

ب - تأكيد أن خضوع الشعوب للاستعباد الأجنبي وللسيطرة والاستغلال الأجنبي، هو إنكار لحقوق الإنسان الأساسية، ومناقض لميثاق الأمم المتحدة، ومعرقل لتنمية السلم والتعاون الدولي.

ج - إعلان تأييده لقضية الحرية والاستقلال لجميع الشعوب.

د - دعوة الدول المعنية إلى منح الحرية والاستقلال لمثل تلك الشعوب.

هـ - يرى المؤتمر أن نزع السلاح، وتحريم إنتاج الأسلحة الذرية والهيدروجينية وتجربتها واستخدامها ضروري لإنقاذ الجنس البشري والحضارة من مخاوف ونتائج الدمار الجماعي.

و: يعلن المؤتمر في نطاق تنمية السلام والتعاون الدولي، أنه يجب أن يكون لجميع الأمم الحق في أن تختار بحرية - نظمها السياسية والاقتصادية وطريقة حياتها وفقاً لأغراض ومبادىء الأمم المتحدة.

ز - تسوية جميع المنازعات الدولية بالوسائل السلمية، وهي التوفيق والتحكيم أو التسوية القانونية، أو أي وسيلة أخرى تختارها الأطراف المعنية وفقاً لميثاق الأمم المتحدة.

ح - تنمية المصالح المشتركة والتعاون المتبادل.

ترك هذا المؤتمر تأثيراً قوياً على حركات التحرر الوطني في العالم، ودفع نضالها إلى أمام. وقدّم صورة حية لإمكانية التلاحم والتعاون، بين الدول المتحررة والدول الاشتراكية. فقد كان التعاون وثيقاً بين مصر والهند وسورية مع الوفد الصيني، وبين أن هذا التحالف هو إحدى ظاهرات العصر في ذلك الحين، وعلى أساس هذا المؤتمر نشأت وتطورت فيما بعد حركة عدم الانحياز التي لعبت دوراً هاماً في توحيد نضال الدول والشعوب ضد الاحتلال الاستعماري وفي سبيل الاستقلال الوطني والاستقلال الاقتصادي.

إن الحلقة الأساسية في أعمال هذا المؤتمر هو تقوية وتعزيز هيئة الأمم المتحدة ومؤسساتها المختلفة، وإظهار أنه أصبح لدى الشعوب وسيلة حماية معينة يمكن اللجوء إليها، لرد عدوان ما. ولاشك أن قيام الأمم المتحدة كان أهم إنجاز بعد الحرب العالمية الثانية لإيجاد آلية ومؤسسات دولية، للرجوع إليها عند اللزوم، وقطع دابر العدوان وأساليب القوة والبطش التي كانت سائدة في ممارسات الدول الإمبريالية.

غادرتُ دمشق إلى كراتشي وقضيت فيها بضع ساعات تجولت في شوارعها، وقد لفت نظري كتابة اللوحات المرفوعة على المخازن والمؤسسات بأحرف عربية، لم أفهم منها شيئاً سوى الأسماء، إلى أن وقعت على لوحة كبيرة تقول: «قاضي نكاح» فهمت المعنى وسررت لهذا الاكتشاف. وشوارع كراتشي مكتظة بالناس، والحركة فيها نشطة جداً، والمظهر العام للناس يشير إلى أنهم رجال عمل يلبسون ألبسة بسيطة.

بعد كراتشي انتقلت إلى نيودلهي، ونزلت في فندق فخم جداً، لأن بطاقة الطائرة من الدرجة الأولى، والضيافة على حساب الشركة. وعندما دخلت إلى باحة الفندق، كان صفًان من الذين يرحبون بالضيوف، على يمين المدخل ويساره، بلباس هندي على رؤوسهم لفة عليها ريش طويل.، وعندما يدخل الضيف يحيونه بانحناءة الظهر... ويشعر الإنسان أمام هذا المظهر، بالخيلاء، ويعتقد أنه أصبح رجلاً آخر. الصالة مكيفة والطعام كان هندياً وأوربياً، وأخذت الطعام الأوربي لكي لا أتورط بطعام يلحق بي ضرراً ما في سفرتي هذه.

غادرت الفندق لأدقق بطاقة السفر، ولم أستطع السير نتيجة الحر اللاذع واضطررت إلى استئجار سيارة تكسي فبقيت فيها والعرق يتصبب من كل جوانب جسمي، ولم أجد غير يدي أضعها على رأسي لأرد تأثير الحرارة المرتفعة. وبعدها تجولت قليلاً في شوارع نيودلهي وراعني منظر البقر الذي يتجول بحرية مطلقة،

ويدخل إلى المخازن ويخرج منها، ويتناول مايريد، دون أن يمنعه أحد. ودلهي مدينة جميلة خضراء بأشجار كثيفة.

تابعت سفرتي إلى كلكتا، وأشد ماراعني هناك، البشر الجالسون أو النائمون على الأرصفة، ولم يكونوا أفراداً أو عشرات، بل بالألوف. وكنت عندما أمر قرب أحدهم أو أقفز فوقه لمتابعة سيري أحس بشعور عميق من الألم الشديد والحقد، على هذا الوضع الذي يعيشه بنو البشر، والذي كان من مخلفات الاستعمار والاحتلال البريطاني الطويل في الهند.

أخذت الطائرة من كلكتا عبر المحيط الهندي، وقد فوجئت بوجود سامي الصلح رئيس الوزراء اللبناني يجلس على المقعد الأمامي، على يمين مقعدي تماماً. وكانت ترافقه سكرتيرته برفقته حقيبة زرقاء صغيرة، يحرص عليها كل الحرص ويهتم بوضعها ويسأل عنها.

كنت خلال سفري هذا مهتماً بأمرين: الأول هو النظر من النافذة إلى المحيط الهندي، الذي يبهر الإنسان. إذ خطر لي، ماذا سيكون مصيرنا لو سقطت الطائرة في هذا الخضم المائي. سطح أزرق لامع، يوشيه الموج باللون الأبيض، طرنا فوقه ما لا يقل عن أربع ساعات، حتى وصلنا إلى أقرب محطة هي سنغافورة. أما الأمر الثاني الذي كنت منشغلاً به فهو رئيس وزراء لبنان، بحركاته وكلماته العربية ذات اللكنة التركية وكثرة استخدامه كلمة بابا، وحرصه على الحقيبة الزرقاء.

وصلنا إلى سنغافورة مع أول المساء، وكانت أضواء المدينة تشع بأضواء متنوعة الألوان، شبيهة بتنويرات الزينة عندنا. وحين أطل سامي الصلح ليرى هذا المنظر، أبدى إعجابه الشديد وتساءل بأعلى صوته من أخبرهم أنني موجود على متن الطائرة، لكي يقيموا هذه الزينات؟

وعندما هبطت الطائرة، لم يكن أي رسمي في استقباله غير العاملين في المطار، جلسنا في قاعة الانتظار واستفاد الرئيس سامي الصلح من الفرصة، وفتح الحقيبة الزرقاء، وإذ بها طقم كامل، أركيلة وتنباك وفحم. وقامت السكرتيرة سريعاً بتأمين ماهو ضروري، وأخذ سامي الصلح يلاعب الأركيلة بأنفاسه و يتمتع بها!

بعد ساعتين من الراحة تابعنا سيرنا باتجاه جاكرتا... ووصلنا إليها في اليوم الثاني صباحاً.

في جاكرتا وقعت في مأزق طريف، فعندما هبطنا من الطائرة، توجهت لاستلام الحقيبة فلم أجدها. وقدمت طلباً رسمياً بذلك، وأشرت إلى أن على الحقيبة بطاقة

بالأحرف اللاتينية Y; FESSAL وبعد يوم أتتني الحقيبة مرفقة باعتذار رسمي إلى أنها ذهبت خطأ، مع حقائب الأمير فيصل آل سعود الذي كان في حينه وزيراً للخارجية. وعندما قرؤوا على الحقيبة كلمة فيصل ضموها إلى حقائب الأمير فيصل، لأن طائرته وصلت في نفس وقت وصول طائرتنا. ولما وصلت الحقيبة إلى مرافقي الأمير فيصل استغربوا وجودها، فلا شكلها يشير إلى أنها حقيبة ملكية، وأغراضها غريبة، والكتب الموجودة فيها تشير إلى أشياء مشبوهة، رفضوا استلامها وأعادوها إلى الجهة المختصة في المطار، التي أوصلتها لي سالمة لم أفقد شيئاً منها، سوى أنها أصبحت غير مرتبة!..

أحدث مؤتمر باندونغ صدى قوياً، وجرت حول أعماله مناقشة في البرلمان السوري. وفي إحدى المناقشات أعلن خالد بكداش ما يلي: «إن هذا المؤتمر فريد من نوعه في التاريخ، وسيكون له تأثير كبير في العصر الحديث، ويسيطر عليه فيما يبدو بحث المبادىء الخمسة التي اتفق عليها نهرو وشوآن لاي، والتي ستؤدي إذا أقرت، إلى تخفيف حدة التوتر الدولي. إن الأوساط الاستعمارية بذلت محاولات كثيرة لعرقلة هذا المؤتمر، فلما أخفقت حاولت نسفه من الداخل عن طريق الحكومات العميلة السائرة في فلكها. إن سورية التي تمتاز عن جميع الدول العربية في الشرق الأوسط، بما تتصف به من حرية وديمقراطية وحياة برلمانية صادقة التمثيل ستقف ولاريب إلى جانب المبادىء الخمسة، وسينهج وفدها السياسة التي حددها البيان الوزاري والتي تعبر عن إرادة الشعب في سورية».

يتحدث أكرم الحوراني في مذكراته عن مؤتمر باندونغ ويقول: «لخص العظم وقائع المؤتمر الذي افتتحه أحمد سوكارنو، رئيس جمهورية إندونيسيا، بكلمة حمل فيها على الاستعمار بجميع صوره وأشكاله، ووصف الاستعمار بأشكاله الجديدة، بأنه شر مستطير يجب استئصاله، ثم تعاقب الوفود على منبر الخطابة. وقد تكلم جمال عبد الناصر عن القضية الفلسطينية فقال:

إنه لو نفذت قرارات الأمم المتحدة لحلت المشكلة، ثم فضح نوايا إسرائيل العدوانية واستهتارها بقرارات هيئة الأمم المتحدة، كما بحث القضايا العربية الأخرى فشجب موقف فرنسا من مطالب المغرب العربي ومن نضال أقطاره في سبيل التحرر والاستقلال».

أما كلمة العظم في المؤتمر فكانت عن قضية فلسطين وقضية المغرب العربي.

ووصف العظم إسرائيل في كلمته بأنها «جيب من جيوب الاستعمار خلفه وراء انسحابه، وأنها حصن أمامي من حصون الاستعمار أقامه على باب خطير من أبواب آسيا حيث تلتقي القارات الثلاث ليهدد به حرية الشعوب الإفريقية والآسيوية».

لقد اعتبرت تركيا والباكستان والفلبين وسيام ولبنان والعراق أن الشيوعية هي الخطر الأول، بينما اعتبرت الوفود الأخرى الاستعمار هو الخطر الأول على حريتها وسيادتها وثرواتها الوطنية، وقد استعرض شوآن لاي في خطابه قضية فورموزا وقضية اللاجئين الفلسطينيين، وكفاح الشعب المصري لاستعادة سيادته على القناة، وكفاح الشعب الإيراني لفرض سيادته على ثروته البترولية، ومطالب الهند باستعادة جاوا من البرتغال، ومطالب إندونيسيا بغرب غينيا الجديدة.

وقد تحدث لنا خالد العظم أيضاً عن موقف مندوبي تركيا والباكستان والعراق ولبنان، وكيف أنهم كانوا يتناوبون على منبر الخطابة لمهاجمة ما أسموه بالاستعمار الشيوعي طوال جلسات المؤتمر العامة وجلسات لجانه، ولاسيما فاضل الجمالي وشارل مالك ومحمد علي رئيس وزراء الباكستان. بينما كان دفاع شوآن لاي عن القضايا العربية رائعاً وبليغاً، فكانوا دوماً متحفزين للرد على شوآن لاي والتنديد بكل مقترحاته وآرائه*».

ولخص أكرم الحوراني رأيه فيما يتعلق بالمؤتمر بقوله:

«كان تصور الحياد أمراً صعباً أمام ما كان يمثل في الأذهان من ذكريات الحربين العالميتين الأولى والثانية اللتين لم تتركا خياراً لأي دولة بالحياد، باستثناء سويسرا نتيجة لظروفها الخاصة، وكان من المتوجب اقتران هذه الفكرة بتكتل دولي حتى تصبح فكرة واقعية، فجعل مؤتمر باندونغ فكرة الحياد موقفاً معقولاً ومنطقياً، ولاسيما بعد أن تبنى المؤتمر القضية العربية موعداً للتحرر من السيطرة الأجنبية المتجلية بالأحلاف العسكرية، ودعم العرب في مواجهة المطامع الصهيونية التوسعية. وهكذا أعطى مؤتمر باندونغ الحياد مضموناً ينسجم كل الانسجام مع المصلحة العربية، وأصبح ملحوظاً أن حجج الداعين للأحلاف والتعاون مع الغرب ضعيفة متهافتة. ولاسيما إن قرارات المؤتمر، كانت مترافقة مع الأمل بتوقيع الميثاق العربي الجديد. والأهم من كل هذا أن مؤتمر باندونغ أوضح أكثر وأكثر أن حركة التحرر العربي

---

* ـــ مذكرات أكرم الحوراني ص ١٨١٧ ـــ ١٨١٨.

مرتبطة بجذورها بحركة التحرر العالمية، وكانت أولى ثمرات هذا المؤتمر مواقف دول الحياد المؤيدة للحق العربي في تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦.»*

باندونغ مدينة رائعة الجمال، هي بستان كامل، أينما سرت وأين مشيت تجد نفسك بين الحدائق والزهور المختلفة والمتنوعة. وهي تعلو عن سطح البحر ٧٠٠ م. وطقسها قاري، تهطل الأمطار فجأة وتغسل المدينة بأكملها وتنعش الورود والأزهار، ثم يأتي الصحو. وما أجمله من منظر المطر والصحو المتتابعان. كانت باندونغ مقر اصطياف للهولنديين، واعتنوا بها عناية فائقة، ومارسوا فيها مهارتهم في زرع الورود والأزهار، ووظفوها في هذه البقعة الجميلة، وقد كانت ممنوعة على الإندونيسيين. ولكن عمر الاستعمار لم يكن خالداً، وانتهى الاحتلال الاستعماري وعادت باندونغ إلى أهلها، وأصبحت مدينة كباقي المدن الإندونيسية، ولكن ظل لها ما يميزها من الجمال والروعة.

مؤتمر البلدان الآسيوية في نيودلهي

بين السادس والعاشر من نيسان ١٩٥٥ عقد مؤتمر عام شعبي لبلدان آسيا لمناقشة القضايا التي تواجهها شعوب هذه المنطقة. وكان المؤتمر آسيوياً، لأن أكثرية البلدان الإفريقية لم تكن قد نالت استقلالها.

تشكلت لجنة مبادرة سورية للدعوة إلى هذا المؤتمر من النائب حسين مريود والمحامي الدكتور عدنان القوتلي والدكتور نظيم موصلي، والدكتور فاخر عاقل الأستاذين في الجامعة السورية.

وجهت هذه اللجنة نداءات من أجل المؤتمر وعقدت ندوات مختلفة، وأصدرت بيانات ونشرت مقالات في الصحف السورية. وأجرت مناقشات حول أهداف المؤتمر. وقد صدرت بيانات تأييد المؤتمر من اتحاد النقابات التقدمي ونقابات البناء وبرقيات تحية من اتحادات عمال حمص وحماة وحوران.

في ٣٠ ـ ٣١ آذار جرى تلاق شعبي في دمشق تحضيراً للمؤتمر، حضره وفد سوري ضم نواباً وأساتذة جامعة ورجال التربية والأدب وقادة الحركة النقابية وممثلين عن الحزب الشيوعي السوري. وشاركت وفود من الأردن ولبنان والعراق. واستلم التلاقي برقية من السيدة رامشواري نهرو تحيي المجتمعين وتشيد بالتعاون الآسيوي من أجل توطيد السلام وتعزيز استقلال الشعوب.

---

* ـ مذكرات أكرم الحوراني ص ١٨١٩.

ضم الوفد السوري إلى المؤتمر النواب: الدكتور معروف الدواليبي، عبد الكريم زهور، حسين مريود، وأساتذة الجامعة الدكتور نظيم الموصلي والدكتور فاخر عاقل وقادة الحركة النقابية صبحي الخطيب، يوسف العمادي، والشيوعي إبراهيم بكري. أما أنا فقد كنت ممثل الحزب الشيوعي السوري.

حضر المؤتمر إلى جانب الوفد السوري وفود عربية أخرى، منها وفد لبناني ضم الأستاذ كمال جنبلاط والأستاذ أنطون ثابت وحسين سجعان وإدمون عون وسمير مجدلاني وصوايا صوايا، ووفد أردني ضم النائب عبد القادر صالح، وعبد الكريم خلف، ووفد من الجزائر، وعدد كبير من بلدان آسيا. وقد اجتمعت الوفود الثلاثة في لبنان وغادرت إلى دلهي على متن طائرة واحدة. وكان التعاون وثيقاً فيما بينها جميعاً.

ناقش المؤتمر المبادىء الخمسة لنهرو وشوآن لاي وأقرها وهي:

١ ـ الاحترام المتبادل لوحدة أراضي البلدان الأخرى وسيادتها.

٢ ـ عدم العدوان.

٣ ـ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى.

٤ ـ المساواة والمنفعة المتبادلة.

٥ ـ التعايش السلمي.

طرحت الوفود العربية بقوة قضايا الأمة العربية، وبالدرجة الأولى القضية الفلسطينية.

وألقى حسين مريود كلمة سورية، وتحدث فيها عن نضال الشعوب العربية من أجل الاستقلال، وعن الاستعمار الجديد الذي يحاول السيطرة على المرافق الاقتصادية، وندد بالدور التركي في إطار مساعي المستعمرين وقيادة الشرق الأوسط، كما شرح أهداف زيارات المسؤولين الإنكليز والأمريكيين للمنطقة، كما تحدث عن الحلف التركي ـ العراقي وأهدافه قائلاً:

أولاً: يعلن أصحاب الأحلاف أنها للدفاع عن الشرق الأوسط، والسؤال الذي يخطر في الذهن حالاً، الدفاع ضد من؟ إننا لا نعرف للشرق الأوسط عدواً غير أولئك الذين استعمروه ووضعوا أيديهم على موارده وأفقروا شعوبه.

ثانياً: إن دخولنا الأحلاف معناه استعدادنا للحرب، وهذا معناه انصرافنا عن الإنشاء والتعمير إلى تكديس الأسلحة والهبوط بمستوى حياة المواطنين.

ثالثاً: انضمامنا للأحلاف يعني حتماً وضع اقتصادنا ومختلف مرافقنا تحت النفوذ الأجنبي.

وقدم في نهاية كلمته التوصيات التالية باسم الوفد السوري:

- الموافقة على المبادىء الخمسة.
- شجب الأحلاف.
- دعوة الدول الآسيوية للتعاون.
- شجب مواقف إسرائيل.
- تجنيب العالم الحرب.

أقر المؤتمر القرارات التالية بشأن الوضع في البلدان العربية:

١ - يساند هذا المؤتمر مساندة تامة الشعوب العربية في نضالها من أجل حريتها واستقلالها الوطني.

٢ - يعبر المؤتمر عن أسفه للوضع في الشرق الأوسط الذي لا يزال في درجة الغليان من جراء التدخل الخارجي المستمر. إننا نشجب هذا التدخل الذي يقسم المجموعة العربية ويخلق التوتر فيما بينها الأمر الذي يهدد السلم العالمي.

٣ - يشجب المؤتمر إنشاء الأحلاف والقواعد العسكرية في البلاد العربية، التي تهدف إلى إعادة السيطرة الاستعمارية على بعض البلدان، وفرض هذه السيطرة على البلدان التي تمكنت أن تحرر نفسها. وإننا نشجب أيضاً الضغط مهما كان شكله الذي مارسته بعض القوى وخصوصاً من قبل إسرائيل وتركيا بغية إجبار البلدان العربية على الانضمام إلى الكتل العسكرية.

٤ - إن المؤتمر يؤيد اللاجئين الفلسطينيين وحقهم في العودة إلى فلسطين ويشجب المؤتمر السياسة العدوانية التي تسير عليها الأوساط الحاكمة في إسرائيل. وإننا لعلى يقين بأن قضايا الشرق الأوسط يمكن أن تحل على أساس العدالة والمساواة والحقوق الدولية.

كان التعاون وثيقاً بين الوفود العربية كما ذكرت، وقد عملنا نحن الشيوعيين السوريين إبراهيم وأنا، على تعريف الوفود العربية على الوفود الأخرى المختلفة، وعقد لقاءات معها. وكان من نتائج جهودنا تنظيم زيارة للصين الشعبية للقادة النقابيين: صبحي الخطيب ويوسف العمادي وإبراهيم بكري.

كان الوفد السوري موضع حفاوة كبيرة. فقد أقام السفير السوري في الهند الشاعر عمر أبو ريشة حفلة استقبال للوفد. وخلال انعقاد المؤتمر مر الرئيس جمال عبد الناصر بالهند في طريقه إلى باندونغ. وأقام السفير المصري حفل استقبال واسع على شرف الضيف المصري الكبير، دعي إليها رؤساء الوفود المشاركة بمؤتمر نيودلهي، ودعي الوفد السوري بكامل أعضائه، واستقبل الرئيس عبد الناصر الوفد وصافح أعضاءه فرداً فرداً.

من طرائف ما جرى معنا في هذه الزيارة، أن الأستاذ أنطون ثابت المهندس المعماري الشهير، يعرف من خلال دراسته وجود مسجد كبير في دلهي، هو تحفة فنية في بنائه. وقد أقنع الجميع بمشاركته في زيارته، وبضمنهم الوفد السوري بمجموعه. وكان موعد الزيارة يوم الجمعة، ولم ننتبه إلى ما يمكن أن يفاجئنا عند اقتراب موعد صلاة الجمعة. ووقعنا نتيجة ذلك في مأزق. فعندما وصلنا إلى المسجد الجامع، كان الوقت مبكراً نسبياً، وطال تجوالنا داخل الجامع وحول محرابه، ولما هممنا بالخروج كان آلاف المصلين قد توافدوا وأخذوا أماكنهم في صحن الجامع، الأمر الذي حال بيننا وبين المغادرة، فتشنا عن مخرج فلم نجد إلا ما اقترحه الدكتور الدواليبي، وهو أن يقف معنا أنطون ثابت المسيحي الماروني، ويصلي معنا ويقلد الحركات التي نقوم بها. ونجحت المحاولة وخرجنا سالمين. إلا أن أنطون ثابت لم يفهم ما جرى في نهاية الصلاة عندما يجلس المصلون ويقرؤون التحيات ويرفعون إصبعهم بالشهادة، فالتفت إلى الدكتور الدواليبي وسأله: ماذا يعني تحريك إصبعكم؟ وأشار إلى الإصبع الوسطى.

❖❖❖

شكل انعقاد هذين المؤتمرين حدثاً تاريخياً في نضال شعوب ودول آسيا. فالمؤتمر الأول كان مؤتمراً حكومياً، والمؤتمر الثاني كان مؤتمراً شعبياً. ولكن الأهداف التي رسمت لكليهما واحدة، وهي:

١ - توحيد نضال شعوب هذه القارة التي نهضت للنضال ضد الاحتلال الاستعماري ومن أجل تصفيته نهائياً.

٢ - توسيع حركة النضال العالمي ضد مشاريع الحرب الذرية والهيدروجينية التي كانت تعدها الولايات المتحدة، وتشكيل جبهة شعبية واسعة لمقاومة هذه المشاريع.

٣ - تنشيط النضال الجماهيري المعادي للإمبريالية والصهيونية، وربطهما معاً.

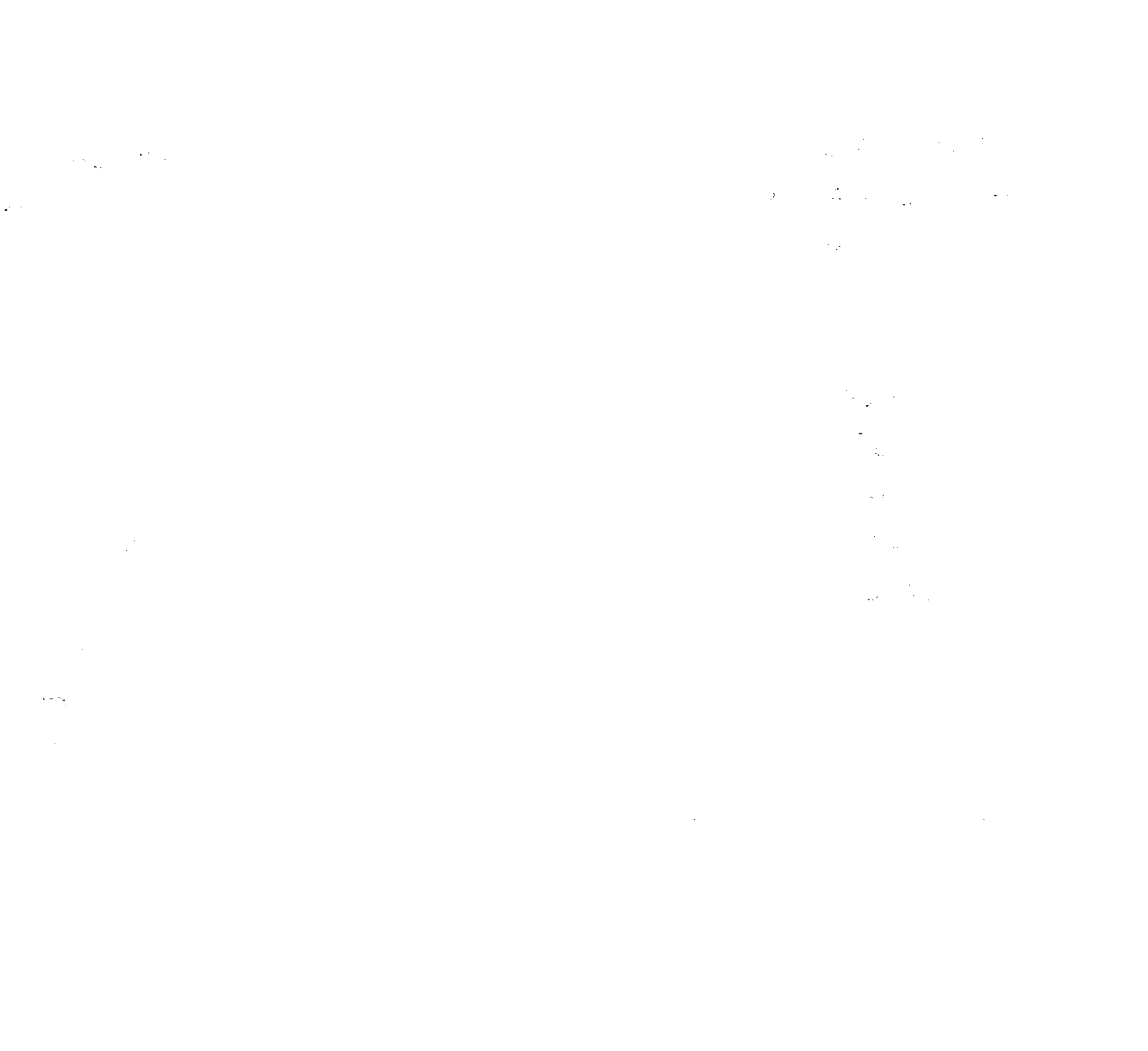
٤ - تحقيق وحدة النضال بين القوى الدولية التي يمثلها الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية، وبين القوى الشعبية، والحكومات المعادية للإمبريالية.

٥ ـ تحقيق التضامن الأممي بين نضالات مختلف الشعوب والدول ذات الاتجاه الوطني، الرافض لإملاءات الإمبريالية والصهيونية.

٦ ـ ربط النضال الوطني بالنضال الاجتماعي والاقتصادي من أجل رفع مستوى حياة الشعوب.

لقد أعار الحزب الشيوعي اهتماماً كبيراً لهذه المعاني والاستنتاجات، وعلى أساس ذلك جند الحزب الشيوعي السوري جزءاً هاماً من نشاطه لتوضيح أهداف هذه المؤتمرات، ولتعزيز الأفكار التي حملها وناضل في سبيل تعميمها.

وقد لعب الشيوعيون العرب في مؤتمر نيودلهي دوراً بارزاً جداً، فقد شارك في المؤتمر ممثلون عن الحزب الشيوعي السوري والحزب الشيوعي اللبناني والشيوعيين الجزائريين، إضافة إلى عناصر تقدمية من الأردن.



الفصل العشرون

نشاطات شعبية

جرت في مرحلة الخمسينيات نشاطات شعبية واسعة، يصعب على المرء الإحاطة بها. وكانت متعددة الجوانب تشمل العمال والفلاحين والطلاب والشباب والنساء والكتاب والمثقفين ورجال الأحياء والجمعيات المختلفة. وقد اخترت عدداً من هذه النضالات والنشاطات الشعبية لعل عرضها يساعد في تكوين فكرة عن النضال الجماهيري الذي كانت تضج به البلاد.

المؤتمر الثامن لنقابات العمال في سورية:

عقد في أيام ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥ آذار ١٩٥٥ المؤتمر الثامن لنقابات العمال في سورية، بحضور ممثلي نقابات العمال في محافظات دمشق وحلب وحمص وحماة واللاذقية وحوران ودير الزور والجزيرة، وبحضور ممثلي الاتحادات المهنية والاتحاد العام في سورية.

وقد نشر الرفيق إبراهيم بكري مقالة في جريدة «النور» تحضيراً للمؤتمر. قال فيه: «سيكون مدى نجاح هذا المؤتمر ومدى ما ستتمتع مقرراته وتوجيهاته بتأييد أوسع جماهير العمال، وأوسع المنظمات النقابية، أي سيكون قوياً وشعبياً وناجحاً، بمقدار ما سيعكس بشكل صحيح مطالب الطبقة العاملة وشعاراتها الأساسية في المرحلة الحاضرة»، وأضاف:

«يجب أن لا يكون المؤتمر مؤتمراً لاتجاه واحد في الحركة النقابية أو لمركز نقابي واحد، بل ينبغي أن يجمع مختلف المراكز والاتجاهات النقابية، ولاسيما أن للطبقة العاملة السورية مطالب أساسية واحدة وشعارات كبرى واحدة تناضل بمجموعها في سبيل تحقيقها».

وعرض الرفيق إبراهيم بكري مطالب العمال وهي:

ـ الأجور: ويشير إلى أنها متدنية وأن حاجة العائلة الصغيرة هي خمس ليرات يومياً، بينما الحد الأدنى هو ٢٧٥ قرشاً، ويشير إلى أن هناك عمالاً ينالون أقل من ذلك.

وأعلن أن الدستور أقر دفع أجرة يوم العطلة الأسبوعية، ولكن هذا المبدأ لا يطبق.

وإن ساعات العمل المحددة بثماني ساعات، فذلك على الورق. والجماهير الواسعة من العمال تعمل ١١ ـ ١٢ ساعة.

ـ وضع العمال الزراعيين مزر.

ـ الطبقة العاملة محرومة من الضمان الاجتماعي.

ـ تأليف النقابات يخضع إلى معاملات وشكليات بيروقراطية، غالباً ماتدوم أشهراً طويلة لا يستطيع العمال تحملها.

نقابات العمال خاضعة لمراقبة السلطة وتدخُلها، ويحق للمسؤولين حل النقابات أو فصل أعضاء مكاتبها أو بعضهم متى يشاؤون.

ـ حرية الإضراب مقيدة أو شبه معدومة.

وأعلن وقوف الطبقة العاملة ضد الأحلاف، وخاصة الحلف التركي ـ العراقي، ورفض الضغط الأمريكي على الحكومة السورية وضد القواعد العسكرية والحرب العالمية.

وجهت القيادة النقابية نداء لعمال دمشق للتجمع أمام مدرج الجامعة لتنظيم عرض للعمال يوم ٢٥ آذار يوم انتهاء المؤتمر.

في اليوم المقرر تجمع نحو ١٥ ألف عامل وجاؤوا الموجة تلو الأخرى، متجهين إلى محطة الحجاز، فالسنجقدار ودار الحكومة في المرجة، ومنها إلى البرلمان، ثم إلى مدرج الجامعة.

حملت المسيرة اللافتات التالية:

«عاشت وحدة الطبقة العاملة السورية وحركتها النقابية».

«نطالب بالحريات النقابية وحماية القادة النقابيين».

«عاش النضال في سبيل تحقيق ضمان اجتماعي، وعدم التسريح التعسفي، وحرية الأحزاب».

«تعديل قانون العمل لصالح العمال، عاش النضال في سبيل زيادة الأجور».

«ليسقط الحلف التركي ـ العراقي وجميع الأحلاف الاستعمارية».

«العمال يريدون السلم ويناضلون ضد الحرب».

اتخذ المؤتمر قرارات هامة، تعكس الوضع السياسي والاجتماعي في تلك الفترة التاريخية من حياة سورية. وأهم هذه القرارات هي التالية:

- الدفاع عن السلام وتحريم الأسلحة الهيدروجينية والذرية.
- تحية لمؤتمر دلهي المنعقد من ٦ إلى ١٠ نيسان ومبادئه.
- شجب الأحلاف العسكرية، وبضمن ذلك الحلف التركي - العراقي، والتمسك بالاستقلال والجمهورية والمطالبة بالبقاء على الحياد، ودعم الحكومة بمواقفها بكل الإمكانات.
- تأييد الحكومة في موقفها من تركيا وسواها من الدول الاستعمارية ودعم الحلف السوري، المصري، السعودي.
- الإلحاح على عدم المصالحة مع إسرائيل، واستعادة الأراضي السورية المغتصبة في الشمال والجنوب.
- تأييد عرب شمال إفريقيا في نضالهم ضد الاستعمار، وكذلك تأييد جميع مقاومي الاستعمار في الأقطار الأخرى.
- تحية المؤتمر الآسيوي الإفريقي المقرر عقده في باندونغ.
- عقد معاهدات تجارية متكافئة مع جميع البلدان الراغبة في ذلك وعدم الارتباط باتجاه واحد.
- الدعوة لتشكيل اتحاد نقابي إقليمي لمنطقة الشرقين الأوسط والأدنى.

وفي الحقل العربي:

- تقوية الجامعة العربية وإخراج مشاريع الوحدة الاقتصادية والعسكرية والثقافية إلى حيز الوجود وإحداث أمانة مساعدة لشؤون العمال العرب.
- مساعدة البلدان العربية الشقيقة غير المتحررة في سبيل تحررها.
- إعادة تسيير الخط الحديدي الحجازي.
- استثمار مساقط المياه المشتركة في البلدان العربية واستنكار مشروع جونسون.
- الدعوة لعقد مؤتمر للعمال العرب في أقرب فرصة.
- الدخول بمفاوضات جدية لتكوين اقتصادي عربي موحد.
- المطالبة بإطلاق الحريات النقابية في البلدان العربية.
- الدعوة لتبادل واستخدام الخبراء العرب من رعايا الدول العربية والاستغناء عن الخبراء الأجانب.

في الحقل العمالي:

- تخفيض أكلاف المعيشة وإلغاء نظام الضرائب غير المباشرة.
- تحقيق نظام الضمان الاجتماعي.
- إحداث وزارة العمل والشؤون الاجتماعية.
- تصديق قانون المحاكم العمالية.
- المطالبة بتشييد دور سكن مناسب للعمال.
- حماية قادة ومؤسسي الحركة النقابية.
- مكافحة البطالة.
- تشجيع الإنتاج الوطني.
- إيفاد بعثات عمالية إلى البلدان العربية.
- إصدار تشريع خاص باعتبار يومي ١ أيار و ١١ حزيران عيدين للعمال.
- وضع تشريع خاص لحماية عمال الزراعة والفلاحين.
- جعل الطبابة والعلاج مجانيين للعمال وعائلاتهم.
- المطالبة بزيادة الحد الأدنى للأجور ٥٠٪.
- إطلاق الحريات النقابية.
- تعديل قانون العمل، وذلك بإلزام الانتساب إلى النقابات والاتحادات وعدم السماح بتشغيل الأجانب والحد من التسريح التعسفي ودفع أجور الراحة الأسبوعية والسنوية والمرضية والأعياد، وشمول القانون للعمال الزراعيين. وإزالة الفرق بين المستخدمين والفعلة، وحق ورثة العمال بقبض تعويض التسريح والإصابة وفصل تعويض التسريح عن مشروعية الإضراب وإزالة القيود المفروضة في حال تشكيل النقابات، وحماية صغار العاملين والإقلاع عن مدة التمرن والتدرج، وعدم التجاوز في تفسير الذنوب الخطيرة إلا ما نص عليه القانون

.

تظاهرة الثامن من آذار ١٩٥٥

نظم احتفال واسع في سينما أدونيس بدمشق، حضره جمهور واسع من النساء زاد عددهن على ألف امرأة، وشخصيات نسائية من الندوة الأدبية والهلال الأحمر السوري والاتحاد النسائي السوري، وعدد من الشخصيات النسائية السورية، وفي مقدمتهن عادلة بيهم الجزائري.

افتتحت الاحتفال الطالبة الجامعية ناديا خيمي وتحدثت عن تاريخ هذا اليوم وعن كفاح الشعب السوري ومشاركة المرأة فيه. ثم تحدثت وصال فرحة والسيدة ريمة كرد علي. وألقت الشاعرة عزيزة هارون قصيدة، ثم ألقت العاملة هيلانة يازجي كلمة.

وقد أذاعت رابطة النساء السوريات لحماية الأمومة والطفولة نداء بهذه المناسبة جاء فيه:

إن المرأة السورية، التي برهنت خلال التجارب التي مرت بها، على وعي كبير لمسؤوليتها في المجتمع، وعلى تمسك شديد بسيادة بلادها وسعادة أسرتها، تنتهز هذا اليوم لتشدد عملها في سبيل حقوقها وحقوق أطفالها، ومن أجل رد الأخطار الأجنبية عن بلادها.

لقد نالت النساء في بلادنا بعض الحقوق السياسية بفضل ثباتهن واتحادهن، كحق الانتخاب المقيد ببعض الشروط. إن هذا شيء محدود جداً بالنسبة لما تطالب به النساء. فسورية مثلاً لا يوجد فيها سوى دار توليد واحدة، لا تكاد تستوعب عشرات النساء، وأجرة الولادة فيها مرتفعة جداً، ورياض الأطفال ودور الحضانة تكاد تكون معدومة. على الرغم من أن عدد المدارس يزداد جزئياً، لكنه غير كاف أبداً لاستيعاب الأطفال الذين أضحوا في سن الدراسة.

تأخذ العاملة في بلادنا أجراً أقل من أجر العامل، رغم تساوي العمال. ولا تزال العاملات مهددات بالتسريح والطرد ومعرضات للاستغلال الجائر والشتم من قبل أصحاب العمل.

إن الفلاحات اللواتي يشكلن جزءاً هاماً من مجتمعنا، يعشن حياة بؤس وحرمان، ويعملن من شروق الشمس إلى غروبها، ومعهن أطفالهن، وذلك إما تحت أشعة الشمس اللاهبة أو في البرد القارص، وأنهن مع أزواجهن وعائلاتهن يزرعن القمح، ولكنهن يأكلن الذرة.

وبعد أن يتحدث البيان عن القضايا السياسية والنضال ضد الاستعمار يقول:

أيتها النساء ليكن ٨ آذار حافزاً جديداً لنا نحن النساء السوريات لتحسين أوضاع الأسرة والأم والطفل، ولرفع مستوى معيشة شعبنا، وفي سبيل فتح مستشفيات ودور توليد ومدارس جديدة.

كان هذا الاجتماع في دمشق، وتبعته اجتماعات في مختلف المحافظات السورية. أذكر منها مهرجان حمص إذ حضره ما يزيد على ألفي امرأة، وتحدثت فيه السيدات

والأوانس: فاطمة مراد، زبيدة الجندي، نجاح الساعاتي، اعتدال ترجمان، عزيزة الصفدي، توفيقة شوحي، امتثال الدروبي، وآمنة السباعي.

واتخذت المجتمعات المقررات التالية:

«إن النساء المجتمعات يرين أن العمل للتحرر الوطني وشجب الأحلاف، وخاصة الحلف التركي ـ العراقي، واستنكار المذكرة الأمريكية التي تتدخل بوقاحة في شؤون بلادنا لفرض حلف مندريس ـ نوري السعيد على سورية، والعمل لقضية السلم ولإتلاف الأسلحة الذرية، هو الطريق الواضح الصحيح لتأمين الجو المناسب لتحسين أحوال المرأة، أماً وزوجة وطالبة وعاملة وفلاحة».

مهرجان الشباب والطلاب العالمي للسلم والصداقة في فرصوفيا

قام وفد سوري بزيارة فرصوفيا للمشاركة في مهرجان الشباب والطلاب للسلم والصداقة.

وقد ضم الوفد نائبين من المجلس النيابي، و ٥ أساتذة جامعة، و ٤ مهندسين، و ٥ رسامين، و ٣ قضاة، و ١١ طالباً جامعياً، و ١٥ مدرساً، و ٥ كتاب، و ٣ شعراء، و ١٢ فناناً موسيقياً من الإذاعة السورية، وأعضاء فرقة رقص السماح من حلب، و ١٧ رياضياً وحكماً رياضياً، و ٧٦ عاملاً بينهم رؤساء نقابات وعمال من مختلف المهن، و ٢١ فلاحاً وعاملاً زراعياً، و ٢١ فتاة.

وكان يضم شباباً من حزب البعث العربي الاشتراكي والإخوان المسلمين والحزب الوطني والحزب الشيوعي واللاحزبيين، ومن جمعيات رياضية وفنية وأدبية من جميع المدن السورية.

وكان الـ ٢٧٤ شخصاً يحملون جميعاً روح شعب سورية العربية ويعكسون كفاحها من أجل السيادة والكرامة الوطنية بين الألوف من شبيبة البلدان الأخرى.

كان المهرجان تظاهرة ثقافية ورياضية ضخمة. فقد حضره ثلاثون ألف شاب من مئة وأربعة عشر بلداً يمثلون مختلف المنظمات الاجتماعية والطلابية والرياضية من فئات ومذاهب شتى جمعتها كلها فكرة السلم والصداقة بين الشعوب.

وإلى جانب هؤلاء، ساهم في المهرجان ١٥٠ ألف شاب وشابة من البلد المضيف بولونيا.

خلال الخمسة عشر يوماً من أيام المهرجان نظمت ٥٠٠ مقابلة بين الوفود. و ١٩ مقابلة بين العمال. ونظم ٥٤٧ برنامجاً فنياً وموسيقياً، وعرض أمام الجمهور ١١٦

فيلماً سينمائياً. وقدمت للمسابقات الثقافية والفنية ٢٧٥٠ قطعة أدبية وفنية، منها ١١٠٢ في ميدان النحت و ٢٧٧ قطعة أدبية و ٢٠٢ قطعة موسيقية و ٤٦ قصة سينمائية. وفي ميدان الرياضة جرت مباريات ساهم فيها ٣٥٨٢ رياضياً في ألعاب: كرة القدم، الكرة الطائرة، كرة السلة، كرة اليد، كرة الطاولة، كرة المضرب، رفع أثقال، مصارعة، سباحة، تجديف، ملاكمة، سباق دراجات، مبارزة بالسيف، ركض، رمي القرص وغيرها.

وكان الوفد السوري نشيطاً في جميع هذه الميادين وغيرها. فقد أجرى مقابلات مع الوفود العربية ووفود إيران والصين وإندونيسيا والاتحاد السوفييتي ورومانيا وبولونيا وألبانيا والمجر وتركيا وإسبانيا.

ونظمت الفتيات السوريات مقابلة خاصة حضرتها وفود من ثمانية بلدان، وقد تركت المقابلات التي تمت مع الجيش البولوني والموسيقيين والفنانين والأدباء أبلغ الأثر في نفوس أعضاء الوفد.

قدم الوفد السوري ثلاث برامج وطنية، واشترك في ثلاث برامج دولية، واشترك بالمسابقة الأدبية، وحاز بنتيجتها الشاب نصر الدين البحرة على الجائزة الثانية للقصة. كما حاز ثلاثة شباب: محمد باراني وسعيد شبلي وحنا جبرا على ميداليات الشرف باعتبارهم أبطال سلم برزوا في حملات جمع التواقيع.

وكان الجناح السوري - اللبناني، في المعرض الوثائقي الذي تزينه صورة كبيرة للبطل الوطني العقيد عدنان المالكي، وصور أخرى عن تطور بلادنا وكفاحها من أجل الحرية والسيادة والمعروضات الشعبية ملتقى العشرات من المتفرجين البولونيين والأجانب.

ولأول مرة اشتركت سورية بالمعرض الفني بلوحات عديدة لأشهر الرسامين والفنانين، وأحرز الرياضيون السوريون بضعة انتصارات، ولاسيما أبطال كرة الطاولة في الجامعة السورية*

* من تقرير نشره الرفيق واصل الفيصل رئيس الوفد السوري.



الفصل الحادي والعشرون

الدراسة الحزبية

في أواخر عام ١٩٥٦ اتخذت قيادة الحزب قراراً بالبدء بإيفاد بعثات حزبية للدراسة في المعاهد الحزبية المتخصصة في الدراسة الحزبية في الاتحاد السوفييتي. ووجهت رسالة بهذا الشأن إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، وجاء الجواب بالموافقة. ووقع الاختيار على مجموعة من أربعة رفاق، اثنين من سورية وهما دانيال نعمة وأنا، واثنين من لبنان وهما حسن قريطم وصوايا صوايا. منهم اثنان متزوجان هما حسن وأنا.

عندما طرحت القضية أمامنا، رحبنا بشكل مبدئي، فنحن أول مجموعة ترسل لهذا الهدف بعد المجموعات التي أرسلت في سنوات الثلاثينيات، وضمت خالد بكداش وفرج الله الحلو ويوسف خطار الحلو وإبراهيم ميرزا وآخرين، وهذا شرف كبير لنا ويحقق فائدة ثقافية عالية، ويغني تجربتنا الحزبية، ويعطينا زاداً ثراً في التعرف على الحركة الثورية العالمية، وعلى الوضع في الاتحاد السوفييتي، وعلى الوضع في حزبه المجيد الحزب الشيوعي السوفييتي. وطرحت من جهتي موضوع العائلة، فقد أصبحت عائلتنا كبيرة تضم الزوج والزوجة وثلاثة أطفال آخرهم مها الصغيرة التي كان عمرها عشرة أشهر. وقيل لنا بأننا سنؤمن العائلات لتلحق بكم بعد فترة قصيرة. وبسبب نقص التجربة، لم ندرك أن مجيء العائلات بعد بدء الدراسة، سيفقد الزوجات حق الدراسة معنا، الأمر الذي تداركه الرفيق إبراهيم بكري، فأتى بعدنا برفقة زوجته وبدءا الدراسة معاً.

وهكذا ففي شهر أيلول عام ١٩٥٦ غادر الرفيق دانيال نعمة الوطن، وتبعته بعد أسبوعين وأتى الرفاق اللبنانيون، وبدأنا الدراسة معاً في مدرسة الحزب العليا، القائمة في ساحة ميئوسكايا قريباً من شارع غوركي ومن ساحة ماياكوفسكي. كانت تسمى ببساطة «مدرسة»، ولكنها في الواقع صرح أكاديمي كبير، تتم الدراسة فيها على عدة درجات. دراسة لسنة واحدة ولسنتين وثلاث سنوات. وكنا نحن في فئة الثلاث سنوات. كما تتم فيها دراسات اختصاصية من مختلف الفروع. وتضم المدرسة مدارج للدراسة ومهاجع للنوم وشققاً ومطاعم، ومراكز صحية، وهي بعيدة عن ضجة الحياة في موسكو وقريبة من وسط المدينة.

بدأنا الدراسة في مدارج المدرسة، ثم نقلنا إلى مكان آخر، قريب من فندق سوفيتيسكايا، وكان الجهد الأساسي في البدء مركزاً على تعلم اللغة الروسية واستيعابها. وبذلت مدرسة اللغة الروسية جهوداً استثنائية لكي نتفهم اللغة ونستوعبها. وكان ذلك حلقة أساسية. إذ إننا عندما بدأنا الدراسة، استخدمنا اللغة الافرنسية، واستمر ذلك ردحاً من الزمن، حتى وصلنا إلى مرحلة الاستماع باللغة الروسية.

مدرِّسة اللغة الروسية نونا سيرغييفنا تركت في نفوسنا جميعاً، أجمل الأثر والذكريات، فقد كانت تدرك في أعماقها أنها تساعد مناضلين أتوا من بلدان بعيدة لكي يعمقوا تجربتهم ومعارفهم. ونشأت بيننا وبينها صداقة أخوية رفاقية، وقمنا بزيارتها في شقتها وكانت متشوقة لذلك لتعرفنا على زوجها الضابط في الجيش السوفييتي وعلى ابنها الوحيد الصغير آنذاك.

وكانت العلاقة التي نشأت بيننا وبين هذه المدرِّسة تعبيراً عميقاً عن الروح الإنسانية الأممية، وعن علاقة الاحترام بين الشعوب.

شمل برنامج الدراسة الفلسفة والاقتصاد السياسي، وتاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي، وتاريخ الاتحاد السوفييتي، والحركة العمالية العالمية، وحركة التحرر الوطني العالمية، الحق الدولي والبناء الحزبي.

درسنا تاريخ الفلسفة وارتباطها بالدين، والمادية والمثالية، والفلسفة الماركسية والديالكتيك وقوانينه، ودرسنا إلى جانب ذلك مراجع كثيرة، لماركس وإنجلز ولينين، وأذكر أنني قرأت (أنتي دوهرينغ) بكامله ووضعت ملخصاً له، توارثته بعدي، المجموعات العديدة التي أوفدها الحزب. ولخصت كتاب (ما العمل)، وكتباً أخرى أيضاً.

وشمل الاقتصاد السياسي، الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي، واطلعنا على فصول من كتاب (الرأسمال) لماركس وعلى كتب أخرى لإنجلز.

وشملت مواد التاريخ، تطور الحزب الشيوعي السوفييتي منذ أيامه الأولى، ودور لينين ونشاطه والخلافات بين البولشفيك والمنشفيك، وثورة ١٩٠٥، ودروسها والنتائج، ثم تكتيك ثورة أكتوبر واندلاعها وتطوراتها. وتضمن تاريخ الاتحاد السوفييتي، تطور الدولة الروسية ثم السوفييتية.

وتضمنت مادة الحق الدولي، العلاقات الدولية والقانون الدولي، والنصوص القانونية لهذين الميدانين.

أما الحركة العمالية العالمية فتشمل، الحركة الشيوعية العالمية وتطورها وتاريخ الكومنترن، وحركات التحرر الوطني والانتفاضات الثورية المختلفة في الصين والمجر وألمانيا.

وشمل البناء الحزبي مواضيع تنظيم الحزب والمركزية الديمقراطية. وكانت هناك مواد تقدم فيها فحوص رسمية، كالفلسفة والاقتصاد السياسي، والحركة العمالية العالمية،

ومواد أخرى يجري حولها نوع من المناقشات (السيمنار). ولم تقتصر الدراسة على المواد النظرية، بل كانت هناك دروس عملية، إذ قمنا بزيارات للمصانع والمعامل وورش العمال والكولخوزات والسوفخوزات، وجرت لنا مناقشات مع القائمين على هذه المؤسسات. كما نظمت لنا زيارات للمتاحف المختلفة في العاصمة موسكو، وزيارات للمعالم الثورية في لينينغراد إبان ثورة أكتوبر، كالطراد أورورا وقصر الشتاء، إلى جانب زيارة المتحف التاريخي الكبير الأرميتاج. ونظمت لنا زيارات إلى أذربيجان للاطلاع على صناعة النفط ومنابعه، وزيارة إلى يالطا للإطلاع على المعالم التاريخية حيث عقد مؤتمر يالطا التاريخي، والمقاعد التي جلس عليها ستالين وتشرشل وروزفلت وترتيبها، وزيارة إلى مدينة سيفاستوبول المرفأ العسكري الهام.

وقد دعينا مرات لحضور لقاءات مع قادة الأحزاب الشيوعية المختلفة، التي تزور موسكو، وتقدم أحاديث عن الأوضاع في بلادها لطلاب المدرسة الحزبية.

المدرسون عموماً، يقدمون تجارب الحركة الشيوعية العالمية، ولا يتدخلون في معالجة الوضع الملموس لأي حزب. ولكنهم عندما يطرحون القضايا المختلفة، يتعرضون، بشكل غير مباشر لهذا الجانب أو ذاك من حياة الحزب. وأحياناً يبرز ذلك بوضوح عند بحث موضوع البناء الحزبي. وعند بحث سياسة التحالفات، وصياغة الخط العام للحزب.

أحب أن أستذكر أسماء الأساتذة والمدرسين. فقد كان مدير المدرسة مترونوف أكاديمياً مختصاً بالاقتصاد السياسي، وكانت علاقتنا به جيدة. وكان نائبه بوزاكوف يحمل نفس الاختصاص. وكانت مدرِّسة تاريخ الاتحاد السوفييتي نينا بتروفنا امرأة في ريعان شبابها، جميلة، معتدة بنفسها. تزوجت فيما بعد نائب المدير بوزاكوف. وقدم فيليبوف الحركة العمالية العالمية وحركة التحرر الوطني. ولم أعد أذكر آسفاً اسم أستاذ الفلسفة وهو دكتور في الفلسفة قدير ومطلع جداً.

ولابد لي من الإشارة إلى نائب المدير للشؤون المالية والإدارية يوريومين الذي أحاطنا بعطفه ورعايته طوال مدة دراستنا.

كنا نحن الأربعة العرب الوحيدين في المدرسة، إضافة إلى مجموعات عديدة من مختلف البلدان: اليونان، فنلندا، البرتغال، إسبانيا، إيطاليا، ومجموعات سوفييتية من مختلف الجمهوريات، وأخرى من مختلف البلدان الاشتراكية.

في العام الثاني جاء عدد من الرفاق السوريين واللبنانيين، نقولا شاوي، إبراهيم بكري وزوجته أميمة ظاظا، ظهير عبد الصمد، موريس صليبي وشقيقتي الدكتورة أسماء الفيصل. بعد ذلك بدأت تصل مجموعات عربية، من العراق خصوصاً. وقد ضمت الرفيق صالح العبلي الذي أعدم لاحقاً. وبعد عدة سنوات توقف قبول الرفاق الأجانب في هذه المدرسة، وافتتحت مدرسة أخرى مدة الدراسة فيها سنة وسنتان وأرسلت إلى هذه المدرسة أعداد كبيرة من الرفاق السوريين.

من الأشياء الكثيرة التي كانت تبهجني وتعزز ثقتي بالمستقبل، حضور الاحتفالات في الساحة الحمراء بذكرى ثورة أكتوبر ويوم أول أيار.

ففي ذكرى أكتوبر كانت تجري استعراضات عسكرية. وكانت بجبروتها ودقتها وإيقاعها، تدفعنا للتصفيق الشديد والمستمر لكل قطعة عسكرية تدق الأرض بأقدامها وتنتزع الإعجاب. وفي تلك السنوات بدأ ظهور الصواريخ العملاقة، وما إن تظهر على الساحة حتى تضج بكلمة هورا التي تحدث مزيجاً من الحماسة والخشوع، يجتاح الجميع.

أما في ذكرى الأول من أيار فكانت التظاهرة غالباً شعبية يجري فيها استعراض الجماهير الموسكوفية، بأعلامها وراياتها الخفاقة.

وضعتُ والرفيق دانيال في غرفة واحدة في أحد مهاجع المدرسة، وبدأنا حياتنا معاً، ولكن أمراً بسيطاً نغَّص حياتي. فالرفيق دانيال مصاب بداء الشخير ذي المستوى العالي والإيقاعات العالية والمتوسطة والخفيفة. ومع انتهاء الدراسة ليلاً في الثانية عشرة أو الواحدة نتوجه إلى السرير لنأخذ قسطنا من الراحة والنوم. فأجد نفسي أرقاً لا أستطيع إلى النوم سبيلاً، بسبب موجات الشخير، إلى أن عقدنا اتفاقاً، أنام بموجبه قبله بساعتين، أكون عندها قد غرقت في نوم عميق، وينام هو أيضاً.

في كانون الثاني ١٩٥٧ وصلت أسرنا إلى موسكو دون سابق إخبار. وكان ذلك يوم الأحد، يوم العطلة الأسبوعية التي نستفيد منها للقيام بالحمام المشترك. وأذكر أن الحرارة في الخارج كانت ٢٠ درجة تحت الصفر، وحرارة الماء تقترب من ٢٥ إلى ٣٠ درجة. في تلك اللحظة، جاء من أخبرني بأن كوثر والأطفال قد وصلوا إلى موسكو، ويجب أن تذهب إلى فندق موسكوفا للقائهم. وارتديت ثيابي وخرجت مسرعاً وتوجهت في هذا الجو البارد والصقيعي، إلى الفندق، حيث كانت كوثر وخلدون وسوسن ومها بانتظاري إلى جانب حقائب كبيرة الحجم، كان عليَّ حملها على دفعات إلى الطابق الثالث، وصعدت ونزلت عدة مرات. وقد أدى هذا الجهد والعرق الذي تصبب مني والخروج من درجة حرارة مرتفعة إلى درجة تحت الصفر، إلى إصابتي باحتشاء قلبي، نقلت على أثره إلى المستشفى وبقيت ٣٥ يوماً مستلقياً على السرير، ثم أمضيت شهرين للنقاهة، عدت بعدها لمتابعة الدراسة مع رفاقي. وهكذا تحول فرح اللقاء إلى غم زال سريعاً لحسن الحظ. وبدلاً من أن ترتاح كوثر من عناء السفر، وجدت نفسها تقوم بزيارات يومية إلى المستشفى، وبعد ذلك إلى المنتجع. يضاف إلى ذلك رعاية الصغار الذين كان أكبرهم في الثالثة وأصغرهم في شهرها العاشر. إلى أن استقر بنا المقام في شقة تابعة للمدرسة. بدأنا بعد ذلك بترتيب شؤون الأطفال، فأرسلنا خلدون وسوسن إلى روضة أسبوعية، وبقيت مها معنا... ويوماً بعد يوم بدأ خلدون وسوسن يتكلمان اللغة الروسية وينسيان العربية، إلى أن أصبح ذلك أمراً نهائياً. وتأثرت من أعماقي بسبب ذلك، رغم أنني أجده

أمراً طبيعياً، فالأطفال الذين يلعبون ويأكلون مع بعضهم يتعلمون لغة بعضهم سريعاً ثم ينسونها فيما بعد سريعاً أيضاً.

وأعطي الرفيق حسن قريطم وزوجته سلمى البني وبناته رايا ومايا شقة مجاورة ووضع دانيال نعمة وصوايا صوايا في شقة أخرى.

طرحنا موضوع الزوجات مع إدارة المدرسة ليشاركننا الدراسة. وبعد أخذ ورد، تم الاتفاق على أن يشاركن في الدراسة كمستمعات، أي أنه لا يتوجب عليهن إجراء الفحوص أو غيرها، ولا يقبضن راتباً. قبلنا بذلك، لأن الترشيح للدراسة يجب أن يأتي من قيادة الحزب في الوطن.

ربطت كوثر بسلمى البني صداقة وثيقة. وفي يوم كانتا تتنزهان في الاستراحات بين الدروس ويتحدثن في مواضيع مختلفة حين لا حظتا أن رجلاً ضخماً فاحم الشعر يتابعهن ويحاول الاستماع لحديثهن. واستمر ذلك عدة أيام. وفجأة اقترب منهن وتحدث إليهن بالعربية: أنتن من أين؟ وغير ذلك. وبعد أخذ ورد، أبلغهن أنه من العراق وقدم نفسه إليهن بأنه الملا مصطفى البرزاني. ونقلن إلينا ذلك، وكانت فرصتنا للتعرف على هذا القائد التاريخي، ونشأت بيننا وبينه صداقة وعلاقة حميمة، ودعانا إلى بيته، لتناول الطعام، وبدأ يقص علينا كيف قاد الثورة ضد النظام الملكي العراقي دفاعاً عن حقوق الأكراد، وكيف شارك في جمهورية مهاباد، وكيف وصل إلى الاتحاد السوفييتي، والمدة الطويلة التي أقامها في طشقند، وكيف غامر وأتى إلى موسكو وتوجه إلى الكرملين يطلب لقاء خروشوف، وغير ذلك من الأمور.

كان البرزاني قائداً شعبياً، وكان أفراد عشيرته والمحيطون به يعبدونه، وقد شاهدناهم بأم العين، عندما يدخلون إليه ينحنون أرضاً ثم يقفون ويعرضون ما عندهم.

كان البرزاني يدرس في مدرستنا نفسها، وكان في معيته ابن أخيه الشيخ أحمد. وكان يعتبر مجموعة قائمة بذاتها، وله مدرّسوه. وقد حدثنا عنه أستاذ الفلسفة المكلف به. وأخبرنا أنه استطاع خلال ثلاثة أشهر أن يتم معه فصلاً واحداً من عدة صفحات. فهو يهتم بالحديث عن كردستان وعن القضية الكردية، ولا تهمه الفلسفة ولا غيرها.

كنا معروفين في المدرسة بأننا طلاب من ألبانيا، وأخذنا البطاقات المدرسية بهذه الصفة. ومن طرائف ماحدث معنا بهذا الشأن أننا كنا مرة في رحلة إلى لينينغراد، وأثناء وجودنا في القطار اجتمعنا بمجموعة من الضباط الذين يلبسون لباس الجيش الأحمر، ويتكلمون بالروسية، وبدأنا نتحدث معهم حول مختلف القضايا العسكرية والجيش السوفييتي وبطولاته. ونسأل عن تكوين الضباط وما إلى ذلك. وبعد فترة من الحديث سألونا من أين أنتم؟ أجبنا بكل راحة بأننا من ألبانيا. وفجأة احمرت وجوه الضباط وبدؤوا يتحدثون فيما بينهم بلغة لم نفهم منها شيئاً، وأخذوا يتوجهون إلينا بنفس اللغة، وكشفوا سرنا. فقد تبين أنهم ضباط ألبان يدرسون في المدارس العسكرية السوفييتية،

ومع ذلك لم نعلن عن هويتنا الحقيقية عملاً بالتعاليم الصارمة، علماً أن المجموعات الطلابية في المدرسة، كانت قد عرفت منذ زمن أننا عرب سوريون ولبنانيون. وكانت أحاديثنا وحواراتنا مع هذه المجموعات تتم على أساس ذلك.

في أيار ١٩٥٩ وصلنا قرار بالعودة إلى الوطن، وكانت الوحدة السورية ـ المصرية قد أعلنت، ونشأت دولة جديدة، هي الجمهورية العربية المتحدة.

ودرسنا الأمر، ورتبنا أمورنا، وقبل العودة ذهبنا إلى مدينة سوتشي لقضاء أسبوعين من الراحة. وحضرنا احتفالات الأول من أيار في هذه المدينة، عدنا بعدئذ إلى موسكو لترتيب أمور العودة إلى الوطن. وكانت جوازات السفر قد مضى عليها ثلاث سنوات دون تمديد، ولايصح السفر بها. وتناقشنا وبحثنا الأمر مع الرفاق السوفييت، ووصلنا بعد ذلك إلى حل. فتقديم جوازات السفر إلى سفارة الجمهورية العربية في موسكو، قد يحمل بعض النتائج السلبية، ومنها مصادرة الجوازات. وعرفنا أن سفير الجمهورية العربية المتحدة في براغ هو الدكتور صلاح الدين الطرزي، الدبلوماسي السوري القدير. فقررنا التوجه إليه، وحملت كوثر التي كان يعرفها سابقاً الجوازات وذهبت إلى براغ وزارته في مقره، وكانت بيني وبينه صداقة واحترام متبادل، فوافق على تمديد الجوازين دون أي تردد، وأصبحنا جاهزين للعودة.

وصلنا إلى بيروت، دون أي عائق، ونقلنا الرفاق اللبنانيون إلى شقة أقمنا فيها ردحاً من الزمن. ولم تعترضنا مشاكل تذكر، سوى مشكلة الأولاد الذين تعلموا اللغة الروسية ونسوا العربية تماماً. وكانت أية عبارة يتلفظون بها يمكن أن تلفت نظر الجوار، لذلك كانت كوثر حازمة جداً معهم واستطاعت أن تنقذنا من كل إحراج تعرضنا له بهذا الشأن في أكثر من مناسبة.

❖❖❖

فرضت ظروف النضال الحزبي عودتنا قبل إنهاء السنوات الثلاث الدراسية، وهكذا نكون قد عشنا في كنف الشعب الروسي وفي ظل السلطة السوفييتية سنتين ونصفاً أو أكثر قليلاً.

وخلال هذه الفترة تعرفنا بنسب محدودة على الأوضاع العامة التي كان يعيشها الشعب السوفييتي آنذاك. وسمعنا بعض ما يقال هنا وهناك، وتلمسنا بعض الأمور من المشاهدات العامة في المخازن والأسواق، وفي المسارح والسينما والتنقل في المترو وفي المكتبات والمستشفيات وعبر الصحافة.

ولاشك في أن النظام كان في الخمسينيات نظاماً مستقراً قوياً، خرج ظافراً في الحرب الوطنية العظمى، وسجل أمجاداً في البطولات النضالية، مجموعات وأفراداً. وبدأ الاتحاد السوفييتي، يخرج من آثار الطوق الحديدي الذي فرضته عليه الرأسمالية العالمية، ليصبح تدريجياً أحد قطبين أساسيين يقرران مصير العالم، وليقود منظومة اشتراكية

تشمل عدداً من الدول الأوربية وجزءاً هاماً من ألمانيا . وكانت تتفاعل في داخل النظام تباشير الخروج من الحقبة الستالينية لطرح أولى مظاهر البيروسترويكا ، ولتصبح الديمقراطية والمكاشفة أحد المظاهر الأساسية في الحياة السوفييتية، كما كانت النجاحات في غزو الفضاء والاكتشافات العلمية محط فخر واعتزاز الشعب السوفييتي.

إن النجاحات الهائلة في إنهاض شعوب بكاملها وإدخالها في حيز التطور والتقدم ووضع أبجديات لها ونشر الثقافة والمعرفة بين أبنائها ، وبناء الاشتراكية ونشر التعاونيات في الزراعة، وبناء السدود الجبارة، ومحطات توليد الكهرباء ومد السكك الحديدية، كانت كلها ظاهرة للعيان، وتتحدث عن نفسها بنفسها . وبرز خلال هذه الفترة التماسك القوي بين عائلة الشعوب السوفييتية، وبدأ إشراك هذه الشعوب في الحياة السياسية العامة، وفي القيادة الحزبية، يظهر أكثر من السابق، وقدمت وجوه من أكثر من جمهورية سوفييتية.

ومنذ الخمسينيات بدأت العلاقة بين سورية والاتحاد السوفييتي تدخل مرحلة جديدة، قوامها التعاون الواسع في مختلف المجالات، السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية. وقد اتفق على بناء ١٧ مشروعاً حيوياً بينها مشروع سد الفرات العظيم.

وكنا نحن الشيوعيين السوريين مكونين على نظرة التعاطف مع كل ما هو سوفييتي، من منطلق مبدئي ووطني، جوهره التضامن الأممي مع حصن الاشتراكية، تقديراً لمواقف التضامن السوفييتية مع نضال الشعوب العربية، وخاصة الشعب السوري، الذي يقف في وجه الأحلاف الاستعمارية والأطماع التوسعية التركية، ومع الشعب المصري الذي خاض معارك تأميم القناة وصد العدوان الثلاثي البريطاني، الفرنسي، الإسرائيلي على بور سعيد .

لذلك كله، لم نتوقف كثيراً أمام بعض المظاهر السلبية، التي كانت تجابهنا في حياتنا هناك وتؤثر على مشاعرنا .

لقد كانت مخازن بيع الخبز والحليب والبيض مليئة دائماً، وكانت المخازن الأخرى، وخاصة، المخازن العامة، التي تشمل عدة طبقات ومساحات واسعة، مليئة بالبضائع المختلفة، تلبي حاجات المجتمع والأسر، ولكن واقعاً معيناً كان يحكم البضائع المعروضة، إنها كانت من نمط واحد وموديل واحد ، لا يوجد فيها أي تنوع وتفتقد الجاذبية. فالأحذية كثيرة، ولكنها كلها من نمط واحد، سواء أحذية الذكور أو أحذية الإناث، والملابس كذلك. وعندما تأتي بضائع جديدة، يسري خبرها كالبرق بين العائلات، وتتوافد جماهير واسعة لاقتناء هذه البضائع، وكانت مخازن الخضرة والفواكه تقدم بضاعة غير مشجعة، ولهذا كانت السوق الكولخوزية موضع نشاط دائم.

وخلال إقامتنا في المدرسة، لم نلحظ انقطاع أية مادة غذائية، ولكن يتباطأ أحياناً توزيع الزبدة وتوزيع اللحم، وينقل إلينا أن هاتين المادتين تغيبان أحياناً أسبوعاً أو أكثر،

وعندما كنا نحتاج أية مادة، نجدها في مخزن المدرسة، أو في صالة مخصصة للشيوعيين السوفييت والأجانب.

مرة شاهدت زوجتي في أحد مخازن الخضرة قرطاً من الموز، ووقفت في الصف لتشتري وتتموّن لتقدم للأطفال فاكهة يعرفونها ويطلبونها، وكانت النساء في الصف، تشتري الواحدة منهن موزة واحدة، أو تتفق اثنتان على شراء واحدة وتتساءلن عن كيفية أكلها .. وعندما جاء دور زوجتي طلبت كيلوين اثنين، فدهش البائع وشهقت النساء الواقفات. وعندما خرجت خرج معها بعضهن وسألن كيف تؤكل هذه الفاكهة، وقدمت لهن مثالاً حياً وقدمت موزة هدية لكل متسائلة.

ومثل هذه المظاهر، كانت هناك مخازن شراء وبيع الألبسة المستعملة، وكان الإقبال عليها واسعاً، سواء لجهة البيع أو لجهة الشراء.

وكانت أوضاع السكن صعبة ومعقدة. وكثيرة جداً هي العائلات التي كانت تعيش بشكل مشترك في شقة واحدة. لكل عائلة غرفة واحدة، والمطبخ مشترك والحمام يتم بالتناوب، وطرق الباب متفق عليه. وخلال حياتي تعرفت على أكثر من عائلة، وعندما كنت أزور إحداها، كنت أبلغ مسبقاً بأن أطرق الباب مرة واحدة أو مرتين أو ثلاث مرات، لأن لكل عائلة مؤشر خاص محدد بعدد الطرقات. وفي تلك المرحلة، بدأت حملة واسعة النطاق لبناء المساكن وشُيِّدت عشرات ألوف الشقق، ولم تحل أزمة السكن تماماً، بحيث يصبح لكل عائلة شقتها الخاصة.

وقد انعكست أزمة السكن على بناء رياض الأطفال والمستوصفات والمستشفيات. وكانت الصحة العامة مجانية، ولكل حي أو منطقة مستوصفها الخاص. وبسبب أزمة البناء، لم تستطع المستوصفات تلبية حاجة الجماهير الواسعة.

لقد تكونت لدينا تجاه هذه المظاهر السلبية مشاعر أسف وألم. وكنا على قناعة بأن هذه المظاهر ليست من صلب النظام الاشتراكي، فالاشتراكية هي نظام الوفرة، وليست من صلب النظام السوفييتي نفسه، وكنا نجد التفسير لهذه الظاهرات، وتقدم لنا تفسيرات مختلفة. وقد رأينا أن هذه التضحية من شعوب الاتحاد السوفييتي هي جزء مما يقدمه الاتحاد السوفييتي من مساعدات لمختلف شعوب الأرض، وخاصة لبلدان المنظومة الاشتراكية. فقد كان يقال لنا، بأن نقص الزبدة مثلاً سببه تصديرها إلى مختلف بلدان المنظومة الاشتراكية وكذلك اللحم وبعض الأمور الأخرى، كما هي نتيجة للتضحيات الهائلة التي قدمها في حربه الوطنية العظمى. وكنا على ثقة تامة، بأن الأطفال يجدون كل ما يريدونه، وإنه مامن طفل لا يجد مقعده في المدرسة، وينال يومياً حصته من الحليب والبيض.

وتجاه هذه المظاهر السلبية، كانت هناك مظاهر باهرة، وخاصة في ميدان الثقافة. ومامن مرة تنقلت في مترو الأنفاق، إلا ودهشت من عدد الذين يقرؤون، نساء ورجالاً، فالقراءة كانت جزءاً من حياة كل سوفييتي، أينما تسنى له ذلك. وكان الاتحاد السوفييتي أول دولة في العالم في نشر الكتب بمختلف أنواعها، وما من مرة زرت فيها مسرح البولشوي ووجدت مقعداً فارغاً، والحماسة الشعبية لزيارة هذا الصرح الفني أعلى من أي تقدير. وعندما تدخل تجد أفواجاً تسأل ماإذا كانت لديك بطاقة زائدة. والأمر قريب منه بالنسبة لصالات السينما. وينظر الشعب السوفييتي بتقدير كبير واحترام شديد إلى فناني البولشوي كالراقصتين أوليانوفا وبليسينسكايا. وتجد ساحات هامة في موسكو تحمل أسماء كبار الشعراء والأدباء، كساحة بوشكين وساحة ماياكوفسكي وشارع غوركي.. وغيرها. يحمل الشعب الروسي في ثقافته وتربيته ونظرته إلى الشعوب الأخرى، كل عوامل الاحترام والمحبة. وخلال كل إقامتي وتنقلي في مختلف وسائط النقل، وزياراتي للحدائق العامة، وسيري في الشوارع لم أجابه ولا مرة واحدة، بنظرة عدائية من أحد المواطنين، ولم أصطدم بأية عرقلة في أية مناسبة، وإنني أحفظ جميل جميع من تعاملت معهم، في مختلف أوجه الحياة.

إن وراء هذه المظاهر السلبية، موقفاً فكرياً، بالنسبة لفهم تطور الاشتراكية. وقد لحظ لينين ذلك، وعمل بعد توطد أسس الثورة على بدء سياسة اقتصادية جديدة هي «النيب» ومعناها الاقتصاد الجديد. وجوهر هذه السياسة، هي احترام القوانين الموضوعية في تطوير الإنتاج وتحسينه، والاستفادة من خبرة العالم الرأسمالي، ولكن هذه السياسة لم تعمر طويلاً، فقد مات لينين باكراً، وأتى بعده ستالين الذي سلك في الميدان الاقتصادي سياسة أخرى، تتركز على بناء الصناعة الثقيلة ونشر التعاونية في الزراعة وإخضاع المؤشرات الاقتصادية المختلفة لذلك، الأمر الذي سبب ضعف القطاعات الاقتصادية، وخاصة إنتاج الحاجات الضرورية للشعب، كالبراد والغسالة والمكواة والسيارة وغيرها وغيرها. وصحيح ماكان يقوله ستالين «الإنسان هو أثمن رأسمال»، ولكنه في الواقع العملي لم يتجه إلى تأمين حاجات الإنسان الضرورية ومتابعة تطوره الحياتي، إضافة إلى ناحية أخرى، كان ستالين مقتنعاً بها، وهي موضوعة الاهتراء المادي والاهتراء المعنوي. وكان نصيراً للاهتراء المادي، ولم يكن يرغب في تطوير أية آلة ما دامت قادرة على العمل، في حين يفرض التطور الطبيعي والاكتشافات العلمية إمكانية آلة أفضل وأحدث وأكثر إنتاجاً. لذلك بقيت السيارة موسكوفيتش على حالها عقوداً وبقي التركتور منسك على حاله نفس الزمن.

لقد أدت هذه السياسة إلى بناء صناعة ثقيلة، خدمت الاتحاد السوفييتي كثيراً.. ولكنها أهملت الإنسان وحاجاته الضرورية، وفسحت المجال لكي يصبح الغرب الرأسمالي متقدماً على الاتحاد السوفييتي، في هذه المجالات.

تابعت خلال وجودي العلاقة بين مختلف قوميات الاتحاد السوفييتي. وأستطيع القول، بكل ثقة، بأن هذه العلاقة كانت، في تلك السنوات على أفضل حال. فالتضحيات الجسام التي قدمت خلال الحرب الوطنية العظمى، شملت مختلف القوميات، وشعوب الشرق هي التي احتضنت الصناعة السوفييتية عند بدء العدوان الهتلري وزحفه السريع في الأقسام الأوربية. وكنت ترى في شوارع موسكو أبناء القوميات الآسيوية، بلباسهم الوطني وزخرفته الجميلة.

الشعب الروسي، رغم رصانته وهدوئه، شعب يحب المرح، وهو يجد أشهراً طويلة، ويقضي ساعات العمل باحترام كامل وإنتاجية عالية، وينتظر فرصة الأعياد، عيد ثورة أكتوبر وعيد أول أيار وعيد الجيش ويوم المرأة، لينصرف بكليته إلى الشراب والرقص والمرح، وقد حضرت أكثر من حفلة بمناسبة هذه الأعياد، فكانت الطاولات عامرة، والشراب بلا حدود، ويظل الروسي يشرب ويشرب، حتى يفقد القدرة على رفع الكأس. وتنطلق في هذه الحفلات أغاني الحب والأغاني الثورية.

والطبيعة الروسية فائقة الجمال، خاصة في أشهر الشتاء الباردة، أشهر الصقيع القوي، إذ تكتسي الطبيعة حلة بيضاء، ويتشكل منظر لا ينسى بجماله الأخاذ، فالغابات بلباسها الأبيض الناصع تظهر كعروس جميلة، وتجذبك للنظر إليها والتمتع بها. والطبيعة جميلة جداً في الخريف، عندما تتحول أوراق الأشجار إلى ألوان مختلفة، الأصفر والأحمر والأخضر، وتتمازج مع بعضها لتشكل باقة ألوان رائعة.

زرت عواصم عديدة ومدناً كثيرة، وأحتفظ بذاكرتي بصور جميلة من مدن ثلاث: موسكو وبراغ وباندونغ... وصور الطبيعة في موسكو تمتزج مع الحياة والزمن والتاريخ وتبقى مطبوعة في الذهن إلى النهاية.

الفصل الثاني والعشرون

الوحدة السورية - المصرية

مقدمات الوحدة

سبق قيام الوحدة السورية - المصرية، جملة عوامل موضوعية وذاتية، قديمة وحديثة، مهدت لها وسرّعت في إعلانها. تراكمت فوق بعضها، وعجلت في إعلان تطور نوعي في حياة البلدين سورية ومصر، وحياة الشعبين، العربي السوري والمصري، هي الوحدة الاندماجية الكاملة بين البلدين.

أولاً: أولى هذه العوامل هو تأصل الروح القومية العربية وروح العداء للاحتلال والاستعمار لدى جماهير الشعب السوري. وقد برزت هذه الروح تاريخياً في المبادرات المتعددة، لتشكيل الجمعيات العربية في ظل الاحتلال العثماني، وشملت برامج هذه الجمعيات فكرة قيام دولة عربية موحدة. بحدود معينة. ولعب المناضلون السوريون دوراً هاماً في إنشاء هذه الجمعيات وفي قيادة نشاطها وحكم على عدد منهم بالإعدام من قبل جمال باشا وشنقوا في دمشق وبيروت.

هذه الروح استمرت قوية في مجابهة الاحتلال الاستعماري الفرنسي وفي مقاومته، سواء في ميسلون أو في الثورات المختلفة أو في الرد ومقاومة العدوان على البرلمان السوري واستشهاد حاميته، إلى أن تحقق الجلاء في ١٧ نيسان ١٩٤٦.

ومنذ الجلاء حتى إعلان الوحدة، خاض الشعب السوري بقواه المختلفة معارك نضالية حادة، ضد مختلف المؤامرات والانقلابات العسكرية، وضد الأحلاف العدوانية المختلفة، التي تقودها بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

(وكانت سورية أول دولة عربية ترفض استيطان اللاجئين منذ عام ١٩٤٨، ورفضت مشروع (كلوب) و(جونسون) لتقاسم مياه الأردن بين العرب وإسرائيل، وقاومت المشروع

الإسرائيلي لتحويل مياه الأردن، ورفضت مشروع سورية الكبرى ومشروع الهلال الخصيب، ورفضت مشروع العون الاقتصادي الأمريكي والنقطة الرابعة)*

ثانياً: تكاتف الشعبين السوري والمصري وتضامنهما في المعركة ضد التآمر الاستعماري.

خاضت سورية ومصر في سنوات ٥٦- ٥٨ معارك ضارية ضد التآمر الاستعماري.

فنتيجة للسياسة الوطنية التي سارت عليها الحكومة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر سحب مشروع تمويل السد العالي الذي كان يجري البحث فيه مع الولايات المتحدة الأمريكية. وبعد ستة أيام من سحب التمويل الغربي في ١٩٥٦/٧/٢٦ أعلن جمال عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس. وأعلن عبد الناصر في خطابه (إننا نعرف من هم أعداؤنا ومن هم أصدقاؤنا، وأنا أتجه اليوم إلى إخوان لكم في سورية العزيزة، سورية الشقيقة، وقد قرروا أن يتحدوا معكم لندعم معاً مبادئ القوة والكرامة ولنرسي الوحدة العربية...).

وتضامناً مع مصر في معركتها الباسلة، تشكلت في سورية هيئة دعيت (الهيئة العربية السورية لنصرة مصر) من القادة السياسيين: خالد العظم، معروف الدواليبي، علي بوظو، محمد المبارك، خالد بكداش، ظافر القاسمي، أكرم الحوراني)، وسمي خالد العظم رئيساً ومعروف الدواليبي أميناً للسر.

وفي ١٤/٨/ ٥٦ احتشد في الملعب البلدي في دمشق أكثر من مئة ألف مواطن تضامناً مع مصر. واتخذ الاجتماع عدة قرارات أولها قرار يقول: (البلاد العربية وحدة وكل تعدٍ على جزء منها هو تعد عليها جميعاً، ويستوجب هذا التعدي، أن تقوم البلاد العربية قيام الرجل الواحد بالدفاع عن حياتها بجميع الوسائل التي تملكها).

وفي ١٦/ ٩/ ٥٦ نظم إضراب شامل في سورية، ووقفت جماهير الشعب خمس دقائق الساعة الثانية عشرة ظهراً، وأوقف ضخ البترول إلى مرفأي طرابلس وبانياس مدة ١٣ ساعة.

وعقد في يومي ١٨- ١٩ أيلول ١٩٥٦، في دمشق، المؤتمر الشعبي العربي، حضرته وفود من سورية ولبنان والأردن والعراق ومصر والجزائر وتونس والكويت، وتمثل الحزب

---

* ـــ أحمد عبد الكريم، حصاد ص ٣٨٠.

الشيوعي السوري بالرفيق يوسف الفيصل والدكتور مصطفى أمين، إلى جانب أكرم الحوراني وميشيل عفلق ورشدي الكيخا وناظم القدسي وخالد العظم وإحسان الجابري ومحمد المبارك وعصام العطار وغيرهم.

وقد أصدر المؤتمر بياناً إلى الشعوب والحكومات العربية يطالب فيها بإعداد نفسها للمعركة والتعبئة العامة عسكرياً واقتصادياً وتموينياً، وتدريب الشعب على وسائل المقاومة الشعبية المسلحة والاستعداد لإحباط الحصار الاقتصادي.

في ٢٩/ ١٠/ ١٩٥٦ بدأت القوات الإسرائيلية عدوانها على مصر. وفي مساء الحادي والثلاثين شرعت الطائرات البريطانية بقصف المناطق الاستراتيجية تمهيداً لعملية الإنزال على ضفة القنال وبدأت حملة واسعة ضد العدوان الثلاثي، البريطاني الفرنسي الإسرائيلي، واتخذت طابعاً شعبياً واسعاً، وقامت سورية بنسف أنابيب البترول لقطع النفط عن الدول المتآمرة، وخاضت القوات البحرية السورية المعركة ضد الأساطيل البحرية الفرنسية والبريطانية وأغرقت مدمرة افرنسية، وقتل الضابط البحري السوري جول جمال.

وبنتيجة هذه المعارك جميعاً تحول عبد الناصر إلى قائد شعبي على النطاق العربي، وأخذت شعبيته تتسع في سورية لتشمل قوى مختلفة وجماهير واسعة.

في ١٩/١١/ ١٩٥٦ عند مناقشة بيان رئيس مجلس الوزراء حول سياسة سورية العربية والخارجية وموقف الحكومة السورية من العدوان الغادر على مصر، ألقى خالد بكداش، خطاباً مطولاً حول مهمات سورية في معركة مصر والعروبة، وجاء في الخطاب الفقرات التالية:

(أيها الزملاء المحترمون!

إن البيان الذي أدلى به دولة رئيس مجلس الوزراء السيد صبري العسلي، هنا، أول أمس هو، من حيث خطوطه العامة الرئيسية، حدث هام في تطور السياسة السورية في الميدان العربي وفي الميدان الدولي.

(لقد قال البيان إن هذه السياسة قائمة، في الميدان العربي، على السير مع مصر إلى النهاية في المعركة الوطنية التحررية ضد الاستعمار، على أساس وحدة القومية العربية ووحدة معركتها ووحدة مصيرها...

(ونحن إذ نحيي الآن هذه السياسة التي أعلنها الرئيس العسلي والتي يقوم بدور هام فيها معالي وزير الخارجية الزميل صلاح البيطار ويشرف عليها فخامة رئيس الجمهورية

السيد شكري القوتلي، ينبغي لنا لوجه الحق والعروبة والتأريخ، أن ننحني اليوم إجلالاً لذكرى شهداء بور سعيد، وجميع شهداء الشعب المصري الباسل، الذي كان لصموده وتضحياته وثباته، بقيادة بطله بطل العروبة، الرئيس جمال عبد الناصر، الفضل الأول الأكبر الخالد في تثبيت هذه السياسة العربية التحررية السائرة من ظفر إلى ظفر حتى النصر النهائي المحتوم...

(إننا معشر العرب في مصر وسورية وسائر ديارنا، نخوض معركة حامية كبرى مع الاستعمار، وهي معركة عادلة مشروعة بالنسبة إلينا، والاستعمار هو الذي يفرض علينا هذه المعركة.

إننا كما قال الرئيس عبد الناصر، نريد السلام لأنفسنا وللعالم، ولكننا نرفض الاستسلام للعبودية والذل كما يريد لنا الاستعمار.

هذا هو لب هذه المعركة وجوهرها، فهدفنا في هذه المعركة هدف واضح بسيط يقرنا عليه الرأي العام: وهو استقلالنا الوطني وسيادتنا القومية...).

ونتيجة لسياسة التقارب والتضامن، قام وفد برلماني سوري ضم ممثلين عن جميع الأحزاب بزيارة لمصر، للتعبير عن التأييد العام والشامل الذي يكنه الشعب السوري للشعب المصري. وقد لعب هذا الوفد دوراً مزدوجاً، فهو من جهة عزز لدى السوريين أهمية التقارب والتعاون مع مصر، وعزز لدى المصريين أهمية زيادة الاهتمام بسورية.

ثالثاً: الهجمة الاستعمارية ضد سورية، وضد سياسة التعاون مع الاتحاد السوفييتي.

في هذه السنوات التي نتحدث عنها شن المستعمرون حملة شعواء ضد سورية، وأطلقوا العنان لاتهاماتهم بأنها أخذت تتحول إلى بلد يعمل في إطار النفوذ السوفييتي والأهداف السوفييتية. وقد تطورت العلاقات بين سورية والاتحاد السوفييتي في مختلف المجالات العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية وفي ٢٨/ ١٠/ ١٩٥٧ أقرت اتفاقية التعاون الاقتصادي والفنّي بين سورية والاتحاد السوفييتي وأقر بناء ١٧ مشروعاً هاماً، في مقدمتها بناء سد الفرات العظيم.

ذكر أحمد عبد الكريم في كتابه حصاد «كان الغرب في تشبثه لفرض نفوذه على المنطقة وسعيه لتطويق الكتلة الاشتراكية والحد من توسع النفوذ السوفييتي، يرى في حرص الشعب السوري على استقلاله وعلى نظامه الجمهوري الديمقراطي، انحيازاً للكتلة

الاشتراكية». «ولم تجد كل الوسائل الشريفة التي سلكتها جميع الحكومات والأحزاب لإقناع الغرب وخاصة أمريكا، بأن الشعب السوري لا يكن العداء ولا يقبل إحلال نفوذ الاتحاد السوفييتي أو غيره محل نفوذ أوربا الغربية وأمريكا، وأن هدفه من سياسته الخارجية الوقوف على مسافة متساوية من الكتلتين المتصارعتين، والسعي لإقامة علاقات ودية ونافعة مع جميع دول العالم، وأن يعيش بسلام وينصرف لحل مشاكله الداخلية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تراكمت خلال قرون من الاحتلال الأجنبي والتخلف..»*.

في ١٩٥٧/١/١٥ أعلن مبدأ إيزنهاور للشرق الأوسط، وقد نص الإعلان على حق الرئيس في استخدام القوات المسلحة الأمريكية كلما رأى ذلك ضرورياً. وكان هدفه الأساسي عزل البلدان العربية عن الاتحاد السوفييتي.

وكان جون فوستر دالاس، وزير الخارجية الأمريكي، أحد أبطال الهجمة الشعواء ضد الشعب السوري. وقد ذكر في أحد تصريحاته: (هناك دليل في سورية على قيام نموذج تقليدي وخطير لتغلغل سوفييتي، سيؤدي إلى جر البلاد، كما حدث في تشيكوسلوفاكيا، إلى الوقوع فريسة للهيمنة الشيوعية الدولية وتحويلها إلى تابع سوفييتي، وهذا الوضع غير مقبول البتة للولايات المتحدة الأمريكية).

وفي آب ١٩٥٧ أبرق للملك سعود قائلاً: (إنني على ثقة تامة بأنكم ستستخدمون نفوذكم وإمكاناتكم للحؤول دون تمركز العقيدة الشيوعية الإلحادية في موقع من العالم الإسلامي، يهدد بقية الدول الإسلامية وفي المقدمة بلدكم المقدس..).

وأعلن الحلف الأطلسي أن حالة الدفاع عن النفس لا تتوفر شروطها للدول المجاورة لسورية، بسبب تغلغل النشاط السوري في كل مكان من لبنان والأردن، وأن عدوان سورية غير المباشر على هذين البلدين حثيث بشكل تام.

إثر هذه الهجمة الشرسة والتحريض الواضح، قررت تركيا حشد جيوشها على الحدود السورية، وأصبحت سورية مهددة بعدوان تركي. وقد بادرت القاهرة إلى الوقوف بحزم إلى جانب دمشق، ووصلت وحدات من القوات المسلحة المصرية إلى اللاذقية في تشرين الأول ١٩٥٧ لمجابهة الأخطار والأطماع الخارجية التي تشهدها سورية.

---

* ــ أحمد عبد الكريم ــ حصاد صفحة ٣٨٠.

وقد تقدمت سورية بشكوى إلى الأمم المتحدة في ١٦/١٠/١٩٥٧، وأعلن الاتحاد السوفييتي عن حشد جيوشه في منطقة القفقاس، وجرت مناورات سوفييتية وبلغارية، وشن غروميكو، وزير الخارجية السوفييتي، حملة شعواء ضد تركيا وحذرها من القيام بأي عمل ضد سورية.

وقد أرسل بولغانين، رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي، رسالة إلى رئيس الحكومة التركية تحمل طابع الإنذار للممارسات التي تمارسها ضد سورية، وطابع التهديد فيما إذا أقدمت تركيا على أية خطوة.

ومما جاء في هذه الرسالة (إننا مقتنعون أيها السيد رئيس الوزراء بأنكم تدركون أن الاتحاد السوفييتي، لا يمكن أن ينظر إلى جميع هذه الأحداث نظرة اللامبالاة. والاتحاد السوفييتي إذ يأخذ بالحسبان قرب منطقة الشرقين الأدنى والأوسط من الحدود السوفييتية، وإذ يأخذ بالحسبان مصالح أمن دولته، لا يمكن بالتأكيد أن يغمض العين عن الأحداث التي قد تؤدي إلى نزاع مسلح في هذه المنطقة، ولا سيما أن انتهاك السلام ليس من شأنه البتة أن يبقى محصوراً في هذه المنطقة..).

رابعاً: الصراع الداخلي في سورية وحملة العداء للشيوعية.

تميزت هذه المرحلة بظهور خلافات عديدة في الأوساط القيادية السورية. فمن جهة برزت مواقف من بعض العسكريين ضد رئيس الجمهورية شكري القوتلي. ويروي بشير فنصه أن (أمر النزاع بين الأحزاب، من أصحاب اليمين واليسار، قد تفاقم. فعمد بعض أمَّار القطعات في الجيش إلى معاداة الحكم الدستوري القائم، وعبؤوا عدداً من العساكر في شاحنات ولقنوها بعض الشعارات والشتائم البذيئة ضد شخص رئيس الجمهورية شكري القوتلي بالذات، وأمروها أن تطوق شوارع العاصمة وتتلفظ بها بأصوات عالية)*

ونشأ تجمعان في إطار القيادة السياسية. التجمع الأول يضم خالد العظم وحزب البعث والحزب الشيوعي وبعض المستقلين الديمقراطيين، وضم التجمع الثاني: الحزب الوطني وحزب الشعب ونواب العشائر. وكانت تعقد اجتماعات التجمع الأول لبحث الأوضاع وتطورها، وشارك ممثلون عن قيادة الجيش في بعض هذه الاجتماعات، كما كان ممثلون عن قيادة الجيش يحضرون اجتماعات مجلس الوزراء.

---

* – بشير فنصة: النكبات والمغامرات. ص ٤٤٢

في ٢٤/ ١١/ ١٩٥٦ أعلن ناطق عسكري، أن السلطة وضعت يدها على مؤامرة أعدها حلف بغداد لتقويض الوضع في سورية أثناء العدوان الثلاثي على مصر.

واعتقل نتيجة هذه المؤامرة عدد هام من قيادات حزب الشعب ومن نواب العشائر ومن المستقلين، وشكلت محكمة عسكرية لمحاكمتهم برئاسة اللواء عفيف البزرة، وصدرت أحكام بالإعدام وأخرى بالسجن سنوات طويلة، ووجهت ضربة أليمة للنشاط التآمري.

يقول أكرم الحوراني (زارني بعد بدء المحاكمة جمال الأتاسي وعبد الكريم زهور، وقالا بأن القضاء على الطبقة الإقطاعية بهذه السرعة وبهذا الشكل سيكون لمصلحة الحزب الشيوعي[*].

قدمت حكومة العسلي بياناً طالبت فيه بإقامة اتحاد فيدرالي مع مصر. وتم ذلك بعد مناقشات مطولة وبعد حملة جماهيرية واسعة تطالب بالاتحاد... وجرى صراع حاد حول الموضوع وجرى اجتماع لممثلي الأحزاب والمستقلين حضره خالد بكداش ممثلاً عن الحزب الشيوعي، واتفق على مايلي:

(بعد سماع بيان الحكومة يقرر مجلس النواب أن تسرع الحكومة بالدخول فوراً بالمفاوضات مع الجمهورية المصرية لتحقيق الاتحاد بين القطرين، على أن يكون هذا الاتحاد مفتوحاً أمام الدول العربية المتحررة المستوفية للشروط التي نص عليها الميثاق القومي).

وقد رحب جمال عبد الناصر بالقرار السوري. وأرسل البرقية التالية:

(تلقيت بترحيب بالغ القرار الذي اتخذه مجلس النواب السوري مساء اليوم، بإقامة اتحاد بين جمهورية مصر وسورية. وأن تحقيق هذا الاتحاد أمنية يخفق لها قلب كل عربي مؤمن بالقومية العربية، وهو تحقيق للمادة الأولى من الدستور المصري التي تنص على أن مصر دولة عربية مستقلة، وأن الشعب المصري جزء من الأمة العربية. وقد وافق الشعب المصري بالإجماع على هذا الدستور، ولا شك في أن هذا الاتحاد خطوة أساسية على طريق إقامة وحدة عربية شاملة تعزز القومية العربية وتمكنها من أن تقوم بدورها الفعال في مجالها الدولي...).

---

* ــ أكرم الحوراني: مذكرات . ص ٢٣٦

بعد تشكيل حكومة العسلي وإعلان الاتحاد مع مصر، برزت أزمة جديدة محورها استقالة الزعيم شوكت شقير من رئاسة الأركان، وتعيين الزعيم توفيق نظام الدين مكانه. وفسرت هذه الاستقالة على أنها رفض لفكرة الاتحاد مع مصر.

ونشط التحريض الاستعماري الأمريكي، فقد قام هندرسون بزيارة إلى المنطقة، وأعطى تصريحاً يقول فيه (إن الوضع السوري بالغ الخطورة، وأنه لا يهدد الشرق الأوسط فحسب بل قد يؤثر تأثيراً خطيراً على العالم الحر بأسره).

كما نشطت مجدداً المؤامرات الاستعمارية، وكان أبرزها مؤامرة أمريكية نظمها وعمل على تنفيذها رجل المخابرات الأمريكية ستون، ووظف لتنفيذها كلاً من أديب الشيشكلي وإبراهيم الحسيني اللذين وصلا سراً إلى لبنان، ويقال إنهما دخلا تسللاً إلى سورية. وقد كشفت هذه المؤامرة أيضاً وصدر بلاغ رسمي يشرح تفاصيلها. وأدى ذلك إلى تعقيد العلاقات مع الولايات المتحدة، وإلى إخراج السفير السوري من واشنطن.

ويتبين أن من أهداف هذه المؤامرة تحقيق السيطرة على الجيش، واغتيال عدد من الشخصيات السياسية والعسكرية البارزة والتي تلعب دوراً مهماً في مختلف التطورات، ومنها أكرم الحوراني وخالد بكداش وعفيف البزرة ومصطفى حمدون وغيرهم.

وكان الرد السوري إعلان التدريب لجميع الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين ٤٠ و ٨٠ سنة. وأصبح السلاح منتشراً بشكل واسع في أيدي جماهير الشعب.

وفي إطار مضاعفات هذه المؤامرة، أحيل قائد الجيش توفيق نظام الدين على التقاعد، وعين اللواء عفيف البزرة قائداً للجيش والقوات المسلحة ورفع إلى رتبة فريق.

والى جانب ذلك كانت تجري فعاليات أخرى داخل البلاد . ونتيجة المحاكمات التي جرت والأحكام التي صدرت فرغ مقعد نيابي في دمشق كان يشغله النائب منير العجلاني، كما فرغ مقعد آخر في محافظة حمص كان يشغله عدنان الأتاسي، ومقعدان آخران أحدهما في السويداء والثاني في مصياف. وأعلن عن إجراء انتخابات لإملاء المقاعد الشاغرة. وكانت معركة دمشق من أهم المعارك التي جرت في سورية. فقد رشح لملء مقعد دمشق كل من المحامي رياض المالكي، شقيق الشهيد عدنان المالكي، والشيخ مصطفى السباعي، المرشد العام للإخوان المسلمين، على النطاقين العربي والسوري. وحشدت المعركة قوى شعبية هائلة، وفاز بنتيجتها رياض المالكي.

وإثر سقوطه ألقى الشيخ مصطفى السباعي خطاباً أعلن فيه (أن في البلاد اتجاهين: الأول يتبع الإيمان والحق وما أنزل الله، والثاني يتبع الشيطان والإلحاد والفساد، وأن على الأمة أن لا تسلم قيادها إلى هؤلاء..).

وترك سقوط مصطفى السباعي تأثيراً جدياً على علاقات سورية العربية، وبدأت السعودية تبتعد شيئاً فشيئاً، وقام الملك سعود بزيارة للعراق، وتأزمت العلاقات مع السعودية وأغلقت السفارة السعودية أبوابها.

وتوترت العلاقات بين الحزب الشيوعي وأكرم الحوراني حول انتخابات مصياف.

كان مطروحاً في تلك الفترة إجراء انتخابات بلدية وحدد موعدها في ١٥/١١/ ١٩٥٧ بدأت التحضيرات لهذه الحملة بشكل واسع، ونشط الحزب الشيوعي نشاطاً بارزاً، وبدا على الساحة كقوة انتخابية جدية، ومؤثرة، وجرت مناقشات حول المجلس البلدي في دمشق وتوزيع المقاعد فيه، وطالب الحزب الشيوعي بأن يمثل بأكثر من عضوين في المجلس، وراجت شائعات تقول إن الحزب يطالب بنصف المقاعد. وأدى هذا الوضع إضافة إلى الأوضاع الأخرى المتوترة إلى نشوء خلافات بين الأحزاب، فقد نشأ خلاف بين حزب البعث والحزب الشيوعي، وخلافات بين حزب البعث من جهة وخالد العظم والحزب الوطني من جهة ثانية. وخلال التحضير لهذه الانتخابات جرت تحركات عسكرية تركية على الحدود أدت إلى استنفار واسع في حلب، وطرحت فكرة تأجيل الانتخابات. وتقرر التأجيل.

أخذ التحالف بين خالد العظم والحزب الشيوعي يقلق بعض الأوساط السياسية، من منطلقات سياسية وفكرية، وجزئياً طبقية، ويروي أكرم الحوراني في مذكراته أنه اجتمع مع خالد بكداش في مكتبه برئاسة مجلس النواب وقال له: (إن العداء الخفي والعلني والسعي المحموم من قبلكم لتأليب خالد العظم وكل من هو على شاكلته، بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، ضد حزب البعث العربي الاشتراكي، يدل على أنكم تطمعون بالاستيلاء على السلطة. وأن هذه المغامرة ستؤدي إلى ذبحكم وذبح الحركة الوطنية التقدمية وانتصار الاستعمار والرجعية..).*

---

* ـ مذكرات أكرم الحوراني ص ٢٤٧١.

هل صحيح ما يقوله أكرم الحوراني من أن الحزب الشيوعي يسعى من وراء تحالفه مع خالد العظم للوصول إلى السلطة؟.

لاشك في أن أي حزب سياسي، يسعى في نضاله السياسي لتنفيذ برنامجه! وهو يضع خططه في ضوء هذا البرنامج. ويقسم الحزب الشيوعي البرنامج إلى قسمين، قسم برنامج الحد الأدنى، وقسم برنامج الحد الأعلى، ويتطابق ذلك مع مراحل نضاله. وكان برنامج الحزب الشيوعي السوري هو برنامج الحد الأدنى ولا يتضمن أي تطلع للاشتراكية، ولم يكن في خططه أي توجه للقفز إلى السلطة. فقد كانت قيادة الحزب تعي تماماً موازين القوى وتوازنها الداخلي والعربي والدولي. وكانت قيادة الحزب في إطار فهمها لكل هذه الظروف، تسعى لتطبيق مقولة المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، التي كانت تنادي بمقولة «الدولة الديمقراطية» بما يعني إقامة نظام حكم تتعاون فيه البرجوازية الوطنية بجميع فئاتها، والطبقة العاملة وجماهير الفلاحين والمثقفون الديمقراطيون، وهو برنامج وطني ديمقراطي. وهذا كان جوهر التحالف مع خالد العظم ، بما يمثله من مواقف وطنية معادية للاستعمار ومواقف ديمقراطية أيضاً . وكان أيضاً جوهر التحالف مع أكرم الحوراني نفسه، فكلاهما يشكل قوة وطنية معادية للإمبريالية، وكلاهما مع تفاوت نسبي، يرغب في الديمقراطية، وهذا هو جوهر التحالف الواسع الذي تحقق في البرلمان.

لقد كان هذا السعي لدى الحزب الشيوعي أساس استراتيجيته وتكتيكه. وقد حققه بشكل رائع في المعارك الانتخابية التكميلية التي جرت في البلاد . ففي حمص مثلاً، سحب الحزب الشيوعي مرشحه لصالح مرشح التجمع الوطني، وفي دمشق، نشط الحزب بقوة كبيرة لصالح المرشح الوطني الديمقراطي رياض المالكي.

من الممكن أنه نشأ نوع من الحذر أمام امتداد الحزب الشيوعي السوري، ليس فقط بتوسع صفوفه، وإنما كذلك بتوسع نفوذه وتأثيره بين الجماهير، وبترحيب الجماهير بسياسته، وقد عبر المناضلان جمال أتاسي وعبد الكريم زهور لأكرم الحوراني، عن قلقهما من نتائج المحاكمات وتوجيه ضربة للإقطاعية، من أن تؤدي إلى امتداد أوسع للحزب الشيوعي.

وهذا الحذر كان منتشراً في صفوف بعض العسكريين. وفي حديث جرى بيني وبين الفريق جمال الفيصل، قائد الجيش الأول في سورية أيام الوحدة، وهو ابن عم لي، حدثني

عن مثل هذه الهواجس، وقال لي بأن الشيوعيين كانوا يسيطرون على قيادة عشرات الكتائب وأن هناك نحو ٩٠ ضابطاً فلسطينياً ينتمون إلى الحزب الشيوعي. وأجبته بالنفي وبأن هذه التقديرات هي خطأ جسيم، وقد يكون بين الضباط الفلسطينيين من هم يساريون ولكن أغلبهم هي عناصر وطنية وقومية بل وبعثية أيضاً. وأعتقد أن هذا الحذر زاد كثيراً عندما أصبح اللواء عفيف البزرة قائداً للجيش والقوات المسلحة، ومعروف عنه أنه يحمل أفكاراً وطنية وتقدمية.

في هذه الظروف، وفي إطار تفقد الأوضاع الخارجية والداخلية لسورية وتكاثر الخلافات والشكاوى المتداولة، وصل وفد برلماني مصري إلى سورية يوم ١٩٥٧/١١/١٦ واستقبل استقبالاً شعبياً، ورفعت لافتات تمجد التقارب المصري السوري، واتخذ خلال هذه الزيارة القرار التالي:

(إن نواب المجلسين المجتمعين، إذ يعلنون رغبة الشعب العربي في مصر وسورية في إقامة اتحاد فيدرالي بين القطرين، يباركون الخطوات العملية التي اتخذتها الحكومتان السورية والمصرية في سبيل تحقيق هذا الاتحاد، ويدعون حكومتي مصر وسورية للدخول فوراً في مباحثات مشتركة بغية استكمال أسباب هذا الاتحاد..).

خامساً: نشاطات العسكريين والدعوة إلى الوحدة الاندماجية.

مع تعيين اللواء عفيف البزرة قائداً الجيش وترفيعه إلى رتبة فريق، بدأت تظهر تيارات في صفوف القيادات العسكرية. ونشأ اتجاه يضم عفيف البزرة، وأحمد عبد الكريم، وأمين النفوري، مقابل الاتجاه الآخر الذي يضم الضباط البعثيين، مصطفى حمدون وآخرين. وكانت المراكز العليا في الجيش من نصيب الاتجاه الأول. وخلال تطور الحياة السياسية وتطور المواقف، كانت مواقف الاتجاه الأول أقرب إلى خالد العظم والحزب الشيوعي.

كانت فكرة الوحدة مع مصر على جدول أعمال مجلس القيادة، وكانت آراء السياسيين متباينة ، وعبر بعض هؤلاء عن تحفظهم على الوحدة الاندماجية، وحذروا من التفريط بالديمقراطية وبدور سورية التأريخي. وانطلاقاً من ذلك اقترح مجلس القيادة تشكيل لجنة غير رسمية من بعض رجال السياسة والفكر لدراسة موضوع الوحدة، ووضع مشروع يعرض على الرأي العام والمنظمات السياسية. وتكونت اللجنة من: الدكتور جمال الأتاسي، عبد الكريم زهور، الدكتور عبد الله عبد الدايم، رياض المالكي، نخلة كلاس، الدكتور كامل عياد، المقدم الركن أحمد عبد الكريم، عقدت هذه اللجنة اجتماعاً واحداً ولم تكمل عملها.

يقول أحمد عبد الكريم (في غمار هذه الأحداث المتلاحقة، وفي خضم التهديدات الأجنبية، اشتدت المزايدة على الوحدة، وأصبح الشارع في حالة أقرب ما يكون إلى الهياج، ولم يعد الجو ملائماً للنقاش الموضوعي الهادئ).*

في ١٢ كانون الثاني ١٩٥٨ سافر الوفد العسكري إلى القاهرة. واجتمع مع عبد الناصر، وطلب الوحدة الاندماجية. وفي البدء رفض عبد الناصر الوحدة الاندماجية وقدم أسباباً لذلك كوجود الأحزاب في سورية ودور الجيش في السياسة. ولكن الضباط أصروا على الوحدة وفاجأهم عبد الناصر بالموافقة واشترط لقيام الوحدة شرطين:

. حل التكتلات العسكرية في الجيش السوري وابتعاده عن الحزبية والسياسة، وأن يضع قادة الجيش أنفسهم تحت تصرفه.

. حل الأحزاب السياسية.

وحول موضوع الأحزاب نشأ خلاف عميق. فقد وافق حزب البعث على حل نفسه، بينما رفض الحزب الشيوعي ذلك، وطالب خالد العظم ببقاء الوضع الدستوري البرلماني الديمقراطي على حاله في سورية وبقاء تعدد الأحزاب.

سافر صلاح البيطار وزير الخارجية إلى القاهرة مخولاً من الحكومة ببحث موضوع الاتحاد مع مصر. وعندما عاد عقد اجتماع برئاسة شكري القوتلي وحضور ممثلي الجيش، وأعلن البيطار أمام الاجتماع القرار التالي:

شكل الاتحاد: يكون نظام الحكم في الدولة العربية المتحدة جمهورياً رئاسياً، ويتولى السلطة التنفيذية رئيس الدولة، يعاونه وزراء معينون من قبل الرئيس، ويتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعي واحد، ينتخب انتخاباً حراً مباشراً من قبل الشعب.

واتفق على قيام مرحلتين:

الأولى تنص على اجتماع الرئيسين والمجلسين وتصدر القرارات التالية:

الأولى:

١. قيام الدولة العربية المتحدة.

٢. ترشيح رئيس الجمهورية وتفويضه بوضع الدستور الدائم.

٣. استفتاء الشعب في سورية ومصر على القرارات.

الثانية: وضع دستور دائم، تكوين الاتحاد القومي . إجراء انتخابات، توحيد مرافق الدولة.

---

*- أحمد عبد الكريم ـ حصاد ـ ص ٣٨٥.

واتفق على إعلان الوحدة دستورياً في الخامس من شباط ١٩٥٨ في القاهرة ودمشق.

ويذكر أكرم الحوراني في مذكراته أن خالد بكداش زاره في مكتبه يوم ٤ شباط، وسأله فيما إذا كان سيسمح له بإعلان رأي الحزب الشيوعي بالوحدة، فأجابه الحوراني بالإيجاب، وأعلن خالد بكداش أنه سيحضر الجلسة. وعقدت الجلسة في اليوم الثاني وغاب عنها خالد بكداش.

لقد ألحق غياب خالد بكداش عن هذه الجلسة التاريخية، أثراً سلبياً ومثيراً، رافق مسيرة الحزب طويلاً، ولم تمح آثاره حتى الآن. وقد فتشت في أرشيف الحزب، عسى أن أجد أية إشارة إلى اجتماع بحث فيه الموضوع واتخذ فيه القرار. ولم أجد أي قرار مكتوب، ولكن الدكتور مصطفى أمين الذي رافق هذه المرحلة بأدق تفاصيلها أخبرني بما يلي: مساء الرابع من شباط عقدت القيادة اجتماعاً حضره الرفاق: خالد بكداش، فرج الله الحلو، نقولا شاوي، أرتين مادويان، حسن قريطم، فوزي الشلق، وحضره الدكتور مصطفى أمين نفسه، وناقش الاجتماع موضوع جلسة المجلس النيابي المخصصة لإقرار الوحدة الاندماجية بين سورية ومصر، وقد أكد الرفاق جميعاً أهمية وضرورة حضور الرفيق خالد بكداش الجلسة، وعارض الرفيق خالد بكداش هذا الرأي، وأصر على ضرورة مغادرة البلاد، ولم تفلح جميع الجهود في ثني الرفيق خالد بكداش عن موقفه. وفي صبيحة يوم الخامس من شباط غادر الرفيق بكداش دمشق إلى الاتحاد السوفييتي.

إن هناك منعطفات حاسمة في التاريخ. وإذا لم يكن الإنسان أو الحزب أو الجماعة، مستعدة لمجابهة هذه المنعطفات، فإنها ستفقد تأثيرها ويضيع موقفها. وهذا ما وقع مع حزبنا يوم الخامس من شباط.

يقول أكرم الحوراني في مذكراته:

(الحقيقة أن رجال السياسة من شكري القوتلي إلى صبري العسلي إلى رشدي الكيخيا، إلى أصغر شخص من الموالين لهم، كانوا يعتقدون أن الحكم سيؤول إما إلى حزب البعث وإما إلى الجيش، وأن الوحدة مع عبد الناصر هي الحل الوحيد لهم)*.

ويقول سفير مصري سابق في دمشق: (وأسهمت المخاطر الخارجية بالتعجيل في اتخاذ قرار الوحدة وأبرزت كخطة قومية، جعلت الوحدة بين البلدين تبدو تحقيقاً لأمل

* ـ أكرم الحوراني، مذكرات ص ٢٥١٩.

طال انتظاره. كما كان للعسكريين السوريين الذين كانوا يستشعرون حدة المخاطر التي تحيط ببلدهم، دور محرك ومؤثر في التعجيل بإقامة الوحدة. إذ اشتدت الخلافات بين الكتل العسكرية السورية، ولم يجد قادة هذه الكتل حلاً لمنع انشقاق الجيش إلا بالإسراع في إعلان قيام الوحدة وتسليم القياد لعبد الناصر، الذي وجد نفسه فجأة أمام هذا الوضع.

فلم تتح له الفرصة لمناقشة توقيت قيام الدولة الموحدة أو شكلها. **

في ٢١ شباط جرى الاستفتاء على الوحدة، وأعلنت النتائج مساء اليوم ذاته وهي الموافقة بنسبة ٩٩,٢٥٪، وفي ٢٤ شباط قدم عبد الناصر إلى سورية وتجمعت الحشود حول قصر الضيافة في أبو رمانة، وألقى الرئيسان عبد الناصر وشكري القوتلي خطابين.

الحقيقة أن جميع العوامل المذكورة، لعبت دورها في تحقيق الوحدة السورية المصرية. ولا شك في أن التآمر الإمبريالي والعدوان على مصر، واستمرار الحشود التركية على الحدود مع سورية، واتساع نشاط الحزب الشيوعي، واقتران ذلك بتزايد نفوذ الاتحاد السوفييتي وتوقيع اتفاقية التعاون، ونشوء خلافات بين العسكريين قد سرع في طرح قضية الوحدة.

كما لعبت خشية الرئيس شكري القوتلي من تزايد نفوذ ودور خالد العظم، دوراً في تسريع العملية. وكانت البرجوازية السورية خائفة على مصائرها، ورأت في الوحدة مخرجاً لها.

وساعد تآمر العسكريين على بعضهم بعضاً في عملية التعجيل، وكان لعبد الحميد السراج وصلاح البيطار دورهما في ذلك، إذ كانا على صلة وثيقة بالأجهزة المصرية، وقد شجعت الدوائر الإمبريالية الأمريكية، عملية التسريع،.. حرصاً منها على أن هذه العملية ستنهي الوضع في سورية، وتنهي التطورات الوطنية والديمقراطية الجارية فيها.

** ـــ مصطفى عبد العزيز مرسي: سفير مصري سابق في دمشق، ومساعد وزير الخارجية المصري سابقاً. مقالة في جريدة (الحياة) العدد ١٤٥٦٨. العاشر من شباط ٢٠٠٣.

ولا بد من إبراز تحليل لدوافع الوحدة أورده خالد العظم في مذكراته. فقد تساءل عن عوامل رفض عبد الناصر الوحدة عام ١٩٥٥، وقبولها في عام ١٩٥٨، وهو يعيد ذلك إلى ثلاثة أسباب نطرحها باختصار:

١. دور معركة السويس والعدوان الثلاثي على مصر في (جعل رجال مصر يفكرون في مصيرهم، إذا ما تجدد العدوان مرة أخرى، ولم تكن الظروف مواتية لهم كما في عام ١٩٥٦. لذلك اعتقد عبد الناصر أن توسيع رقعة دولته يجعلها لقمة كبيرة يصعب التهامها...).

٢. الدور الذي لعبته سورية عام ١٩٥٧ والذي رفع اسمها إلى الأوج. الأمر الذي (جعل الساسة الغربيين يخشون أن تنساق سورية من الحياد الإيجابي بين المعسكرين الشرقي والغربي، إلى الانحياز إلى الاتحاد السوفييتي... وجربوا المؤامرات... ولم ينجحوا ورأوا أن يستخدموا وسيلة أخرى هي ممالأة عبد الناصر والتفاهم معه، لعله بنفوذه الشخصي لدى السوريين، يحملهم على العدول عن توطيد علاقتهم مع روسيا... ولكن كيف ذلك بدون تسلُّم الحكم في سورية، وإبعاد الجميع، خاصة أن الأمور في سورية سائرة نحو انتخابات ستنجح فيها القوى الوطنية التقدمية (وهكذا تصبح الأمور في سورية غير مضمونة من حيث انسياقها وراء السياسة المصرية دون اعتراض ولا مخالفة فأسرع المصريون إلى الإفادة من الفرصة السانحة...

(ولا أستطيع الجزم بأن الأمريكيين هم الذين حملوا عبد الناصر على تحقيق الوحدة، لأننا نجهل ما كان يدور بينهم وبينه، إلا أن الترحيب الشديد الذي قابلت به الأوساط الرسمية وغير الرسمية هذه الوحدة في واشنطن يدل على أن ساسة الولايات المتحدة لم ينظروا إليها نظرة التخوف وعدم الرضا، كما أن الصحف الأمريكية لم تعلق عليها كما كانت تعلق على اتجاه سورية نحو التعاقد مع الاتحاد السوفييتي، فتحمل عليه حملات شعواء مستمرة.

(والأمريكيون بعد فشل محاولاتهم المتكررة لعقد حلف مع الدول العربية وقناعتهم بأن حلف بغداد نفسه لم يعط الثمرات المرجوة منه، انتهى بهم الأمر إلى الاكتفاء بالتفاهم مع رجل عربي يستطيع أن يتزعم البلاد العربية بتوجهها بصورة ناعمة في السبيل الذي ترتضيه الولايات المتحدة...).. *

٣. عامل تزايد السكان في مصر والحاجة إلى رقعة زراعية أوسع.

---

* ـــ مذكرات خالد العظم الجزء الثالث ـــ ص ١٠٩ ـــ ١١٠.



الفصل الثالث والعشرون

الوثائق الأساسية الصادرة عن الحزب الشيوعي السوري حول الوحدة

عندما أصبح واضحاً تماماً، أن الأمور استقرت على قيام وحدة اندماجية بين سورية ومصر عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري اجتماعاً في أيام ١١-١٣ كانون الثاني ١٩٥٨، لبحث موقف الحزب وإقرار برنامجه بهذا الشأن.

وأقرت اللجنة المركزية وثيقة سميت البنود الثلاثة عشر، وأذيعت مقترنة بتصريح من الرفيق خالد بكداش، وفيما يلي نص هذه الوثيقة:

البنود الثلاثة عشر:

إن توطيد استقلال الجمهورية العربية المتحدة، وإحباط مكائد الاستعمار ومؤامرته الموجهة ضد حركة التحرر العربي بوجه عام، ودعم فكرة الوحدة العربية على أساس التحرر التام من الاستعمار وعلى أساس الديمقراطية، هي أهداف قومية ووطنية كبرى ينبغي لتحقيقها اتحاد جميع القوى الشعبية والوطنية في سورية، في سبيل انتهاج سياسة تقوم على الأسس التالية:

١- يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار، في الحكم والإدارة، الظروف الموضوعية في كل من سورية ومصر وذلك عن طريق إنشاء برلمان وحكومة للإقليم السوري، وبرلمان وحكومة للإقليم المصري، إلى جانب برلمان مركزي وحكومة مركزية تهتم بقضايا الدفاع الوطني والسياسة الخارجية وغيرها من القضايا المشتركة. وينبغي أن تتألف جميع هذه الهيئات بالأساليب الديمقراطية على أساس انتخابات نيابية عامة وحرة بدون قيد.

٢- إطلاق الحريات الديمقراطية: حرية الصحافة والنشر والاجتماع وحرية التظاهر والإضراب، وحرية الجمعيات والنقابات وتأمين حق الجماهير الشعبية وسائر القوى الوطنية في التنظيم السياسي بحرية تامة.

٣- تمتين عرى الإخاء والتعاون مع الجمهورية العراقية الشقيقة لخير العرب جميعاً.

٤ـ تقوية عرى الصداقة مع الاتحاد السوفييتي وسائر بلدان العالم الاشتراكي، وذلك لدعم استقلالنا الوطني وتأمين التطور الصناعي والزراعي في البلاد.

٥ـ الوقوف بحزم في وجه الاستعمار الأمريكي ومناوراته، والنضال ضد محاولاته الرامية إلى إيقاعنا في شباكه تحت ستار التظاهر كذباً ونفاقاً بأن أمريكا تنوي تغيير سياستها نحو العرب.

٦ـ صيانة الاقتصاد السوري، وخصوصاً الإنتاج الصناعي، والعمل على تشجيعه وتطويره. وإيجاد أسواق لتصريف المنتجات الصناعية والمحاصيل الزراعية وخصوصاً القطن والقمح، وبذل الجهود للإسراع في تنفيذ المشاريع التي نصت عليها الاتفاقات المعقودة عام ١٩٥٧ بين سورية والاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الأخرى.

٧ـ تنظيم الصلات التجارية والاقتصادية بين الإقليمين السوري والمصري على أساس تؤمن التطور الاقتصادي، وخصوصاً التطور الصناعي، لكلا الإقليمين.

٨ـ النضال ضد تغلغل الرساميل الاستعمارية، الأمريكية والبريطانية وكذلك الرساميل اليابانية والإيطالية ورساميل ألمانيا الغربية. والعمل بحزم لإحباط المحاولات الاستعمارية الخبيثة الرامية إلى بسط سيطرة الرأسمال الاستعماري الأجنبي من جديد على اقتصادنا الوطني.

٩ـ إن الإصلاح الزراعي يجب أن يكون شاملاً لكي يؤمن الأرض لجميع الفلاحين السوريين الذين لا يملكون أرضاً، مع مراعاة نوع الأرض ودرجة خصوبتها ومياهها وموقعها. ومن الضروري اتخاذ التدابير لتأمين البذار والأدوات والقروض للفلاحين الذين يُعْطَوْن الأرض، مما يؤدي إلى المحافظة على مستوى الإنتاج الزراعي في سورية والمساعدة على ارتفاعه.

١٠ـ صيانة أجور العمال السوريين، والسعي لإيجاد عمل للعاطلين عن العمل، واحترام حقوق العمال في حرية التنظيم النقابي وفي الإضراب والمحافظة على مكتسباتهم المنصوص عليها في قانون العمل السوري.

١١ـ تنشيط التجارة والعمل على توسيعها، وذلك بتقوية العلاقات التجارية بين الإقليم السوري والجمهورية العراقية وجمهورية لبنان وسائر بلدان العالم الاشتراكي.

١٢ـ رفع مستوى الشعب العام معاشياً وثقافياً واجتماعياً وصون الفضيلة والأخلاق.

١٣ـ رفع مستوى العلم بوجه عام، وصيانة واحترام تقاليد الطلاب السوريين الوطنية والديمقراطية، وصون حقوقهم الثقافية والديمقراطية التي حصلوا عليها بنضالهم الطويل.

١٩٦١- النقاط الثماني عشرة

البرنامج السياسي الجديد للحزب الشيوعي السوري

بعد مرور بضعة أعوام على قيام الجمهورية العربية المتحدة، وبعد التطورات التي حدثت منذ صدور البنود الثلاثة عشر، ناقش الحزب مجمل الوضع في سورية وطرح برنامجاً سياسياً جديداً نوقش في جميع قواعد الحزب ونشر في ٢٤ أيار ١٩٦١ تحت عنوان «البرنامج السياسي الجديد للحزب الشيوعي السوري» المعروف باسم «البنود ١٨». وفيما يلي نص البرنامج:

١ . إعادة النظر بأسس الوحدة.

٢ . تنظيم العلاقات بين الإقليمين السوري والمصري على أسس تراعى فيها الظروف الموضوعية التي تكونت تاريخياً في كلا القطرين، وبضمن ذلك إنشاء برلمان وحكومة لسورية ينبثقان عن انتخابات ديمقراطية حرة ومباشرة وعامة ويتمتعان بالحرية الكاملة في تقرير شؤون البلاد كلها سوى الشؤون المشتركة التي يتفق الإقليمان على أن تكون من صلاحيات حكومة مركزية تتألف من ممثلي القطرين على قدم المساواة التامة.

٣ـ إنقاذ البلاد من الاستبداد والديكتاتورية والفوضى وإطلاق الحريات الديمقراطية، حرية الرأي والكلام والصحافة والنشر والاجتماع وحرية التظاهر والإضراب وحرية الجمعيات والنقابات والأحزاب السياسية.

٤. إلغاء الأحكام العرفية وجميع القوانين التعسفية التي صدرت بعد الوحدة، ومنع نزع الجنسية عن أي مواطن وردها إلى الذين أسقطت عنهم. وإعادة مبدأ التحقيق القضائي ومنع التوقيف الكيفي والتعذيب الجسدي والاضطهاد القومي والديني، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين الوطنيين، ومعاقبة الذين ارتكبوا جرائم ضد الشعب.

٥ـ إنقاذ الاقتصاد السوري من التدهور وحمايته من نهب الاحتكارات المصرية وتحكمها، وتنظيم العلاقات الاقتصادية والتجارية بين سورية ومصر تنظيماً يحمي الإنتاج السوري من المزاحمة المصرية ويصون مصالح السوريين.

٦ـ حماية الصناعة السورية ومساعدتها وإيجاد الأسواق لتصريف المنتجات الصناعية والزراعية، وخصوصاً المنسوجات والقطن. ودعم النقد السوري وحمايته من

التضخم، وإقامة العلاقات التجارية المباشرة بين سورية والبلدان العربية الشقيقة، والبلدان الأخرى على أساس المنفعة المتبادلة المتكافئة.

٧ـ حماية الاقتصاد السوري بقطاعيه العام والخاص من تسرب الرساميل والقروض الاستعمارية الأمريكية والألمانية الغربية وغيرها، التي استفحل تغلغلها وزاد خطرها منذ قيام الوحدة، ووقف أعمال النقطة الرابعة الأمريكية.

٨ . الإسراع في تنفيذ المشاريع الاقتصادية التي تضمنتها الاتفاقات المعقودة عام ١٩٥٧ بين سورية والاتحاد السوفييتي، والتي تنص على بناء السدود المائية كسد الفرات وإنتاج الكهرباء وإنشاء المعامل ومد السكك الحديدية وإنشاء شبكة ري واسعة وغير ذلك من المشاريع التي لها أهميتها وحيويتها لازدهار سورية ورفع مستوى الشعب السوري.

٩ـ تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي تنفيذاً صحيحاً، ووقف كل سوء استعمال وتحايل وخرق للقانون من الإقطاعيين. والسماح لجماهير الفلاحين بواسطة لجان ينتخبونها بأنفسهم. بالإشراف على تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي والمساهمة في تطبيقه ومساعدة الفلاحين الذين حصلوا على بعض الأرض، بما يمكّنهم من استثمارها.

١٠ـ توفير البذار والمياه للفلاحين، ومساعدتهم مالياً وفنياً وتحريرهم من نهب المرابين والبنوك، ومنع طردهم من الأرض وزيادة حصة الفلاحين العاملين بالحصة، ورفع أجور العمال الزراعيين.

١١ـ إمداد المناطق الجائعة والعطشى بالغذاء والمياه وعلف الماشية. ومكافحة غلاء المعيشة المتزايدة، وتوفير المواد الغذائية والأدوية الضرورية لجميع الفئات الشعبية والمناطق، وتحسين الخبز، وتخفيف أعباء الضرائب ومنع تزايدها.

١٢ـ حماية أجور العمال من الانخفاض مع زيادتها، واسترجاع المكتسبات التي حصل عليها العمال السوريون قبل الوحدة، وتوفير الحقوق والحريات النقابية الأساسية كحق الإضراب وحرية التنظيم النقابي ووقف التدخل بشؤون النقابات، وعدم جعلها جهازاً تابعاً للدولة، ومنع التسريح التعسفي ومكافحة البطالة بإيجاد العمل للعمال العاطلين ومساعدتهم.

١٣ـ توسيع نشر الثقافة والتعليم، وإلغاء القيود التي تمنع الطلاب من متابعة دراستهم الثانوية والجامعية والمهنية، وإعادة البرامج إلى المستوى الذي كانت عليه قبل

الوحدة من الناحيتين الثقافية والعلمية، ومنع اضطهاد رجال الفكر والأدب والفن، وإحياء التراث العربي الديمقراطي والتقدمي، وصون حقوق الطلاب الثقافية وتحرير اتحاداتهم من إشراف الدولة، وحماية الأخلاق والفضيلة من سياسة التفسخ والجريمة ومن تسهيل استعمال المخدرات، ومنع الدعايات الاستعمارية بمختلف وسائلها .

١٤ـ صون كيان الجيش السوري وتعزيز مكانته، والكف عن سياسة التنكيل والتشريد تجاه الضباط والجنود الوطنيين، وإعادة الذين سرحوا منهم والذين أجبروا على الاستقالة، وحفظ كرامة أفراد الجيش ومنع أساليب الإهانة والجلد .

١٥. النضال بحزم وثبات ضد الاستعمار، وعلى رأسه الاستعمار الأمريكي عدو العرب الرئيسي الذي يسعى لمد سيطرته على جميع البلدان العربية، ويدعم إسرائيل ويسلحها ضد حركات التحرر العربية، والنضال ضد القواعد الأمريكية والإنكليزية الموجودة في الشرق العربي التي تهدد سلامة بلادنا والسلم العالمي بأفدح الأخطار.

١٦ـ التضامن العربي على أساس النضال المشترك ضد الاستعمار وعملائه ومشاريعه ولحماية استقلال البلدان العربية المتحررة، وتأييد شعب الجزائر في نضاله من أجل الاستقلال وحق تقرير المصير، وشعب عُمان في نضاله ضد الاستعمار الإنكليزي، ونصرة جميع الشعوب العربية المكافحة في سبيل حريتها واستقلالها، وتأييد عرب فلسطين في مطالبهم العادلة، ومنع تحقيق مشروع همرشولد لتوطين اللاجئين ومشروع جونسون لتحويل نهر الأردن، ووقف أعمال التآمر ضد البلدان العربية الأخرى.

١٧. الاستجابة عملياً إلى واقع أن حماية استقلال البلاد وسيادتها الوطنية وتحقيق مصالحها ببناء اقتصاد وطني مستقل متطور، يتطلبان بالضرورة تقوية عرى الصداقة مع الاتحاد السوفييتي وسائر دول المعسكر الاشتراكي، والاستفادة من معونتها الاقتصادية والفنية غير المشروطة إطلاقاً بشرط ما سياسي أو غير سياسي.

١٨. انتهاج سياسة حياد صحيح، قوامها الإسهام في صيانة السلم العالمي وتوطيده على أساس التعايش السلمي ونزع السلاح الكامل، ومقاومة مساعي المستعمرين لتسعير الحرب الباردة وزج البشرية في أتون حرب نووية مدمرة ونبذ الأحلاف العسكرية ومساندة نضال شعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية من أجل التحرر والاستقلال الكامل.

اواخر ايار ١٩٦١



الفصل الرابع والعشرون
الوحدة والحزب الشيوعي

١ ـ لمحة تاريخية:

بعد إعلان الوحدة السورية المصرية، وبعد إقرار الدستور المؤقت أعلنت التعيينات الجديدة من: عبد اللطيف البغدادي، المشير عبد الحكيم عامر، أكرم الحوراني، صبري العسلي: نواب رئيس الجمهورية. عبد الحميد السراج وزيراً للداخلية في الإقليم الشمالي، عبد الوهاب حومد وزيراً للعدلية، أمين النفوري وزيراً للمواصلات، أحمد عبد الكريم وزيراً للشؤون البلدية، فاخر الكيالي وزيراً للمالية، حسن جبارة وزيراً للتخطيط، صلاح الدين البيطار وزيراً للدولة، خليل الكلاس وزيراً للاقتصاد. ولم يتضمن قرار إعلان الحكومة أي شيء عن صلاحيات نواب رئيس الجمهورية: فالنواب المصريون كانت صلاحياتهم محددة مسبقاً، أما السوريون فبقوا مدة ٤ ـ ٥ أشهر دون أية صلاحيات، وقد ترك هذا الوضع تأثيرات سلبية في سورية. كما لم تتضمن الحكومة وزراء لعدد من الوزارات مثل وزارت الزراعة والتربية والتعليم والأوقاف والصناعة.

كان أول عمل قام به عبد الناصر تجاه سورية هو إصدار قرار بإبعاد الفريق عفيف البزرة عن قيادة الجيش في سورية، وذلك بإعلان نبأ استقالته، دون أن يكون له أي علم بذلك.

ونشأ تذمر وعدم رضا عن هذا التدبير، وبُرِّر بأشكال مختلفة. فقد برر عبد الحكيم عامر أن الفريق البزرة احتج على نقل بعض الضباط السوريين دون علمه، وأنه تفوّه بكلام متشدد. بينما برره أحد عناصر المخابرات السورية بأن البزرة كان على علاقة مع عبد الكريم قاسم.

بدأت التناقضات تظهر منذ الأشهر الأولى، فقد ظهرت مواقف مصرية معارضة للإصلاح الزراعي في سورية، وأخذت تصدر أصوات بضرورة وقف تنفيذه. كما ظهرت مواقف معرقلة لاتفاقية التعاون الاقتصادي بين سورية والاتحاد السوفييتي. وقد أمكن عرقلة تنفيذ هذه الاتفاقية خلال فترة الوحدة السورية ـ المصرية. وتمت العودة إليها بعد الانفصال ومجيء حزب البعث العربي الاشتراكي إلى السلطة.

وأخذت الأوساط الاقتصادية تشعر شيئاً فشيئاً بمزاحمة مصرية شديدة.. كما شعرت أوساط الطبقة العاملة بأن العديد من الميزات التي كانت تتمتع بها قد صفيت من قانون العمل الجديد.

وقد ظهرت خلافات حول السياسة البترولية. فقد ألغت سورية العقود الممنوحة لشركة منهل الأمريكية وشركة كونكورديا الألمانية. وطالبت سورية بتعديل اتفاقية عائدات مرور أنابيب التابلاين جنوب سورية. ولم تلق هذه التدابير رضا من مصر، بل جرى اعتراض عليها.

ومن أجل عرقلة اتخاذ قرارات من قبل المسؤولين السوريين في الميدان البترولي أصدر عبد الناصر قراراً جمهورياً ربط حق منح الامتيازات المتعلقة بالقضايا البترولية برئيس الجمهورية، وبموافقة مجلس الأمة.

وبدأ هجوم مصري على سورية. فقد أرسلت وزارة التربية ٥٠٠ معلم من الإقليم الجنوبي، للتعليم في مدارس سورية، وألغي توظيف حاملي الشهادة الثانوية من السوريين. واستمر إرسال المعلمين حتى شمل جميع المدارس السورية في جميع المحافظات.

في الشهر العاشر من عام ١٩٥٨ أعلن عبد الناصر الحكومة المركزية والمجلسين التنفيذيين في كل من الإقليمين الشمالي والجنوبي، وضمت: عبد اللطيف البغدادي، المشير عبد الحكيم عامر، أكرم الحوراني: نواباً لرئيس الجمهورية ووزراء للتخطيط والدفاع والعدل. زكريا محيي الدين: الداخلية، حسين الشافعي: الشؤون الاجتماعية والعمل، كمال الدين حسين: التربية والتعليم، محمود فوزي: الخارجية، حسن جبارة: الخزانة، عبد المنعم القيسوني: الاقتصاد، أحمد عبده الشرباجي: الأشغال العامة، أحمد حسن الباقوري: الأوقاف، فاخر كيالي: وزير دولة، صلاح البيطار: الثقافة والإرشاد القومي، أمين النفوري: المواصلات، بشير العظمة: الصحة، أحمد عبد الكريم: الشؤون البلدية والقروية، عزيز صدقي: صناعة، كمال رمزي ستينو: التموين، سيد مرعي: زراعة وإصلاح زراعي، كمال رفعت: وزير دولة.

كما أعلن المجلس التنفيذي لسورية من: نور الدين كحالة: رئيساً ووزيراً للأشغال العامة والتخطيط، عبد الوهاب حومد: الخزانة، خليل كلاس: الاقتصاد، عبد الحميد السراج: الداخلية، مصطفى حمدون: الإصلاح الزراعي، نهاد القاسم: العدل، رياض

المالكي: الثقافة والإرشاد القومي، أمجد طرابلسي: التربية والتعليم، محمد العالم: المواصلات، شوكت القنواتي: الصحة، وجيه السمان: الصناعة.

وتطلب تشكيل الحكومة المركزية إقامة أكرم الحوراني في القاهرة. وكانت هذه إحدى القضايا الأساسية التي أرادها عبد الناصر. ويقول أكرم الحوراني في مذكراته: «لم يخطر في بالي أبداً، وحتى عام ١٩٦٣، أن إبعادي عن سورية من قبل جمال عبد الناصر، أواخر عام ١٩٥٨، بحجة الوزارة المركزية كان بتشجيع من ميشيل عفلق وصلاح البيطار بعد ثلاثة أشهر من قيام الوحدة برغم أنني إذا بقيت في سورية فإنني سأصبح حاكمها المطلق...».[1]

إن هذا التصريح لأكرم الحوراني يشير إلى بدء بوادر الاختلاف والافتراق التي نشأت داخل صفوف حزب البعث، والتي تكرست فيما بعد بعودة جماعة أكرم الحوراني إلى التجمع خارج إطار حزب البعث الذي كان قائماً من قبل.

يتحدث الدكتور بشير العظمة وزير الصحة المركزي عن عمله في الوزارة المركزية ويقول: «الخلاصة، قضينا شهوراً عديدة، بل سنتين تقريباً من دون عمل ولا مسؤولية محددة، كنا نتبادل الزيارات بين المكاتب ونستقبل كل طارق.

إذا اشتد بي الضيق والضجر، بعد قراءة الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، وبعد إيجاد الحلول للكلمات المتقاطعة، أدفع الباب هائماً، أحاول الانطلاق في حدود القفص الذهبي، فأقصد مكاتب الزملاء الأصدقاء، أحمد عبد الكريم وأمين النفوري، وغرفهم لصيقة لمكتبي. لقد جمعتنا الزمالة والجوار، واكتشفنا ميولاً مشتركة في البحث عن الكتاب والتعليق والثرثرة، وفي استعراض شؤون أوسع من الدائرة الخانقة الضيقة لحياتنا اليومية»..[2]

ويروي في مكان آخر: «بعد سنة تقريباً من وجودي في القاهرة، وُجهت الدعوة لاجتماع وزراء الإقليمين لدراسة ميزانية الجمهورية، والميزانية صورة تطبيقية للسياسة. عكفت خلال أيام أدقق بالأرقام. آثار انتباهي الفارق الكبير في النسبة المقتطعة من ميزانية الإقليم الشمالي (٥٣٪). وما يؤخذ من ميزانية الإقليم الجنوبي (١٧٪ فقط) لقوى الأمن ولتسليح وتدريب جيش الجمهورية الواحد.

---

[1] ـــ أكرم الحوراني: مذكرات ص ٢٧٢.

[2] ـــ د. بشير العظمة: جيل الهزيمة مذكرات ص ١٩٥.

بدأت في مجلس الوزراء الموسع أشرح وجهة نظري فتكهربت الأجواء. وهاج المشير عامر يقاطعني مع عدد من الوزراء المصريين. أسكتهم الرئيس وقال: «اتركوا الرئيس الفني يكمل كلامه». أجاب بعد أن انتهيت «كانت نسبة إنفاقكم على الجيش وقوى الأمن الداخلية في حدود النسبة التي أشرت إليها، وكذلك كانت نسبة اتفاقنا على القوات المسلحة كما ذكرت، واحتفظنا بالأمور كما كانت».. قلت: «جيش واحد ودفاع واحد منطلق الوحدة ودعامة تطورها، ولابد من أن نتقاسم سواسية وبنسبة واحدة أعباء الدفاع عن الجمهورية الواحدة». وأكملت ما بدأته بأن الدوافع الحقيقية وراء الرغبة الجامحة في سورية من الوحدة إنهاء الانقلابات وتسلط الأجهزة وتوزيع وتخفيف أعباء الدفاع، والوحدة إذا لم تترجم عملياً بجيش واحد وحدود ودفاع موحد، فإنها عندئذ شعارات لا معنى لها ! صخب متجدد ومحاولات لمقاطعتي والتخفيف من حدة وقع كلماتي. أعاد الرئيس القول بأن لا مجال إطلاقاً لتبديل نسب الإنفاق ويبقى ما كان كما كان.

أنهى الرئيس الجلسة وانتقلنا إلى مائدة الطعام. انفرد بي بعض الأصدقاء ينصحون: مالك والمواضيع الشائكة، وما علاقتك بالسياسة الدفاعية وأنت وزير فني للصحة! وأخبرني بعد ذلك سكرتير مجلس الوزراء السيد صلاح الدسوقي بأن المخابرات العامة قد طلبت تقريراً عن خلفياتي السياسية. فاكتشفوا أني قد تبرعت عام ١٩٥٧ بثلاثمائة ليرة سورية مع عدد من أساتذة الجامعة من أجل شراء مطبعة لجريدة (النور) الشيوعية. تهمة الشيوعية أو التعاطف مع الحزب في حينه بطاقة مرور للإقامة في سجن الواحات في الصحراء الغربية»..[٣]

بدأت الممارسات المصرية للإيقاع بين القيادات السورية، وبين مختلف القوى السياسية. فقد تم اتصال بصبري العسلي لدفعه إلى معاداة أكرم الحوراني والوشاية به، فرفض ذلك، وفضل الابتعاد وجلس في بيته، كما قام كمال رفعت بمحاولة زج الحزب الشيوعي في معركة ضد حزب البعث وأكرم الحوراني شخصياً، والتقى مع الرفيق فرج الله الحلو وتحدث معه بهذا الموضوع، وأجابه الرفيق فرج الله بالرفض وأن هذه سياسة خاطئة. وأبلغ الرفيق فرج الله الحلو القيادة بذلك، وأكدت ضرورة رفض

---

[٣] ــ دكتور بشير العظمة: جيل الهزيمة، مذكرات ص ٢٠٩ ــ ٢١٠.

مثل هذه الأساليب. ونقل الرفيق فرج الحلو الحديث إلى أكرم الحوراني ونبهه بشكل أخوي ورفاقي. ولكن أكرم الحوراني نقل الواقعة إلى جمال عبد الناصر، الذي نفى ذلك.

جرت انتخابات الاتحاد القومي، وكان الخاسر الأساسي فيها حزب البعث. فقد حصل على ٣٥٠ مندوباً من أصل ٩٤٥٥.

أخذ عبد الناصر يسرع في تدابيره لتحجيم حزب البعث وتحجيم القوى الوطنية، وصدر قرار بإبعاد مجموعة كبيرة من الضباط البعثيين وغيرهم من الحياديين إلى مصر، وحددت لهم مهام، ولكن لم يمارس أي منهم هذه المهام، وعاشوا معزولين. وبدأت الحركة تدب بينهم، وأخذت تنشأ أفكار الابتعاد عن الوحدة.

وفي أواخر عام ١٩٥٩ قدم وزراء حزب البعث استقالتهم، ثم تبعهم الوزراء السوريون الآخرون. وظهر الشرخ واضحاً بين عبد الناصر وحزب البعث، وأخذ حزب البعث ينتقل تدريجياً إلى المعارضة.

لماذا سارت الأمور بهذه السرعة؟ هل كان حزب البعث يعتقد أنه عبر الوحدة سينفرد بسورية؟ أو أنه عبر الوحدة سيسيطر على عبد الناصر، ويصبح قائد الجمهورية العربية المتحدة؟ ويشير كثير من المعلقين إلى مثل هذه الأفكار، ولكن الأمور سارت بمجرى آخر غير ما كان يتصوره البعثيون.

يروي الرفيق جورج عويشق الواقعة التالية: «في ١٨ كانون الأول ١٩٥٨، كان عبد الناصر في دمشق، واستقبل في قصر الضيافة ممثلين عن الأحزاب السياسية السورية. واستقبل في إطار هذه العملية الرفيقين أحمد محفل وجورج عويشق ممثلين للحزب الشيوعي السوري. وطلب عبد الناصر من الرفيقين إعلان حل الحزب الشيوعي السوري، وأبلغهم أن جميع ممثلي الأحزاب التي سبق اللقاء معها وافقت على حل نفسها. فرد عليه الرفيقان، بأنه لا توجد هيئة في الحزب مخولة بحله، حتى ولا اللجنة المركزية، ولا توجد سابقة في هذا الموضوع، وإن الحزب سيبقى يعمل. دام اللقاء أكثر من ساعة في جو متوتر وانتهى من دون أي اتفاق. وذهب الرفيقان للتفتيش عن أكرم الحوراني لإبلاغه بما جرى، عسى أن ينقذ الموقف، فردهما بموقف قاس وخرجت جريدة (الاشتراكي) في اليوم التالي تهاجم الحزب الشيوعي».

وواضح أن حل الأحزاب في سورية، يعني إغلاق العمل السياسي وتحويل جماهير الشعب السوري، إلى كتلة بشرية يجري تسييرها حسب مشيئة الحاكمين، وواضح كذلك أن حل الأحزاب هو تدمير للتجربة الديمقراطية الرائعة التي نشأت في سورية،

واحتضنت جميع القوى السياسية. وهو خنق للنضال الطويل ضد مختلف الديكتاتوريات العسكرية. وبينت الأحداث فيما بعد، أن غالبية المؤسسات الديمقراطية التي وجدت وتطورت بفضل النضال الشعبي الطويل، قد أزيلت وجرى تدميرها. ومع الأسف الشديد، فإن ما نقله الحكام المصريون إلى سورية هو الأحكام العرفية والأجهزة الأمنية وقتل الناس تحت التعذيب، والمخابرات والقمع ودمج الصحافة.

أخذت هذه الأوضاع تنعكس على مزاج القوات المسلحة في سورية، وتشكلت مجموعة من الضباط الدمشقيين بقيادة العقيد عبد الكريم النحلاوي. وكان من أوائل الذين نشطوا فيها العقيد حيدر الكزبري قائد حرس البادية، الذي استطاع في فجر يوم ٢٨ أيلول ١٩٦١ أن يسيطر على مبنى القيادة العامة للجيش، وقام آخرون بالسيطرة على الإذاعة والتلفزيون، وصدر البيان رقم ١ الذي أعلن «أن القوات المسلحة قررت القيام بتصحيح الوحدة من انحرافاتها ووضع حد للتسلط المصري».

٢ ـ الهجمة على الحزب الشيوعي السوري

وفي يوم ١٩٥٨/١٢/٢٣ ألقى عبد الناصر خطاباً، شن فيه هجوماً قاسياً ولاذعاً على الحزب الشيوعي السوري، وضد الشيوعية وضد الاتحاد السوفييتي. وصدر قرار بإغلاق جريدة (النور) اليومية التي كان يصدرها الحزب الشيوعي، وكان المشرف على تحريرها الرفيق فرج الله الحلو.

وفي يوم ١٩٥٨/١٢/٣٠ عقدت الأجهزة الأمنية في سورية، العسكرية منها والمدنية، اجتماعاً برئاسة عبد الحميد السراج، وأعطيت خلاله الأوامر ببدء الحملة الشاملة ضد الشيوعيين. وقام المئات من عناصر هذه الأجهزة في مختلف المدن السورية بمداهمة بيوت الشيوعيين، واعتقال من يقع بقبضتهم، نساء ورجالاً، شيوخاً وشباباً، عمالاً وفلاحين، معلمين ومهندسين، وأطباء وموظفين، ومدرسين. واستمرت هذه الحملة قائمة حتى انهيار الوحدة. والذين اعتقلوا في مختلف المدن، تم التحقيق مع أغلبهم في نفس مدنهم، وبعضهم أحيل إلى محاكمات وحكم وقضى سجنه في بلدته. وكان بين المعتقلين عدد هام من أصدقاء الحزب من ديمقراطيين ووطنيين مستقلين. وكان من أبرز الوجوه بين هؤلاء الشيخ الجليل ثابت العزاوي في دير الزور. فقد كان متقدماً في السن، وكان كاتباً وشاعراً وكان صديقاً حميماً للحزب الشيوعي. وقد سيق إلى السجن رغم شيخوخته ورغم استنكار أهالي دير الزور لاعتقاله.

وقد مورست أشد أنواع التعذيب، من الضرب المبرح، إلى استخدام الكهرباء، إلى التعليق والشبح، إلى تعذيب النساء وإلباسهن بنطالاً والضرب على أرجلهن. ووضع الكثيرون في زنازين إفرادية أسابيع وأشهراً، واستخدمت ضدهم جميع أنواع الشتائم المقذعة وغيرها من الأساليب الشرسة. وبلغ عدد المعتقلين الآلاف، ووزعوا على سجن المزة العسكري، ومركز الطلياني، وفي سجون المحافظات.

وقد سقط ضحية التعذيب الوحشي عدد من الرفاق، منهم كبير شهداء الحزب الشيوعي السوري فرج الله الحلو، وسعيد الدروبي وبيير شدرفيان وجورج عدس وعبد القادر عقاب.

لكي يدرك الإنسان فظاعة الموقف، رأيت إيراد وقائع من رسائل بعث بها الرفاق المعتقلون، وقد كتبت في حينه وأرسلت إلى قيادة الحزب وحفظت في سجلاته ووثائقه. يقول الرفيق عبد الباقي الجمالي: «ظللنا شهرين متنقلين من السواليل إلى الغرف المظلمة ثم إلى المهاجع، نسمع طوال الليالي أصوات الاستغاثة وعربدات الكرابيج وأهازيج الشتائم الهستيرية، تنطلق من غرف التحقيق لتجعل السجن رهيباً قاسياً مريعاً، ينتظر كل منا دوره..».

«إلى أن جاء يوم الخامس من نيسان فحدثت مجزرة وتوالت المجازر. كل يوم عشرات من الشباب ينزلون في طوابير وصفوف متراصة من الطابق العلوي إلى الأسفل، يتوافدون على دفعات لا تنتهي إلا بعد بزوغ الشمس. وفي الطريق إلى التحقيق يبدأ الحرس الذين لايفرقون بين الجمل والناقة، بعملية التعذيب فينهالون بكرابيجهم وأحزمتهم وأحذيتهم وأيديهم على هؤلاء المساجين، فتسيل الدماء ويتعالى الصراخ والعويل ويتفاقم الضجيج والهيجان حتى يكاد الواحد منا يلقى حتفه قبل أن يصل. وبعد أن يصل تتسلمه أيدي الجلادين المهذبين، الذين يلبسون ثياباً لماعة براقة وقمصاناً أمريكية: قل إن الحزب الشيوعي خائن، قل هذا يلعن.... وتبدأ هذه المناقشة الهادئة هكذا. طالب صغير أو عامل بسيط أو مثقف قرأ في الكتب عن الحرية وعاش مثلها في نفسه، يستمع إلى عشرة أشخاص من السادة تلامذة الاشتراكية الديمقراطية التعاونية، فيتلقى دفشة من هذا ونقرة من ذاك وضربة من ذياك ليقول لهم إن الحزب الشيوعي خائن. عدو الديمقراطية والحرية، ومن أنصار الإرهاب والطغيان. وقبل أن ينطق بحرف وقبل أن يستفيق من الذهول الذي أصابه وقبل أن يتحرر من المسرحية التي يعيشها، يجد نفسه ممدداً على الأرض عارياً وقد انهالت عليه السياط والأحزمة التي تأبى حدائدها إلا أن تنغرز في جسده. ولا يكاد يضع يده على عينه ليتحسس ألم

الضربة التي أصابته، ينقلها إلى أذنه ليخفف من أثر البسطار الذي داسها، أو إلى جسده ليمسح الدم المتفجر، ولا يصل إلى مكانه إلا بعد أن يمر على الحمام لينزل عليه ماء آذار البارد مع سياط من نار وشتائم لا تهدأ.

في مثل هذا الحال عشنا شهوراً يسل الواحد منا كما تسل الشعرة من العجين، ويصل إلى التحقيق بقية إنسان ليستمع إلى تحقيق عجيب غريب: مثل: ما رأيك بقضية المجر، أو قضية برلين؟ وما رأيك بأديناور وتشان كاي شيك. فإن أجاب بصراحة انهالت عليه السياط، وإن تجاهل الأسئلة لم يسلم من الفلقة. وإن أجاب كما يريدون نال نفس المصير».[4]

أما الرفيق عبد الكريم محلمي فيروي في رسالته ما يلي: «تبدأ القصة منذ اليوم الرابع لدخولي إلى السجن، فقد استدعيت من الغرفة المنفردة (السيلول) التي وضعت فيها إلى غرفة «لجنة التحقيق» بل لجنة الجلادين الذين لم يسألوني سوى أن أوقع على نص مطبوع يهاجم الحزب الشيوعي ويتهمه بالعداء للقومية العربية وبخيانة الوحدة.. ورفضت التوقيع، وكان ذلك كافياً كي ينهال عليَّ الجلادون، عبد الوهاب الخطيب ونعسان زكار، ضرباً بالسياط وبأنبوب حديدي وكرسي حديدي ثم ألقوني أرضاً وركلوني بأحذيتهم. (كنت أول من استفتحوا به التعذيب، ثم نقلت إلى سيلول آخر مواجه لغرفة التعذيب، بقيت فيه وحيداً مدة شهر، وأنا أستمع فيه يومياً إلى أصوات التعذيب وأنتظر كل لحظة أن يستدعوني ليعيدوا تعذيبي. وفي منتصف شباط، في ليلة مثلجة ساقوني إلى الحمام حيث أُجري لي (دوش) بارد، بينما كان أحد الجلادين ينهال بالضرب على رقبتي وظهري. وفي اليوم التالي أخذت إلى غرفة التعذيب، وفي هذه المرة طلبوا مني أن أدلي بمعلومات عن الحزب، وهددوني بالقتل إذا لم أتكلم، وعندما رفضت الكلام عذبت بالجلد ثم بالتيار الكهربائي ثم بكليهما معاً، ورفضت أن أدلي بأي حرف. ولما سئموا مني تركوني قائلين لي إنني سأعذب يومياً على هذا النحو حتى أتكلم. وقالوا لي أيضاً: اذهب الآن، أنت تظن أننا لا نعرف شيئاً عنك. إن عضواً في اللجنة المركزية قد حدثنا عنك كل شيء. اذهب أيها الـ..... إنك تتعذب دون جدوى.

لم أصدق كل ما قالوه حينذاك، ولكنني صدقت أنهم سيعودون إلى تعذيبي في اليوم التالي.

---

[4] ـــ رسالة محفوظة في أرشيف الحزب.

لم يشمل التعذيب في بداية مدة الاعتقال سوى عدد محدود معين من الرفاق. ويبدو أنه كان على سبيل الانتقام منهم. فقد عذبت أنا لحقد بعض البعثيين علي بسبب وقوف المدرسين الشيوعيين في وجه قانون المعلمين الموحد المجحف بحق المعلمين في سورية، وفي وجه البعث في انتخابات رابطة المدرسين بدمشق.

وفي ٥ نيسان، إثر فشل مؤامرة الموصل. كانت حملتهم الفاشستية الرهيبة في السجن التي تناولت أكثر من ٧٠ معتقلاً عذبوا تعذيباً وحشياً.

وفي ١١ نيسان، كانت حملتهم الثانية، التي تناولت عدداً أكبر هذه المرة، ثم استمر التعذيب كل ليلة تقريباً، وفي النهار أحياناً. ولم تنقطع أصوات التعذيب الرهيب عنا يوماً واحداً. كنا نسمع أصواتاً مرعبة تقض مضاجعنا، أنين ينقطع ثم يعود، يرتفع ثم يخبو، صياح وعويل يمزق سكون الفضاء كل ليلة، أصوات الجلد، أصوات أناس يرتعدون من شدة البرد وهم يغطسون في بحرة ماء من المساء إلى الصباح.. وكنت أتمثل حال هؤلاء المعذبين فأتأثر ولا أنام معتقداً في كل لحظة أنه سيأتي دوري في التعذيب.

وكنا نسمع عن التعذيب الوحشي الهائل الذي كان يجري في المكتب الخاص (في مفرزة سامي جمعة). نسمع عن الجلد والتعذيب بالكهرباء والنفخ وشك الدبابيس ووضع الحصى تحت الركبتين، فتكون لدينا فكرة رهيبة عن المكتب الخاص، وبحمد الله أننا لم نمر على أيدي الجلادين هناك.[5]

وتذكر الرفيقة أسماء الصالح في رسالة لها «إنني قد أنسى أنكم علقتموني يوماً من رجليَّ، مخالفين في ذلك كل تقاليد بلادنا العربية، وأن جلادكم قد انهال عليَّ ضرباً بالسياط، حتى أُدميت قدماي. وقد تمحى من ذاكرتي صورة ذلك الوحش الذي جرني من شعري على أرض السجن، ولكن شيئاً واحداً لن أنساه مدى الحياة، ذلك أنكم حاولتم أن تطعنوني في شرفي، في كرامتي وفي أخلاقي، عندما تنسبونني زوراً للخيانة، خيانة وطني والحزب الشيوعي القائد العظيم».

ثم تقول: لا يستطيع سجين في سجن المزة أن ينام طوال ليله، فهو دوماً في انتظار دوره، إذ يجر من زنزانته إلى قبو مظلم من أقبية العذاب. وهو كثيراً ما يلقي نظرة وداع إلى رفاق الزنزانة، فقد تكون هذه الرحلة آخر عهده بالحياة، لأنه إن سلم مرة من الموت، من تأثير جراحه، فقد لا يسلم منها دائماً، بعد أن تضافرت على جسده

---

[5] رسالة محفوظة في أرشيف الحزب.

الأمراض وسوء التغذية وهواء زنزانته الفاسد والرطوبة التي تنبعث من كل زاوية من زوايا قبره الغض».

٣ . استشهاد فرج الله الحلو

عندما بدأت معركة الانتخابات في سورية عام ١٩٥٤، وتقرر ترشيح خالد بكداش عن مدينة دمشق، اتخذت قيادة الحزب قراراً بالانتقال إلى دمشق، وتم الانتقال قبل صدور النتائج، وعندما أعلن نجاح خالد بكداش، بدأت هذه القيادة تمارس أعمالها. وكانت تضم الرفاق: خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا شاوي وحسن قريطم ويوسف الفيصل. وكان الرفيق أرتين مادويان يشارك في الاجتماعات عندما يزور دمشق. وكانت الأعمال السورية مرتبطة بشكل مكثف بالرفيقين السوريين بكداش وفيصل. وعندما تقرر إصدار جريدة للحزب في دمشق، وقبل اقتراحي، بأن يكون عبد الباقي الجمالي صاحب الامتياز، تقرر أن يقوم الرفيق فرج الله الحلو بالإشراف على الجريدة، وأن يتابع الرفيق نقولا قضايا التنظيم. واستمر هذا العمل على هذا النحو حتى عام ١٩٥٨. وخلال هذه الفترة سافرت إلى الدراسة الحزبية برفقة الرفيق دانيال نعمة. وعندما ساءت الأحوال غادر الجميع دمشق وبقي الرفيق فرج الله مشرفاً على العمل الحزبي بمجموعه. وكان سكرتير منظمة دمشق المدعو رفيق رضا الذي أمكن شراؤه من قبل أجهزة الأمن السورية، وتحول إلى عميل للمكتب الثاني، كما أمكن شراء عملاء آخرين، بينهم منير فرح والمدعو أبو الحاج. وسلم هؤلاء معلومات واسعة عن منظمة دمشق وعن النشطاء فيها، ولعبوا دوراً مشيناً في حملة الاعتقالات وفي حملة التعذيب. وفي إسقاط معنويات أعداد كبيرة من المعتقلين، وتخاذلهم وتقديم بيانات انسحاب من الحزب وإدانته، في موقفه من الوحدة. وكانت هذه البيانات تذاع في الإذاعة وتنشر في الصحف. وتركت تأثيراً سلبياً على تطور الوضع السياسي.

استمر فرج الله الحلو في قيادة العمل الحزبي في دمشق إلى حين اعتقاله في حزيران ١٩٥٩. ويروي الرفيق طنوس دياب واقعة الاعتقال:

«كان عندي أخ يعمل في شركة للمطبوعات. وكان ينقل كميات من المطبوعات بسيارة (فان) يومياً تقريباً إلى دمشق، ذهبنا معه أول مرة أنا وفرج الله، وبعدها كان الرفيق فرج الله يذهب معه إلى بيروت ويعود إلى دمشق. سمعت يوماً صوت (الفان) الذي يقوده أخي ويتوقف كالعادة قرب المنزل، خرجت إلى الشرفة المطلة ففوجئت

بالرفيق فرج الله ينزل من جانبه ويصعد معه إلى البيت. كان الوضع صعباً في سورية. عانقت الرفيق فرج الله بحرارة. كنت أحبه حباً غير عادي، وهو كان إنساناً غير عادي..

في نفس هذا اليوم أو في اليوم التالي ذهب الرفيق فرج الله إلى مواعيده، ولكن عاد مبكراً على غير عادته. قال لي إن الرفيق الصلة لم يأت إلى الموعد. ذهبت إلى الغرفة التي يسكنها فلم يفتح لي أحد. رغم أن دراجته كانت موضوعة قرب باب الغرفة (كان هذا الرفيق سورياً يدعى صبحي الحبل يعيش في طرابلس، وقد استدعي للعمل في دمشق في هذه الفترة».

«كانت القاعدة أنه إذا تعطل لقاء حزبي لأي سبب غير معروف، يتجدد تلقائياً في اليوم التالي. طلبت من الرفيق فرج الله أن يدلني على مكان الموعد وزمانه، لأذهب أنا بدلاً منه. فرفض بإصرار. فقلت له: يارفيق فرج، إذا أنا اعتقلت فأنا غير معروف مثلك ولا مطلوب مثلك. كرر الرفض بإصرار أشد. شعرت أنه خائف علي. في اليوم الثاني غادر المنزل. وقفت على الشرفة كالعادة، ورأيته يبتعد ويختفي في الزاروب الثاني. وكانت هذه آخر مرة أشاهده. ذهب ولم يعد. مضى يوم، اثنان، ولم أسمع عنه شيئاً. أرسلت خبراً مع أخي إلى الرفاق في بيروت أخبرهم بما جرى، فجاءني الجواب: ضبضب أغراض البيت وعد بسرعة إلى لبنان، وبدأت أنا وأخي فوراً بالضبضبة، ولكن تركنا كل شيء في البيت، ولم أجلب معي إلى لبنان سوى الراديو والأكورديون».

«ذهب الرفيق فرج الله إلى الموعد، فلم يأت الرفيق الصلة، ذهب إلى غرفته وطرق الباب ففتح له رجال المباحث وقالوا له أهلاً وسهلاً.. ناطرينك ياأستاذ. اعتقلوه وأخذوه إلى أحد بيوتهم حيث أنزلوا به صنوفاً من التعذيب تقشعر لها الأبدان، وهو صامد، رغم أنه كان يعاني من القلب ويتناول أدوية باستمرار. وظهر الخائن رفيق رضا مع المحققين، وحاول «إقناع» فرج الله بالاعتراف: «نعم إننا تعاملنا مع اليهود»، فرد الرفيق فرج على رفيق رضا باحتقار: ألك زمان بهالشغلة؟ وبصق في وجهه وصفعه، بعدها اشتد التعذيب. ونفخوا بطنه وأخذوا يقفزون عليه حتى انفجر واستشهد. وما جرى بعدها معروف. خافوا من الفضيحة. طمروا الجثة في البداية تحت درج المكان الذي كانوا يعذبونه فيه. وخوفاً من اكتشاف الجثة قاموا بنقلها إلى

منطقة المقالع قرب المزة وطمروها هناك. ولكنهم ظلوا خائفين. عادوا إلى نبش الجثة ونقلها إلى أحد البيوت في الغوطة حيث أذابوها بالأسيد وألقوا السائل في نهر بردى».[6]

أخفت السلطات العليا في الجمهورية العربية المتحدة جريمة قتل فرج الله الحلو، ولعبت الأجهزة دوراً في إرسال عناصر إلى بيروت تنقل من حين لآخر، أخباراً تتحدث عن مشاهدة فرج الله الحلو في هذا المكان أو ذاك، أو في إحدى سيارات المخابرات. ولم يعترف عبد الناصر بوجود فرج الله الحلو في سورية، وأعلن أن سجلات أجهزة الحدود، لا تتضمن دخول لبناني بهذا الاسم. ومن الطبيعي أن فرج الله لم يكن يتنقل حاملاً وثائق باسمه، وكان يحمل وثيقة باسم عساف. ولكن الأمور كشفت فيما بعد، وجرت محاكمة في دمشق بعد الانفصال أدانت الجريمة وحكمت على عميل أجهزة الأمن وجيه أنطاكي الذي قام بعملية التعذيب والتذويب بالسجن خمسة عشر عاماً.

جرت حملة عالمية واسعة للتضامن مع فرج الله الحلو، وتشكلت لجنة دولية ضمت كبار العلماء والشخصيات السياسية، طالبت بالإفراج عن فرج الله الحلو قبل الإعلان عن وفاته.

وقد نشطت نساء المعتقلين في سورية وأمهاتهم وبناتهم، ووجهنَ رسائل إلى السكرتارية العامة لمؤسسة الصليب الأحمر الدولي وإلى لجنة حقوق الإنسان التابعة لهيئة الأمم المتحدة. كما وجهت رسائل إلى أعضاء اللجنة السياسية للجامعة العربية، عرضوا فيها أوضاع السجناء وعدم إحالتهم إلى المحاكم وأشكال التعذيب الوحشي، وعرضوا استشهاد المعلم سعيد الدروبي تحت التعذيب.

وتوجهت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري برسائل إلى الأحزاب الشيوعية والديمقراطية في العالم، وطالبت بإرسال برقيات التضامن إلى الرئيس عبد الناصر ونائبه المشير عبد الحكيم عامر، في القاهرة، وإلى وزير الداخلية في الإقليم السوري عبد الحميد السراج، كما طالبت بتوجيه برقيات ورسائل ووفود إلى سفارات الجمهورية العربية المتحدة في بلدانهم.

وذكرت الرسائل أن بين المعتقلين: الكاتب وصفي البني، والمدرسين سميح الجمالي ومحمد مازوني والمحامين: بشير السبيني، بشار الموصلي، عبد الكريم طبارة، عبد

[6] ـــ عزيز صليبا. العمل السري في الحزب الشيوعي اللبناني مع صفحات من تاريخه ص: ١١٢ ـــ ١١٣ ـــ ١١٤. جميع التفاصيل عن جريمة قتل فرج الله الحلو مدونة في وثائق المحاكمة التي جرت في دمشق بعد سقوط الوحدة السورية ـــ المصرية.

الحميد الحافظ، وجميعهم أعضاء في رابطة الحقوقيين الديمقراطيين وأعضاء لجان أنصار السلام، ومنهم: المهندس عمر السباعي والصيدلاني برهان دراق.

وذكرت أسماء النقابيين: مراد القوتلي: أمين سر نقابة المهندسين. سعد الدين اللو، أمين سر نقابة عمال الخياطة، سعيد شبلي، أمين سر نقابة عمال النقل الداخلي، عمر قشاش رئيس نقابة عمال الطباعة، أسامة بيطار أمين سر نقابة عمال الميكانيك. وتحدثت عن اعتقال عدد كبير من الطلاب الجامعيين ومنهم: يعقوب كرو، عضو مكتب اتحاد الطلاب السوريين وطالب كلية الحقوق، ويونس صالح طالب ثانوي.

وتشكلت لجنة دفاع عن المعتقلين السوريين من: بدر الدين السباعي دكتور في الحقوق، مواهب كيالي: كاتب وصحفي، منير سليمان: كاتب، مصطفى أمين: دكتور في الحقوق، زياد الساعاتي: طبيب، أحمد مكيس: طالب جامعي. ووجهت رسائل إلى المؤسسات الحقوقية والصحفيين واتحادات الكتاب واتحاد العمال العالمي واتحاد النساء الديمقراطي العالمي واتحاد الطلاب العالمي وغيرها، ومما جاء في الرسالة:

إن معتقلي المزة يطلبون إحالتهم إلى المحاكمة أو إطلاق سراحهم، إن هذا المطلب واضح وقانوني، وهو مطلب مشروع تقره القوانين القائمة في سورية، ويقره ميثاق حقوق الإنسان، وهو ينسجم مع تصريح لعبد الناصر أدلى به في الهند خلال زيارته لها في نيسان ١٩٦٠ . وجاء فيه: إن هناك معتقلين في سجون سورية وانهم سيقدمون إلى المحاكم لمحاكمتهم وفق القوانين السائدة. بل أكثر من ذلك! إن مطلب معتقلي المزة يعرض على المحك أقوال عبد الناصر ذاته، وهو سيثبت فيما إذا كان جاداً عندما أدلى بتصريحه في الهند، أم هو أدلى به تهرباً من الأسئلة المحرجة التي طرحت عليه هناك ولخداع الرأي العام العالمي.

٤ . حملة اللاذقية

كان قد مضى نحو عامين ونصف على بدء حملة الاعتقالات الموجهة ضد الشيوعيين في سورية، وفي سجن المزة. كان قد استقر عدد المعتقلين على نحو مئة معتقل، حافظوا على صمودهم. فمنذ عدة أشهر لم يصل أي معتقل جديد، كما بدا واضحاً أنه من الصعب بعد الآن إقناع أحد من هؤلاء المئة بالخروج من السجن بالتحقيق معه بالأساليب التقليدية. هذا في الوقت الذي اشتدت فيه الحملة العالمية للمطالبة بالإفراج عن المعتقلين في سورية، وأخذت تشكل ضغطاً سياسياً كبيراً على النظام.

هنا تفتق ذهن الأجهزة الأمنية عن طريقة ظنت أنها تستطيع بواسطتها التمكن من إخراج جميع المعتقلين الشيوعيين والإعلان عن عدم وجود أي منهم، بعد أن يكونوا قد أعلنوا انسحابهم من الحزب وتبرئهم منه. وقد تعارف على تسمية العملية التي جرت «بحملة اللاذقية»، لأنها نفذت في سجن اللاذقية خلال شهر حزيران ١٩٦١، وشملت هذه الحملة واحد وثلاثين رفيقاً.

بداية نُقل عدد من المعتقلين من المهاجع التي كانوا فيها إلى زنزانات منفردة. وبعد عدة ليال نقل هؤلاء من دمشق وهم معصوبو الأعين في سيارات شاحنة مدة خمس إلى ست ساعات، وعند وصولهم وضعوا في زنزانات منفردة وعرفوا فيما بعد أنهم في سجن اللاذقية، وكانت الغاية من عصب العيون عدم معرفة المعتقل المكان الذي نُقل إليه.

ومنذ اللحظة الأولى بدأت حملة التعذيب المنظمة والدقيقة جداً على مدار الأربع والعشرين ساعة. إذ يتم تبديل طاقم «التحقيق» كل أربع ساعات تماماً. وخلال هذه الساعات الأربع تمر عملية التحقيق بمرحلتين: في الأولى يقوم المحقق بتقديم حديث مدروس بعناية شديدة، يشمل قضايا فكرية وسياسية واجتماعية وعاطفية وشخصية مع الكثير من الترهيب والترغيب، غايته غسل دماغ الشخص. يترك بعدها للتفكير نحو ساعة واحدة، يعود بعدها المحقق لاستطلاع النتيجة، وفي حال عدم التجاوب يقوم مع مرافقيه بعملية التعذيب الجسدي التي تقوم على الجلد المبرح بشكل أساسي.

خلال هذه الأيام كان المعتقل يرغم على البقاء واقفاً ليل نهار ممنوعاً من النوم تحت طائلة الضرب مجدداً، وخلال الأربع والعشرين ساعة كانت تقدم له وجبة غذاء واحدة فقط، تقتصر على بضع حبات من الزيتون أو من الفاصولياء. وكان العطش هو الوسيلة الأكثر إيلاماً، إذ تمر ساعات وساعات دون تقديم قطرة ماء، لدرجة أن المرء كان يضطر إلى لعق الماء الذي يلقى عليه بعد الانتهاء من عملية الجلد من على الأرض ليشعر بعد دقائق بمزيد من العطش لاختلاط الماء بتراب الأرض.

وهكذا أربع ساعات تلو أربع ساعات، ويوماً بعد يوم من التعذيب والجوع والعطش والنعاس والإرهاق حتى «يقتنع» المعتقل بأنه لا خيار أمامه سوى الموافقة على التوقيع على انسحابه من الحزب. وكان من الواضح أن إبعاد الرفيق عن رفاقه الآخرين كان يستهدف حرمانه من دعمهم المعنوي وتشجيعهم الذي كان يلقاه حين يتم التحقيق معه في سجن المزة.

بعد ثلاثين يوماً من بدء الحملة كان قد خرج من السجن تسعة وعشرون رفيقاً من المجموعة التي جرى نقلها إلى اللاذقية، واستمرت العملية مع الرفيقين نبيه جلاحج وعلي مبيض. وفي اليوم السادس والأربعين، وبعد أن يئس الجلادون منهما أعيدا إلى أحد أقبية المباحث في دمشق، وبقيا يومين (معصوبَيْ الأعين)، وبعد تمثيله تهديداً بتنفيذ الإعدام ضدهما أعيدا إلى سجن المزة ووضعا في إحدى غرف السجن عدة أشهر. ولم يعادا إلى زملائهما الآخرين في المهاجع إلا بعد أكثر من شهر من وقوع الانفصال. وكان فرح الجميع بهذه العودة عظيماً.

٥ ـ الإفراج عمن تبقى من الشيوعيين

رغم جميع عمليات التعذيب والترويع، ورغم كل أشكال الخداع والتضليل والحرب النفسية، استمر عدد من الرفاق على موقف الصمود. ووقع انقلاب الانفصال وهم لا يزالون في السجن. وجرت حملات واسعة للإفراج عنهم وخرجوا جميعاً. وننشر فيما يلي أسماءهم جميعاً تقديراً لموقفهم، ولكي يتعرف الرفاق الشباب وكل من انتسب إلى الحزب بعد فترة الوحدة على هؤلاء ويحتفظ لهم بالتقدير. واللائحة المرفقة مرتبة حسب الأحرف الأبجدية.

١ ـ أحمد نديم رمضان (دمشق)

٢ ـ أحمد الغفري (دمشق).

٣ ـ أحمد محفل (حلب).

٤ ـ أحمد بكري مدراتي (حلب).

٥ ـ أسامة بيطار (حمص).

٦ ـ أيوب شمعون (الحسكة).

٧ ـ بدر أحمد الغزي (الطويل) (جبلة).

٨ ـ برهان دراق السباعي (حمص).

٩ ـ بشار موصلي (حمص).

١٠ ـ بيازيد عرابي (جيرود).

١١ ـ جورج عويشق (دمشق).

١٢ ـ جوزيف طرابلسي (حمص).

١٣ ـ حكمت دولي (الجزيرة).

١٤ ـ خالد جميل حمامي (حلب).

١٥ . خليل يسوف (دير عطية).
١٦ . ديب قطيرة (صافيتا).
١٧ . رامز أبو جمرة (صلخد).
١٨ . رشاد رشيد (عاموده).
١٩ . رياض الترك (حمص).
٢٠ . سعد الدين اللو (دمشق).
٢١ . سعيد فخر الدين (النبك).
٢٢ . سعيد يامين يوسف (الحسكة).
٢٣ . سميح الجمالي (حمص).
٢٤ . شريف عبد المجيد محمد (عامودة).
٢٥ . صالح جوهرة (السلمية).
٢٦ . صالح محمود فلاحة (حلب).
٢٧ . صبحي أنطون (الحسكة).
٢٨ . صبحي الحبل (حمص).
٢٩ . عبد الباقي الصالح (دير الزور).
٣٠ . عبد الجليل بحبوح (النبك).
٣١ . عبد الرحيم أيوبي (دمشق).
٣٢ . عبد العزيز حريا (إدلب).
٣٣ . عبد الفتاح زكريا (منبج).
٣٤ . عبد القادر عزيز جان (الجزيرة).
٣٥ . عبد الكريم أبا زيد (درعا).
٣٦ . عبد الكريم طيارة (طرطوس).
٣٧ . عبد الوهاب رشواني (دمشق).
٣٨ . عز الدين القلق (حيفا).
٣٩ . عطا الله أسعد أبو حمدان (صلخد).
٤٠ . علي الكردي (دمشق).
٤١ . علي مبيض (جبلة).
٤٢ . عمر رمضان (دمشق).

٤٣ ـ عمر السباعي (حلب).

٤٤ ـ عمر قشاش (حلب).

٤٥ ـ فايز جلاحج (القنيطرة).

٤٦ ـ فخري رمضان (دمشق).

٤٧ ـ فكرت رجب عبد الله (القنيطرة).

٤٨ ـ قوزما كسيري (قطنا).

٤٩ ـ لبيب عرنوق (طرطوس).

٥٠ ـ ماهر الجاجة (حمص).

٥١ ـ محمد أمين (دمشق).

٥٢ ـ محمد سعيد شبلي (دمشق).

٥٣ ـ محمد ديب الكردي (دمشق).

٥٤ ـ محمد راغب كوراني (حلب).

٥٥ ـ محمد أحمد مازوني (حماة).

٥٦ ـ محمد سهيل مازوني (حماة).

٥٧ ـ مراد القوتلي (دمشق).

٥٨ ـ مراد يوسف (القنيطرة).

٥٩ ـ ممدوح صوقار (القنيطرة).

٦٠ ـ منذ الشمعة (دمشق).

٦١ ـ ميشيل عيسى (مشتى الحلو).

٦٢ ـ نبيه جلاحج (القنيطرة).

٦٣ ـ نبيه خوري (دير عطية).

٦٤ ـ نصر محمد الجمال (حمص).

٦٥ ـ نصوح الغفري (دمشق).

٦٦ ـ وصفي البني (حمص).

٦٧ ـ يعقوب كرو (الحسكة).

٦٨ ـ يوسف أبيض (دمشق).

٦٩ ـ يونس صالح ديب (صافيتا).

٧٠ ـ يونس أحمد عبدو (حلب).

٧١ ـ يونس فلاحة (حلب).

(نقلاً عن صحيفة «النصر» ـ العدد /٥٠١٢/ تاريخ ١٩/١٠/١٩٦١).

٦ ـ العودة إلى الوطن وقيادة عمل الحزب

في منتصف أيار ١٩٥٩ عدت إلى الوطن، مع عائلتي، وأنيطت بي قيادة عمل الحزب في سورية، وتكونت قيادة ثلاثية من الرفاق: يوسف الفيصل، دانيال نعمة، واصل الفيصل. وكانت تشرف على عمل الحزب داخل سورية وعلى الشيوعيين السوريين الذين لجؤوا إلى لبنان، وكانوا يعدون بالمئات. وكان إلى جانب هذه الهيئة القيادية مجموعة واسعة من الكادر الرئيسي، الذي كان يقود العمل مباشرة في هذين الميدانين. ورغم أعمال البطش والتنكيل والاعتقال، بقيت مجموعات حزبية تعمل سراً في ظل الإرهاب المسيطر. ففي دمشق، استمرت مجموعة من الطلاب والشباب، بقيادة فايز جلاحج ويونس الصالح تمارس النشاط الحزبي وتوزع البيانات والمنشورات. وفي حلب استمر العمل طيلة فترة الوحدة، وكانت اللجنة القيادية تضم الرفاق عبدو بكور، رضوان مرتيني، فاروج سلاطيان، عبد العزيز الدهان ونادر حلاق. وقد طلب إلى بعضهم مغادرة حلب للإقامة في بيروت أو لإرساله إلى الدراسة في الخارج، واستمر الرفيق نادر حلاق إلى النهاية. وكانت تتم مكاتبات بين الهيئة القيادية، والرفاق في حلب لفترة طويلة، وقام الرفيق عبدو بكور، بنقل بيانات بين بيروت وحلب. وبقيت منظمة الجزيرة تعمل بنشاط بقيادة الرفاق رمو شيخو وملكي عيسى وعبدي يوسف. واستمرت الصلات منتظمة بينها وبين الهيئة القيادية، كما استمر تبادل الرسائل وإرسال المطبوعات. وتابعت مجموعة طلابية العمل في جبلة طيلة مدة الوحدة، واعتقل بعض أفرادها وقضوا تسعة أشهر في السجن ثم عادوا إلى متابعة نشاطهم. وفي طرطوس بقيادة محمود عيسى. وكلف الرفيق محمود عيسى بإيجاد عمل في اللاذقية ليستقر فيها، ونجح في العمل كحمال في مرفأ اللاذقية.

عودة إلى التحالف بين البعث والحزب الشيوعي

بعد استقالة الوزراء البعثيين وعودتهم إلى سورية، بدأ نشاطهم ضد أساليب التفرد والتسلط والقهر والاعتقال، وبدؤوا يقيمون صلات مختلفة مع هذه القوة السياسية أو تلك، وفي عدادها الشيوعيون. وأخبرت الهيئة القيادية بذلك، وأقرت هذا

التوجه وكلفت الرفيق واصل الفيصل بإنجاز هذه المهمة. وكان الأستاذ عبد الغني قنوت المنتدب من طرف البعث، ولعب الدكتور نظيم الموصلي دور الوسيط، وتمت اللقاءات في بيته في شارع أبو رمانة قرب ساحة المدفع بدمشق. وفيما يلي مقاطع من رسالة بعث بها الرفيق واصل من دمشق تشرح أجواء النقاش:

قنوت: إن الوضع يتطلب حلاً وعملاً، وأنا أود أن أضع ثلاث نقاط:

١. قضية تلاقي القوى الوطنية وتعاونها. وأرى من اللازم أن يتم ذلك. ولا أجد تفسيراً لعدم حصول هذا التلاقي إلى الآن. وما يهمني بالدرجة الأولى هو التفاهم بين الطرفين.

٢. فكرة إيجاد ميثاق مكتوب: إن رأيي الشخصي هو أن وجود مثل هذا الميثاق، يجنب الوقوع في أخطاء ويوضح الطريق ويوحي بالثقة وبالعمل المتفاني، إذا ما تمت الموافقة عليه. وقال: أرى أن يتضمن الميثاق ليس فقط ما يتعلق بالمرحلة السلبية، بل أيضاً بالمرحلة التي تلحقها أي مرحلة البناء وما يتعلق بالنظام القادم. وفصل في الحديث عن هذه الناحية وقال: إن المهم أن يتفق الطرفان (نحن وهم) على محتوى الميثاق، وهذا هو الأساس. وقال: برأيي أن حدة الصراع يجب أن تخف بيننا لأن حدة الصراع في الماضي هي سبب وقوع ما وقع. وقال نحن أخطأنا بالتعجيل ولم نتروَّ، وسلمنا بدون شروط ولم نراع الناحية الشعبية ولا الفروق الإقليمية. وقال: إن وجود ميثاق متفق عليه يجنبنا مثل هذا الصراع بيننا، وإنه لا لزوم له، باعتبار أن الاتجاه العام كله في البلدان العربية موجه ضد اليسار. وقال: لاحظ في العربية المتحدة وكذا في العراق والمغرب والأردن وفي كل مكان يدور الحكام ويلفون، وفي النهاية يتجهون ضد اليسار (ضد قوى التقدم). وما فعله قاسم متفق وبشكل معكوس مع ما فعله ناصر. الأخير بدأ بالشيوعيين وانتهى بالبعث، وقاسم بدأ بالبعث وانتهى بالشيوعيين. هذا واضح. وعليه يجب على قوى اليسار أن تدرك هذا وأن تضع حداً لصراعها. وقال: إن الميثاق يجب أن يكون أشمل، أي أن ينظر إلى الخارج العربية المتحدة، إذا أمكن، وأن يشمل التعاون بين الحزبين في كل مكان في العراق وغيره.

٣. أما القضية الثالثة فهي قضية القوى التي ستشترك في الجبهة. قال أريد أن أعرف رأيكم بنوعية هذه القوى. وطلب معرفة رأينا بإشراك جماعة الشعب. وقال: أريد معرفة ذلك إنني سمعت أنكم متحفظون تجاه كل ما له علاقة بالاستعمار والأردن. وأظن أن من الضروري إيضاح هذه الناحية (لم يذكر سوى الشعبيين ولم

يلمح إلى الإخوان. أما الوطني فضمنا أمره معروف وحسب المناقشة اشتراكه أمر مفروغ منه).

ثم سأل على الهامش: أريد معرفة رأيكم تجاه الوضع وعبد الناصر، وهل إن القضايا الدولية تؤثر على موقفكم من الناحية الداخلية، لأني كما سمعت أن تعديلاً قد يطرأ على موقفكم. وقال بصراحة إن أحدهم حدثه قائلاً له: سمعت أنك تريد مقابلة الشيوعيين فأجبته: يجوز. وقال هذا المتحدث لاضرورة لذلك لأنهم على ما أعتقد قد عدلوا موقفهم، ولا ضرورة للعمل معهم. وطلب إيضاح هذه الناحية.

تناولت الكلام مجيباً عن القضايا الثلاث. بخصوص الجبهة قلت: نحن موافقون كلياً على إقامة هذه الجبهة. وسابقاً أعلنّا رأينا مراراً بضرورة وجود الجبهة. وقلت: إن تعاون الحزبين هو المهم والأساسي. وإن أية قوة وحدها لا تستطيع أن تحل الأمر والتعاون ضروري ولازم. ولا يمكن إنقاذ الوضع إلا بوجود الجبهة، وعلى ما أعتقد أن الذي أخر التلاقي هي أمور فنية، والآن يمكن الاستمرار بالتلاقي.

ثم انتقلت إلى الحديث عن قضية الوحدة العربية كما نفهمها، وقلت: نحن مبدئياً لسنا ضد الوحدة العربية ذات المحتوى النظيف والتي تخدم الشعب. ونعتقد أن التطور الموضوعي في المستقبل سيؤدي ولابد إلى تحقيق هذه الوحدة النظيفة القائمة على أساس وطني ضد الاستعمار والتي تعتمد على الشعب وقواه الوطنية، وتعمل لرفع مستواه وتسير به إلى أمام. وذكّرت بقرار عام ٥٦ الخاص بالوحدة العربية وتصريحات أبي عمار والمواقف الأخرى. أما الوحدة الناصرية فليست هي التي يريدها الشعب، إنها عملية دمج على الطريقة الناصرية الفاشية. نحن لسنا موافقين على هذه الوحدة الفاشية وبالشكل الذي تمت به. ووضحت أن هناك طريقين للوحدة: الطريق الصحيح الذي يراعي الظروف الموضوعية ويعتمد على الشعب وضد الاستعمار، والطريق الخاطىء وهو الذي اتبعه ناصر، وهو القائم الآن. سأل محدثي: ماذا تعنون بفكرة «إعادة النظر بالوحدة من الأساس» شرحت: إننا نرى أن ما أقيم خاطىء ويستند إلى أسس خاطئة. ونحن نطلب تغيير هذه الأسس. ولا نتمسك بحل معين (مثلاً فيدرالي أو كونفدرالي أو أمر آخر يعطي أكثر ما يمكن للسوريين ويعيد كيانهم). فهذا أمر يجب أن تقرره كل القوى المتعاونة. ولا نريد الانفراد بحل معين الآن على الأقل. وقال لابأس هذا حسن، وشرحت رأينا في الماضي والنقاط الـ ١٣ وكيف أنه لم يسمع لرأينا.

ثم أكملت بخصوص الميثاق: نحن موافقون أيضاً، ونرى أن يكون الميثاق واضحاً ويتضمن أهدافاً وشعارات وطنية ترمي لخدمة الشعب ولإنقاذه من البلية الحاضرة. ونحن نوافق على تخفيف حدة الصراع بين الطرفين (وعلق: يجب إزالة هذا الصراع من الأساس). وأكملت: نحن أصلاً ندعو إلى التعاون بين القوى التقدمية، بل أوسع من ذلك، بين القوى الوطنية كلها، ونحن نؤيد أن تفاهم الطرفين هو الأساس، فكلاهما اشتراكي ولا معنى للصراع أبداً.

استمرت المناقشات والحوارات مدة طويلة، وبعدها وضع مشروع ميثاق اشترط أن يبقى سرياً ولا يذاع إلا باتفاق الطرفين. والآن بعد ٤٢ سنة سمحت لنفسي دون أي اتفاق بإذاعة بنود مشروع هذا الميثاق، دون المقدمة وهي التالية:

١ـ تقويم الوحدة بين سورية ومصر وبناؤها على أسس شعبية صحيحة، تأخذ بعين الاعتبار واقع كل من الإقليمين وبشكل يحقق الشعب فيها ممارسة حقوقه السياسية كاملة.

٢ـ إقامة حكومتين ومجلسين نيابيين منتخبين بصورة ديمقراطية حرة ومباشرة لمعالجة القضايا الخاصة بكل من الإقليمين، وتشكيل حكومة ومجلس مركزيين على أساس متساوٍ لمعالجة القضايا المشتركة في الشؤون الخارجية والدفاع، وتتخذ القرارات فيهما باتفاق ممثلي الإقليمين.

٣ـ نشر الحريات الديمقراطية، حرية الرأي والكلام والنشر والصحافة والاجتماع والتظاهر والإضراب والجمعيات. إلغاء جميع النصوص والقوانين التعسفية التي أصدرتها الديكتاتورية، وإلغاء الأحكام العرفية وجميع أجهزة التجسس والقمع المعادية للشعب من مباحث ومكتب خاص وغيرها، ومنع التوقيف الكيفي والتعذيب الجسدي وإعادة التحقيق القضائي، وتحويل أجهزة الدولة لخدمة الشعب ومكافحة الاستعمار.

٤ـ إطلاق سراح السجناء السياسيين، ومعاقبة المجرمين الذين ارتكبوا حوادث القتل والتعذيب الوحشي داخل السجون وأقبية المباحث وإلغاء قرارات منع الجنسية عن المواطنين وإعادتها لكل من حرم منها.

٥ـ إعادة الضباط الوطنيين المسرحين إلى صفوف الجيش، واحترام تقاليد الجيش السوري الوطنية، وإلغاء قوانين الجلد وكل العراقيل التي تقف أمام تطور الجيش وتدعيمه ليكون درع الشعب في وجه الاستعمار وأعداء الحرية.

٦ـ إنهاض الاقتصاد الوطني بتشجيع الصناعة الوطنية السورية وفتح أسواق لمنتجاتها، ورفع تسلط الاحتكارات المصرية عنها، ودعم العملة السورية ومحاربة التضخم النقدي وتنظيم النقد بشكل يؤمن نمو وتقدم اقتصاد كل من الإقليمين، ومنع تسرب الرساميل والقروض الاستعمارية والسير قدماً في تصنيع البلاد، والإسراع في تنفيذ الاتفاقية التي عقدتها سورية مع الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٧.

٧. تطوير التعليم بمختلف مراحله وتحسين البرامج التعليمية وتثقيف النشء ثقافة قوية متينة، وطنية وديمقراطية، ومحاربة الميوعة وفساد الأخلاق ووسائل انتشار الجريمة، وبعث التراث الفكري العربي التقدمي، وفتح مدارس وكليات جديدة لاستيعاب جميع الراغبين في العلم.

٨. مساعدة العمال بزيادة الأجور وإيجاد عمل للعاطلين ومنع التسريح التعسفي، واحترام استقلال النقابات ومنع تدخل المباحث في شؤونها وتأمين الحريات النقابية، وفي رأسها حق العمال بالإضراب والتعبير عن رأيهم بحرية.

٩. إيجاد الحلول الصحيحة لمشكلة الغلاء وارتفاع الأسعار، وتأمين قوت الشعب وخبزه بشكل جيد وبكميات كافية وأسعار رخيصة، وتخفيض الضرائب.

١٠ـ تنفيذ الإصلاح الزراعي بشكل صحيح وفعال، وتقديم القروض والآلات والبذار للفلاحين، والنهوض بالزراعة عن طريق تنفيذ مشاريع الري الكبرى ومنع تهجير الفلاحين من قراهم وأراضيهم.

١١ . منع كل تفرقة طائفية وكل اضطهاد عنصري.

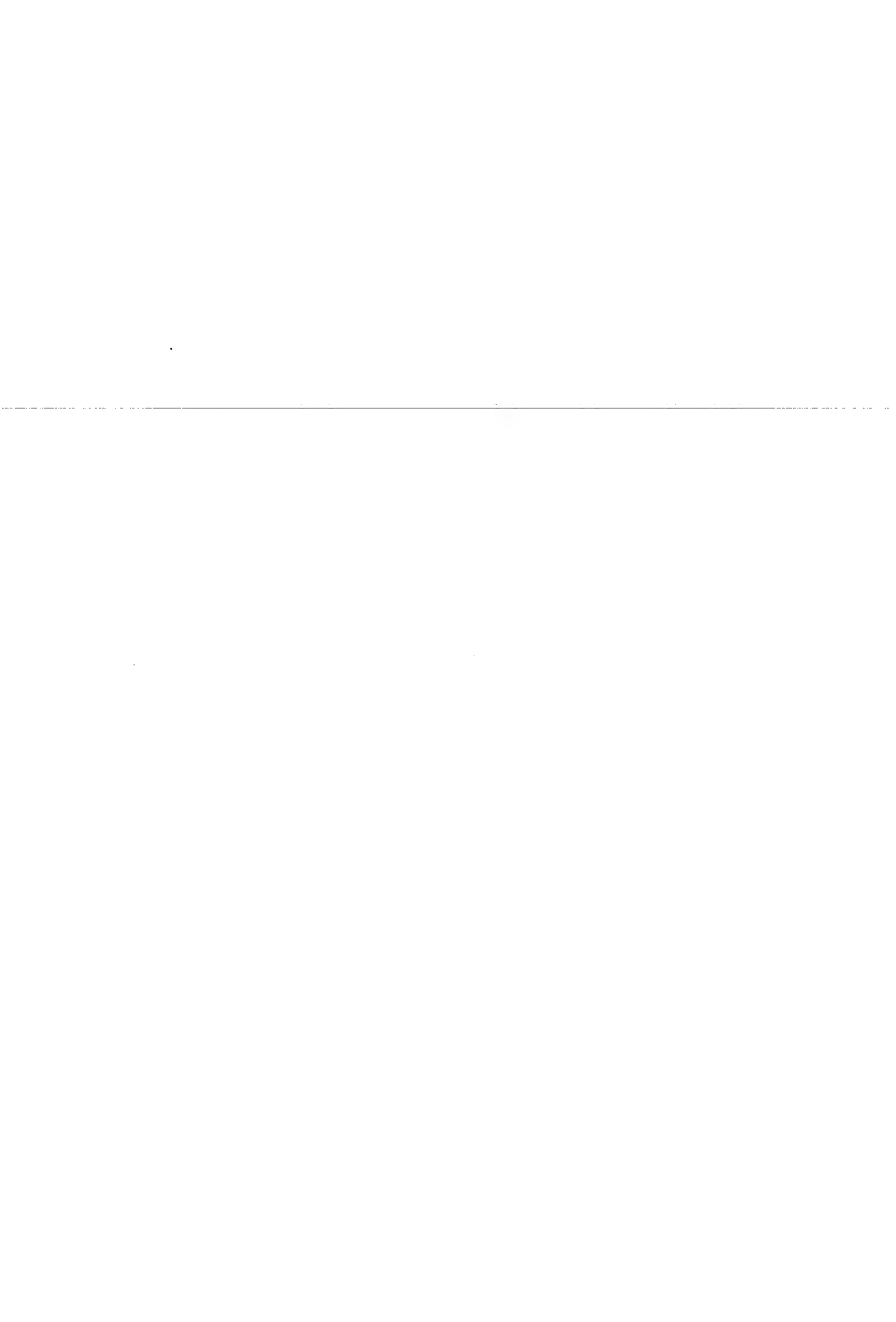
١٢ـ اتباع سياسة وطنية وانتهاج خطة حياد إيجابي صحيح قوامها محاربة الاستعمار ومشاريعه والعمل على تصفيته من العالم، وتحقيق تضامن عربي يقف في وجه الغرب الاستعماري الذي يحتل بعض أجزاء الوطن العربي ونهب خيراتها.

١٣ـ تأييد الحركات التحررية في العالم، ولاسيما في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، والمساهمة في دعم السلام العالمي ونبذ الأحلاف العسكرية العدوانية والتعاون مع الدول الصديقة، ولاسيما الدول الاشتراكية التي تقف إلى جانبنا وتساعدنا وتؤيد حركات التحرر والسلم.

١٤ـ تأييد الشعب الجزائري في نضاله البطولي ومساندته لتحقيق استقلاله وحريته، ودعم كفاح الشعب العربي في عمان والجنوب العربي.

١٥. تأييد حق الشعب العربي في فلسطين والعمل لإعادة حقوقه في وطنه، واعتبار إسرائيل قاعدة للاستعمار، ومنع تحويل مجرى الأردن ومشروع توطين اللاجئين.

ملاحظة: يبقى هذا الاتفاق سرياً ولا يذاع إلا باتفاق الطرفين.



الفصل الخامس والعشرون

الحزب الشيوعي السوري وقضية الوحدة العربية

يشكل موضوع الوحدة العربية، أحد القضايا الإشكالية الكبرى التي جابهت الحزب الشيوعي السوري، واستدعت نقاشاً واسعاً، فيما بين الشيوعيين أنفسهم وبينهم وبين الآخرين. وجرى نقد بل هجوم، على الحزب الشيوعي السوري، بأنه ضد الوحدة العربية بشكل مطلق، أو أن موقفه كان متأرجحاً، بل غير واضح بشكل كاف بالنسبة للوحدة السورية ـ المصرية. واشتد النقاش في الحزب حول هذا الموضوع. وعندما أصبحت الوحدة قضية آنية، وواقعاً ملموساً، أُخذ على الحزب غياب ممثله عن جلسة البرلمان التي أقرت قانون الوحدة. ودفع الحزب الثمن غالياً جداً بمنع نشاطه واعتقال آلاف الشيوعيين وزجهم في السجون.

وضع الحزب الشيوعي السوري هدفاً أساسياً له، هو تحقيق الاستقلال الوطني، وحماية هذا الاستقلال، وتحقيق الاستقلال الاقتصادي. كما وضع شعار إقامة بناء الاشتراكية في سورية، وجند كل قواه في هذا السبيل. وكانت القضية الطبقية هي محور حركته، ونظر إلى القضية القومية بمنظار سلبي، ولم يفرق تماماً، في هذا المجال بين التعصب القومي والانتماء القومي. بين قومية الدول الاستعمارية، قومية اضطهاد الآخرين والسيطرة عليهم ونهب خيرات بلادهم، وبين قومية الشعوب المضطهدة التي تناضل لرفع نير الاحتلال الاستعماري عن كاهلها، والتي لعب العامل القومي دوراً هاماً في تعبئة مشاعرها ونضالها ضد الاحتلال.

ويمكن القول إنه كان للحزب الشيوعي السوري، أكثر من موقف في قضية الوحدة العربية. ففي مراحل النضال ضد الاحتلال، وخاصة في مرحلة الثلاثينيات، اتخذ الحزب مواقف إيجابية بشأن موضوع الوحدة العربية ومفهوم الأمة العربية، واعتبر مكونات الأمة قائمة، وأنها أساس الموقف الوحدوي للحزب. وفي هذه الفترة، كان التقارب الأساسي، مع التيار القومي الذي مثلته عصبة العمل القومي، واستمر الموقف تجاه الوحدة العربية صائباً في الأربعينيات بل وحتى الخمسينيات. وفي الخمسينيات

عندما بدأت تبرز الظروف السياسية والاجتماعية والذاتية للوحدة، وخاصة بين مصر وسورية، بدأ الحزب يطرح مواقف فيها طابع التردد، بل حتى طابع الرفض.

وبعد انهيار الوحدة السورية ـ المصرية، عاد الحزب واتخذ مواقف إيجابية انعكست بوضوح في تقرير اللجنة المركزية الذي قدم إلى المؤتمر الثالث، بل وجرى فيه تفسير الموقف السلبي من دولة الوحدة، بأنه عامله الأساسي، هو قرار حل الحزب الشيوعي السوري، وليس رفض الوحدة ذاتها.

وكانت الوحدة العربية، والقضية القومية عموماً، إحدى الجوانب الأساسية للصراع الذي نشب في الحزب قبل المؤتمر الثالث وبعده، والذي انتهى بالانقسام الكبير الذي وقع في أوائل السبعينيات وأدى إلى نشوء حزبين شيوعيين: الحزب الشيوعي السوري، والحزب الشيوعي السوري (المكتب السياسي)، وانعكس ذلك في العديد من المواقف والمقالات والتعليقات التي حفلت بها صحافة الحزب ووسائل الإعلام العربية المختلفة.

وقد أصبح موقف الحزب واضحاً بشكل كامل بعد انقسام عام ١٩٨٥ والذي أدى مجدداً إلى وجود حزبين كل منهما يحمل اسم الحزب الشيوعي السوري. وانعكس ذلك، بقوة، في وثائق المؤتمرات السادس والسابع الموحد والثامن، وفي الوثيقة البرنامجية، وأصبحت الوحدة أحد الشعارات الأساسية التي يناضل الحزب في سبيلها. وكان شعار الوحدة، يتصدر صالات هذه المؤتمرات، ويقف على مستوى واحد، مع شعار الاشتراكية.

لقد تطور موقف الحزب من قضية الوحدة، مع تطور مراحل النضال: ففي الوثيقة البرنامجية الأولى التي صدرت في تموز ١٩٣٠ لا نجد أية إشارة إلى موضوع الوحدة. والنص الوحيد الذي يتحدث عن التضامن، يقول:

«فللقضاء على الاستعمار، يجب أن يسود الإخاء والتضامن بين جميع الشعوب المظلومة، وإيجاد جهة متحدة بينها للنضال ضد الاستعمار، وأن تتحد مع طبقة العمال العالمية التي هي العدو الأكبر للاستعمار، وذلك للقضاء على الاستعمار وسحقه سحقاً نهائياً». وفي عام ١٩٣٤ خطا الحزب الشيوعي خطوة هامة، فقد عقد في مدينة زحلة اللبنانية مؤتمر لمثقفين شيوعيين وقوميين عرب وغيرهم، وصدر عنه بيان يحمل العنوان التالي: «في سبيل الوحدة العربية». وتناول هذا البيان التطور التاريخي للأمة العربية، وبين أن الدين كان عامل التوحيد والدافع للرقي والفتوحات. وأوضح أنه رغم

مرحلة التراجع والتفكك، فقد بقيت عوامل الوحدة تعمل فيها من حيث لا تشعر، فكانت اللغة العربية والعادات العربية الواحدة شاملة جميع الأقطار العربية من غير استثناء. وظهرت نتيجة عملها في القرن التاسع عشر مع اشتداد نزعة القومية في العالم العربي.. ويتابع فيقول «أما اليوم، فقد بدأ الشعور القومي يظهر بطريقة نضالية، وبدأت الأمة العربية ترفع عنها كابوس الاستعباد، بجهود شعوبها الجبارة، فلم يبق إلا أن نعرف الطريق الذي يجب أن تسلكه لتتم به الوحدة العربية...».

وطرح البيان برنامجاً من أربعة عشر نقطة تقول:

١ ـ القضية العربية قضية قومية بحتة، وهي قضية أمتنا العربية.

٢ـ أمتنا العربية هي القاطنة في العالم العربي والمرتبطة بصلات اللغة والثقافة والتاريخ والتقاليد والمصالح والآمال الواحدة.

٣ـ وطننا العربي هو البلاد الواقعة ضمن الحدود التالية: جبال طوروس والبحر المتوسط من الشمال، والمحيط العربي وجبال الحبشة وصعيد السودان والصحراء الكبرى من الجنوب. والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط عند سواحل الشام من الغرب وجبال إيران وخليج البصرة من الشرق.

٤ـ العربي هو كل من لغته الأصلية العربية أو يسكن الأقطار العربية، وليست له في الحالتين أية عصبة تمنعه من الاندماج في القومية العربية.

٥ـ هدف القضية العربية إيقاظ أمتنا وتنظيم عناصرها في دولة مستقلة متحدة متحضرة.

٦ ـ القضية العربية وحدة تامة لا تتجزأ ولا يمكن أن تتنافر أجزاؤها.

٧ـ كل عصبة إقليمية أو جنسية أو طائفية تنشأ في وطننا العربي هي قوى هدامة يجب القضاء عليها أو إذابتها في العصبة القومية الجامعة.

٨ ـ البلاد العربية ملكنا، وكل اعتداء عليها اعتداء على أنفسنا.

٩ـ لأمتنا العربية تاريخ مجيد، ولها على المدنية فضل كبير فنحن نفتخر بكوننا عرب.

١٠ـ أشد أعداء بلادنا الاستعمار والفقر والجهل والرجعية الاجتماعية والتعصب الديني، فلنحاربها بكل جهودنا.

١١ـ لا يفصلنا عن إخواننا العرب، دين أو مذهب، بل تتحد عقائدنا في خدمة قضيتنا.

١٢ ـ حياة بلادنا برفاهها الاقتصادي، فليكن هذا هدفنا في جميع أعمالنا .

١٣ـ كل من يخل بواجبه نحو أمتنا هو عضو فاسد في جسمنا، فلنقطعه ولندسه بأقدامنا .

١٤ـ تدخل الدين في السياسة والدولة أساس مصائب بلادنا، فواجبنا أن نسعى لفصلهما فصلاً تاماً.

بعد ذلك يأتي البيان الذي يقع في أكثر من سبع صفحات كبيرة على شرح العديد من القضايا : الموقع والتاريخ والمصلحة، العراقيل وكيف نذللها، كيف تبدأ، الهدف المنشود، على أي شيء تعتمد... وينتهي البيان بالقول: «إن خلاصنا لا يأتي دفعة واحدة، وهذا لايغير شيئاً من هدفنا الذي نرمي إليه، فكلما تحرر قسم منا يساعد القسم الآخر على التحرر، إلى أن يأتي يوم نسير فيه معاً إلى الأمام».

إن عدونا واحد، هو الاستعمار، ويجب أن يكون هدف كل الدول الخاضعة للاستعمار، أو لأي شكل من أشكال النفوذ الأجنبي واحداً، وهو مقاومة الاستعمار والنفوذ الأجنبي...»

وفي عام ١٩٣٦ التقى مسؤولون شيوعيون من العراق وسورية وفلسطين وأصدروا بياناً إلى جميع أبناء شعوب الشرق العربي نددوا فيه بما سمي في حينه بالحكم الوطني والاستقلال الذاتي للعراق. في ظل الاحتلال البريطاني ومما جاء فيه:

«هل هذه هي الوحدة التي يريدون منا تأييدها؟ أم هل الوحدة أن يصير الشعب والمخلصون من قادته إلى هذا المصير المؤلم، وهل من الحق أن نلحق نحن شباب هذا الجيل الشاعرين بكل المساوىء الواقعة على أكتافنا من المسؤوليات الاجتماعية، هل من الحق أن نركض وراء وهم الوحدة التي يدعو إليها من لا يهمهم مصالح شعوبهم ومستقبل مجتمعهم...»

«نحن لم نعد نرى من نوع الدعوة إلى الوحدة التي كانت تدعو إليها عصابات المتآمرين، غير استهتار بشعوبنا وتاريخنا ومستقبلنا، لم نعد نرى في الوحدة غير توحيد نضال جماهير الشرق العربي ضد الإمبرياليزم والاستعمار والحروب، مستمدين قوتنا من تنظيم مجتمعات شعوب الشرق العربي على الأساس الذي يلائم روح العصر ويوافق أشكال التنظيم والنضالات القائمة في العالم، ومستمدين قوتنا من تاريخ الشرق العربي ومن الاندماج في العمل على رفع البؤس والشقاء والأمراض اللاحقة بشعوبنا...».

وهكذا يتبين بوضوح، أن مهمة النضال ضد الاحتلال هي المهمة الأولى.

وفي سنوات الثلاثينيات، ركز الحزب الشيوعي السوري على شعار الوحدة السورية. فقد كان مخطط الاحتلال تقسيم سورية إلى عدة دويلات: دولة دمشق، دولة حلب، دولة الساحل، دولة جبل العرب، وبذلت محاولات لإيجاد دولة الجزيرة. وقد خطا الاحتلال الاستعماري الفرنسي، خطوات جدية في هذا المجال، فقد توجه أولاً لفصل لبنان عن سورية، وبدأ بوضع أسس الدويلات السورية المذكورة. وكان موقف الحزب من هذا المجال منسجماً مع مواقف القوى الوطنية كالكتلة الوطنية وغيرها من الأحزاب.

فقد نشرت «نضال الشعب» في عددها العاشر الصادر في الأول من نيسان ١٩٣٦ كلمة الحزب حول الوحدة السورية. وقدمت لها بما يلي: «على إثر حوادث سورية الأخيرة والمفاوضات التي جرت بين دي مارتيل[٧] والكتلة الوطنية والتي انتهت بتأليف وفد للذهاب إلى فرنسا للمفاوضة، ارتفعت الأصوات من مختلف الجهات اللبنانية والعلوية والدرزية وغيرها أيضاً طالبة وحدة البلاد السورية التامة.

«في الوقت نفسه عقد فريق من التجار والمشتغلين بالسياسة مؤتمراً أطلقوا عليه اسم (مؤتمر الساحل)، لم ينته إلى نتيجة ملموسة. إذ إن قسماً كان يريد الوحدة السورية وقسماً آخر يريد إلحاق الأقضية الأربعة بسورية وإبقاء لبنان منفصلاً، وقسماً آخر يريد الرجوع إلى لبنان الصغير وجعل بيروت مرفأ حراً...»».

تجاه هذه الحوادث، خصوصاً مايرتبط فيها بلبنان والوحدة السورية، لم ير حزبنا بدأ من إعلان موقفه بالنداء التالي:

«جزأ الاستعمار الأوربي بلادنا العربية إلى دويلات وولايات، ففصل بين فلسطين وشرق الأردن والعراق من جهة وبينها وبين سورية من جهة أخرى. وسورية التي شطر عنها المستعمرون جزءها الجنوبي، فلسطين، جزأها الاستعمار الفرنسي أيضاً تجزئة معيبة، فخلق فيها دولاً وألوية «مستقلة» لم يكن للبلاد عهد بها من قبل.

«ولأجل تبرير هذه التجزئة تذرع رجال الاستعمار بحجج واهية لا تستند إلى أساس تاريخي أو اقتصادي ولا قومي أو ثقافي، وغايتهم الحقيقية من وراء ذلك، تسهيل اقتسامها من جهة وإضعافها لكي يسهل عليهم حكمها، من جهة أخرى.

---

[٧]ــ المندوب السامي لفرنسا في سورية ولبنان.

«وقد عمل رجال الاستعمار، بمعاونة بعض النفعيين والمرتزقة الذين لا تخلو منهم أمة، على خلق فوارق موضعية بين الجزء والآخر من البلاد واجتهدوا ما بوسعهم الاجتهاد لتغذية هذه الفوارق، ولم يحجموا عن استعمال مختلف أساليب الإرهاب والضغط والتبشير لمنع الشعب من إبداء رأيه، حتى إنهم عزلوا على الفور أحد الموظفين لأنه تجاسر على الاشتراك بتوقيع برقية يطلب الوحدة السورية.

«ولكن الشعب الذي قاسى وما يزال يقاسي، أوجع النتائج من جراء هذه الأوضاع الشاذة المخالفة لرغبة البلاد الطبيعية لم تزده هذه التدابير إلا تمسكاً بوحدة بلاده وتعلقاً بوصل أجزائها المبعثرة لأنه أدرك أن التجزئة فوق ما تجره على الشعب من الضعف السياسي والمعنوي والوطني، وفوق ما تخلق من بلبلة في صفوفه، وتفسح المجال للدساسين والنفعيين ليمارسوا أعمالهم بغاية السهولة، تحمله نفقات أربع حكومات، كل منها مبطنة بجهاز آخر من المستشارين والمتعاونين والمفتشين الفرنسيين ذوي الرواتب الضخمة يتناولونها من جيوب هذا الشعب، المنهوك القوى بسبب الضرائب الفادحة المباشرة وغير المباشرة».

«إن شعبنا لا يبلغ عدده ثلاثة ملايين لا طاقة له على احتمال مثل هذه التدابير، فضلاً عن البواعث القومية والتاريخية والاقتصادية التي تقضي بضرورة وحدة سورية».

كان هذا الجانب من نضال الحزب الشيوعي السوري، واضحاً، وكان النضال ضد سلخ لواء إسكندرون جزءاً من هذه السياسة الوطنية المبدئية. فقد وقف الحزب ضد المؤامرة الإفرنسية ـ التركية، التي قضت بضم لواء إسكندرون، وبضمنه، مدينة أنطاكية إلى الكيان التركي، مقابل موقف تركي ممالىء للحلفاء في الحرب العالمية الثانية. وشكل الحزب لجنة وطنية، إضافة إلى الدور الوطني الهام الذي لعبته منظمة الحزب في مدينة إسكندرون لفضح هذه المؤامرة وتعريتها.

في ١٨ كانون الأول ١٩٣٧ أصدرت اللجنة المنطقية للحزب الشيوعي في لواء إسكندرون بياناً إلى شعب اللواء جاء فيه:

«... إن الحزب الشيوعي السوري الذي يناضل في سبيل الحرية الوطنية والاشتراكية لجميع سكان اللواء، وفي سبيل حكومة ديمقراطية إنسانية، كان أول من احتج على قرار عصبة الأمم، ذلك القرار الجائر الذي يفصل اللواء عن وطنه الأم

سورية، والذي قُرِّر رغماً عن إرادة شعبي سورية واللواء، والذي يعرض حياة اللواء الوطنية والاقتصادية إلى أخطار كثيرة».

«ورغماً عن هذا القرار الموقع من قبل الحكومتين التركية والإفرنسية نجد أنفسنا منذ أيام قلائل أمام سلسلة من تحديات وهجمات تقوم بها حكومة أنقرة وعملاؤها الكماليون الذين يبتغون استعباد شعب اللواء، وأكبر دليل واضح على هذه التحديات المتابعة، القرار القاضي بمنع رفع العلم السوري على الدوائر الرسمية ابتداء من ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٣٧، التاريخ الذي ابتدأ فيه تطبيق النظام الجديد».

يشكل جلاء جيوش الاحتلال الأجنبي عن الأراضي السورية في ١٧ نيسان ١٩٤٦ أساساً قوياً لطرح قضية الوحدة العربية، فقد أصبحت سورية بلداً مستقلاً، وأصبح شعبها حراً في تناوله هذه القضية أو تلك. وكانت السنوات التي تلت الجلاء، سنوات نضال شاق ومعقد، ضد مختلف المشاريع الاستعمارية التي هدفت إلى إسقاط الاستقلال الوليد، وطرحت مشاريع عديدة، منها مشروع سورية الكبرى والهلال الخصيب. ووقف الحزب بقوة إلى جانب مختلف القوى الوطنية، ضد هذين المشروعين وفند أهدافهما، وهي تطويق سورية وخنق سياستها الاستقلالية.

وعلى نفس الطريق، كانت ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ في مصر، أساساً جيداً وقوياً لتجسيد فكرة الوحدة العربية في الواقع الملموس. وأدى هذا التطور إلى نشوء أرضية واقعية لطرح شعار الوحدة. فالبلدان أصبحا مستقلان تماماً، وينهجان نهجاً وطنياً معادياً للأحلاف الاستعمارية، ونشأ تقارب بين البلدين والشعبين.

على أرضية هذا الواقع، أخذ شعار الوحدة يطرح من جديد، وبقوة. وقد درس الحزب الشيوعي السوري بعناية فائقة، هذه التطورات ووجد فيها أساساً جيداً لطرح موضوع الوحدة.

وطرحت القضية في اجتماع اللجنة المركزية، وجرى نقاش واسع ومعمق وصدر قرار عن الوحدة العربية ننشر نصه الكامل نظراً لأهميته التاريخية.

قرار عن قضية الوحدة العربية

اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان في دورة عادية عقدت خلالها عدة اجتماعات في ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ نيسان ١٩٥٦ وكذلك يومي ٦ و ٧ أيار من

نفس السنة، وأصدرت العديد من القرارات منها قرار حول الوحدة العربية، وفيما يلي نصه الكامل:

إن طموح البلدان العربية إلى وحدتها ليس وليد ظروف طارئة أو رغبة عاطفية، ولا نتيجة لدعاية فكرية قام بها حزب أو فريق من الناس، بل هو مظهر لحاجة واقعية، ونتيجة لتطور تاريخي موضوعي مستقل عن الرغبات والإرادات. فإن الأرض المشتركة، ووحدة اللغة، والتاريخ المشترك، والتكوين النفسي المشترك الذي ينعكس في الثقافة المشتركة، والأوضاع الاقتصادية التي يتمم بعضها بعضاً، كل هذه العوامل الدائمة التي تكونت تاريخياً والتي تتطور، رغم ما أقيم ويقام في وجهها من عوائق مصطنعة، في اتجاه موحد يؤدي إلى ازدياد التقارب بين مختلف أجزاء البلاد العربية، هي الأسس الواقعية الموضوعية التي تنبثق منها قضية الوحدة العربية.

لقد كان الاستعمار وما يزال العائق الرئيسي في وجه الوحدة العربية، ولهذا فإن شعار تضامن الشعوب العربية للتحرر من نير الاستعمار وانتزاع الاستقلال الوطني، كان الشعار النضالي الذي تمليه الظروف الواقعية. وقد لعب هذا الشعار دوراً كبيراً في فضح المستعمرين وإحباط مناوراتهم الرامية إلى فصل شعار التحرر الوطني العربي عن شعار الوحدة العربية، وإلى تشويه فكرة الوحدة العربية ومسخها وتحويلها إلى اتحادات جزئية بين أقطار عربية مكبلة بقيود معاهدات استعمارية (مثلاً: العراق والأردن)، وبين أقطار عربية مستقلة (مثلاً: سورية ولبنان)، وذلك لإرجاع الاحتلال إلى هذه الأخيرة (مشاريع سورية الكبرى والهلال الخصيب واتحاد القطرين... إلخ). إن الشعوب العربية تدرك اليوم، بشكل واضح، أنه لا يمكن تحقيق الوحدة العربية إلا على أساس الديمقراطية والتحرر التام من الاستعمار.

فتبعاً لانحسار الاستعمار عن العالم العربي ينفتح، كما تبرهن التجارب نفسها، الطريق نحو تحقيق الوحدة العربية.

فإن انتصار عدد من البلدان العربية في معركة التحرر من نير الاستعمار، وفي الحصول على استقلالها، وانتهاج هذه البلدان، وفي طليعتها مصر وسورية، سياسة تحررية قوامها ممارسة السيادة الوطنية والنضال ضد التدخل الأجنبي وضد الأحلاف الاستعمارية، كل ذلك أدى إلى انتقال شعار الوحدة العربية إلى الصعيد العملي كشعار واقعي ملموس.

إن الحجر الأساسي في الانطلاق نحو الوحدة العربية هو التعاون المتين بين البلدان العربية المتحررة، وخصوصاً بين سورية ومصر، وتوثيق الروابط بينها في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية إلى جانب تقوية التضامن مع الشعوب العربية التي ما تزال رازحة تحت نير العبودية الاستعمارية، في نضالها الباسل من أجل حريتها واستقلالها الوطني.

ولا ريب أن نجاح الشعب العراقي الشقيق في نضاله الشاق لتحطيم حلف بغداد، والخلاص من الاحتلال الأجنبي سيزيل عائقاً كبيراً من طريق التعاون العربي ويفتح السبيل للسير بخطا أسرع نحو الوحدة العربية الشاملة.

وإذا كان طغاة الاستعمار العالمي، بمعونة صنيعتهم إسرائيل والصهيونية العالمية، يحاربون التضامن العربي وفكرة الوحدة العربية بمختلف الوسائل، لأنهم ينظرون إلى البلدان العربية على أنها مراكز استراتيجية ومنابع للنفط الذي يغتصبونه من أصحابه العرب، فإن المعسكر الاشتراكي العالمي، وفي طليعته الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية، وكذلك الدول التي تحررت من الاستعمار في آسيا وإفريقيا وأخذت تنهج سياسة قوامها السلم والاعتراف بحق الشعوب في السيادة والاستقلال تؤيد جميعها نضال الشعوب العربية في سبيل تحررها الوطني الكامل وفي سبيل الوحدة العربية، لأن قضية الوحدة العربية هي إحدى قضايا السلم والحرية في العالم.

ولاريب أن توطيد العلاقات الأخوية والوثيقة بين البلدان العربية المتحررة، وتحرير البلدان العربية التي ما تزال رازحة تحت نير الاحتلال الأجنبي، والسير إلى أمام في طريق الوحدة العربية الشاملة، كل ذلك سيخلق ظروفاً أنسب لإنجاز المهمات الوطنية الكبرى الموضوعة أمام سورية ولبنان، والسير قدماً بالوسائل السلمية في تحقيق الإصلاحات الديمقراطية الجذرية التي تجابهها بلادنا، وبناء الأسس اللازمة للتطور السلمي نحو الاشتراكية.

٧ أيار ١٩٥٦

سارت الأمور سريعاً، وأصبح شعار الوحدة، شعاراً شعبياً طاغياً، وفي ذات الوقت، نمت قوة الحزب الشيوعي وشعبيته نمواً كبيراً، فخلال سنوات ٥٤ـ ٥٨، تحول الحزب الشيوعي، إلى قوة وطنية على نطاق البلاد، وامتد نفوذه إلى أوساط واسعة من العمال والفلاحين والمثقفين، وأخذت قوى برجوازية كبيرة وخاصة البيروقراطية والطفيلية وكذلك

قوى إقطاعية، تخشى من نفوذ الحزب، خاصة بعد الانتخابات التكميلية التي جرت في دمشق، وتقدم إليها مرشح القوى الوطنية رياض المالكي، ومرشح الإخوان المسلمين، المرشد العام الشيخ مصطفى السباعي، ونجح رياض المالكي. كما نجح مرشح القوى الوطنية رياض الكلاليب في الانتخابات التكميلية التي جرت في حمص، وظهر وجه الحزب الشيوعي. وفي هذه الظروف، ظروف النضال الوطني الشعبي الواسع، أخذت قوى كثيرة تتطلع إلى الوحدة العربية وبشكل ملموس إلى وحدة سورية ومصر.

وعقدت اللجنة المركزية اجتماعاً في كانون الثاني ١٩٥٨، لبحث موضوع الوحدة وأصدرت قراراً هاماً جداً، اعتمد على القرار السابق الذي أتينا على ذكره، وأقر فكرة الاتحاد بين سورية ومصر، وابتعد عن شعار الوحدة.

وجاء في هذا القرار شرح مفصل للمحتوى الأساسي للقومية العربية الذي هو محتوى تقدمي ديمقراطي، وكذلك شرح للقرار السابق، وأعلن في ضوء ذلك:

«وعلى هذه الأسس الواقعية الموضوعة تقوم اليوم فكرة الاتحاد بين مصر وسورية. إن الاتحاد بين القطرين العربيين الشقيقين المتحررين، لا يعبر فقط عن أعز أماني الشعبين المصري والسوري، بل عن أماني ثمانين مليون عربي من الخليج إلى المحيط..» . وتناول القرار دور سورية في تعريف القومية العربية، ثم كفاح مصر ضد الاستعمار، وإن تحرر البلدين من الاحتلال الاستعماري فتح الطريق للاتحاد، وإن هذا الاتحاد يشكل قوة كبرى بوجه أحلام إسرائيل التوسعية، ويعزز قضية السلام والحرية، وإنه يجب أن يبنى على أسس طبيعية متينة. وينتهي القرار بالفقرة التالية:

«ولذلك، فمن أجل اختيار أفضل الطرق وأنجع السبل لتحقيق الاتحاد، وبلوغ هذه الأهداف والآمال الكبرى التي تعقدها عليه عشرات الملايين من العرب، الذين يشخصون بأبصارهم إلى القاهرة ودمشق، ينبغي أن تبادر الحكومتان المصرية والسورية، من دون إبطاء، إلى تأليف لجنة مشتركة لدرس أشكال الاتحاد من جميع النواحي والزوايا، بحيث يقوم على أسس متينة واقعية تأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعية في كل بلد، وتعمل على التوفيق والتنسيق بينهما، لسد كل ثغرة يمكن أن ينفذ منها أعداء الاتحاد للعمل على وضع العصي في عجلاته».

«إن قضية الاتحاد قضية جدية وحيوية، ومن الواضح أن تقوية الجبهة الوطنية وتعزيزها، عنصر ضروري لتحقيق الاتحاد. كما أن تضافر الجهود بين جميع الوطنيين المخلصين، في مصر وسورية، بأن يحل قضية الاتحاد حلاً صحيحاً سليماً، وبذلك

تتحقق أمنية غالية وحلم عزيز على ثمانين مليون عربي ويصبح الاتحاد بين مصر وسورية حجر الزاوية في الوحدة العربية المنشودة، ويتيسر لأمتنا العربية ذات التاريخ المجيد أن تستعيد مكانتها وتستأنف القيام بقسطها من تطور الحضارة وتقدم الإنسانية».

ولكن الأمور سارت باتجاه آخر، فقد قام وفد يمثل الجيش العربي السوري، بزيارة القاهرة وطالب بإقامة الوحدة الكاملة، كما قام وفد حكومي وتوجه بنفس الطلب. وقد جرت بين الوفدين والرئيس جمال عبد الناصر مباحثات مطولة. انتهت إلى إعلان الوحدة السورية - المصرية. وكان ذلك في ٢١ شباط ١٩٥٨ . وفي ضوء هذا الإعلان أصدر الحزب الشيوعي برنامجه الذي احتوى ثلاثة عشر نقطة، وأبرزها هي النقطة الأولى التي تقول «يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، في الحكم والإدارة الظروف الموضوعية في كل من سورية ومصر، وذلك عن طريق إنشاء برلمان وحكومة للإقليم السوري، وبرلمان وحكومة للإقليم المصري، إلى جانب برلمان مركزي وحكومة مركزية تهتم بقضايا الدفاع الوطني والسياسة الخارجية وغيرها من القضايا المشتركة، وينبغي أن تتألف جميع هذه الهيئات بالأساليب الديمقراطية، على أساس انتخابات نيابية عامة حرة بدون قيد. وشملت النقاط الأخرى قضايا متعددة وهي منشورة بالنص في فصل آخر من هذا القسم. وشكل هذا البرنامج، عملياً، صيغة اتحادية، انسجاماً مع توجه الحزب. ونظرت إليه القيادات المصرية وعدد من القيادات السورية على أنه عمل ضد الوحدة التي تم الاتفاق عليها، خاصة أن ممثل الحزب في البرلمان الرفيق خالد بكداش غاب عن الجلسة التي أقرت مشروع الوحدة الكاملة بين القطرين».

استناداً إلى ذلك شنت أجهزة الأمن السورية، حملة هوجاء ضد الحزب الشيوعي بدأت ليل الثلاثين من كانون الأول ١٩٥٨ واليوم الأول من عام ١٩٥٩ واستمرت حتى سقوط الوحدة وإعلان الانفصال في أيلول ١٩٦١ . وفي إطار هذه الحملة سقط العديد من شهداء الحزب تحت التعذيب.

في عام ١٩٦١ أصدر الحزب الشيوعي برنامجاً جديداً أخذ بالحسبان جميع التطورات التي تمت خلال السنوات الثلاث من تجربة الوحدة، سواء بالنسبة للاصطفافات التحالفية، أو لشكل التعامل مع الشعب السوري، وسمي: النقاط الثماني عشر: البرنامج السياسي الجديد للحزب الشيوعي السوري، ويقوم جوهر هذه النقاط في نص النقطة الأولى التي تطالب بـ «إعادة النظر بأسس الوحدة» وتناول النقاط

تفاصيل هذه الموضوعة، وخاصة تأكيد ضرورة «تنظيم العلاقات بين الإقليمين على أسس تراعى فيها الظروف الموضوعية التي تكونت تاريخياً في كلا القطرين، وبضمن ذلك إنشاء برلمان وحكومة لسورية، ينبثقان عن انتخابات ديمقراطية حرة مباشرة وعامة ويتمتعان بالحرية الكاملة في تقرير شؤون البلاد، سوى الشؤون المشتركة التي يتفق عليها الإقليمان، على أن تكون من صلاحيات حكومة مركزية تتألف من ممثلي القطرين على قدم المساواة التامة».

وفي هذا البرنامج المنشور في مكان آخر من هذا الكتاب، كما يظهر من النصوص، تأكيد على فكرة الاتحاد، وجعل روابطه بسيطة جداً، وجعل صلاحيات الحكومة المركزية أقل ما يكون.

عصفت الخلافات الداخلية بمسيرة الوحدة، وأدى الاستياء الواسع الذي انتشر بين جماهير الشعب السوري، إلى إضعاف الرابطة الوحدوية، الأمر الذي ساعد على نجاح مؤامرة الانفصال.

ومنذ ذلك الحين أخذت نظرة الحزب إلى موضوع الوحدة تتغير. ففي تقرير اللجنة المركزية المقدم إلى المؤتمر الثالث، قدمت معالجة واسعة حول موضوع الوحدة. وذكر في التقرير أن جوهر الخلاف مع قيادة الجمهورية العربية المتحدة والنظام الناصري، لم يكن الموقف من الوحدة العربية، وإنما الموقف من بقاء أو عدم بقاء الحزب الشيوعي السوري، فقد اتخذ قرار بحل الأحزاب، ورفضت قيادة الحزب هذا القرار، وهنا كان الخلاف، وكانت الملاحقات، والسجن والتشريد وإسقاط الجنسية والتعذيب والموت في أقبية التعذيب.

أما بشأن الوحدة فقد جاء في التقرير «إن الوحدة العربية لابد أن تتحقق، عاجلاً أم آجلاً، لأن الطبقة العاملة يزداد دورها وسوف تنتصر في جميع الأقطار العربية، وعندئذ يصبح السبيل مفتوحاً لتحقيق الوحدة ويمكن طبعاً أن تأخذ أشكالاً متعددة، وربما كان أحدها: اتحاد الجمهوريات العربية الاشتراكية.

ويتابع التقرير ويقول «وهذا لا يتعارض مع إمكانية إقامة وحدة عربية بين بلدين عربيين أو أكثر قبل انتصار الاشتراكية فيهما»، إذ إن خلق مناخ وحدوي بين البلدان العربية المتحررة التقدمية والسير على خطوات تنسيق في القضايا الاقتصادية والعسكرية والثقافية والتعاون الوثيق في النضال ضد الاستعمار والصهيونية، كل ذلك يمكن وينبغي أن يؤدي إلى إقامة أشكال ملائمة للوحدة».

إن الوحدة العربية، لم تكن شعاراً أساسياً من شعارات الحزب الشيوعي، بل كان شعاره الأساسي هو العمل والنضال من أجل بناء الاشتراكية. وكانت هذه القضية في صلب اهتمام قيادة الحزب، وقد جرى نقاش بين الرفيق خالد بكداش وبيني حول هذا الموضوع، وكان من رأيه أن بناء الاشتراكية في بلد صغير أسهل منه في دولة كبرى واسعة الأرجاء، وكان يقدم أمثلة من البلدان التي سلكت طريق التحول الاشتراكي مثل جمهورية اليمن الديمقراطية، ونيكاراغوا، وكان مقتنعاً بهذه الموضوعة، وحاول كثيراً تسويقها لدى القيادات السوفييتية. ومن مناقشاته في هذا الموضوع، أن من الأفضل للاتحاد السوفييتي أن يعمل ويصرف في بلدان صغيرة، من أن يصرف في بلدان كبيرة. وكان يقدم مثال الهند، البلد الكبير المترامي الأطراف ذي الملايين المتعددة، ويقول: مهما قدم الاتحاد السوفييتي، فالفقر مستمر والتنمية متأخرة، بينما بمصاريف بسيطة، نمت اليمن الديمقراطية ونمت الصومال وغيرهما.

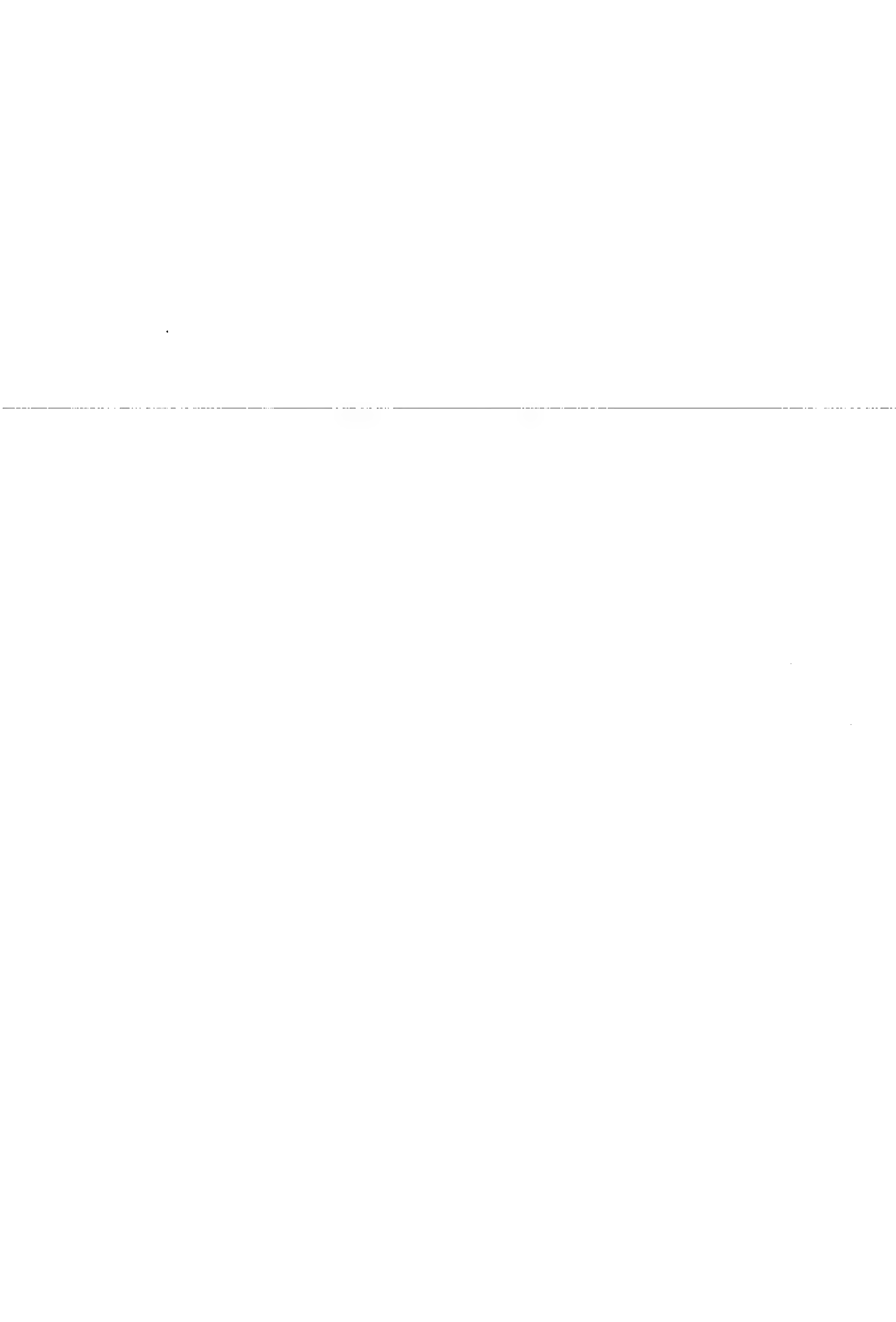
وكان اهتمام الحزب منصباً في تلك السنوات على موضوعة أخرى لا تقل أهمية، وهي موضوعة الدول الديمقراطية، وهي موضوعة درست فيما بعد وأقرت في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي. وقوامها أنه يمكن بناء تحالف يشمل البرجوازية الوطنية والقوى الوطنية الأخرى، وقوى ديمقراطية مستقلة والحزب الشيوعي بدعم من قيادة عسكرية وطنية، يقيم نظاماً ديمقراطياً تقدمياً، يحقق مطامح الشعب في التقدم الاجتماعي.

وكانت ظروف سورية مؤهلة لذلك، وأخذ يبرز مثل هذا التحالف في الواقع العملي، وأخذت هذه العملية تنمو وتتطور. وقد قطع هذا التطور بظهور فكرة الوحدة الاندماجية.

هاتين الموضوعتين كانتا مسيطرتين على فكره. وكنا نحن أعضاء المكتب السياسي، نناقش ولكن بدون موقف ثابت واضح. فقد تركت الأساليب التي مورست في سورية وفي مصر، أثراً سلبياً وجرحاً عميقاً، أعمى البصر والبصيرة.

وفيما بعد أخذ هذا الموضوع يتفاعل إلى جانب قضايا أخرى، ترتبط بالقضية القومية، كالأمة ومكوناتها، والحزب الشيوعي العربي الواحد، وشكلت جوهر الخلاف العميق في الحزب الذي أدى إلى الانقسام الكبير الأول في أوائل السبعينيات.

خلال فترة الوحدة، قمت بدراسة حول الموضوع، وصدرت هذه الدراسة بكراس خاص، تحت اسم محمد رشيد أشرف، ثم أعيد إصدارها في عدد دراسات اشتراكية بتوقيع يوسف الفيصل.



الفصل السادس والعشرون

الانفصال

في ٢٨ أيلول ١٩٦١ حدث انقلاب عسكري أدى إلى انفصال سورية عن الجمهورية العربية المتحدة وإلى استعادة كيانها جمهورية مستقلة ذات سيادة. وقد أعلن البلاغ رقم ١ أن «القوات المسلحة السورية قررت القيام بتصحيح الوحدة من انحرافاتها ووضع حد للتسلط المصري». وجرت مفاوضات مع المشير عبد الحكيم عامر، انتهت إلى القطيعة التامة، ورُحِّل المشير وقائد الجيش الأول الفريق جمال الفيصل وعدد من الضباط والسياسيين إلى مصر. كما أصدر عبد الناصر أمراً إلى القوات المصرية التي كانت متوجهة إلى سورية بالعودة إلى مصر، وأعلن «ليس المهم بقاء الوحدة، بل الأكثر أهمية بقاء سورية نفسها.».

كانت الشخصية العسكرية المحركة في هذه العملية العقيد عبد الكريم النحلاوي بالتعاون مع مجموعة من الضباط الدمشقيين. وكانت رتب هؤلاء لا تؤهلهم لتسلم مركز قيادة الجيش، ولذلك أتوا بضابط متقدم يعمل في الخدمات هو اللواء عبد الكريم زهر الدين وأسموه قائداً للجيش.

تبعت الحركة عدة نشاطات سياسية، أولها تعيين حكومة مؤقتة برئاسة مأمون الكزبري، تبعها وزارة أخرى برئاسة عزة النص، وجرى تشكيل لجنة لوضع دستور جديد للبلاد، وتنظيم انتخابات برلمانية واستفتاء على الدستور في وقت واحد. واجتمع المجلس وأقر الدستور وانتخب ناظم القدسي رئيساً للجمهورية. وكلف القدسي الدكتور معروف الدواليبي بتشكيل حكومة جديدة.

اجتمع عدد من السياسيين السوريين وأصدروا بياناً بتأييد حركة الجيش. ومما جاء في هذا البيان:

«عقد في دمشق اجتماع ضم عدداً من العاملين في الشؤون القومية، استعرضوا فيه الوضع العربي العام والوضع السوري الخاص والحالة الدولية، بعد قيام الجيش العربي الأبي في سورية بعمله المجيد، فأجمع الرأي على تأييد القوات المسلحة السورية في ثورتها المباركة وعلى توجيه الشكر إليها، ضباطاً وضباط صف وجنوداً. كما أجمع الرأي على أن حكم الطغيان والتسلط والانحراف الذي أقامه الرئيس جمال عبد الناصر في كل من سورية ومصر هو الذي أفقد الوحدة بينهما معانيها السامية، فأبعدها عن أن تكون نواة للوحدة العربية الشاملة الصحيحة التي آمن بها ويتوق إليها كل عربي والتي لا تقوم إلا على المساواة والتكافؤ بين البلدان العربية.

كذلك أجمع الرأي على أن هذا الحكم الذي استهدف تشويه فكرة القومية العربية والوحدة العربية وخنق الحياة السياسية والديمقراطية ووأد الحريات العامة على الرغم مما بذل من نصح وتنبيه وتحذير، هو الذي دفع إلى ثورة الجيش العربي في سورية تلبية لنقمة الشعب واستجابة لإرادته بإقامة حياة ديمقراطية دستورية حرة يمارس فيها سيادته ويتمتع بحرياته العامة في التنظيم السياسي والنقابي والاجتماعي...».

التواقيع: أحمد قنبر، أحمد الشراباتي، أسعد هارون، أكرم الحوراني، بشير العظمة، حامد الخوجا، حسن مراد، خالد العظم، رشاد حبري، سهيل خوري، صبري العسلي، صلاح البيطار، فؤاد قدري، محمد العايش، نجيب الأرمنازي، هاني السباعي.

تتالت البيانات ومنها بيان من شكري القوتلي وآخر من فارس الخوري وبيانات أخرى كثيرة، وكلها يؤيد حركة الجيش.

والمدقق في هذه الأسماء، يرى فيها تناقضاً غريباً. فأعداء الأمس أصبحوا أصدقاء اليوم. والذين ادعوا الريادة في قضية الوحدة العربية، وافقوا على بيان الانفصال، والذي تنازل لعبد الناصر عن مركزه وأصبح المواطن العربي الأول، عاد إلى سيرته السابقة.

ويقف خلف مواقف هؤلاء الساسة، مصالح طبقية واجتماعية، كما يقف وراء موقف البعض الآخر، مواقف حرص على الديمقراطية وضرورة عودتها إلى سورية.

لقد ارتعبت البرجوازية السورية من تقدم المد الشعبي في الأعوام التي سبقت الوحدة، وهولت بخطر الشيوعية، ولعب الاستعمار دوره في هذا الموضوع، بالمغالاة في وقوع سورية في أحضان الاتحاد السوفييتي، وهكذا تدافعوا جميعاً لتأييد الوحدة،.

واستخدم عبد الناصر هذا الواقع لخنق الحركة الشعبية، وجرى ما جرى من قمع وقتل وسجن. وعندما لم يتحقق لهم ما يريدون، عملوا مع عناصر من الجيش واستغلوا عواطفهم، ودفعوهم للانفصال. أما قادة البعث فقد كان بعضهم مخلصاً لقضية الوحدة، وكان بعضهم الآخر، ينظر إلى القضية بمنظار ضيق، بأن البعث سيصبح سيد سورية، إن لم يكن سيد الجمهورية العربية المتحدة. ولكن تطور الأمور برهن لهم العكس تماماً، وانقلبوا على الوحدة أيضاً.

إن المصالح الطبقية لدى البرجوازية السورية، كانت وراء دفع الأمور باتجاه الوحدة، وهي نفسها كانت وراء التآمر لنسف الوحدة.

وصدر عن الحزب الشيوعي السوري في أوائل تشرين الأول ١٩٦١ البيان الآتي:

أيها المواطنون!

يا أبناء سورية العربية الأبية!

لقد انهار عهد الطغيان والتسلط المصري، فقد سحق الشعب السوري والجيش الباسل حكم الفراعنة الجدد، وتسير سورية الآن في طريق جديدة نحو آفاق أوسع وأرحب.

إن الانتصار الذي حققه الشعب السوري، بالتعاون مع الجيش خلال الأيام القليلة الماضية، هو انتصار تاريخي، وقد أحدث دوياً عظيماً في الشرق العربي وفي جميع أنحاء العالم، وسيكون له أثر كبير.

لقد وجد الشعب السوري في دمشق وحلب واللاذقية وفي كل مدن سورية، في حركة الجيش الأخيرة، تعبيراً عن حقده على الاستعمار والتحكم الفرعوني.

وآزر الجيش الشعب، وأبدى وحدته وتآخيه مع أبناء وطنه. ولكن حكام القاهرة لم يعجبهم هذا المصير، فأرسلوا جنوداً ومظليين لإعادة الاحتلال إلى سورية، ولكن الجيش السوري كان بالمرصاد للجنود الذين وضعهم عبد الناصر في وضع غزاة، وهكذا يتحمل وزر إراقة الدماء العربية بأيدي الجنود العرب، كما يتحمل وزر إراقة دماء عشرات المناضلين في سجون سورية وفي كل مكان.

إن حكام القاهرة يتباكون اليوم على مصير العروبة، وعلى الوضع الذي آلت إليه سورية، ولكن الشعب يعرف أن علاقتهم بسورية، كانت تسلطاً، وقد تسترت زمناً طويلاً بستار الوحدة العربية والقومية العربية والوحدة العربية منها براء.

لقد نكل الحكم الناصري بالسوريين، بالجيش، بالعمال والفلاحين والمثقفين والطلاب وبجميع الفئات الوطنية الأخرى، وقام بتخريب الاقتصاد، وعهد للسيطرة عليه سيطرة تامة لمصلحة البرجوازية المصرية.

وفي عهد الناصرية ضرب الإنتاج الصناعي، وعرقل تنفيذ الاتفاقية الاقتصادية مع الاتحاد السوفييتي، وفي عهدها أيضاً فتحت السجون للألوف وقتل المواطنون الشرفاء في أقبية المباحث واستخدم الأخ ضد أخيه.

وفي عهد التحكم الناصري، ضربت الجبهات الوطنية المناضلة ضد الاستعمار وضرب التضامن العربي ضد الاستعمار وجرى التساوم مع المستعمرين وفتحت الأبواب أمام رساميلهم.

وكان من الطبيعي أن يقاوم السوريون ذلك ببطولة، وكان من الطبيعي أن يكون الحزب الشيوعي السوري في الطليعة، بين الذين قدموا الضحايا وخاضوا معارك النضال ضد الديكتاتورية الناصرية، وتحدوا إرهابها منذ أول عهدها، فقد استشهد في أقبية المباحث تحت التعذيب القائد العربي الكبير وسكرتير الحزب الشيوعي اللبناني الرفيق فرج الله الحلو، وهز مقتله العالم العربي والتقدمي بأسره، كما استشهد تحت التعذيب الرفاق الأبطال سعيد الدروبي ومحيي الدين فليون وجورج عدس.

وبقي عشرات السجناء في سجن المزة يقاسون التعذيب الجهنمي طوال عهد الديكتاتورية الناصرية، وقد عبروا بصمودهم عن مقاومة الشعب السوري وعن روحه البطولية واعتزازه بكرامته.

إن الشعب السوري الذي قاسى محناً كثيرة، والذي حقق انتصاره التاريخي ضد الديكتاتورية، يرى أن خير وسيلة لصيانة هذا الانتصار هو في إقامة حكم وطني ديمقراطي معاد للاستعمار، يستند إلى انتخابات نيابية حرة ينبثق منها مجلس وحكومة للجمهورية العربية السورية، حكم يستند إلى الشعب وقواه الوطنية والتقدمية، ويطلق الحريات الديمقراطية (حرية الرأي والصحافة والأحزاب والجمعيات والنقابات) ويلغي جميع المراسيم والقرارات والقوانين الاستبدادية التي أصدرها الحكم الفرعوني، وتطهير أجهزة الحكم والإدارة من عملاء الديكتاتورية الناصرية، ويعاقب المجرمين الذين أذلوا الشعب وقتلوا خيرة المواطنين في سراديب وأقبية المباحث، ويطلق سراح المعتقلين الوطنيين، ويعيد إلى الخدمة العسكرية الضباط الوطنيين الذين سرحتهم الديكتاتورية الناصرية، حكم ينهج سياسة وطنية معادية للاستعمار

وأحلافه ويعمل للتضامن العربي ضد الاستعمار، ومن أجل الحياد الإيجابي والسلم، ومساندة كل حركة وطنية تحررية، حكم يبعث الاقتصاد الذي خربه ونهبه حكام القاهرة، ويسير بسورية في طريق التصنيع الحقيقي الذي يدعم الاستغلال السياسي، حكم يوطد مكاسب العمال والفلاحين ويعيد لهم ما سلب من حقوقهم وحرياتهم، ويعمل على رفع المستوى المادي والروحي، ويؤدي إلى ازدهار العلم والثقافة والأخلاق ويقضي على بقايا التفسخ والانحلال التي نشرها الحكم الفرعوني في سورية، حكم يكون حكم الشعب حقاً وصدقاً.

والحزب الشيوعي الذي ناضل أبداً ودائماً في هذا الاتجاه، يرى أن مثل هذا الحكم لا يمكن قيامه إلا بالاستناد إلى جبهة وطنية تضم مختلف القوى والاتجاهات الوطنية في أي حزب أو فئة.

وهو يدعو الشعب وجميع الوطنيين لمضاعفة يقظتهم ورص صفوفهم من أجل مقاومة وسحق مؤامرات المستعمرين، ومنع تدخلهم في شؤون سورية، وحماية منجزات الشعب الوطنية والديمقراطية، كما يدعوهم للوقوف بالمرصاد لتحطيم أية مغامرة تلجأ إليها الديكتاتورية الناصرية المهزومة ضد الجمهورية العربية السورية.

عاش شعبنا السوري الأبي!

عاشت ذكرى شهداء الشعب السوري في نضاله ضد الديكتاتورية والاستعمار!

عاش نضال الشعب السوري من أجل الاستقلال والديمقراطية والتقدم الاجتماعي!

لقد وضعت القيادة السورية الموجودة في بيروت هذا البيان، وتعاونت في وضعه مع الرفاق اللبنانيين، وقد كنت على رأس هذه القيادة آنذاك.

لاشك في أن تعابير هذا البيان قاسية، وتحليله ينطوي على شيء من المبالغة، ولكن النظر إلى الأمور في ذلك الحين شيء، وإليها عند كتابة هذه السطور شيء آخر. فقد كتب البيان تحت ضغط الأحداث، وتحت تأثير هول الوقائع، لذلك أتى بهذه الصياغة. والنظر إليه بعد تطورات عديدة سار عليها عبد الناصر والجمهورية العربية المتحدة، والتقارب الوثيق مع الاتحاد السوفييتي، والمعارك الضارية مع إسرائيل يجعل تقدير الأمور تقديراً آخر تماماً.

غادرنا بيروت إلى دمشق، وكان الرفيقان دانيال نعمة وموفق حفار أوائل العائدين، بينما كان الرفيق واصل يتنقل بين دمشق وبيروت، واستقر في دمشق، وبعد أسبوعين،

عدت إلى دمشق، وبدأنا عملنا الحزبي، بشكل سري، نتنقل ليلاً، ونستقر في البيوت نهاراً. وقد سلكت السلطات السورية الجديدة، سلوكاً غير إيجابي تجاه الشيوعيين، فلم تفرج عن سجناء المزة مباشرة، ومنعت خالد بكداش من العودة، واستمر ذلك عدة أشهر، ثم انتزعنا علنية الحزب.

ورغم هذا السلوك تابعنا عملنا الحزبي بنشاط واسع، وكانت أول مهمة تقف أمامنا، إعادة نشاط الحزب وترميم المنظمات، وتنظيم الصلة بالرفاق في العاصمة وفي المدن السورية الأخرى. وعاد الكثير من الرفاق الذين لجؤوا إلى بيروت، واستأنفوا نشاطهم الحزبي والجماهيري والسياسي في مدنهم. وبدأنا بتشكيل لجان قيادية حيث كان ذلك ممكناً. فقد تشكلت لجنة منطقية في دمشق، وكلف الرفيق يوسف نمر بقيادتها، وشكلت لجنة منطقية في حمص بقيادة الرفيق واصل الفيصل، وأخرى في حماة بقيادة الرفيق محمد الحبال، وعاد الرفيق عبدو بكور ليقود منظمة حلب، كما عاد الرفيق محمود عيسى لقيادة منظمة طرطوس، وعاد الرفيق طه الزوزو ليقود منظمة جبلة، وعند إطلاق سراح آخر السجناء الشيوعيين انضم عدد كبير منهم إلى اللجان المنطقية، وقاد بعضهم هذه اللجان.

وكانت المشاركة في الحملة الانتخابية إحدى المهام الأساسية التي تصدًينا لها. ومع إدراكنا لمصاعب الحزب ومعاناته الشديدة خلال الوحدة، وسقوط عدد من الكادر الأساسي، فقد رأينا إن إبراز صوت الحزب وإعلان نشاطه ضرورة مهمة. وهكذا تم ترشيح الرفيق هلال فرزلي في دمشق، والرفيق بشير السبيني في حمص والرفيق الدكتور محمد حاج حسين في اللاذقية، وترشيح الرفيق في حلب، كما تمت ترشيحات أخرى أيضاً. وخاض المرشحون الانتخابات بشكل كامل، ولم يحالف الحظ أحداً منهم. وحاولنا ترشيح خالد بكداش في دمشق، إلا أن سلطات وزارة الداخلية رفضت قبول الترشيح وحالت دون مساهمته في الانتخابات، ومع ذلك ظهرت في صناديق مدينة دمشق أصوات كثيرة لخالد بكداش.

أصدرنا في أوائل كانون الثاني ١٩٦٢ نشرة داخلية تحلل ظروف الانتخابات والقوى التي اشتركت فيها ونتائجها ومهام الشيوعيين، ووزعت هذه النشرة على الشيوعيين، وتتلخص بما يلي:

انتخب في أوائل شهر كانون الأول ١٩٦١ مجلس نيابي جديد في سورية، ومهام هذا المجلس هي وضع دستور للبلاد يحل محل دستور ١٩٥٠ والقيام بأعمال السلطة التشريعية.

إن الاستفتاء على الدستور المؤقت كرس، على نحو دستوري، وضع سورية الجديد كدولة ذات استقلال وسيادة، ولم يعتبر ذلك انهياراً لفكرة الوحدة العربية، وإنما كان انهياراً لحكم الديكتاتورية والإرهاب ولسياسة السجون والتعذيب ومحاربة الشيوعية وللاتجاه غير الصحيح في محتوى الوحدة وشكلها.

وأشارت النشرة أولاً إلى ظروف المعركة الانتخابية. وقد تميزت من الناحية الداخلية:

١ ـ أنها جرت في أعقاب حكم ديكتاتوري. وكان موجهاً ضد جماهير الشعب. وكانت أعنف ضرباته موجهة ضد الحزب الشيوعي. أما قوى الرجعية وعملاء الاستعمار فقد تركت حرة، ومنح بعض ممثليها شهادات حسن سلوك، وأصبحوا سادة في الاتحاد القومي ونواباً في مجلس التعيين.

٢ ـ أنها جرت في أعقاب سلسلة من التدابير الاقتصادية المتصلة بالتأميم والنقد وغيره. وكان الغرض منها القبض على عنق الاقتصاد السوري. وكانت هذه التدابير تشويها للاشتراكية، باعد بين البرجوازية الصغيرة والمتوسطة وبين الأفكار الاشتراكية العلمية الصحيحة.

٣ ـ وصول عناصر رجعية إلى الحكم وتسخيرها سلطة الدولة وأجهزتها لمصالحها الانتخابية وضد الشعب.

ومن الناحية العربية، فقد كانت الحركة الوطنية العربية تعاني صعوبات التجزئة والتقسيم. أما قوى الرجعية العربية وعملاء الاستعمار فقد ظهروا بمظهر الظافر، واستغلوا نتائج السياسة التي اتبعت في سورية، وقاموا بمساعدة عملائهم وأغدقوا عليهم الأموال ودعموهم دعائياً ومعنوياً.

لقد برز في المعركة اتجاهان سياسيان متعارضان، اتجاه وطني ديمقراطي معاد للاستعمار ومشاريعه، واتجاه رجعي ممالىء للمستعمرين تستر بأقنعة مختلفة.

وجرت المعركة اجتماعياً بين اتجاهين متعارضين. فمن جهة كان أنصار التقدم الذين يريدون المحافظة على المكتسبات الاجتماعية المختلفة، كالإصلاح الزراعي وتأميم البنوك وشركات التأمين وأوسع الحقوق الديمقراطية للشعب. ومن الجهة

الثانية كانت هناك عناصر الرجعية الذين يريدون تصفية هذه المكتسبات... وهذا جعل الطابع الاجتماعي للمعركة بارزاً بوضوح إلى جانب الطابع السياسي.

وتتعرض النشرة لتزوير إرادة الشعب وتزييفها وتذكر: (تسخير جهاز الدولة للاستمرار في ملاحقة العناصر الوطنية ووراءه سياسة مكافحة الشيوعية البالية. وسجن واعتقال عشرات المواطنين ومنع الكثير من المواطنين من العودة إلى وطنهم.

- إصدار أغرب قانون انتخاب وجعل الدعاية الانتخابية خاضعة لمراقبة أجهزة السلطة.

- صرف الأموال الطائلة لشراء الذمم.

- منع خالد بكداش من ترشيح نفسه.

- اعتقال عدد من المرشحين ومطاردة آخرين.

- تزوير عمليات الاقتراع.

أما عن تركيب المجلس فقد ظهر أن أكثريته من عناصر إقطاعية ورجعية، بينها عدد من ذوي الاتجاهات والصلات المشبوهة. وتكتلت الرجعية داخل المجلس وعملت على إنجاح ممثليها في الرئاسة والمكتب.

ورغم جميع هذه الأساليب فقد حققت القوى الوطنية والديمقراطية نتائج هامة هي التالية:

- إيصال عدد من النواب إلى المجلس، تجنيد جماهير الشعب السوري ضد الاستعمار وعملائه ومن أجل الحريات الديمقراطية، وحماية المنجزات التقدمية كالإصلاح الزراعي ومكاسب العمال وغيرها، الالتفاف حول شعار الاشتراكية، تمسك جماهير العمال والفلاحين بمكتسباتهم ومطالبهم، الالتفاف حول الحزب الشيوعي، فعشرات الألوف من الأصوات التي نالها المرشحون الذين دعمهم الشيوعيون دليل على تعلق الجماهير بالحزب الشيوعي.

وتحدد النشرة في النهاية المهام الأساسية الراهنة بـ:

١ - النضال من أجل توطيد الاستقلال والسيادة الوطنية.

٢ - الدفاع عن الحريات الديمقراطية العامة.

٣- العمل لحماية قانون الإصلاح الزراعي ومكتسبات جماهير الفلاحين والسعي لتطبيقه بشكل صحيح.

٤. العمل للحفاظ على مكتسبات الطبقة العاملة ولاستعادة ما فقده العمال خلال الحكم الديكتاتوري، مثل حق الإضراب وحرية التنظيم النقابي ووضع حد أدنى كاف للأجور.

٥ . تقوية القطاع العام وتوسيعه.

٦ . وضع دستور ديمقراطي تقدمي.

٧ . الاهتمام الجدي اليومي بمطالب الشعب.

٨ . العمل لنشر أفكار الاشتراكية العلمية.

أما المهمات في ميدان التنظيم والتثقيف فهي: تقوية منظمات الحزب وإيجاد منظمات جديدة، السهر على نقاوة صفوف الحزب من جميع عناصر التخاذل والانتهازية، ومن جميع الوصوليين والانهزاميين، والتوفيق بين العمل السري والعلني، والعمل على شرح سياسة الحزب وإيصالها إلى الجماهير...).

كان عدد من الرفاق القياديين قد عاد إما من الدراسة في المدارس الحزبية، أو من الإقامة المؤقتة في الخارج. وكان في مقدمتهم الرفاق إبراهيم بكري وموريس صليبي وظهير عبد الصمد. وعمل الرفيق إبراهيم في دمشق ثم جاء الرفيق موريس، واستلم الرفيق ظهير قيادة منظمة حمص.

في تلك الأثناء برزت أمامنا مشكلة دقيقة وحساسة بشأن عودة الرفاق إلى النشاط الحزبي، وهي الموقف من الذين ضعفوا في السجون. ولم يكن عدد هؤلاء قليلاً، ارتباطاً بالعدد الكبير للذين اعتقلوا من الشيوعيين. وكان موقفنا عدم القبول بأي تسامح، مع أن هناك بشر ضعفوا نتيجة أوضاع نفسية معينة ونتيجة تراجع وخيانة بعض القياديين. وقد اتبعنا طريقة دراسة كل حالة بمفردها، وكان التسامح هو موجهنا الأول.

كانت عودة الرفيق خالد بكداش إلى الوطن، إحدى القضايا الأساسية التي جابهناها في عملنا. ونشأت عنها تعقيدات حزبية تركت تأثيرات مباشرة وطويلة. فالرفيق خالد ألح على العودة علناً، وطلب تنظيم استقبال له يضم خمسة آلاف إنسان.. ويضم عدداً وافراً من ممثلي الفعاليات والشخصيات المختلفة. وأخبرناه بأن مثل هذا الحشد صعب جداً في الظرف الراهن، بسبب الأوضاع الحزبية. ولكننا عملنا على نشر الخبر جماهيرياً. وأدى ذلك إلى موقف سلبي من السلطة وخاصة من قائد الجيش عبد الكريم زهر الدين، الذي أدلى بتصريح قال فيه: إن خالد بكداش ممنوع

من دخول سورية، وإذا عاد فسيشنق. ولكن هذه التهديدات لم تزعزع الحزب. وهكذا ففي ١٨ تشرين الثاني ١٩٦١، أعلن راديو موسكو خبر مفاده أن خالد بكداش، الأمين العام للحزب الشيوعي السوري، سيعود غداً إلى دمشق من براغ. وكان القصد السياسي من هذا الخبر، الإعلان عن موقف سوفييتي بشأن العودة. وفي ١٩ تشرين الثاني ١٩٦١ استقل الرفيق خالد بكداش طائرة تشيكية (إيليوشين ١٨) عائداً إلى دمشق. وكان يرافقه الرفاق حسن قريطم والمحاميان السوريان مصطفى أمين ونوري حجو الرفاعي. ولدى هبوط الطائرة طوقها رجال الأمن والشرطة العسكرية، ودخل مدير أمن المطار وزهاء عشرين من معاونيه العسكريين والمدنيين الطائرة، وأعلموا الرفيق خالد بكداش أن لديهم أوامر بمنعه من مغادرة الطائرة. واحتج خالد بكداش على ذلك بشدة وطلب تبريراً لهذا التدبير غير الشرعي والمعادي للديمقراطية، وأعلن أنه يعود إلى بلاده من أجل تقديم ترشيحه شخصياً للانتخابات القريبة عن دمشق.. وطلب الرفيق خالد بكداش الاتصال بالمسؤولين ورفض طلبه. وطلب أيضاً أن يفسح له المجال، وتحت الحراسة، بالذهاب لتقديم ترشيحه ومن ثم يعود إلى المطار، وأبلغ بأن جميع طلباته قد نقلت إلى المسؤولين.. وبعد انتظار ثلاث ساعات، أبلغ بأن عليه العودة ومتابعة سفره على نفس الطائرة.. وتابعت الطائرة طريقها إلى بغداد وجاء ممثل عن اللواء عبد الكريم قاسم من أجل الترحيب بخالد بكداش وإخوانه، وطلب إليهم اعتبار أنفسهم ضيوفاً في العاصمة العراقية. فشكره خالد بكداش وأبلغه بأنه يفضل البقاء في الطائرة هو وإخوانه. وفي اليوم الثاني رجعت الطائرة إلى دمشق، وجرت محاولة ثانية للهبوط ورفضت، وتابعت الطائرة عودتها إلى براغ. وأرسل الرفيق خالد بكداش احتجاجاً موجهاً إلى القيادة العليا وإلى مجلس الوزراء، وجاء فيه «إنني أحتج بقوة على هذه التدابير التعسفية التي تحرمني من حقي الطبيعي في العودة إلى بلادي، وتمنعني من تقديم ترشيحي للانتخابات النيابية، إن هذه التدابير تتنافى مع حقوق الإنسان ومع أبسط الحريات الديمقراطية وتتعارض مع مصالح وطننا وشعبنا. وذيلت البرقية بمكانها وزمانها.

الشيء السلبي الذي نتج عن هذا الموضوع هو شعور خالد بكداش بأننا في القيادة التي كانت تعمل آنذاك في دمشق لا نرغب في عودته لأسباب ذاتية وشخصية. وقد توجه الرفيق خالد بكداش برسائل إلى الرفاق رمو شيخو وعثمان إبراهيم ووحيد محمود... يخبرهم فيها عن انطباعاته، ويطلب منهم القيام بحملة تحريض وضغط ضد

القيادة وضد الرفيق يوسف الفيصل... ولكن هذه القضية لم تأخذ أبعاداً أكثر وبقيت عند هذه الحدود في حينه. إلا أن هذا الانطباع الذي تكوّن لدى الرفيق خالد بكداش بقي كامناً لكي يبرز بعد عشرين عاماً.

وأجرى الرفيق خالد بكداش محاولة ثانية ورفضت أيضاً. وبعد ٨ آذار ١٩٦٣ عاد سراً إلى الوطن، وكانت الوزارة برئاسة يوسف زعين، وبعد أن استقر في بيته في دمشق، قمت ورفيقي دانيال نعمة بإبلاغ رئيس الوزراء بأن خالد بكداش أصبح في بيته.

يروي العميد مطيع السمان، قائد قوى الأمن الداخلي، حادثة عودة خالد بكداش من منظاره ومنظار السلطة ويقول:

«في يوم من الأيام الأولى لوزارة بشير العظمة هتف إليّ الرائد منيب الرفاعي، رئيس الدائرة السياسية في قوى الأمن الداخلي، وأخبرني بأن خالد بكداش الزعيم الشيوعي المعروف وصل إلى مطار دمشق على متن طائرة تشيكية، وأن جمهوراً من محازبيه موجود الآن لاستقباله، طالباً توجيهه بما يتوجب عليه عمله قبل أن تصل الطائرة وينزل منها بكداش. وكان جوابي الحازم والفوري إليه، أن يطلب إلى برج مراقبة المطار الاتصال بالطيار وإبلاغه بوجوب التوقف بآخر مدرج العبور وانتظار التعليمات. وتوجهت فوراً إلى مكتب وزير الداخلية المقابل لمكتبي فلم أجده. دخلت مكتب رئيس الوزراء في سرايا الحكومة وطلبت التوجيه، فكان جوابه أنت أدرى بهذه الأمور. ولما ألححت كرر العبارة نفسها ولم يعط تصريحاً أو تلميحاً حول توجيهاته، كأنه كان يريد الابتعاد عن هذا الموضوع الحساس وما قد يترتب عليه، أو أنه من أنصار الشيوعيين ورفيق خالد بكداش في المدرسة الابتدائية والثانوية.

إن هذا الموقف فرض علي الاتصال بمكتب رئيس الجمهورية ناظم القدسي لإحاطته وتلقي أوامره الذي كان جوابه بالحرف الواحد (شو جابو الآن، تصرف كما عهدتك) لذا اتخذت قراري بإبلاغ السيد بكداش بأن مجيئه إلى سورية ليس في مصلحتها للأحوال الاستثنائية التي تعيشها،ويفضل سفره على نفس الطائرة التي أتى بها، ومصلحة الوطن فوق مصلحة الفرد».*

كان الاتجاه الأساسي لوزارة الدواليبي هي إعادة النظر بالتحولات الاقتصادية والاجتماعية التقدمية التي حققتها سورية، وإبقاء حالة الطوارىء التي فرضت أيام الوحدة. وتضمن بيانه الوزاري توجهات لإلغاء الإصلاح الزراعي وقانون العلاقات

* ـ مذكرات مطيع السمان ص ١٦٥.

الزراعية، وإلغاء تدابير التأميم. وكان تركيب المجلس النيابي أقرب لهذه التدابير. ووقف ضدها نواب الكتلة الاشتراكية وعدد من المستقلين. وجرت نشاطات شعبية واسعة ضدها، ونظمت تظاهرات طلابية وعمالية لمقاومتها. وكانت النتيجة تصويت المجلس على اقتراحات تعديل قانون الإصلاح الزراعي.

وكان من أفدح ما أقدمت عليه حكومة معروف الدواليبي هي تقديمها مشروع قانون للمجلس النيابي، يطلب إعادة النظر بالأحكام التي صدرت عام ١٩٥٦ نتيجة المؤامرة الشهيرة آنذاك، وكذلك إقدامها على إغلاق الصحف والاكتفاء بجريدة «المنار» التي يصدرها الإخوان المسلمون.

في ذكرى الوحدة عام ١٩٦٢ ألقى عبد الناصر خطاباً فضح فيه عدداً من المؤامرات التي تستر عليها عند إعلان الوحدة. وخاصة عمالة عبد الكريم الدندشي للولايات المتحدة، واتصالاته بمأمون الكزبري ولطفي الحفار، وتنظيم علاقات لهما مع مسؤول أمريكي وقبض أموال منه. كما تناول الشيخ معروف الدواليبي واتصالاته بالعراق. وترك هذا الخطاب تأثيراً بالغاً لدى جماهير الشعب السوري. إذ اتضح أن القيادة السياسية الراهنة هي عميلة للولايات المتحدة، وهي على صلات مع بريطانيا.

تركت جميع هذه النشاطات أثرها على الوضع في سورية. وفي صبيحة الثامن والعشرين من آذار قام الجيش بحركة انقلابية واستلم السلطات جميعها وحل المجلس النيابي واعتقل رئيس الجمهورية. وحدد بيان الجيش الأسباب والعوامل التي أدت إلى الإطاحة بالسلطة المدنية القائمة كما يلي: «في هذه الفترة كانت بعض العناصر الاستغلالية من عملاء الاستعمار تحيك المؤامرات وتدس الدسائس. وكان الجيش قد ظن أنها اعتبرت ورجعت عن غيها. ولكنها استطاعت أن تتسلل للسلطة التشريعية والتنفيذية، فابتعدت بهما عن مهمتها الأساسية وعطلت القوانين ومكاسب العمال والفلاحين، وراحت تصدر التعليمات والأوامر التي تناقض التشريعات والقوانين، وتعمل على ضرب الفلاحين وطردهم من قراهم وانتزاع أراضيهم منهم، وحملهم على تركها والهجرة منها وإعادة سيطرة أنصارهم ومحاسيبهم، فهدمت بيوت الفلاحين على رؤوسهم، وأحالت أراضيهم المزروعة بعرقهم إلى خراب، كما راحت هذه العناصر تعمل جاهدة للإبقاء على التشريعات التي تجعل مكاسب العمال صورية وغير حقيقية، فنسفت بذلك الحقوق وداست المكاسب وخنقت الحريات، ولم تعمل على تحقيق الاستقرار».

اتخذت قيادة القوات المسلحة في حلب وحمص موقفاً مغايراً. فقد رفضت أوامر دمشق وتمردت عليها وأعلنت موقفاً آخر، وسيرت القيادة العامة حملات بالطيران ضد مرسلات الإذاعة في حلب لإيقاف بثها، كما حلقت طائرات سورية في سماء مدينة حلب. وأمكن تسوية عصيان حمص وبعض المناطق بإبعاد النحلاوي وأنصاره. ولكن العصيان استمر في حلب ونادى بالعودة إلى الوحدة، ورفع علم الجمهورية المصرية المتحدة ولكنهم باؤوا بالفشل.

أدت هذه الأحداث إلى سلسلة طويلة من اللقاءات بين العسكريين وحدهم من جهة، وبين المدنيين من رجال السياسة والقانون من ناحية أخرى، إضافة إلى اجتماعات مشتركة ضمت سياسيين وعسكريين. كما سافر وفد عسكري إلى مصر والتقى بعبد الناصر مجدداً، وكانت نقطة البحث الأساسية، هي إعادة الوحدة مع مصر وعلى أي أسس؟ وانقسمت الآراء بين مؤيد ومعارض، وعاد عبد الناصر ووضع شروطاً جديدة، وانتهت جميع هذه النشاطات إلى الفشل، وإلى إعلان الجيش عدم تدخله في السياسة، وعفا عن رئيس الجمهورية الذي عاد إلى مكتبه في الرئاسة، وفي ١٩٦٢/٤/١٦ تشكلت حكومة جديدة برئاسة الدكتور بشير العظمة. وأعلنت الحكومة في بيانها الوزاري إلغاء جميع التعديلات التي طرأت على قانون الإصلاح الزراعي والعودة إلى القانون السابق. وعبر البيان عن رأي بالوحدة التي يجب أن تكون متكافئة وتستند إلى قواعد مدروسة توفر لكل بلد يسهم فيها كرامته وإرادته.

يقول الدكتور بشير العظمة في كتابه «جيل الهزيمة» إنه رفض التكليف، وأنه ليس سياسياً ويكتفي بتجربة الوزارة المركزية أيام عبد الناصر، ولا يريد تجربة فاشلة أخرى. وبعد الضغوط الشديدة والمتكررة وافق على تشكيل الوزارة، بأن يكون لكل كتلة سياسية وزيران، والباقي من الاختصاصيين. ورفض الإخوان المسلمون ذلك وأصروا على تمثيلهم بثلاثة وزراء.. ويقول «بعد الاتفاق النهائي طلب إليَّ رئيس الجمهورية أن أرافقه لاستشارة (الجماعة)، قلت من هم الجماعة؟ أجاب بنزق: أوف ضباط القيادة وهم مجتمعون في دار الضيافة ينتظرون. قلت: ناظم بك، لم يعلن شيء حتى الآن، إنني بصراحة وصدق، أرفض انتداب أو وصاية الجماعة، ولا أعترف إلا بسلطتك رئيساً للجمهورية منتخباً»*.

الدكتور بشير العظمة رجل مستقيم يحمل مُثُلاً عليا عديدة وأفكاراً تقدمية، وطني مخلص، مهذب وصريح ولا يخادع. ورجل بهذه الصفات لا يستطيع احتمال ألاعيب

* ــ بشير العظمة، جيل الهزيمة، ص ٢٣١.

السياسة. طلب منه الذهاب إلى القاهرة لمفاوضة عبد الناصر فرفض، وأبلغ برغبة موظفين لديه بضرورة شراء سيارة فاخرة لرئاسة الوزراء فرفض. عبر عن رغبة في السماح لخالد بكداش بالعودة فأجابت الأجهزة الأمنية سلباً. وأتاه أصحاب الصحف يطلبون مقالات فردهم بكلمات بأن الصحافة الحرة لا تشترى، واتهمت حكومته بالشيوعية وسكت. وصدرت أوامر برفع الرقابة عن الصحف، واستمرت الأجهزة بالرقابة، وهكذا بعد خمسة أشهر، اضطر لتقديم استقالته، وعاد إلى بيته ويقول: أكاد «لا أصدق بأني خرجت إلى داري من دون توقيف ولو لأسابيع في سجن المزة، ومن دون أن أسمع تحت نافذتي تهم الخيانة والعمالة كما تقتضي العادة والأعراف».

كلف خالد العظم بتشكيل وزارة جديدة وبدأت هذه الوزارة عملها حتى عام ١٩٦٣ واستلام حزب البعث السلطة في بغداد ودمشق.

الفصل السادبع والعشرون

٨ آذار والميثاق الثلاثي

نظر الحزب الشيوعي إلى حركة الثامن من آذار ١٩٦٣ على أنها انقلاب عسكري. وانطلق هذا التقدير من طبيعة الحركة نفسها، فقد قادها العميد زياد الحريري وشارك فيها ضباط من حزب البعث ومن الناصريين والقوميين العرب والمستقلين، وكانت اللجنة العسكرية لحزب البعث التي ساهمت في الانقلاب تضم: صلاح جديد، حافظ الأسد، محمد عمران، عبد الكريم الجندي، أحمد المير علي. وكان كل فريق يشك بالفريق الآخر وينتظر الفرصة السانحة للانقضاض عليه والانفراد بالسلطة. كما انطلق هذا التقدير من الترابط السياسي بين هذه الحركة والانقلاب الذي سبقها في بغداد في الثامن من شباط. وقد دمغ هذا الانقلاب بدمغة الفاشية والوحشية، عندما انقض على القوى التقدمية والديمقراطية العراقية، وخاصة الشيوعيين، وأعمل فيهم قتلاً وذبحاً بالمئات، بل حتى بالآلاف. وقد سقط ضحية هذا السلوك الهمجي عبد الكريم قاسم قائد تحرير العراق من حلف بغداد وإخراجه من سيطرة الأحلاف الاستعمارية، كما سقط قائد الحزب الشيوعي سلام عادل (حسين الرضى) الذي بتروا أطرافه وجدعوا أنفه وقصوا لسانه، حتى قضى شهيداً تحت التعذيب الفائق الوحشية!.

كان قائد حملة الإبادة هذه علي صالح السعدي، الذي زار دمشق، بعد يومين أي في العاشر من آذار على رأس وفد عراقي وعلى درج الأركان توجه إلى الفريق لؤي الأتاسي، القائد العام للجيش والقوات المسلحة آنذاك: يابا ماكو دم! ماكو مشانق! وين الرجعيين وعملاء الاستعمار! كنت آمل أن أراهم معلقين في ساحة المرجة. وكان جواب الفريق الأتاسي: نحن في سورية لا نحب إراقة الدماء، وهذا حقيقي إذ لم تهدر في هذا الانقلاب نقطة دم واحدة. والمقاومة الوحيدة التي ظهرت كانت في القاعدة الجوية في

مطار الضمير، فتوجه اللواء حافظ الأسد إلى القاعدة واستطاع السيطرة عليها. وقد ظهرت الخلافات بين أركان النظام من اليوم الأول. فقد كان توجه حزب البعث يتركز على فكرة تجديد الوحدة، بينما كان توجه الناصريين إلى فكرة إعادة الوحدة.

كانت أولى قرارات الانقلاب ترفيع لؤي الأتاسي إلى رتبة فريق، وتعيينه قائداً عاماً للجيش والقوات المسلحة، وانتخابه رئيساً لمجلس قيادة الثورة. وترفيع الحريري إلى رتبة لواء وتعيينه رئيساً للأركان.

شكل الانقلاب حكومة جديدة برئاسة صلاح البيطار، ضمت عدداً من الوزراء البعثيين والناصريين والقوميين العرب. وكان من أولى قرارات هذه الحكومة إغلاق ١٦ صحيفة سورية، ومصادرة مكاتبها ومطابعها. وترافق ذلك بمرسوم من مجلس قيادة الثورة يقضي بالعزل السياسي لأربعة وسبعين شخصية سياسية وحزبية من بينهم خالد بكداش. كما صدر مرسوم بتشكيل الحرس القومي، وسُرِّح ٥٠٠ ضابط من الجيش حل محلهم ضباط من الاحتياط.

كان موقف الحزب الشيوعي السوري، من حركة الثامن من آذار، يتراوح بين عدة اتجاهات في آن معاً. فمن جهة كان الحزب تحت تأثير ما جرى في بغداد من مذابح ومآسي، وخيم عملياً على الشيوعيين جو من الرعب في أن تتكرر كارثة العراق.. وكان الحزب في الوقت نفسه ضد الممارسات غير الديمقراطية التي أطلقها ونفذها الوضع الجديد ضد الديمقراطية والحرية، من اعتقال الشيوعيين وإغلاق الصحف والتسريحات الواسعة من الجيش، وإعادة العمل بقانون الطوارىء، خاصة أن الحزب كان قد لاحظ ظهور تيارات ديمقراطية بعد الانفصال، ووصول عناصر ديمقراطية ووطنية إلى قيادة البلاد، وقيام انتخابات برلمانية حرة بنسبة معينة، وكانت قيادة الحزب تعيش قلقاً آخر، وهو إمكانية عودة الوحدة الاندماجية. فقد كان هناك ما يستدعي مثل هذا القلق، من حيث وجود عناصر في القيادة العسكرية تؤيد هذا التوجه ووجود تيار شعبي في الشارع السوري يدعو إلى عودة الوحدة. فقد كانت الحركة الشعبية نشطة وكانت تجري تظاهرات عديدة في العاصمة دمشق وفي حلب خاصة، وفي مدن سورية أخرى تطالب بعودة الوحدة. وكان الطلاب يهتفون «لادراسة ولا تدريس حتى يرجع الرئيس» ودفع هذا الوضع إلى إجراء تغيير في الوضع الحكومي. بتعيين العميد أمين الحافظ وزيراً للداخلية وإعطائه حق ممارسة أحكام الطوارىء.

هذه الهواجس كلها كانت في ذهن القيادة الحزبية السورية آنذاك، وكانت تكتب آراءها إلى القيادة في لبنان وإلى الرفيق الأمين العام، الذي كان لا يزال مقيماً في

الخارج، وكانت التحاليل تتراوح بين هذه الانطباعات جميعاً، ولكن بعد فترة من الزمن واتضاح موازين القوى أكثر فأكثر، وظهور مواقف سياسية علنية، أخذ يسود رأي لدى الحزب أقرب إلى دعم التيار البعثي، فقد بدا الأكثر واقعية والأكثر عقلانية وخاصة عندما بدا الخلاف واضحاً حول شعاري «عودة الوحدة أو تجديد الوحدة». وقد استفاد البعثيون من الدرس العملي الذي عاشوه خلال مشاركتهم في الحكم المركزي والمحلي. وبعد التسريحات وأعمال الإبعاد عن سورية، وبعد الاستقالات الجماعية التي تمت، وبعد تلمسهم أن الاتجاه يسير نحو تصفيتهم. إضافة إلى ذلك بدأت تظهر تباشير أكثر في قيادة البعث وبدأ تعبير القادة اليمينيين يظهر في تحليلات الحزب، وفي هذه الفترة أيضاً بدأ الانفصال بين حزب البعث وأكرم الحوراني.

انعكست هذه المواقف جميعاً في البيان الذي أصدرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، بمناسبة استشهاد المناضل الوطني الكبير حسين الرضي، الأمين العام للحزب الشيوعي العراقي، ورفاقه على أيدي الجلادين الفاشيست في العراق، في أواسط آذار ١٩٦٣، وقد جاء في البيان:

«إن النبأ الرهيب عن إعدام الرفيق حسين محمد الرضي، الأمين الأول للحزب الشيوعي العراقي، والرفيق محمد حسين أبو العيس، عضو اللجنة المركزية للحزب، والرفيق حسن العويني، والكثيرين غيرهم من الشيوعيين والوطنيين الديمقراطيين والتقدميين العراقيين، بذلك الشكل الوحشي خلافاً لأبسط مبادىء حقوق الإنسان، بل خلافاً لكل قانون ولكل عرف حقوقي ولأبسط مظاهر المدنية والإنسانية، قد هز مشاعر الشعب العربي السوري وأثار في بلادنا من أقصاها إلى أقصاها، موجة من الألم والاستنكار تجاه هذه الجرائم التي تجري في قطر عربي شقيق هو العراق».

«إن الحزب الشيوعي السوري، إذ يحتج أشد الاحتجاج على هذه الأعمال البربرية، واثق بأنه يعبر عن إرادة جماهير الشعب وجميع الوطنيين والديمقراطيين في سورية العربية».

«وينبه الشيوعيون العرب السوريون الرأي العام التقدمي في البلدان العربية وفي العالم بأسره إلى أن حكام العراق يسعون بجميع وسائل الضغط والتهويل لكي تمتد موجة التنكيل والتقتيل إلى سورية وجميع البلدان العربية. إن حكام العراق ليسوا راضين عما يفعله حكام سورية الجدد الذين أخذوا، بعد انقلاب ٨ آذار يملؤون السجون بالشيوعيين والنقابيين والاشتراكيين والقوميين العرب التقدميين والوطنيين من مختلف الاتجاهات. بل إن حكام العراق يطلبون من الحكام السوريين أن يسيروا على

خطاهم وأن يعلقوا المناضلين العرب السوريين على أعواد المشانق، وأن ينظموا في سورية أيضاً عصابات تقتيل فاشية على غرار عصابات الربطة الخضراء في بغداد. وتلك هي إحدى المهمات الرئيسية التي يعمل لها الوزير البعثي العراقي علي صالح السعدي الذي انتقل من بغداد إلى دمشق وأصبح يعمل وكأنه وزير للجمهورية العربية السورية».

«إن شعارات الحرية والاشتراكية والوحدة العربية التي يتستر بها الفاشيون هي براء من هذه الجرائم الوحشية البربرية التي ثار لها الضمير الإنساني العالمي من مشرق الدنيا إلى مغربها».

«كلا! إن الطريق إلى الوحدة العربية ليس طريق المشانق والتقتيل والتنكيل بالشعب! إن الطريق إلى الوحدة العربية هو طريق الحرية والديمقراطية، هو طريق التضامن الشعبي العربي ضد الاستعمار والرجعية والفاشية.

العار لأيدي الاستعمار والفاشية.

المجد والخلود لشهداء الشعب العراقي الأبطال.

الحرية والديمقراطية للعراق وسورية ولجميع الأقطار العربية».

في إطار هذه التطورات جميعاً، وفي إطار الصراع بين الاتجاه البعثي والاتجاه الناصري، بدأت تظهر فكرة إقامة وحدة ثلاثية بين مصر وسورية والعراق. وكانت خلفيات هذه الفكرة، توجهاً لدى عبد الناصر، بأن يستميل البعث العراقي ويستعيد السيطرة على سورية. كما كان هناك وهم آخر، بأن حزبي البعث في سورية والعراق قد يستطيعان تكييف عبد الناصر، والخلاص من الصراع السوري ـ المصري. وبتاريخ ١٩٦٣/٤/٦ بدأت مباحثات هذه الوحدة باجتماع ثلاثي، سوري برئاسة لؤي الأتاسي، ومصري برئاسة جمال عبد الناصر، وعراقي برئاسة أحمد حسن البكر. وانتهت هذه المباحثات في ١٩٦٣/٤/١٧ . أعلن الميثاق الثلاثي، ميثاق الاتحاد بين البلدان الثلاثة، وهذا يعني أنه خلال عشرة أيام جرى بحث وإعلان وحدة جديدة حاولت أن تستفيد من دروس الوحدة السابقة.

الميثاق الثلاثي هو عبارة عن وثيقة واسعة متعددة الجوانب، ويمكن تلخيص أهم أفكارها بالأسطر التالية:

عَدَّ الميثاق الوحدة اتحاداً، تقوم أسسه على: وضع ميثاق للعمل القومي، إعلان حرية تكوين المنظمات الشعبية، توحيد القيادات السياسية على المستوى الاتحادي، توحيد الشخصية الدولية والسياسة الخارجية، تحقيق وحدة عسكرية، توحيد أجهزة

التخطيط، تكوين جبهة سياسية في كل قطر توحد العمل السياسي، قيادة سياسية واحدة تقود وتوحد العمل السياسي في الدولة (لا يعني هذا حل الأحزاب الوحدوية القائمة).

لا حرية لأعداء الشعب وهم:

١. المعزولون سياسياً،

٢. كل من حوكم ثورياً أو أدين بأنه انفصالي أو مستقل.

٣. كل من تعامل أو يتعامل في المستقبل مع التنظيمات السياسية الأجنبية.

٤ . كل من عمل أو يعمل لفرض سيطرة الطبقة الواحدة.

- القيادة الجماعية، الحريات مكفولة في حدود القوانين، المواطنون سواء أمام القانون، الانتخاب العام حق للمواطن.

- إن طريق الثورة طريق الاشتراكية ضرورة حتمية يفرضها الواقع التاريخي، وتفرضها الآمال العريضة للجماهير لمواجهة التخلف الاجتماعي والاقتصادي في الوطن العربي كما تفرضها الظروف العالمية.

- سيطرة الشعب على كل أدوات الإنتاج ويمكن الوصول بذلك إلى:

- خلق قطاع عام وقادر أن يقود التقدم في جميع المجالات ويتحمل المسؤولية الرئيسية في خطة التنمية.

- وجود قطاع خاص يشارك في التنمية في إطار الخطة الشاملة.

- التخطيط اشتراكي.

- حد أعلى للملكية الزراعية يقضي على الإقطاع.

- الشعب العربي يؤمن برسالة الدين.

- الدولة اتحادية: الجمهورية العربية المتحدة.

- مجلس الأمة هو أعلى هيئة لسلطة الدولة، ويتكون من مجلسين: مجلس نواب ومجلس اتحاد .

- رئيس الجمهورية ينتخب من مجلس الأمة،

عند مقارنة هذه الأسس مع الأسس التي قامت عليها الوحدة السورية المصرية، تجد فروقاً هامة. ويظهر ذلك في طابع الوحدة واعتبارها اتحادية، كما يظهر في انتخاب رئيس الجمهورية من مجلس الأمة وليس من الشعب مباشرة. إضافة إلى جميع الأمور المتعلقة بالبناء الاقتصادي والاجتماعي.

ولكن هذا الميثاق الذي أريد له أن يكون واضحاً تجاه قضايا النضال الوطني والطبقي، أظهر عداء واضحاً للشيوعية في بعض البنود، وخاصة الحديث عن الدعوة إلى سيطرة طبقة واحدة، والعلاقات مع قوى سياسية عالمية.

بدأت الاختلافات تظهر داخل حكومة صلاح البيطار بين البعثيين والناصريين. وكان توجه البعث واضحاً، وهو استلام وتثبيت مقاليد الحكم بيده في كل من العراق وسورية. وبدأ تنفيذ هذا الاتجاه في الجيش عن طريق التسريحات التي تمت، وفي تجنيد المئات من ضباط الاحتياط. بينما كان الموقف الشعبي غير ذلك، إذ كانت التظاهرات والتجمعات الشعبية مستمرة، تطالب بعودة الوحدة، وتهتف لعبد الناصر والناصريين، ولم يعد ممكناً استمرار هذا التناقض الحاد، الأمر الذي أدى إلى استقالة الوزراء الناصريين والقوميين العرب، وتشكيل وزارة جديدة برئاسة صلاح البيطار من البعثيين وعدد من المستقلين، وأصبح أمين الحافظ نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية.

قابل عبد الناصر هذا الوضع بحملة دعائية واسعة ضد حزب البعث وانفراده بالسلطة، وسُخِّرت إذاعة القاهرة وصحفها لهذه الحملة الشعواء.

تطور هذا التناقض إلى درجة الصدام. ففي ١٧ تموز جرت محاولة انقلابية ناصرية بقيادة جاسم علوان. وفشلت هذه المحاولة واعتقل عدد كبير من المشاركين فيها وجرى إعدامهم مباشرة، وانتهى الأمر بإعلان عبد الناصر الانسحاب من الاتفاق الثلاثي: «إن الجمهورية العربية المتحدة، لا تعتبر نفسها مرتبطة أو ملزمة بأي اتفاق مع الحكومة السورية الحاضرة، لأن حكم البعث حكم فاشستي متسلط ودموي، وهو حكم المشانق وحمامات الدم..»[٨].

في تلك الفترة كان الفريق لؤي الأتاسي في القاهرة، وعاد إلى دمشق وقدم استقالته من مجلس قيادة الثورة، وقبلت الاستقالة، وعين أمين الحافظ قائداً للجيش ولمجلس قيادة الثورة، وبدأت تطورات جديدة.

درس الحزب الشيوعي هذه التطورات وأصدر وثيقة بعنوان: «بعد انهيار ميثاق ١٧ نيسان إلى أين؟» بقلم معلق عربي مخضرم. والمعلق العربي المخضرم هو الرفيق خالد بكداش، الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. وهذا التعليق طويل يقع

---

[٨] ـ أكرم الحوراني مذكرات ص ٣٢٠٣.

في ثماني صفحات من الورق الرقيق والخط الصغير الذي كانت تتميز به النشرات السرية للحزب، ونقتطف منه الصفحتين الأخيرتين:

«أين الطريق؟

«منذ أن انقضى عهد الازدهار والتقدم والديمقراطية الذي عرفته سورية في الأعوام ٥٥، ٥٦، ٥٧، عندما كان اسم دمشق ملء السمع والبصر. في مشرق الأرض ومغربها، وعندما كانت أبهى الآفاق ترتسم أمام الشعب السوري، منذ ذلك الحين لم تعرف سورية حكماً مستقراً قوياً أخذ بيدها في طريق التقدم والازدهار.

«فالحكم المباحثي الديكتاتوري في عهد الوحدة أفلس وانهار. وحكم الكزبري والقدسي أظهر كذلك عجزه، فرغم نجاح الضغط الشعبي، بتأييد من الوزراء التقدميين، في انتزاع قسط من الحرية الديمقراطية، وفي فرض بعض الإصلاحات الاجتماعية، فإن الخط العام المسير لهذا الحكم كان يتميز بالسعي للتصدي للتقدم الاجتماعي إلى أمام والعمل لصون أكثر ما يمكن من امتيازات الطبقة البرجوازية وكبار الملاكين وكبار المستثمرين بوجه عام.

«إن الحكم البعثي الراهن الذي ما يزال مستمراً منذ انقلاب ٨ آذار، هو حكم متداع متهافت يعيش يوماً بيوم، ولا يجد أمامه مخرجاً سوى الجنوح أكثر فأكثر إلى حكم الإرهاب والديكتاتورية وإلى الأساليب الفاشستية كعصابات الحرس القومي، ومع ذلك كله لا ينظر إلى الحكام البعثيين اليمينيين بأية ثقة إلى مستقبل حكمهم. وقد بلغ من ضعفهم وخوفهم من الشعب أن أخذوا يستغيثون بجهاز الحكم الفاشي في العراق، وهم يفكرون جدياً في تحقيق وحدة ثنائية عراقية - سورية، فلعلها أن تكون، حسب اعتقادهم عوناً لهم في تثبيت حكمهم.

غير أن الحكم الفاشي العراقي نفسه واقف بقدميه على الرمل. ويتساءل المرء أيهما سينهار أولاً، حكم السعدي أم حكم البيطار. ولكن من الواضح أن مصيرهما شديد الارتباط وانهيار أحدهما سيعجل دون ريب في انهيار الآخر.

«وهكذا فإن مسألة الحكم في سورية موضوعة على بساط البحث بشكل ملح، ومهما كانت العوائق ومهما كانت التقلبات فلا مناص من أن تنضج الظروف لحل هذه المسألة بصورة تتفق وحاجات التطور الموضوعي الذي تجابهه البلاد.

«فلابد إذن من الاستعداد لمجابهة هذه الظروف. إن الحكم القادر على تحقيق المهمات الموضوعة أمام البلاد، وتأمين الاستقرار والتقدم، هو حكم تنعكس فيه

المصالح المشتركة بين الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين والطبقة المتوسطة في المدن والفئات التقدمية من البرجوازية الوطنية.

«ويتمثل ذلك، سياسياً، في حكم يستند إلى دعم جبهة وطنية تشمل جميع القوى السياسية الوطنية الديمقراطية، من القوميين الديمقراطيين على اختلاف اتجاهاتهم، إلى البعثيين اليساريين، إلى الشيوعيين، إلى ممثلي الفئات التقدمية من البرجوازية الوطنية.

«ويكون أهم مهمات هذا الحكم، إجراء إصلاح زراعي جذري بمساهمة الفلاحين، توسيع قطاع الدولة في الاقتصاد الوطني، تصفية كل نوع من أنواع الاحتكار، التعجيل في تنفيذ المشاريع الكبرى المعطلة أو المتوقفة وفي رأسها سد الفرات وسكك الحديد ومعمل السماد الكيماوي، استثمار نفطنا بأنفسنا ولأنفسنا، إقامة ديمقراطية واسعة يتمتع فيها الشعب بكامل حرياته وتعطى فيها الجماهير إمكانية الاشتراك في تسيير شؤون الدولة وفي تنفيذ التحولات الاقتصادية والاجتماعية والإشراف عليها، توطيد مكاسب العمال وتوسيعها مع تطبيقها فعلاً بمساهمة العمال وبإشرافهم أنفسهم.

«ونحن لا نذكر هنا طبعاً سوى الخطوط العريضة للمهمات التي يواجهها هذا الحكم.

«ولكي يستطيع مثل هذا الحكم تحقيق مثل هذه المهمات الكبرى لابد من أن ينهج سياسة حازمة ضد الاستعمار، وسياسة صداقة وتعاون واسع وعلى قدم المساواة مع الاتحاد السوفييتي وسائر بلدان المعسكر الاشتراكي، وأن يساهم بنشاط في النضال العالمي لتوطيد السلم ونزع السلاح، وأن يطبق بصدق ونزاهة سياسة الحياد الإيجابي في الميدان الدولي.

«إن هذا الاتجاه هو ما نسميه، نحن الشيوعيين، تكوين دولة الديمقراطية الوطنية، أو دولة الديمقراطية القومية، التي تضع الأسس وتخلق الظروف للانتقال إلى الطريق غير الرأسمالي في التطور وتوفر إمكانية المرور سلمياً إلى الاشتراكية.

«إن مثل هذه الطريق هي طريق الاستقرار والتقدم والازدهار، وعندئذ لا تكون سورية فقط مهد الفكرة العربية كما كانت دائماً، بل تصبح عملياً قاعدة الوحدة العربية المتحررة الديمقراطية ومنطلقها!

«هذه هي الطريق لبناء دولة قوية تفرض شخصيتها في العالم العربي، فلا يتطاول عليها متطاول، ولا يتحدى هيبتها مقامر، ولا يعبث بأمنها متسلل مرتزق، ولا يرفع سلاحه في وجهها إنكشاري لعب في رأسه جنون العظمة أو الطموح إلى السلطان! وإذا

حدث أن تجرأ إنكشاري على مثل هذا، فعندئذ لا يقف الشعب موقف المتفرج الواجم العابس، بل يهب للدفاع ببسالة عن حكم يشعر بأنه حكمه، بأنه ينبثق منه ومن إرادته ومن مصلحته!

«لقد أصبح مصدر القوة الثابت ومقياسها، في عصرنا هذا، هو التأييد الشعبي الفعلي والفعال!

«أما الإرهاب، والأحكام العرفية، وساحات الإعدام، والمشانق، وعصابات الحرس القومي، والصيحات الهستيرية الشوفينية فهي، في هذا العهد التاريخي الذي يجتازه العالم، عهد الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، لم تعد مصدر قوة، بل مصدر ضعف، وهي لا تدل على حكم قوي مستقر بل على حكم متزعزع مترجرج، متهافت، لا يثق بنفسه ويخاف الشعب، يخجل من ماضيه ويرتعش أمام غده.

«ومثل هذا الحكم، كما نرى في سورية اليوم، يزرع الخراب والدمار في البلاد، فيتدهور الاقتصاد، ويتفاقم الكساد، وتنتشر البطالة، ويستفحل الغلاء، وتعم الفوضى في جميع المرافق، وكل ذلك لا يؤدي في آخر المطاف، بصرف النظر عن النيات، إلا لخدمة المستعمرين والطامعين جميعاً.

«إن الشعب العربي السوري، سيثبت أنه يعي كل هذا فيأخذ مصيره بيده القوية البناءة».

٢٤ تموز ١٩٦٣



الفصل الثامن والعشرون

مرحلة تثبيت حكم حزب البعث وبدء التدابير التقدمية

شكلت مرحلة عامي ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥، بدء تطور جديد في تاريخ سورية، استمر حتى نهاية القرن العشرين وما بعده. ففي هذين العامين، أصبحت السلطة كاملة بيد حزب البعث العربي الاشتراكي وبدأت تظهر تدابير اقتصادية تقدمية وتحولات اجتماعية عميقة الجذور.

وفي هذه المرحلة جرت تصفيات واسعة، وأبعد عدد كبير ممن كانوا في مراكز قيادية وساهموا في حركة الثامن من آذار وإسقاط حكم الانفصال، ليحل محلهم قادة بعثيون. كما ظهرت خلافات داخل البعث نفسه، وجرت بينه وبين قوى دينية ومدنية أخرى صراعات دموية، نظمتها قوى رجعية، دينية ومدنية، وخاصة الإخوان المسلمين، كما في أحداث حماة وحمص.

وكانت الأشهر الأخيرة من عام ١٩٦٣ والأشهر الأولى من عام ١٩٦٤ مليئة بالصراعات الحزبية داخل حزب البعث، بين اليمين واليسار، وبين المدنيين والعسكريين، وبين التيار القومي التقليدي والتيار اليساري، ذي الميول الماركسية، الذي تجمع في المؤتمر القومي السادس للحزب.

استمرت هذه الصراعات طويلاً وأدت إلى وصول صلاح جديد إلى رئاسة الأركان، وإلى إبعاد محمد عمران وتقديم المقدم حافظ الأسد وترفيعه إلى رتبة لواء وتثبيته قائداً لسلاح الدفاع الجوي.

كما وقعت خلافات بين صلاح جديد يؤيده العسكريون وبين أمين الحافظ حول الموقف من مصر والعراق. وخلال وجود أمين الحافظ في القاهرة لحضور مؤتمر القمة العربي، التقى مع عبد الناصر وعبد السلام عارف، واتفقوا على توجهات جديدة بين البلدان الثلاثة تفتح الطريق للتقارب والتوحيد، وعندما عاد أمين الحافظ

إلى دمشق وطرح هذه التوجهات رفض العسكريون قبولها . واستمرت سياسة الهجوم على مصر والعراق، الأمر الذي دفع بأمين الحافظ إلى مغادرة دمشق إلى فرنسا والإقامة فيها ردحاً من الزمن. وظهرت هذه الصراعات أيضاً بين القيادات العسكرية والقيادات الحزبية، ونشط ميشيل عفلق ومنيف الرزاز في ذلك الوقت وأصدرا قرارات باسم القيادة القومية تحد من نفوذ العسكريين ودورهم. وحددا تمثيل العسكريين في مؤتمرات الحزب، بما لا يزيد عن ١٠٪ كما قررا حل اللجنة العسكرية، وإيجاد مكتب عسكري في القيادة كباقي المكاتب، وخُيِّر العسكريون بين بقائهم في الجيش، أو ممارسة السياسة ومغادرته، وأعطوا مهلة شهر لتنفيذ هذا القرار.

وصدرت في هذه الفترة قرارات سياسية واقتصادية واجتماعية هامة، فقد صدر قرار العزال السياسي، وقرار ملاحقة أكرم الحوراني بعد فشل محاولة تعيينه ممثلاً لسورية في الأمم المتحدة.

اتخذت تدابير اقتصادية واجتماعية هامة جداً، فتحت الطريق لتحقيق تحولات تقدمية عميقة في البلاد .

فقد أصدر وزير الإصلاح الزراعي قراراً بالاستيلاء على أراضي ٢٦٢ ملاكاً زائداً عن الحد الأعلى للملكية.

كما صدرت قرارات بتأميم الشركة السورية للغزل والنسيج المساهمة في حلب، والشركة الأهلية للغزل والنسيج المساهمة في حلب، وقرار بتأميم شركة المغازل والمناسج والشركة العربية المتحدة (الدبس) في دمشق، والشركة العربية لصناعة الأخشاب المساهمة المغفلة في اللاذقية، واتخذت خطوة أخرى هي مشاركة الدولة للرأسمال الوطني بنسبة ٢٥٪، وشمل هذا الإجراء شركات الإسمنت والزيوت والزجاج والسكر وغيرها .

جرت أحداث واضطرابات رجعية قوية كرد فعل على هذه التدابير، وأبرزها أحداث مدينة حماة، فقد وقع إضراب في المدينة احتجاجاً على تدبير يتعلق بمدرسة وطلاب جرى بينهم خلاف داخلي، وجرى قمع الإضراب بالقوة، وقامت لجنة المدينة المشكلة من عناصر رجعية من مالكي الأراضي وعناصر من الإخوان المسلمين بقيادة الإضراب. وتطورت الأمور إلى قيام الشيخ مروان حديد أحد قادة الإخوان المسلمين بالتحصن في جامع السلطان ورفض الخضوع لأوامر السلطة، الأمر الذي أدى إلى قيام السلطات العسكرية بضرب الجامع بالمدفعية وضرب أحياء أخرى.

انعكست أصداء هذه الأحداث في حمص وجرى إضراب وتجمع في مسجد خالد بن الوليد، وجرى تدارك الأمور دون صدامات.

كما جرى إضراب للتجار في دمشق، ودام الإضراب عدة أيام. وهددت السلطات الأمنية التجار بكسر أقفال المخازن والدكاكين وفتحها، وتم اللجوء لذلك، الأمر الذي ساعد على إنهاء الإضراب. وحاولت بعض الحركات الدينية توتير الأجواء في دمشق والدعوة للتظاهر، وجرى تجمع كبير في المسجد الأموي، وقمع بقوة السلاح ودخل سليم حاطوم بمدرعته إلى باحة المسجد.

استمر الإضراب في دمشق، وطالب التجار بإلغاء تدابير التأميم والتعاون مع الجميع دون تمييز طبقي، وإعادة الحياة الدستورية وإلغاء حالة الطوارئ.

كما أصدر المحامون بيانات تطالب بتشكيل حكومة انتقالية، وإعادة الحياة الديمقراطية إلى البلاد وإلغاء حالة الطوارئ.

في إطار هذا الصراع الطبقي الحاد قامت نشاطات جماهيرية نظمها اتحاد عمال دمشق، وخرجت تظاهرات عمالية حاشدة تهتف ضد مؤامرات الرجعية وبتأييد قرارات التأميم، ولعبت الطبقة العاملة دوراً بارزاً في ذلك الظرف الحاسم والدقيق، ونجحت في تأكيد دورها الوطني والتقدمي.

كان الحزب الشيوعي في حالة ملاحقات، وكنا نعيش حياة سرية كاملة، وتتبع أجهزة الأمن خطواتنا ونشاطاتنا. وكانت قيادة الحزب التي تضم الرفاق: يوسف الفيصل، ظهير عبد الصمد، إبراهيم بكري، موريس صليبي، دانيال نعمة، تتابع جميع التطورات الحاصلة في البلاد، وترسم استراتيجية العمل وتحدد التدابير الملموسة، وتعطي التوجيهات الضرورية لمجابهة هذا الموقف أو ذاك، وترسل الرسالة تلو الرسالة إلى الرفيق خالد بكداش لوضعه في صورة التطورات الجارية. وقد أبرق خالد بكداش من موسكو حيث كان موجوداً آنذاك إلى أمين الحافظ يعلن تأييد تدابير التأميم.

بحثت القيادة في أكثر من اجتماع تدابير التأميم، والموقف منها، وتوقفت أمام صدور قرارات ارتجالية وحدوث مصادرات تعسفية لأموال الناس. وقد شملت بعض التدابير، تأميم الأفران وتأميم معامل صنع الكبريت الصغيرة، وهي جميعها مؤسسات صغيرة جداً يعمل فيها عدد محدود من العمال. وقد ساد تحليل القيادة شعور متفاوت، فمن جهة كان من الضروري تأييد تدابير التأميم عموماً، من منطلق طبقي ووطني، ومن منطلق فهم قيادة الحزب لهذه التدابير في ضوء الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وبالمقابل ساد شعور من القلق تجاه تأميم المشاريع الصغيرة،

فهي موجهة ضد عناصر من البرجوازية الصغيرة عموماً، وبعض فئات المتوسطين وتشكل هذه العناصر بطبيعة موقفها الاقتصادي ـ الطبقي مؤازراً وحليفاً لتدابير التأميم الموجهة ضد البرجوازية الكبيرة المستغلة. ولكي لا تتسع الهجمة ضد التأميم، ويتسع الاستياء الشعبي، رأينا ضرورة إيجاد صلة مع القيادة السياسية ومع أمين الحافظ، رئيس مجلس قيادة الثورة شخصياً. واستطعنا تحقيق ذلك عن طريق أصدقاء مشتركين التقوا بأمين الحافظ ونقلوا وجهة نظرنا تجاه مجمل الوضع وبضمن ذلك احترام حرية المساجد، وعبرنا عن تأييد تأميم المؤسسات الكبيرة وطالبنا بإلغاء قرار التأميم المتعلق بالمصالح والمؤسسات الصغيرة، وشرحنا تأثير ذلك اجتماعياً وسياسياً. وقد استجابت القيادة السياسية لمطالب الحزب وألغت تأميم الأفران ومعامل الكبريت وغيرها من الورش والمؤسسات الصغيرة.

في حزيران ١٩٦٤ عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اجماعاً موسعاً، في ظل السرية الكاملة. ولعب هذا الاجتماع دوراً هاماً في توضيح موقف الحزب من هذا المنعطف التاريخي الكبير. وصدر عن الاجتماع قرار تضمن النقاط التالية:

- شرح الوضع في سورية وتعداد التدابير التقدمية التي تمت.
- دعوة القوى الوطنية والتقدمية إلى التآزر، وعدد هذه القوى وهم: الشيوعيون، الاشتراكيون (من جماعة الحوراني وغيرهم، القوميون التقدميون، العناصر الوطنية في حزب البعث، الناصريون المؤمنون إيماناً صادقاً بالتقدم والاشتراكية).
- دعوة هؤلاء جميعاً لكي يسدلوا ستاراً على خلافاتهم الماضية ويوحدوا جهودهم.

وبحثت اللجنة المركزية قضايا أخرى مثل: دور الحزب الشيوعي في البلاد، حركة التحرر العربية ومنجزاتها، نشاط الحزب الشيوعي في اللقاء الأول للأحزاب الشيوعية في البلدان العربية الذي عقد في براغ وحضره الرفيق ظهير عبد الصمد.

وصاغت اللجنة المركزية التوجهات المتعلقة بموقف الشيوعيين من التأميمات، وتقوم على:

- المساعدة في دعم تدابير التأميم، إيضاح هذه التدابير وتفسيرها نظرياً.
- لف الجماهير حولها ورد هجمات الرجعية.
- تقديم الاقتراحات البناءة اللازمة لإنجاحها، وخاصة المطالبة بسياسة خارجية وداخلية تنسجم مع المرحلة الجديدة.
- إقامة جبهة وطنية تقدمية.

ـ المشاركة في رد هجمات الرجعية لإحباط التأميم بالقوة (الإضراب) وتنظيم تظاهرات عمالية وشعبية واسعة.

في ١/١/ ١٩٦٥ صدر قرار بتأميم ١١٥ شركة، وفي ١٨/ ٢/ ١٩٦٥ صدر قرار بتأميم التجارة الخارجية.

بعد إعلان هذه التأميمات أصدرت اللجنة المركزية بياناً موجهاً إلى الشعب العربي السوري الأبي، جاء فيه:

«في مطلع هذا العام الجديد صدرت مراسيم جديدة بتأميم ١١٥ شركة ومؤسسة شملت غالبية القطاع الصناعي في البلاد، وبعض الصناعات ذات الارتباط المباشر بحياة الشعب وقوته وكسائه، كالسكر والزيوت والإسمنت وغيرها.

«لقد جاءت هذه المراسيم في مصلحة الشعب والوطن، وهي ذات صبغة تقدمية عميقة، فقد جعلت القطاع العام قطاعاً مسيطراً في الصناعة ووضعت أسس انطلاق سورية العربية في طريق التطور غير الرأسمالي، ونزعت من أيدي الرجعية الاحتكارية ملكية القطاع الصناعي وحرمتها إمكانية نهب الشعب وتسيير مقدرات البلاد حسب مصالحها الطبقية الأنانية.

«وصدور المراسيم مرتبط بالصراع الأساسي الدائر في سورية وفي غيرها من البلدان العربية بين اتجاهين رئيسيين: اتجاه وطني تقدمي، يريد تطور سورية في طريق غير رأسمالية، واتجاه رجعي يميني يريد تطور البلاد في طريق رأسمالية لصالح كبار المحتكرين والإقطاعيين ولصالح المستعمرين وشركائهم وضد الجماهير الشعبية.

«لقد لاقت هذه المراسيم تأييد وترحيب القوى الشعبية المختلفة من شيوعيين وديمقراطيين. وقد استقبلها العمال والفلاحون والمثقفون التقدميون وجميع المنتجين الصغار من حرفيين وتجار وباعة وكل العناصر التي يرهقها الرأسماليون بالحماسة، وعبروا عن استعدادهم لدعمها كلياً ورأوا فيها انسجاماً مع مطالبهم وتحقيقاً لشعارات نادوا بها وناضلوا من أجلها وقدموا في سبيلها كثيراً من التضحيات.

«إن من واجب كل وطني شريف يحب الشعب ويريد التقدم للبلاد، ويقف ضد مؤامرات الاستعمار والرجعية، هو العمل لإنجاح التدابير التقدمية الأخيرة وإحباط كل مؤامرة ضدها.

إن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري تعلن باسم جميع الشيوعيين وأصدقائهم ترحيبها بمراسيم التأميم وتأييدها لها، وهي ترى أن نجاح هذه المراسيم يقتضي إنجاز جملة من التدابير أهمها:

- إدارة المؤسسات المؤممة بشكل صحيح، والاعتماد في هذا المجال على عنصر الكفاءة والإخلاص للتدابير الاجتماعية بالدرجة الأولى.

- تحقيق مطالب العمال وتوسيع حقوقهم في الإدارة والمراقبة.

- جعل انتخابات النقابات ولجان الإدارة الذاتية على أساس ديمقراطي يعكس إرادة الجماهير وعدم اللجوء إلى أسلوب التعيين.

- تمكين جماهير العمال، على اختلاف اتجاهاتهم من ممارسة حرية التعبير عن الرأي وحرية العمل النقابي.

- درس أوضاع المنتجين الصغار من مساهمين وحرفيين، وتأمين مطالبهم لكي لا يقعوا أسرى التضليل الذي تشنه الرأسمالية الكبيرة.

- استخدام الأموال المتجمعة من المؤسسات والشركات المؤممة في توسيع هذه المؤسسات والشركات والمعامل وفي توسيع القطاع العام.

«إن هذه التدابير الأولية ضرورية لصالح توطيد التأميم والسير به سيراً ناجحاً، وهي تقتضي في الوقت ذاته تدابير أخرى لا تقل عنها عمقاً وضرورة، فللنجاح والتغلب النهائي على عناصر الرأسمالية الاحتكارية والرجعية وعلى مؤامرات الاستعمار المتتالية لا بد من إطلاق الحريات الديمقراطية لجماهير الشعب ولكل قوى التقدم والاشتراكية على اختلاف نزعاتها واتجاهاتها، كحرية الرأي والصحافة والاجتماع والأحزاب وإنجاز الإصلاح الزراعي بمساهمة الفلاحين ولمصلحتهم والاهتمام بحياة الفئات الصغيرة والمتوسطة.

وينتهي البيان بما يلي:

«إن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، تدعو جميع القوى التقدمية، المؤمنة بالاشتراكية داخل الحكم وخارجه، إلى التكاتف والتعاون لحماية تدابير التأميم وغيرها من المنجزات الاجتماعية والاقتصادية، وإن تعاون هذه القوى في جبهة وطنية تقدمية واسعة هو اليوم حاجة ضرورية، أكثر من أي وقت مضى، لإفشال مخططات الرجعية والاستعمار، ودفع سورية الحبيبة في طريق التطور الصاعد وضمان مستقبل سعيد لجماهير شعبنا ...»

وفي أيلول ١٩٦٥ أصدر مجلس قيادة الثورة قراراً بتشكيل المجلس الوطني الموسع لقيادة الثورة من ٩٥ عضواً من العمال والفلاحين والمحامين والأطباء والمهندسين وممثلي الجمعيات الفلاحية. ولأول مرة يصدر قرار بتسمية عضوين من الحزب

الشيوعي للمشاركة في هذا المجلس وهما الرفيقة الدكتورة نجاح الساعاتي والرفيق سميح عطية، الأمر الذي فتح آفاقاً جديدة.

مرت سياسة الحزب الشيوعي السوري، في هذه المرحلة الدقيقة والحساسة بمنعطفات حادة، وارتبط ذلك بسرعة التبدلات في مختلف الصعد، السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وكان موقف الحزب حرجاً، ففي الوقت الذي أقر فيه الحزب مساندة قرارات التأميم وبدأ بحملة توقيع عرائض بهذا الاتجاه، كانت الأجهزة الأمنية تتابع ملاحقتها للشيوعيين، واعتقل حتى الناشطون في هذه الحملة. وفي هذه الفترة اعتقل في مدينة حمص الرفيق عبد القادر الإخوان، وعُذّب في أقبية المخابرات تعذيباً وحشياً، وتوفي تحت التعذيب وسلمت جثته لأهله ومنعت من فتح التابوت حتى لا تظهر علائم التعذيب البربري. وفي كانون الثاني ١٩٦٤، أصدر الحزب بياناً موجهاً إلى الشعب السوري، تحدث فيه عن عزم إسرائيل تحويل مجرى نهر الأردن تدعمها الدوائر الاستعمارية الأمريكية والإنجليزية والألمانية الغربية، ويقول: «وإذا وقع هذا العدوان على المياه العربية فإن أخطار كبرى تهدد سورية وكل العالم العربي..» ويهاجم البيان الحكام العرب وتواطؤهم مع المستعمرين لطمس القضية والسكوت عنها.

وبعد الحديث عن دور هذه القوة أو تلك يصل إلى البعثيين ويقول: «وفي سورية قام البعثيون العفالقة بكل ما من شأنه إضعاف البلاد وتحطيم طاقتها الدفاعية ضد أخطار الاستعمار والصهيونية. فقد منعوا أصلب أعداء الاستعمار حق العمل والنشاط، وبعثروا القوى الوطنية والديمقراطية وفرضوا العزل المدني على كثير من المناضلين الوطنيين التقدميين، وعطلوا الإصلاح الزراعي، وشلوا مكتسبات العمال، وسرحوا ألوف الضباط وصف الضباط، فضربوا الروح الكفاحية في الجيش، وأرسلوا قسماً كبيراً منه إلى العراق لكي يساهم في حرب عدوانية ضد شعب شقيق.»

وبعد سنة واحدة، صدر بيان، نشر قسم كبير منه في هذا الفصل، وهو يؤيد التأميم ويطالب بجبهة وطنية تقدمية.

لا شك في أن السياسة الصحيحة، هي السياسة التي تجمع بين الواقعية والمبدئية. فالسياسة المبدئية إذا لم تترافق مع الواقع، وتحلل هذا الواقع تحليلاً صحيحاً، وتتخذ التدبير الملموس تجاه الواقع الملموس، تبقى سياسة نظرية عامة لا حياة لها.

وفي البيان الثاني الصادر في كانون الثاني ١٩٦٥، رفع شعار الجبهة الوطنية التقدمية، وهو تطوير جدي لمفهوم الجبهة الوطنية، فقد كان شعار الحزب هو الجبهة

الوطنيــة، أي تجميــع كــل القــوى ضــد الاســتعمار والصــهيونية وضــد أخطارهمــا ومخططاتهما، والآن وبعد صدور التأميمات، أخذ شعار الحرية يكتسي محتوى طبقياً، ولهذا أضيفت كلمـة التقدميـة لكـي يـتلاءم مفهـوم الجبهـة مـع التطـورات الاجتماعيـة والاقتصادية التي تمت. واستمر شـعار الجبهـة الوطنيـة التقدميـة إلى أن تكـرس عملياً في آذار ١٩٧٢ بمبادرة من الرئيس الراحل حافظ الأسد.

في هذه الفترة، خطت القيادة السياسية خطوة هامة في إشراك ممثلـي الحـزب في المجلس الـوطني، الأمـر الـذي شـكل انعطافاً جديداً، تطـور فيمـا بعـد باشـتراك ممثـل الحـزب في الوزارة.

الفصل التاسع والعشرون

خدمة العلم

بتاريخ ١٩٦٢/٩/١٦ تم سوقي إلى الخدمة العسكرية، وكانت تسمى خدمة العلم. توجهت إلى كلية ضباط الاحتياط في حلب، وبعد التسجيل والقضايا الإجرائية، والتثبت من الهوية الشخصية ودفتر الخدمة الإلزامية، نزعت ثيابي المدنية ولبست اللباس العسكري الفضفاض والبسطار المناسب. وكان فريقنا كبيراً وواسعاً، يضم أفراداً من الأطباء والمحامين والصيادلة والخريجين الآخرين. وكنت أكبرهم سناً، والسبب في ذلك، أنني بعد تخرجي في عام ١٩٥٠، كانت القيادات المسؤولة عن الدعوة للخدمة، تؤجل سوقي بحجة انتمائي السياسي وموقعي الحزبي. إلى أن وصلت إلى سن تقترب من الأربعين، وهي السن المعفاة من الخدمة في ذلك الوقت. وأصبحوا أمام وضع حرج فإما إعفائي وهو أمر غير مرغوب ويعطي انطباعات سياسية غير مريحة، وإما دعوتي، رغم هذا التأخير. وكانت الدعوة في التاريخ المحدد أعلاه.

وزعنا على المهاجع وبدأ العمل الجاد. الاستيقاظ المبكر في الخامسة أو السادسة صباحاً، والتوجه لمهمة الرياضة، ثم التدريب العسكري والمسيرات والرمي وغير ذلك. وكانت مهمة الرياضة محببة إلي، أما المسيرات فلم أكن موفقاً فيها، ومرة قام فريقنا بمسيرة ١٠ كيلومترات، ووصلت إلى الثكنة متأخراً نحو ٣٠ دقيقة، وعانيت آلاماً كثيرة في قدمي. وكنت أحب التدريب ولكن الخطوة العسكرية الشديدة وخصوصاً على كعب الرجل، آلمتني كثيراً وأقعدتني أحياناً. لم أكن موفقاً في الرمي، ورميت عشر رصاصات، ولم تصب أي منها مركز الدائرة التي ترمى عليها، وأتقنت بشكل جيد فك البندقية وإعادة تركيبها وتنظيفها. كانت المراقبة شديدة عليّ وعلى الرفيق برهان دراق السباعي الذي سيق في نفس الدورة، وفتش سريري مراراً. ومرة همس في أذني أحد المدربين: انتبه فالمراقبة دقيقة عليكما. وقد استطاع الرفيق برهان أن يقيم علاقات صداقة مع بعض المساعدين المشرفين، وأغرقهم بكميات من مساطر الأدوية، التي

السوري. وعبرت من جهة ثانية عن ألمي لترك العمل الحزبي، وانقطاعي عن متابعة نضالي في صفوف الحزب، وأن أنقطع عن تغذية هذه الشجرة التي تنمو فروعها وتمتد جذورها في الأرض. واحتوت الرسالة على تعابير أخرى تتصل بالحزب، لم أعد أذكرها حالياً.

فسر الرفيق خالد بكداش هذه الرسالة بأنها تعبر عن طموح وجنوح من قبل الرفيق يوسف الفيصل، وبأن لديه تطلع ما، ولابد من معالجة ذلك، بإبعاده عن القيادة وتكليفه بالعمل في منظمة حزبية، ليخفف من غلوائه، وكان نصيبي منظمة حلب.

وصلت إلى حلب والتقيت بالرفاق المسؤولين، واهتم بي الرفيق عبد الجليل جرجنازي الذي أحاطني هو وعائلته الكريمة برعاية واهتمام، وأقمت عند أحد الرفاق بضعة أيام ثم اختاروا لي شقة صغيرة من غرفة واحدة أرضية مع بضعة أشجار في حي الميدان، الحي الأرمني السابق والذي غادره عدد كبير من سكانه الأرمن وعادوا إلى وطنهم الأم في أرمينيا.

كان علي أن أدير أموري وحدي، وبالتالي كان من الضروري أن أقوم بالطبخ في الغرفة نفسها، وأن أتحمم فيها أيضاً. وكنت أتقن بعض الطبخات البسيطة التي تعلمتها في السجن »كالمجدرة«، ولكنني غامرت بأن أطبخ فاصولياء، ولكن مع الأسف احترقت الفاصولياء ولم أنجح بطبخها.

اكتشفت يوماً أن فتاة من الدار المجاورة كانت تضع سُلماً وتحاول مشاهدتي، وماذا أعمل؟ ولم أُقدِّر بشكل صحيح، هل كان هذا مراقبة سياسية أم كان تطفلاً من الفتاة للتعرف على حياة شاب يسكن الشقة المجاورة؟ ووصلت إلى تقدير التطفل، ولكنني اتخذت الاحتياطات اللازمة.

بعد شهرين من وجودي في حلب، أعادت القيادة النظر في قرارها، وألغت قرارها السابق، وطلبت عودتي إلى دمشق وإلى عملي السابق. وعرفت فيما بعد أن الرفاق ظهير عبد الصمد ودانيال نعمة وموريس صليبي وإبراهيم بكري، قد احتجوا على تصرف القيادة وطالبوا بإلغائه وبعودتي إلى عملي.

الفصل الثلاثون

استقلال الحزب الشيوعي اللبناني

كان عام ١٩٦٤ عاماً هاماً في تاريخ الحزب الشيوعي السوري. ففي نهاية عام ١٩٦٣ وفي عامي ١٩٦٤ و ١٩٦٥ تغيرت بنية السلطة كلياً. وبدأ الواقع الاجتماعي يتغير بسرعة، بتحقيق تحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية غيرت وجه سورية جذرياً وغيرت موازين القوى الطبقية فيها.

في هذا العام كان على الحزب الشيوعي أن يراوح قليلاً، وأن يتوقف برهة ليعيد النظر فيما جرى خلال السنوات السابقة، ويحلل قضية الوحدة وما جرى خلالها والمواقف الفكرية تجاه قضايا القومية العربية، ويتدارس الوضع الدولي وما يحيط به، ويدرس القضايا التنظيمية وأوضاع الكادر، ويجد أشكالاً جديدة من العمل الجماهيري، ويضع فهماً جديداً للعمل.

ولكن الحزب لم يتخذ هذا الموقف، وتأخر ذلك حتى عام ١٩٦٩ عند انعقاد المؤتمر الثالث للحزب، وبدأ تفجر الأمور واحداً بعد الآخر.

وكان من أبرز القضايا التي حدثت في هذا العام، إعلان الحزب الشيوعي اللبناني استقلاليته الكاملة عن الحزب الشيوعي السوري، وتشكيل هيئاته القيادية المستقلة، وانقطاع علاقات التعاون الرفاقي بين الحزبين.

إن نظرة تاريخية سريعة تشير إلى أن الحزبين بدأا عملهما منذ اليوم الأول كحزب واحد، وسمي الحزب الشيوعي السوري. ففي عام ١٩٢٤ لم تكن دولة لبنان قد تكونت تماماً. وكانت حدود سورية آنذاك تشمل لبنان والأردن، وكان لبنان في إطار هذا الوضع يشكل متصرفية. ولهذا سمي الحزب عند تأسيسه الحزب الشيوعي السوري. وفي عام ١٩٣١ عندما صدرت أول وثيقة تشهر قيام الحزب كانت بعنوان: لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري، غايته القصوى وشيء من بروغرامه. وفي نهاية عام ١٩٤٣ وأوائل عام ١٩٤٤، أصبحت الدولة اللبنانية واقعاً صريحاً، وأصبح كيان الدولة

ومؤسساتها وعلمها واضحة وملموسة، وفي هذا التاريخ عقد الحزب الشيوعي مؤتمره الوطني في بيروت، واتخذت فيه قرارات بأن يكون هناك حزب شيوعي سوري علمه هو العلم السوري ونشيده هو النشيد الوطني السوري، وانتخبت لجنة مركزية سورية. وآخر لبناني علمه هو العلم اللبناني ونشيده هو النشيد الوطني اللبناني. كما انتخبت لجنة مركزية لبنانية. وانتخب خالد بكداش رئيساً للحزب السوري وفرج الله الحلو رئيساً للحزب اللبناني. ولكن هذا التدبير لم يأخذ طريقه للحياة، وبقي شكلياً أو أبقي شكلياً. ولم تحترم الاستقلالية التي تقررت. وبقي الحزب عملياً حزباً واحداً، وكان يسمى الحزب الشيوعي في سورية ولبنان، أو الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني. وتشكلت قيادة موحدة للحزب في البلدين، ضمت: خالد بكداش، فرج الله الحلو، أرتين مادويان، نقولا شاوي، حسن قريطم. وكان يدعى لحضور اجتماعات هذه القيادة، رفاق مختلفون من سورية ولبنان، دون إعلان عضويتهم في هذه القيادة، وكنت في عداد هؤلاء الرفاق، وكذلك الرفيق إبراهيم بكري والرفيق خليل حريري.

لقد اعتبر المؤتمر الوطني المؤتمر الأول، بسبب أن اجتماعات التأسيس لم تعلن كمؤتمرات، وأدى هذا إلى اختلاف في تعداد المؤتمرات. فالرفاق اللبنانيون اعتبروا المؤتمر الوطني هو الأول، وانتقلوا مباشرة إلى المؤتمر الثاني. بينما اتخذ الحزب الشيوعي السوري نهجاً آخر، إذ اعتبر اجتماعات التأسيس بمثابة المؤتمر الأول، والمؤتمر الوطني هو الثاني، وانتقل مباشرة إلى المؤتمر الثالث.

كان مركز هذه القيادة في لبنان. وتركزت جميع المؤسسات الحزبية كالمطابع والبيوت السرية والمشاريع الاستثمارية في لبنان، وعندما انفصل الأشقاء اللبنانيون لم يحصل الحزب الشيوعي السوري على أي حصة من هذه المشاريع. وكان الكادر الحزبي يوزع على منظمات البلدين. فقد عمل الرفيق ظهير عبد الصمد فترة طويلة في قيادة منظمة طرابلس والشمال، وعملت أنا فترة ستة أشهر في قيادة منظمة بيروت، بينما عمل الرفيقان أوهانس أغباشيان وعزيز صليبا فترة طويلة في قيادة منظمة حلب وهما لبنانيان. وقاد رفيق رضا منظمة حماة لعدة سنوات. وعمل العديد من الكادرات السورية في المطابع السرية في لبنان مثل بهجة بكداش وإبراهيم ميرزا وأسعد خوري وغيرهم.

بدأ بروز الكادرات السورية بعد انتخابات عام ١٩٥٤ ونجاح خالد بكداش نائباً عن دمشق. في هذه الفترة انتقلت القيادة إلى دمشق، وأصبح الاهتمام بدمشق وسورية هو

الأساس. وأصبح فرج الله الحلو مسؤولاً عن جريدة (النور). ونقولا شاوي عن قضايا التنظيم، وبقيت القضايا المالية للحزبين بيد الرفيق أرتين مادويان، وكان حسن قريطم يساعد المنظمات الحزبية السورية، سواء في دمشق أو في غيرها من المدن السورية وكُلّفتُ بالعمل مع الرفيق خالد بكداش، سواء في نشاطه البرلماني، أو السياسي والتنظيمي.

وتركزت قيادة النشاط الحزبي في لبنان بيد يوسف خطار الحلو يساعده أنطون ثابت ومجموعة من الشباب، منهم صوايا صوايا ونخلة مطران وإدمون عون وأوهانس أغباشيان وغيرهم.

بدأت القطيعة من جانب الرفاق اللبنانيين، وتطورت تدريجياً، من حالة فتور في العلاقات وعدم الإجابة على رسائل ومطالب القيادة السورية التي كانت موجودة آنذاك، ثم تطور الأمر إلى قطيعة كاملة.

ولابد لأي مراقب ومتابع لتطور الأوضاع في البلدين وفي الحزبين، أن يرى جملة أسباب وعوامل عميقة أدت إلى القطيعة.

وهذه الأسباب عديدة برأيي ويمكن شرحها بما يلي:

١. الاختلاف الجذري في طبيعة الوضع في البلدين، اقتصادياً، وسياسياً، الأمر الذي جعل من المستحيل موضوعياً ربط سياسة حزب بحزب آخر.

٢. الآثار التي تركتها الوحدة السورية ـ المصرية والمواقف التي اتخذها الشيوعيون اللبنانيون بالتحالف مع الحركة الناصرية والتيار القومي العربي، وبدء ظهور اتجاه قومي في قيادة الحزب الشيوعي اللبناني، الأمر الذي عارضه الرفيق خالد بكداش وانعكس على العلاقة. فقد اتخذت مجموعة الشباب الذين برزوا في واجهة الحزب اللبناني في تلك الفترة: جورج حاوي، كريم مروة، نديم عبد الصمد، جورج بطل، غسان الرفاعي، خليل الدبس وغيرهم، مجموعة مواقف فكرية وسياسية ذات طبيعة استقلالية، ومحاولة الابتعاد عن الاتحاد السوفييتي، وانتقاد خالد بكداش ومواقفه المتطابقة أو المماثلة للحزب الشيوعي السوفييتي، والتعاطف مع الشيوعية الأوربية، وما إلى ذلك. هذا إلى جانب العمل على ممارسة سياسة لبنانية مستقلة، وبناء تحالفات وطنية مع مختلف القوى الفاعلة في الميدان الوطني اللبناني.

كان الرفيقان نقولا شاوي وأرتين مادويان بعيدين في البدء عن النهج الذي سار عليه الشباب، وبسلوك ذكي ومسؤول استطاع الشباب كسب هذين القائدين

التاريخيين إلى جانبهم، وانتخب نقولا شاوي أميناً عاماً للحزب وجورج حاوي نائباً للأمين العام ومسؤولاً عن التنظيم.

٣. قضايا مرتبطة بأساليب القيادة، وشعور الرفاق اللبنانيين بأن دورهم ثانوي غالباً، ولابد في هذا المجال من الإشارة إلى أشكال التعامل التي كان يمارسها خالد بكداش تجاه قادة مثل نقولا شاوي وأرتين مادويان، فلم يكن في هذا التعامل روح رفاقية بل وإنسانية أحياناً، وكان خالد بكداش ينفجر في الاجتماعات، وينطق بكلمات نابية بحق هذين القائدين.

إن غياب الديمقراطية، ترك تأثيراً نفسياً على سلوك الرفاق اللبنانيين وعلى تفكيرهم، وانعكس ذلك في تصرفهم تجاه القيادة الموحدة للحزبين والاندفاع نحو الاستقلالية.

ولابد لي في هذا الإطار من تسجيل حقيقة تاريخية هامة جداً في حياة الحزب الشيوعي السوري، ففي أعوام ٥٨ ـ ٦١، أعوام الوحدة والاعتقال والسجن والتعذيب، لجأ إلى لبنان مئات من الكادرات الحزبية السورية، وقد استقبلهم الرفاق اللبنانيون استقبال الأخ لأخيه، وساعدوهم على تأمين السكن والعمل وفي تسهيل سفرهم للخارج، إضافة إلى التضامن الإعلامي والسياسي وحملات الاحتجاج على الاعتقال وعلى اعتقال فرج الله الحلو، ولا يمكن لأي شيوعي سوري أن ينسى هذا التضامن الرفاقي الأخوي.

اتخذنا في القيادة السورية موقفاً موحداً في مجابهة الرفاق اللبنانيين، وقمنا بنشاطات متعددة لشرح المواقف التي يمارسها الرفاق اللبنانيون، سواء لدى منظمات حزبنا الشيوعي السوري، أم لدى الأحزاب الشقيقة.

كما اتخذنا موقف التشجيع للمجموعات اللبنانية التي وقفت ضد النهج الذي سار عليه الحزب، فقد تمت صلات وعلاقات جيدة مع نخلة مطران وأدمون عون وسهيل يموت، وتمت صلات وثيقة جداً فيما بعد مع الرفيق حسن قريطم وصوايا صوايا وأوهانس أغباشيان. وقدمت لهم مساعدات سياسية ومالية ودعائية.

كان هذا السلوك برأيي خاطئاً، فعوضاً عن السعي الأخوي الرفاقي لتعديل المواقف، سلكنا سلوك الصدام والمجابهة، وكان أحرى بنا أن نتخذ موقف الاعتراف بحق الرفاق اللبنانيين بأن تكون لهم قيادتهم المستقلة، وأن تكون لهم سياستهم الخاصة بهم حسب ظروفهم الملموسة، وقد تأخرنا في إدراكنا أنه لم يعد ممكناً فرض سياسة حزب على حزب آخر.

لم تدم القطيعة طويلاً مع الحزب الشيوعي اللبناني، وبعد عدة سنوات بدأت تتضح الأمور، وأخذتُ مع عدد من رفاق القيادة، ننسج مجدداً عودة العلاقات، والمشاركة في فعاليات الحزب اللبناني ومؤتمراته، ففي عام ١٩٧٢ حضرت المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي اللبناني في بيروت، وألقيت كلمة تحية للمؤتمر باسم الحزب الشيوعي السوري. وأخذت العلاقات تتطور إيجابياً مع مجموعة من الرفاق في قيادة الحزب الشيوعي السوري، رغم بقائها متوترة بشكل من الأشكال مع الرفيق خالد بكداش. وقد بذلنا جهوداً كبيرة لعودة العلاقات الرفاقية بين قيادة الحزب الشيوعي اللبناني والرفيق حسن قريطم وإخوانه، واستجابت القيادة اللبنانية لذلك وخاصة الرفيق جورج حاوي، ووافقت على أن يقوم حسن قريطم بزيارة للاتحاد السوفييتي. وعندما اكتمل التحضير لذلك وسافر حسن قريطم إلى بيروت لاستلام جواز سفره، وافته المنية، وخسرت الحركة الشيوعية العربية مناضلاً فذاً وقائداً غيوراً ومتفانياً في سبيل الحزب.

إن الدروس التي يجب استخلاصها من مسيرة الحزب الشيوعي في سورية ولبنان، قيِّمة وهامة، سواء في جوانبها الإيجابية أم السلبية، وأهم درس هو احترام استقلالية كل حزب، وعدم التدخل في شؤونه الداخلية، واحترام القادة الذين ينتخبون في المؤتمرات ويحصلون على ثقة الرفاق، والاتفاق على أن فهم الماركسية ـ اللينينية وتطبيقها الحي في كل مكان، يرتبط بالوضع الملموس للبلد والحزب.

يجب الاستفادة من هذه التجربة، فهي من جهة تشير إلى قواعد التعاون والتحالف الوثيق بين القوى الديمقراطية المستقلة وهي من جهة أخرى تحترم الاستقلالية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية.

❖❖❖

في عام ١٩٦٤ بدأت بوادر الخلاف داخل الحزب الشيوعي السوري تظهر للعلن. فكما ذكرنا في أول البحث كان من المفروض أن يعقد الحزب مؤتمراً، أو في أقل تقدير مجلساً وطنياً لمناقشة مجمل التطورات التي حصلت في البلاد.

وفي هذه الفترة، كان قد خرج من السجن عدد وفير من الكادرات الحزبية الرئيسية، التي كان أغلبها ممن صمدوا خلال كل سنوات الاعتقال وجابهوا التعذيب.. وكان هؤلاء الرفاق أثناء سجنهم يبحثون شؤون الحزب ويناقشون مواقفه المختلفة،

وقد أرسل قسم منهم للدراسة في مدرسة الحزب العليا في الاتحاد السوفييتي، وكانوا يشكلون مع الرفاق اللبنانيين منظمة موحدة، وانقسمت المنظمة مع الانقسام الذي وقع، ولكن المناقشات كانت واسعة، وكانت تطرح أفكاراً ومواقف مختلفة. وأشبع الرفاق السوريون بروح جديدة، سواء عبر الدراسة أو عبر الطروح اللبنانية، وخاصة ما يتعلق بالديمقراطية داخل هيئات الحزب وفي نشاط الحزب، وما يتصل بعبادة الفرد، وكذلك بالتجديد في الهيئات الحزبية، وجعل تكوينها مرتبطاً بالانتخاب. إضافة إلى أفكار أخرى، ترتبط بالقضية القومية وشروط تشكل الأمة، وبالموقف الأممي. ولم يأخذ البعض في قيادة الحزب، ومنهم كاتب هذه السطور، هذا الوضع بالحسبان، ونظر إليه كشيء عابر، يمكن أن يحدث ويزول. ولم يمسك الرفيق خالد بكداش الحلقة الرئيسية في هذا الوضع، الذي تراكم فيما بعد وانعكس خلال مناقشات التحضير للمؤتمر الثالث، ثم بعده عند وضع مشروع برنامج للحزب. وأدى إلى صراعات حادة وانقسامات.

الفصل الحادي والثلاثون

٢٣ شباط ١٩٦٦

احتدم الصراع بين القيادة القومية، ممثلة بميشيل عفلق وصلاح البيطار ومنيف الرزاز وبين العسكريين، وأصدرت القيادة القومية سلسلة قرارات لتحجيم العسكريين، وكان أبرزها حل القيادة القطرية التي تؤيد صلاح جديد وإجراء تبديلات في القيادات الحزبية والحكومية والعسكرية وتشكيل حكومة برئاسة صلاح البيطار، ضمت محمد عمران وزيراً للدفاع. وكان من أهم التنقلات العسكرية التي أصدر أوامر بها محمد عمران هي نقل أحمد سويداني مدير شؤون الضباط وعزت جديد آمر سلاح الدبابات، وسليم حاطوم الذي كان يحرس أغلب المؤسسات الاستراتيجية. وحاولت القيادة القومية إجراء مصالحة مع صلاح جديد فوضع شروطاً لذلك، إذ طلب استقالة الحكومة وتشكيل حكومة جديدة يتفق عليها. وطلب دخوله إلى مجلس الرئاسة. ورفضت القيادة القومية هذه المطالب، وأصدرت مرسوماً بإعادة تشكيل المجلس الوطني للثورة واكتفت بثلاثة فقط من العسكريين هم الفريق أمين الحافظ رئيس مجلس الرئاسة، واللواء محمد عمران وزير الدفاع، واللواء حافظ الأسد قائد سلاح الطيران.

أمام هذه التطورات جميعاً وغيرها أيضاً، رأت اللجنة العسكرية أن الأمور تسير نحو الأسوأ. وقررت القيام بحركة لإبعاد القيادات الحزبية والعسكرية القائمة. ففي فجر يوم ٢٣ شباط قامت مغاوير سليم حاطوم تدعمها كتيبة دبابات من قوات رفعت الأسد ودبابات أخرى من قوات عزت جديد بشن هجوم على منزل أمين الحافظ. وجرت معركة استمرت حتى الظهيرة، وقع فيها قتلى وجرحى. واستسلم أمين الحافظ ونقل ومعه محمد عمران، إلى سجن المزة، كما جرى اعتقال القيادات المدنية وفي مقدمتهم صلاح البيطار.

بعد حركة ٢٣ شباط مباشرة عقد المؤتمر القطري الاستثنائي في العاشر من آذار واتخذ قرارات هامة، فتحت الطريق لتطور عميق اقتصادي واجتماعي. ومن أهم هذه

القرارات: إلغاء القواعد العسكرية ومحاربة الأحلاف الاستعمارية، تدمير الأسلحة الذرية، عدم الانحياز، وقوف المعسكر الاشتراكي ضد الاستعمار ضمانة للشعوب، اللقاء مع القوى والحركات التقدمية في العالم، الدعوة للوحدة العربية في مفهومها الديمقراطي والشعبي، التحويل الاشتراكي، لقاء القوى التقدمية، الحرب الشعبية لتحرير فلسطين.

وأصبح الدكتور نور الدين الأتاسي رئيساً للدولة، والدكتور يوسف زعين رئيساً للوزراء، واللواء صلاح جديد رئيساً للأركان، واللواء حافظ الأسد وزيراً للدفاع.

تشكلت وزارة جديدة وأصبح عضو الحزب الشيوعي السوري المحامي سميح عطية وزيراً للمواصلات دون إعلام الحزب مسبقاً ودخل الوزارة عدد من الشخصيات المستقلة التي تحمل ميولاً تقدمية.

كانت الموافقة على قبول الرفيق سميح عطية منصباً وزارياً موضع نقاش موسع في هيئات الحزب القيادية، فقد كان اشتراط القيادة البعثية، اعتبار الرفيق سميح عطية شخصية تقدمية مستقلة، وليس ممثلاً رسمياً للحزب الشيوعي السوري.

اجتمعنا في القيادة أكثر من اجتماع لبحث هذا الموضوع، وأخبرت الرفيق خالد بكداش بالواقع الجديد. وكان رأينا الموافقة على قبول هذا الشكل من المشاركة، إذ إنه يمثل خطوة إلى الأمام. وجاء توجيه الرفيق خالد بكداش منسجماً مع توجهاتنا.

وكانت هذه الخطوة أشبه بانعطاف جديد آثار موجة واسعة من الجدل داخل الحزب الشيوعي وبين القوى الصديقة والتقدميين جميعاً، وقد وقف عدد من الأصدقاء ضد هذا الانعطاف في العمل السياسي في سورية العربية. وجرت لقاءات ومناقشات بيني وبين المعترضين على قبول الحزب المشاركة، وكان جوهر الاعتراضات تنطلق من الشك في صدق حزب البعث، وأن هدفه هو توريط الشيوعيين وكشف تنظيماتهم لضربهم لاحقاً وتصفيتهم كما جرى في إندونيسيا على يد الجزار سوهارتو. كما ظهرت داخل الحزب أفكار ذات طابع يساري متطرف تشكك في قدرة أية قوة غير الشيوعيين على السير في طريق البناء الاشتراكي.

لهذا كان علينا أن نعلن موقفنا بوضوح كامل. وقد نشرت جريدة «نضال الشعب» مقالاً بعنوان: «سياسة الحزب الشيوعي السوري في الوضع الجديد بعد أحداث ٢٣ شباط»، وتم التأكيد على أن المقالة وضعت وفق توجيهات المكتب السياسي. وجاء فيه ما يلي: «بعد أحداث ٢٣ شباط التي أدت إلى إبعاد العناصر اليمينية (عفلق والبيطار

ومن إليهما) عن مواقع القيادة في حزب البعث انعكس هذا التعاون إلى حد ما (إلى حد بسيط جداً) في تركيب الحكومة الجديدة التي تألفت في سورية في أوائل آذار».

«إن إقدام حزبنا على هذه الخطوة كان بقرار إجماعي من اللجنة المركزية للحزب، ونال القرار موافقة جميع منظمات الحزب...».

وكان على القيادة أن ترد في هذه المقالة على كثير من التساؤلات التي وصفت بالآراء الخاطئة والتي يمكن شرحها فيما يلي:

١. الآراء التحريضية التي تزعم أن الشيوعيين لا لزوم لهم ولا مكان لهم في سير التطور التقدمي ما دامت هناك قوى أخرى غير شيوعية تنادي بهذا التطور.

٢. الآراء اليسارية التي مبعثها التحجر العقائدي التي تنكر أي دور للفئات التقدمية الأخرى في النضال من أجل الاشتراكية، كما تنكر أهمية التحولات الاقتصادية والاجتماعية التقدمية، ما دامت تقوم بها عناصر قومية تقدمية، أي غير بروليتارية.

٣ـ الآراء المغرضة التي مبعثها الرئيسي الدعاية الاستعمارية التي تزعم أن دعوة الشيوعيين إلى التعاون والاتحاد هي مناورة هدفها إزاحة العناصر التقدمية الأخرى.

وجاء في المقالة أيضاً: قلنا إن التعاون في نطاق الحكم لا يكفي ولا يستطيع أن يحل جميع المعضلات والمشاكل المعقدة التي تجابهها البلاد.

وطالبنا: «أن يستند الحكم في سورية إلى اتحاد جميع القوى التقدمية والوطنية البعث اليساري والاشتراكيين العرب والاشتراكيين المستقلين والشيوعيين، وكذلك سائر الوطنيين الذين لا يقفون موقف العداء من الاشتراكية هدفاً ومطمحاً. ومن الممكن أن يتخذ هذا الاتحاد شكل تعاون في جبهة وطنية تقدمية شاملة، أو أي شكل آخر ينطلق من واقع البلاد الحقيقي.

وركزت المقالة على عدم إخافة البرجوازية الصغيرة وسائر الفئات المتوسطة، وفضحت شائعات تأميم العقارات والبيوت.

لقد كنا في حركة دائمة، نخرج من اجتماع ونتوجه لحضور الآخر، ننتقل من منظمة إلى أخرى، ومن مدينة إلى مدينة ثانية.

لعب الموقف السوفييتي دوراً كبيراً في دعم نقاشنا الداخلي والخارجي وفي تثبيت الوضع الجديد، ففي شهر آذار زار دمشق مراسل البرافدا الدائم في القاهرة يفغيني

بريماكوف[٩] . وقد التقيت به لقاء مطولاً وشرحت له الوضع تفصيلياً وبالأشخاص، ماضيهم وحاضرهم، وموازين القوى، وأجرى لقاءات أخرى مع خالد الجندي رئيس اتحاد النقابات في حينه. وبعث بمقالة لجريدة (البرافدا) بعنوان «ريبورتاج من سورية» تحدث فيه عن أحداث شباط والصدامات، وكذب أقوال الصحافة الغربية بوقوع آلاف القتلى. وتحدث عن الهدوء في دمشق وعن التحولات التي جرت وأهميتها، وعن برنامج حكومة يوسف زعين الجديدة.

في ١٩٦٦/٤/١٨ قام وفد يضم يوسف زعين رئيس الوزراء، وحافظ الأسد وزير الدفاع، وجميل شيا نائب رئيس الوزراء، وأحمد مراد وزير الاقتصاد، وإبراهيم ماخوس وزير الخارجية، بزيارة إلى موسكو. وجرت مباحثات مطولة ومعمقة مع القادة السوفييت وعلى رأسهم بريجينيف وكوسيغين واتفقوا على تجديد العمل بالاتفاق السوري السوفييتي لعام ١٩٥٧ الذي وقعه خالد العظم في حينه: وشمل الاتفاق بناء سد على نهر الفرات وبناء محطة كهربائية، وتقديم قرض بمبلغ ٥٠٠ مليون روبل وبفائدة ٢,٥ ٪ ، يسدد بعد إنهاء المشروع بسنة واحدة وعلى مدى ٢٥ عاماً. وفي ٤/٢٧ جرى لقاء بين بريجينيف والوفد السوري.

وقد استقبل الشعب السوري هذا الاتفاق بحماسة ظاهرة الأمر الذي عزز وضع السلطة الجديدة وعزل خصومها. وفي احتفالات أول أيار لذلك العام سارت في شوارع دمشق تظاهرة حاشدة ضمت أكثر من ثلاثين ألف من أبناء الطبقة العاملة والفلاحين والطلاب، وقد ساهم الحزب الشيوعي وكل القوى التقدمية بهذه التظاهرة الجماهيرية، إلى جانب إخوانهم البعثيين.

وفي تعليقها على التظاهرة قالت «نضال الشعب» كانت أصوات العمال تهدر كالرعد منددة بالاستعمار والرجعية وضد الحلف الإسلامي والأسطول السادس الأمريكي ومؤتمر الدبلوماسيين الأمريكيين، الذي عقد لدراسة خطط التآمر على سورية. وحثت التظاهرة على وحدة الطبقة العاملة وتعاون القوى التقدمية في سورية وعلى النطاق العربي. وهتف المتظاهرون لبناء سد الفرات وأعلنوا حرصهم على حماية التأميم وإنجاز الإصلاح الزراعي.

---

[٩] ــ يفغيني بريماكوف: كان في ظل النظام السوفييتي رئيساً لمعهد الاستشراق وأصبح عضواً في اللجنة المركزية ومرشحاً للمكتب السياسي، ثم بعد زوال الاتحاد السوفييتي بقي شخصية بارزة وأصبح مديراً للمخابرات العامة (ك ــ ج ــ ب) ثم وزيراً للخارجية ورئيساً لمجلس الوزراء.

في عام ١٩٦٦ عاد خالد بكداش إلى سورية، بعد أن غادرها إثر أحداث حركة الثامن من آذار ١٩٦٣.

كان علي أن أرتب وصوله إلى دمشق مخترقاً الحدود حتى بيته. وتم تنظيم الأمور بمشاركة الرفاق يفتاح داود وميشيل عيسى وواصل الفيصل. وكلف الرفيق يفتاح بالذهاب إلى بيروت وإيجاد شقة ملائمة يستأجرها باسمه. وتم ذلك وفرشت الشقة، وعشنا فيها معاً عدة أيام. وبعد أيام وصل الرفيق خالد بكداش، واستقبلناه في الشقة وأقام فيها زهاء عشرة أيام. وبعد ذلك أتت المرحلة الثانية وهي الوصول إلى سورية، وتم ذلك بمساعدة الرفيقين ميشيل عيسى وواصل الفيصل، وبعد استراحة بضعة أيام في حمص انتقلنا إلى دمشق، إلى بيت الرفيق خالد بكداش.

وكان قرار القيادة بأن نعلن عن وصوله مباشرة، وأن يمارس عمله العلني الشرعي. وذهبتُ برفقة الرفيق دانيال نعمة إلى رئيس الوزراء يوسف زعين وأبلغناه بأن الرفيق خالد بكداش أصبح في بيته، في دمشق، وبعد برهة بدا الاستغراب واضحاً في وجهه، إلا أنه قال لنا: نرجوكم أخذ الواقع الراهن بالحسبان.

وهكذا عاد الرفيق خالد بكداش إلى العاصمة وبدأ عمل المكتب السياسي بحضوره بشكل عادي.

عقد في حزيران ١٩٦٦ اجتماع للجنة المركزية، أجمل جميع هذه التطورات والمواقف وبحثها بعمق وبالتفصيل، واتخذ قراراً بتأييدها. وفي ضوء مناقشات هذا الاجتماع كتب خالد بكداش مقالاً مفصلاً بعنوان «مميزات المرحلة الحالية في سورية ومهمات القوى التقدمية».

وبناء على قرارات اللجنة المركزية بضرورة القيام بنشاط دولي لشرح تطور الأوضاع في سورية. فقد جرى نشاط واسع في هذا الميدان. وقمت بزيارة بولونيا، وعقدت سلسلة اجتماعات مع المسؤولين في قيادة الحزب لشرح الظروف الناشئة في سورية. وكان الاهتمام واسعاً بمعرفة تفاصيل الوضع السياسي والاقتصادي وميزان القوى الطبقية. وسافر وفد إلى ألمانيا الديمقراطية برئاسة الرفيق ظهير عبد الصمد. ووفد آخر إلى تشيكوسلوفاكيا برئاسة ظهير عبد الصمد أيضاً. وقام الرفيق عمر قشاش بمهمة زيارة منغوليا.

في ٨ أيلول وقعت مؤامرة كان بطلها سليم حاطوم. فقد احتجز في السويداء الأمين العام لحزب البعث نور الدين الأتاسي والأمين العام المساعد صلاح جديد. وحاول عبر

هذه العملية فرض شروطه على القيادة العسكرية وجوهر مطالبه، هي الإفراج عن نحو مائة ضابط بعد انكشاف تجمعهم ضد الوضع، وقيام منيف الرزاز بتشكيل لجنة عسكرية جديدة. وقد لعب اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع دوراً حاسماً في إفشال هذا العمل التآمري وإحباطه. فقد وجه إنذاراً إلى سليم حاطوم ومن حوله، بقصف مدينة السويداء وتسيير قوى عسكرية مدرعة، للإفراج عن المحتجزين.

وهكذا أسقط بيد سليم حاطوم، وأفرج عن الرئيس الأتاسي ونائبه صلاح جديد.

ومما يلفت النظر أن أحد جوانب الاتهام التي برر بها سليم حاطوم عمله، هو محاولة إنقاذ سورية من خطر الشيوعية وإبعاد «العناصر الشيوعية» عن مراكز السلطة. وكان يعرف جيداً أنه لا يوجد أي شيوعي في قيادات النظام؟ إلا أن الهدف كان وقف العلاقات مع الاتحاد السوفييتي، وقطع الطريق على التعاون بين القوى التقدمية.

وقد وجه الحزب برقية في نفس اليوم إلى القيادة القطرية وإلى رئاسة الدولة ورئاسة مجلس الوزراء، باسم المكتب السياسي، وحملت تواقيع: خالد بكداش، إبراهيم بكري، دانيال نعمة، يوسف الفيصل، ظهير عبد الصمد، عمر السباعي.

وجاء في نص البرقية: «إننا ورفاقنا وإخواننا في سائر أنحاء وطننا، نشجب التآمر العفلقي البيطاري المجرم. ونعلن تأييدنا التام لكل خطوة حازمة تتخذونها لإنقاذ منجزات شعبنا التقدمية والسير بها إلى أمام، ونعلن استعدادنا للمساهمة بكل طاقاتنا في هذا السبيل. كما نحيي دعوتكم إلى تضامن جميع القوى التقدمية في المعركة الكبرى التي تجابهها بلادنا...».

أمام جميع هذه التطورات: التأميم، الإصلاح الزراعي، توقيع عقود مع الاتحاد السوفييتي لبناء سد الفرات وإقامة مشاريع أخرى. النهوض الشعبي العارم، اشتراك شيوعي في الحكومة، قضايا النفط... أمام كل ذلك بدأ نشاط استعماري واضح وبدأت إسرائيل وقوى الرجعية العربية تتهدد وتتوعد. فقد صرح ليفي أشكول رئيس وزراء إسرائيل «أن إسرائيل ستهاجم سورية وستحدد الوقت المناسب والشكل المناسب. كما صرح وصفي التل رئيس وزراء الأردن: «إن حدود سورية ستفتح بالدبابات الأردنية».

وبالمقابل دعا الحزب الشيوعي إلى تعزيز الوحدة الوطنية ووجه نداء إلى الأحزاب الشيوعية وقوى التقدم في العالم من أجل التضامن مع نضال الشعب السوري.

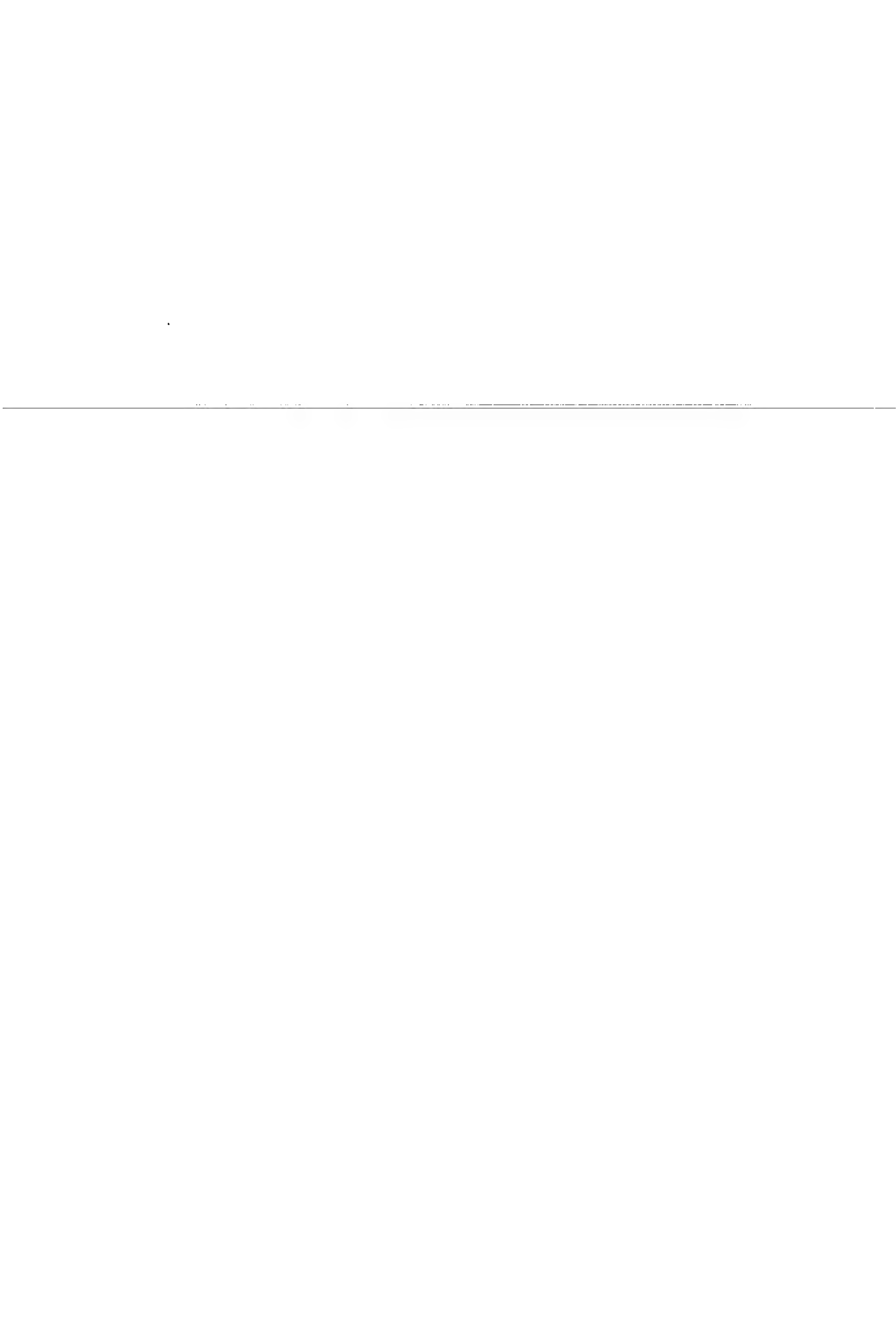
يدور نقاش الآن حول جوهر هذه التطورات وآثارها اللاحقة في سورية. وجوهر هذا النقاش هو أن هذه الأحداث كانت الخطوة الأولى لسيطرة العسكريين الكاملة على النظام في سورية وعلى مقدراته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهي التي فتحت الطريق للشمولية التي طبعت الوضع في سورية، ولسلطة الأجهزة الأمنية ولتعثر الديمقراطية.

وهذا الرأي الذي يبدو صائباً اليوم في ظروف الحاضر وتطوراته، لا يمكن إسقاطه على مجمل الوضع في ذلك الحين، إذ كانت البلاد يومئذ أمام منعطفين:

ـ المنعطف الوطني التقدمي الذي سارت عليه والذي استمر حتى الآن.

ـ المنعطف الثاني، هو السير في سياسة يمينية رجعية، تربط مصير سورية بدوائر استعمارية، وتربط تطورها الاجتماعي بقوى رجعية يمينية.

ولم يكن ممكناً في ضوء ميزان القوى السياسي والاجتماعي وفي ضوء الوضع الدولي ووجود بلد كالاتحاد السوفييتي اختيار طريق آخر غير الطريق الذي سلكته جماهير الشعب السوري بقواها الوطنية والتقدمية، وبعمالها وفلاحيها بتأييد طليعة العسكريين فيها دون حسبان للتطورات اللاحقة.



الفصل الثاني والثلاثون

تطوير العمل بين العمال

في شباط ١٩٦٨ عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً استمعت فيه إلى تقرير عن عمل الحزب ونشاطه بين جماهير العمال، قدمه الرفيق يوسف الفيصل. وإلى تقرير عن الوضع في الحركة النقابية ومهماتها في المرحلة الأخيرة، قدمه الرفيق إبراهيم بكري.

شكل هذا الاجتماع مرحلة هامة في دراسة تطور الطبقة العاملة السورية وقد طرح أفكاراً متعددة تتناسب مع ظروف المرحلة. وأهم هذه الأفكار هي التالية:

- تنمو الطبقة العاملة نمواً ملحوظاً عددياً نتيجة بناء المشاريع الصناعية والإنمائية المختلفة في البلاد، وازداد عدد المنتسبين إلى النقابات وتشكيل نقابات جديدة.
- انفتاح الحركة النقابية على الحركة العمالية العالمية، إذ أصبح اتحاد نقابات العمال عضواً في الاتحاد النقابي العالمي، كما يشارك في الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب.
- تتعرض الحركة النقابية لحجز حرياتها والتضييق عليها ومحاولة تسييرها بالأساليب الإدارية. فالانتخابات معطلة ويجري تعيين الهيئات النقابية.
- استدعاءات العمال والنقابيين إلى دوائر الأمن مستمرة.
- تسريح بعض النقابيين تسريحاً تعسفياً.
- نقل بعض العمال بشكل تعسفي من مؤسسة إلى أخرى.

أكدت التقارير أهمية نضال الحزب الشيوعي من أجل وحدة الحركة النقابية، وأن هذه الحركة ليست منظمة حزبية تابعة لحزب من الأحزاب، إنما هي منظمة جماهيرية، تضم جماهير العمال الواسعة على اختلاف اتجاهاتها وآرائها الحزبية والسياسية.

طرح الاجتماع أن المهمة الأساسية هي النضال في سبيل الدفاع عن التحولات الاجتماعية والاقتصادية التقدمية وحمايتها وتوسيعها وتوفير الحريات النقابية

الديمقراطية، واحترام مبدأ الانتخاب الحر لجميع الهيئات النقابية على مختلف الدرجات.

عدّد الاجتماع مطالب العمال الاقتصادية المباشرة، باحترام الحد الأدنى للأجور وزيادة الأجور دون أي تمييز سياسي أو حزبي، ومكافحة الغلاء والاحتكار، تخفيض أسعار الخبز واللحم والأدوية والسكر والدخان، ومكافحة البطالة وتثبيت جميع العمال الذين يعملون في الدولة، ودفع أجرة العطلة الأسبوعية وتنفيذ العطلة السنوية وعطل الأعياد، وتطبيق مبدأ الثماني ساعات في اليوم، ومساواة العاملة والعامل، وتحسين قانون العمل والتأمينات الاجتماعية.

إن الدوافع لهذا الاجتماع عديدة منها ما جاء في البدء حول تنامي عدد الطبقة العاملة، هذا أمر مهم، ولكن الظرف التاريخي والسياسي والاجتماعي الذي جرى خلاله عقد هذا الاجتماع كان أمراً مهماً جداً. فتنامي أعداد الطبقة العاملة، دفع إلى تنامي دورها السياسي والاجتماعي. وقد برز ذلك في الدور الذي كان يمارسه الاتحاد العام لنقابات العمال.. فقد بدأ هذا الدور يصعد في حياة البلد، ويصعد في المساهمة في إنجاز المنشآت الصناعية الجديدة، وأخذ هذا الدور طابعاً يسارياً ملحوظاً، سواء في التحركات الجماهيرية الشعبية أو في المشاركة في اللجان الحكومية التي تناقش هذا الموضوع أو ذاك.. وبرز دور اتحاد نقابات العمال في التصدي الحازم للتحركات الاستعمارية ولمحاولات التآمر على الوضع في سورية. ولم يكن بإمكان الحزب الشيوعي أن يتغاضى عن مثل هذه الظاهرات، وأن يهملها، ولذلك توجه لاتخاذ التدابير التنظيمية التي تساعد على دفع دور الحزب بين العمال وفي الحركة النقابية.

شكل هذا الاجتماع دفعة جادة في تحسين عمل الحزب بين العمال وتطوير أدائه ودفعه إلى الأمام.

إن تدقيق المطالب التي رفعها الحزب في عام ١٩٦٨، وواقع الحركة النقابية الراهنة والحقوق التي يتمتع بها العمال والنقابيون، والدور الذي لعبه اتحاد نقابات العمال ويلعبه حالياً، تبين المدى الرحب والنجاحات الكبيرة التي حققها النضال النقابي العمالي في سورية. فأغلب المطالب المذكورة أعلاه هي قضايا بديهية في الحياة النقابية السورية حالياً. ولا شك في أن من المهم كثيراً المحافظة على الإنجازات النقابية أمام هجوم الليبرالية ومفاهيم السوق التي تتصدر النشاط الاقتصادي الراهن.

الفصل الثالث والثلاثون

عدوان ١٩٦٧: عوامله ونتائجه ومضاعفاته

كان عام ١٩٦٦ هاماً أيضاً من ناحية طرح قضية وطنية واقتصادية هامة جداً، هي مسألة الحصول على حقنا الكامل من عائدات النفط عن السنوات السابقة، مرة أخرى، ورفع شعار بترول العرب للعرب.

تشكلت لجنة مركزية لقيادة هذه الحملة ضمت ممثلين للقوى الوطنية المختلفة، ومنها حزبنا الشيوعي السوري. وكان ممثلنا في هذه اللجنة الرفيق الدكتور مصباح غيبة. ونشأت لها فروع في المحافظات وتمثل الحزب في أغلب هذه الفروع.

دارت معركة النفط في البدء حول طلب سورية الحصول على حقها الكامل من عائدات مرور البترول العراقي في أراضيها، ورفضت شركة نفط العراق تنفيذ اتفاقية عام ١٩٥٥ التي تنص على إعطاء سورية نصف الأرباح الناتجة عن الفرق بين النقل البحري والبري.

احتدمت المعركة نتيجة رفض الشراكة واتخذت طابعاً شعبياً واسعاً، وأخذت تصدر البيانات المنددة بموقف شركة نفط العراق وتربط موقفها بالضغط الاستعماري الموجه ضد سورية نتيجة التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي نفذت ونتيجة السياسة الوطنية المعادية للاستعمار.

أصدر الحزب الشيوعي بياناً في كانون الأول ١٩٦٦ أعلن فيه دعم الموقف الرسمي السوري وربط بين رفض الشركة وبين التحولات الجارية في سورية.

استمرت المعركة شهوراً وسط نهوض شعبي عارم وتضامن عربي واسع من الجمهورية العربية المتحدة ولبنان والعراق. وفي أوائل عام ١٩٦٧ حققت هذه الحملة نتائجها الأولية وحصلت سورية على حقها من العائدات وبدأ رفع شعار «استثمار البترول وطنياً».

وفي نيسان ١٩٦٧ أصدر الحزب الشيوعي السوري بياناً حيا فيه هذا الانتصار وبين «أن الفضل في تحقيقه يعود إلى وقوف بلادنا شعباً وجيشاً وحكومة، موحدي الصفوف في هذه المعركة الوطنية الكبرى. فإلى جانب الموقف الحازم الذي وقفته الحكومة بإجماع أعضائها تجاه تعنت الشركة، هبت جماهير العمال والفلاحين والعسكريين الثوريين وجميع القوى التقدمية المنظمة متضامنة في النضال من أجل انتزاع مطلب بلادنا الواضح والمشروع...» وأشار البيان إلى تضامن الحزب الشيوعي اللبناني والحزب الشيوعي العراقي وإلى التضامن العالمي الواسع.

في عام ١٩٦٧ وقعت اتفاقيات اقتصادية هامة مع الاتحاد السوفييتي وشملت:

- العقود التفصيلية المتعلقة بسد الفرات.
- توسيع مصفاة حمص.
- سكة حديد اللاذقية ـ القامشلي.
- معمل القضبان الحديدية.
- معمل السماد الآزوتي.

وفي هذا العام ونتيجة جميع هذه التطورات، ذات الطبيعة الاجتماعية العميقة، بدأت الغيوم تتلبد في سماء سورية.

اتخذ التحرك الرجعي الاستعماري عدة اتجاهات، كان أبرزها محاولة ضرب الوضع الداخلي ومحاولة الإيقاع بين القوى الوطنية الأساسية. وبدأت حملة شائعات حول خلافات في أوساط الحكم، وخلافات بين البعثيين والشيوعيين، محاولات إحداث اضطرابات هنا وهناك. وإلى جانب ذلك جرت تحركات إسرائيلية في المناطق المنزوعة السلاح، ووضعت قوات أردنية وسعودية على الحدود مع سورية.

وكتدبير انتقامي ولزيادة الضغط على سورية، قررت شركة نفط العراق التوقف عن ضخ النفط عبر الأنبوب المار بسورية الذي له فرع إلى مدينة طرابلس في لبنان.

أصدر الحزب الشيوعي العراقي بياناً استنكر فيه هذا التدبير وجاء في البيان «عمد الاحتكار النفطي ومن ورائه الدول الاستعمارية إلى اتخاذ إجراء عدواني خطر، عندما بادر إلى قطع تدفق نفط العراق المار عبر الأراضي السورية، وبذلك فقد وسع نطاق المعركة لتشمل سورية والعراق ولبنان في آن واحد، وقد جاء هذا الإجراء طبقاً لمسلسل الأحداث، بمثابة جواب أو عقاب على مطالب سورية المشروعة من شركات النفط، غير أنه في الجوهر معركة سياسية وجزء من مخطط استعماري عدواني أشمل...».

جند الحزب الشيوعي السوري كل قواه لرد الأخطار على سورية. ففي شهر شباط ١٩٦٧ عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً موسعاً، وجاء في البلاغ الصادر عن الاجتماع «أنه استمع إلى تقرير المكتب السياسي حول الوضع الراهن في البلاد وما يحيكه الاستعمار الأمريكي والإنكليزي وإسرائيل والرجعية العربية والداخلية من مؤامرات ودسائس ضد سورية العربية، بغية إخراجها عن اتجاهها الوطني التقدمي، وإقامة حكم رجعي موال للاستعمار فيها.

واستعرض التقرير المشاريع الاقتصادية الهامة التي تم الاتفاق على تحقيقها مع عدد من البلدان الاشتراكية، كما عالج الوضع الاقتصادي وشرح المهمات الملحة العاجلة في هذا الميدان. وحلل البيان العوامل والاتجاهات الضارة التي تؤثر تأثيراً سلبياً على تطور البلاد الاقتصادي بمجمله.

وعرض التقرير سياسة الحزب ونشاطه في معركة البترول التي يخوضها الشعب السوري، تؤيده جميع القوى التقدمية العربية والعالمية ضد عسف الشركات الاحتكارية الاستعمارية ونهبها الفاحش...».

وبناء على توجهات اللجنة المركزية بتوسيع نشاط الحزب ولرد الأخطار عن سورية، زرت في كانون الثاني ١٩٦٧ فرنسا وحضرت المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي الفرنسي، وألقيت فيه كلمة عبرت فيها عن تفاقم الأوضاع في سورية وحولها وتزايد خطر العدوان عليها، ودعوت الأحزاب الشيوعية الممثلة في المؤتمر للتضامن مع سورية، كما أجريت لقاءات عديدة مع قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي ومع العديد من الوفود.

وفي نيسان من نفس العام حضرت المؤتمر السابع للحزب الاشتراكي الألماني الموحد، وكان معي الرفيق المرحوم بدر الطويل.. وألقيت كلمة في المؤتمر تناولت نفس الأمور، وقمنا بلقاءات عديدة.

في أوائل شهر أيار بلغ التآمر أشده، فقد حدثت مؤامرة رجعية خطيرة جداً، وقد جاء في الخبر الذي نشرته جريدة «نضال الشعب» حول الموضوع ما يلي:

«تعرضت سورية العربية في الأيام القريبة الماضية إلى مؤامرة رجعية استعمارية خطيرة. فقد استفادت القوى السوداء من مقالة نشرت في مجلة «جيش الشعب» وحاولت إثارة عاصفة طائفية. وتحويلها إلى معركة ضد التحولات التقدمية ومجمل النهج المعادي للاستعمار. وجرت في أغلب المدن السورية محاولات محمومة لإعلان إضراب في الأسواق لتعطيل الحياة الاقتصادية وتخريب تموين البلاد. وكانت محاولة

إغلاق الأسواق في دمشق على أشد ما يكون. وقد أضربت أسواق الحميدية والصالحية والتجارة والقصاع وغيرها. وتجندت كل القوى الوطنية لإحباط هذه المؤامرة، وتجند الحزب الشيوعي بكل قواه، ولعبت الطبقة العاملة وجمهور المثقفين دوراً رائعاً في هذه المعركة. وكانت حملة كسر الأقفال وفتح المتاجر أهم وسيلة لإحباط الإضراب، كما لعب دوراً اعتقال المحرضين الأساسيين.».

وجه الحزب الشيوعي برقية تضامن إلى رئيس الدولة ورئيس مجلس الوزراء وقعها جميع أعضاء المكتب السياسي.

كما وجه الحزب الشيوعي رسالة إلى الأحزاب الشيوعية والعمالية في العالم بيّن فيها مدى الأخطار المحدقة بسورية وضرورة التضامن معها.

تطورت الأحداث بشكل متسارع خلال شهر أيار. فقد حشدت إسرائيل قوات ضخمة على الحدود السورية، وأصبح العدوان منتظراً يوماً بعد يوم. واتخذت الجمهورية العربية المتحدة قرارات تضامناً مع سورية، فطلبت انسحاب القوات الدولية من غزة، واحتل الجيش المصري مواقعه على الحدود بين مصر وإسرائيل. ومنعت السفن الإسرائيلية من الملاحة في خليج العقبة. وبدأ نشاط دولي كبير شارك فيه الأمين العام للأمم المتحدة وحكومات عديدة، وأذاعت وكالة تاس بياناً باسم الحكومة السوفييتية جاء فيه: «يخيم في الشرق الأدنى، خلال الأسابيع الأخيرة وضع يبعث على القلق من وجهة نظر مصالح السلم والأمن الدوليين. فبعد الهجوم المسلح الذي قامت به القوات الإسرائيلية على أراضي الجمهورية العربية السورية في السابع من شهر نيسان الماضي، تواصل الأوساط الحاكمة في إسرائيل تأزيم الوضع إلى حد الهستيريا الحربية في البلاد. وقد دعا رجال الدولة ومنهم وزير الخارجية إيبان علنا إلى القيام بعمليات تأديبية واسعة ضد سورية وإلى إنزال ضربة حاسمة بها. وفي أيار قررت لجنة الدفاع والسياسة الخارجية للكنيست الإسرائيلي منح الحكومة صلاحيات القيام بعمليات عسكرية ضد سورية.

ويختتم البيان بالقول في الأخير «إن الحكومة السوفييتية لمقتنعة بأن لا مصلحة للشعوب في نشوب نزاع مسلح في الشرق الأدنى، ولا مصلحة في هذا النزاع إلا لحفنة من الاحتكارات النفطية وحدها، ولامصلحة في هذا إلا لقوى الإمبريالية التي تجر إسرائيل وراءها.

ويختتم البيان: بناء على الوضع القائم لا يألو الاتحاد السوفييتي ولن يألو جهداً في سبيل منع الإخلال بالسلام والأمن في الشرق الأدنى وفي حماية الحقوق المشروعة للشعوب...».

جرت حملة تضامن عالمية ضد خطر العدوان. وصدرت بيانات من حكومتي تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الديمقراطية. كما صدرت بيانات من الأحزاب الشيوعية في إيطاليا وبريطانيا، ونشرت مقالات تضامن في صحيفة «الأومانيتيه» وفي صحف الأحزاب الشيوعية الأخرى. وعقدت جلسة استثنائية لمجلس السلام العالمي، وصدرت بيانات أنصار السلام في لبنان والبلدان العربية الأخرى.. وتنادت المنظمات الوطنية للاتصال بمراكزها في العالم، فقد أرسل مجلس السلام السوري برقية إلى مجلس السلام العالمي، وأرسلت رابطة النساء السوريات برقية إلى الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي، وأرسل المحامون برقية إلى رابطة المحامين الديمقراطيين.

وجه المكتب السياسي برقية إلى كل من الدكتورنور الدين الأتاسي وجمال عبد الناصر تحيي الوقفة المشتركة بين البلدين. ووجه الحزب الشيوعي السوري نداء إلى الشعب السوري يدعوه للصمود أمام العدوان وللوقوف صفاً واحداً في وجهه.

أمام احتمال حدوث الضربة العدوانية، اجتمع المكتب السياسي واتخذ قراراً بتوزيع أعضائه على المنظمات في سورية ونقل الرفيق خالد بكداش وأسرته خارج دمشق إلى حلب، وأقام في بيت الرفيق عمر السباعي. وكلف الرفيق ظهير عبد الصمد بقيادة منظمتي حمص وحماة، والرفيق إبراهيم بكري بقيادة منظمة الجزيرة، وأرسل الرفيق موريس صليبي إلى منظمة الساحل. وكلفتُ والرفيق دانيال نعمة بالبقاء في دمشق. وكان هذا اختيارنا الذي طلبناه. وذهبت والرفيق دانيال لزيارة رئيس الوزراء يوسف زعين وإخباره بأننا نحن الاثنين سنبقى في دمشق، من أجل المساهمة في أعمال المقاومة إلى جانب حزب البعث العربي الاشتراكي والقوات المسلحة السورية، وطلبنا إبلاغنا بالمهام التي ستوكل إلينا.

قمت والرفيق دانيال بتوزيع منظمات الحزب في دمشق وريفها إلى مجموعات. وكلفنا رفاقاً محددين بقيادة هذه المجموعات. واتفقنا على نقاط الالتقاء وأشكال التخابر وخصوصاً تأمين الاتصال عند وقوع العدوان على العاصمة ومحاولة وصوله إلى داخلها.

وأعطيت الرفاق تعليمات كافية في كيفية المقاومة وكيفية التعامل مع الشعب والتنسيق مع القوى الأخرى وكيفية إدارة التموين. وأذكر بكل الفخر كيف كانت حماسة الرفاق عندما كنا نضعهم أمام هذه المهمات. وكانت صلاتنا بالقوى الأخرى نشيطة.

لعبت الرفيقات دوراً هاماً جداً. فقد تطوعن في الدفاع المدني وجمعن الهدايا المختلفة وزرن الجرحى في المستشفيات وقدمن لهم الهدايا.

ساهم الشيوعيون بشكل كثيف في مختلف اللجان الشعبية وفي فصائل الجيش الشعبي في المدن والقرى وفي الدفاع المدني.

وفي ساحات القتال، كان الشيوعيون إلى جانب رفاقهم الجنود من مختلف المحافظات، مبرزين في الجرأة والحماسة، وسقط عدد من الشهداء من أعضاء الحزب في ساحات الشرف.

كانت إسرائيل تنسق نشاطاتها واستعداداتها للبدء بالعدوان والغدر بسورية والجمهورية العربية المتحدة. وروجت إسرائيل في الميدان العالمي بأنها مهددة وأنها تدافع عن نفسها، واستغلت بشكل واسع وذكي أنماط الدعاية التي كانت تتحدث عن تحرير فلسطين من النهر إلى البحر والقضاء على إسرائيل. ولقيت إسرائيل تشجيعاً مباشراً من الولايات المتحدة. فقد استقبل الرئيس الأمريكي جونسون وزير الخارجية أبا إيبان واطلع منه على خطط إسرائيل وأعلن موافقته عليها. وقام جونسون بخداع الاتحاد السوفييتي بتقديم تعهد له بأن لا تكون إسرائيل البادئة بالعدوان. كما قام جونسون بنفس العملية مع القادة العرب وأبلغ مصر بأن لا تكون البادئة ودعا زكريا محيي الدين لزيارة واشنطن للتشاور. واستناداً إلى ذلك، طالب الاتحاد السوفييتي الجمهورية العربية المتحدة ورئيسها جمال عبد الناصر بأن لا تكون البادئة. واستنتج العماد مصطفى طلاس من ذلك اتهام الاتحاد السوفييتي بالتورط بالعدوان.

صباح ١٩٦٧/٦/٥ بدأ الهجوم الإسرائيلي على المطارات المصرية ثم على الجهات العربية الأخرى، واحتلت إسرائيل سيناء والجولان والضفة الغربية والقدس العربية.

اللجنة المركزية تقدم تحليلها:

عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري اجتماعاً موسعاً في أواسط تموز ١٩٦٧ استمعت فيه إلى تقرير عن سياسة الحزب ونشاطه خلال العدوان وبعده. واتخذت قرارات حول مهمات الحزب وأصدرت بياناً إلى الشعب، ووجهت تحية إلى

الحزب الشيوعي السوفييتي وسائر الأحزاب الشيوعية والعمالية على مواقفها المؤيدة وتضامنها مع الشعوب العربية في نضالها ضد العدوان الإسرائيلي الاستعماري. وجاء في البيان:

«كان العالم العربي في الشهر الماضي هدفاً لعدوان غادر. فقد أقدمت إسرائيل صنيعة الاستعمار العالمي وأداته وقلعته العسكرية على القيام بعدوان واسع ضد الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية السورية والأردن. وقد اتضح الآن للرأي العام العالمي بأسره، أن هذا العدوان الأليم، جرى وفق مخطط اشتركت في وضعه الولايات المتحدة الأمريكية وكذلك بريطانيا وألمانيا الغربية. وكانت إسرائيل هي الأداة المباشرة لتنفيذه، كما كان للاحتكارات البترولية العالمية دورها أيضاً في هذا المخطط الإجرامي.

«استعرض البيان بعد ذلك الأهداف الأساسية لهذا العدوان وهي:

- توجيه ضربة قاصمة لمجموع حركة التحرر الوطني العربية والقضاء على الحكم الوطني في كل من سورية ومصر.
- توسيع رقعة إسرائيل المجرمة.
- ضرب الصداقة العربية - السوفييتية.

«وذكر البيان أن العدوان لم يحقق أهدافه الأساسية بقلب أنظمة الحكم الوطنية في مصر وسورية، ولم يستطع سحق حركة التحرر الوطني العربية وبين دور الاتحاد السوفييتي وهيئة الأمم المتحدة، وطالب بـ:

- توطيد النهج الوطني التقدمي في البلاد.
- اليقظة تجاه أحابيل الاستعمار والصهيونية إلى نشر بذور الشقاق بين القوى التقدمية العربية وداخل كل بلد على النطاق العربي.
- توطيد الجبهة الموحدة بين البلدان العربية والبلدان الاشتراكية في النضال ضد العدو المشترك.
- انتهاج سياسة خارجية حكيمة تتجنب الشعارات المغامرة والمزايدات غير الواقعية.
- انتهاج سياسة اقتصادية تتفق مع ظروف المعركة.
- المحافظة على المكتسبات الشعبية وصون التحولات الاقتصادية والاجتماعية وتوطيدها.

ـ الدعوة إلى توحيد صفوف القوى الوطنية والتقدمية في الداخل وعلى النطاق العربي.

لجنة الدفاع عن الوطن:

تحت تأثير التجربة الكوبية بالاعتماد على الشعب في معارك النضال لحماية الوطن ضد العدوان الأمريكي، نشأت فكرة إيجاد لجان شعبية للدفاع عن الوطن. وجرى تشجيع هذه الفكرة من مختلف القوى الوطنية الموجودة على الساحة السورية. ومنها حزبنا الشيوعي السوري.

تشكلت لجنة مركزية حملت اسم «لجنة الدفاع عن الوطن». وضمت عدداً وافراً من الشخصيات والقوى السياسية والاجتماعية. وكانت برئاسة وزير الداخلية محمد عيد عشاوي. وشغل مركز نائب الرئيس الفريق عفيف البزرة، وكان القائد الفعلي للجنة. وكان الدكتور مصطفى أمين عضواً في مكتبها التنفيذي، ممثلاً للحزب الشيوعي السوري، كما كان من بين أعضائها الرفيق الدكتور نبيه رشيدات، وكان في الوقت نفسه رئيساً للجنة الدفاع عن الوطن في حي ركن الدين وبرزة. ورأس اللجنة الصحية الدكتور مصباح غيبة. وضمت اللجنة عدداً من قيادة حزب البعث، منهم الأستاذ عبد الحليم خدام وتوفيق صالحة ومحمد حيدر ومنذر قولي محافظ مدينة دمشق. كان عدد اللجنة نحو ١٥٠ شخصاً، وأريد لها ذلك لتكون شكلاً من أشكال التمثيل الجماهيري. عالجت اللجنة قضايا الوطن والشعب: العدوان ونتائجه والمهمات اللاحقة، البترول، مقاطعة البضائع الأجنبية. ونظمت اللجنة حملة تبرعات علنية وواسعة لشراء الأسلحة. وقد تقدم عدد كبير من المواطنين بتبرعات سخية، وخاصة النساء اللواتي قدمن حليهن، وفيها خواتم الزواج دعماً للمجهود الحربي، كما نظمت اللجنة اجتماعات جماهيرية، منها اجتماع ركن الدين الواسع الذي ألقى فيه الرفيق الدكتور نبيه رشيدات خطاباً باسم الحزب الشيوعي السوري، كما نظمت ندوات تلفزيونية ومسيرات شعبية.

بحثت قيادة الحزب الشيوعي تشكيل هذه اللجان ودورها وأعلن تأييده لها، إلا أنه انتقدها من عدة وجوه. وجوهر الموقف الذي اتخذه الحزب تمت صياغته بالشكل التالي: إن تكوين هذه اللجان شيء حسن. فإن البلاد بحاجة ملحة إلى منظمات شعبية تجمع جميع الطاقات الوطنية والتقدمية ويمارس الشعب فيها وبواسطتها شكلاً من

أشكال الديمقراطية. عندئذ تبرز في هذه المنظمات كفاءات لا حصر لها، تساعد على حل كثير من القضايا والمشاكل التي يصعب على الحكم، خصوصاً، بشكله الحالي، أن يحلها وحده، بل والتي لا يجوز أن ينفرد بحلها دون مساهمة الشعب الواسعة (في ضوء ذلك طالب الحزب بأن تكون اللجان تجمعاً حياً لجميع القوى والعناصر الوطنية، وأن يكون لها صلاحيات محددة وبرنامج ويقوم نشاطها على أسس ديمقراطية. وانتقد الحزب تكليف مخافر الشرطة بانتقاء الأسماء وطرح أسماء دون معرفة أصحابها، الأمر الذي خلف نوعاً من عدم الارتياح وطالب بأن تأتي هذه اللجان عن طريق الانتخاب من العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين).

إزالة آثار العدوان:

لقد وقعت نكسة أليمة وعميقة. فقد احتلت إسرائيل خلال خمسة أيام كامل سيناء والجولان ومجموع الضفة الغربية، وفيها القدس العربية. واهتزت ضمائر المواطنين من مختلف الاتجاهات، وبدأت الأحاديث والأقاويل المختلفة تخترق لقاءات الناس في كل مدينة وقرية.

لقد شكلت نكسة حزيران صدمة عميقة على الأصعدة كافة، الشعبية والرسمية وعلى صعيد حركة التحرر الوطني العربية بكل فصائلها، وبينت قصوراً جوهرياً لدى هذه الحركة على صعيد الفكر والخطاب السياسي وبدا قصورها واضحاً في فشلها في الربط بين الوطني والقومي وبين الوطني والدولي وبين الحضاري والتقدمي. إلى جانب ضعف النضج السياسي وبقيت جملة من الأسئلة العميقة معلّقة في ذهن المواطن العربي، ليس أقلها مسألة سحب قوات الأمم المتحدة وظروف التصعيد التي طغت على الخطاب العربي في تلك الفترة والتي جاءت النتائج لتؤكد طابعها السياسي المغامر.

لقد زعزعت هذه النكسة جملة من المسلّمات، وأجهضت الخطاب الشعاراتي إذ لم تؤد هذه النكسة إلى انهزام استراتيجي لدى الشعب السوري والفصائل السياسية ولكنها أجبرتها على تعميق نظرتها لأساليب مجابهة العدوان وللقوى السياسية المختلفة في الساحة العربية. وقد ثبت أن أياً من قوى حركة التحرر لن تكون قادرة بمفردها، ولا بمشروع متفرد على مجابهة تحديات بهذا المستوى.

لسنا هنا في سياق تقديم نقد كامل لهذه الهزيمة التي ما تزال آثارها تطبع كل الأحداث في المنطقة، وبضمن ذلك الارتداد السلفي لدى تيارات متزايدة من الجماهير

الشعبية. فمن المعروف أن التيار الديني السلفي قد أسس خطابه على هزيمة العلمانية والفكر القومي من خلال حرب حزيران ونتائجها.

وتحقيق ذلك يتطلب دراسة مفصلة، معمقة لجميع الظروف السياسية والاقتصادية وخاصة العسكرية التي أحاطت بالموضوع. وبضمن ذلك التساؤل عن قرار سحب قوات الأمم المتحدة، وهل كان في وقته؟

ولاشك في أن مثل هذه النكسة تتطلب دراسة معمقة للوضع الداخلي ولظروف حياة الناس ومواقفهم وللعمل السياسي والتعبئة الشعبية والجماهيرية وللوضع الاقتصادي.

يقول عبد الله الأحمر في كتابه «جيل التحول الكبير»:

«كان المطلوب البدء فوراً بعملية لقاء القوى التقدمية في القطر، وتوسيع المنظمات الشعبية وتعزيز دورها، وبناء جبهة وطنية عميقة تكون مرتكزاً للوحدة الوطنية لكل أبناء الشعب وللجبهة الداخلية المتماسكة، وتعزيز الديمقراطية الشعبية، وتحريك عملية البناء بكل جوانبها، وبناء جيشنا العقائدي بناء عصرياً يمكنه من أن يكون القوة الأولى في مواجهة العدوان. وكان المطلوب بناء سياسة عربية جديدة تؤكد أهمية التضامن العربي في مواجهة العدوان وسياسة دولية جديدة تتفهم بنية عالمنا وتستطيع تطوير خطاب سياسي يفهمه هذا العالم...».

لقد كان الشعار الأساسي الذي رفع في ذلك الوقت: إزالة آثار العدوان. وقد ركز الحزب الشيوعي على هذا الشعار. ففي أواسط تموز عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً موسعاً ناقشت فيه أسباب العدوان ونتائجه ودروسه. وفي ضوء هذه المناقشات كتب خالد بكداش في «نضال الشعب» مقالة شغلت كامل العدد، بين فيها دروس المعركة كما يلي:

أولاً: لم تحدث أية تبدلات في ميزان القوى العالمي، خاصة التعاظم الجارف لقوى الاشتراكية والتحرر الوطني.

ثانياً: لقد فشل العدوان في تحقيق أهدافه الأساسية، وهي سحق الحركة الوطنية العربية بمجموعها، وتحطيم علاقات الصداقة العربية - السوفييتية. وقلب أنظمة الحكم العربية التقدمية. واستشهد بخطاب لبريجينيف جاء فيه: «إن رغبة الاستعماريين الأمريكيين والإنكليز في أن يوجهوا ضربة إلى حركة التحرر الوطني في

الشرق الأوسط، وأن يوقفوا بأي ثمن حركة الشعوب في طريق التقدم الاجتماعي وأن يخضعوها لنيرهم من جديد، وأن يحرموها خيراتها وثرواتها، ذلك هو السبب الرئيسي لعدوان إسرائيل على البلدان العربية...».

ثالثاً: النكسة مؤقتة والنصر والمستقبل لنا.

وهنا يستشهد مرة أخرى بالرفيق بريجنيف «إن تاريخ كل شعب يبين بوضوح تام أن حركة التحرر لا تحمل دائماً انتصارات فقط، بل تحمل أيضاً نكسات. إن النكسات تعزز وتعمق إرادة النضال.

رابعاً: أهمية العنصر السياسي في المعركة، بما يعني الاهتمام بعنصر الدعاية وعدم إعطاء إسرائيل حججاً وفضح خداعها للرأي العام العالمي وانتقاد تصريحات بعض الشخصيات التي لا تنم عن شعور بالمسؤولية، وأن يضع العرب الشعارات بشكل لا يؤدي إلى عزلهم.

خامساً: الحاجة الماسة لسياسة خارجية حكيمة وبعيدة النظر وعدم الانجرار وراء العواطف، وأن لا نقع في مزايدات فارغة ولا رفع شعارات لم تتوفر ولا تتوفر الإمكانات لتحقيقها في وقت قريب.

سادساً: توطيد الجبهة الموحدة بين البلدان الاشتراكية والبلدان العربية.

سابعاً: تعزيز وتوطيد وحدة النضال العربي.

ثامناً: تغيير المناخ السياسي في البلاد نحو الأحسن والأفضل. ونشير هنا إلى أهمية التغلب على إرث الماضي، فيما يتعلق بعدم الثقة المتبادل بين جميع القوى الثورية (التقدميين بشتى اتجاهاتهم، القوميين الديمقراطيين، الشيوعيين. كما نشير إلى مسؤولية كل وطني وتقدمي وننتقد الدعوة القائلة (إن من أخذ المسؤولية على عاتقه منذ البداية، عليه أن يسير فيها إلى النهاية).

تاسعاً: الحاجة إلى سياسة اقتصادية تتفق ومتطلبات المعركة. ونؤكد هنا أن الحلقة الرئيسية هي السير بالتحولات التقدمية إلى أمام وتمليك الأراضي للفلاحين الفقراء، وتحسين إدارة المعامل وإشراك ممثلي العمال في الإشراف على سيرها وإنتاجها. ونشير إلى أن سياسة التقشف يجب أن لايقع عبأها على عاتق جماهير العمال والفلاحين وسائر الكادحين والمعوزين.

إن هذا التحليل صحيح في اتجاهاته الأساسية، ولكن ينقصه شيء واحد كان من الضروري التركيز عليه، وهو قضية الديمقراطية ودور الجماهير الشعبية وتوسيع الحريات بكل اتجاهاتها.

وإذا كانت معركة إزالة العدوان تتطلب أكثر ما يمكن من التضامن العربي، فقد سارت الأمور بعكس ذلك تماماً. فقد لجأ الرئيس عبد الناصر إلى سحب قواته من اليمن ودعا إلى عقد مؤتمر قمة عربي. ولكن القيادة السورية استمرت على موقفها في مقاطعة مؤتمرات القمة، ورفضت قرار مجلس الأمن ٢٤٢.

ألقى رئيس الدولة الدكتور نور الدين الأتاسي خطاباً حلل فيه العدوان وعوامله وغاياته، ومما جاء فيه: «إن العدوان هو نتيجة مؤامرة ثلاثية أمريكية بريطانية إسرائيلية ضخمة. ومن أهدافه إيقاف المد الشعبي العربي التقدمي، وإعادة الوطن العربي إلى مناطق نفوذ الاستعمار، وتحطيم الجيوش العربية وتحقيق أحلام الصهيونية في التوسع. وحدد الأهداف الأساسية لمواجهة النكسة:

- إزالة آثار العدوان بجميع الوسائل ورفض أية محاولات لفرض الحلول من خلال الأوضاع الجديدة.
- إعادة النظر بقدراتنا الدفاعية.
- إعادة النظر بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في القطر.
- إيجاد صيغة متقدمة للوحدة العربية.

وقررت قيادة حزب البعث إرسال وفود لزيارة البلدان العربية لحشد التأييد وجمع التبرعات وتبديد الفهم الذي انتشر باتهام سورية ومصر بالمسؤولية عن النكسة.

فرضت النكسة الدعوة لعقد مؤتمر استثنائي لحزب البعث العربي الاشتراكي وعقد هذا المؤتمر بين ٢٧ و ٣٠ آب ١٩٦٧ وخرج بقرار أن الكفاح المسلح هو السبيل الوحيد لإزالة آثار العدوان، واعتماد العمل السياسي كوسيلة لخدمة الكفاح المسلح، ودعا إلى تشجيع الجيش الشعبي ولجان الدفاع عن الوطن وحماية الثورة.

ويشير عبد الله الأحمر في كتابه إلى أنه في هذه الظروف، بدأت تظهر تباينات بين نهج قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي ونهج وزير الدفاع اللواء حافظ الأسد حول ما أسماه «الواقعية الثورية» فقد عكف وزير الدفاع على بناء الجيش وتعزيز قدراته الدفاعية وقام بزيارات عديدة لهذا الهدف.

تبع المؤتمر القطري مؤتمر قومي أكد نفس النهج فيما يتعلق بالكفاح المسلح ومقاطعة مؤتمرات القمة والعمل لخلق بؤر ثورية في البلدان العربية الرجعية، تجنب المعارك مع القوى التقدمية والعمل على خلق جبهات تقدمية ومختلف أشكال الواجهات الشعبية النضالية في كل قطر عربي ما عدا القطر الذي يحكمه الحزب، قطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية مع الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية.

وكان تاريخ سلخ لواء اسكندرون وتقسيم فلسطين ٢٩ تشرين الثاني مناسبة للقيام بتظاهرات في مختلف المدن السورية، بما في ذلك العاصمة دمشق، اتسمت شعاراتها بالسلبية المطلقة ضد مؤتمرات القمة وضد الرجعية العربية وتحية الكفاح المسلح.

حاولت القوى الرجعية استغلال الوضع الناشئ، فنظمت مؤامرة جديدة، ودفعت بعض اللاجئين السوريين المقيمين في الأردن للانقضاض على الوضع. ووقع هؤلاء بيد السلطات السورية وجرت محاكمتهم وأعدم سليم حاطوم وآخرون.

في نهاية شهر آب عقد مؤتمر القمة في الخرطوم ونتجت عنه اللاءات الثلاث: لاصلح ولا اعتراف ولا مفاوضات. ولم تشارك سورية في المؤتمر، وتقرر دفع مساعدات لمصر والأردن دون سورية لإزالة آثار العدوان.

في كانون الأول ١٩٦٧ قام وفد من الحزب الشيوعي السوري ضم: خالد بكداش، يوسف الفيصل، دانيال نعمة، بزيارة إلى الاتحاد السوفييتي لإجراء لقاء مع قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي، وضم الوفد السوفييتي ليونيد بريجنيف الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، وسوسلوف عضو المكتب السياسي، وبانوماريوف أمين اللجنة المركزية مسؤول العلاقات الخارجية.

جرى بحث مطول ومعمق حول الأوضاع في سورية وفي المنطقة وخاصة حول العدوان الإسرائيلي ودوافعه ونتائجه، وتم التركيز على إزالة آثار العدوان، وعلى ضرورة تعزيز وتعميق الصداقة السورية ـ السوفييتية. وطرح في اللقاء السياسة التي يسير عليها الحزب الشيوعي السوري بتعزيز التعاون مع حزب البعث ومع القوى الوطنية التقدمية وضرورة الاهتمام بمطالب الجماهير المعاشية والديمقراطية.

قرار مجلس الأمن:

عرض موضوع العدوان الإسرائيلي على دورة استثنائية للجمعية العمومية للأمم المتحدة، وانتهت مناقشات هذه الدورة دون اتخاذ قرار يدين العدوان، ويطالب بالانسحاب وتحرير الأراضي العربية المحتلة. وفي نهاية ١٩٦٧ عقدت دورة عادية،

وعرضت قضية العدوان عليها مجدداً. واضطرت الجمعية العمومية بعد جدال طويل إلى إحالة القضية على مجلس الأمن. وناقش مجلس الأمن الموضوع وعرضت عليه عدة مشاريع قرارات وأقر في النهاية المشروع البريطاني المعروف بالقرار ٢٤٢ الذي أقر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧. ومن بين المشاريع المقدمة مشروع سوفييتي رفضته الولايات المتحدة الأمريكية، ومشروع أمريكي رفضه الاتحاد السوفييتي، وعرضت مشاريع أخرى لم تنل الأصوات الكافية.

يطالب المشروع البريطاني بتطبيق ميثاق الأمم المتحدة وسحب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلها بعد النزاع الأخير، كما يطالب بإقامة حالة سلام في المنطقة وبحرية الملاحة في الممرات الدولية ويحل قضية اللاجئين الفلسطينيين وتعيين مندوب دولي لتحقيق بنوده.

أعلنت سورية رفضها القاطع لهذا القرار، وهاجمته الصحف السورية ووصفته بأنه تآمر دولي ضد العرب. وأثيرت تساؤلات حول أسباب موافقة الاتحاد السوفييتي.

لقد كانت أغلبية الدول العربية، وبينها مصر، تسعى للوصول إلى قرار، وأن لا ينتهي مجلس الأمن إلى لا شيء، مما يعطي فرصة لإسرائيل للتمادي في عدوانها وعدم تحقيق الانسحاب. كذلك حرص الاتحاد السوفييتي على الوصول إلى قرار يقضي بسحب القوات الإسرائيلية الغازية إلى نقاط انطلاقها. وأعلن المندوب السوفييتي قبل إقرار المشروع البريطاني تفسيراً له يؤكد سحب القوات الغازية، وأن ذلك هو المبدأ الأساسي من القرار. وصوت إلى جانب القرار على هذا الأساس.

كان الموقف من هذا القرار موضع خلاف بين حزبنا وقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي، فقد أكدنا ضرورة التمسك بسحب القوات الإسرائيلية وإخضاع البنود الأخرى لذلك. وانتقد الحزب موقف بعض الصحف السورية التي وضعت الدول الكبرى في كيس واحد، ووصف القرار بالتآمر الدولي. وقد اعتبرنا ذلك، ليس موقفاً خاطئاً وقصير النظر فحسب، بل هو مضر للعرب أنفسهم، ويضع الأصدقاء والأعداء على نفس المستوى، الأمر الذي يريده المستعمرون. كما اعتبرنا أن مهاجمة العمل السياسي خطأ أيضاً. فالنضال المسلح هو سياسة ولكن بشكل آخر، واستخدامه يكون عندما تعجز جميع الوسائل الأخرى، والنضال المسلح نفسه لا يمكن البدء به بدون تهيئة سياسية ودون أن ترافقه دعاية سياسية.

وقد خاض الحزب نقاشات واسعة حول مواضيع النضال السياسي والنضال المسلح مع مجموعات من حزب البعث العربي الاشتراكي، ومع ممثلين للسلطة. ولم

تصل إلى اعتبار أشكال النضال المختلفة على مستوى واحد، واستخدام هذا أو ذاك، يتم حسب الضرورة.

وتطبيقاً لموقفنا ورؤيتنا لأشكال النضال المختلفة اتخذ قرار في قيادة الحزب للمشاركة في النضال المسلح الذي تقوده المنظمات الفلسطينية، وبدأنا بإرسال مقاتلين إلى الجبهتين الشعبية لتحرير فلسطين والديمقراطية لتحرير فلسطين.

في هذا الإطار عقد وزراء خارجية الدول الاشتراكية اجتماعاً في وارسو في كانون الأول ١٩٦٧، بحثوا فيه الوضع في الشرق الأوسط، وأعلنوا أن الوضع لا يزال متوتراً، فبرغم قرارات هيئة الأمم المتحدة، تواصل إسرائيل احتلال الأراضي التي اغتصبتها، وتبقي قناة السويس مغلقة، الأمر الذي يهدد بخطر انفجار شديد. ورحب المجتمعون بالموقف البنّاء للجمهورية العربية المتحدة المؤيد للتسوية السياسية العاجلة، وأكدوا أن الانسحاب إلى مواقع ما قبل الخامس من حزيران هو الشرط الأساسي الذي لابد منه لإحلال وتوطيد السلام في الشرق الأدنى.

لقد تبدل الموقف من هذا القرار جذرياً. وأصبح هذا القرار هو الأساس الذي تتمسك به جميع القوى الوطنية العربية، السورية والفلسطينية، وتعدُه شرطاً لابد منه لتحقيق تحرير الأراضي العربية المحتلة. ويعد ذلك تطوراً إيجابياً بدأ يتبلور بعد الحركة التصحيحية التي قادها الرئيس حافظ الأسد.

اتسعت حملة التضامن العالمية وامتدت إلى مختلف الدول والمنظمات. وقد كتبتُ مقالة في «نضال الشعب» أوائل شباط ١٩٦٨ شرحت فيه مدى هذه الحملة وأهميتها في تعريف العرب بحلها.

وأشير هنا إلى بعض ما جاء في المقالة:

إن احتلال القوات الإسرائيلية لأراض عربية ورفضها تنفيذ قرار مجلس الأمن بالعودة إلى حدود الخامس من حزيران تثير استياء العالم كله واستنكاره. وتأخذ أعمال التضامن مع النضال العربي المشروع بالاتساع في مختلف البلدان وعلى النطاقين الرسمي والشعبي. فالاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية أكدت مرة أخرى في اجتماع وزراء الخارجية تأييدها للعرب وتصميمها على تحقيق سحب القوات الإسرائيلية المحتلة. وتتخذ الهند موقف تأييد للعرب، كما تطالب فرنسا سحب قوات الاحتلال الإسرائيلي إلى مواقع ما قبل الخامس من حزيران. وتتسع أعمال التأييد الشعبي كثيراً. فقد عقد مؤتمر تضامني مع الشعوب العربية في نيودلهي حضره ممثلون عن أربعين دولة. وفي يوم التضامن العالمي مع الشعوب العربية، جرت تظاهرات تأييداً للعرب وأرسلت عرائض الاحتجاج للهيئات الدولية وكتبت المقالات ضد العدوان الإسرائيلي. ونظم مجلس

السلام العالمي بعثة تحقيق عن جرائم الإسرائيليين، زارت سورية ومصر والأردن، وأصدرت وثيقة هامة تشرح وضع النازحين ولكشف حقائق العدوان الغاشم. ودعا مجلس السلام إلى تنظيم حملة تأييد عالمية للعرب. ونظم اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي وفداً لزيارة عدد من الدول الأوربية لشرح الوضع في المناطق المحتلة، كما أرسل الاتحاد النسائي الديمقراطي بعثة تحقيق زارت البلدان العربية التي احتلت أجزاء منها .

الفصل الرابع والثلاثون

سد الفرات والمشاريع الإنمائية الكبرى

في اللحظة التي بدأت سورية تتلمس خياراتها وتتضح ملامح نموها وموقعها الإقليمي وتوجهاتها الداخلية والخارجية كانت أمام خيارين. فإما الاستمرار في حالة القلق والاضطراب في ظروف تهديدات خارجية كبيرة وفي مناخ الحرب الباردة بين المعسكرين، ومع استمرار الولايات المتحدة في دعمها الأعمى، ليس فقط لإسرائيل، بل لأكثر القوى ظلاماً في المجتمعات والدول العربية، وإما أن تختار طريق التنمية المتسارعة وتسير قدماً في بناء الاقتصاد والدفاع الوطني. ولقد اختارت سورية عبر صراع مرير الطريق الثانية، وبذلك ولأول مرة منذ عقود عاد نوع من التطابق بين البرامج التنموية والوطنية للنظام وبين برامج الحزب الشيوعي.

وكانت أن قامت الحكومة بمبادرة استراتيجية لدفع جملة من المشاريع التنموية الأساسية بالاتفاق مع الاتحاد السوفييتي ودول المعسكر الاشتراكي الأخرى. وكانت هذه المشاريع طموحة جداً وتطلبت حالة استنفار وتعبئة من قبل القوى الوطنية كافة.

في أواخر عام ١٩٦٥ وبعد تشكيل أول وزارة برئاسة الدكتور يوسف زعين، تقرر إعادة الاتصال بحكومة الاتحاد السوفييتي في مسعى لتأمين تمويل بناء سد الفرات بعد أن تنصلت الحكومات الغربية بضغط أمريكي من اتفاقية تمويل السد من قبل بنك الإعمار الألماني الغربي والممولين الآخرين. وكان قد تم تعيين إبراهيم فرهود مديراً عاماً للهيئة العامة لسد الفرات (وهو من أبرز ضباط الهندسة في الجيش العربي السوري وكان قد سرح أيام الوحدة من الجيش مع العديد من الضباط التقدميين والتحق بكلية الهندسة بحلب لمتابعة دراسته الجامعية ووصل إلى السنة الثالثة).

وقد كلف بالسفر إلى الاتحاد السوفييتي لإجراء اتصالات هناك بهدف الحصول على موافقة السوفييت على تمويل السد، وقد رافقه وفد فني عالي المستوى ضم

المهندس زهير فرح المدير الفني للهيئة ومن أبرز المختصين في مجال الري واستصلاح الأراضي. وقد عاد الوفد حاملاً معه موافقة السوفييت المبدئية على تمويل المشروع، ووقعت اتفاقية بين حكومتي البلدين بعد حركة شباط ١٩٦٦ وتشكيل الدكتور يوسف زعين لوزارته الثانية ووصل وفد من كبار الخبراء السوفييت في منتصف عام ١٩٦٦ حيث قاموا بتقييم لمجمل الوثائق والدراسات المتوفرة وبوشر بإعداد الدراسات الجديدة التي كانت إيذاناً بمتابعة العمل ببناء سد الفرات.

وهكذا جرى في السادس من آذار ١٩٦٧ وفي مركز الطبقة محافظة الرقة احتفال رسمي وشعبي كبير إيذاناً ببدء العمل في بناء سد الفرات وبتسيير القطارات الأولى على سكة حديد حلب ـ الطبقة.

مثل الحزب الشيوعي في هذا الاحتفال الرفيقان إبراهيم بكري، ودانيال نعمة. وحضرته وفود رسمية وشعبية، بينها وفد من الاتحاد السوفييتي. وألقى يوسف زعين رئيس الوزراء خطاباً جاء فيه:

«إننا نبني سد الفرات في الظروف التي أوجدها العدوان الاستعماري الصهيوني الغادر في الخامس من حزيران، مما يؤكد تصميمنا على مواصلة الكفاح وبناء قوتنا الذاتية...».

وقال: إن مشروع سد الفرات يشكل رمزاً خالداً للصداقة بين الشعوب، وهو رمز للتعاون الخلاق بين شعبنا وشعوب الاتحاد السوفييتي الصديق. ومجَّد في خطابه بطولات الشعب الفيتنامي وقال: «إنني أغتنم هذه الفرصة لأحيي هذا الشعب الذي سجل أروع البطولات في دفاعه عن وطنه وحقه، واستطاع بتضحياته وصموده أن يزعزع كراسي الحكام الأمريكيين»... كما تحدث مندوب سوفييتي، ومدير سد الفرات المهندس إبراهيم فرهود:

مئات بل آلاف من الشيوعيين، وبعد أن خرجوا من السجون أو من البيوت السرية أو عادوا إلى الوطن بعد إتمام دراستهم، وجدوا في ذلك فرصة لإثبات ذواتهم أولاً، ولتكريس روح البناء والتنمية التي سار عليها الاتحاد السوفييتي وشرق أوربا وإثبات أن كل السوريين وبينهم الشيوعيون قبلوا تحدي البناء والتنمية. وهكذا ومن كل أصقاع سورية توافد مهندسون وعمال وموظفون تركوا أسرهم وأعمالهم الخاصة، بل قطع البعض منهم دراسته وعاد ليشارك في تأسيس هذا الحلم.

في الطبقة آلاف الشباب على مختلف مشاربهم جاؤوا ليؤسسوا مدينة جديدة وكأنها أرض موعودة.

في ذلك المجتمع كنت تجد نمطاً جديداً من التضافر بين الناس، شكلاً آخر من القيم والعلاقات، كان السد أشبه بصرح رمزي كبير يشير إلى روح جديدة يحلم أولئك الطامحون بالتأسيس له. صرح يرمز إلى نمط جديد من العلاقات ولتلك التوليفة الصعبة بين الفقر والحضارة. فلأول مرة يبني الفقراء من شعبنا صرحاً حضرياً على منوالهم بإرادتهم وبأيديهم.

لقد بذلت جهود كبيرة من عشرات آلاف العاملين في السد ومن مختلف الاتجاهات الحزبية والسياسية ومن مختلف المحافظات، لإنجاح هذا المشروع الوطني الريادي الكبير. ونحن نقدر جهود الجميع وتضحياتهم.

وللأسف فإنني أسجل هنا الموقف السلبي الذي اتخذته القوى اليمينية والرجعية من العمل في بناء السد، بسبب موقفها المعادي لأي تقارب مع الاتحاد السوفييتي. إذ امتنع الكثير من المهندسين عن العمل في سد الفرات رغم الإغراءات المادية والمزايا التي عرضتها الحكومة بهدف تأمين الكادر السوري اللازم لمواكبة الخبراء من الجانب السوفييتي، حتى وصل الأمر إلى مقاطعة المتعهدين لمناقصات بناء المدينة السكنية للعاملين في السد.

وقد أدت هذه المواقف إلى اتخاذ الحكومة لقرار إحداث أول شركة عامة للإنشاءات، وهي الشركة العربية السورية للتعمير، وأنيط بهذه الشركة مهمة إنشاء المدينة السكنية وخطوط نقل القدرة وغيرها، وسمي الرفيق المهندس نبيل الخاني مديراً عاماً لهذه الشركة، وأعطي من الصلاحيات ما مكنه من تأسيس شركة إنشاءات عامة استقرت وساهمت فيما بعد بوضع اللبنة الأولى في إحداث القطاع العام الإنشائي في البلاد، والذي لعب دوراً كبيراً بشركاته المتعددة الاختصاصات في بناء معظم مشاريع التنمية في مختلف المجالات.

غير أني في هذه الصفحات أحاول إظهار دور الحزب الشيوعي وكادراته وتفانيهم في إنجاز هذا المشروع وإنجاحه.

لقد اعتبر الحزب الشيوعي أن النجاح في بناء هذا السد هو خطوة أساسية ومهمة في مجمل تطور سورية، في ميادين الري وتوليد الكهرباء وتطوير الزراعة وفي تكوين ملاكات فنية عالية المستوى، تخدم التطور اللاحق في البلاد، وفي تغيير طبيعة المنطقة ورفع مستوى سكانها.

لقد تابعت عن قرب تطور هذا المشروع وزرت موقع السد عدة مرات، عندما لم تكن هناك سوى براكة واحدة وخيمة صغيرة إلى جانبها يأوي إليهما أولئك الأوائل من المهندسين الشيوعيين والمهندسين الآخرين الذين رافقوا بناء السد من أول ضربة فأس

حتى توليد أول طاقة كهربائية منه. وأذكر من هؤلاء الشيوعيين الرفاق مروان قولي الذي كان أول مسؤول عن مركز الطبقة. وقد لعب دوراً إيجابياً في إقامة الأسس الأولية وفي تكوين الملاكات الأولى. وقد فوض بصلاحيات الهيئة العليا لسد الفرات فيما يتعلق بالتعيين. وعين مايقارب ١٥٠٠ عامل، خاصة من أهالي المنطقة في مدة شهرين.

لم يكن في سورية سوى عدد نادر جداً من العمال الفنيين الضروريين لبناء السد، وخاصة عمال الحفارات الهيدروجيولوجية. وبدأ تدريب العمال الجدد على أيدي الخبراء السوفييت، ونجح العديد منهم في اكتساب خبرات عالية وتفوقوا على السوفييت في مسابقات فنية. وكان من الأوائل الذين عملوا في السد الرفيق صريح البني الذي أشرف على أعمال الطبوغرافيا، والمهندس جميل الراشد، والعمال عبد الجليل جرجنازي، وإبراهيم ميرزا وغيرهم.

كان الرفيق رضوان مرتيني منذ مطلع عام ١٩٦٦ يعمل في المديرية العامة، ثم مديراً لمركز حلب. وبعد إنهاء خدمته العسكرية انتقل إلى السد واستلم مديرية التركيبات المعدنية. وبعد بناء جسم السد والأمور الأخرى المرتبطة به، بدأ العمل في مجال الكهرباء وأصبح الرفيق رأفت الكردي مديراً لقطاع الكهرباء.

كانت المهمة الأساسية التي أوكلت إليَّ في الحزب هي متابعة كل ما يتعلق بالسد. وفي هذا الإطار عملت على إقامة لقاء شبه دوري مع المدير العام، لمعرفة حاجاته وتلبية ما نستطيع منها. وإذا كان لي أن أقول كلمة بحق المهندس إبراهيم فرهود المدير العام فهي أنه كان مثال التضحية والإخلاص والصفاء والنزاهة. وكان إلى جانب ذلك شديد الحزم، ولم يكن يسكت عن أي خطأ من أي كان، وقد أحسن التعاون مع الخبراء السوفييت.

كان لقاؤنا كل خمسة عشر يوماً تقريباً في بيت الرفيق نبيه رشيدات، وكان علي أن أتصل يومياً بجميع منظمات الحزب للتفتيش عن الناس الذين يحتاجهم هذا الإنسان الرائع. وكنت أقدم له الاقتراحات المختلفة من مهندسين اختصاصيين إلى عمال فنيين إلى اختصاصيين بقضايا الجمارك والترانزيت.

كان العمال والمهندسون الأوائل يعيشون ظروفاً صعبة. وقد أنشؤوا براكات من صناديق الخشب التي كانت تحوي المعدات الفنية، إلى أن أنجز بناء المساكن. وكانت هذه الحياة الشاقة مثار فخر وسعادة لهم.

لقد لعبت تجربة سد الفرات دوراً هاماً في تقديم ملاكات فنية وقيادية للعديد من القطاعات، خاصة القطاع العام الإنشائي. واستلم خريجو سد الفرات المراكز الأساسية في هذا القطاع بالذات.

كانت الحياة الاجتماعية حميمية لدرجة ملحوظة. فعبر العلاقات الرفاقية والأخوية، تمت حالات زواج وتقارب، وحدث اندماج كبير بين المهندسين والفنيين والعمال، ولكن الحزم والانضباط والأداء الجيد، كان السائد خلال العمل وسيد الموقف.

ولابد من ذكر التفاني الذي بذله الفنيون السوفييت، من كبير الخبراء حتى أبسط فني، هو السائد في عملهم وتطلعهم إلى إنجاز مهمة بناء السد على أكمل وجه. ولعب التعاون الرفاقي والأخوي بينهم وبين العاملين السوريين، من كبار المسؤولين إلى أبسطهم، الدور الحاسم في إنجاز هذا الصرح الذي سيبقى خالداً على مر السنين.

وقد توجت الجهود الكبرى التي بذلت في السنوات الأولى بالاحتفال بتحويل مجرى نهر الفرات في عام ١٩٧٣ برعاية وحضور الرئيس الراحل حافظ الأسد. وما زالت الكلمات التي قيلت في هذه المناسبة العظيمة والتي تم فيها لأول مرة في التاريخ ترويض نهر الفرات وتحويل فيضاناته التي كانت سبباً في الكوارث على القاطنين على ضفافه إلى نعمة بعد تخزين هذه المياه في بحيرة السد التي تعدُ من أكبر البحيرات الاصطناعية، إذ تبلغ مساحتها ما يزيد على ٦٠٠ كم٢، وتبلغ سعة تخزينها ما يقارب ١٣ مليار م٣ من المياه والتي أصبحت المصدر الرئيسي لتوليد الكهرباء ولري مئات آلاف الهكتارات من الأراضي القاحلة والتي أصبحت مصدراً أساسياً للأمن الغذائي لبلادنا.

وفي الأول من أيار من نفس العام، جرى احتفال كبير في تل عدس في أقصى محافظة الحسكة، بمناسبة تدشين خط أنابيب النفط وتطوير حقول النفط في هذه المنطقة.

كان هذا التدشين أول مناسبة أتاحت لي زيارة هذه المنطقة من الوطن، الغنية بكثير من الموارد الاقتصادية، وقد نصب سرادق كبير للمدعوين من مسؤولين وغيرهم، وقريباً منه ارتفعت الأجهزة التي بدأت تدفع النفط إلى الشاطىء السوري، قرب بانياس. وقد توج هذا الحدث معركة كبرى خاضتها جماهير شعبنا العربي السوري، بقواها الوطنية والتقدمية المختلفة ضد الاحتكارات النفطية الاستعمارية من أجل استثمار النفط وطنياً.

وقد لعب هذا الإنجاز الكبير دوراً هاماً في تقوية وتعزيز اقتصادنا الوطني، وتحريرنا من ضغط شركات النفط الاستعمارية وفي تغذية ميزانية الدولة بموارد جديدة وقد وفر هذا الإنجاز كميات هائلة من النقد النادر الذي كان يدفع لشركة نفط العراق الإنكليزية كما عزز استقلال البلد وسيادته الوطنية.

وقد وردت الفقرة التالية في التعليق الذي نشر في «نضال الشعب» حول الموضوع «إن من الأهمية بمكان وضع الموارد المتأتية عن استثمار النفط، والتي ستتزايد مع توسع الاكتشافات في خدمة التطور الصناعي، ومن أجل رفع مستوى حياة الجماهير. وبغير ذلك تتبدد هذه الموارد على الجهاز البيروقراطي ولا تحقق الغاية المرجوة منها.

بعد شهرين من الزمن جرى في ٢٧ تموز احتفال شعبي كبير دشنت خلاله مشاريع إنمائية هامة، في مقدمتها الخط الحديدي عكاري ـ طرطوس، وقد ربط هذا الخط مرفأ طرطوس مع سد الفرات في الطبقة مروراً بحمص وحلب.

وجرى أيضاً إنجاز هذين المشروعين الهامين بالتعاون مع الاتحاد السوفييتي. وهكذا يمكن القول إن بنية تحتية لتطور لاحق للاقتصاد الوطني، قد أرست دعائمها، وكان ذلك نموذجاً رائعاً في التعاون الصادق المخلص، بين دولة اشتراكية هي الاتحاد السوفييتي وسورية، وقد ساهم هذا التعاون وإنجاز هذه المشاريع الضخمة في تعزيز الصمود الوطني وفي إكساب سورية وشعبها على مدى عقود طويلة القدرة على الصمود ومجابهة مخططات الهيمنة والسيطرة.

دشن في ذلك الظرف أيضاً مرفأ طرطوس الذي بني بالتعاون مع شركة يوغوسلافية. وقد جرى تعميقه لكي ترسو فيه بواخر أكبر حجماً، وبني فيه رصيف خاص لتصدير الفوسفات. كما احتفل بأول باخرة نفط تحمل النفط السوري إلى الأسواق العالمية.

حضر هذه الاحتفالات عدد من المسؤولين وجماهير واسعة وممثلون عن نقابات العمال واتحاد الفلاحين ولجان الدفاع عن الوطن، وكان بينهم ممثلون عن الحزب الشيوعي السوري.

رفعت في هذه الاحتفالات لافتات منها:

ـ سكة الحديد رمز خالد للصداقة العربية السوفييتية.

ـ لقاء القوى التقدمية داخلياً وعربياً ضمانة لإزالة آثار العدوان وانتصارنا على الاستعمار والصهيونية.

ـ استثمار النفط وطنياً هزيمة للاحتكارات البترولية.

الفصل الخامس والثلاثون

حكومة جديدة وتزايد التآمر الاستعماري

تطورت الخلافات في أواخر عام ١٩٦٨ داخل القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، حول العديد من الأمور المرتبطة بأساليب العمل والعلاقة مع التنظيم العسكري وإجراء تنقلات داخل القطعات العسكرية وزيارتها، إلى جانب السياسات العامة في الشؤون الداخلية والموقف من القوى السياسية الأخرى والتعامل معها، وأدت هذه الخلافات إلى عقد المؤتمر القطري الرابع، وانتهى المؤتمر بتوافق ونتج عنه تشكيل حكومة جديدة برئاسة الدكتور نور الدين الأتاسي.

ولأول مرة جرى بحث مع قيادة الحزب الشيوعي السوري من أجل المشاركة في الحكومة واختيار الممثل الذي يرى الحزب الشيوعي تقديمه.

وقد بحثت اللجنة المركزية والمكتب السياسي الموضوع وأقر مبدأ المشاركة، وأن يكون التمثيل باسم الحزب الشيوعي وليس كشخصية تقدمية. وأرادت اللجنة المركزية تأكيد استقلالية الحزب في هذا الشأن والسير خطوة إلى الأمام في مجال التعاون، وتم اختيار الرفيق واصل الفيصل ليكون ممثلنا في الوزارة الجديدة. وقدمنا هذا الاقتراح إلى الدكتور نور الدين الأتاسي فوافق عليه ورحب. وكان له معرفة سابقة بالرفيق واصل خلال الدراسة المشتركة الثانوية والجامعية، وكان لدى اللواء حافظ الأسد، وزير الدفاع آنذاك، فكرة الاستمرار بعضوية الرفيق سميح عطية الذي أخذ في الوزارة السابقة كشخصية تقدمية، انطلاقاً من فكرة الاستمرارية وللمعرفة الشخصية السابقة. ويبدو أنه جرى نقاش في قيادة حزب البعث نتج عنه هذا التباين في الرأي. ولكي يتم الاتفاق حول الموضوع قمت والرفيق دانيال نعمة بزيارة الدكتور نور الدين الأتاسي في القصر الجمهوري في المهاجرين. وأتى اللواء حافظ الأسد لحضور اللقاء والمناقشة. وجرى بحث مشترك انتهى باتفاق وجهات النظر واعتبار الرفيق واصل الفيصل مرشح الحزب للوزارة الجديدة، وسمي وزيراً للمواصلات، وكان هذا اللقاء هو

أول لقاء وتعارف مع اللواء حافظ الأسد، بينما كانت لقاءاتي مع الدكتور نور الدين الأتاسي متواترة، أحياناً في بيته وأحياناً في قصر الرئاسة، برفقة أحد الرفيقين إبراهيم بكري أو دانيال نعمة. وهذان الرفيقان كانا يعرفان الدكتور الأتاسي منذ فترة سابقة، عندما كانا معاً سجناء في سجن تدمر في ظل حكم الشيشكلي، وكانوا يلتقون عند الخروج للقيام بأعمال الحفر والتنقيب.

بعد ذلك استمرت اللقاءات مع اللواء حافظ الأسد، سواء في قيادة الأركان أو في قيادة سلاح الطيران، وكان يرافقني الرفاق ظهير عبد الصمد ودانيال نعمة وعمر السباعي.

عمل الرفيق واصل في وزارة المواصلات من تشرين الأول ١٩٦٨ حتى تشرين الثاني ١٩٧٠، تاريخ قيام الحركة التصحيحية وبدء مرحلة جديدة في حياة سورية، واتسم عمله بالجدية والشعور العالي بالمسؤولية، فقد حمل مسؤولية وزارة ليس لها أية علاقة باختصاصه وهو قسم الصيدلة. وكان يطرح أمام الحزب مشاريع القوانين ويطلب المساعدة في استيعابها ومناقشتها وتقديم رأي الحزب بها، وساعده الحزب كثيراً في هذا المجال، وتوصل إلى تحقيق إنجازات كبيرة في الوزارة، لا يزال أثرها مستمراً حتى الآن، وخاصة القانون المتعلق بالشؤون الصحية والمعالجة الطبية. ويطلق عليه النقابيون قانون الشيوعيين.

أعلنت «نضال الشعب» في خبرها عن تشكيل الوزارة الجديدة، إنها تضم أكثرية تمثل حزب البعث العربي الاشتراكي، إلى جانب ممثلين عن قوى واتجاهات تقدمية ويسارية، كالاشتراكيين الديمقراطيين وجناح من الوحدويين الاشتراكيين إضافة إلى عدد من الوزراء المستقلين ذوي الاتجاهات التقدمية.

وهكذا برز التعاون الجبهوي بشكل ملموس، وشكل خطوة متقدمة في العمل السياسي في سورية، فإلى جانب حزب البعث، تمثلت قوى حزبية أخرى، كالشيوعيين والاشتراكيين إضافة إلى المستقلين.

لقد تم ذلك في إطار وضع متوتر في البلاد، ساعدت على تعميقه حملة من الدعاية الاستعمارية والصهيونية، وكان الهدف دفع الأمور إلى صدام بين مختلف القوى الوطنية والتقدمية وخاصة بين البعثيين أنفسهم. فقد بدأت تنشأ تعارضات بين نهج القيادة البعثية ممثلة بالدكتور نور الدين الأتاسي واللواء صلاح جديد، وبين نهج اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع.

لقد كان تشكيل الحكومة الجديدة ضربة للمساعي الاستعمارية، وتحقق بعض الهدوء النسبي. ولكن ذلك لم يسهم في حل الخلافات جذرياً. وكان أمام الحكومة وأمام

قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي والمسؤولين من مدنيين وعسكريين مهام كبيرة، خارجية وداخلية، سياسية واقتصادية واجتماعية، وبدون التقدم في حلها بشكل حزبي صحيح، يستمر القلق ويستمر الاستقطاب داخل الحزب وداخل المؤسسة العسكرية.

كان الهم الأساسي الذي شغل المكتب السياسي، هو حماية الوضع من أخطار التآمر الاستعماري. وركز الحزب جهوده، من اتصالات شخصية ونشاط عملي ونشر وتعبئة للمنظمات، هو إبراز القلق على الوضع، والتحذير من التآمر الاستعماري والدعوة إلى تعزيز الوحدة الوطنية. وفي مقال افتتاحي لعدد «نضال الشعب» الصادر في أواخر تشرين الثاني ١٩٦٨ توضيح للوضع ومظاهر التآمر الاستعماري ودعوة لليقظة تجاه مخططات الاستعمار والرجعية. وقد جاء فيه:

«لقد جرب المستعمرون التآمر الرجعي من حبنكة[1] إلى حاطوم، وجربوا الإيقاع بين التقدميين، ويحاولون اليوم نسف الوضع في سورية من خلال تفجير أزمة داخل حزب البعث. وهذه السياسة الاستعمارية ليست منعزلة عما يجري في المنطقة كلها، من محاولات تشعيل الحرب الأهلية في لبنان ودفع الرجعية الأردنية ضد العمل الفدائي، ومحاولات تجديد الحرب مع الأكراد في العراق، وإثارة خلافات دينية في السودان.

«وهكذا اتجهت الأنظار مرة أخرى نحو البلاد العربية ونحو سورية ودمشق بالذات، لتراقب ما يجري فيها من أحداث، فقد أصبح واضحاً للجميع أن خلافاً حول عدد من القضايا الفكرية والسياسية والتنظيمية، نشب داخل قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي، وانفجرت في المؤتمر القطري الرابع الذي عقد مؤخراً، وهو ينتقل حالياً إلى قواعد الحزب المدنية والعسكرية. وهذا الخلاف لا يهم حزب البعث وحده ولا ينحصر في القضايا الحزبية الداخلية، بل يهم الجماهير الشعبية كلها وقواها الوطنية والتقدمية، لأنه يتعلق بقضايا الوطن المصيرية إلى البناء الاقتصادي والسياسة العربية والدولية والموقف من القوى التقدمية والمنجزات الاقتصادية والاجتماعية.

«من خلال هذا الخلاف يقوم بعض أعضاء حزب البعث من عسكريين ومدنيين، خلافاً لرأي قيادتهم وحزبهم، بشن حملة تشكيك ضد الاتحاد السوفييتي ويدعون للتسلح من ألمانيا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، ويهاجمون هذا الشكل البسيط المحدود من التعاون مع الشيوعيين، ويدعون إلى وقف البناء الاقتصادي وإلى فتح حرية الاستيراد والتصدير.

---

[1] ــ حبنكة: رجل دين في حي الميدان كان يؤلب الجماهير ضد النظام.

«وتتلقف صحافة الاستعمار وإذاعاته في واشنطن ولندن وباريس، وصحف الرجعية العميلة في بيروت هذه الأنباء وتنشرها بعناوين بارزة، وتعرضها وكأن سياسة سورية أخذت تتحول عن الخط التقدمي الذي سارت عليه، وقد توضح أن للاستعمار والرجعية الداخلية خطتهما في هذا الأمر، وهما يعملان بتناسق تام تنظيمياً ودعائياً، لتسعير الخلاف ودفعه نحو صدام مسلح، وإيقاع البلاد في كارثة وطنية أعمق بكثير من كارثة حزيران.

«إن جميع الوطنيين والتقدميين في سورية، يقظون تجاه مخططات الاستعمار والرجعية، وهم يأملون بأن تتغلب الروح الوطنية على كل شيء، وبأن ترتد جميع المحاولات الرامية إلى تسعير الخلاف، داخل حزب البعث، إلى صدور أصحابها وتعزل وترمى جانباً. ولا يعني ذلك أبداً رمي الاجتهادات والنقاشات، بل حلها، بشكل يقطع على الرجعية والاستعمار آمالهما، بصون النظام التقدمي.

«إن هناك مسؤولية تاريخية تقع على جميع التقدميين، ولا يمكن اتخاذ موقف اللامبالاة أمام هجمة الاستعمار والرجعية...».

هذه التطورات كلها واحتدام الأزمة الداخلية وتعمق الخلافات، دفعت كلها إلى عقد مؤتمر جديد لحزب البعث العربي الاشتراكي، هو المؤتمر الرابع الاستثنائي الذي عقد في آذار ١٩٦٩. وقد استرعى هذا المؤتمر انتباه الجماهير الواسعة ولفت انتباه الرأي العام العربي. وقد وقف الحزب الشيوعي السوري الموقف الذي أملاه عليه شعوره بالمسؤولية تجاه مصلحة البلاد العليا، وبذل جهده في اتجاه حل الأزمة على أسس مبدئية صحيحة، كما كان ذلك رائده تجاه المؤتمر القطري الرابع.، وأصدر المكتب السياسي بياناً حول هذا الموضوع أوضح فيه اتجاهات التآمر الاستعماري وضرورة حل الخلافات والوصول بها إلى نهاية إيجابية.

في هذه الظروف الدقيقة وبعد انتهاء المؤتمر، كتبتُ مقالة افتتاحية في «نضال الشعب»، تحت عنوان «خذل الاستعمار وخذلت الصهيونية»، ومما جاء فيه:

«تشير الوقائع إلى أن المؤتمر استطاع تخطي الأزمة وإيجاد لغة مشتركة بين أطراف الخلاف، وإنهاء ذلك الوضع المقلق الخطر، الذي كان يمكن له فيما لو انفجر أن يسيء ليس فقط، إلى النهج التقدمي في سورية ولا لمنجزاتها، بل حتى إلى مجمل الحركة الوطنية التقدمية العربية وللنضال ضد الاستعمار وضد الاحتلال الإسرائيلي.

لقد أقر المؤتمر شجب التصرفات المخالفة للأصول الحزبية، كما أقر طرق العمل الحزبي في الجيش، وأموراً تتعلق بالحياة الحزبية الداخلية. ووضع أسس إعادة المفصولين ومعالجة الخلاف بين أطراف البعث في سورية والعراق، وتوصيات تتعلق

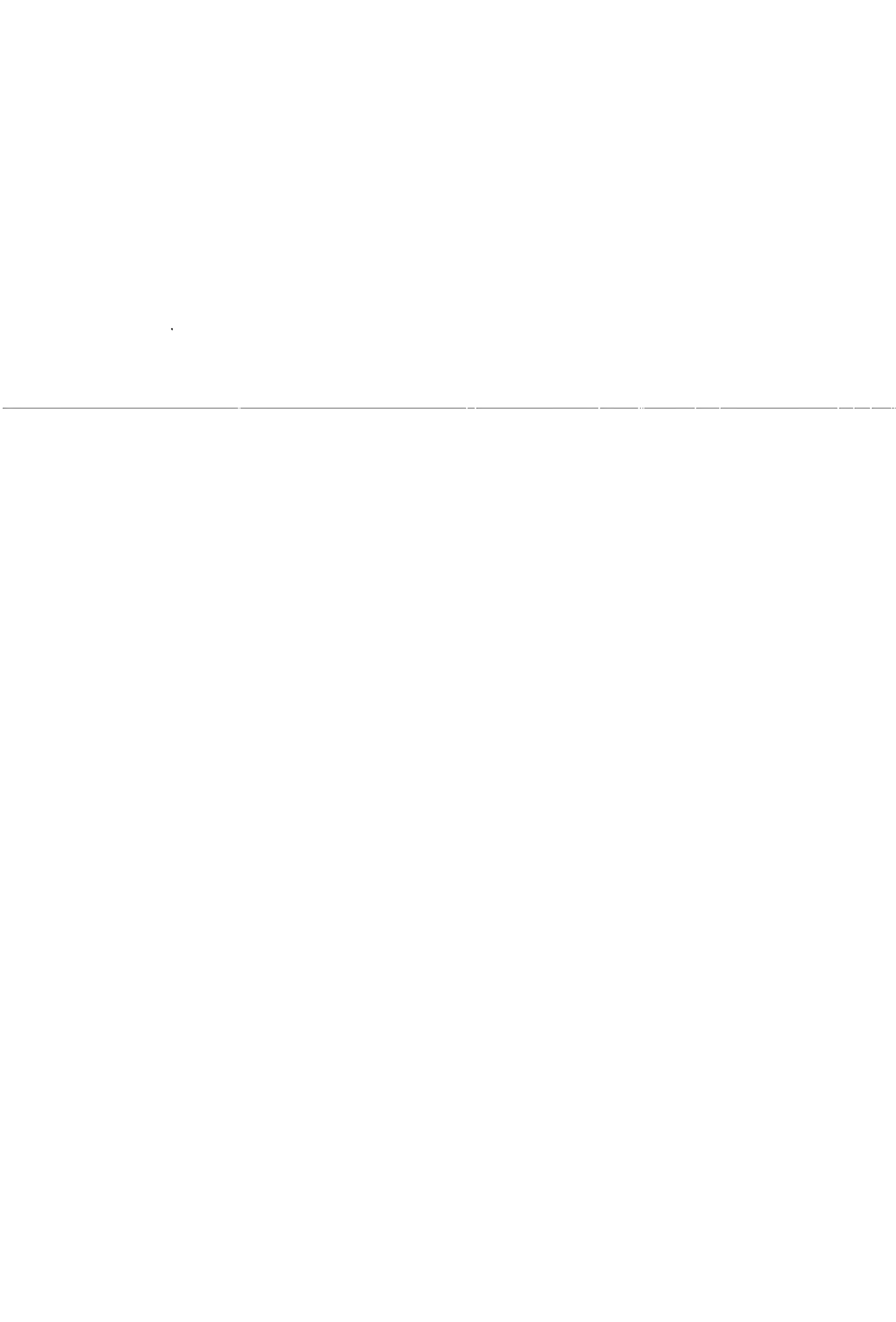
بالعمل الفدائي وبالجبهة الشرقية. وأكد أسس السياسة الخارجية التي اتخذتها المؤتمرات الحزبية السابقة، وكذلك السياسة الاقتصادية وبناء المشاريع، وطور بعض جوانب السياسة الداخلية، إذ تبنى توصية تقر وجود منظمات للتقدميين وتدعو إلى التعاون معها وضمان مشاركتها، وتطالب بإصدار دستور مؤقت وتشكيل مجلس شعب منتخب، وتؤكد ضرورة حماية المواطنين، وخلق جو من تكافؤ الفرص بينهم، وصاغ المؤتمر توصيات تتعلق بالسياسة العربية.

«إن خروج المؤتمر بهذه النتائج وتلافي الصدام وإحباط مخططات الاستعمار والرجعية، هو نجاح بدون شك، وتنفيذ التوصيات والقرارات المتخذة بروح إيجابية وجعلها واقعاً ملموساً، يجعل هذا النجاح وطيداً، ويمكنه من إعطاء ثماره الإيجابية من حيث توسيع قاعدة الحكم ولف جماهير العمال والفلاحين حول الوضع التقدمي وإطلاق طاقاتها لحماية المنجزات التقدمية ولخوض معركة تحرير الأرض وإزالة آثار العدوان.

«وأشارت المقالة إلى أن المؤتمر لم يصل إلى إقرار صيغة واضحة حول الجبهة التقدمية، تلبي حاجة الجماهير الشعبية لمثل هذه الجبهة وتحقيق إمكانية المشاركة في وضع الحلول وتحمل المسؤوليات اللازمة لمعالجة الوضع الجدي الناشىء في المنطقة وفي البلاد. وهذا نقص ستكون له آثاره على مجمل الوضع. ولكن مع ذلك يجب القول إن الاتجاه الذي رسم لتطوير التعاون بين مختلف القوى التقدمية والوطنية وتخطي السلبيات السابقة هو خطوة إلى أمام ويمكن أن يكون أساساً لعمل واسع وعميق.

ثم تناولت المقالة العلاقات العربية والموقف من الاتحاد السوفييتي ورفع القدرة النضالية، وبين في النهاية عوامل النجاح وهي:

- الدور الهام الذي لعبته قواعد حزب البعث والمندوبون.
- الدور الكبير الذي لعبته جماهير العمال وحركتهم النقابية، بالتوقف عن العمل وإرسال برقيات للمؤتمر.
- دور القوى التقدمية وخاصة الحزب الشيوعي السوري.
- مساعي الجزائر والعربية المتحدة والمنظمات الفدائية وأحزاب وتجمعات عربية أخرى.



الفصل السادس والثلاثون

أحداث على النطاق الدولي

التدخل السوفييتي العسكري في تشيكوسلوفاكيا

في أواخر آب ١٩٦٨ عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري اجتماعاً، لبحث تقرير المكتب السياسي حول الأحداث في تشيكوسلوفاكيا منذ كانون الثاني ١٩٦٨ وحتى دخول القوات المسلحة لدول حلف وارسو: الاتحاد السوفييتي، بولونيا، بلغاريا، ألمانيا الديمقراطية، هنغاريا إلى تشيكوسلوفاكيا، بناء على دعوة عدد من قادة الحزب والدولة فيها، وكذلك حول نشاط المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري والمواقف التي اتخذها خلال هذه الأحداث.

فما هي هذه الأحداث؟!

لقد استطاعت عناصر معينة الوصول إلى قيادة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. وبدأت هذه العناصر تحت شعارات مختلفة أبرزها شعار الاستقلال والديمقراطية، محاولة إبعاد تشيكوسلوفاكيا عن الاتحاد السوفييتي، وإبعاد الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي عن التعاون مع الأحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية، كما طرحت شعارات تمس أسس البناء الاشتراكي في هذا البلد. وقد اتخذت هذه الأحداث طابعاً جماهيرياً واسعاً، شمل جماهير الشباب والطلاب وفئات من أوساط الشغيلة. وكانت التظاهرات التي تخترق شوارع براغ والمدن الأخرى، تضم مئات ألوف المتظاهرين الذين يلوحون بهذه الشعارات وبغيرها.

حاول الحزب الشيوعي السوفييتي والأحزاب الشقيقة في البدء توجيه النصح لقيادة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي ووجهت رسائل بهذا المعنى إلى القيادة التشيكية، موقعة من أحزاب حلف وارسو جميعها.

اقترحت الرسالة تنظيم لقاء مشترك بين جميع هذه الأحزاب وجرت محاولة لعقده، ولكن لم يحضر الرفاق التشيك، وقد بينت الرسالة أنه لا توجد أية رغبة في

التدخل في الشؤون الداخلية الخاصة بالحزب والدولة التشيكوسلوفاكية، ولا خرق احترام مبادىء الاستقلالية والمساواة في العلاقات بين الأحزاب الشيوعية وبين البلدان الاشتراكية، ولا التدخل في طرائق تخطيط إدارة الاقتصاد الوطني الاشتراكي لتشيكوسلوفاكيا ولا في الطرائق الرامية إلى تطوير الديمقراطية الاشتراكية.

وذكرت الرسالة أنه لا يمكن القبول بأن تقوم قوى معادية بتحويل تشيكوسلوفاكيا عن طريق الاشتراكية، وخلق خطر يهدد بسلخها عن الأسرة الاشتراكية، والحال هذه، فالقضية ليست قضيتكم وحدكم، بل هي قضية جميع الأحزاب الشيوعية والعمالية والدول التي يجمع بينها التعاون والتحالف والصداقة.

وذكرت الرسالة أن حدود العالم الاشتراكي تمر اليوم في قلب أوربا بالغة نهر الألب وجبال سومانا. ولن نقبل أبداً بأن تتعرض هذه المكتسبات التاريخية للاشتراكية وللاستقلال ولأمن شعوب بلداننا، ولن نقبل بأن تحدث الإمبريالية ثغرة في المنظومة الاشتراكية ولا أن تغير ميزان القوى في أوربا لصالحها.

في ١٩٦٨/٧/٢٥ وجه المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري رسالة إلى هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. وقد جاء في الرسالة بعد التحيات الرفاقية:

«إننا نرى بوضوح أن نشاط أعداء الاشتراكية يتسع، وهجومهم على الحزب الشيوعي يشتد، وهم يقومون بذلك علناً وعبر وسائل الإعلام التابعة للحزب والدولة. وقد توجوا نشاطهم هذا بنشر وثيقة الألفي كلمة، والتي هي عبارة عن برنامج سياسي يعارض برنامج الحزب وسياسته وأيديولوجيته، الأمر الذي يهدد الحزب الشيوعي ودوره ويهدد النظام الاشتراكي والمكتسبات التاريخية التي حققتها الطبقة العاملة.

ثم تتابع الرسالة:

«ونحن في الوقت الذي يخوض فيه شعبنا معركة قاسية مع الاستعمار والصهيونية كنا نحيي دائماً مواقف الدعم والتأييد التي اتخذها حزبكم وشعبكم لقضايا العرب العادلة. إلا أننا نرى من واجبنا مصارحتكم بما نشعر به الآن من قلق متزايد أمام نشاط العناصر الصهيونية في بلادكم التي تحاول عن طريق المواقع التي تحتلها في أجهزة الدعاية الجماهيرية، إظهار إسرائيل كدولة غير معتدية وإظهار العرب بمظهر المعتدي، الأمر الذي يجانب الحق ويخالف المواقف التي تفرد بها حزبكم، وتسعى هذه العناصر الصهيونية للحيلولة دون قيام الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي والطبقة العاملة بدورها المبدئي في دعم حركات التحرر الوطني وبضمن ذلك حركة التحرر الوطني العربية.

«لقد اطلعنا على الرسالة الموجهة إلى لجنتكم المركزية، من قبل الأحزاب الشيوعية وأحزاب العمال في الاتحاد السوفييتي وبولونيا وألمانيا الديمقراطية وهنغاريا وبلغاريا، وإننا نقدر عالي التقدير المواقف الأممية لأحزاب وحكومات هذه البلدان وشعورها العالي تجاه مصائر الشعوب.

«إننا كحزب شيوعي، نرسم سياستنا باستقلال تام، في ضوء الماركسية اللينينية وحقائق بلادنا. وهذا شيء معروف وواضح عن الحزب الشيوعي السوري، ونحن وطنيون وأمميون، نشعر في الوقت نفسه، بمسؤوليتنا تجاه شعبنا وتجاه الطبقة العاملة العالمية والحركة الشيوعية العالمية. وإن مصير النظام الاشتراكي في تشيكوسلوفاكيا، يهمنا نحن الشيوعيين السوريين، وليس فقط كأمميين نتطلع إلى انتصار الاشتراكية في العالم كله، بل كوطنيين أعداء الاستعمار والصهيونية...».

ولما لم تثمر هذه الجهود وأصبح الخطر جدياً، فقد تدخلت قطعات عسكرية واسعة من البلدان الاشتراكية، واحتلت العاصمة براغ ومناطق أخرى من تشيكوسلوفاكيا.

أصدر المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري في ١٩٦٨/٨/٢١ بياناً حلل فيه عوامل هذا التدخل، وأعلن «أن المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري يعلن باسم جميع الشيوعيين في سورية وجميع التقدميين تأييده ودعمه الكامل لهذا التدبير». والحق أن الشيوعيين على مختلف مستويات مسؤولياتهم خاضوا نقاشاً كبيراً مع القوى السياسية الأخرى حول موقف الحزب من التدخل السوفييتي، وصادفتهم صعوبات جدّية في إقناع هؤلاء بصحة موقف الحزب.

لقد شغلت هذه الأحداث اهتمام العالم كله، وأخذت الدعاية الاستعمارية تشن حملة كبرى ضد الاتحاد السوفييتي وضد البلدان الاشتراكية الأخرى. وقد نشرت «نضال الشعب» مقالة موسعة كتبها الرفيق ظهير عبد الصمد حول هذه الأحداث ودروسها وتحليلها.

لقد وقعت هذه الأحداث في الوقت الذي كانت تدور فيه معارك تحررية باسلة في الفيتنام ضد القوات المسلحة الأمريكية والعدوان الأمريكي، وكان الرأي العام العالمي مجند على نطاق واسع ضد الإمبريالية الأمريكية. واستطاعت الدعاية الإمبريالية، بما دبرته ونظمته في براغ وضع الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية في نفس الموقف، موقف التدخل في الشؤون الداخلية لبلد آخر، واستخدام القوات المسلحة لقمع وخنق التطورات الجارية فيه.

كان من الطبيعي أن تتم عملية توضيح كبيرة داخل الحزب الشيوعي السوري، وبين الجماهير، لإظهار طبيعة كل من المشهدين. فهذا يتم لإنقاذ الاشتراكية وإحباط

المخطط الاستعماري الصهيوني، وذلك من أجل خنق حركة تحرر وطنية، تعرفها شعوب العالم قاطبة.

لم تؤد هذه الأحداث، في حينه، إلى أية إشكالات داخل حزبنا، ولم تؤثر على مواقفه في البلد. فقد كان هناك من جهة، إجماع في المكتب السياسي وفهم عميق لما يجري في تشيكوسلوفاكيا، كما ميزت الحركة الوطنية في سورية بوضوح كامل، بين الصديق والعدو، ورأت في المحاولات التي جرت لإبعاد تشيكوسلوفاكيا عن الخط الاشتراكي وعن خط التعاون مع الاتحاد السوفييتي، خطراً على العرب أنفسهم! ولكن هل يمكن القول إن هذه القضية قد مرت دون ذيول داخل الحركة الشيوعية العالمية، وفي إطار الفكر الاشتراكي؟ طبعاً لا! وأعتقد أن هذه الأحداث وما سبقها من أحداث في المجر وأشكال المعالجة لعبت دوراً في إضعاف التضامن الأممي والعلاقات مع الاتحاد السوفييتي.

معركة في بودابست:

كانت الحركة الشيوعية والعمالية، تعيش في تلك السنوات وضعاً صعباً. فقد تعمقت الخلافات بين الحزب الشيوعي الصيني والحزب الشيوعي السوفييتي، وبرزت ظاهرة ابتعاد الحزب الشيوعي الروماني عن الحزب الشيوعي السوفييتي، وممارسة سياسة مستقلة، ودخلت الأحزاب الشيوعية في صراعات في داخلها وفيما بينها، حول العديد من المواقف الفكرية والسياسية.

لقد بقي الحزب الشيوعي السوري موحد الرأي حول أغلب، إن لم يكن جميع، القضايا الخلافية في الحركة الشيوعية، واتخذ موقف الانحياز الكامل للموقف السوفييتي.

عقد عام ١٩٦٨ لقاء استشاري للأحزاب الشيوعية والعمالية في بودابست، وحضر هذا اللقاء ٦٥ وفداً حزبياً، ومثل الحزب الشيوعي السوري وفد ضم الرفيقين خالد بكداش ويوسف الفيصل.

كان هذا الاجتماع عاصفاً وأحدث ضجة عالمية واسعة، فخلال المناقشة حول المواضيع المدرجة على جدول الأعمال، ألقى الرفيق خالد بكداش كلمة انتقد فيها موقف الحزب الشيوعي الروماني من وحدة الحركة الشيوعية العالمية ونزعته الاستقلالية، وانتقد أيضاً اقتراح الحزب الروماني بدعوة مكونيس الذي كان أميناً عاماً للحزب الشيوعي الإسرائيلي والذي أيد عدوان ١٩٦٧ على البلدان العربية

وهاجم الاتحاد السوفييتي لمساعدته سورية وحركة التحرر العربية والذي انتهى كعميل للصهيونية والإمبريالية.

احتج وفد الحزب الشيوعي الروماني على الكلمة وأعلن انسحابه من الجلسة. وتعطلت الجلسة لعدة ساعات وجرت محاولات من الحزب الشيوعي الإفرنسي وغيره من الأحزاب الأوربية لتسوية الخلاف، بإعلان وفد الحزب الشيوعي السوري سحب المقطع المتعلق بالحزب الشيوعي الروماني من كلمته، إلا أننا نحن الاثنين وبعد نقاش معمق رفضنا سحب هذه المقاطع واعتبرنا أن من حق حزبنا كحزب في بلد تحتل أرضه جيوش العدوان الإسرائيلي، أن يرفض حضور شخص أيد العدوان وساهم فيه. ولكن محاولات الضغط استمرت ونشأ تهديد جدي لاستمرار الاجتماع، فقد تعاطفت بعض الأحزاب الأوربية مع الحزب الروماني. وحرصاً على نجاح الاجتماع، وافقنا على سحب الفقرة المتعلقة بالحزب الشيوعي الروماني على أساس أنها تخرج عن نطاق اللقاء الاستشاري، ورحبت جميع الوفود بهذا الموقف ووافق عليه الوفد الروماني وتابع اللقاء أعماله. إلا أن الوفد الروماني، عاد في اليوم الثاني وطلب إدانة موقف الحزب الشيوعي السوري، وعوضاً عن قبول اقتراح الوفد الروماني أعلن ٥٦ حزباً رفضهم لذلك وتأييدهم لموقف الحزب الشيوعي السوري، وكانت النتيجة إعلان الحزب الشيوعي الروماني رفضه لمجريات الاجتماع وأعلن انسحابه، وأصدر الاجتماع بلاغاً بما حدث وعبر عن أسفه لانسحاب الحزب الشيوعي الروماني وتابع أعماله.

صدر بلاغ عن هذا الاجتماع عدد أسماء جميع الأحزاب المشتركة وجاء فيه: «لقد تبادل المشتركون في اللقاء، في جو من النقاش الرفاقي الحر، الآراء حول دعوة وتحضير اجتماع عالمي للأحزاب الشيوعية والعمالية. وقد اتفقوا بعد مناقشة واسعة على تحضير هذا الاجتماع في تشرين الثاني ـ كانون الأول من هذا العام في مدينة موسكو، ورأى الاجتماع أن يقتصر جدول الأعمال على سؤال واحد هي مهام النضال ضد الإمبريالية في المرحلة الراهنة ووحدة أعمال الأحزاب الشيوعية والعمالية وسائر القوى المعادية للإمبريالية، وقد أجمع رأي المشتركين في الاجتماع على أن التحضير للقاء العالمي، يجب أن يتم على أساس التقيد الصارم بمبدأ الجماعية والتعاون الرفاقي والحقوق المتساوية لجميع الأحزاب الشيوعية والعمالية التي تشترك في التحضير للمؤتمر وأعماله».

لقد أحدث هذا الاجتماع، وما جرى فيه من صدام، وانسحاب الحزب الشيوعي الروماني، وما مثلته من خلافات أيديولوجية عميقة، ضجة كبيرة في العالم أجمع. وتناولت الصحف والإذاعات الخلافات التي وقعت وفسرتها تفسيرات مختلفة، ترتبط

بنهج وعقيدة كل صحيفة. ولكن الشيء الأساسي الذي جرى التركيز عليه هو ظهور الانقسام في الحركة الشيوعية العالمية، وتعمق الخلافات الفكرية والسياسية، وتمرد هذا الحزب أو ذاك على نهج القيادة الذي يمارسه الحزب الشيوعي السوفييتي.

وفي الحقيقة كان الصدام الذي جرى بين وجهتي نظر الحزبين الشيوعيين السوري والروماني، تعبيراً عن واقع بدأ يظهر في الحركة الشيوعية العالمية، وهو الميل نحو الاستقلالية واتساع هذا الميل، نتيجة التطورات الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية الملموسة لكل حزب ولكل بلد. وكان من جهة أخرى تعبيراً عن محاولة قمع هذا التطور بأساليب تمت إلى الماضي عندما كانت الحركة في بدء نهوضها والروح الثورية وروح التفاني عالية جداً. وقد مثل موقف الحزب الشيوعي السوري، جوهر الموقف السوفييتي، ودون أن يكون لديَّ علم أو معرفة سابقة، فقد كان بتقديري منسقاً مسبقاً.

عند عودتي إلى دمشق وكانت أخبار الاجتماع قد وصلت وتناقلتها الصحف السورية كغيرها من الصحف العالمية سارعنا إلى عقد اجتماع موسع للجنة المركزية حضره إضافة إلى الأعضاء والمرشحين، عدد من مسؤولي المنظمات الرئيسية في الحزب. واستمع الاجتماع إلى تقرير أولي قدمته وشرحت فيه النشاط الذي قام به وفد الحزب وعن ظروف الخلاف مع الحزب الشيوعي الروماني.

وقد أعلن اجتماع اللجنة المركزية بالإجماع تأييده للمواقف التي اتخذها وفد الحزب إلى اللقاء الاستشاري للأحزاب الشيوعي والعمالية في بودابست، وحيا الجهود التي بذلها للمساهمة مع سائر الأحزاب الشقيقة في إنجاح أعمال هذا اللقاء من أجل عقد مؤتمر عالمي للأحزاب الشيوعية والعمالية يؤدي إلى توطيد وحدة الحركة الشيوعية العالمية ويدفع بها خطوات جديدة إلى أمام في مصلحة السلم والتحرر العالمي والديمقراطية ومن أجل الاشتراكية. دعا الاجتماع المكتب السياسي لاتخاذ التدابير اللازمة للمساهمة في أعمال لجنة التحضير للمؤتمر. وقد عقدت هذه اللجنة اجتماعها في موسكو ومثل حزبنا الرفيقان دانيال نعمة وواصل الفيصل.

في أوائل أيار نشرتُ مقالة مطولة شغلت عدداً كاملاً من نضال الشعب تحت عنوان «عرض شامل لأعمال ونتائج اجتماع بودابست وأهميتها التاريخية»، وذلك في ضوء الاستنتاجات التي توصل إليها اجتماع اللجنة المركزية الذي بحث نشاط الوفد. وقد بينت في هذه المقالة جهود حزب العمال الاشتراكي المجري في التحضير للقاء، وأن الظروف ناضجة لعقد مؤتمر للأحزاب الشيوعية والعمالية، وعالجت موضوع استقلال الأحزاب. ومما كتبته في هذا الموضوع: إن كل حزب شيوعي مستقل برسم

سياسته، وإنه مسؤول عن مواقفه أمام طبقته العاملة وأمام شعبه، وإنه ليس هناك أحزاب سيدة تفرض إرادتها وأحزاب تابعة ومنفذة، وجميع الأحزاب متساوية. وجرى التأكيد إلى جانب ذلك، أن استقلال كل حزب لايتعارض مع مبدأ الأممية البروليتارية. وتحدثت عن الوضع في الشرق الأوسط والعدوان الإسرائيلي على البلدان العربية، وبينت التركيز الذي وجه ضد الصهيونية وما تمثله من أخطار سواء بالنسبة لحركة التحرر العربية أو بالنسبة للبلدان الاشتراكية والحركة الشيوعية العالمية، وأشرت إلى كلمات المندوبين العرب من العراق والأردن والسودان ولبنان والمغرب.

اتخذ لقاء بودابست قراراً بتوجيه رسالة إلى الشعب الفيتنامي في سائر أنحاء وطنه أعلن فيها تضامنه معه، وإصرار كل الشيوعيين على تقديم جميع المساعدات اللازمة لتحقيق النصر الأكيد على الغزاة الأمريكيين وجاء في الرسالة:

«إن ممثلي سبعة وستين حزباً شيوعياً وعمالياً، المجتمعين في اللقاء الاستشاري في بودابست، يوجهون تحية أخوية إلى شعب فيتنام البطل الذي يخوض معركة ضارية ضد المعتدين الأمريكيين وشركائهم، مدافعاً عن حرية وطنه واستقلاله. إن ملحمة الشعب الفيتنامي هي مثال حافز لكل الشعوب المناضلة من أجل تحررها، وهي أيضاً عامل قوي في سبيل وحدة العمل لجميع القوى المعادية للإمبريالية الأمريكية، العدو الرئيسي للشعوب. إنكم تبرهنون على أنه لا يمكن قهر شعب ينهض للدفاع عن قضيته العادلة.

حدثان كبيران، أحدهما اتسم بالطابع العسكري والتدخل الصارخ المكشوف، وثانيهما اتسم بطابع سياسي والجدل الفكري، ولكنهما يمثلان عملياً، نهجاً وفكراً، حقيقة واحدة، وهي أن الحركة الشيوعية بدأت في تلك السنوات، تعاني خللاً واضحاً وبدء تفكك ظاهر وتمرد يتخذ أشكالاً مختلفة.

إن رؤية هذه الأحداث بعين الحاضر تختلف جذرياً عن رؤيتها حين وقوعها، عندما كان الحزب الشيوعي السوري متماسكاً وموحداً، في دعم الموقف السوفييتي ورفض أي خروج على نهجه ومواقفه!

لقد كان إيماننا وثقتنا كبيرين ومطلقين، بالسياسة السوفييتية، وكنا نرى الموقف الأممي، يتصل بشكل أساسي، بالموقف من الاتحاد السوفييتي، فهو وطن الاشتراكية وهو النموذج.

إن كلا الحدثين، بصرف النظر عن نشاط الإمبريالية ودعايتها، عبّر عن نضوج فكرة الاستقلالية والاستعداد لتحقيقها عملياً، فقد تخطت الأحداث الفكرة التي سادت أيام ثورة أكتوبر وما بعدها، بوجود مركز واحد. وقد فرض انتشار الأفكار

الماركسية، واتساع نطاق الاشتراكية، لتشمل العديد من الدول، ذات الاقتصاد المختلف، والثقافة المتباينة، والتاريخ والحضارة المتنوعين. وهذا كله فرض رؤية التطبيق الاشتراكي بأعين مختلفة ومفاهيم مختلفة، وقد فرضت هذه الحقيقة نفسها، على الواقع الملموس، وبدأت تظهر موضوعات، تختلف في الشكل، وتتفق من حيث المضمون.

وظهرت مفاهيم الشيوعية الأوربية والشيوعية الصينية تنتشر وتحتل مواقع متزايدة يوماً بعد يوم. ولعب التأخر في إدراك هذه المفاهيم دوراً سلبياً ترك تأثيره على وحدة الحركة وعلى وحدة الفهم للأفكار الماركسية وتطبيقها على الواقع.

لقد اتخذت تدابير داخل الحركة باتجاه إضعاف المركزية المفرطة، واعتماد مبدأ الاستقلالية. وعبر عن ذلك قرار حل الكومنترن وقرار إصدار مجلة فكرية هدفها تقريب المواقف، إن لم يكن توحيدها . ولكن هذه التدابير، حافظت مع الأسف، وبشكل غير مباشر، على فكرة المركزية، ورفضت التنوع في إطار الوحدة. وساهم ذلك بقسطه في عملية انهيار المنظومة الاشتراكية وانهيار الاتحاد السوفييتي، ووقوع خسارة جسيمة أليمة، أصابت جوهر الفكر الماركسي وأصابت شعوباً عديدة بنتائجها، وخلقت أسساً لوضع دولي جديد، تمارس فيه الولايات المتحدة الأمريكية دور المهيمن على مصائر الشعوب.

لقد أدرك حزبنا هذه الحقائق قبل غيره، ولكن بشكل متأخر، ففي مؤتمرنا السادس أكدنا قرارات المؤتمر الوطني للحزب الذي عقد في نهاية عام ١٩٤٣ وأول عام ١٩٤٤ حول اعتماد العلم الوطني كعلم للحزب، والنشيد الوطني كنشيد للحزب.

وكان بين القضايا التي اختلفنا عليها مع الرفيق خالد بكداش وأدت إلى القطيعة وعقده مؤتمراً خاصاً به، الموقف من الاتحاد السوفييتي. فقد قدم مشروعاً للتقرير السياسي، يطرح فيه موقف الحزب من الاتحاد السوفييتي، بأن الحزب الشيوعي السوري مع الاتحاد السوفييتي على الخطأ والصواب، ورفضنا نحن هذه الصيغة. وطالبنا بصيغة أخرى، وهي أننا مع الاتحاد السوفييتي، لأنه يدعم نضالنا الوطني التحرري ويساند دفاعنا ضد عدوانية إسرائيل، ويساند اقتصادنا الوطني. ورفض الرفيق خالد بكداش هذه الصيغة وأنهى المناقشة ووقعت القطيعة وعقد مؤتمره المنفصل.

كان مؤتمرنا السادس رداً على القطيعة، وقد دشن في مناقشاته وفي قراراته الانتهاء من موضوع عبادة الفرد، التي ألحقت أضراراً كبيرة بالحزب، وصاغ في قراراته مبادىء وأسس الديمقراطية الداخلية في الحزب، وأكد فكرة التعددية وعلى احترام الرأي الآخر في إطار المناقشات الداخلية في الحزب.

لقد كان التهديد بالطرد من الحزب من أبسط الأشياء، وكان طرد أي رفيق يتخذ مواقف لا تتفق مع رأي الأمين العام، يكلف سطرين في «نضال الشعب». وقد انتهى مع المؤتمر السادس الخوف في الحزب من مثل هذا التدبير. ومنذ عام ١٩٨٦ حتى عام ٢٠٠٤ لم يطرد أو يشهر بأي رفيق في الحزب ولم يتخذ أي موقف تجاه أي رفيق بسبب أفكاره وآرائه.

إن المركزية الديمقراطية، هذا المبدأ الصارم، الذي كان ضرورياً في سنوات ثورة أكتوبر وفي مرحلة اشتداد النضال الطبقي لم يعد يشكل هذه الضرورة بعد استقرار النظام السوفييتي، وبعد توسع الحركة الشيوعية العالمية.. وقد كانت هذه الصيغة تؤدي في الممارسة إلى سلطة الفرد القائد الذي هو الأمين العام.

وقد اتسع الفكر التنويري في الحزب، عبر المؤتمرات السابع الموحد والثامن والتاسع. وقد استطاع الحزب أن يخرج من حالة الالتزام بالمركز الواحد، إلى إقرار صيغة أنه حزب للوطن، مسؤول أمام شعبه وطبقته العاملة وأمام مثقفي بلده وقواه الديمقراطية.

الفصل السابع والثلاثون

خالد بكداش يصاب بذبحة قلبية

في الأشهر الأخيرة لعام ١٩٦٨، وفي إطار تنشيط العمل الحزبي والتعرف على مختلف مناطق سورية، تم الاتفاق مع الرفيق خالد بكداش لزيارة محافظة الحسكة (الجزيرة)، وتكوّن الوفد من ثلاثة رفاق: خالد بكداش، د. نبيه رشيدات وأنا، وكانت هذه الزيارة هي الأولى والأخيرة التي يقوم بها الرفيق خالد بكداش لهذه المنطقة.

زرنا خلال الجولة، مختلف مدن وبلدات المنطقة، ووصلنا إلى أقصى نقطة في الشمال الشرقي من سورية وهي مثلث على نهر دجلة تلتقي في أطرافه الحدود التركية والسورية والعراقية، واطلعنا على خيرات هذه المحافظة المعطاء. وكانت استضافة الرفاق جيدة، وبذل الرفاق: رمُو شيخو وملكي عيسى وحسين عمرو، جهودهم، إلى جانب عشرات الرفاق، لتسهيل مهمتنا والسهر على أن نرى أكثر ما يمكن، وأن تتعرف على المحافظة وسكانها وتنوعهم، وعلى إنتاج الخيرات العديدة، من الحبوب والنفط وغيرها، وعلى الطبيعة الجميلة.

ولدى العودة، وبعد مغادرة مدينة القامشلي، بوقت قصير، شعر الرفيق خالد بآلام في صدره. وتوقف الدكتور نبيه عن متابعة السير، وجلسنا على العشب الأخضر للراحة وانتظار زوال الألم. وبعد برهة تابعنا السير بسيارة وقيادة الدكتور رشيدات حتى مدينة دمشق.

بعد العودة، بدأت الآلام تزداد، واستدعي الأطباء، وتبين أن احتشاءً قلبياً قد حدث، واتخذت التدابير الطبية الضرورية. ومن جملة التدابير إخبار الرفاق السوفييت بالأمر، وتقرر مباشرة إيفاد طبيبين خاصين بأمراض القلب، يحمل كل منهما لقب بروفيسور للإشراف على معالجة بكداش.

وبعد فترة قصيرة، ومع انتهاء المهمة الطبية، قررنا تنظيم جولة للطبيبين في سورية، للتعرف على البلد، طبيعته وآثاره وشعبه، قبل عودتهما إلى موسكو،

استقبلتهما في حمص في بيتي. حيث جرت حادثة طريفة مفادها أنه كان جامع الحي يقع بجوار منزلنا. ويفصلهما شارع ضيق، وفي الليلة الأولى، بعد السهر والعشاء والحوار، انصرف الجميع. ومع الصباح الباكر علا الضجيج في البيت، فقد استفاق الطبيبان على آذان الصبح، واجتاحهما قلق وخوف، فطرقا علينا الباب يستفسران عما جرى، واستفاق أهل البيت جميعاً، صغاراً وكباراً، هدأنا روعهما، وشرحنا لهما الأمر، وأنه تقليد ديني يدعو المؤمنين إلى الصلاة، وأننا بسبب الحياة الطويلة، أصبح لدينا اعتياد على الأذان، ولا نستيقظ بسببه ولم يعد يقلقنا وننام مرتاحي البال. وكان مهماً إقناعهما ليعودا إلى النوم، فأمامهما في اليوم التالي، زيارة إلى تدمر للاطلاع على معالمها الأثرية القيمة. وبعد زيارة تدمر، تمت زيارة بعض المناطق السورية الأخرى.

بعد العودة من الجولة، عاينا وضع الرفيق خالد بكداش واعتبراه ملائماً للسفر، وبذلك غادر الرفيق خالد بكداش دمشق إلى موسكو لمتابعة العلاج والنقاهة هناك، واستغرق ذلك بضعة أشهر. عمل المكتب السياسي خلالها إلى أن عاد الرفيق خالد في كانون الأول ١٩٦٨ ليتابع عمله ومهامه. على نحو طبيعي وسادته روح التعاون والعمل الجماعي.

في أواسط شهر شباط ١٩٦٩ عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً كاملاً حضره الأعضاء والمرشحون واستمع الاجتماع إلى تقرير المكتب السياسي، الذي قدمتُه، حول الوضع الداخلي، وتطور النضال لإزالة آثار العدوان الإسرائيلي الإمبريالي الغادر على سورية والأردن ومصر. وقد بين التقرير تعاظم المقاومة الشعبية العربية للعدوان الإسرائيلي الإمبريالي، داخل المناطق المحتلة وخارجها، وما رافقه من جرائم ضد المواطنين العرب. كما بين التقرير موقف الحزب من العمل الفدائي، وأعلن دعمه لهذا الشكل من النضال دون أي تحفظ، باعتباره رداً موضوعياً وطبيعياً ضد الغزو والاحتلال. وأظهر التقرير أن هذا الشكل من النضال بدأ يتسع ويترك تأثيراً إيجابياً متنامياً في المعركة الدائرة لتحرير الأراضي العربية المحتلة. وشرح التقرير الأخطار المحدقة بالبلاد والمنطقة، نتيجة تفاقم المؤامرات الاستعمارية وازدياد احتمال تجدد الاعتداءات الإسرائيلية. ثم تحدث بإسهاب عن الجهود الصادقة التي يبذلها الاتحاد السوفييتي لرد هذه الأخطار، وذلك بتأكيد العمل لتنفيذ قرار مجلس الأمن القاضي بالدرجة الأولى بسحب القوات الإسرائيلية الغازية من جميع الأراضي العربية المحتلة إلى النقاط التي انطلقت منها.

اتخذت اللجنة المركزية قرارين: الأول تحت عنوان النضال في سبيل إزالة آثار العدوان، والثاني حول الوضع الداخلي في البلاد.

إن الجديد في هذا التقرير وفي القرارات، هو طرح قضية العمل الفدائي وإعلان تأييد الحزب له ومساندته دون تحفظ، وأنه أخذ يتسع ويترك تأثيراً متنامياً في المعركة.

استغرق اتخاذ هذا الموقف زمناً ونقاشاً طويلين، داخل المكتب السياسي وبين جماهير الرفاق في القواعد الحزبية.

وقد ظهر في البدء تحفظ تجاه العمل الفدائي عموماً، ثم تطور إلى تحفظ عليه كشكل وحيد من أشكال النضال، وكان ذلك خطوة هامة في السير نحو اتخاذ قرار التأييد والمساندة وأخيراً المشاركة. وكان النقاش يدور داخل الحزب ومع قوى أخرى خارج الحزب من أصحاب الرأي القائل إن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لإزالة آثار العدوان. وبدأ الحزب بعد ذلك يطرح فكرة ممارسة مختلف أشكال النضال، السياسي والدبلوماسي والمسلح، وأن هذه الأشكال تخدم بعضها بعضاً، فالكفاح المسلح وحده لا يعطي نتائج عملية، دون عمل سياسي، ودبلوماسي، وهذان الشكلان لا يستطيعان التأثير دون الاستناد إلى كفاح مسلح.

إن إقرار تأييد العمل الفدائي، كان أمراً مهماً بالنسبة لمجموع الحزب ونشاطه وصلاته مع القوى الوطنية المختلفة، وتجنب عزلته.

لقد بدأ العمل الفدائي يترك تأثيره لدى الجماهير الشعبية، وبدأت القوى السياسية المختلفة تمارس هذا الشكل من النضال. فقد شكل حزب البعث العربي الاشتراكي منظمة الصاعقة، وبدأت المنظمات الفلسطينية المختلفة تكون تنظيماتها الفدائية. وكان علينا، أن نستوعب هذا التطور، فقد أخذ يشكل ضغطاً داخلياً في الحزب وأخذت تدور نقاشات حادة بين الرفاق حوله.

وكان هذا القرار خطوة هامة في تلافي وإزالة النظرة الخاطئة تجاه الفلسطينيين، إذ ظهر في بعض الأوقات، موقف غير واضح، تجاه قبول الفلسطينيين في الحزب كما ذكرنا سابقاً، وكان ذلك خطأً فادحاً جداً. ولكن التطور اللاحق، ساعد كثيراً في إيجاد تنظيم فلسطيني خاص بالحزب وفي المشاركة في النشاط الفدائي، وإرسال عدة دفعات عن طريق الجبهتين: الديمقراطية والشعبية لتحرير فلسطين ووقوع عدد من شهداء الحزب في هذا الميدان، والمشاركة في معارك أيلول الأسود في الأردن ثم إقامة منظمة الأنصار.

الفصل الثامن والثلاثون

التنظيم الفلسطيني للحزب الشيوعي السوري

لم ينشأ التنظيم الفلسطيني، من العدم، إذ سبقته أشكال متعددة من عمل الحزب الشيوعي السوري بين الفلسطينيين، يمكن تتبعها كما يلي:

١ـ انتسبت مجموعة من الشباب الفلسطيني عام ١٩٤٧ إلى الكلية العسكرية، في حمص، وكان بعضهم كسعد عزوني، ومحمد الشاعر أعضاء في عصبة التحرر الوطني الفلسطيني، وبعد تخرجهم من الكلية العسكرية، حدثت نكبة فلسطين، فلم يعد بإمكانهم العودة إلى فلسطين، ولما كانت القوانين السورية لاتسمح بوجود ضباط غير سوريين، في صفوف القوات المسلحة، فقد منحتهم السلطات المختصة يومذاك الجنسية السورية.

٢ ـ يروى أن محمود شعبان كان عضواً في عصبة التحرر الوطني الفلسطيني، ونظمه الحزب، بعد لجوئه، عضواً في اللجنة المنطقية بدمشق، إلا أنه تخاذل زمن ديكتاتورية الشيشكلي. ويقال إنه سلم مطبعة الحزب للأمن، ومن المؤكد أنه عمل في جهاز الأمن، وفي المباحث زمن الوحدة السورية ـ المصرية.

إن لجوء مجموعات كبيرة من الفلسطينيين، إلى سورية، وعدم توفر معلومات لدى قيادة الحزب عنهم، وحادثة محمود شعبان، دفعت قيادة الحزب للعمل بحذر، بين الفلسطينيين (هكذا قال الرفيق خالد بكداش)، وقد فسر هذا الحذر، في قواعد الحزب، برفض قبول الفلسطينيين أعضاء في الحزب.

وجد في هذه المرحلة، عدد من الشباب الفلسطيني، اعتبرهم الحزب أصدقاء جيدين، وكان يكلف بعضهم بأعمال عديدة، وكان منهم الرفيق محمد أبو جوهر، (أبو لؤي) الذي عمل في العديد من قرى حوران. وبرز عز الدين قلق في جامعة دمشق،

وشعبان قلق، في المهاجرين، واستمر هذا الشكل حتى أوائل الستينيات، بعدها أخذ الحزب يقبل الفلسطينيين كأعضاء، في صفوفه، وصار ينظمهم، في فرق الحزب المختلفة.

بلغ عدد الضباط الفلسطينيين (٥٥) ضابطاً في بداية الوحدة، سرحت حكومة الجمهورية العربية المتحدة (٤٩) ضابطاً، بتهمة الشيوعية، واعتقلت عدداً منهم، مثل عبد الغني أبو راس، وعلي بوشناق، وعذبتهما عذاباً شديداً، وفر قسم منهم إلى خارج سورية، ووصل بعضهم إلى بلغارية، ودرس في مدارس الحزب العليا. كما اعتقلت السلطات يومذاك: عز الدين قلق، شعبان قلق، محمد أبو جوهر، وظل الأول ثلاث سنوات ونصف، في سجن المزة العسكري.

٣ـ تشكلت منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤، وتشكل جيش التحرير الفلسطيني، وشغل الضباط الفلسطينيون، ومن ضمنهم الشيوعيون مراكز قيادية، في جيش التحرير.

عمل الحزب الشيوعي السوري، منذ أوائل عام ١٩٦٨، على تجميع غالبية الرفاق الفلسطينيين، في فرق خاصة بهم، بهدف دعم العمل الفدائي، والتحق عدد منهم بقوات التحرير الشعبية (إحدى فصائل جيش التحرير الفلسطيني)، وكان يقودهم وليد الحكيم، وتم ذلك تحت إشراف قيادة الحزب ممثلة بالرفيق فايز جلاحج.

اجتمع الشيوعيون الفلسطينيون أواسط عام ١٩٦٩، وانتخبوا وليد الحكيم، مندوباً عنهم، إلى المؤتمر الثالث للحزب.

في أواخر عام ١٩٦٩، بدأ الرفيق سعد عزوني نشاطه، تحت إشراف قيادة الحزب ممثلة بيوسف الفيصل، وفيما بعد تحت قيادة مكتب العمل الفدائي، أقام عدد من الرفاق السوريين، كالرفيقين يوسف نمر، ود. إبراهيم قندور، صلات مع فلسطينيين صار عدد منهم، لاحقاً، أعضاء في الحزب.

تشكلت لجنة كادر حزبي بقيادة سعد عزوني وكنت مسؤولاً عنها، وكانت هذه الفرقة تقود الشيوعيين الفلسطينيين، وتشرف على نشاطهم، واستمر الوضع على ذلك حتى جرى تشكيل التنظيم عام ١٩٧١.

في ذلك الوقت تمت الصلة بعطية المقداد، وعرفنا منه أنه وعبد الرحمن عوض الله، وأبو صالح يشكلون وفداً من الحزب الشيوعي الفلسطيني في قطاع غزة، مهمته إجراء اتصالات ولقاءات مع الأحزاب الشيوعية العربية، بهدف الحصول على اعتراف

بحزبهم. واقترحت على قيادة الحزب تقديم مساعدات مادية لهؤلاء الرفاق، وتم ذلك بالفعل، وكانت تدفع لهم مبالغ شهرية.

التقى سعد عزوني وعطية المقداد بالرفيق خالد بكداش، أوائل عام ١٩٧١، وخرج سعد من اللقاء مزعوجاً، إذ شعر بأن الرفيق خالد استقبل عطية بفتور كبير!.

نشوء التنظيم الفلسطيني

بدأت، ومنذ عام ١٩٦٨، تطرح بين الشيوعيين الفلسطينيين أسئلة، وقضايا أخذت تتصاعد أكثر، فأكثر، مفادها: هل نحن فقط مجرد فدائيين نعمل في صفوف الحزب الشيوعي السوري؟ هل نحن الشيوعيين الفلسطينيين منظمة خاصة، من منظمات الحزب، أم شيء آخر؟ لماذا لايكون لنا حزبنا الشيوعي المستقل؟

التقى الرفيق خالد بكداش بمجموعة من الشيوعيين الفلسطينيين، هم: سعد عزوني، محمد أبو جوهر، وليد دسوقي، علي آغا، واستمع إلى وجهة نظرهم القائلة بأن هناك ضرورة ملحة، لوجود هيئة شيوعية فلسطينية تساهم في توطيد الشخصية الوطنية الفلسطينية المستقلة للشعب الفلسطيني، وتساهم في الحركة الوطنية الفلسطينية، ويفترض توفر شرطين، في هذه الهيئة، هما:

١ ـ أن تولد من قلب حزب شيوعي معترف به على نحو شرعي.

٢ـ أن تحظى لاحقاً باعتراف الحركة الشيوعية، وفي مقدمتها الحزب الشيوعي السوفييتي.

وتساءلوا أيضاً عن مصير أقدم حزب شيوعي، في المنطقة، ألا وهو الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي تأسس عام ١٩١٩، والذي لم يعد موجوداً. كما تساءلوا عن عدم قبول الفلسطينيين، في الحزب الشيوعي السوري لفترة طويلة!

أجاب الرفيق خالد: كان لدى قيادة الحزب حذر من العمل بين اللاجئين الفلسطينيين، لعدم معرفتهم، ولعدم وجود من يعرف عنهم، وتحول هذا الحذر إلى الرفض. أما مسألة تأسيس حزب شيوعي فلسطيني، فهي مسألة يجب عرضها، على قيادة حزبنا أولاً، ومن ثم عرضها على الرفاق الكبار: الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، وأشار إلى أهمية إرسال تحية إلى المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، وأخبرهم بأن وفداً من قيادة الحزب، سيلتقي بهم لاحقاً.

اجتمع الشيوعيون الفلسطينيون، المذكورة أسماؤهم سابقاً، وتداولوا في الأمر، وتوصلوا، إلى:

١ ـ ضرورة المحافظة على عضوية الحزب الشيوعي السوري.

٢ـ كيف ستحل لاحقاً: (كيفية التوفيق) بين مسألة العضوية في الحزب الشيوعي الفلسطيني، وعضوية الحزب الشيوعي السوري؟

٣ـ سلموا للرفيق خالد برقية تحية للمؤتمر الرابع والعشرين، وقد نشرت، في وثائقه الصادرة باللغة الإنكليزية، وتحمل توقيع «الشيوعيون الفلسطينيون في سورية».

التقى وفد من قيادة الحزب، بعد ذلك، بالرفاق الفلسطينيين، وضم الوفد، الرفاق: يوسف الفيصل، ورياض الترك، وظهير عبد الصمد، واستمع إلى وجهة نظر الشيوعيين الفلسطينيين.

التقى الرفيق خالد، بعد عودته، من المؤتمر الـ ٢٤ بالشيوعيين الفلسطينيين، وأبلغهم أنه بحث مسألة إنشاء حزب شيوعي فلسطيني، مع الرفاق الكبار، وقالوا له: إنها مسألة داخلية تهم الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية.

أبلغنا، في لقاء ثان جرى في أواسط عام ١٩٧١، اتخاذ المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري قراراً يقضي:

١ـ يحق للشيوعيين الفلسطينيين تأسيس منظمة خاصة بهم، وهم أحرار في اختيار اسمها، فقد يكون: التنظيم الفلسطيني، أو منظمة الشيوعيين الفلسطينيين في سورية.

٢. يحق لهم إصدار نشرة خاصة بهم، وهم أحرار أيضاً في اختيار الاسم المناسب لها.

٣. يحق للشيوعيين الفلسطينيين الاتصال بالفلسطينيين، أينما كانوا، هيئات، أم أفراداً.

تدارس الرفاق الفلسطينيون، قرار م. س، وقدروا جهود قيادة الحزب، ورأوا أن:

ـ «التنظيم الفلسطيني للحزب الشيوعي السوري» هو الاسم المناسب.

ـ «عائدون» هو الاسم المناسب للنشرة.

كلفتني قيادة الحزب بالإشراف على التنظيم ومتابعة نشاطه، وكنت أحضر اجتماعات الهيئة القيادية وأراقب تحرير «عائدون» وتوزيعها. وكانت الحلقة الأساسية في توجيه الحزب هي: تنمية وغرس حب العودة بين الفلسطينيين.

كانت لجنة التنظيم، في البداية، تضم سعد عزوني كمسؤول، ومحمد أبو جوهر، ثم توسعت اللجنة حيث ضم إليها: حمد موعد، وعلي آغا، وعارف آغا، وبسبب خدمة حمد موعد العسكرية في لبنان، ومن ثم سجنه في تدمر، وكذلك بسبب ذهاب علي آغا

عام ١٩٧٤ للدراسة الحزبية في موسكو، ومن ثم التحاقه بالخدمة الإلزامية، جرى ضم الرفيقين: سليم الرشيد، ومحمد مارديني، للجنة التنظيم.

من نشاطات الشيوعيين الفلسطينيين

يمكن تقسيم تلك النشاطات، من حيث الزمن، إلى مرحلتين، الأولى قبل نشوء التنظيم، والثانية بعد نشوئه.

المرحلة الأولى: كان الشيوعيون الفلسطينيون، على قلة عددهم، أعضاء في الحزب، ويمارسون عملهم، في بعض المنظمات، كالجامعة، أو في حوران. أما من كان منهم في الجيش السوري، فكانوا جزءاً من التيار الذي كان يريد أن تظل سورية صامدة، في وجه المؤامرات التي كانت تحاك ضدها (أحلاف وسواها ..)، وساهموا مساهمة فعالة في مواقف الصمود.

صوت فلسطين

أصدرت قيادة جيش التحرير الفلسطيني، مجلة شهرية «صوت فلسطين» وكان يشرف عليها العقيد محمد الشاعر، وكان المحررون الرئيسيون، فيها، من الشيوعيين أو من أصدقائهم، من أمثال: منير عز الدين (شعبان قلق)، فيصل حوراني، العقيد محمد الشاعر، سميح الشاهد، سعيد مراد، وليد الحكيم. وأعارت اهتماماً كبيراً لأدباء الأرض المحتلة، من أمثال: محمد نفاع، سميح القاسم، اميل حبيبي، توفيق زياد، محمود درويش، توفيق فياض، إضافة لترجمة مقالات عسكرية لضباط سوفييت، أو مقتطفات من شعر ناظم حكمت.

عملية الحزام الأخضر

قامت وحدات مشتركة، من جيش التحرير الفلسطيني (قوات القادسية: كان يقودها العقيد الشيوعي محمد رفعت الحلبي، وقوات التحرير الشعبية، وكان يقودها العقيد الشيوعي بهجت عبد الأمين)، بالاشتراك مع قوات العاصفة، ليلة ١٩٦٩/٨/٨ بتنفيذ عملية «الحزام الأخضر» واشتملت على أوسع وأعنف هجوم امتد على طول ٧ كم، مابين وادي البيرة ووادي العشة، في غور الأردن الشمالي. وقد هوجمت ثلاث مستعمرات إسرائيلية، وثلاثة مواقع عسكرية، وأصدرت وزارة الخارجية الإسرائيلية أول بيان لها عن المقاومة الفلسطينية منذ معارك حزيران ١٩٦٧، واعترفت فيه بالعملية المشتركة.

وفيما بعد ابتعد قسم من هؤلاء الرفاق عن الحزب، وانضووا تحت لواء منظمة التحرير وشغلوا مناصب هامة فقد أصبح العقيد محمد الشاعر سفيراً لمنظمة

التحرير في موسكو. وشغل عز الدين قلق منصب ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس. حيث اغتيل هناك، وانضم بذلك إلى قافلة شهداء فلسطين التي ما زالت تكبر وتكبر حتى يومنا هذا.

المرحلة الثانية: بعد نشوء التنظيم

لم يلتحق جميع الشيوعيين الفلسطينيين، بالتنظيم، إذ ظل عدد منهم يعمل، في منظمات الحزب الأخرى. أما النشاطات فيمكن تصنيفها، والحديث عنها، كالآتي:

نشاطات التنظيم

بسبب الوضع الذي ساد الحزب، أثناء أزمة السبعينيات قام التنظيم بطبع نشرات الحزب «قاسيون»، «قاسيون الثقافي»، وبيان «٣ نيسان»، وكثيراً من مداخلات المجلس الوطني الذي انعقد عام ١٩٧٢، وعدداً، من «نضال الشعب» عدا الرسائل الداخلية، وملاحظات السوفييت على مشروع برنامج الحزب.

وبالاتفاق مع ممثلي شيوعيي غزة، قُدّمت مذكرة إلى المجلس الوطني الفلسطيني، مؤرخة في ١٩٧٢/٤/١ طالبت بالاعتراف بالحزب الشيوعي الفلسطيني، في قطاع غزة.

جرى لقاء مع عربي عواد، دار الحديث فيه حول ضرورة تأسيس حزب شيوعي فلسطيني، ولم يتم الاتفاق حول ذلك الطرح. كما جرت لقاءات مع بعض قادة فصائل المقاومة الفلسطينية.

وجرت مشاركة في انتخابات المعلمين الفلسطينيين، واتحاد طلاب فلسطين، ونظم عدد من الأشخاص، في مخيم اليرموك، ومخيم جرمانا، وسبينة، والقابون، ومخيم خان الشيح، وقد بلغ عددهم آنذاك نحو المئة.

أقامت لجنة التنظيم معسكراً تثقيفياً، في سوق وادي بردى، لمدة أسبوع، حاضرت فيه، كما حاضر عدد من الرفاق، من قيادة الحزب.

أرسل للدراسة، في البلدان الاشتراكية ١٧ طالباً، حتى ١٩٧٤/٨/٨، وقدمت أوراق ١٣ آخرين للدراسة عن طريق الحزب الشيوعي اللبناني.

لعبت «عائدون» دوراً جيداً، في نشر سياسة الحزب الشيوعي السوري، بين الفلسطينيين، ونشرت عدداً من المقالات المميزة حول القضية الفلسطينية، منها مقالة تبرهن على صحة موقف الاتحاد السوفييتي، من قرار تقسيم فلسطين.

انتخب سعد عزوني، في المؤتمر الرابع عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري.

الخلافات في لجنة التنظيم

ظهرت الخلافات، بوضوح في أواسط عام ١٩٧٤، ثم ازدادت حدتها، إلى أن أصدرت قيادة الحزب، قراراً، بحل لجنة التنظيم، بتاريخ ١٩٨٢/٢/١٤، وتشكيل لجنة قيادية مؤقتة، تكونت، من: محمد أمين أبو جوهر، علي آغا، عارف آغا.

تعود أسباب تلك الخلافات، إلى عوامل عديدة، منها:

١ـ الأزمة التي كان يعانيها الحزب، والتي ابتدأت منذ المؤتمر الرابع.

٢ـ نشوء تيار يعدُ الشيوعيين الفلسطينيين، ممثلين للفلسطينيين في الحزب وليس للحزب الشيوعي بين الفلسطينيين.

٣ـ استغلال الخلافات بين قيادة حزبنا، وقيادة الحزب الشيوعي اللبناني، حيث تمت اتصالات عن طريق قيادة الحزب وتم إرسال عدد من الطلاب للدراسة في البلدان الاشتراكية، عن طريق الحزب الشيوعي اللبناني، إضافة إلى نشرة «سنعود» التي أخذت تطبع في لبنان.

وبدأ ينشأ تيار معاد لقيادة الحزب، موجه خصوصاً ضد خالد بكداش وضدي، ووصل الأمر إلى مهاجمة الأحزاب الشيوعية العربية كافة، وإلى اعتبار أن ارتباط التنظيم بالحزب يعرقل العمل بين الفلسطينيين. واعتبار الحزب الشيوعي الفلسطيني في قطاع غزة، حزباً لجميع الفلسطينيين، ومن ضمنهم الشيوعيون السوريون.

طريق العودة

أصدرت اللجنة القيادية المؤقتة جريدة «طريق العودة»، وعقدت فيما بعد مؤتمراً انتخب لجنة تنظيم جديدة، تقود الرفاق الذين لم يسيروا في الاتجاهات السابقة.

أعلن عام ١٩٨٢ عن قيام الحزب الشيوعي الفلسطيني، وبدأت تظهر لدى الرفاق الذين بقوا في الحزب الشيوعي السوري رغبة في الانضمام إليه، واتخذت القيادة التوجه التالي: ينبغي العمل على ترك الحرية للرفاق. فمن يود الذهاب إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني فله كل الحق في ذلك، ومن يرغب في البقاء في الحزب الشيوعي السوري، فأهلاً وسهلاً به، فالحزب الشيوعي السوري حزب لمن يرغب في البقاء فيه.. اختارت الغالبية الانضمام إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني، وقد جرى حفل تسليم هؤلاء الرفاق للحزب الشيوعي الفلسطيني، بحضوري وحضور الرفيق سليمان النجاب عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفلسطيني.

الفصل التاسع والثلاثون

المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي السوري

كان اجتماع تأسيس الحزب الشيوعي في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٢٤، أشبه بالمؤتمر الأول، وسمي الحزب في حينه الحزب الشيوعي السوري، وبعد ١٧ عاماً عقد المؤتمر الوطني في نهاية عام ١٩٤٣ – أوائل ١٩٤٤ وعدّ المؤتمر الثاني. وصاغ هذا المؤتمر ميثاقاً وطنياً وضعت له صيغتان، صيغة لسورية وأخرى للبنان. وبعد انقطاع دام خمسة وعشرين عاماً عقد المؤتمر الثالث للحزب، وكان تركيب اللجان المركزية يتم بالتعيين. وغالباً ماكان يصدر قرار التعيين من الرفيق خالد بكداش. وكان الكثيرون لا يعرفون بدقة واقعهم الحزبي. فأحياناً هم أعضاء أصيلون في اللجنة المركزية لهم حق التصويت، وأحياناً هم مرشحون لا يملكون هذا الحق. وكان الرفيق خالد بكداش الرفيق الوحيد المنتخب أميناً عاماً للحزب في المؤتمر الوطني عام ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤.

تم عقد المؤتمر الثالث في أوائل حزيران عام ١٩٦٩ في مدينة دمشق. وقد كُلِّفتُ بالإشراف على تهيئة مكانه وعلى المهام التنظيمية والمسائل اللوجستية فيه. ولم تكن هذه المهام بسيطة، فهذا أول مؤتمر يعقد بعد انقطاع طويل، وليست لدينا تجارب لمثل هذا النشاط، وكان القرار أن لا يعلن عنه وأن يعقد سرياً.

وكانت المهمة الصعبة الأولى هي تأمين مكان يتسع لمنامة نحو مئة مندوب، إضافة إلى الجهاز الفني، ويكون صالحاً لعقد جلسات المؤتمر. وعهد إلى الرفيق واصل فيصل وزير المواصلات آنذاك أن يفتش عن فيلا تضم صالات واسعة لكي يقيم فيها ظاهرياً خلال أشهر الصيف ولكي تكون مكان انعقاد المؤتمر عملياً. وبعد تفتيش دام بضعة أسابيع وجدت فيلا فخمة في حي المزة تصلح لعقد المؤتمر ولمبيت المندوبين وضمان طعامهم وشرابهم ونومهم طيلة أيام المؤتمر الأربعة.

وكان من محاسن هذه الفيلا أنها مجاورة لمسكن شقيقات زوجتي كوثر رحمون الذي استخدم لمبيت المندوبات. وكان ذلك مهماً جداً، لحماية بيت المؤتمر من جهة

ومراقبة التحركات حوله. كما كان مهماً لامتصاص الضجة التي يمكن أن تحدث نتيجة فترتي الغداء والعشاء.

وكان لابد من تأمين وسائل المنامة من فرش وأغطية، والتي أدخلت على دفعات مع كل ما يلزم من دفاتر وورق وأقلام وحوائج المطبخ (أزيلت هذه الفيلا حالياً وأقيم مكانها بناء من عدة طوابق).

العوامل البعيدة والقريبة لانعقاد المؤتمر

كان المؤتمر الثالث دورياً من حيث ترتيبه في لائحة مؤتمرات الحزب، ولكنه كان استثنائياً من حيث طروحه وأبحاثه ونتائجه وأثره على تطور الحزب.

لقد بدأ التفكير في عقد المؤتمر الثالث منذ أوائل الستينيات، وخاصة بعد الانفصال. فقد كان من الضروري بعد انهيار الوحدة السورية - المصرية وما تركته من تأثيرات عميقة لدى جماهير الشعب السوري، وبضمنهم الشيوعيون السوريون، وبعد المعركة التي اضطر الحزب لخوضها والخسائر المعنوية والمادية التي لحقت به، وبعد الإرباك الفكري الذي أحاط بالمفاهيم القومية، أن يعلن الحزب وقفة يراجع فيها هذه الأمور جميعاً، وكانت فكرة المؤتمر مسيطرة على العقول. وكان من المفروض أن يعقد المؤتمر في عام ١٩٦٨، غير أن الأحداث التي وقعت والمرض الذي أصاب الأمين العام فرضا التأجيل إلى عام ١٩٦٩. وكان المبادر للدعوة إليه هم الرفاق أعضاء المكتب السياسي وعدد من الرفاق أعضاء اللجنة المركزية.

تعود بعض أسباب الإصرار على الدعوة لعقد المؤتمر، إضافة إلى ما ذكرناه إلى وعي عدد وفير من الرفاق الذين كانوا سجناء في سجن المزة. وكانوا أثناء سجنهم يبحثون أوضاع الحزب، وبضمن ذلك عدم عقد المؤتمرات. وعندما خرجوا من السجن كان شعار عقد مؤتمر للحزب من أولوياتهم.

ولعب دوراً هاماً في عقد المؤتمر التحريض الذي قام به الرفاق السوفييت في مدرسة الحزب. وكانوا يشرحون أعمال مؤتمرات الحزب الشيوعي السوفييتي ويسألون عن مؤتمرات الحزب الشيوعي السوري ولا يحصلون على جواب. وكانوا يشيرون نتيجة ذلك إلى ضرورة عقد المؤتمرات.

وكان في صلب هذا الموقف، التباين الصريح الذي أخذ ينشأ بين المقولات التي قدمها خرشوف ومعاونوه، وبين أفكار تتعارض مع هذه المقولات كان يطرحها الرفيق خالد بكداش، وخاصة موقف خروشوف من عبد الناصر ومن دور القادة الوطنيين الذين برزوا في ذلك الحين، في آسيا وإفريقيا، واعتبار خروشوف التحالف معهم، أشبه بتحالف على النطاق الدولي بين الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين السائدة في هذه

البلدان. إضافة إلى مواقف خروشوف المتسائلة حول ضرورة الأحزاب الشيوعية في بلدان التحرر الوطني، وموضوعة التطور اللارأسمالي وغير ذلك.

وكان العاملون في القسم الدولي يشنون حملة على الرفيق خالد بكداش، وانعكست هذه الحملة في أشكال التعبئة التي قاموا بها مع الرفاق السوريين واللبنانيين الذين يدرسون في مدرسة الحزب بموسكو.

ولعب دوراً في عقد المؤتمر النقاشات التي بدأت باكراً في الحزب لوضع برنامج للحزب والحوارات حول القضايا القومية والموقف منها وحول الوحدة العربية ومكونات الأمة وحول العمل الفدائي.

كما لعب دوراً مهماً في تسريع عقد المؤتمر نشاط الرفاق اللبنانيين بعد استقلالهم وتجربتهم فكانوا يطرحون قضايا كثيرة تتصل بتاريخ الحزب وتقويم المنعطفات الأساسية فيه، ودور الرفاق القياديين وأساليب العمل الفردية وعبادة الفرد.

لكل هذا ولارتفاع دور الحزب في حياة البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذي أتينا على ذكر قسم هام منه في الصفحات السابقة، ونظراً لارتفاع مستوى وعي الرفاق ولارتفاع ثقافتهم الحزبية، وشعورهم بأن الحزب لم يعد ممكناً تسييره عملياً بالأساليب السابقة. لكل هذه الأسباب عقد المؤتمر.

ولكي أكون منصفاً من الناحية التاريخية فإن الذين ناضلوا بجد ومثابرة لإنجاز هذا العمل الهام كانوا كثر، أبرزهم ظهير عبد الصمد ودانيال نعمة وإبراهيم بكري وموريس صليبي ميشيل عيسى ويوسف نمر ورياض الترك ومراد يوسف وواصل الفيصل. وكان لي نصيبي الوافر في دفع هذا التطور إلى أمام وتحقيق عقد المؤتمر.

تعود بعض الأسباب البعيدة للدعوة إلى المؤتمر إلى الخلاف الذي نشب في مرحلة الانفصال، ورغبة الرفيق خالد بكداش في العودة إلى الوطن وطلبه تنظيم استقبال حافل له يضم بضعة آلاف، وعندما تعثر ذلك اتهم بعض عناصر القيادة بعرقلة عودته، وأنا بخاصة، واتصل برفاق معينين وقام بتحريضهم ضد القيادة الموجودة في سورية. ولما عاد إلى سورية عمل مع رفاق من القيادة منهم الرفيق ظهير عبد الصمد ودانيال نعمة وإبراهيم بكري لإبعادي عن القيادة ولكنهم لم يجاروه في موقفه هذا، ونشأ خلاف حول هذا الأسلوب في التعامل مع الرفاق. إضافة إلى ذلك أنه عند حدوث ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ غادر الرفيق خالد بكداش دمشق دون إعلام أحد من الرفاق المسؤولين في القيادة ووقع الرفاق في ورطة بمن يتصلون؟ وماذا يعملون ويتصرفون؟ حسب مسؤولياتهم ووجهوا الرفاق إما للاختفاء أو السفر أو البقاء في أماكنهم إلى أن أتتهم رسالة من الرفيق الأمين العام تعلمهم أنه أصبح في بيروت وأن عليهم العمل كذا وكذا، وكنت في ذلك الوقت في الخدمة الإلزامية.

بدأ التحضير للمؤتمر أكثر من سنة من الأعمال والأبحاث الضرورية.

في أواخر آذار عام ١٩٦٩ عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً استمعت فيه إلى تقرير من الرفيق موريس صليبي حول «التدابير الاقتصادية الضرورية لتوطيد التحولات التقدمية في سورية ولبناء المقدمات اللازمة لمرحلة الانتقال إلى الاشتراكية».

وكان هذا المشروع قد وزع على منظمات الحزب لإبداء ملاحظاتها عليه. وأخذت هذه الملاحظات بالحسبان، وأقر المشروع وتقرر رفعه إلى المؤتمر الثالث لمناقشته وإقراره.

وفي أواسط شباط جرى اجتماع لبحث القضايا التنظيمية، وخاصة مشروع النظام الداخلي. وكانت اللجنة المكلفة بوضع هذا المشروع قد عقدت سلسلة اجتماعات درست خلالها مشاريع النظم الداخلية لعدد من الأحزاب، وبضمنها الحزب الشيوعي السوفييتي، وتوصلت إلى صيغة معينة جرى عرضها على جميع المنظمات لإبداء الرأي فيها. واستمرت هذه المناقشة طويلاً، وعرض المشروع مع ملاحظات الرفاق على اللجنة المركزية وأدخلت عليه بعض التعديلات وقررت طرحه أمام المؤتمر الثالث للحزب.

وكانت اللجنة المكلفة بوضع البرنامج الزراعي برئاسة الرفيق دانيال نعمة قد أنهت أعمالها، وصاغت مشروع برنامج قدم إلى المؤتمر الثالث لإقراره.

في أواسط شهر شباط ١٩٦٩ عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً كاملاً حضره الأعضاء والمرشحون. واستمع الاجتماع إلى تقرير قدمته، حول الوضع الداخلي، وتطور النضال لإزالة آثار العدوان الإسرائيلي الإمبريالي الغادر على سورية والأردن ومصر. وقد بين التقرير تعاظم المقاومة الشعبية العربية للعدوان الإسرائيلي الإمبريالي، داخل المناطق المحتلة وخارجها، وما رافقه من جرائم ضد المواطنين العرب. كما بين التقرير موقف الحزب من العمل الفدائي، وأعلن دعمه لهذا الشكل من النضال الذي بدأ يتسع ويترك تأثيراً إيجابياً متنامياً في المعركة الدائرة لتحرير الأراضي العربية المحتلة. وشرح التقرير الأخطار المحدقة بالبلاد والمنطقة، نتيجة تفاقم المؤامرات الاستعمارية وازدياد احتمال تجدد الاعتداءات الإسرائيلية. ثم تحدث بإسهاب عن الجهود الصادقة التي يبذلها الاتحاد السوفييتي لرد هذه الأخطار وذلك بتأكيد العمل لتنفيذ قرار مجلس الأمن القاضي بالدرجة الأولى، بسحب القوات الإسرائيلية الغازية من جميع الأراضي العربية المحتلة إلى النقاط التي انطلقت منها.

أقرت اللجنة المركزية قرارين: الأول تحت عنوان النضال في سبيل إزالة آثار العدوان، والثاني حول الوضع الداخلي في البلاد.

إن الجديد في هذا التقرير وفي القرارات، هو طرح قضية العمل الفدائي وإعلان تأييد الحزب له ومساندته دون تحفظ وأنه أخذ يتسع ويترك تأثيراً متنامياً في المعركة.

استغرق اتخاذ هذا الموقف زمناً ونقاشاً طويلين، داخل المكتب السياسي وبين جماهير الرفاق في القواعد الحزبية.

لقد ظهر في البدء تحفظ تجاه العمل الفدائي، ثم تطور إلى تحفظ عليه كشكل وحيد من أشكال النضال، وكان ذلك خطوة هامة في السير نحو اتخاذ قرار التأييد والمساندة وأخيراً المشاركة. وكان النقاش يدور داخل الحزب ومع قوى أخرى خارج الحزب من أصحاب الرأي القائل إن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لإزالة آثار العدوان. وبدأ الحزب بعد ذلك بطرح فكرة ممارسة مختلف أشكال النضال، السياسي والدبلوماسي والمسلح، وأن هذه الأشكال تخدم بعضها بعضاً، فالكفاح المسلح وحده، لا يعطي نتائج عملية، دون عمل سياسي، ودبلوماسي، وهذان الشكلان لا يستطيعان التأثير دون الاستناد إلى كفاح مسلح.

إن إقرار تأييد العمل الفدائي، كان أمراً مهماً بالنسبة لمجموع الحزب ونشاطه وصلاته مع القوى الوطنية المختلفة، وتجنب عزلته. وكان خطوة هامة في التحضير للمؤتمر الثالث، لكي يكون أحد المكونات الأساسية للتقرير السياسي.

لقد بدأ العمل الفدائي يترك تأثيره لدى الجماهير الشعبية، وشرعت القوى السياسية المختلفة تمارس هذا الشكل من النضال. فقد شكل حزب البعث العربي الاشتراكي منظمة الصاعقة، وبدأت المنظمات الفلسطينية المختلفة تكون تنظيماتها الفدائية. وكان علينا، أن نستوعب هذا التطور، فقد أخذ يشكل ضغطاً داخلياً في الحزب، وأخذت تدور في إطاره نقاشات حادة بين الرفاق.

وكان هذا القرار خطوة هامة في تلافي وإزالة النظرة الخاطئة للعمل بين الفلسطينيين، إذ ظهر في بعض الأوقات، موقف غير واضح، تجاه قبول الفلسطينيين في الحزب، وكان ذلك خطأً فادحاً جداً. ولكن التطور اللاحق، ساعد كثيراً في إيجاد تنظيم فلسطيني خاص بالحزب وفي المشاركة في النشاط الفدائي، وإرسال عدة دفعات عن طريق الجبهتين: الديمقراطية والشعبية لتحرير فلسطين وسقوط عدد من شهداء الحزب في هذا الميدان، والمشاركة في معارك أيلول الأسود في الأردن ثم إقامة منظمة الأنصار.

كانت الوثيقة الأساسية التي استغرقت وقتاً طويلاً لإنهائها وتقديمها بالصيغة النهائية هي تقرير اللجنة المركزية عن نشاطها خلال الفترة التي سبقت المؤتمر. وقد وضع الرفيق خالد بكداش مشروعاً أولياً ناقشه المكتب السياسي أكثر من مرة وأدخل عليه الكثير من التعديلات والأفكار. وكان الرفيق ظهير عبد الصمد غائباً خلال هذه

المناقشة وعند عودته واطلاعه على المشروع وضع عدداً من الملاحظات، وجرى بحثها لاحقاً. وقد مانع الرفيق خالد بكداش في قبول عدد منها، إلا أنها أقرت في النهاية.[٢] ثم أحيل إلى اللجنة المركزية التي ناقشته خلال يومين كاملين وأضافت عليه الكثير من الملاحظات والتدقيقات وحسنته، وشكلت من الرفيقين ظهير عبد الصمد ومراد يوسف لجنة لإدخالها ووضع الصيغة النهائية للتقرير. وأعلن في بداية الجلسة الأولى أن الأمين العام سيلقي تقرير اللجنة المركزية.

جرت أعمال التحضير للمؤتمر في جميع منظمات الحزب وعقدت المؤتمرات لانتخاب المندوبين، وانتخب ١٠١ مندوب، غاب منهم مندوب واحد بقرار حزبي هو الرفيق يعقوب كرو.

حضر المؤتمر بصفة ضيوف ممثل عن الحزب الشيوعي العراقي هو الرفيق زكي خيري، وممثل عن الحزب الشيوعي الأردني هو الرفيق فهمي السلقيني.

عقد المؤتمر تحت شعار «النضال الوطني في سبيل تصفية آثار العدوان الإسرائيلي الاستعماري، في سبيل توطيد النظام التقدمي في سورية العربية، ومن أجل الاشتراكية والوحدة العربية».

وثائق المؤتمر الثالث

كانت الوثيقة الأساسية هي تقرير اللجنة المركزية عن أعمالها خلال الفترة الماضية. تناول هذا التقرير بالتحليل معاني شعار المؤتمر، وأكد من أول صفحة أن ماضي الحزب يتضمن منجزات وانتصارات ومواقف وأخطاء. ويستشهد بمقولة للينين بـ «أن الإنسان الذي لا يخطىء لم يخلق ولن يخلق»، إنما المهم إدراك الأخطاء والإسراع إلى تلافيها. ويستعرض ماضي الحزب وشهداءه ويعددهم ويعلن الانحناء باحترام أمام ذكرى الرفيق الشهيد البطل فرج الله الحلو. ثم يتناول الموضوعة الوطنية والأممية ويعلن «ندرك جيداً نحن الشيوعيين السوريين أن الإطار الأولي الذي نعمل فيه هو وطننا سورية، غير أننا في الوقت نفسه ندرك أن سورية العربية هي إحدى الدول العربية، هي جزء من الوطن العربي الكبير. وينتقل بعد ذلك إلى النظرة الطبقية والموقف الطبقي وأن الحزب ينظر إلى موقف كل حزب كل فئة من وجهة نظر طبقية.

ويتناول بعد ذلك الوحدة العربية، ويشرح مواقف الحزب منها. ويتحدث كيف كان هذا النضال في ظل الاحتلال الاستعماري من خلال شعار التضامن بين الشعوب

---

[٢] ـ كان الرفيقان ظهير عبد الصمد ويعقوب كرو في موسكو يمثلان الحزب في اللجنة التحضيرية لاجتماع الأحزاب الشيوعية والعمالية، وقد عاد الرفيق ظهير عبد الصمد وتابع عمله في التحضير للمؤتمر، بينما بقي الرفيق يعقوب كرو في موسكو لمتابعة أعمال اللجنة التحضيرية وغاب عن حضور المؤتمر.

العربية في النضال لتحررها من الاستعمار وانتزاع استقلالها الوطني التام الكامل. ثم بعد الاستقلال برز شعار الوحدة العربية كشعار عملي. وجاء في التقرير «إننا أول حزب شرح وأعلن ما في حركة الوحدة العربية من قوة وحيوية، إذ قال بأنها ليست مرتبطة بإرادة أي فرد أو فئة، بل هي قوة منبثقة من قلب المجتمع السوري نفسه» ومعنى هذا الكلام هو أن تحليل الوضع في العالم العربي على أساس تعاليم الماركسية اللينينية يؤدي حتماً إلى اعتناق شعار الوحدة العربية. فهو إذن شعار تمليه علينا مبادؤنا ذاتها، وكل ادعاء آخر بأننا ضده هو هراء. فالشيوعيون لا يمكن أن يقفوا عائقاً أمام التطور الموضوعي بل يجب أن يعملوا لتسهيل إنجازه على أكمل وجه. وأشار التقرير إلى أن القضية الرئيسية بيننا وبين السلطات من عهد الوحدة هي قضية وجود أو عدم وجود الحزب الشيوعي.

تحدث التقرير عن الوطنية والأممية وناقش مواقف القوميين الذين ينتقدون الحزب بأنه لا يعطي القضايا الوطنية ولا القومية الاهتمام الكافي، أو أن الاهتمام عندنا بالوطن والوطنية وبالمصالح القومية العربية هو مؤقت تكتيكي وعابر، ويقول: «إننا لا نعتقد أن الأمة العربية وما يرتبط بمفهومها من وطن وقومية (بمعنى الانتماء القومي) قد بدأ مع الرأسمالية، فهي بالتالي ستزول بزوالها، الأمة ليست وليدة الرأسمالية ولا من صنع البرجوازية إن الأمة وما يرتبط بها من مفاهيم وأصناف هي وليدة تطور طويل بدأ قبل الرأسمالية وسيبقى بعدها.

«إن تعاليم الماركسية اللينينية تعلم الشيوعيين أن عليهم أن يعملوا ويناضلوا في نطاق الأمة، وذلك ليس في ظل الرأسمالية فقط وليس خلال المرحلة الانتقالية إلى الاشتراكية بل وبعد بناء الاشتراكية، بل وحتى بعد انتصار الاشتراكية على النطاق العالمي.

هكذا إذن خلال مدة طويلة ستبقى الأمة والقومية الإطار الذي يعمل ضمنه الشيوعيون وفي إطار الحديث عن قضية فلسطين وموقف الحزب المبدئي ضد الصهيونية وضد الهجرة إلى فلسطين يوضح الموقف من التقسيم» عندما برز مشروع تقسيم فلسطين شن الحرب نضالاً شديداً لا هوادة فيه ضد كل مشروع للتقسيم مهما كان شكله ونوعه ومسمياته. وفي مجلس الأمن طالب الرفاق السوفييت بدولة ديمقراطية موحدة، وأعلن حزبنا تأييده. وعندما صدر قرار التقسيم وافق الحزب على موقف الاتحاد السوفييتي ودافع عنه، وأكد أن الاتحاد السوفييتي كان وسيبقى صديقاً للعرب.

ويتناول التقرير بعد ذلك الموقف من الاتحاد السوفييتي، ويؤكد موقف الأمانة الثابتة للصداقة مع أول دولة اشتراكية. ويرد على الاتهامات، ويعلن أن الموقف من

الاتحاد السوفييتي ليس فقط قضية تتعلق بالأممية البروليتارية، بل كذلك قضية وطنية من الدرجة الأولى بالنسبة إلينا.

ويأتي بعد ذلك فصل الأممية البروليتارية ومعناها وموقف حزبنا الشيوعي السوري. ثم يأتي موضوع «من الجبهة الوطنية إلى الجبهة الوطنية التقدمية» ويبين فيه تأييد الحزب لمواقف البرجوازية الوطنية ما دام يضعف مواقع الاستعمار أو ينتزع بعض امتيازاتها في مصلحة فئة أو طبقة من الفئات والطبقات الوطني. وعدد التعاون الجبهوي في سبيل عروبة إسكندرون.. وخلال مرحلة النضال من أجل الجلاء والاستقلال، وفيما بعد خلال مرحلة النضال ضد مؤامرات الاستعمار ومشاريعه الخارجية تحت شعار توطيد الاستقلال وحمايته.

وفي أعوام ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ خطت الجبهة الوطنية خطوات إلى أمام وتألفت جبهة في البرلمان من ممثلي الحزب الشيوعي وحزب البعث والكتلة الديمقراطية (كتلة خالد العظم) ومن الفئات المعارضة للاستعمار من البرجوازية الوطنية ومن بعض الشخصيات المستقلة، وبينها عدد من كبار ملاك الأراضي. وبعد العدوان الثلاثي على الشقيقة مصر تألفت لجنة عليا للتجمع الوطني من ممثلي الأحزاب والهيئات المذكورة وكذلك من ممثلي الجيش الوطني. وبعد تأميم عدد كبير من الشركات والمؤسسات الصناعية ونقلها إلى ملكية الدولة انتقل الحزب من شعار الجبهة الوطنية إلى شعار الجبهة الوطنية التقدمية، وشرح التقرير هذا التحول: «جبهة وطنية: أي لا تزال موجهة ضد الاستعمار وضد حليفته الإقطاعية، لأن ما ينبغي في هذا المجال لم يتم تجاوزه بعد. جبهة تقدمية: أي أنها موجهة ضد الرأسمالية الكبيرة، ومن أهدافها السير في طريق التقدم الاجتماعي وتهيئة المقدمات الضرورية لمرحلة الانتقال إلى الاشتراكية. وذكر التقرير أن الانتقال من شعار إلى آخر لا يتم بسهولة وبصورة عفوية وإنما عبر نقاش فكري جاد.

وبعد عدوان الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ حاول البعض العودة إلى شعار الجبهة الوطنية وحذف التقدمية بحجة أن قنابل الصهاينة لا تفرق بين يميني ويساري، ولا بين رجعي وتقدمي. ولكن الحزب أصر على شعار الجبهة الوطنية التقدمية، وأن قواها الأساسية هي جميع الأحزاب والقوى التقدمية التي تكونت تاريخياً في سورية والتي تؤيد التحولات التقدمية في الزراعة والصناعة والتجارة.

يأتي بعد ذلك فصل «النضال المطلبي في سبيل الحريات الديمقراطية في سبيل مطالب العمال والفلاحين وسائر الكادحين». وقد أوضح هذا الفصل نضال الحزب في سبيل الشعارات الاستراتيجية: النظام الاشتراكي، وإلغاء استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وذكر منجزات الاتحاد السوفييتي في هذا الميدان.

غير أن الحزب لم يكتف بذلك، ولابد له في جميع المراحل والعهود من خوض معارك تكتيكية من شأنها تدريجياً أن تجلب الجماهير إلى المعارك الاستراتيجية الحاسمة. إذن لابد من خوض النضال المطلبي للعمال والفلاحين وسائر الكادحين، وعدد النضالات العمالية والنضالات الفلاحية.

ويتبع هذا الفصل مقطع واسع حول نشاط الحزب في مختلف المراحل، بدأت من المؤتمر الوطني الثاني عام ١٩٤٤ إلى المؤتمر الوطني الثالث عام ١٩٦٩. وتعمق في تلك الفترة النضال في سبيل الجلاء والاستقلال، ثم النضال لحماية الاستقلال مقترناً بالنضال من أجل الحريات والإصلاحات والاستقلال الاقتصادي. ويقول التقرير نظراً لعجز البرجوازية الوطنية وبسبب نمو الطبقة العاملة عددياً وفكرياً وللدور المحدود الذي يقوم به حزبنا في الحركة الوطنية التحررية والسير بها إلى أمام وعلى أرضية النكبة التي حلت بالعرب في فلسطين نتيجة خيانة بعض الحكام العرب وعجز البعض الآخر، لهذه الأسباب كلها بدأ منذ عام ١٩٤٩ عهد الانقلابات العسكرية.

في عام ١٩٥٤ ونتيجة انهيار ديكتاتورية الشيشكلي، جرت لأول مرة انتخابات نيابية كانت أكثرها حرية، ونجح عدد كبير من النواب الوطنيين الديمقراطيين والتقدميين بينهم نائب شيوعي انتخبته العاصمة دمشق.

ثم يأتي التقرير على مختلف المراحل التي تمت من عام ١٩٥٧ إلى عام ١٩٦٣ ويقوم المرحلة بأنها لأول مرة منذ زمن طويل احتلت سورية مكاناً طليعياً في حركة التحرر العربي بمجموعها، ومكانة مرموقة دولياً. ولأول مرة برز حزبنا إلى مسرح الحياة السياسية والنشاط الوطني العام قوةً لها وزن ملموس وأثر مرموق. وعدد التقرير الأخطاء التي وقع فيها الحزب خلال المراحل التاريخية السابقة كما يلي:

١ ـ المبالغة في دور البرجوازية الوطنية وكذلك في تطمينها.

٢ ـ مبالغة في دور البرلمانية البرجوازية.

٣ـ عدم وجود الكادر الكافي، وعدم تثقيف آلاف الشيوعيين بالحد الأدنى من المعلومات الضرورية للمناضل الشيوعي.

وتلقت منظمات الحزب في هذه المرحلة ضربات شديدة في عام ١٩٥٩، وقصة الوحدة السورية المصرية ونتائجها.

ويتحدث التقرير فيما بعد عن مرحلة ما بعد ٢٣ شباط وعن التعاون الذي نشأ بين الحزب الشيوعي وحزب البعث العربي الاشتراكي، ويقول:

«لقد تعرضنا لضغط وتساؤل قويين، خصوصاً أن ضغط العناصر اليمينية في حزب البعث أدى إلى تعقيدات كانت تتمثل باستمرار اعتقالات الشيوعيين. كما أن العديد من الرفاق كانوا يحكمون على التعاون مع البعث وجدواه من خلال القضايا

المحلية الضيقة، مثلاً سلوك هذا البعثي أو ذاك لا على أساس مجموع تطور الوضع في الحكم وفي البلاد. «رغم ذلك كله كنا ندرك أهمية التعاون الذي تم، وإن لم يكن كما ينبغي. وكنا ننظر إليه خلال حركته وتطوره الداخلي العميق ليس على أساس هذه الظاهرة المنعزلة هنا أو هذه الحادثة الفردية هناك، بل على أساس مجموع التطور وسير القضايا الكبرى في البلاد. ولذلك تحملنا الكثير من النقد، بل حتى من الهجوم في سبيل صدقه، مع سعينا المستمر ونضالنا الدائب ضد الجهات السلبية في أدائه.

وعند تقويم المرحلة وصفها التقرير بأنها «مرحلة إنجاز الثورة الوطنية الديمقراطية ضد الاستعمار والإقطاعية، والسير بها إلى نهايتها وتوسيعها وتعميقها لبناء المقدمات الضرورية للسير نحو الاشتراكية للسير في طريق التطور الاشتراكي».

ويبين التقرير فيما بعد هدف البرنامج الزراعي المطروح ومشروع التدابير الاقتصادية، ويقول إن تحقيق جميع هذه المهمات يتطلب:

- إطلاق الحريات للعمال والفلاحين وسائر الكادحين، وإطلاق الحريات للقوى والأحزاب المؤمنة بالاشتراكية.
- جبهة وطنية تقدمية منظمة شاملة.
- أن يتطور ويزداد وزن الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين وسائر الكادحين في تحديد السياسة العامة للبلاد وفي الحكم.

أتى التقرير فيما بعد على فصل بعنوان «الخامس من حزيران والمهمة الأساسية الكبرى لإزالة آثار العدوان».

ومما جاء في هذا القسم:

«إننا لا نريد الإسهاب في شرح موقفنا إذ ذاك، لجماهير الشعب، وجميع الوطنيين يعلمون جيداً أن الحزب الشيوعي السوري كان في قلب المعركة. وقام الشيوعيون بواجبهم بوصفهم مناضلين ومقاتلين في جميع الميادين التي كانت في متناولهم سواء بين الجماهير أم في مختلف اللجان الشعبية أم في فصائل الجيش الشعبي في المدن والقرى أم في الدفاع المدني والإسعاف الشعبي، أو في أي ميدان دعاهم إليه نداء النضال والجهاد. وقد سقط عدد من رفاقنا شهداء في ساحة الشرف.

«وفقاً لقرار قيادة الحزب قام عدد من الرفاق أعضاء المكتب السياسي وأعضاء اللجان المنطقية والكادرات الحزبية بتعبئة صفوف الحزبيين، وقرروا البقاء في الأماكن المهددة بالاحتلال من أجل الدفاع عنها، ومن أجل مقاومة العدو من الداخل في حال نجاحه في الاحتلال... وقاموا بإبلاغ السلطات رسمياً بذلك، كما أبلغوا به الأصدقاء.

وبعد أن أشار التقرير إلى دور رفاقنا في القنيطرة، وإلى دور النساء والفتيات الشيوعيات، قال:

«وينبغي القول إن حزبنا وإن كان لم يقل علانية كل ما يعلمه وكل ماهو مقتنع به فيما يتعلق بأسباب نكسة حزيران المؤلمة.. إلا أنه قال مع ذلك كثيراً، وأشار إلى أنها لم تكن قضية نقص بالسلاح ولا قضية عدم استعداد ولا قضية تفوق ولا قضية عوامل عربية ودولية فقط، بل قلنا بصراحة إن بلادنا بسبب عوامل تتعلق بالحكم والقيادة لم تستطع أن تستفيد من كل ما كان متوفراً لها من إمكانات داخلية ودولية».

وتحدث التقرير عن وجود تيار ثوري عميق بين سائر الجماهير الشعبية، وأن في رأس مهمات القوى التقدمية سواء أكانت داخل الحكم أم خارجه، أن تأخذ هذا التيار بالحسبان، وأن تتحد في جبهة وطنية تقدمية للذهاب صفاً واحداً لملاقاته.

ثم يتحدث عن دور الانقلابات العسكرية الرجعية، ويقول:

«إن الخط العام الذي قام به الجيش في تطور سورية كان، من حيث الأساس، دوراً وطنياً وتقدمياً قام على التضامن والاتحاد بين الجيش والشعب لإحباط مؤامرات الأحلاف ومشاريع الاستعمار المختلفة وللسير في طريق التحولات الاقتصادية والاجتماعية التقدمية وحمايتها.

بعد ذلك تناول التقرير فصل الحزب، وأبرز ما جاء فيه هو الانتقاد الذاتي الذي قدمه الرفيق خالد بكداش أمام المؤتمر عن غياب المؤتمرات من حياة الحزب.

جاء في هذه الفقرة ما يلي:

«ولكن كل هذه المنجزات والانتصارات، فيما يتعلق بالطابع الجماهيري للحزب أو بصلته بالعمال، أو بعلاقته بالفلاحين الفقراء، وبعمله بين النساء والشباب، أو بالعمل في الميدان الفكري، أو ما يتعلق بالكادر والعمل التثقيفي، أو ما يتصل بالتطور والتقدم الواقعي في هذه الميادين، قد تمت عبر نضال شديد ومن خلال الانتقاد والانتقاد الذاتي. ولاشك في أن هذه النجاحات، هي دون المستوى المطلوب، ولاشك في أنها كان من الممكن أن تكون أحسن وأفضل، وبإمكان حزبنا اليوم بجهوده الجماعية من القاعدة إلى القمة أن يجعلها دائماً وباستمرار أحسن وأفضل. فما هي الأسباب التي حالت دون أن يكون حزبنا أقوى وأمتن، إنها أسباب سياسية وتنظيمية وذاتية، ومنها:

١. تبني الحزب بعض مواقف فكرية وسياسية غير صحيحة خلال فترة من الوقت، كموقفه من التأميم أيام الوحدة، أو في مرحلة الانفصال مثلاً.

٢ـ عدم عقد المؤتمر خلال ٢٥ عاماً. وقد أدى ذلك عملياً إلى خرق العمل الجماعي ومبادىء المركزية الديمقراطية وعدم احترام الهيئات الحزبية. كما أدى إلى ضعف دور اللجنة المركزية، وخاصة أن أكثر أعضائها لم ينتخبوا انتخاباً، وإنما جرى تعيين بعضهم من قبل المكتب السياسي. كما أدى إلى شبه وصاية المكتب السياسي

على اللجنة المركزية وبروز العمل الفردي والإداري وحلوله أحياناً محل الهيئات والعمل الجماعي.

ولاشك في أن عدم عقد المؤتمر ليس مصادفة، وإنما هو خطأ كبير طبع الحزب بطابعه طوال فترة طويلة من الزمان، وسببه الأساسي هو عدم تقدير أهمية الانتقاد والانتقاد الذاتي تقديراً كافياً، بل وحتى الخوف منهما والثقة المبالغ بها بالنفس، وبإمكان تجنب الأخطاء والمسؤولية في ذلك تقع عموماً على اللجنة المركزية، وعملياً على المكتب السياسي وعلي أنا الأمين العام بوجه خاص.

استغرقت مناقشة التقرير اليوم الثاني للمؤتمر بكامله. وقد وضعت ملاحظات عديدة تناولت القضايا السياسية والفكرية والتنظيمية وفي مقدمتها ملاحظات حول القضية الفلسطينية وطرق حلها وأشكال النضال، وبضمن ذلك التحرك من الجولان والموقف من قرار مجلس الأمن والعمل الفدائي وتحليل الصهيونية.

كما تناول النقاش موضوع الوحدة العربية وطرق تحقيقها، وعلاقة الوحدة بالاشتراكية.

وتركزت المناقشات حول القضايا الحزبية على الانتقاد الذاتي الذي ورد في التقرير حول عدم عقد المؤتمرات خلال ٢٥ عاماً والمطالبة بالالتزام بمواعيد المؤتمرات.

وقد أكد عدد من المندوبين على ناحية، وهي عدم اعتبار التقرير السياسي أساساً لوضع برنامج الحزب القادم، وأن البحث في البرنامج وأفكاره يتطلب بحثاً جديداً.

ناقش المؤتمر البرنامج الاقتصادي والبرنامج الزراعي وأقرهما بالإجماع، كما ناقش النظام الداخلي وأقره أيضاً بالإجماع.

تلقى المؤتمر عدداً كبيراً من التحيات، وقد عكس ذلك النهوض الواسع في الحركة الشيوعية العالمية وفي البلدان العربية، وتعداد مصادر التحيات يبرز هذا الواقع بشكل جلي.

عربياً:

الحزب الشيوعي اللبناني.

حزب الطليعة الاشتراكية الجزائري.

الحزب الشيوعي في قطاع غزة.

الحزب الشيوعي العراقي.

الحزب الشيوعي الأردني.

دولياً: تحيات الأحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية: الاتحاد السوفييتي، بلغاريا، كوبا، رومانيا، تشيكوسلوفاكيا، الحزب الاشتراكي الألماني الموحد، حزب العمال البولوني الموحد، حزب العمال الاشتراكي المجري، حزب العمل الكوري.

من البلدان الرأسمالية: فرنسا، الأرجنتين، الهند، توده إيران، جنوب إفريقيا، بريطانيا، فنلندا، حزب العمل السويسري، تركيا.

اتخذ المؤتمر عدة قرارات

. تحية إلى المقاومة العربية في الأراضي المحتلة، وقد جاء فيها: «إن المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي السوري ينظر باعتزاز إلى حركة المقاومة العربية، ويعتبر نضالها جزءاً هاماً وأساسياً من نضال حركة التحرر الوطني العربية، لإزالة آثار العدوان الإسرائيلي الاستعماري وتحرير الأراضي العربية المحتلة واستعادة حقوق العرب في فلسطين.

عاش نضال المقاومة العربية من أجل تحرير الأراضي المحتلة واسترداد الحقوق المغتصبة لعرب فلسطين.

. تحية إلى حزب الشغيلة الفيتنامي، ومما جاء فيها:

إن نضالكم على رأس شعبكم الباسل، يلهمنا نحن الشيوعيين السوريين، ويلهم شعب بلدنا وسائر البلدان العربية الشقيقة، في معركتنا ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية الداخلية، وفي سبيل إزالة آثار العدوان الإمبريالي ـ الإسرائيلي، وفي سبيل السير بوطننا في طريق التحولات الاجتماعية التقدمية وخلق المقدمات الضرورية لتحقيق آمال عمالنا وفلاحينا ومثقفينا الشرفاء في بناء وطن اشتراكي مزدهر.

. رسالة إلى الأحزاب الشيوعية والقوى التقدمية في العالم.

وقد تركزت على فضح الصهيونية والعدوان الإسرائيلي على البلدان العربية ومساندة الولايات المتحدة لذلك. وأشارت إلى خطر الصهيونية وتوسعها المستمر حتى إقامة دولة إسرائيل الكبرى، وطالبت الرسالة بالتضامن العالمي مع نضال الشعوب العربية لإزالة آثار العدوان، وفضح عدوانية إسرائيل.

. ووجه المؤتمر تحية إلى الحزب الشيوعي السوفييتي.

. كما وجه تحية إلى عائلة الرفيق الشهيد فرج الله الحلو.

وصدر في نهاية المؤتمر بلاغ يوجز جميع أعمال المؤتمر، وبضمنه قرار اللجنة المركزية حول وضع برنامج للحزب.

بعد إنجاز المناقشات السياسية والتنظيمية وإقرار جميع الوثائق، بدأت عملية التصويت، وانتخاب اللجنة المركزية. وقدمت قائمة متفق عليها مسبقاً لعدد من المرشحين لعضوية اللجنة المركزية وعضوية مرشحيها. وقد نجح نتيجة التصويت

كأعضاء في اللجنة المركزية الرفاق: خالد بكداش، إبراهيم بكري، ظهير عبد الصمد، يوسف الفيصل، موريس صليبي، دانيال نعمة،مراد يوسف، عمر السباعي، رمو شيخو، عمر قشاش، بدر الطويل، خالد حمامي، رياض الترك، واصل الفيصل، أحمد فاضل، ميشيل عيسى. ونجح بصفة مرشحين الرفاق: يوسف نمر، محمد الحبال، عبد الوهاب رشواني، فايز الفواز، ملكي عيسى، خليل الحريري. وانتخب الرفيقان وصفي البني ومراد القوتلي للجنة المراقبة، وحاز الرفيق عمر قشاش على مجموع الأصوات (١٠٠ صوت) وحجب صوتان عن الرفيق خالد بكداش، وكان ذلك مثار قلق كبير لديه، وحاول معرفة من حجب صوته عنه، وبقي فترة يلاحق هذا الأمر. والرفيقان اللذان حجبا صوتهما عنه هما الرفيقة الدكتورة نجاح الساعاتي، والرفيق نوري حجو الرفاعي.

اجتمعت اللجنة المركزية الجديدة وانتخبت الرفيق خالد بكداش أميناً عاماً، وانتخبت إلى جانبه باقي أعضاء المكتب السياسي، وهم: إبراهيم بكري، ظهير عبد الصمد، يوسف الفيصل، دانيال نعمة، رياض الترك، عمر قشاش.

نتائج المؤتمر الثالث وآثاره

حقق المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي السوري نتائج هامة في مختلف المجالات الفكرية والسياسية والتنظيمية، وقد ساهم المؤتمر بدفع عمل الحزب إلى الأمام وأحدث جواً حماسياً بين الرفاق، وترك أصداء إيجابية على المستوى الوطني بين القوى السياسية والجماهير الشعبية.

أهم نتائج المؤتمر الثالث

يمكن تلخيص أهم النتائج بما يلي:

١. كرس المؤتمر فكرة عقد المؤتمرات الحزبية بشكل دوري. وقد تتالت المؤتمرات بفاصل ٤ ـ ٥ سنوات واحداً بعد الآخر. وعقد المؤتمران الرابع والخامس في إطار الحزب الموحد، ومنذ المؤتمر السادس، بدأ عقد مؤتمرات منفصلة لكلا جناحي الحزب.

لقد حرص النظام الداخلي على وضع نص يجعل عقد المؤتمر أمراً ملزماً ويجعل من المستحيل على أي قائد أو سلطة في الحزب تأجيل أو منع عقد المؤتمر خارج إطار هذا النص.

وقد نصت المادة الخامسة والثلاثون من النظام الداخلي الذي أقر على أولاً: يعقد المؤتمر الدوري للحزب كل أربع سنوات بدعوة من اللجنة المركزية، ولا يحق للجنة المركزية أن تؤجل أو تؤخر موعد انعقاده إلا في حالات قاهرة ومعللة أمام اللجان

المنطقية، كما يحق لها في بعض الحالات أن تأخذ المبادرة للدعوة إلى عقد مؤتمرات استثنائية.

- وفي كل الأحوال لا يجوز أن تتجاوز فترة ما بين المؤتمرين مدة خمس سنوات، مهما كانت الظروف. وفي حال عدم دعوة اللجنة المركزية لعقد المؤتمر بعد ذلك، أي بعد خمس سنوات، يحق لنصف المنظمات المنطقية على الأقل، على أن تكون ممثلة لأكثرية أعضاء الحزب، أن تطلب من اللجنة المركزية الدعوة لعقد المؤتمر خلال ستة أشهر على الأكثر، فإن لم تفعل، دعت هي، أي المنظمات إلى عقد المؤتمر...

ورغم ما في هذا النص من تعقيد وصعوبة في التنفيذ، إلا أنه أقر في المؤتمر، تحت ضغط الحالة النفسية في غياب المؤتمرات، وتكرر ذكره في عدد من الأنظمة الداخلية التي أقرت فيما بعد.

٢ . عاد الحزب إلى أسلوب البرامج. فقد أقر برنامجاً اقتصادياً، وآخر زراعياً، وقرر صياغة برنامج عام للحزب، يبدأ العمل به بعد المؤتمر وكانت أول وثيقة برنامجية قد صدرت في عام ١٩٣١، وصدر عن المؤتمر الوطني عام ١٩٤٤ ميثاق وطني، ولم تصدر برامج محددة حتى عقد المؤتمر الثالث.

٣ـ أرسى المؤتمر قواعد وتقاليد مبدئية في حياة الحزب الداخلية وتعمقت الديمقراطية الداخلية، وأخضعت عبادة الفرد إلى نقد شديد، وبدأت المظاهر الأولى لفكرة التغيير تأخذ طريقها إلى قناعات الرفاق.

٤ . عالج المؤتمر عدداً واسعاً من القضايا الفكرية والسياسية: الوحدة العربية، والقضية القومية، وقضية فلسطين والعمل الفدائي، وحدد المرحلة التي تجتازها سورية. وعالج موقف الحزب الشيوعي من الحكم، ودعا إلى وحدة حزب البعث على أساس سياسة ٢٣ شباط وتحدث عن الاشتراكية ودور الجيش وصاغ الأسس الثلاثة التي سار عليها الحزب، وقد كتب خالد بكداش مقالةً مطولةً نشرتها «نضال الشعب» في عدد كامل (العدد ١٣٤ أواسط شباط ١٩٧٠)، رد فيه على الادعاءات التي بدأت تنتشر بأن الحزب الشيوعي بدأ العمل لابتلاع الآخرين، وأن الحزب يتطلع إلى استلام السلطة!.

٥ . أبرز المؤتمر وجه الحزب الوطني في تصديه لمختلف أشكال التآمر والعدوان على سورية، وفي معالجة آثار عدوان الخامس من حزيران. وكان هذا الموقف بارزاً إلى جانب الموقف الأممي والدعوة إلى ترسيخ الصداقة مع الحزب الشيوعي السوفييتي والأحزاب الشيوعية في العالم. وإلى موقفه الطبقي عند معالجة القضايا الاقتصادية والزراعية.

٦ ـ وإلى جانب النجاحات في شحذ همم الرفاق، أظهر المؤتمر الخلافات حول عدد من المفاهيم المتعلقة ببرنامج الحزب المقبل. وكان أبرز مظهر لذلك هو قرار المؤتمر بعدم اعتبار التقرير السياسي أساساً لوضع برنامج الحزب، وقد بدأت الخلافات الفكرية تظهر تدريجياً وتطورت لاحقاً وأدت إلى حدوث أول انقسام كبير في الحزب الشيوعي السوري عام ١٩٧٤.

الفهرس



يوسف الفيصل الضابط في الجيش السوري



مؤتمر القارات الثلاث في كوبا



خالد بكداش ويوسف الفيصل



نقولا شاوي ـ خالد بكداش ـ يوسف فيصل في موسكو عام ١٩٥٦



بعد وضع إكليل على ضريح لينين ١٩٦٥:خالد بكداش يوسف الفيصل - عمر قشاش



أنطون ثابت - نظيم الموصلي - حسين مريود - صوايا صوايا - عبد الكريم زهور
صبحي الخطيب - يوسف الفيصل

المؤتمر ١٨ للحزب الشيوعي الفرنسي



يوسف الفيصل وشقيقه واصل الفيصل



في زيارة معمل فلاديمير إيليتش لينين لإنتاج الآلات الكهربائية بمناسبة الذكرى الخمسين لثورة أكتوبر
يوسف الفيصل وعمر قشاش

وبرغم أنني لا أزعم القدرة على تفهم - غير سطحي - للواقع السوري عبر الفترة التي تتناولها هذه المذكرات أو بالدقة الذكريات - وهناك فارق بين الكلمتين - إلا أنني إذ مضيت أستمتع بكتابة رصينة ومدققة ومحاذرة مضت أمامي كقطع من نسيج متصل جيد الصنع، جميل النسج، فقد خفق قلبي كطفل شقي وهو يتابع خيطاً ذهبياً يمتزج مع ألوان الطيف المنسوجة معا، ويتألق متمايزا بنضال وتضحيات وأناقة لم تجعل منه نشازا أو منفصلا عن مجمل النسيج. إنه الخيط الذهبي الذي يندمج في النسيج متمايزاً أو حتى متناقضاً لكنه يعطي النسيج بهاء ونقاء، ويمنحه نوعاً من هذا الجمال الأبدي التكوين والإبداع، ولقد يتبدى أنه خيط.. مجرد خيط من خيوط أخرى عديدة بغير حصر، لكنه يتألق وكأن النسيج لا يكتمل بهاءؤه إلا به، أو حتى لا يكون بدونه، وهكذا امتلكت يا أبا خلدون صنعة النسج الذكي والمكتوب، وهي صنعة لا يمتلكها إلا القليلون.

د. رفعت السعيد